أسس الجيـوبـولتيكـا

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

الكسندر دوغين

أسس الجيوبولتيكا

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

تعريب وتقديم

الدكتور عماد حاتم

دار الكتاب الجديد المتحدة

عنوان الكتاب الأصلي

ОСНОВЫ
ГЕОПОЛИТИКИ

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الروسية سنة 1999، موسكو، أركتوغيا تستنتر

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج ـ طابق 5.
خليوي: 933989 ـ 3 ـ 00961 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 – ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان.
بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb – الموقع على الشبكة www.oeabooks.com

ألكسندر دوغين
أسس الجيوبولتيكا تعريب: د. عماد حاتم
720ص، 17 × 24 سم
ردمك: (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-218-7
رقم الإيداع المحلي: 2004/5933

ترجم هذا الكتاب إلى اللغات التالية: الجورجية والصربية والرومانية والتركية والعربية وبشكل جزئي: الإيطالية والفرنسية والإنكليزية والإسبانية والفارسية والأفغانية

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

توزيع **دار أويا** للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر،
هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571 . 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218. – ص.ب: 13498،
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

تقديم

قبل عام واحد من غروب شمس القرن الماضي صدرت عن دار «أركتوغيا-تسنتر» في موسكو الطبعة الثالثة من كتاب «أسس الجيوبولتيكا»، «مستقبل روسيا الجيوبولتيكي» لمؤلفه ألكسندر دوغين. ويصف المؤلف عمله بقوله: «الكتاب ـ أول مؤلَّف تعليمي باللغة الروسية في علم الجيوبولتيكا. عرضت فيه بمنهجية وتفصيل أسس الجيوبولتيكا، نظريتها وتاريخها. كما إنه يغطي ميداناً واسعاً من المدارس والرؤى الجيوبولتيكية والقضايا العملية. ولأول مرة تصاغ العقيدة الجيوبولتيكية لروسيا.

إنه الدليل الذي لا بديل عنه بالنسبة لجميع من يتخذون القرارات في الميادين الأعظم أهمية في الحياة السياسية الروسية ـ من السياسيين وأصحاب المشاريع، والاقتصاديين والمصرفيين والدبلوماسيين والمحللين وعلماء السياسة ومن في حكمهم».

والكتاب غني بموضوعاته وبجدّة الآفاق التي يرتادها المؤلف وتخريجاته التي تجمع بين الرؤية المعاصرة والمعطيات التاريخية البعيدة وتأسيس الأطروحات السياسية أحياناً على خليط طريف من الخصائص الإتنية والمعتقدات الدينية والتكوين الروحي للأفراد والشعوب، يضاف إلى هذا طرافة تقسيم الكتاب والعناوين الكثيرة التي تشير إلى الأبواب والفصول والمقالات في كل فصل، كما تنعكس طرافته في النصوص المترجمة التي يختارها المؤلف من الأصول الأوروبية، يضاف إلى ذلك كله عشرات الخرائط الجيوبولتيكية والمسرد الذي يختم الكتاب وقد تضمن عدداً وافياً من المصطلحات المتعلقة بهذا العلم الجديد ـ الجيوبولتيكا. وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن فهم الكتاب لن يكون كاملاً إلا بقراءته

في ترجمة(*) متأنّية جادة، معزّزة بالشروح والهوامش؛ والكتاب يقع في مقدمة وثمانية أبواب نستعرضها في ما يلي:

(*) في السابع والعشرين من أيار من العام قبل الماضي 2002 وفي معهد «بيت الحكمة» في جامعة «آل البيت» بالمملكة الأردنية الهاشمية حيث كان المترجم يعمل أستاذاً في كلية الآداب عقدت «حلقة نقاشية» بعنوان «الجيوبولتيكا في عالم متغير: نموذج روسيا الجديدة» شارك فيها المعهد الدبلوماسي في عمان، وكانت بالنسبة للمترجم مناسبة للتعرف على كتاب «أسس الجيوبولتيكا»، وقد تقدم في الحلقة النقاشية بمداخلته حول الكتاب وتفضلت بنشرها مجلة «قضايا استراتيجية» (دمشق، العدد 11، 2002 ص 200 ـ 207) ثم تلقى المترجم تكليفاً من «دار الكتاب الجديد المتحدة» بنقل الكتاب إلى اللغة العربية تمهيداً لنشره.

وانطلاقاً من القناعة بأن الترجمة هي نقل المعنى من اللغة المنقول عنها إلى اللغة المنقول إليها نقلاً دقيقاً أميناً وبلغة فصيحة وأسلوب سائغ رصين نأمل في أن نكون قد وفقنا إلى نقل «أسس الجيوبولتيكا» إلى اللغة العربية بالدقة العلمية المطلوبة دون أي استثناء للمواقف التي نتحفظ عليها أو نرى فيها رأياً آخر. وحاولنا في سبيل ذلك تذليل الصعوبات التي اعترضت سبيل الترجمة ومنها تطويع بعض مصطلحات العلم الجديد والمصطلحات التي دخلت اللغة الروسية بعد البيريسترويكا، والتعامل مع التركيبة الخاصة للجملة عند المؤلف وولعه باستعارة مفردات من الانجليزية والألمانية ثم إغفاله تقديم بيان بالمختصرات التي استخدمها في كتابه على الرغم من خدمته الجيدة للكتاب بتعزيزه بالخرائط المطلوبة وبالمسرد المفصل بشرح المصطلحات الجيوبولتيكية الواردة فيه. وترجمنا كل مفردة بما رأيناه ملائماً في العربية باستثناء كلمة «المؤَسْلَمين» التي وُصف بها الترك في بعض الأماكن بمعنى . . . «الذين أدخلوا في الإسلام» فترجمناها بالمسلمين.

أما الحواشي والشروح التي وردت في هوامش الكتاب والتي ربما نكون قد أكثرنا منها سواء من حيث العدد أو طول النصوص في بعضها فقد سبّبتها ـ في رأينا ـ طبيعة الكتاب والآفاق المتنوعة التي ارتادها المؤلف والتي يتأسس كثير منها على معلومات لا يعرف القارىء عنها إلا القليل أو قد لا يعرف أي شيء. وإذا استثنينا المتخصصين فإن معلوماتنا عن التاريخ الأوروبي والعلاقات الدولية والتاريخ الحديث لدول كالصين والهند ـ متواضعة إلى حد كبير. أما روسيا فلا يبدو تاريخها فقط مجهولاً بل وجغرافيتها أيضاً. وهذا بمجموعه ما دفعنا إلى تقديم هذه الأعداد من الحواشي ـ الإضاءات التي تنير المصطلح، الشخصية الانسانية، الحادثة التاريخية، الاتجاه الفكري، الظاهرة الطبيعية، المنطقة، الجزيرة، النهر وما إلى ذلك بما نرى أن السياق يحتاج إليه وفي محاولة إلى الاختصار قدر الإمكان إلا في بعض المواضع. واعتمدنا في هذه الحواشي على عدد من المراجع الدقيقة كان في طليعتها «المعجم الموسوعي» الصادر في طبعته الرابعة عن «سوفيتسكايا اينتسيكلابيديا» في موسكو عام 1987. =

تستقل المقدمة بتعريف هذا العلم الجديد ـ الجيوبولتيكا الذي يفترض ـ بسبب طابعه التركيبي استدعاء عدد كبير من العلوم ليؤكد من خلال ذلك على أنه علم لا يقارن بالعلوم المفردة بل بمنظومات العلوم. وإذا كانت الماركسية وليبيرالية آدم سميت تطرحان مقولة «الاقتصاد مصيراً» فمقولة الجيوبولتيكا هي «التضريس الجغرافي مصيراً» ذلك أن الجغرافيا والمدى المكاني يلعبان فيها الدور الذي تلعبه النقود والعلاقات الإنتاجية في الماركسية والليبيرالية، وإليها ـ إلى الجغرافيا والمكان ـ تنتهي الخطوط المؤسسة للوجود البشري، وبهذا المفهوم تعرض الجيوبولتيكا ثبوتيتها في مسألة تفسير الماضي وفعاليتها اللامتناهية في تنظيم الحاضر وتصميم آفاق المستقبل. ذلك أن العنصر الأساسي في الجيوبولتيكا هو الإنسان المحدَّد بالمدى المكاني، الذي نشأ وتكوّنت اشتراطتيه ضمن خصوصية مميّزة هي التضاريس الجغرافية للمكان وهذا ما تجسده بصفة خاصة التجليات الكبرى للإنسان كالدول والإتنيات والثقافات والحضارات الكبرى وما إلى ذلك. وإذا كان ارتباط الفرد بالاقتصاد أمر بيّن وكانت الاقتصادية مفهومة بالنسبة للبشر الاعتياديين مثلما هي مفهومة بالنسبة لمرجعيات السلطة الأمر الذي جعلها ـ حسبما يرى المؤلف ـ تحقق شعبية واسعة وتؤدي مهمة تعبوية تصل إلى درجة إشعال الثورات المؤسسة على استقطاب الجماهير البشرية، فإن ارتباط الإنسان بالمكان والأطروحة الأولى للجيوبولتيكا، لا يظهر بصفة ملموسة إلا على بعد معين من الإنسان الفرد، ولهذا السبب لم تتحول الجيوبولتيكا بعد إلى ايديولوجيا، أو بكلمة أدق إلى «ايديولوجيا جماهيرية» فمنطلقاتها الأساسية وموضوعاتها وَقْف على المرجعيات العاملة على القضايا ذات المدى الواسع

= ويسرّنا بهذه المناسبة أن نتقدم بصادق الشكر إلى الأستاذ الدكتور سهيل فرح الذي قرأ «أسس الجيوبولتيكا». باللغتين الروسية والعربية، وبكل المسؤولية الخلقية والعلمية، وساهمت ملاحظاته القيّمة في تدقيق عدد من المصطلحات العلمية وفي المطابقة بين الأصل والترجمة. كما نتوجه بالشكر العميق إلى أسرة العاملين في دار الكتاب الجديد المتحدة، ممن بذلوا في طبع وإخراج هذا الكتاب جهوداً صادقة لا يعرف أهميتها وحجمها إلاّ من واكب هذا العمل منذ بدايته وإلى أن رأى النور.

أما موقفنا من الكتاب فقد بسطناه على صفحات هذا «التقديم» الذي حاولنا أن نضمّنه أهم ما اشتمل عليه الكتاب وأهميته بالنسبة للقارىء العربي، بالإضافة إلى رأينا في جملة من المسائل التي تمت الإشارة إليها ومناقشتها بما وسعنا من الدقة والتفصيل.

كالتخطيط الاستراتيجي والسنن الاجتماعية ذات المستوى الكوني وما إلى ذلك.

ولهذا السبب يؤكد المؤلف على أن الجيويولتيكا ـ هذا العلم الجديد ـ هي وجهة نظر السلطة، هي علم السلطة ـ ومن أجل السلطة. ويكشف تاريخها بطوله على أن من عكفوا على دراستها كانوا دون استثناء ممن شاركوا في حكم الدول والأمم، أو ممن يهيئون أنفسهم للقيام بتلك الأدوار. فهي تمثل في العالم المعاصر «دليل رجل السلطة» وبكلمة أدق هي كتاب السلطة يقدّم ملخصاً ينبغي وضعه في الحساب عند اتخاذ القرارات الكونية المصيرية ـ كعقد التحالفات وشن الحروب، والقيام بالإصلاحات أو الاجراءات الاقتصادية والسياسية على مستوى واسع، ويختم المؤلف تعريفه بهذه الكلمات الثلاث:

ـ «الجيوبولتيكا ـ علم الحكْم».

وقبل أن يشرع المؤلف في شرح هذه الأطروحة الجديدة في كتابه يؤسس لذلك بمناقشة فكرة صميمية مؤداها أن الصراع الانساني أمر طبيعي مركوز في صلب الوجود الكوني. والصراع الذي يسوقه المؤلف مثالاً يختلف عما هو مألوف في هذا المضمار كالصراع الإتني أو الطبقي أو القائم على الرغبة في الاستئثار، ويصوره مكنوناً في التركيبة الأولى للبناء الكوني تعبر عنه ثنائية «التيلوروكراتيا» و «التالاسوكراتيا»، القوتين البرية والبحرية مجسَّدتين في عفوية البر (الثابت الصلب) وعفوية البحر (السائل الجاري) ، واستعراض هذه الثنائية والصراع الكونيين يقرّب المؤلف من الهاجس الأساسي الذي يخترق صفحات الكتاب الطويلة، وهو ضرورة الخروج من دائرة «القطب الواحد» الذي آل إليه العالم بعد انهيار الاتحاد السوڤياتي والبحث عن الطريق التي يمكن أن تؤدي إلى ذلك. فالقوتان اللتان خاضتا الصراع على مدى القرن العشرين هما روسيا، الأوراسيا (القوة البرية) والعالم الغربي الذي يسميه بـ «الأطلسي« (القوة البحرية). وما برحت قدرات هاتين القوتين في تعاظم حتى اتخذت صيغة الرعب النووي الذي فرض عليهما إما نقل المواجهة إلى خارج الأرض (حرب النجوم) وأما أن يفني أحدهما الآخر، وتواصل الصراع على هذه الصورة حتى انتهى لصالح القوة البحرية التي لا تزال تحقق انتصاراتها، ويترادف ذلك بتطلع تلك القوة إلى فرض هيمنتها ورؤاها و«عولمتها» على العالم وإقرار «أحادية القطب» على الصعيد الدولي بينما يرى المؤلف أن هزيمة القوة البرية ليست إلا ظاهرة مؤقتة تعود الأوراسيا بعدها إلى رسالتها القارية التي تتخذ صيغة

جديدة تأخذ في الحسبان جميع العوامل الجيوبولتيكية الجديدة وتحقق انتصارها، وهو ما يحاول المؤلف توكيده من خلال أبواب الكتاب التالية:

يخصص المؤلف البابين الأول والثاني من كتابه لدراسة الجيوبولتيكا من خلال جهود أكبر العلماء المؤسسين لهذا العلم وما جاؤوا به من نظريات، فيتوقف أمام المدرسة العضوية الألمانية التي أسسها ف. راتسيل وقوانينه السبعة التي طبقها على التوسع الترابي للدّول وكانت مترافقة مع بدايات الاستعمار الغربي ثم يتحدث عن ر. تشيلّين وف. ناومن اللذين أكسبا أفكار راتسيل ملامحها التطبيقية وعن دور العالم والسياسي الانجليزي هـ. ماكيندر الذي قرأ خارطة العالم البرية ـ البحرية قراءة جيوبولتيكية دقيقة وأدرك موقع الأوراسيا فيها فسماها «المحور الجغرافي للتاريخ» الكوني، فكان لهذا السبب حريصاً على الحيلولة دون توحد القوى الأوراسية، ويواصل المؤلف دراسة منظّري القوة البحرية الأمريكيين الذين أعانتهم سياسة بلادهم على تطبيق نظرياتهم على الواقع العملي ومن هؤلاء أ. ماهان ون. سبيكمان منظّرَي سياسة الهيمنة الأمريكية على المناطق الساحلية وإغلاق منافذ الأوراسيا على الآماد البحرية، ثم يستعرض نظرية ك. هاوسهوفر المتعلقة بإقامة الحلف القاري «برلين ـ موسكو ـ طوكيو» وكيف حُرف هذا التوجه حتى تحول إلى حرب ضد روسيا أيام هتلر. ويلتفت بعد ذلك إلى أعمال العالم الكبير ك. شميدت ونظريته المتعمقة حول المواجهة بين القوتين البرية والبحرية واللتين استعار لهما اسمي هولتين ورد ذكرهما في «العهد القديم» وهما: بهيموت ولوياثان، ثم يقدم المؤلف بعد ذلك نظرات الأوراسيين الروس ـ ب. سافيتسكي ومريديه حول الأوراسيا وما يسمى «بؤرة التطور» وخصوصية روسيا ومفهوم «الايديوكراتيا» الجديد ويشير إلى «الفرادة العرقية الروسية» التي تمثل تذاوب الغابة بالسهب، انصهار العنصرين السلافي والتركي مؤكداً على طرافة هذا الطرح وجرأته.

وتتوالى في الباب الثاني المخصص للنظريات الجيوبولتيكية المعاصرة أعدادٌ من الأسماء المعاصرة ـ د. ماينغ ، ب. كوين. ك. غرين، هـ. كيسنغر والآراء المرتبطة بها كما يبسط المؤلف نظرية ص. هنتينغتون حول «صدام الحضارات» وف. فوكوياما حول «نهاية التاريخ» وجيوبولتيكا ج. أتّالي ، ويتطرق إلى العولمة، مفهومها وخلفياتها ليتحدث بعد ذلك عن «العولمة ما بعد الكارثية» للبروفيسور سانتورو، وبعد أن يعرض مفهوم «الجيوبولتيكا التطبيقية». الداخلية (مدرسة ايف

لاكوست) فالالكترونية يعلن بأن «الجيوبولتيكا التطبيقية ليست جيوبولتيكا» «لكنه ينظر بكل التعاطف والاحترام إلى جيوبولتيكا اليمينيين الجدد التي اتفقت مع المسار العام لفكر الألمان «القاريين» في فترة ما قبل الحرب، وقد عبرت عنها أطروحة «أوربا ذات الرايات المئة» لألين دي بينوا و«أوروبا من ڤلاديڤوستوك إلى دبلن» لجان تيريار، ونظرية النمساوي ي. فون لوهاوزن المتفقة مع أفكار هاوسوفر، ورؤية كارلو تيراتشانو القائلة بروسيا + الإسلام = إنقاذ أوروبا، وهي تتناغم في مجموعها مع توجه هؤلاء اليمينيين الجدد إلى «وحدة القارة الأوروبية» لتتحول قطباً يمكن أن يقف في وجه القطب الأطلسي الواحد. أما نظرية ل. غوميليوف المتعلقة بالأوراسيا كبؤرة تطور خصبة ملائمة لتشكلات إتنية وثقافية جديدة يتميّز بينها الاتنوس الخاص الذي كونه التذاوب السلافي ـ التركي ونظرته إلى الاندفاعية ورؤيته الطريفة إلى التجدد الإتني وآليته فتدخل بمجموعها جزءاً صميمياً في رؤى «الأوراسيين الجدد» التي ترى في أوروبا قوة قارية محتملة تتكامل مع قوى أخرى، إسلامية وغير اسلامية، لتكوّن الحلف الاستراتيجي القوي الذي يواجه الأطلسية ويفرض ثنائية القطبين أو تعددية الأقطاب.

وهكذا تتنوع النظريات وتتعدد ويأتي من ينتقد سابقه أو يصوبه أو يكمل طريقه، وتستوقفنا طرافة هذه النظريات وحدة بعض المواقف فيها. ومع ذلك، فلا بد وأن تختزن ذاكرة القارىء، نتفاً من فلسفة الجيوبوليتكي الأوروبي الأول ف. راتسيل. ابن القرن التاسع عشر والمتوفّى في مطلع القرن العشرين، والذي واكبت حياته المد الاستعماري الأوروبي فرأى أن الدول الكبرى تعيش خلال تطورها إحساساً بالميل إلى التوسع الجغرافي في حدوده القصوى والذي يتدرّج حتى يشمل الكرة الأرضية كلها ما لم يلق من يتصدى له ويوقفه. يضاف إلى ذلك القانون السادس من قوانين ف. راتسيل في التوسع وينص على أن «الباعث على التوسع يأتي من الخارج ، إذ إن الدولة تثار للتوسع على حساب الدولة (أو الأراضي) ذات الحضارة الأدنى» فاتهم بأنه يقدّم «الدليل المرشد للأمبرياليين» الذي ساروا على «قوانينه. . . ولا يزالون». فهل انتبهت الشعوب المستضعفة إلى أن تجعل من «قوانين راتسيل» «الدليل المنبّه للمستضعفين» فتتحالف وتستعد لمواجهة الشر. إذ أن راتسيل، على ما يبدو، كتب قوانينه في القرن التاسع عشر لتطبق في بداية القرن الحادي والعشرين!

وهناك نقطة أخرى تستوقف النظر وهي أن هذا العلم ـ الجيوبولتيكا يكاد يكون وقفاً على الدول العظمى أو ما فوق العظمى إذ «إن الثنائية الجيوبولتيكية المؤسسة لا تمس الثانويين على مستوى الدول إلا بطريقة غير مباشرة، وتأثير هذه الدول على مسيرة المواجهة الكونية غير ذي شأن». ولهذا ينتسب أكبر ممثلي هذا العلم إلى ألمانيا وانجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا (أي الدول الفاعلة على المستوى الكوني). أما من وجدوا في دول كإيطاليا واسبانيا وبلجيكا ورومانيا فلم يكن لهم ذلك التأثير المطلوب. ومن اللافت للنظر ما يشير إليه المؤلف في مقالة «مصائر العلماء مصائر الدول» حيث يفصل بين نوعين من العلماء: من لقوا الأذن الصاغية في بلادهم التي عاملتهم بكل تفهم واحترام، فنهضوا بها وأوصلوها إلى أعلى عتبات الهيمنة والتوسع الكونيين (بريطانيا وأمريكا) وبين من لم يجر الإصغاء إليهم إلا قليلاً كما في فرنسا وألمانيا أو انحدر تعامل بلادهم معهم حتى الحضيض كما في روسيا. ولهذا حققت دول الغرب «السيطرة العالمية» «بينما دفعت ألمانيا سقوطها من التاريخ لمدة نصف قرن ثمناً لإهمالها أطروحات الجيوبولتكيين. أما الاتحاد السوفياتي... فهبط تأثيره العالمي حتى الصفر وتقلصت مساحته بشدة وتحول اقتصاده ووسطه الاجتماعي إلى أطلال».

ويكمل المؤلف تعريف الجيوبولتيكا في خاتمة الباب السادس من كتابه فيصفها بأنها «علم علماني... دَنِسٌ، دنيوي». وفي عبارة تالية يلطف وصفه بالقول «ولهذا يمكننا القول إن الجيوبولتيكا تشغل وضعا بينياً بين العلم التقليدي («الجغرافيا المقدسة») وبين العلم الدنس». فهل يراد من ذلك الوصف استمرار تبرير مسلك الأقوياء الذين ما اعتدّوا خلال مسيرة التاريخ إلا بالقوة. وكان الاستعماريون في كل مرحلة من التاريخ الحديث يخرجون تحت ستار نظرة جديدة. وهكذا، وتحت شعارات «المجال الحيوي» و «تحضير الهمج» و «الرسالة التحضيرية» و «الحماية» و «الانتداب» وسواها أبيدت شعوب. فهل أُدرجت «الجبرية الجيوبولتيكية» في هذه القائمة اليوم واعتمدت ستاراً للنشاط الاستعماري بداية من مطلع القرن الحادي والعشرين؟!

في البابين الثالث والرابع، ويعدّ الأول منهما «تمهيداً» للثاني تطرح تأملات المؤلف حول موضوع وحيد هو روسيا، فيجري التوكيد على الـ **Heartland** الذي

يضاعف، في رأى المؤلف، من فرادة تلك البلاد. أما الخلاص من الوضع القائم فيراه المؤلف في «تجميع الإمبراطورية» الروسية السابقة واستباق ما يخشى حدوثه في المستقبل: كأن تقوم الصين بقفزة يائسة نحو الشمال أو تتحرك أوروبا باتجاه الأراضي الروسية الغربية، أو يتجه المعسكر الإسلامي نحو التكامل مع آسيا الوسطى.

وانطلاقاً من أطروحة «ليس للروس دولة الآن» ينتقل المؤلف إلى مناقشة «مشروعية ما بعد الإمبراطورية» والتي تطبق الآن على البلدان التي ظهرت على أنقاض الاتحاد السوفيتي ويشير بمرارة ممزوجة بالسخرية إلى تطبيق هذه «المشروعية» فيما مضى على المستعمرات والدومينيونات السابقة وبموجبها انتقلت غالبية المستعمرات الانجليزية، الاسبانية، الفرنسية، والهولندية السابقة إلى سيطرة الولايات المتحدة. كما جرى تطبيقها على الدول الأفريقية خلال عملية ما يسمى بـ «تصفية الاستعمار». ويسترسل المؤلف في شرح طبيعة الشعب الروسي، امتداده على خارطة العالم، تكوينه الإتني والتاريخي، أفقه اللاهوتي، لينتهي إلى مناقشة قضية يؤكد على أنها لا تقبل المساومة وهي ضرورة إيجاد «الإمبراطورية الروسية» فالفيدرالية نظام مرفوض في رأيه، وروسيا لم تعرف ما يسمى بـ «الدولة ـ الأمّة» ولا «الدولة الجهويّة» ولا الاتحاد السوڤياتي كان دولة من هذه الأنماط، وعلى عدد كبير من الصفحات، وبحظ كبير من التفصيل ينتقد الآلية الحكومية، ـ «القيصرية» منها و «السوفياتية» ويستعرض وجوه الخطأ في كل من النظامين. ومن الأخطاء السابقة يستنبط القواعد الأساسية للامبراطورية الأوراسية الجديدة التي ينبغي أن تقام دفعة واحدة كإمبراطورية، وأن تبدأ من الأساس بريئة من كافة وجوه النقص والضعف التي أودت بكل من النظامين ـ القيصري والسوڤياتي. وعلى هذه الأرضيّة يقدم ما يمكن أن يسمى المنطلقات أو البرامج المؤسسة لقيام هذه الإمبراطورية من ذلك أن تقيم التحالفات التي تسمح لها بمد حدودها البحرية حتى أطول مدى، وأن تبتعد عن المادية والإلحاد وتولي الجانب الروحي الأهمية القصوى، وأن تسلك منهج المرونة في تسيير الاقتصاد وتتحاشى الخصخصة والرسملة، وأن تسير في اتجاه أخلاقي انساني ديموقراطي وتعتمد مبدأ الاستقلال الذاتي، الثقافي منه واللغوي والاقتصادي والحقوقي بالنسبة لكل من الإتنيات والأعراف والشعوب الداخلة في الإمبراطورية... والكاتب لا يخفي أمله في أن

تكون الإمبراطورية أوراسية قارية عظمى وفي أن تصير عالمية في المستقبل، وهو ما يفسّر قوله في ختام مقالة: «نحو امبراطورية أوراسية جديدة»: «فمعركة الروس من أجل السيادة على العالم لم تنته بعد».

أما التطبيق «الجيوبولتيكي» الذي يقترحه المؤلف لدعم الإمبراطورية الجديدة فيتمثل في المحاور التي يرسمها لتؤسس مع الإمبراطورية الأوراسية ذلك التكتل الهائل الذي يخوض غمار الصراع مع الأطلسية بنجاح وهي:

1 ـ المحور الغربي، موسكو ـ برلين:

يرى المؤلف في أوروبا الوسطى منطقة شديدة التجانس ويمكنها أن تترك أثراً شديداً على جنوب القارة ـ ايطاليا واسبانيا. أما بريطانيا فلا يراها إلا قاعدة عائمة للولايات المتحدة، ولذلك يحوّلها إلى «كبش فداء» لا مندوحة من التضحية به وإبعاده وتشجيع الحركات الانفصالية لدى القوميات الايرلندية والسكوتلندية والويلزية فوق الجزيرة. وإذا كانت فرنسا أطلسية التوجه دوماً، حسبما يرى المؤلف، فإن نظرته الجديدة إليها تؤسس على قاعدة توجه فرنسي آخر يعود إلى الخط النابوليوني الذي رأى في أوروبا وحدة قارية واحدة وهو ما جسّدته سياسة ديغول الذي تحالف مع ألمانيا سعياً إلى إقامة الكونفيدرالية الأوروبية في مواجهة الولايات المتحدة الامريكية، ثم يذكّر المؤلف بأعمال المفكرين الاوروبيين السابقين الذين طالما أشاروا إلى الطبيعة الخاصة لوحدة أوروبا. كما يذكّر بحرص الدول الغربية الاستعمارية، عبر التاريخ، على غرس الحواجز الوقائية ـ عبر مجموعة دويلات ـ بين روسيا وألمانيا للحيلولة دون قيام الحلف الروسي الألماني بالإضافة إلى غرس الكراهية المتبادلة بينهما. ويرى أن التكامل بين هذين الشعبين ـ ضرورةٌ تفرضها اللحظة الراهنة والتي تبدو ألمانيا فيها عملاقاً اقتصادياً لكنها قزم سياسي، بينما تبدو روسيا عملاقاً سياسياً لكنّه كسيح اقتصادي ويمكن لكل من الدولتين أن تتكامل مع الأخرى. ويصل المؤلف إلى القول بأن على روسيا أن تكون مستعدة لإعادة منطقة كالييننغراد (بروسيا الشرقية سابقاً) إلى ألمانيا في سبيل تدعيم هذا التكامل وبخاصة أن تلك المنطقة تمثل ـ برأيه ـ رمزاً إقليمياً قد يؤدي إلى حرب يقتتل فيها الأشقاء «الروس والألمان». ويختم المؤلف هذه المقالة بكلمة مأثورة لبسمارك تقول: «لا عدوّ لألمانيا في الشرق». ويتمنّى على الحكام الروس إقرار شعار مقابل يقول: «ليس

لروسيا في الأقاليم الغربية وفي وسط أوروبا إلا الأصدقاء».

2 ـ المحور الثاني، موسكو ـ طوكيو:

يرى المؤلف أن سياسة «الإمبراطورية الأوراسية» نحو الشرق تطرح مجموعة من التأملات التي يبدأها بالحديث عن الهند التي أخذت منذ تحرّرها بالبحث عن «الطريق الثالث» مثلما أظهرت ميلاً إلى الاتحاد السوفياتي وهو ما يشجع المؤلف على عقد التحالف معها. لكن ضعف الهند الاقتصادي وتواضع مستواها التقني يزهّدان المؤلف في هذا التحالف، فلا يسند للهند إلا دور المخفر الأمامي للأوراسيا بينما يشير إلى ما تتفرد به تلك البلاد من ثقافة روحية يمكن أن تساعد على تفسير التوجهات الميتافيزيقية للامبراطورية الأوراسية.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الصين، ويفترض لا مندوحة الاختيار بينها وبين اليابان حليفاً للأوراسيا، ليقول بعد ذلك إن التاريخ قد أثبت أن الصين لا اليابان كانت جيوبولتيكياً القاعدة الأهم للأنجلوساكسونية في القارة الأسيوية بينما دأبت اليابان على إقامة العلاقات مع دول المحور الأوروبي . ثم يتحدث بشيء من التفصيل عن أهم القوى الفاعلة على المستوى العالمي وهي ـ الغرب الأقصى (أمريكا انجلترا، فرنسا وبعض الدول الأوروبية) فأوروبا الوسطى فروسيا فإقليم المحيط الهادي ومركزه اليابان، وعن علماء الجيوبولتيكا السابقين وهم يحذّرون دوماً من أنّ أكبر خطر تتعرض له الأطلسية هو قيام تحالف الأقاليم الثلاثة: أوروبا، روسيا والمحيط الهادي. ومن أجل الحيلولة دون ذلك أثيرت النزاعات الروسية ـ الألمانية والروسية ـ اليابانية عبر التاريخ مثلما زرعت الكراهية والأحقاد المتبادلة التي يجب أن تزال الآن لإرساء محور موسكو ـ طوكيو، فهو وحده القادر ـ برأي المؤلف ـ لا على أن يضعف الأطلسية فحسب بل وعلى أن يقضي عليها. ويرى أن الأمور ممهدة لتحقيق ذلك فاليابانيون لن ينسوا الإبادة الذرية التي تعرّضوا لها ولا الاحتلال السياسي لبلادهم. ولن تجد روسيا لنفسها حليفاً أفضل من اليابان ويمكنهما معاً أن يحققا تكاملاً فريداً يتوفر فيه لليابان الاستقلال السياسي والنظام العسكري الاستراتيجي والمواد الطبيعية التي لا تنتهي، كما تتوفر لروسيا التقنية العالية الجودة والإمكانات المالية الضخمة، ويمكنهما معاً تطوير سيبيريا وحل مشاكلها، كما يمكن للعلاقات المنغولية ـ اليابانية القائمة على وحدة الأرومة

والأصل العرقي والروحي أن تلعب دورها في تحقيق هذا التقارب. وحرصاً على ذلك يمكن لروسيا أن تعيد لليابان جزر الكوريل التي تعدّ تذكيراً بالمذابح الحمقاء التي اختلقها الأطلسيون.

3 ـ المحور الثالث، موسكو ـ طهران:

ويرى فيه المؤلف تحالفاً قارياً مهماً يقوم أيضاً على مبدأ وجود العدو الأطلسي المشترك. والعالم الاسلامي يعاني، حسب رأي المؤلف، من التوزّع في عدّة اتجاهات: ـ الاتجاه الأصولي الإيراني ـ التيار العلماني التركي، ـ التيار العروبي، (وتدعو إليه سوريا، العراق، سابقاً ـ السودان ـ وإلى حد ما ـ مصر والسعودية) ـ التيار الأصولي السعودي الوهابي، وأخيراً ـ صور مختلفة للاشتراكية الإسلامية، وكتلك النماذج القريبة من العروبية في مفهومها اليساري. وإذ يسقط المؤلف من حسابه التيارين الثاني والرابع يرى إنه لا يتبقى سوى تيارين هما «الأصولية الإيرانية» و «العروبية في صيغتها اليسارية». وأول ما يناقشه المؤلف هو التيار الأصولي الايراني، ويسارع إلى إعلان المكسب الثمين الذي تحققه الأوراسية من خلال محور موسكو ـ طهران وهو: تأمين خروج روسيا إلى البحار الدافئة، والذي ظلت تسعى إليه خلال قرون طويلة ويحال بينها وبين تحقيقه. ويشرح المؤلف حرص روسيا على بلوغ المياه الدافئة وحرص الأطلسيين على منعها من ذلك سواء عن طريق الشواطىء الجنوبية للقارة عبر المحيط الهندي أو عن طريق البوسفور والدردنيل أو حتى جبل طارق، تلك المناطق التي بقيت ردحاً طويلاً من الزمن تحت السيطرة الأطلسية. أما النقطة الثانية وتتعلق بحل مشاكل آسيا الوسطى، وهو ما لا يمكن أن ينهض به التوجه السعودي حسب رأي المؤلف ـ ولا البانتوركي بسبب توجههما الأطلسي، كما لا يمكن أن ينهض به التيار العروبي لأن شعوب آسيا الوسطى ـ تركيّة اللغة. وبذلك يتبقى التوجه الموالي لإيران والذي يمكنه استبعاد ما قد يحدث من تناقض بين القبول بروسيا وبين القناعة الدينية الاسلامية ويجعل منهما توجهاً جيوبولتيكياً واحداً نحو موسكو ونحو إيران في وقت واحد. وبهذا يمكن للمؤازرة الإيرانية أن تساعد روسيا على حل مشاكلها الجيوبولتيكية مع دول آسيا الوسطى كما يمكنها من أن تقيم ذلك التشكل الإسلامي المتجانس استراتيجياً والمتلوّن من الناحيتين الإتنية والثقافية والمرتبط بالإمبراطورية الأوراسية.

كما أن بمقدور إيران أن تلعب دورها بالنسبة لنقطة أخرى مهمة تتعلق بالمصالح الإتنية الروسية وحقوق الأقليات بالنسبة لكافة أراضي آسيا الوسطى. بينما لا تؤخذ مصالح تركيا في الحسبان سواء في القوقاز أو في آسيا الوسطى، بل وإن المؤلف يلمح إلى مناصرة بعض القوى الانفصالية داخل تركيا وفي الوقت نفسه يعرض على هذه الدولة إمكانية التمدد جنوباً.

أما الخط الثاني للتحالف الأسيوي من الجنوب والذي يسميه المؤلف بالعروبي (البانعربي) فيشمل جزءاً من آسيا الوسطى والشمال الأفريقي، وهو تكتل مهم جداً من أجل السيطرة على الشواطىء الجنوبية الغربية لأوروبا الغربية. فقد بسط الأطلسيون سيطرتهم على الشرق الأدنى والشمال الأفريقي بغية فرض ضغطهم السياسي والاقتصادي على أوروبا. أما تطبيق تكاملية المشروع العروبي مع الإمبراطورية الأوراسية فالمؤلف يسند تنفيذه إلى القوى الأوروبية (وبخاصة ألمانيا) كما يؤكد أفضلية أن يعهد إلى القوى الأوروبية المعنية بمشاريع «أوروأفريقيا» التي تمثل قارة واحدة لا قارتين. كما إن على الإمبراطورية الأوروبية التغلغل جنوباً بالاعتماد على التكتل العروبي وعلى أفريقيا حتى الصحراء لتتوضع استراتيجياً بعد ذلك على سطح القارة بأكملها. أما فيما وراء حدود أفريقيا العربية فيستحسن وضع مشروع مفصل متعدد الاتنيات يعيد ترتيب أفريقيا السوداء وفقاً للمظهر القومي الاتني والثقافي لا وفقاً للمقياس «ما بعد الاستعماري» المتناقض الذي تجسّده الدول الافريقية المعاصرة. وهذا المشروع القومي البانأفريقي (غير العروبي) يمكن أن يكون الإضافة الجيوبولتيكية لخطّة التكامل العروبية.

وإذا كان ما يسميه المؤلف بخصوصية الصيغة الشيعية الآرية للإسلام الإيراني سيحول دون الاستحسان العربي الشامل لأنموذج الأصولية الإيرانية، فهو يقترح أن يتطلع المشروع العروبي إلى إقامة تكتله المستقل المعادي للأطلسية ـ تكون أقطابه الأساسية: العراق - سابقاً - وليبيا وفلسطين المحررّة: (وسوريا أيضاً وفقاً لشروط محددة). ولا يوضح المؤلف لماذا يستثني سوريا بالقوسين ولا طبيعة «الشروط المحدّدة» المطلوبة، لكنه يوضح خصوصية الدول المشاركة بأنها تلك الأقطار العربية التي تعي بصورة أوضح الخطر الأمريكي، والتي ترفض بصورة أكثر جذرية من الآخرين أنموذج السوق الرأسمالية المسمى بالغرب. أما بالنسبة لمصر والجزائر والمغرب فالأمور ستكون مختلفة حسب رأي المؤلف، وذلك لأن القوى

الحاكمة الموالية للأطلسية في تلك الحكومات لا تعبر عن التوجهات القومية لشعوبها ولن تتمكن من ضبط الأمور في بلادها إلى ما لا نهاية. ثم يكرر ضرورة أن يعهد بمهمة تطبيق انضمام المشروع العروبي للامبراطورية الأوراسية إلى برلين أو لأوروبا على العموم. أما الهاجس المباشر لروسيا في العالم الاسلامي فيجب أن تكون إيران دون سواها، وهو ما قد يشير إلى توجه جديد في السياسة الروسية نحو العالم العربي والإسلامي. ويقترح المؤلف لتحقيق ذلك استخدام تأثير روسيا التقليدي على النظم «اليسارية» ذات التوجه العروبي والعراق - سابقاً - وليبيا بالدرجة الأولى، من أجل التقريب بين الدول العربية وإيران وتحقيق النسيان الأسرع للنزاع الإيراني ـ العراقي الذي افتعله الأطلسيون وغذّوه.

وهكذا فإن القسم المخصص لروسيا يتضمن مجموعة معتبرة من الرؤى والأفكار المقترنة أيضاً بالأحلام في الوصول بروسيا إلى المستوى الذي تستطيع فيه إقامة الأحلاف التي أشرنا إليها والارتقاء إلى مستوى القطب الذي يواجه الأطلسية فينتصر عليها. والمؤلف يرى السبيل إلى ذلك في تحقيق النقاط التالية:

الأولى: تجميع الأمبراطورية: وقد يبدو ذلك غريباً بالنسبة لعصرنا الحاضر لكن المؤلف يعود بنا إلى الإمبراطوريات السابقة ليؤكد على أن الوحيدة التي بقيت مستمرة حتى الفترة المتأخرة هي الإمبراطورية السوفياتية التي قضى عليها الأطلسيون وليس من المستحيل إعادتها. يضاف إلى هذا أن التوجه إلى إقامة التكتلات الكبرى صار السمة الجامعة للقرن العشرين، بل إن المؤلف يختم الفصل الرابع من الباب الرابع بمقالة «امبراطورية الإمبراطوريات الكثيرة» ويكرر فيها الدعوة إلى هذا التضامن الهائل الاتساع والذي يمكن أن يضم الإمبراطوريات الثلاث ـ أوروبا الغربية، المحيط الهادي وآسيا الوسطى، ويترك للهند والعالم العروبي والاتحاد البانافريقي وحتى للصين وسواها من الآماد الكبرى فرصة الانضمام إليه على أساس مبدئي عام يحظر خدمة المصالح الجيوبولتيكية الأطلسية، والخروج من الحلف الاستراتيجي المشترك وإلحاق الأذى بالأمن القاري. ولهذا تفتح الأبواب لقبول من يرغب في الانضمام لهذا التكتل مع احتفاظه بكل مقدمات وجوده الانساني المتميّز ـ العرقي والثقافي والديني وما إلى ذلك.

الثانية: العودة إلى الدين والقومية: وتطبيق التربية الدينية التي تعدّ الأجيال بطريقة مخالفة لما سار عليه الاتحاد السوفياتي. وتتداخل هذه النقطة لدى المؤلف

مع نقطة أخرى تتعلق بضمور الزيادة السكانية الديموغرافية لدى الروس بالمقارنة مع «شعوب الجنوب العاصفة النمو». وتشف في ثنايا هذه الدعوة أفكار التقليدية السلاڤيانوفيلية الأرثوذكسية والروح «المحافظة» التي يقوم على أساسها الالتزام الخلقي وتترسخ القومية وتبنى التقاليد التي تفخر «التالاروكراتية» بالعناية بها ورعايتها. وتستوقفنا كلمات المؤلف، هذا الصوت «الجديد» وهو يهيب بقومه في عبارات متناثرة إذ يقول: «يجب الايحاء لجميع الروس بأن هوية كل شخص بمفرده هي مقدار ثانوي مفتلذ من الهوية القومية. وعلى الروس أن يعوا أنهم قبل كل شيء أرثوذكسيون، وفي المرتبة الثانية روس وليسوا إلا في المرتبة الثالثة بشراً»، «الأسمى من كل شيء ـ الوعي الارثوذوكسي للأمة ككنيسة، ثم الوعي الواضح للاّانفصالية، لكلية وشمولية ووحدة الجهاز الروسي الإتني الحي المكون ليس فقط من الأحياء بل ومن الأجداد ومن الأجيال القادمة، وأخيراً، وفي المرتبة الأخيرة: معاناة الشخصية المحدَّدة كوحدة نووية مستقلة» يجب «إضفاء الروح الكنسية الشاملة على الروس وتحويل كافة المؤسسات الثقافية إلى امتداد للكنيسة الواحدة» «بمثل هذه الطريقة الراديكالية فقط يمكن للروس أن يعودوا بصورة واقعية إلى أحضان الكنيسة المكنونة في أساس وجودهم القومي التاريخي» «إن حقيقة الانتماء إلى الأمة الروسية يجب أن تتم معاناتها على أنها أمر نخبوي، ترف حياتي مستحيل، شمم أنتروبولوجي علْوي، والدعوة إلى هذه الاستثنائية القومية (دون أي مسحة مهما صغرت من رُهاب الأجانب أو من الشوفينية يجب أن تكون محور التربية السياسية للشعب». وقبل أن يتحدث المؤلف عن الجوانب العملية لتشجيع النسل والزيادات المطلوبة للمواليد يقول: «كل أسرة تشارك في المسرحية الدينية القومية عندما تنجب طفلاً روسيا، إذ تشارك في البناء الروحي للشعب كله» «يجب أن يفهم الأطفال على أنهم ثروة قومية مشتركة، تعبير عن الطاقات المكنونة لشعب عظيم. الطفل الروسي يجب أن يفهم في البداية على أنه روسي ثم على أنه طفل».

الثالثة: وتتعلق بالآفاق العسكرية للامبراطورية: فإلى فرادة روسيا من حيث توسطها القاري ومساحاتها اللامتناهية وتاريخها الإمبراطوري العديد القوميات يضيف المؤلف فرادة أخرى هي توفر الأسلحة الاستراتيجية والقدرة على ضرب العدو وهذا ما يعد ـ في رأى المؤلف ـ حماية لأي حلف تشارك فيه روسيا، الأمر

الذي يدفعه إلى دحض كل اقتراحات تحويل الصناعة الحربية الاستراتيجية والاستعاضة عنها بالسلاح «الجهوي» بذريعة عجز أي دولة في العالم عن تطوير أسلحتها في الاتجاهين ـ الاستراتيجي والتقليدي معاً (وهو ما يفسر عدم أهلية الأمريكيين في حروب النزاعات الجهوية بدءاً من ڤيتنام وانتهاء بالصومال ويوغوسلاڤيا وما عاشته روسيا خلال حربها في أفغانستان). ومن هنا يتضح إصرار المؤلف على أن تبقى بلاده من حيث الأسلحة الاستراتيجية «دولة فوق العظمى» ويرى في ذلك منفعة حتى على الصعيد الاقتصادي «فالسبيل الأسهل للحصول على» كميات أوفر من السلع، الجيدة ليس تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة الحلل بل مواصلة وتعزيز صنع حاملات الطائرات والغواصات النووية. وعند توفر الضمانة السياسية في الخصوص يمكن لبضع غواصات نووية أن تحمل لروسيا بلداناً بكاملها ذات صناعة متطورة ومن طريق سلمي صرف بينما يؤدي تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة للغسالات بروسيا إلى خسارة اقتصادية تستحيل معالجتها».

الرابعة: وتتعلق بالآفاق الاقتصادية للامبراطورية: ويمهد المؤلف لدراستها بتخصيص فصل لدراسة التقنية والموارد الروسية ووفرة الخامات الطبيعية الروسية التي تباع في السوق العالمية وفقاً لسياسة الإغراق، وعند الانتقال إلى تحديد الخط الاقتصادي الذي ستسير عليه البلاد يصرف المؤلف اهتمامه عن خياري المركزية السوڤياتية والليبيرالية الأطلسية. ويسمي خطه الاقتصادي بـ «الطريق الثالث» القائم على المركزية من حيث الاستراتيجية السياسية وعلى الشراكة في أوسع صورها من الناحية الاقتصادية. وعلى صفحات طويلة يشرح مزايا ذلك الطريق ويسوق في سبيل ذلك نظريات وآراء عدد كبير من العلماء الذين عرفهم تاريخ الاقتصاد الأوروبي والأمريكي وأثبت التاريخ صحتها.

عنوان الفصل الأول من الباب الخامس ـ «الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا مرتبطة بمهمتها الكونية» يعكس نظرة المؤلف بل ونظرة الروس إلى أنفسهم كشعب ذي رسالة وذي مهمة كونية، فـ «في حالة روسيا يستحيل التجرد عن وزنها العالمي» و«هذا الطابع يحدد زاوية النظر نحو قضاياها الجيوبولتيكية الداخلية» «روسيا الحالية ترث في وقت واحد خط العاصمتين السلاڤيتين (كييف وڤلاديمير) وخط محطات قيادة جنكيز خان السهوبية» فإذا ما أضفنا إلى ذلك انفتاح

بطرسبرج على البلطيق وتوسطية موسكو بين المناطق الجغرافية السياسية اقتربنا من فهم الطبيعة الروسية وطبيعة تضاريسها الجغرافية وسياسة المركز والأطراف على أرضها.

يقوم المؤلف بتوصيف المحاور الداخلية للاشعاعات الجيوبولتيكية التي تربط موسكو بأطراف المدى الروسي الشاسع الأبعاد ويبدأ بتحليل «الشمال» فيدخل بالقارىء عالماً «جديداً» غنياً بالأسماء وبالمعلومات المتعلقة بطبيعة التضاريس والسكان وما يكتنف المنطقة من المشاكل. ويتحول المؤلف إلى جغرافي يعرّف بالمناخ والأنهار والثروات الطبيعية ويستعرض تاريخ المنطقة وتطلعاتها الاتنية وما تعانيه من تخلخل سكاني، وينتقل بالقارىء من الأركتيكا الروسية إلى جمهورية ياقوتيا (ساخا) إلى الليناالاند التي لا يخفي جزءه من كون «القوى المعادية ستحاول لدى سنوح الفرصة الأولى، الخروج بكل هذه المنطقة الضعيفة الارتباط بالمركز من تحت السيطرة الأوراسية» وينهي كلامه بالإعلان التالي: «الشمال ـ إنه المستقبل، إنه المصير».

وعندما يتناول المؤلف الشرق يبسط أمام قارئه المساحات الهائلة للبوفولجييه والأورال وسيبيريا وبريموربيه والألتاي كما يبسط الحضور الإسلامي فيها مرتبطاً بالاتنوس التركي، وظهور النزعة الانفصالية بدرجات متفاوتة القوة بين البشكير والتتار، إلا أنها تستوقف المؤلف الذي يفرد صفحات لموضوع الحيلولة دون «الانفصالية التركية ـ الاسلامية» فيتحدث عن دور نوعين من التكامل ـ العرضاني (وفق خطوط العرض) والطولاني (وفق خطوط الطول) ودور كل منهما في الوصول إلى التلاحم أو التخلخل السكانيين. أما إغراءات منطقة الليناالاند التي تجعلها مطمعاً للأطلسيين فتجعل المؤلف ينصح بعدم الركون إلى الإجراءات العسكرية وحدها، بل يقدم مجموعة من المقترحات الأخرى مشيراً إلى أن من غير المستبعد أن يطرح نفسه السؤال حول نقل عاصمة الأوراسيا بكاملها إلى هذه المناطق «العاصمة التي لم تكن ولم تظهر بعد، عاصمة الألف عام الجديدة».

وبهذا التفصيل والحماسة يتحدث المؤلف عن الجنوب لا في حجمه الروسي بل الأوراسي الواسع، وبهذا يمتد من البلقان حتى منغوريا. وفي الحديث عنه تتداخل أمام أعيننا أعداد من المشاكل كمسألة أوكرانيا والبحر الأسود وقزوين

فـ «الخارج القريب» في آسيا الوسطى وينتقل منه إلى مجالات أبعد نحو الشرق فـ «العودة الجيوبولتيكية لروسيا إلى أفغانستان أمر لا مفر منه ، وقد حددته الجغرافيا نفسها مسبقاً» وهكذا تتجه الخطوط إلى باداخشان فالصين فما هو أبعد من ذلك. واللاّفت للنظر أن المؤلف يصرّ في حديثه عن باداخشان على «الصيغة الأكثر هندأوروبية في الإسلام» وعلى أن هذه الدولة «تشكل في المنظور الإتني هنوداً اعتنقوا الاسلام» وهذا ما يعيدنا إلى نظرته نحو ما يسميه بـ «الاسلام في صيغته الايرانية» وكل ذلك محكوم ـ في تصورنا ـ بنقطتين: ـ أولاهما هذه النظرة الضيقة إلى آرية الايرانيين ومسلمي تلك المناطق الذين نجلّ تفكيرهم الديني عن الانسياق خلف دعاوى العنصرية والعرقية التي يؤكد عليها المؤلف والتي أبطلها الاسلام وحاربها في مجموع حربه ضد كل صور التمايز بين البشر إلا على أساس العمل الصالح، والثانية أن نظرة المؤلف مشوبة في حد ذاتها بنظرته إلى تاريخ المسيحية وما حدث بين كنيستيها ـ الشرقية والغربية من قطيعة لم يصل المسلمون إلى مثلها ولا نحسب أنهم يصلون.

وإذا كان المؤلف قد تحدث عن الجانب الشرقي تحت عنوان «تحدي الشرق» فقد اتخذ حديثه عن الغرب عنوان «تهديد الغرب»، ويفتتحه المؤلف بفصل «غرْبان» أحدهما أوروبا والآخر الغرب الأطلسي. وإذا كانت السياسة التي ينبغي تطبيقها على الغرب الثاني تقوم على «بث الفوضى الجيوبولتيكية في الواقع الأمريكي عن طريق التشجيع، وبكل فعالية، لجميع حركات المخالفة في الرأي ـ الفئات المتطرفة، العنصرية، الطائفية التي تزعزع الاستقرار في العمليات السياسية الداخلية في الولايات المتحدة» فأوروبا، على العكس من ذلك، يجب أن تشجع على إقامة وحدتها وأن يجري العمل على إقامة تحالف باريس ـ برلين. فالمهمة الأهم ـ في رأي المؤلف ـ هي تخليص أوروبا من نفوذ الولايات المتحدة ومن تعزيز علاقات التكامل معها.

وتحتل دول ما يسميه المؤلف «بالنطاق الصحي» مساحة معتبرة من الحديث عن الغرب وقد تمت صياغة هذا «النطاق» من طرف «شعوب ودول صغيرة حاقدة ولا مسؤولة تاريخياً، ذات مطالب متهوسة وارتباط عبودي بالغرب التالاسوكراتي» (ص 388) ويسمي المؤلف مجموعة شعوب الدول البينية التي عملت خلال التاريخ على تدمير التشكلات القارية الإمبراطورية الكبرى كالإمبراطورية الروسية والنمساوية

ـ المجرية. والاتحاد السوڤياتي؛ وهي تثير لدى المؤلف تأملات مستفيضة تتسم بالاندفاع والسخط بسبب ما تلحقه من أضرار بجاراتها الدول الكبرى، ثم يشرح دور الأطلسية في تشجيع وتقوية هذه الدول البينية وهو ما سنعود إليه بعد قليل.

والأهمية التي يكتسبها الباب السادس من كتاب أ.دوغين تتمثل في كونه أقرب إلى «التطبيق العملي» الحي على ما كان المؤلف قد قدّمه في دراسته هذه تحت عنوان «التحليل الأوراسي». والباب طويل وسنكتفي بالتوقف عند بعض فصوله: فالأول من هذه الفصول يحمل عنواناً غريباً «جيوبولتيكا الأرثوذكسية» ولكن يسوّغه منطق الجيوبولتيكا التي تتضافر فيها كافة العوامل التي تكوّن الوجود الانساني. ومن خلال هذا الفصل تنفتح أمام أعيننا طبيعة أحد المذهبين الأكبر من المسيحية ـ المنشأ والتاريخ وأهم المراحل التاريخية. ويعرض ذلك في ضوء عدد من الحقائق التاريخية التي عشناها في علاقاتنا مع الدولة البيزنطية أو مع روسيا أيام الدولة العربية أو عندما كنا جزءاً من الدولة العثمانية، بالإضافة إلى الانعكاسات العقائدية فالسياسية التي تلت القطيعة مع روما، والأحداث التالية لسقوط القسطنطينية وإعلان موسكو نفسها «روما الثالثة» وصولاً إلى حركات تحرر الشعوب الأرثوذكسية وانفصالها عن الدولة العثمانية. وبهذا، ومن خلال ما يكاد يتحول إلى دراسة في المذاهب الدينية، يظهر تاريخ دول أوروبا الشرقية ـ بلغاريا ورومانيا ومولداڤيا واليونان ودول يوغوسلاڤيا السابقة وبولندا في منظور جديد يقنعنا بالدور الكبير للدين كعامل تاريخي فاعل كما تتوالى الصفحات الجديدة من تاريخ هذه الدول الحديث مضافاً إلى الأسس التي تبني عليها أحلامها «الكبرى» كما في الحديث عن «بلغاريا الكبرى» و «رومانيا الكبرى» و «صربيا الكبرى» قبل أن يعصف المد الاستعماري الحديث بكل هذه الأحلام.

ويعدّ الفصل الثالث «المشاكل الجيوبولتيكية في الخارج القريب» أحد أهم الفصول في هذا الباب، ويتضمن الحديث «الثاني» للمؤلف الذي يناقش وبنفس الحرارة والسخط اللذين لمسناهما في الباب السابق، دراسة ما يسمى بدول «النطاق الصحي»، فيحلل طبيعة هذه الدول وتموضعها في العادة بين «تشكلين جيوبولتيكيين كبيرين يمكن لاتحادهما في مدى كبير أن يشكل منافسة خطيرة على الدولة المعنية» أما موقف المؤلف من «استقلال» هذه الدول فيذكر إلى حد بعيد بنظرات فرانس فانون في «معذبو الأرض». يقول أ. دوغين : «لا يمكن الحديث

عن أي نوع من الاستقلال الحقيقي أو الحرية... هذا على الرغم من أن «القومية الضيقة» القصيرة النظر قادرة على مستوى ضيق تفكيرها أن تساوي بين هذه التبعية الاستعمارية «للدولة الثالثة»، وبين انتصارات «النضال الوطني التحرري». ثم يقول وكأنه يستبق الزمن منذ نهاية القرن الماضي ويرى إلى هذه الدول وهي تتسابق للانضمام إلى الناتو: «إن دول الخارج القريب» الغربية الطامحة حقاً إلى الاستقلال (وليس «المقضي عليها بالتحرر» بسبب من سياسة موسكو الخيانية) ستختار وفق أقرب الاحتمالات، وبطريقة واعية دور «النطاق الصحي» لخدمة الولايات المتحدة الامريكية» في حين يجب أن يعي مسؤولو هذه البلدان «أن قبول الأنموذج العولمي يعني ما لا يزيد ولا ينقص عن التدمير الكامل والنهائي لذاتيتهم، لهويتهم، للوجه التاريخي لدولهم وأممهم، ونهاية تاريخهم القومي».

ومهما كان موقفنا من هذه الدول فإننا لا نستطيع إلا التسليم بأنها موجودة في الأصل على أراضيها وأن تطلعاتها الوطنية ومذاهبها الدينية قد تكونت ضمن شروط وأسباب معيّنة قد يكون فيها ما يبرر سياسة هذه الدول. لكن الثابت أن غرس هذه الدول علامة من علامات السياسة الانجليزية ثم الأمريكية خلال قرون؛ وقد أثبتت الأحداث مقدار ما يمكن أن تعود به من نفع على المستعمر وما تسببه من أذى لجيرانها، ولهذا فإذا لم توجد هذه الدول بصورة طبيعية يغدو إيجادها أمراً ضرورياً، وهذا ما يستدعي إلى الخاطر صورة الدولة الصهيونية التي زرعتها بريطانيا في أرضنا ثم تعهدتها الولايات المتحدة الامريكية بأسباب البقاء مضافة إلى أفتك الأسلحة.

وفي المقالة الختامية للفصل الثالث من الباب السادس وعنوانها «قطبان على أقل تقدير... أو الموت» يشير المؤلف إلى حدة الوضع المعاصر، فإما القبول بالنظام الكوني العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة وإما التكوين الفوري للتكتل الجيوبولتيكي المناوىء للأطلسية، بل إنه لم يعد مهماً - في رأي المؤلف - بأي صيغة وتحت أي شعار يظهر ذلك التكتل الجديد. المهم أن يظهر، وأن يكون مضاداً للعولمة، ذلك أن المهمة الأساسية للولايات المتحدة الآن، هي الحيلولة دون قيام الخيار الجيوبولتيكي (مهما كان نوع هذا الخيار) المعارض للعولمة. وقد وصل الأمر إلى درجة لا تسمح بالاختيار بين الجيد والأجود، فإذا استطاعت روسيا أن تنهض بتلك المهمة كان خيراً فإذا لم تفلح في ذلك فلتقم بتنفيذها كتلة

أوروبا الوسطى تحت الراية الألمانية أو كتلة آسيا الوسطى تحت راية الثورة الإسلامية، أو فليتصدَّ لإنجاز المهمة العالم العربي أو أمريكا اللاتينية على الرغم من أن هذين العالمين غير مزودين، من الناحية العسكرية، بما يؤهلهما لمواجهة دولة فوق العظمى.

ولعل أهم فصل «تطبيقي» في الكتاب هو «الفصل الخامس من الباب السادس «جيوبولتيكا النزاع اليوغوسلافي» فقد بقيت يوغوسلاڤيا بحاضرها وماضيها «مجهولة» بالنسبة للكثيرين إلى أن نشبت فيها تلك الحرب بين الأشقاء واتخذت الصورة التي يمكن أن تقتنع بضراوتها من خلال أنموذج المذبحة الصربية ـ الكرواتية . وقد عرض المؤلف هذه الحرب بصورتيها الداخلية منها والقائمة على التدخل الخارجي، وذلك من خلال الأنساغ التي تجري في عروق الإخوة المتنازعين وتعبّر عنها العناوين المثيرة الموحية ـ فلا طريقة لفهم هذه الحرب ما لم نفهم «حقيقة الكروات» «حقيقة الصرب» «حقيقة المسلمين اليوغوسلاڤ» «حقيقة المكدونيين» وحقيقة التوجهات الدينية الصميمية المسيطرة على الساحة اليوغوسلافية وحقيقة التوازنات القارية بين الأطراف والأيدي الأجنبية التي أرّثت تلك الحرب لتجني ثمارها. وهكذا تبدو يوغوسلاڤيا في أتون هذه الحرب الفريدة الخلاصةَ الفاجعة لتاريخ أوروبا الطويل الذي خلخلته الصراعات والتدخلات الخارجية، وثمرةَ نزاعات دامت قروناً وتجلت نتائجها في الحربين العالميتين الأولى والثانية قبل أن تتوجها الحربُ الأخيرة في ثمانينيات القرن الماضي. أما أبرز نتيجة يستخلصها المؤلف فتعبر عنها المقالة الأخيرة من الفصل الخامس بعنوان «صربيا هي روسيا» لأن سيناريو حرب قارية كبرى يمكن أن يندلع في روسيا، يدور فوق أنموذج بلد بلقاني صغير، ولجميع القوى الجيوبولتيكية المشاركة في نزاع البلقان نظائرها في روسيا ولكن في أحجام مدوية أكبر إلى درجة لا يمكن مقارنتها. فالكروات والسلوڤينيون الذين يطمحون إلى الدخول في أوروبا لهم نظائرهم الجيوبولتيكيون من الاوكرانيين... والنزاع الصربي مع المسلمين شبيه بالمواجهة الروسية الاسلامية الممثلة في آسيا الوسطى وفي القوقاز». ويختم الفصل بمحاولة الإجابة عن سؤال كيف نحول دون وقوع «يوغوسلاڤيا مهولة في روسيا، مريعة بأبعاد مذبحتها الدامية ونتائجها؟»».

وقبل أن يغلق المؤلف الصفحة الأخيرة من الفصل السادس يتطرق لعدد من

التصورات حول «الجغرافيا المقدسة» وهو ما سبقت الإشارة إليه ثم يناقش برؤية جديدة بعض المفاهيم التي شاع استخدامها بصفة خاصة قبل انهيار الاتحاد السوڤياتي مثل «وَهْم الشمال الغني»، الذي ليس غنياً بالمعنى المادي إلا في بعض أجزائه، في مواجهة الجنوب الغني بكثير من قناعاته. وفصل «مفارقة العالم الثالث» و«دور العالم الثاني».

يتضمن الباب السابع أربعة من النصوص المؤسسة لعلم الجيوبولتيكا، وهي ترد برؤى وأحجام مختلفة لكنها تغطي موضوعات مهمة في الرؤيتين التاريخية والجغرافية للعالم، وتقدم مادة معرفية متميّزة. ويلفت هـ. ماكيندر نظرنا في مقالته «المحور الجغرافي للتاريخ» بشمولية رؤيته وبتفسيره للتاريخ الاوروبي الطويل من خلال مجموعة من الملاحظات المكثفة الدالّة التي لخّصت قروناً من الحملات المغولية التركية على أوروبا وعلاقات الغزو والتصدي ثم تحقيق الكشوفات الجغرافية في البحار وانعكاس ذلك على مسيرة التاريخ وتلك الملاحظات الهامة التي قدمها بالنسبة لروسيا مع مقارنات ناجحة لما يجري في العصر الحديث ولما يمكن أن يكون عليه المستقبل.

ومع تسجيل احترامنا لآراء هذا العالم والسياسي المميّز نسجل أيضاً موقفنا من هذا الارتباك الذي يتلبس العلماء الاوروبيين عندما يتناولون التاريخ العربي والاسلامي. فـ هـ. ماكيندر يقدم للحروب الصليبية تفسيراً يتجاوز الموضوعية والمقبولية لا لشيء إلا لأن هذه الحرب انتهت ـ عبر فواجع كثيرة ـ بانتصار العرب على الأوروبيين. فالترك السلاجقة ـ برأيه ـ «قضوا على سيطرة السراسين في بغداد ودمشق وظهرت ضرورة إنزال العقوبة بهم على مسلكهم نحو الحجاج المتجهين إلى القدس، هو ذا السبب الذي جعل العالم المسيحي يشهد سلسلة كاملة من الحملات العسكرية المعروفة باسم الصليب المشترك. وعلى الرغم من إنه لم يتسنّ للأوروبيين تحقيق المهمات المطروحة فإن تلك الأحداث قد هزت أوروبا ووحدَتَها». والمؤلف، كما نرى، لا يذكر العرب في سياق هذه الحرب وكأن أرضهم الواسعة قد خلت من سكانها بدخول الغزاة وجنودهم ـ فحوّلها هـ. ماكيندر إلى حرب بين الأتراك والأوروبيين بينما كانت بكل ما فيها ـ بمجرياتها، بالدماء التي سفكت فيها، بمفاهيم الفروسية التي غطتها، بلغتها وبتوجهاتها الدينية حرباً عربية ـ أوروبية شاركت فيها عناصر تركية مسلمة كان لها وجودها لكنها لم

تلعب الدور الذي يحوّل الحرب، ولو في جزيئة منها، إلى حرب تركية ـ أوروبية. وبالإضافة إلى ذلك يصر المؤلف على إلغاء دور العرب وإذا ما اضطر إلى ذلك سماهم بالسراسين. وفي معرض استعراضه للفرق بين السيطرة «السراسينية» والتركية على الشرق يشير بإعجاب شديد إلى إنجازاتهم: «كان السراسين فرعاً من العرق السامي، أقواماً استوطنوا حوضي النيل والفرات والواحات الصغيرة في جنوب آسيا، وباستخدامهم للإمكانيتين اللتين قدمتهما لهم هذه الأرض ـ الخيل والجمال من جهة والسفن من الجهة الأخرى . أقاموا امبراطورية عظمى. وفي مراحل تاريخية مختلفة كان أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض المتوسط حتى اسبانيا وعلى المحيط الهندي حتى جزر الملايو».

وتكاد مقالة «الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا» لـ ب. ساڤيتسكي أن تكون استمراراً لمقالة هـ. ماكنيدر فقد اختص روسيا بنصيب معتبر من مقالته المتعمقة المتعلقة بمركزية روسيا في الأوراسيا ودورها التوحيدي بالنسبة لثقافات الشعوب المختلفة وهو ما أظهره تاريخها الطويل الذي يعد بحاضر يمكنه أن يعيد تلك العلاقات السابقة وذلك بأن تستعين روسيا بـ «روابط القربي الاتنوغرافية . . . والتي يرتبط بها عدد من الشعوب الأوراسية مع الأمم الأوراسية. روابط الروس الهند اوروبية، روابط الترك الأسيويين مع آسيا الصغرى وإيران، نقاط التواصل القائمة بين المنغول والأوراسية وكلها يمكن أن تحمل الفائدة لصالح بناء ثقافة عضوية جديدة للعالم الذي، وإن كان قديماً، لكنه لا يزال فتياً يعد بمستقبل عظيم».

أما دراسة جان تيريار «الشيوعية فوق الانسانية» فلعلها الصورة الأفضل للرؤية الجيوبولتيكية للمستقبل الاوروبي، وأول ما يلاحظ فيها هذه الدعوة إلى تكوين الإمبراطورية العظمى «من فلاديڤوستوك إلى دبلن» والدعوة إليها دعوة إلى القوة «فالحياة لا ترحم الضعفاء» و«لا أمة بلا جيش، ولا جيش بلا سلاح ذري . . . وليس ثمة اليوم أي وزن دولي لأمة يقل عدد سكانها عن 200 ـ 300 مليون نسمة»، كما كان تيريار أجرأ من قال بعزل انجلترا عن أوروبا فـ «في حرب 1940 لم تكن فرنسا القارية عدو ألمانيا الذي لا يرحم بل انجلترا البحرية. انجلترا بالذات وعلى مدى خمسة قرون هي العدو الأساسي والرئيس لأوروبا» وهذا ما سيشرح ك. شميت أسبابه في مقالته التي تختم النصوص الأربعة وهي بعنوان

«التوتر الكوني بين الشرق والغرب والمواجهة بين الأرض والبحر».

وفي هذه المقالة يشرح شميدت الصراع بين اليابسة والبحر على أنه جزء من الطبيعة الكونية نفسها، لكن أعظم ما يقدمه في دراسته هو الملابسات والأسباب التي أدت بالجزيرة البريطانية إلى الانفصال عن القارة الأوروبية ثم بدأت بعد ذلك بتحقيق وجودها البحري المجرد، والنتائج التي ترتبت على ذلك وبخاصة بالنسبة للثورة التقنية، وهو بالتالي يشرح قضية مهمة يرد بها على التفرّد الانجليزي المزعوم في حقل الصناعة والإبداع اللذين كانا خلال التاريخ الطويل قسماً بين جميع الشعوب غير أن أسباباً معينة هيأت لبريطانيا فرصة الاستئثار بهذه الظروف.

يميّز المؤلف الباب الثامن الأخير من كتابه بعنوان «بديلاً عن الخاتمة» ويخوض فيه جدلاً مع ك. شميدت وينهي الكتاب بمسرد يقدم فيه تعريفاً بكل من المصطلحات الجيوبولتيكية الكثيرة التي وردت في تضاعيف الكتاب.

وبعد استستلام انجلترا لنداء البحر وتحولها إلى قوة بحرية نقطةً فاصلة في التاريخ الإنساني الحديث الذي اتخذ، على أثر ذلك، مقاييسه ومعاييره الحديثة بالنسبة للنشاطات السلمية والحربية. ولهذا نرى أن من الظلم دراسة الحرب البونية بين قرطاج وروما وهزيمة الأولى وفقاً لمعايير الجيوبولتيكا المعاصرة، وربما كان من الأكثر عدلاً دراستها وفقاً لنظرية صاحب «المقدمة»، ابن خلدون ورؤيته المميزة للتاريخ ومقولة «العصبية»، وتوفر القوة بمقدار توفر الهمجية أو الحضارة وذهابها بمقدار ما يذهب من التوحش ويكتسب من الحضارة، وهذا ما يفسر سقوط طروادة أمام أخيل وسقوط قرطاج المتحضرة أمام روما الفتية ثم سقوط روما نفسها أمام البرابرة. ومن المؤسف أن بعض الأدبيات الأوروبية لا تزال تكرر بتشفٍّ مملّ دعوتها إلى دمار قرطاج، الدعوة التي تكررت مرات في هذا الكتاب، ومنطوق هذه الدعوة مقطوع عن سياقه الذي يقرّب روما لا قرطاج من القوة الغاشمة المدمرة. وهو يعود إلى مجريات الحرب بين المدينتين، و إلى معاهدة زاما التي كبلت قرطاج بالأصفاد، وعندما شكت قرطاج لروما غارات خصمها ماسينيسا المتكررة، أوفدت روما سفارة برئاسة كاتون؛ ولم تنته السفارة إلى شيء سوى سلة من أكواز التين القرطاجي حملها السفير معه لينثرها أمام أعضاء مجلس الشيوخ صائحاً: «ثلاثة أيام فقط تفصلنا عن الأرض التي تنتج هذا التين!» وأتبعها بعبارته المشهورة «يجب أن تدمر قرطاج» التي صارت من بعده تعبيراً عن السبب

الحقيقي لهذه الحرب ولحروب كثيرة فرضها الجشع والسطوة.

وقد كانت روما أول من اعتذر لقرطاج عندما أقامت لهانيبال تمثالاً من المرمر أهدته «إلى أكبر رجل حرب بين قدماء الرجال» (اقرأ Jean Bablyon Emperatrice Emperatrices Syriennes، الطبعة العربية، دمشق دار العلم 1987 ص 62) واعتذرت إليها منظمة اليونيسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة عندما أصدرت عدداً خاصاً من «رسالة اليونيسكو» (يناير 1971) تحت شعار «لا تدمروا قرطاجة» وتحدثت عن تاريخ المدينة وأهميتها وخصائصها الفنية التي عجزت طبقات الركام والملح والحقد التي غطيت بها المدينة عن حجبها أو النيل منها.

لم يَبْق إلا أن يقتنع المتعصبون بأن يتركوا قرطاج لسباتها الأبدي الجليل. وليتذكروا أياديها النبيلة في سفر الرفد الحضاري للمناطق الواسعة التي سيطرت قرطاج عليها وأعانتها على النهوض. فإذا أعماهم التعصب عن ذلك فليتذكروا درس تضحياتها الأخير ومعنى أن يكون الوطن هو الحياة.

* * *

وبالإضافة إلى ما يتضمنه كتاب أ.دوغين من قضايا ومسائل وآفاق واسعة فإنه يشتمل على مسألة أخذت حقها من الترجمة لكننا لا نستطيع إلا أن نوفيها حقها من المناقشة قبل أن نبيّن موقفنا منها. وهذه المسائل هي:

وقد وردت في الصفحات 473 ـ 479 و560 ـ 565 من الكتاب الأصل فكانت مفاجأة تبعث على الدهشة وتثير الظن بل والترجيح بأن تكون هذه الصفحات محمولة، بكيفية ما، على الكتاب لأنها تتعارض في توجهها وفي أسلوبها ومنطقها العام مع السياق العام لكتاب «أسس الجيوبولتيكا» برمته، ومع القيم الانسانية، الخلقية والدينية التي دعا المؤلف بحماسة إلى الأخذ بها والسير على هديها، مثلما تتعارض مع الطبيعة الروحية الروسية ومع «الأرثوذكسية» الروسية والرسالة الروسية التي أكد المؤلف عليها جميعاً بكل اعتزاز، بل ومع «الطبيعة الإمبراطورية» للشعب الروسي الذي تعايش قروناً مع عشرات الشعوب والأعراق والإتنيات واللغات التي ربما قاربت المئة عدداً دون أن تظهر في تاريخه، وحتى في أشد مراحله قتامة وإظلاماً، أية بوادر للعنصرية أو الفوقية العرقية إلى درجة أن ظهرت نظريات تحاول تفسير هذا «التطرف» في اللاعنصرية لدى الروس. وخير شاهد على ذلك الأدب

الروسي الذي كان بتوجهاته الديموقراطية والانسانية وقضاياه الخلقية مرآة للروح النبيلة للشعب الروسي.

تتناول المجموعة الأولى من الصفحات رؤية المؤلف للشمال والجنوب ويعتمد الكاتب فيها أسلوباً تقريرياً يفرض قبول ما يقال على أنه مسلمات لا تحتاج إلى أي شرح أو برهان فمن ذلك قوله: «وآخر بقايا هذه الثقافة البريموردياليه قد اختفت من الواقع الفيزيائي منذ بضع آلاف من السنين، وعلى هذا فإن الشمال في التقليد ـ واقعٌ ما وراء التاريخ وما وراء الجغرافيا، والشيء نفسه يمكن قوله حول العرق الهيبيربوري ـ فهو «عرق لا بالمعنى البيولوجي بل بالمعنى الروحي الصرف». وإذا سلمنا بهذه المنطلقات لا بمعناها البيولوجي بل بالمعنى الروحي سَهُل علينا قبول «إن الطبقة البدئية الأقدم للتقليد تعرض أولوية الشمال على الجنوب، فرمزية الشمال ذات علاقة بالنبع، بالجنة النوردية الأولى، والتي منها تستمد الحضارة الانسانية كلها بدايتها» «أما الفكرة المرتبطة تقليدياً بالشمال فهي فكرة المركز، القطب الراسخ، نقطة الأبدية والتي لا يدور حولها المدى فقط بل والزمن، الدورة. الشمال هو الأرض التي لا تغيب فيها الشمس حتى في الليل، مدى النور، النور الأبدي». ولكن ألا يقول لنا منطق دورة الطبيعة وحركة الشمس والأرض، وبنصيب مماثل من الرجحان بأن الشمال، في الوقت نفسه، هو الأرض التي لا تشرق فيها الشمس حتى في النهار، مدى الظلمة، الظلمة الأبدية. وعلام يجب أن نعتمد عندما يطلب منا التسليم بهذا الموقف الذي ينسحب على قسم كبير من أبناء كوكبنا الأرضي المشترك، والمتعلق بارتباط «الشمال بالروح، بالنور بالطهر، بالكمال، بالوحدة، بالأبدية، أما الجنوب فيرمز إلى شيء مختلف كل الاختلاف، إنه المادية، الظلمة، الاختلاط، الحرمان، الكثرة، الغوص في تيار الزمن والتحول». والقبول بهذه «الحقائق» سيوصلنا على ما يبدو إلى ما يراد من تسويد أحد القطبين على الآخر: فـ «إزاء اعتراف الجنوب بأولوية الشمال تقوم بين هاتين الجهتين من جهات العالم علاقات متناغمة، الشمال يلهم الجنوب . . . . فإذا رفض الجنوب الاعتراف بدأ التنازع المقدس «حرب القارات».

ومع أن تحولات كثيرة حدثت منذ العهود السحيقة فقد «تغلغلت شعوب في الأراضي الجنوبية فأقامت الحضارة النوردية الواضحة التعبير. . . و . . . . تغلغل الجنوبيون أحياناً بكاملها مسافات بعيدة إلى الشمال حاملين معهم طرازهم الثقافي»

و «أعراف الجنوب المعاصرة تمثل خلاصة الاختلاطات الكثيرة العدد من عروق الشمال، ولون البشرة كفَّ منذ زمن بعيد عن أن يكون المظهر المميّز للانتماء إلى هذا العرق الميتافيزيقي أو ذاك» دون سواه، أما إنسان الجنوب فهو «النقيض المباشر للخط النوردي... ينزل في الكوسموس الذي يجلّه ولكن لا يفهمه... ينحني أمام الخارجي ولكن لا الداخلي... عاجز عن الانتقال من الرامز إلى المرموز... إنسان يعيش بالشهوات والاندفاعات ... يضع الروحي أعلى من الروحاني (الذي بكل بساطة لا يفهمه».

وإذا كان من المسلمات المطروحة أن الحضارات النوردية غابت في غياهب العهود السحيقة من الزمن فإنها خلفت «عرق» المعلمين «النورديين» الذي كان يقف عند منابع الديانات والثقافات لشعوب جميع القارات وجميع ألوان البشر فيمكن العثور على آثار العبادة الهيبيربورية عند هنود أمريكا الشمالية والسلافيين القدماء وعند مؤسسي الحضارة الصينية عند السكان الأوائل في المحيط الهادي ولدى الجرمان الشقر الشعور ولدى الشامانات السود في أفريقيا الغربية ولدى الأزديك والمنغول البارزي الوجنات، فليس ثمّة شعب على وجه الأرض لا يملك أسطورة عن «الإنسان الشمسي Sonnenmensch». ومع أن العبارة أسقطت الشعوب السامية من جرد الشعوب التي تأثرت بالنورديين فإنها صادرت الاستقلالية والتفرد الذاتي للجميع دون أن تحدد طقساً معيناً من آثار العبادة الهيبيربورية، فإذا افترضنا أنها عبادة الشمس التي جرى ذكرها قبيل هذه العبارة وفي خاتمتها فإن عبادة الشمس هذه عُرفت حقاً عند معظم الشعوب لكنها ارتبطت بالتفكير الانساني في خلق الكون والاهتداء إلى معرفة من أوجده، لهذا كانت هذه العبادة أقرب إلى الإرادة الذاتية الفطرية من كونها مرتبطة بنقطة معينة لابدّ وأن تكون الشمال. وهذا ما يفسّر نسب الفراعنة أنفسهم إلى رَعْ، الراعي، الشمس «راعية النهار، وقصائد أخناتون وأناشيده المؤثرة إلى معبوده الشمسي وتلقّي حمورابي شريعته عن الإله الشمس الذي انتشرت عبادته في اليمن والشام أيضاً ومنها انتقلت إلى روما عندما «صبّ العاصي في نهر التيبر».

أما المثال الذي يضربه المؤلف على أولوية البطلين النورديين بروميثيوس وهرقل وتميّزهما فلا يخرج عن سياق التكامل المألوف بين الثقافات الانسانية، القديمة منها والحديثة. فليس سرّاً دور البطلين جلجامش البابلي وميلكارت الفينيقي

في صياغة هاتين الشخصيتين. فالأرض السامية رفدت حضارة اليونان والرومان بالكثير بدءاً من «اللوغوس» الذي يتكرر استخدامه في الكتاب ضمن التأملات حول النورديين وحتى الاشراقات الأولى لكريت فجر الحضارة اليونانية وحتى أرحب ميادين الفكر والفن. بل ومن حقنا أن نتساءل، نحن الذين لا نزال نسمي أرسطو «المعلم الأول» ـ وما الذي يتبقى من التراث اليوناني إذا جرّد من الإسهام السامي؟

وبعد مئة صفحة من هذه الصفحات تكتمل الرؤية الجديدة لدى المؤلف وتدرك غايتها في الصفحات 560 ـ 565 إلا أن الخطاب يمضي مستمراً في تقريريته بينما يترك الحديث تدريجيا لرينيه غينون الذي سيصل بنا إلى النتيجة الحاسمة. ومن اللافت للنظر أن المؤلف الذي كان على مدى مئات الصفحات قد حصر الصراع الكوني ضمن ثنائية عنصري الأرض والماء لم يأت على ذكر عنصر النار لا تصريحاً ولا تلميحاً، بينما نجده يسترسل فجأة في الحديث عن «العنصر الذي غيّب عن الأنظار»، النار، التي احتلت مركز الصدارة في الوجود الانساني، الفردي والجماعي «فلما انطفأت النار المقدسة في بيوت البشر، في قلوب البشر، في معابدهم تصاعد زئير لوياثان الأسطوري» وخسرت الأرض في المبارزة مع البحر. ثم يعود المؤلف إلى القضية التي كان ك. شميدت قد ناقشها وانتهى فيها إلى ما يشبه استحالة الاستمرار في هذا البحث فـ «العقبة الوحيدة في هذا السبيل هي استحالة مماهاة الشرق بصفة حادة مع الصراع ضد الأيقونة والغرب من تمجيد الأيقونة». لكن القضية تتخذ بعداً مصيرياً بالنسبة للمؤلف معتمداً في ذلك على رينيه غينون حيث تُحوَّل الأيقونة وقد أضيف إليها ما يسمى بـ «تحطيم التماثيل» إلى «الحدّ» الذي يفصل بين «الحق والباطل» بين وجودين بشريين ينفي كل منهما الآخر (!) ثم نقرأ: «النفور من التصوير وتحطيم التماثيل ليسا من خصائص الشرق بقدر ما هو من خصائص الجنوب»فتتوارد إلى الخاطر صور هذا الشرق العظيم، شرقنا الذي جسّدنا فيه الجمال بالصورة، وبالصورة، عالجنا مرضانا، وبالصورة كتبنا وما زلنا نعالج الصورة والصور حتى حولناها حروفاً تكونت منها الأبجدية، أثمن هدية قدمناها للبشرية، الشرق الذي أبدع منذ فجر التاريخ أكثر الصور والتماثيل تعبيراً عن الإنسان وتجليات وجوده في الحياة، عن تصوراته للآلهة، لحركة الطبيعة منذ أيام التاسيلي حيث «تأبّدت» حركة الحياة في الصورة المنقوشة في الصخر ومروراً بمصر التي وصل الفنان فيها إلى التعامل مع الصخر والخط

واللون وكأنها مادة لينة طوع يديه ووصولاً إلى اليمن والعراق والشام وكلها تعيد صياغة المخلوقات الحيوان والنبات والجماد صوراً وتماثيل تنافس الحياة في حيويتها. وبالإضافة إلى ذلك أقام أبناء الشرق الساميون على أرضهم أوابد الفن المعماري ـ من القصور والمعابد والمدن والأهرامات التي لا تزال تتفرد بأسرارها وتصاغ التفاسير لمجرد الاقتراب من هذه الأسرار أما الأوابد اليمنية فهناك من يربط بعض مبانيها بأقوام ربما جاءت من عوالم أخرى، واختلطت صور الحدائق المعلقة في بابل بين الحقيقة والخيال، ومنذ ثلاثمئة عام بنيت بطرسبرج، إحدى أجمل عواصم العالم، فلقبوها بتدمر الشمال! ثم نقرأ: «يشير غينون . . . إنه لبناء معبد سليمان تمَّ استدعاء المهندس الأكبر من بين الغرباء ويبرهن على أن الحديث كان يدور حول ممثل للتقاليد الهند أوروبية». ليبرهن غينون قدر ما تشاء له براهينه فالنبي «الحكيم» قادر على تمييز الأم الحقيقية الأصلية عن «الأم» الدعيّة الغريبة! ثم نقرأ «غينون يؤكد على أن التقليد السامي ليس تقليداً شرقياً بل أطلسي غربي، وهو في الوقت نفسه بدوي». ثمّة إذن شيء يبّيت وراء هذا الاصرار على تجريدنا من الأمور الصميميّة في كياننا، من الصورة والأيقونة والتمثال والعمارة. التقليد السامي تقليد بدوي إذن! تلصّق البداوة بأمهر المعماريين في التاريخ الإنساني حتى اليوم، من روّضوا النيل والفرات ودجلة وبنوا أسوار بابل وشادوا أعظم السدود في اليمن وحوّلوا أراضي الشام قمحاً وزيتوناً ووروداً فالجنان تستمد صورتها منها، وشفّت حضارة الاستقرار من أساطير هؤلاء الساميين وملاحمهم القديمة ونصوصهم الأدبية والحقوقية المتعلقة بأدق قوانين ملكية الأرض والمغارسة والبيع والإرث وما كانت نسبة البدو بينهم تفوق عما هي عليه لدى أي شعب آخر. ولكن من الذي تهمّه معرفة الحقيقة في عصرنا العجيب! ثم نقرأ: «غينون في الوقت نفسه يربط الشرق بالشمال إذ يعدّه الوريث التاريخي للتقليد النوردي البدئي» وما هي إلا أسطر قليلة حتى نقرأ: «وعلى القطب المقابل من التاريخ يظهر طبقاً لذلك الجنوب بمعية الغرب (!)، البدو الساميون، ومن شأن غينون أن يسمى هذا المعسكر بـ «المنطلقات الأولى المعادية للتقليد» «بناة المحاكاة الساخرة العظمى» وبهذا تتعطل الحجج والعقلانية وبخطوة بهلوانية يسحب الشرق من تحت أقدام أهل الشرق ليلحق بالشمال، وبقفزة بهلوانية أخرى يسحب الشمال أيضاً ويعطى لنا «دور العامل السامي ـ الغربي والبدوي وفقاً لغينون والجنوبي إذا ما قيّمنا انتشار الساميين

من مواقع الأوراسيا». فما الذي يراد للساميين وقد جردوا من أخصّ خصائص هويتهم ـ من الاستقرار، من البناء والزراعة ووسائل الري وتشييد المدن ومن الصورة والتمثال . . . ومن الإسهام الفاعل في الحضارة الإنسانية؟ ماذا وقد حُوّلوا عن الجهة التي يحتلونها تحت الشمس؟ فهل من العجيب بعد ذلك أن تتداعى كل اللوحة التي رسمها أ. دوغين في كتابه وتنهار وأن ينسحب الصراع بين التيلوروكراتية الروسية والتالاسوكراتية الأطلسية وأن تختفي معالم العولمة والقطب الواحد وتغيب أحلام المؤلف، وأمانيه وأمانينا معه، في إقامة عالم جديد تتعدد فيه الأقطاب وتستعيد الشعوب إنسانيتها التي دعا إليها سياق الكتاب كله، وأن نواجه عند «التصفية النهائية» بمواجهة بين مَن؟ بين «الهندأوروبيين» و «الساميين»! وفي الصفحة الثانية قبل الأخيرة من الكتاب، وبالإضافة إلى بعض الأوصاف المهينة نقرأ ما لا تكاد تصدّقه العين:

«الشمال + الشرق، الأيقونة، الهندأوربيون، النار، البيت، الاستقرار، التقليد واليابسة. هذه قوى نوموس الأرض، أنصار الثقافة والنظام، الذين أجابوا على تحدي النار الفائقة بمجموعات من التقاليد الآرية ـ حتى المسيحية».

الجنوب + الغرب، محاربة الايقونة، الشعوب السامية، الماء، السفينة، البداوة، الحداثة والبحر، حملة الأغلال، الطاقات الأُخروية للفوضى العقلانية، نوموس البحر. لقد ردّوا على تحدي المحيط بوقوفهم إلى جانبه ضد الأرض وضد القضية البروميثيوسية النارية الأقدم، التي تكاد تكون منسية والتي سبقت نوموس الأرض وكامل التاريخ الإنساني.

ذاك ما تفضي إليه المواجهة بمجرد أن جرّد الساميون من الأيقونة (!) والحق إن إنكار الرسم والنحت على الساميين أشبه بتغطية الشمس بالغربال. فما الذي يراد من قلب التاريخ بهذه الصورة؟ ما الغاية الحقيقية من وصفنا بالبداوة والترحل وتجريدنا من شرقنا وحرفنا مسافات بعيدة نحو الجنوب؟ ولم نُتهم بمحاربة التماثيل وتحطيمها وما نُهب منها مما حفظناه في متحف بغداد لوحدْها يقدر بمئات الألوف؟!

* * *

وأخيراً ما الذي يمكن أن نقوله للقارىء العربي وقد «حال الجريض دون القريض» وتلبّدت كل الأجواء بالغيوم.

الكتاب، على أهميته لا يبعث على الكثير من الأمل، بل ويفاجئنا بالعنصرية التي تمخضت عنها صفحاته الأخيرة لكنه مهم مع كل ذلك. وأثبتت الأيام ما تحدث به المؤلف حول ضمور دور الأمم المتحدة حتى خرجت دول التحالف لتخوض حرباً كانت المظاهرات في أمريكا وانكلترا والعالم قد خرجت ضدها حتى قبل أن تشتعل، وعندما تحدث بسخط وانفعال عن دول «الخارج القريب» التي ستتسابق إلى خدمة الأطلسية وقد فعلتْ. وكان جريئاً في نقده لبلاده وصريحاً في توكيده، دون أي مبالاة، على المفاهيم التقليدية للعلاقات الدولية وأحقية الأقوياء دون غيرهم في رسم خرائط الكون. فحتى الهند الدولة ـ القارة الذرية التي قطعت مراحل متقدمة في الصناعات الالكترونية والتي تبني حاملات الطائرات ما شغلت في مخططات أ. دوغين إلا مرتبة ثانوية تفتحها أمامها القدرات الميتافيزيقية لبعض كهنتها؛ كما لم يخصص لوطننا العربي إلا القليل وإن كانت له أهميته.

ومع هذا فلن نقبل بالانحياز إلاّ إلى الفئة المتفائلة بسيادة الحق والخير في المستقبل. الحقيقة دوماً إيجابية، ونحن في حاجة إلى المواجهة مع الذات ومع الواقع الكوني المعاصر العلم الذي يحذرنا من بين دفتي هذا الكتاب وعلى لسان أحد الذي يريدون الخير لبلادهم أن لا أمة بدون قوة، ولا وزن دوليّ لأمة يقل عدد سكانها عن مئتي إلى ثلاثمئة مليون نسمة. ذاك هو قانون الجيوبولتيكا الجديد.

نسجل هذه الكلمات لا لنعبر عن الحسرة أو لنعلن أن الوقت قد تأخر، فكل وقت تستيقظ فيه الإرادة وتستعاد الثقة بالنفس والعزم والتصميم هو الوقت المناسب. ولقد قرع كتاب أ. دوغين ناقوس الخطر وفعل ذلك مؤلفون آخرون من قبله وسيأتي من بعده من يقرع هذه النواقيس ليعلن بصوت أعلى أن العالم بأسره معنيّ ومستهدف من أقصاه إلى أقصاه وأن عليه أن يتأهب ويستعد للتوجّه نحو تعددية الأقطاب.

فهل حان الوقت ولو لقليل من التضامن العربي الصادق بين أجزاء هذه الأمة العظيمة التي تملك مئات آلاف المتخصصين في مختلف ميادين العلم المعاصر، والتي وُضع حتى تاريخها المشترك المجيد في قائمة الأهداف المطلوبة اليوم. لقد آن لنا أن نستعد بكل ما نستطيعه من قوة الإيمان بالله وبأمجاد الأجداد وقوة

التضامن العربي والإرادة الواحدة وبكل ما نستطيعه من رباط الخيل؛ والخيل في العصر الحديث هي التقنية المتطورة والأسلحة الحديثة التي لا يضمن توفرها واستخدامها وتطويرها إلا العلم... العلم المتقدم الحديث.

أ.د. عماد حاتم

2003/5/14



مقدمة الطبعة الثالثة

تصدر الطبعة الثالثة من كتاب «أسس الجيوبولتيكا» في صيغة موسعة إلى حد كبير. وقد أضيف إليها كتاب «تفكير عبر المدى»(*) حيث تم عرض التواصل المتبادل بين التصور الجيوبولتيكي والسياقات الإتنية، الثقافية، الدينية، التاريخية والفلسفية. وهذا، في حقيقة الأمر، محاولة لإكساب الجيوبولتيكا طابع العلم الإنساني المؤصَّل، والذي لا يشتمل فقط على الميادين العملية للسياسة والاستراتيجية العالميتين، بل وعلى الطبقات السوسيولوجية والتوجيهية الفكرية للوجود الاجتماعي.

لقد نفدت طبعتا «أسس الجيوبولتيكا» بسرعة ملحوظة. وهو ما يشهد على أن الاهتمام بها يتنامى بشكل متواصل وعلى أن أعداداً متزايدة من البشر ـ من بين الاختصاصيين أو مجرد الفضوليين ـ تطمح إلى التعرف عن كثب على المبادىء المؤصلة لهذه المنظومة العلمية.

وشيئاً بعد شيء يغدو من الأمور الواضحة بالنسبة لأبعد المتشككين غوراً، أن المنهج الجيوبولتيكي، أردنا ذلك أم لم نرده، أخذ يتلمس طريقه، بصفة تدريجية، نحو الفئات الأكثر اتساعاً بين الأوساط الاجتماعية طامحاً إلى أن يغدو الوسيلة التي لا تعوَّض والأكثر أهمية من أجل توضيح ذلك الموقف البالغ التعقيد الذي نلتقي به في روسيا والعالم اليوم.

والحق أن المقاربة العقائدية، والمؤسسة، بصفة استثنائية على تقييم الطبيعة

(*) يشتمل هذا الكتاب على ترجمة «أسس الجيوبولتيكا» فقط. (التحرير).

الاقتصادية للمجتمعات والدول قد شاخت بصورة لم يبق معها أي أمل. فلم يعد ثمة وجود لمعسكرين متعاديين فكرياً يدافعان عن أنموذجين من الاقتصاد متعارضين بصورة جذرية وفي الوقت نفسه لم تختف الحرب الباردة ولا صورها الأكثر حداثة. لم يعد ثمة وجود للدول القوميات التي كانت تقليدية بالنسبة للمئات الأخيرة من السنين، ومع ذلك فالصراعات الدامية تمزق أوصال أوروبا، آسيا والشرق الأوسط. وبدا أن الدين لم يعد يلعب ذلك الدور الذي لعبه في عهد الحملات الصليبية والفتوحات العربية، بيد أن الثورات والانتفاضات والحركات الانفصالية تقوم تحت راية المذاهب الدينية.

إن الإنسانية، وقد خرجت من مؤتمر يالطا للسلام، تقف على عتبة ألفيتها الجديدة أمام واقع جديد لا يفكر بالتطابق مع الأحلام الطوباوية الساذجة لبعض الليبراليين المتسرعين. إن توحيد العالم يتمخّض عن أعداد من القضايا والمشاكل تربو عما تقدمه من إجابات. أما النظم الجاهزة السابقة والأنماط المألوفة للتحليل التقليدي فتشيخ أمام أعيننا.

في مثل هذا الوضع يتوجه الوعي أكثر فأكثر نحو الجيوبولتيكا ـ تلك المنظومة العلمية التي استقرت زمناً طويلاً عند المشارف الطرفية للتحليل العلمي ـ والتي تقدّم، على الرغم من ذلك كله، نظماً مريحة وبسيطة إلى حد الإغراء أحياناً، لتفسير تلك اللوحة الجديدة للعالم والتي يتم تشكيلها على تخوم القرون وآلاف السنين.

الجيوبولتيكا تعيد تركيب المناهج التقليدية المختلفة للبحث ـ من نظرية الحق وحتى علم الثقافة، من السوسيولوجيا وحتى الاستراتيجية العسكرية، من علم الأديان وحتى التحليل الاقتصادي، من الأنطولوجيا وحتى الطب النفسي. ومما لا جدال فيه أن هذه الرحابة في الاشتمال تطالب بكمّ لا يستهان به من التبسيط والتقديرات التقريبية والانتقائية. ولكن ضمن شروط الافتقار الحاد إلى النظريات المعمِّمة، وضمن شروط «نهاية الأيديولوجيات»، التي ظلت ردحاً طويلاً تخدم الإنسانية بوسيلتها التي لا تتبدل لشرح العالم، ويبدو مثل هذا التفسير التركيبي وقد قدّر له النجاح.

والجيوبولتيكا ليست عقيدة جامدة، ليست تجميعاً لحقائق ثبتت صحتها مرة

وإلى الأبد، وتمت البرهنة عليها علمياً ودراستها بشكل مفصّل. إنها أقرب إلى أن تكون باقة من بداهات أحداس تاريخية توحد بينها متعة الإحساس باللذة المسبقة للتعرف على الواقع ضمن منظور جديد غير مسبوق. ويمكن القول بأن هذه المنظومة تستمد جاذبيتها من تفتّحها بالذات، ومن كونها تنتسب للتطور الخلاق في كافة الاتجاهات، لأنها في طورها الجنيني ولأنها تجتذب الأرواح الحية المتوثبة والعقول الباحثة عن بدائل للمناهج القديمة السائرة إلى الاضمحلال.

وقد لا يكون من المبالغة القول بأننا نعيش فترة ثورة الجيوبولتيكا. فهذه الكلمة لا تغيب عن الأسطر الأولى في الصحف ولا عن شفاه المذيعين. وعلى الرغم من أننا، وعلى نحو ما كانت الأمور عليه في السابق، لا نجد إلاّ القلائل فقط، ممن يضمّنون هذه الكلمة المعنى الذي يحمل في الواقع علاقة بالمسلّمات الانطلاقية الأساسية لمنهج الجيوبولتيكا، فإن الاهتمام الشمولي بها لا يمكن إيقافه. وهذا يعني أن فهمها المدقق الصحيح قادم بالتدريج.

إن الأحداث المأساوية للحروب الجديدة لم تلعب الدور الأخير في النصر النهائي للجيوبولتيكا، فعدوان الأطلسيين على العراق وصربيا والتوجهات الانفصالية على أراضي روسيا الاتحادية أكدت بصورة كاملة جدارة تلك الأنماط التي يعتمد عليها علماء الجيوبولتيكا بصفة أكبر من خلال ترسيخهم لمبدئهم المركزي - المواجهة بين الأطلسية والأوراسية، بين التالاسّوكراتيا والتّيلوروكراتيا، بين لوياثان وبهيموت، بين البحر والبر، بين الغرب والشرق، المبدأ المركوز في صلب طبيعة المجال النوعي الثقافي، وعليه فإن القانون الأهم في التاريخ الإنساني هو الحرب العظمى المحتومة بين القارات، والمبارزة المستمرة بين الحضارات وصدامها التكتوني(*).

بعد انتهاء المواجهة الأيديولوجية بين «الاشتراكية» و«الرأسمالية» وبعد وحدة أوروبا وطرح اليورو، وبعد نزع سلاح روسيا من طرف واحد، لم يعد العالم، ويا للأسف، أكثر سلاماً. لم تنخفض فيه نسبة العدوانية. كما لم يتنام حجم العدالة، ولا تقلّصت أحجام المعانيات ولم ينسحب الكذب والنفاق والمصالح الضارية إلى

(*) التكتوني: الحافل بأشد النتائج قسوة. فالتكتونية: عملية التشويه التي تتعرض لها قشرة الأرض محدثة التضاريس (المترجم).

المرتبة الثانية، يقول الفرنسيون: «Plus ca change plus c'est la meme chose» (كلما زاد التبدّل، زاد الأمر بقاء على حاله). والجيوبولتيكيون يرون العالم على هذه الصورة بالذات: تبدلاته وتحوّلاته ومفاصل تطوره وتغيّره لا تمس إلا قشرة الأشياء ويبقى الجوهر على حاله. التقدم التقني لا يحمل معه التقدم الأخلاقي والطبقات القديمة للرّوح لا تتلاشى بغض النظر عن كل زلازل الحداثة.

الجيوبولتيكا من خصائص الإنسان والإنسانية عبر كل مراحل التاريخ ـ ففي صيغ مختلفة، وعلى مستويات مختلفة، ووفقاً لصيغ متفاوتة من التفسير والفهم والتبرير، تتواصل المعركة التي لا تنتهي بين النُّظم، العوالم والثقافات، القيمية منها والمعنوية، بين القارات.

لقد ترسخت الديمقراطية ونظام السوق في الشرق، والنزاعات مع الغرب ما امتنعت فقط عن الاختفاء بل إنها تزداد تفاقماً، حتى إن منظري الغرب واستراتيجيوه وقادته أنفسهم ما عادوا يكتمون أن ما يحرُّكهم في نهاية المطاف هو الجيوبولتيكا لا الوفاء التجريدي للمعايير «الإنسانية» أو المعتقدات الاقتصادية، بل الدفاع عن المصالح الخاصة الحضارية والاستراتيجية الكبرى، بغض النظر عما إذا كان ذلك يتفق أو لا يتفق مع المسار التاريخي لخصومهم، وذلك في سياق تعاملهم مع أولئك «الآخرين» تعامل الذات مع الموضوع، الرئيس مع المرؤوس والمالك مع الممتلكات.

إن جميع الوثائق الجادة، المعبّرة عن عصرها لدى حكام الغرب تتحدث عن الجيوبولتيكا، الأوراسيا والأطلسية، والمنهج الجيوبولتيكي صار بكل انسيابية وبكيفية ما لا يحتاج إلى برهان. وبدون مجادلات أو مناقشات أو حوارات علمية يتبوأ، من تلقاء ذاته، مكانة الأنموذج التفسيري الأساسي بالنسبة للنّخب المعاصرة، السياسية منها والتحليلية. أحياناً ما يؤخذ الشكل لوحده، وأحياناً ما يكتشف حدس الجذور العميقة للجيوبولتيكا والمدعوة في أحسن الحالات، لتعميم منظومات القيم للتاريخ البشري وتقديم أنموذج دورة تعليمية موجزة حول تطور الحضارة. ويبتعد وعي كافة المكنونات الفلسفية للمنهج الجيوبولتيكي عن أن يتحقق في هذا السياق. لكن الحديث يدور حول زعزعة الأسس. فالمنهج الجيوبولتيكي، وقد صار الأنموذج الأثير للتفسير، يؤدي بطبيعته إلى تبديل مذهل للأقيسة ـ إلى الانتقال من سيطرة الرؤية الزمانية للوجود (والذي على أساسه أقيمت

حضارة العصر الحديث)، إلى التفسير على أساس الرؤية المكانية والتي تعتمد في أساسها على نظام للمنطلقات يختلف كل الاختلاف. فبدلاً من اللوحة التاريخية للعالم والمعتمدة على الأساس المزدوج والتي يسيطر عليها الزمن المحوري فإن الجيوبولتيكا تقدّم نظرة مغايرة بصورة جذرية ـ هي التزامنية، هي بكيفية ما المظهرية، هي بمعنى آخر الميتافيزيقية التي قذفت بها ثقافة الغرب عند فجر العصر الحديث، إن العنصر العتيق الذي يلوح في الجيوبولتيكا، سذاجتها الموهومة لا يحول فقط دون تجريدها من المصداقية، بل ويشير إلى معناها الريادي كنظام طليعي مميّز لما بعد الحداثة، كعلم ذي أفضلية بالنسبة للمجتمع الجديد، ما بعد الصناعي.

تدخل النخبة المثقفة في روسيا بخطىً وئيدة في عملية تمثل التفكير الجيوبولتيكي، بيد أن توتر الحياة والمأساوية المفاجئة لانعطافة التاريخ الجديدة والمعاينات الشديدة الإيجاع، والتي كانت من نصيب بلادنا، والإبهام العدائي الذي يتسم به العالم الخارجي المحيط بنا حيث اختلطت السمات المألوفة (ولو من الناحية النظرية) بعناصر جديدة كل الجدة، سديمية للوهلة الأولى ـ وهذا بمجموعه ما يدفع بهذه النخبة نحو الاتجاه الصحيح. فكلما زاد عدد طبعات وإعادة طبعات النصوص والبحوث الجيوبولتيكية بدا المناخ الثقافي لروسيا أكثر ملاءمة وزادت نسبيّة الدقة لدى تقييم العمليات المثيرة للقلق والجارية خارج بلادنا وفي داخلها.

لقد أثار صدور الطبعتين الأوليين من «أسس الجيوبولتيكا» صدى جاداً في المجتمع الروسي. وعلى الرغم من الاهتمام الواضح فقد كان هناك عدد كبير من التقييمات المنتقدة الحادة. والأرجح وزناً من بينها صاغ حجته الرئيسية في قوله بأن تمثل الروس للمسلّمات الجيوبولتيكية سيؤدي إلى صراع قاس لا مفر منه مع حضارة الغرب، إن التأكيد على الهوية الأوراسية سيناقض، بدون شك وبصورة مباشرة، المصالح الحيوية لعدوّها الاستراتيجي ـ المعسكر الأطلسي. وبعبارة أخرى فإن الكثيرين قد رأوا في النظرة الجيوبولتيكية ما أثار قلقهم من «البيلّيتسزم» و«العسكرية» و«التبشيرية الجديدة» وما إلى ذلك. ويمكن الردّ على هذا بأن النخبة المثقفة في الغرب نفسه تتجه، دون أدنى تردد، في طريق فرض مطابقتها الجيوبولتيكية الخاصة بها محققة الـ Manifest Destiny الأمريكية بكل الوسائل الممكنة، دون ترفع عن العدوان العسكري المباشر والذي يشهد أنموذجه المثير للتأثير، والمثير للاشمئزاز بما ينطوي عليه من حطّة، في عدوان الناتو على

يوغوسلافيا. وحتى الآن فإن من يستعرض «البيلّيتسزم» و«العسكرية» و«التبشيرية» هو المعسكر الأطلسي، لا المعسكر الأوراسي الذي ينتسب إليه مؤلف «أسس الجيوبولتيكا» وأمام هذا الاستعراض للإرادة الأطلسية ولجبروتها ونزقها فإن الرد المنطقي الوحيد هو العودة إلى المخزون الحضاري الخاص وتجنيد المصادر الاستراتيجية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية والضرورية لروسيا لكي لا تمحى من التاريخ باليد الحديدية لبُناة «النظام العالمي الجديد». ليست الجيوبولتيكا الأوراسية ساحة للعدوان بل هي خط الدفاع الأخير. إن فرض «الأنا» الحضارية الخاصة محفوف دوماً بالمخاطر، لكن العدول عنه يتكافأ والانتحار التاريخي في معناه. ولهذا فإن منتقدي «أسس الجيوبولتيكا» إما أن يكونوا، من هذه المنطلقات، على درجة بعيدة من السذاجة وإما أن تكون قد أغرتهم، بصورة تثير الريبة، منظومة قيم خصمنا الجيوبولتيكي، فهم لهذا السبب مندفعون، غير موضوعيين، هذا إذا لم نستخدم تعبيراً أقسى.

أما النقطة الأخيرة التي استعملت أكثر من مرة لصالح اتهام المؤلف، فمؤداها أن استعراض الجيوبولتيكا والنظرية الأوراسية، إنما يعكس، في هذه الحالة، الطيف الوطني لمجتمعنا مع تجاهل مواقف الليبراليين، المستغربين الراديكاليين. وهذا التصور منصف ولكن في معنى واحد فقط وهو توكيده الحقيقة الواضحة التالية: إن الإدراك الواسع لخصائص تلك الحضارة والثقافة اللتين ننتسب إليهما، نحن، سكان الأوراسيا، يراكم في أعماقنا الإحساس الوطني والرغبة في تكريس خصوصيتنا، وفرادة كياننا الزماني والمكاني. ومن أوتي القدرة على أن يطوف بنظره في وطننا بكل ما فيه من امتداد في التاريخ والجغرافية، يتعذر عليه أن يبقى بارداً بعيداً عن التحيّز. لكن ليس لهذه الوطنية الأوراسية الأصيلة، المبرّرة، المتفتحة والقائمة على التكامل والمساواة، ما يجمعها مع الصيغ التعصبية الضيقة الشوفينية، ولا مع التطرّف من أي نوع. تعتمد الأوراسية على الوعي الجيوبولتيكي لموقع روسيا ودورها في التاريخ، وهذا هو أساس الرؤية الطبيعية المركزية والتي كان لها أن تكون قيمةً رؤيوية إلزامية فيما لو تغلبت بلادنا على المرحلة الصعبة من اغترابها عن «أناها»، ومثلما لا تستطيع أي قوة سياسية في الغرب، داخلة في مؤسسة قانونية جادة، طامحة إلى القيام بالأدوار المسؤولة لدولها، إنكار الأسس الحضارية المؤسسة للأطلسية (ولهذا فإنها، بغض النظر عن اختلافاتها

الأيديولوجية، تلتقي دوماً عند الهدف الحضاري العام الذي يساهم فيه الجميع ـ «american dream», «manifest destiny»,«american way of life»، ففي روسيا يجب أن يكون الهدف الأوراسي الحضاري بالذات ـ مقياس العافية السياسية، والمسؤولية، وسمو المواقف، ومعيار المركزية. الإحساس الوطني ليس ملاذاً للأوغاد. وعلى الرغم من أنه يمكن، في واقع الحال، أن يبيض صفحة أولئك الذين يلوذون به في نهاية المطاف. الإحساس الوطني هو المعيار الاجتماعي، السياسي والثقافي والذي يعد الحياد عنه مظهراً قبيحاً وبداءة التطرف الحقيقي الاجتماعي والعدَمية والانهيار.

بإلقاء نظرة إلى الوراء نلاحظ أن عدداً كبيراً من النصوص التي تم جمعها في «أسس الجيوبولتيكا» (غالبية المواد المتضمنة في الكتاب الأول من هذه الطبعة كتبت بين عامي 1992 ـ 1996)، قد أكدها بصورة كاملة تطور الأحداث. على الرغم من أنها بدت للكثيرين لحظة طبعها عصيّةً على الحدوث، غير واقعية وموغلة في المأساوية والعنف. وقلائل آمنوا يومذاك بإمكانية أن تقف صربيا في مواجهة مباشرة مع الغرب، إذ بدا ذلك مستحيلاً. وتنبغي الإشارة أيضاً إلى التطابق الكامل لسيناريو البروفيسور سانتورو والذي كان قبل بضع سنوات قد تنبأ في خططه بظهور بؤر لحروب من المستوى المتوسط في أوروبا وبشلل المؤسسات الدولية التقليدية من أمثال منظمة الأمم المتحدة. وعدوان الناتو على يوغسلافيا، متجاوزاً الأمم المتحدة، يمثل للأسف، التوكيد المثير لهذه التشخيصات المحزنة. أذكّر بأن المرحلة التالية يجب أن تكون، وفقاً لرأي المنظرين الأطلسيين، إقرار «الحكومة العالمية» والإدارة الموحدة للغرب على الصعيد الكوني باستخدام تقنيات جديدة بصفة مبدئية.

أصبح من الواضح اليوم أن صلح يالطا قد سقط، وعلى الصعيد العالمي يرتسم واقع جيوبولتيكي مفعم بالشر يُفرد فيه لنا، لبلادنا، لشعبنا، إما مكان من الدرجة العاشرة، وإما يرسم في مكان الأوراسيا «خرق أسود» واحد «انظر كتاب الجيوبولتيكي الأمريكي زبيغنيف بريجنسكي «لعبة الشطرنج الكبرى».

ما الذي على روسيا أن تفعله في هذه الحالة؟ وفي أي نهج تسير؟ أتندفع في سلسلة لا نهاية من التنازلات؟ أتتورط في هذه الفوضى والانفصالية والخواء والحروب الأهلية؟ أم تضم جميع صفوفها، على الرغم من كل شيء، وتواجه

الشر الذي تم إعداده بصورة متقنة، بإقرارها الطرح الأوراسي الجديد؟ الدرب الجديد؟ دربنا؟.

في الطبعة الجديدة من هذا الكتاب المتخصص في الجيوبولتيكا تطرح قضايا جديدة، وترسم دروب جديدة، وتناقش أوضاع جديدة، وتبذل توصيات جديدة، وتدرس موضوعات جديدة، إلا أن مغزاها لن يفهم بجلاء إلّا بعد استيعاب الجزء التمهيدي منه وتدبّره بشكل صحيح.

الجيوبولتيكا نظام علمي مفتوح، يولد أو ينبعث من جديد. يتضمن آفاقاً واسعة لتكريس القوى الخلاقة للمتخصصين في أكثر الميادين اختلافاً. وهذا الكتاب التعليمي يجب أن يستقبل لا كمجموعة من العقائد الجامعة والمبادىء التي لا يختلّ ثباتها، بل كدعوة إلى التعاون الواسع، إلى المشاركة، إلى الفهم المتعمق، النظري والتطبيقي، لهذا العلم المذهل وتطويره.

لقد أرسيت الأسس وشرحت المبادىء الانطلاقية، لكن ما هذا إلا بداية الطريق، الذي يجب، وفقاً لمنطلق الأشياء، أن يخرجنا من الهوة إلى أنوار السماوات الروسية الجديدة، وإلى الجسد القدسي للأرض الروسية الجديدة.

أ. دوغين. 30 نيسان 1999

جيوبولتيكا العالم العربي

مقدمة الطبعة العربية

1 - على جدول الأعمال - إقامة المدرسة الجيوبولتيكية العربية.

صدور هذا الكتاب باللغة العربية يمثل بالنسبة لي حدثاً بالغ الأهمية. فخريطة العالم تتبدل اليوم بخطى حثيثة، والصيغ الايديولوجية الجاهزة القديمة تختفي أمام أعيننا، وتبرز مشاهد جديدة تطالبنا بردود جديدة ومناهج حل جديدة. ومما لا شك فيه أن العالم العربي على مفترق الطرق اليوم. وقد وجد نفسه في وضع على غاية من التعقيد. فهو مجزأ ومحزز بخطوط التقسيم، ومفعم بعدد كبير من المشاكل الاقتصادية، الاجتماعية، الدينية، السياسية والثقافية. كما تبرز مسألة الهوية العربية بحدّة لم يعرف لها مثيل من قبل.

وبألم مضن يبحث العالم العربي عن مكانه في العالم الجديد. وتجري هذه العملية بصورة دراماتيكية، وهناك سلسلة كاملة من الصدامات العلنية تضفي على هذا البحث طابعاً دراماتيكياً - وراء تطور هذا الموضوع بقلب راجف.

وصار من الصيغ الجاهزة الرائجة في بلدان الغرب - مماهاة العالم العربي بمهد الإرهاب الدولي. وكشاهد على ذلك تقدّم شخصيّتا بن لادن وصدام حسين الموغلتان في الشر، وأحداث الـ 11 من أيلول سنة 2002، والنزاع الفلسطيني - الاسرائيلي الذي لا يتوقف، وانتشار عدد من التيارات الاسلامية الأصولية على صعيد العالم بأسره، ممن يمارسون الإرهاب على أسس قيم دينية خضعت للتفسير. ومما هو واضح بالنسبة للمراقب الحيادي أن إسقاط مثل هذه الشيطانية على العالم العربي ليس إلا اختلاقاً واضحاً ليس له ما يجمعه مع الواقع. لكن

حيرة العرب الداخلية لا تسمح حتى الآن بتقديم أي رد موحد على هذا التحدي . فالعالم العربي مفكك تعصف به التناقضات الداخلية من جهة. ومن جهة أخرى لا تستطيع الحضارة العربية (مثلها مثل أي حضارة تقليدية أخرى) أن تقبل بدون تحفظ، في واقع الحال، معايير العولمة التي تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية ودول «الشمال الغني» على شعوب الأرض. وفضلاً عن ذلك يغيب اليوم الجهاز المفاهيمي الملائم للصياغة المناسبة للمواقف الاستراتيجية العالمية - بينما لم تعد كافية الصيغ الايديولوجية الجاهزة للعهد السابق.

ولهذا أرى أن ترجمة هذا الكتاب عمل عظيم جداً. فإدخال المنهجية الجيوبولتيكية في السياق الثقافي - السياسي العربي يبدو لي أمراً أكثر من فعال. فالجيوبولتيكا بالذات تسمح، وبصفة دقيقة وصائبة، بصياغة تلك المشاكل والتحديات الماثلة أمام الانسانية الآن، وبالتوصيف الدقيق للتيارات السارية تحت السطح في السياسة الدولية وبالتقييم الواعي لما يقوم في العادة تحت الستارة الكثيفة للأساطير المعلوماتية وللمصطلحات الجاهزة والتقييمات المتسرعة المتحيزة.

الجيوبولتيكا هي تلك المنظومة العلمية ذات الضرورة الكبرى اليوم بالنسبة للنخب العربية، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية. فالجيوبولتيكا هي اللغة التي تتطابق بدقة مع متطلبات القرن الحادي والعشرين. وستكون بالنسبة للعالم العربي ذات فائدة وفعالية خارقتين للعادة، على الرغم من أنها تتطلب، وبفعل جدة المنهج والمبادىء الانطلاقية الأساسية، جهوداً ذهنية وإبداعية معينة.

إن مئات الألوف من العرب يدرسون اليوم في المؤسسات التعليمية العليا للدول الغربية حيث تدرّس المنهجية الجيوبولتيكية - وإن كان ذلك بصورة مقننة ومع التحفظات - إلا أنها تدرّس. وهذا في حد ذاته عون مشهود. بيد أن هذه المنظومة العلمية، وفق ما ستكون مفهومة من هذا الكتاب، ترتبط إلى حدود مهولة بتلك النقطة الجغرافية التي يوجد دارسها فيها. والجيوبولتيكا موضوعية، إلا أن العالم الجيوبولتيكي ومواقفه محددون مسبقاً بالمكان الذي هو فيه والذي تتحدد فيه هويته روحياً، ثقافياً وسياسياً. وهذا يعني أنه يمكن أن توجد، ويجب أن توجد، المدرسة الجيوبولتيكية العربية الخاصة، والتي يناط بها أن تصوغ المهام الكونية للعالم العربي في مصطلحات جيوبولتيكية وأن ترسم الملامح العامة العربية الجديدة في الظروف التاريخية الجديدة.

وكمؤسس لمدرسة الجيوبولتيكا الروسية أكون مسروراً بصدق إذا ما تقدم كتابي بعونه لإقامة الوعي الذاتي الجيوبولتيكي العربي.

2 - جيوبولتيكا العرق السامي القديمة وأصداؤها في العصر الحاضر

ودون أن أتطلع إلى دور المتخصص في هذه المسائل سأحاول تحديد لحظات انطلاقية معينة في الجيوبولتيكا العربية من خلال الملامح الأكثر عمومية.

لجيوبولتيكا العالم العربي تاريخ ضارب في أعماق التاريخ. ويمكن أن نعد الحقبة الأقدم فيها جيوبولتيكية العرق السامي من آشور القديمة فسوريا وحتى الامبراطورية الفينيقية لعموم البحر الأبيض المتوسط. واستعراض هذه الجيوبولتيكا الموغلة في القدم للشعوب السامية يمكن أن يشكل رواية جذابة ومليئة بالعبر. إذ يمكن الإشارة على الفور إلى أن للمدى الفينيقي قطبين مميزين - البري والبحري. آشور، عدن، موآب ودول شبه الجزيرة العربية تنتسب لما نسميه الجيوبولتيكا «حضارة البر» بينما تقدم الإمبراطورية الفينيقية البحرية أنموذج «التالاسوكراتية» المكتمل. وفضلاً عن ذلك تؤخذ قرطاج بالذات في التعاليم الجيوبولتيكية بصفتها المفهوم الجمعي للتعبير عن «التالاسوكراتية» - «السلطة عن طريق البحر». وعلى هذا تلقى الجيوبولتيكا العربية في الطبقات القديمة جداً من التاريخ واحداً من الأنماط الكلاسيكية للنظام الجيوبولتيكي، قرطاج التي تعدّ أمّ التالاسوكراتيات التالية. في منظور الجيوبولتيكا الارثوذوكسية(*) تعد الولايات المتحدة الامريكية المعاصرة التطوير التاريخي والنمطي للأنموذج القرطاجي بالذات. بل إن مؤسسي المدرسة الجيوبولتيكية الأمريكية كالأميرال ماهان، بروكس آدامس ومن بعدهما نيكولاس سبيكمان كانوا يعون بكل وضوح «الطابع البحري» للأمبراطورية الأمريكية، التي تتسامى إلى نماذج بريطانيا العظمى، هولندا - البندقية وهكذا حتى فينيقيا. وعلى هذا فإن المسيطر الجيوبولتيكي المعاصر - الولايات المتحدة الأمريكية. يعود بنمطه إلى جذور سامية - قديمة. ومن وجهة النظر الجيوبولتيكية ليس في الولايات المتحدة الأمريكية أي شيء «روماني». إنها، على العكس من ذلك، عولمة وتحديث العدو الرئيسي لروما في الحرب البونية. هكذا، وفيما وراء

(*) الأرثوذوكسية تعني هنا: المستقيمة، المبدئية، الصارمة (المترجم).

الأطلسي، بعثت قرطاج، بعد ألفي سنة، من الرماد. والعالم العربي بمعنى محدد يرث الراية القرطاجية من الناحيتين العرقية والمدوية. وربما لهذا السبب يدار حوار العرب مع الولايات المتحدة الأمريكية بمثل هذه الحدة اليوم. وينبغي التوكيد في الوقت نفسه على أن المكونة «الفينيقية» للجيوبولتيكا العربية ليست إلا واحدة فقط من اثنتين. ومن الطبيعي أن الوراثة في هذه الحالة نسبية إلى حد كبير، ويَحْسُن النظر إلى طابعها من وجهة النظر الديالكتيكية إلى حد كبير.

3 - جيوبولتيكا الخلافة

للعالم العربي المعاصر المتطابق إلى حد كبير مع مناطق انتشار الفينيقيين القدماء منبع جيوبولتيكي آخر إلى حد بعيد. فقطب العالم العربي المعاصر هم أحفاد من خرجوا من شبه الجزيرة العربية يحدوهم انتشار الدين الإسلامي. وفي القرن السابع جزّىء العالم السامي ودخلت أجزاء منه في تكونات دولية مختلفة - وبشكل خاص في الأمبراطورية البيزنطية وما إليها. وظهور الدين الإسلامي في الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية صار أساساً لتحول جذري في المدى المكاني العالمي كله. ومما له أهميته بالنسبة للتحليل الجيوبولتيكي أن الإسلام ظهر بين القبائل العربية المترحلة، بين سكان الصحراء الداخلية والتي يمثل تضريسها الجغرافي (بؤرة تطورها) العفوية المحضة لليابسة، المشهد القياسي للتيلوروكراتية. ويستخدم الانجليزي هيلفورد ماكيندر، أحد أوائل علماء الجيوبولتيكا، في لوحته للعالم مصطلحي «قراصنة البر» و«قراصنة البحر»، ويفهم من خلالهما الدفقات المنبعية الثاوية في أساس الأمبراطوريات العالمية الأوسع مدى للتوجهات الجيوبولتيكية المتناقضة. «قراصنة البحر» القراصنة، جوّابو البحار، التجار، المستعمرون وأحفادهم يقيمون الامبراطوريات البحرية، التالاسوكراتيات، أما «قراصنة البر»، الرحالة، المحاربون، المحتلون، - فيقيمون الأمبراطوريات البرية، التيلوروكراتيات. ولهذا المعنى كانت الخلافة التي أقامها محمد وتابعوه، في مولدها ومبناها ونمطها الجيوبولتيكي نتاج «قراصنة البر» بالذات (تماماً مثلما كانت امبراطورية جنكيز خان، التي أرست الأساس للأمبراطورية الروسية، وللتكامل السياسي للأوراسيا بصفة خاصة). والخلافة، لهذه الصورة، انبثقت في العالم السامي، من الأم، القطب الجيوبولتيكي لفينيقيا. وكانت نقيضة فينيقيا، نوعاً من

«روما العربية» (إذا فهمنا من «روما» لا المدنية والحضارة، بل المبدأ الجيوبولتيكي، الصورة القومية للتيلوروكراتيا. والخلافة الأولى هي مقياس العالم العربي المعاصر، منطلقه العرقي والجيوبولتيكي، مثله المتسامي على العالم وأنموذجه. وبنية الخلافة كانت تجمع في ذاتها الأعراف الدينية، الحقوقية، والإتنية، الطقوسية، العقائدية، الأخلاقية وما إليها. وهي في الواقع الأم الجيوبولتيكية للعالم العربي، وهي العالم العربي بمعنى من المعاني. والمصير التالي للشعوب العربية، فتوحات أفريقيا، الشام، فلسطين، البيرينيه، الأناضول، فارس وهكذا حتى آسيا الوسطى، القوقاز والسند وما إلى ذلك - كانت في جوهرها انتشاراً للخلافة مع التكامل في تكوينها للعناصر والممالك الوطنية التي اعتنقت المعايير الأساسية للأسلوب الحضاري العربي - الإسلامي الديني - الثقافي. ومنذ البداية كان العالم الإسلامي بكامله شيئاً ما يشابه الخلافة الموحدة وقد تم توسيعها حتى الأحجام العالمية.

وهذه نقطة مهمة جداً: **فالخلافة هي الأم الجيوبولتيكية للعالم العربي**. وبالذات لأن الإسلام لا يمثل الديانة فقط في مفهومها الغربي المعاصر، بل وأيضاً التعاليم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإتنية والثقافية، فإن انبعاثه يطرح القضايا الجيوبولتيكية بحدة وقسوة (وبما يشبه الإنذار). والموتيفات الجيوبولتيكية والدّولتية - السياسية مركوزة في حبة قلب التقليد الإسلامي العائدة عرقياً وحضارياً إلى النظام الانطلاقي للخلافة العربية.

جيوبولتيكا الخلافة عملية حتى يومنا هذه. فصيغة الهوية هذه هي الأكثر وضوحاً ومأمولية بين جميع الصيغ الأخرى بالنسبة للعالم العربي الذي يفهم كوحدة متكاملة، وهي تتطابق مع الأسس الأصولية والتاريخية والحضارية.

4 - جيوبولتيكا الإسلام

في القرن التاسع انفرطت الخلافة الواحدة، من الناحية الواقعية، إلى عدة دول إقطاعية مستقلة. فمنذ منتصف القرن العاشر وجدت خلافة الفاطميين (909 - 1171) والأمويين في اسبانيا (929 - 1031) والعبّاسيين. وفي هذه العملية من تفسخ الخلافة أخذت تظهر بوضوح أكثر الخصائص المحلية للآماد المحددة، التي توحدت منذ البداية «بنبض الصحراء» وجدّة الإسلام الوليد.

وكان أحد أهم خطوط الانشقاق الخط الذي ترسخ في المراحل المبكرة إلى سنّة (الغالبية العظمى من المسلمين) وشيعة. ومنذ البداية صارت الأقلية الشيعية قطب «جهويّة» الإسلام، اللاعالمية الملطفّة والمرهفة لرسالته الدينية والجيوبولتيكية. ولما كان الشيعة في معظم الحالات المنشقين الأقلية فقد صاغوا لأنفسهم أنموذج الإسلام الجيوبولتيكي البديل بتفسيره لمعنى ومضمون الأمة وبنيتها السياسية - الحقوقية وفقاً لمفهومهم الخاص. وقد حملت الشيعية في داخلها الانفتاح على العنصر الغيبي - التأملي والانجذاب إلى سحر الإماميّة التي اختُصت بامتيازات روحية وسياسية خاصة وصارت تجادل في المشروعية السياسية - الدينية للتطور الخطّي للخلافة. وفي جوهر الحال كان ذاك هو قطب البديل الحضاري في الإسلام.

في الخلافة الفاطمية ثمَّ في إيران الشيعية بعد زمن طويل اكتسب هذا المشروع الجيوبولتيكي الشيعي تعبيره الذي يناقض إسلام الغالبية بدرجة كافية من الشدة. وسياق الصيغة الشيعية التيولوجية من الإسلام يدعو إلى أخذ الخصائص الثقافية المحلية في الحسبان وهو ما ييسر لدخول العناصر الجيوبولتيكية المحلية في السياق الإسلامي.

وعلى أية حال فإن انفراط وحدة الخلافة إلى مكوناتها المتفرقة قد جرف الهوية الانطلاقية للعالم العربي وفتح الباب لدخول العناصر المحلية في السياق العالمي العام، وهو ما ولّد باتحاده مع التعريب الاثني والديني اللوحة الموزاييكية للوحدة نصف المتكاملة، التي استطاعت المكونات المنفصلة فيها أن تجنح بعيداً إلى حد ما عن الأم العربية - الخلافية العامة، منجذبة إلى طاقات جيوبولتيكية أخرى.

والتاريخ الجيوبولتيكي الواقعي للدول والشعوب الإسلامية يقدم لوحة غنية لهذه العملية من التبادل الديناميكي فيما بين العناصر الثقافية والسياسية والدينية، وهو ما كان يشكل اللوحة المتنوعة والشديدة التباين للعالم الإسلامي الواقعي.

ومما يكتسب أهميته بالنسبة لنا أن العالم الإسلامي الذي هو نتاج التوسع الكبير للأنموذج الاتنو - ثقافي الديني - السياسي الوحيد الصورة والموحد منذ البداية والمقترن بالمشروع السياسي والوحيد للجميع (الخلافة العربية) تحول

بالتدريج إلى موزاييك جيوبولتيكي يتكون منه أقسام مختلفة النوع إلى حد ما تولّى القسم الأكبر منها بعيداً عن الأم الأولى. لقد تطابقت جيوبولتيكا العالم الإسلامي تاريخيا واتنو ـ سياسياً مع جيوبولتيكا العالم العربي إلى لحظة معينة صرنا نتعامل بعدها مع نظام جيوبولتيكي أشد تعقيداً وتنوعاً ينبغي فيه مراعاة التأثيرات العديدة الوجوه للعوامل الاتنية والثقافية في اقترانها مع إسقاطات «المدى النوعي».

5 - الامبراطورية العثمانية

بعد احتلال مصر سنة 1517 من قبل الأتراك منح خلفاء القاهرة العباسيون تقليداً للمنتصرين وصارت الأمبراطورية العثمانية البناء الجيوبولتيكي الجديد للعالم الإسلامي وتعبيره السياسي. وبمعنى من المعاني أخذ العثمانيون على عاتقهم رسالة بعث الخلافة، أما في واقع الحال فقد بنيت الدولة العثمانية بطريقة مختلفة كل الاختلاف ونهجت خطاً جيوبولتيكياً مغايراً.

وينبغي القول على الفور إن الترك جاؤوا من السهوب الأوراسية وكانوا في التصنيف الجيوبولتيكي الممثلين الأنموذجيين لـ «قراصنة البر». فالامبراطورية العثمانية في منابعها هي التيلوروكراتية الأنموذجية القائمة على إيقاع البداة - المنتصرين المندفعين. ولكنها كانت، بخلاف الخلافة العربية الأولى، تفتقر بصفة كلية إلى المكوّن الديني - الثقافي العالمي. فما كانت الامبراطورية التركية تصرّ إلا على الوحدة الإدارية للحكم - وفقاً لروح المغول بصفة مطلقة (أو بصفة أدنى، الروس)، أما بالنسبة لما تبقى فاعتمدت على الإسلام الرسمي، وكانت إلى حد كليّ تنظر بتسامح إلى الخصائص الدينية للشعوب والثقافات التي وقعت تحت سيطرتها. و«الخلافة» التركية التي كانت تتطلع إلى الوراثة الشكلية للعباسيين ما كانت امبراطورية توحيدية بل تعدّدية، غير متجانسة ثقافياً، إتنياً واجتماعياً، وليس من قبيل الصدف أن تزدهر في الامبراطورية العثمانية الطرق الصوفية المختلفة التي تشرّبت الثقافات والتقاليد الوطنية المحلية التي أدخلت شكلياً في الإسلام وتم تطويرها بحريّة.

ولم يكن العرب في الامبراطورية العثمانية إلاّ واحداً من المكونات الاتنية إلى جانب غيرهم من المكونات الكثيرة. وليس مصادفةً أن ينظر إلى الحركة الوطنية العربية في القرنين التاسع عشر - العشرين على أنها حركة تحرر وطنية عن

سلطة الأتراك - تقريباً مثلما كانت وسط الشعوب اليوغوسلافية في اليونان والبلقان اللتين وقعتا في وضع مشابه (بفارق وحيد وهو أن المحتلين كانوا يفرضون على المهزومين ديانةً أخرى).

وهكذا فمنذ القرن السادس عشر راح العالم العربي، كشظية من الخلافة الأولى، يتوجه تدريجياً بعد أن جزىء وأخضع إلى صياغة برنامج جيوبولتيكي جديد. وفي القرن التاسع عشر صارت هذه التوجهات تتجسد في نظرية القومية العربية.

6 - ظهور الدول العربية المعاصرة والمشروع العروبي

لم يكن سقوط الامبراطورية العثمانيّة محفزاً فقط بالعمليات الداخلية وبالنضال الوطني - التحرري للشعوب الداخلة فيها بل وبالقوى الخارجية، وبالدرجة الأولى بريطانيا العظمى التي كانت تحلم باستعمار المساحات الواسعة من البحر المتوسط والضرورية بالنسبة لها بهدف السيطرة الجيوبولتيكية على أوروبا.

وقد استخدمت سياسة انجلترا الاستعمارية المد التحرري الوطني لصالحها وساعدت على ظهور الدول العربية المستقلة.

وبعد سقوط الامبراطورية العثمانية أقيمت كافة الدول العربية الجديدة (باستثناء، العربية السعودية) على أساس علماني كشبيه مباشر بالدول الكبرى الأوروبية الغربية الملحدة. والحدود بين الدول العربية المعاصرة تعسّفية بصفة مطلقة. وأسست على ما اصطلح على تسميته بالمشروعية ما بعد الامبراطورية. وهذه الحدود لا تحمل في ثناياها أي مضمون نوعي أو تاريخي: فالشعب الواحد، بنفس الثقافة الواحدة، يعيش كقاعدة عامة على جانبي الحدود. والتاريخ الدولتي لكل واحدة من هذه الدول قصير، لا يملك إلا أهمية بسيطة. والنزاعات بين الدول أقرب إلى المشاجرات منها إلى الحوار بين الثقافات أو الأفكار السياسية أو الحضارات.

إن وعي الطبيعة المصطنعة للدول العربية، وازدياد الاهتمام بالدين الإسلامي، والدخول في العمليات السياسية من طرف الأوساط الاجتماعية التي تواصل حياتها بعفوية ضمن شروط المجتمع التقليدي أدى في مجموعه إلى التخمر

التدريجي للمشروع العروبي كإرادة نحو توحيد العرب في تركيب سياسي واحد.

وللمشروع العروبي صيغتان مبدئيتان: الاشتراكية - الوطنية (وفق أسلوب حزب البعث)، العلمانية المؤسسة على القومية، والدينية (الأصولية) القائمة على فكرة العودة إلى التكاملية التقليدية (وهي موجهة أكثر نحو العربية السعودية، الوهابية وأشباهها). ويتطابق المشروعان في طابع الارادة الجيوبولتيكية: توحيد الدول العربية في مدى سياسي استراتيجي موحد. إلا أن أيديولوجية هذا الاتحاد تتباين بشكل ملموس. فمهما يكن من أمر فإن جيوبولتيكا تكامل العالم العربي تمثل أنموذجاً جذاباً لبناء المستقبل. والاستمالة نحو صيغة هذا المشروع من التركيب الجيوبولتيكي أمر على غاية من الأهمية والملاءمة من حيث التوقيت.

ومن جهة أخرى فإن تراكماً للعطالة التاريخية يحدث بالتدريج ضمن هذه التشكيلات المصطنعة كالدول العربية، فيتكون تاريخياً ما يشبه ضرباً من الهوية الوطنية وهو ما يصوغ من الناحية العملية الأقطاب - موزاييك الجيوبولتيكا المحلية.

7 - حرب الخليج: تحليل جيوبولتيكي

قدم الجنرال النمساوي يورديس فون لوهاوزن، كلاسيكيّ الجيوبولتيكا المعاصرة، مثالاً للتحليل الجيوبولتيكي لحرب الخليج سنة 1991. وهذا التحليل يظهر تطبيق المنهج الجيوبولتيكي على مواقف محدّدة. فعراق صدام حسين يمثل دولة برية تتطلع إلى الاكتفاء الذاتي، ثرية جداً بالنفط وتتطلع إلى تصديره. والعراق Heartland جهوي. ومن خلال إدراك الانجليز لذلك يقيمون في منطقة الشاطىء دولة الكويت الدمية التي توصد الباب أمام العراق وتُحْكم بصفة مباشرة من قبل انجلترا (فالولايات المتحدة فيما بعد). وعندما يسير العراق في خط السياسة الأطلسية (الغربية) لا يكون للرتاج في صيغة الكويت إلا قيمة محدودة. ولكن عندما يحاول العراق أن يخرج إلى السياسة المستقلة تكتسب مسألة السيطرة على الكويت معنى حيويّ الأهمية. والكويت مأهولة بنفس العرب الموجودين في العراق، أما من الناحية الجيوبولتيكية فهذه البقعة أكثر خضوعاً للسيطرة الأطلسية المباشرة. صدام حسين يدخل الكويت لتكون له حرية الوصول إلى الموانىء. ورداً على ذلك تدخل الجيوش الأمريكية

والأوروبية (مع إغضاء الاتحاد السوفياتي المهدود جيوبولتيكياً) الكويت ثم الجزء الجنوبي من العراق وتقذف بحسين إلى أعماق البلاد. ويدعم الرتاج الكويتي ويقفل العراق القاري، وبعد 11 سنة من الحصار يغدو احتلاله من طرف القوات الأطلسية مهمة تقنية لا أكثر.

وكل الاستنتاجات والاقتراحات الشكلية للحرب لا تعني أي شيء. المضمون الصادق الوحيد هو - خرق التوازن الجيوبولتيكي، الحفاظ عليه أم تغييره.

8 - النزاع العربي - الاسرائيلي

جيوبولتيكا النزاع العربي - الاسرائيلي قضية كبيرة منفصلة. وهي في أشد صورها عمومية توصف هكذا. ثم التفكير بإسرائيل كتكوين معاد لبريطانيا بالاعتماد على اليهود المنحدرين من روسيا. ثم صارت هذه الدولة الوطنية - الاشتراكية العنصرية منطقة اهتمام كل من انجلترا وروسيا (السوفياتية الاشتراكية). ومنذ نهاية الاربعينيات قام الاتحاد السوفياتي باختياره لصالح دعم الجانب العربي وصارت إسرائيل تماهى جيوبولتيكيا مع الغرب. وإلى لحظة معينة - بداية الستينيات - كانت تل أبيب تحاول التوجه بصفة أكبر نحو أوروبا على مثال سياسة فرنسا، وفقط في سنة 1967 تعزّز التأثير الأمريكي فيها بصفة نهائية. صار الاتحاد السوفياتي الأوراسي يدعم جانب الفلسطينيين والعرب على العموم، والولايات المتحدة الامريكية تدعم بصورة مستمرة، إسرائيل كقلعة جهوية للأطلسية.

وحتى لحظة انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط العالم الثنائي القطب كانت أطروحة الانتفاضة تحمل طابعاً أوراسياً صارماً، وكان دعم فلسطين معيار الجيوبولتيكا الأوراسية. ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتقال الجيوبولتيكا الروسية من حالة الفعل إلى الاحتمال تبدلت اللوحة كلها. فدعم موسكو لمنظمة التحرير الفلسطينية وعرفات والذي كان مدفوعاً بقوة الاستمرار ثم أخذ يميل بصفة ملموسة نحو الضعف صار يعني أقل بكثير مما كان يعنيه في السابق. كما إن مغزى الدعم الذي تتلقاه إسرائيل من الولايات المتحدة الأمريكية قد ضاع أيضاً إلى بعض الحدود، واتخذ الصراع طابعاً جهوياً تلعب الولايات المتحدة خلاله لا على جانب واحد بل على الجانبين بينما لا يبقى لروسيا التي ضيعت ذاتيتها

الجيوبولتيكية إلا أن تحاكي الولايات المتحدة الأمريكية من الجانبين. (وإلى جانب هذا فقد أخذ ثقل أفعالها يتضاءل بشكل حاد).

وبالإضافة إلى ذلك يغدو أكثر ازدواجية للمعنى التوجّه إلى إقامة الدولة الفلسطينية نفسه. فهو يفقد معناه سواء في المشروع العروبي، مثلما يفقده ضمن مشروع انبعاث الخلافة الإسلامية. وفضلاً عن ذلك ففي عصر تكامل الدول القومية ضمن «آماد كبرى» لا تبشّر إمكانية الدولة الفلسطينية حتى بالوصول إلى مظهرية السيادة. وعلى هذا يغدو الصراع الفلسطيني - اليهودي لا جيوبولتيكياً بقدر ما هو حضاري ويحفّز إلى التحول نحو مسائل دينية - فلسفية أصولية لا توجد لها إجابة مرضية معروفة مسبقاً.

وبالإضافة إلى ذلك فإن النظر إلى الجيوبولتيكا الجهوية لهذه المشكلة البالغة التعقيد يمكن أن يقدم جملة من النتائج المفيدة.

9 - المشروع الأوراسي بالنسبة للعالم العربي.

أتقدم في الختام ببضع كلمات حول الرؤية الأوراسية لمستقبل العالم العربي. ينطلق المشروع الأوراسي من أن الإنسانية في القرن الحادي والعشرين يجب أن تعيش ضمن شروط التعددية القطبية لا وحدة القطب. فالعولمة الوحيدة القطب تحمل في ثناياها خطراً مميتاً على الإنسانية ويجب أن يعلن خيار واقعها في وجهها. ومثل هذا الخيار لا يمكن أن يكون مشروع الحفاظ على الدول القومية السابقة - مثل فرنسا، مصر - لبنان، روسيا، إيران وسواها. ويستحيل على كل دولة من الدول القائمة حالياً (بإستثناء الولايات المتحدة الأمريكية) أن تصل إلى حدود «القطب» بمفردها. وفقط عن طريق التكامل مع مجموع نجوم «الآماد الكبرى» يمكن إقامة التعددية القطبية الحقيقية.

والمشروع الأوراسي للعالم المتعدد الأقطاب يرى 4 أحزمة كونية موزعة على خطوط الطول: الأمريكي، الأورو أفريقي، الأوراسي، الباسيفيكي. وكل حزام يتكون من عدة «آماد كبرى». والعالم العربي يمثل في هذه اللوحة واحداً من ثلاثة «آماد كبرى» للحزام الأورو أفريقي. وعلى شماله يمتد «المدى الكبير» الموحد للاتحاد الأوروبي وإلى جنوبه «المدى الكبير» لأفريقيا السوداء. و«المدى الكبير» للعالم العروبي يمثل المعسكر الذاتي المكتفي بنفسه والموحد حضارياً وثقافياً ودينياً

واقتصادياً واستراتيجياً. وهو يتلقى الدعم التقنو - اقتصادي من الشمال ويدعمّ هذا النبض المتنامي بإتجاه الجنوب الأفريقي عبر الصحراء.

وينبغي الأخذ بعين الاعتبار إزاء ذلك أن المشروع الأوراسي يرى الإسلام القاري (غير العربي) «مدى كبيراً مستقلاً بذاته»، يرتبط تقنياً وفق خطوط الطول بروسيا - الأوراسيا، وهو ما لا يعني بصورة طبيعية احتكاكات مع «المدى الكبير» العربي، وهذه المشاريع الأحزمة و«الآماد الكبرى» تنتمي على فكرة ، إلى جيوبولتيكا المستقبل، ودراستها التفصيلية أمرٌ تنهض به المدارس الجيوبولتيكية الجديدة.

أما كيف تكون صورة المضمون الايديولوجي للمشروع العروبي فأمر يحلّه العرب أنفسهم. والشيء الوحيد الذي يلزم التحذير منه هو أن الافتراض الشديد الشكلية للبواعث الكونية التي تكاد تكون شمولية بالدرجة نفسها لمثل هذا التكامل الذي كثيراً ما نصطدم به في مشاريع الاصوليين والسلفيين والوهابيين الذين يبسطون أنموذج الخلافة ليس فقط على العالم الإسلامي كله (بما في ذلك غير العربي منه) بل وعلى الإنسانية كلها، لا يساعد بصورة واضحة على تحقيق آمال الوحدة العربية في التطبيق. وفضلاً عن ذلك فإن شعارات الأصوليين المبالغة في عدوانيتها ضمن أسلوب Islamic World State يمكن بكل سهولة أن تحول أصدقاء العالم العربي وحلفاءه (والذين ينتسب المؤلف إليهم دون تحفّظ) إلى أمر مختلف تماماً يصل حتى درجة المعادين.

والأمر الأخير: إن أواصر تاريخية كثيرة العدد تجمع بين الروس والعرب. ولكن بالإضافة إلى الماضي هناك المستقبل أمامنا: فأمامنا بناء العالم العادل المتعدد الأقطاب، الذي يحترم تنوع الثقافات والأديان والحضارات. وهذا يعني أن أمامنا أيضاً عدوّاً واحداً هو العولمة، الغرس الكوني للأطلسية. ومن المعروف أن لا شيء يوحّد كالعدو المشترك. ولهذا أتطلع إلى ترجمة كتابي إلى اللغة العربية العريقة على أنها لبنة جديدة في مبنى النضال العظيم لليابسة ضد البحر. وأنا على قناعة من أننا، بالاعتماد على الجيوبولتيكا - سنبني حقاً العالم الجديد الأفضل - العالم العادل، المتحرر من الاستغلال والعنف والنفاق.

أ.غ. دوغين

موسكو 09. 10. 03

مدخل

تعريف الجيوبولتيكا

أعمال الممثلين الوفيري العدد لمدارس الجيوبولتيكا، يمكنها، بغض النظر عن اختلافات هؤلاء، بل وتناقضاتهم في كثير من الأحيان، أن توضع ضمن لوحة عامة، تسمح لنا بالحديث عن الموضوع نفسه، على أنه منته ومحدّد. وتتفاوت هذه المجموعات أو تلك من المؤلفين والمعاجم فيما بينها في تحديدها للمادة الأساسية التي يدرسها هذا العلم، وفي مبادئه المنهجية الأساسية، وينطلق هذا التفاوت من الظروف التاريخية مثلما ينطلق من العلاقة الشديدة الاتثاق التي تربط الجيوبولتيكا بالسياسة العالمية، وبقضايا السلطة والأيديولوجيات السائدة. والطابع التركيبي لهذه المنظومة يفترض تضمينها عدداً كبيراً من المواد الأخرى. الجغرافية، التاريخ، علم السكان، الاستراتيجية، الإتنوغرافيا، دراسة الأديان، علم البيئة، الفنون العسكرية، تاريخ الأيديولوجيا، علم الاجتماع وعلم السياسة وما إلى ذلك. وبما أن لمجموع هذه العلوم العسكرية والطبيعية والإنسانية أعداداً كبيرة من المدارس والاتجاهات في حدود ذاتها، لا يعود ثمة مجال للحديث عن ضرب من الصرامة أو أحادية المعنى في الجيوبولتيكا. ولكن ما هو التعريف الذي نعطيه لهذا العلم الغامض والبالغ التعبير والإثارة في الوقت نفسه.

الجيوبولتيكا ـ رؤية للعالم، ومن هذه الزاوية يفضل مقارنتها لا مع العلوم بل مع منظومات العلوم. وهي تقع على مستوى واحد مع كل من الماركسية والليبرالية وما إلى ذلك أي مع تلك النظم التي تفسّر المجتمع والتاريخ، وذلك عن طريق

طرح المعيار الأهم مبدأً أساسياً ثم تربط به كافة الآفاق الأخرى والمتعلقة بالإنسان والتي يصعب حصرها عدداً.

فعلى مستوى واحد تطرح كل من الماركسية[1] والليبرالية في الأساس الجانب الاقتصادي للوجود الإنساني، مبدأ الاقتصاد مصيراً. ومن غير المهم كون هاتين الأيدولوجيتين تنتهيان إلى نتيجتين متناقضتين ـ فيصل ماركس إلى حتمية الثورة المعادية للرأسمالية، بينما يرى أتباع آدم سميث الرأسمالية الأنموذج الأعلى للمجتمع. وفي الحالتين الأولى والثانية يطرح المنهج الموسَّع لتفسير العملية التاريخية، صورة خاصة من السوسيولوجيا، الأنتروبولوجيا والبوليتولوجيا. وعلى الرغم من النقد الدائم لهاتين الصيغتين من «التبسيطية الاقتصادية» من طرف الأوساط العلمية البديلة (التخميّة) فإنهما تبقيان الأنموذجين الاجتماعيين المهيمنين واللذين لا يقوم الناس فقط بتفسير التاريخ على أساسهما بل ويبنون المستقبل، أي يضعون الخطط والتصاميم، يتدبرون ويحققون المنجزات الكبرى التي تمس الإنسانية بأسرها.

على هذه الصورة بالذات تبدو الأمور بالنسبة للجيوبولتيكا، ولكنها، خلافاً للأيديولوجيات الاقتصادية، تقوم على مقولة «التضريس الجغرافي مصيراً» فالجغرافية والمدى المكاني يلعبان في الجيوبولتيكا الدور الذي يلعبه المال والعلاقات الإنتاجية في الماركسية والليبرالية وإليهما تنتهي جميع الآفاق المؤسسة للوجود الإنساني، وهما المنهج المؤسس لتفسير الماضي ويمثلان العاملين الرئيسين للواقع البشري. ينظمان حولهما كافة الجوانب الأخرى للوجود، وعلى نحو ما هو الأمر في الأيديولوجيات الاقتصادية تقوم الجيوبولتيكا على أساس التقريب، التبسيط، اختصار المظاهر الكثيرة التنوع للحياة إلى عدة متغيّرات، ولكن، بغض النظر عن هذا الخطأ المقصود والمكنون في أمثال هذه النظريات فإن الجيوبولتيكا تفرض بطريقة مؤثرة ثبوتيتها في مسألة تفسير الماضي وفعاليتها اللامتناهية في تنظيم الحاضر وتصميم آفاق المستقبل.

وإذا ما واصلنا المقارنة مع الماركسية ومع الاقتصاد السياسي البورجوازي الكلاسيكي أمكننا القول بأنّه على مثال الأيديولوجيين الاقتصاديين الذين يطرحون مقولة «الإنسان الاقتصادي» (homo-economicus) الخاصة تتناول الجيوبولتيكا «الإنسان المدوي» الذي حدده المدى المكاني بصورة مسبقة، والذي نشأ وتكونت

اشتراطيته ضمن خصوصيته المميّزة - التضاريس الجغرافية - المكان. لكن هذه الاشتراطية تتمثل بصفة خاصة في التجليات الاجتماعية الكبرى للإنسان، في الدول، الاتنيات، الثقافات، الحضارات وما إلى ذلك. إن ارتباط كل فرد بالاقتصاد بيّن في النسب الصغرى، وفي الكبرى. ولهذا فإن الحتمية الاقتصادية مفهومة بالنسبة للناس الاعتياديين وبالنسبة للمرجعيات السلطوية التي تتعامل مع فئات اجتماعية كبرى. وربما لهذا السبب حققت الأيديولوجيات الاقتصادية مثل هذه الشعبية الواسعة وأدت مهمة تعبوية - حتى درجة إشعال الثورات القائمة على استقطاب أعداد كبيرة من البشر إلى الأيديولوجيا. وارتباط الإنسان بالمكان - هو الموضوعة الأولى للجيوبولوتيكا - لا يُرى إلا على بعد معين عن الإنسان الفرد. ولهذا السبب لم تتحول الجيوبولتيكا - على الرغم من مقدماتها الأولى - إلى أيديولوجيا بذاتها، أو بكلمة أدق إلى «أيديولوجيا جماهيرية». فتخريجاتها وأساليبها وموضوعات دراستها ومنطلقاتها الأساسية ليست مفهومة إلا من طرف تلك المرجعيات الاجتماعية، التي تعمل على القضايا ذات المدى المكاني الواسع - التخطيط الاستراتيجي، تدبر السنن الاجتماعية، والتاريخية على المستوى الكوني وما إلى ذلك. ولهذا فإن الجيوبولتيكا تُخصَّص للفئات الاجتماعية ذات العلاقة بالحقائق ذات الطابع التعميمي - البلدان والشعوب وما إلى ذلك.

الجيوبولتيكا - وجهة نظر السلطة، هي علم السلطة ومن أجل السلطة. وفقط بمقدار اقتراب الإنسان من القمة الاجتماعية تبدأ الجيوبولتيكا فتكشف له معناها وجدواها بينما هي لا تستخدم قبل ذلك إلا كعنصر مجرد. الجيوبولتيكا - هي علم الفئات السياسية العليا (الفاعلة منها والبديلة) ويكشف تاريخها بطوله عن أن من شغلوا بأمورها كانوا، وبدون استثناء، أولئك الذين شاركوا في حكم الدول والأمم أو ممن يعدّون أنفسهم لذلك الدور (عندما يتناول الحديث المعسكرات الأيديولوجية البديلة أو المعارضة والتي تمت تنحيتها عن السلطة بقوة شروط تاريخية).

ودون الطموح إلى الصرامة العلمية، فإن الجيوبولتيكا، على مستواها الخاص، تحدد بنفسها ما الذي يكتسب قيمة بالنسبة لها وما لا يكتسب. والعلوم الإنسانية ومواد العلوم الطبيعية لا تُجتذب إلا عندما لا تتناقض مع المبادىء الأساسية للمنهج الجيوبولتيكي. والجيوبولتيكا، بصورة من الصور، تقوم بنفسها

بانتقاء تلك العلوم وتلك التوجهات العلمية التي تبدو مفيدة لها وتعرض عن كل ما عدا ذلك دون اهتمام. وهي في العالم المعاصر تمثل «الدليل الملخص لرجل السلطة» إنها كتاب السلطة الذي يقدَّم فيه ملخص لما يجب وضعه في الاعتبار عند اتخاذ القرارات الكبرى (المصيرية) ـ مثل عقد التحالفات، شن الحرب، القيام بالإصلاحات، البيريسترويكا البنّاءة للمجتمع، تطبيق الإجراءات الاقتصادية والسياسية على مستوى واسع، وما إلى ذلك.

الجيوبولتيكا ـ علم الحكْم.

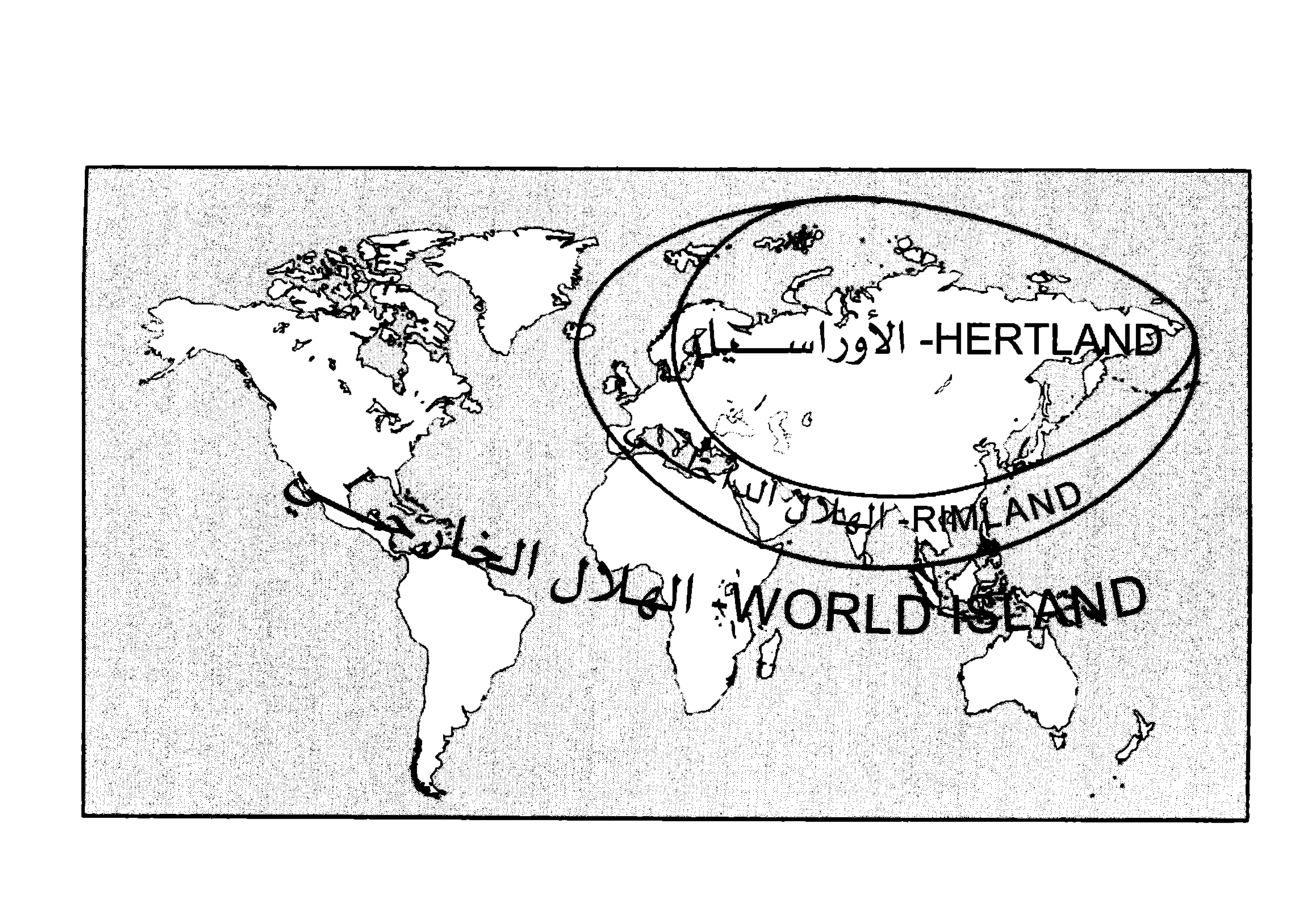
التيلّوروكراتيا والتالاسّوكراتيا

القانون الأساسي للجيوبولتيكا هو إقرار الثنائية المنعكسة في التكوين الجغرافي للكوكب الأرضي وفي النمطية التاريخية للحضارات. وهذه الثنائية تعبر عن نفسها في مواجهة «التيلوروزكراتيا» (القوة البرية) و«التالاسوكراتيا» (القوة البحرية)، وطابع هذه المواجهة يفضي إلى المواجهة بين الحضارة التجارية (قرطاج، أثينا) والحضارة ذات الهيبة العسكرية (روما، سبارطة) إنها، بكلمة أخرى ثنائية «الديمقراطية» و«الأيديوقراطية».

وهذه الثنائية تتخذ منذ البداية صفة العداء، التبادل بين قطبيها المكونين لها على الرغم من أن المستوى يمكن أن يتغير من حال إلى حال. وعلى هذا يمكن لتاريخ المجتمعات البشرية أن يدرس على أنه مكوّن من عفويتين: المائية (السائلة»، «الجارية») والأرضية («الصلبة» «الثابتة»).

ترتبط «التيلوروكراتيا»، «القوة البرية» بثبوتية المكان ورسوخ توجهاته وخصائصه النوعية. أما على المستوى الحضاري فيتجسد ذلك في الاستقرار، في الروح المحافظة في المعايير الحقوقية الصارمة، التجمعات البشرية الكبرى ـ الأسر، القبائل، الشعوب، الدول، الأمبراطوريات. فرسوخ اليابسة يتجسد ثقافياً في رسوخ الأخلاق وثبوتية التقاليد الاجتماعية. والفردية وروح المبادرة غريبتان على الشعوب البرية (والمستقرة منها بصفة خاصة). ومن خصائص هذه الشعوب ـ الروح الجماعية وتراتبية المقامات.

أما «التالاسوكراتيا» القوة البحرية، فتمثل نمطاً لحضارة تقوم على أسس مغايرة. فهو نمط ديناميكي، نشيط الحركة، ميال إلى التطور التقني. ومن أولويّاته


الأوراســيا -HERTLAND
الهلال -RIMLAND
الهلال الخارجي -WORLD ISLAND

ـ التنقل (وبخاصة البحري التجاري)، روح المبادرة الفردية. والفرد فيها كالجزء الأكثر حركية في المجموع، يرفع إلى أسمى قيمة، بينما تجرّف المعايير الخلقية والحقوقية لتصبح نسبية متنقلة، ومثل هذا النمط الحضاري يتطور بحيوية، وبسهولة يبدّل مظاهره الثقافية الخارجية فلا تبقى ثابتاً إلا التشابه الضمني مع التركيبة العامة.

القسم الأكبر من التاريخ الإنساني يجري ضمن بعد محدَّد للتوجهين مع الهيمنة الكونية «للتيلوروكراتيا» فعنصر الأرض (اليابسة) يضغط على منظومة الحضارات في مجموعها، أما عنصر (الماء) (البحر، المحيط) فلا يبرز إلا بصفة جزئية عرضية. والثنائية حتى لحظة محدّدة تبقى، من الناحية الجغرافية، محدَّدة، في المكان ـ سواحل البحار، مصبات وسُرُر الأنهار وما إلى ذلك. وتتطور المواجهة في مختلف مناطق الكرة الأرضية بمستويات متفاوتة من النشاط وفي صيغ مختلفة.

والتاريخ السياسي لشعوب الأرض يستعرض نمواً تدريجياً للصيغ السياسية التي تتعاظم مقاييسها أكثر فأكثر. وهكذا تظهر الدول والأمبراطوريات. وهذه العملية تعني، على المستوى الجيوبولتيكي، ازدياد عامل المدى المكاني في التاريخ الإنساني فطابع التشكلات السياسية الكبرى ـ الدول والأمبراطوريات ـ يعبر عن ثنائية العفويتين بصورة أكثر إثارة للانطباع، عندما يخرج شيئاً فشيئاً حتى مستوى الأنماط الشمولية الحضارية.

في لحظة معينة (العالم القديم) تتشكل لوحة أكثر ثبوتية لقيت انعكاسها في «خارطة ماكيندر». فنطاق التيلوروكراتيا يتماهى بإصرار مع الآماد القارية الداخلية للأوراسية الشمالية الشرقية (والتي تتطابق في خطوطها مع أراضي روسيا القيصرية أو الأتحاد السوفياتي. والتالاسوكراتيا تعرّف بشكل أكثر وضوحاً بأنها المناطق الساحلية لليابسة الأوراسية ومجال البحر الأبيض المتوسط فالمحيط الأطلسي والبحار التي تغسل شطآن الأوراسيا من الجنوب والغرب.

وهكذا تكتسب خارطة العالم هذه الخاصية الجيوبولتيكية:

1 ـ فالآماد ضمن القارية تصبح «قاعدة ثابتة» L'heartland، (أرضاً قلبية) للمحور الجغرافي للتاريخ، الذي يحتفظ بثبوتية الخاصية التيلوروكراتية الحضارية.

2 ـ «الهلال الداخلي أو القاري»، «منطقة الحافة» الـRimland، وتمثل مجال

التطور الثقافي المتسارع، تظهر هنا ملامح «التالاسوكراتيا» على الرغم من أنها تتساوى مع الكثير من التوجهات «التيلوروكراتية».

3 ـ «الهلال الخارجي أو الجزيري»، ويمثل «المجاهل الأرضية» التي لا تفلح معها إلا المواصلات البحرية. ولأول مرة عرّف بنفسه في قرطاج وفي الحضارة التجارية الفينيقية التي كانت تترك آثارها على «الهلال الداخلي» لأوروبا من الخارج.

هذه اللوحة الجيوبولتيكية للتناسب بين التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا تبرز بكامل قوتها عند بدايات العصر الميلادي، بعد مرحلة الحروب البونية(*). لكنها تكتسب معناها بصفة نهائية في مرحلة تحول بريطانيا إلى دولة بحرية كبرى في القرنين السابع عشر والتاسع عشر، وقد أدى عصر الكشوف الجغرافية الكبرى، الذي بدأ منذ نهاية القرن الخامس عشر إلى تحول التالاسوكراتيا النهائي إلى تشكل عالمي مستقل، مقطوع عن الأوراسيا وسواحلها) ومتركز بصفة كلية في العالم الأنجلوساكسوني (انجلترا، أمريكا) والمستعمرات. وهكذا تشكلت «قرطاج»

(*) الحروب البونية (264 ـ 146ق.م) تأسست قرطاج قبل روما بقرون، وكانت قد بسطت حضارتها على غربي المتوسط عندما اشتبكت الحرب بغية الاستئثار بهذه المنطقة؟ ويلخّص المؤرخون مجرياتها في حروب ثلاث: الأولى (264 ـ 241) وبدأت بمعارك بحرية، ولما أنزل الرومان جنودهم على الشاطىء الأفريقي اضطر القرطاجيون لتسليمهم صقلية (دون سراقوزة) والجزر الواقعة بين إيطاليا وصقلية. وبعد ذلك، وبسبب ثورة المرتزقة في قرطاج اضطر أهلها أيضاً لتسليم سردينيا وكورسيكا. الثانية (218 ـ 202 ق.م) وخلالها خرج القرطاجيون للثأر فاقتطعوا مساحة كبيرة من إسبانيا، جعلوها محطة للوثوب على روما. واجتاز هانيبال جبال الألب بجيشه مستعيناً بالأفيال، ودخل سهل البو ودمرّ الجيش الروماني واستعاد صقلية وسردينيا. لكن الرومان احتلوا سراقوزة وتارنيت وقرطاج الجديدة في إسبانيا وحالوا دون اتحاد جيش هانيبال بجيش أخيه أسدربعل الذي جاء لنجدته، وأخرجوا القرطاجيين من إسبانيا. فكان على هانيبال أن يغادر إيطاليا (202ق.م) وفي زاما حقق الرومان أهم انتصاراتهم، ونص الصلح الذي عقد سنة 201ق.م على حصر ممتلكات قرطاج في أفريقيا ومنعها من أن تعلن حرباً دون موافقة روما بالإضافة إلى دفع غرامة باهظة جداً. وظلت روما حريصة على تدمير قرطاج فكانت الحرب الثالثة (149 ـ 146ق.م)، وخلال سنوات الحصار والاحتلال أبدى القرطاجيون بطولات تتجاوز الأساطير، فلما تسنى للرومان قهر المدينة لم يكتفوا بتدميرها وإحراقها بل غمروها بالأتربة والملح. (المترجم).

الرأسمالية والصناعة الأنجلو ساكسونيتين «الجديدة» في صيغة وحيدة ومتكاملة. واكتسبت الثنائية الجيوبولتيكية منذ ذلك الحين صيغاً أيديولوجية وسياسية يمكن التمييز بينها بوضوح.

كانت حرب الخنادق التي خاضتها انجلترا ضد الدول القارية الكبرى ـ الأمبراطورية النمساوية المجرية، ألمانيا وروسيا ـ ذات مضمون جيوبولتيكي ومنذ منتصف قرننا الحالي أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية معقل التالاسوكراتيا الرئيسي.

وخلال الحرب الباردة 1946 ـ 1991 حققت الثنائية الجيوبولتيكية الخالدة أحجاماً قصوى فتماهت التالاسوكراتيا مع الولايات المتحدة الأمريكية والتيلوروكراتيا مع الاتحاد السوفياتي.

نمطان كونيان من الحضارة والثقافة وما وراء الأيديولوجيا انسكبا في ارتسامات جيوبولتيكية ـ نهائية يلخصان كل التاريخ الجيوبولتيكي للمواجهة بين العفويتين. ومن المذهل، بالإضافة إلى ذلك، أن هاتين الصيغتين من الثنائية الجيوبولتيكية النهائية قد تطابقتا ـ على المستوى الأيديولوجي مع واقعين لا يتأخران عنهما من الناحية التركيبية ـ أيديولوجية الماركسية (الاشتراكية) وأيديولوجية الليبرالية ـ الرأسمالية.

ويمكننا في هذه الحالة التي أمامنا، أن نتحدث عن التطبيق الواقعي لنمطين من «التصغير»: فالتصغير الاقتصادي أدى إلى مواجهة أفكار سميث وأفكار ماركس، أما الجيوبولتيكي، فإلى توزيع كافة أصقاع الكرة الأرضية إلى مناطق خاضعة للتالاسوكراتيا (القرطاج الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية) وللتيلوروكراتيا (لروما الجديدة ـ الاتحاد السوفياتي).

والرؤية الجيوسياسية تمثل أنموذج تطور الثنائية العالميّة حتى أحجامها القصوى. **اليابسة والبحر** يبسطان مواجهتهما الأولى على أرجاء العالم كله.

وما التاريخ الإنساني إلاّ تعبير عن هذا الصراع وطريق إلى وسمه بالسمة المطلقة.

هوذا التعبير الأكثر تعميماً عن قانون الجيوبولتيكا الأهم ـ قانون ثنائية العفويتين **البر** في مواجهة **البحر** .

الغائيّة الجيوبولتيكية

حتى لحظة تحقيق الانتصار النهائي للولايات المتحدة في الحرب الباردة كانت الثنائية الجيوبولتيكية ضمن أطرها الغربية التي تطورت بموجبها منذ البداية ـ كان الحديث يدور حول اتخاذ كل من التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا حجمها الأقصى على أصعدة المدى والاستراتيجية والقوة. ونظراً لتطوير الجانبين لقدراتهما النووية بدت نهاية هذه العملية كارثية بالنسبة لبعض الجيوبولتيكيين ـ المتشائمين، إذ كان على القوتين العظميين، وقد انتشرتا على سطح الكرة الأرضية بطولها، إما أن تنقلا مواجهتهما إلى خارج حدود الأرض (نظرية حرب النجوم) وإما أن تفني إحداهما الأخرى (الرعب النووي).

إذا كان طابع العملية الجيبولتيكية الأساسية للتاريخ ـ وهو التوسع الأعظم للتالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا ـ واضحاً بالنسبة لهذا العلم. فإن نهايته تبقى تحت التساؤل، فليس ثمة أي نوع من الحتمية في هذا الخصوص.

وعلى هذا فإن الغائية الجيوبولتيكية، أي وعي غاية التاريخ، لا تصل، ضمن المصطلحات الجيوبولتيكية، إلا إلى لحظة بلوغ الثنائية عالميتها وتتوقف عند هذه النقطة، بيد أن بإمكاننا، مع كل ذلك، وعلى المستوى النظري المحض، أن نشتق عدة صيغ افتراضية لتطور الأحداث بعد أن يكون بمقدورنا الإقرار بانتصار أحد هذين النظامين ـ التالاسوكراتيا.

الاحتمال الأول: انتصار التالاسوكراتيا يلغي بصفة نهائية حضارة التيلوروكراتيا. ويهيمن على الكرة الأرضية النظام الليبرالي ـ الديموقراطي المتجانس. وتضفي التالاسوكراتيا على طرازها الأولي الخاص صفة الإطلاق وتغدو النظام الأوحد لتنظيم الحياة البشرية. ولهذا الاحتمال مزيتان: فهو **أولاً**: لا يناقض نفسه منطقياً، لأننا نرى فيه استكمالاً طبيعياً لتيار وحيد الاتجاه (ككل) في التاريخ الجيوبولتيكي ـ من الهيمنة الكاملة **لليابسة** (العالم التقليدي، إلى الهيمنة الكاملة للبحر (العالم المعاصر)، **وثانياً**: إن هذا بالذات ما يجري في الواقع الحالي.

الاحتمال الثاني: انتصار التالاسوكراتيا ينهي دورة المواجهة بين الحضارتين، لكنه لا يبسط أنموذجه على العالم بأسره، بل يكمل ببساطة التاريخ الجيوبولتيكي ناسخاً إشكاليته. ومثلما تبرهن نظريات المجتمع ما بعد الصناعي على استبعاد

التناقضات الأساسية للاقتصاد السياسي الكلاسيكي (والماركسية) في هذا المجتمع، لأن بعض النظريات العولمية تؤكد على أن المواجهة بين اليابسة والبحر سيتم استبعادها على العموم في العالم المقبل. وهذا أيضاً «نهاية التاريخ» إلا أن التطور التالي للأحداث لا يستجيب لمثل هذا التحليل الصارم كما في الاحتمال الأول.

هذان التحليلان كلاهما ينظر إلى هزيمة التيلوروكراتيا على أنها حقيقة واقعة لا رجعة عنها. أما الاحتمالان الآخران فينظران إلى الموضوع نظرة مغايرة.

الاحتمال الثالث: هزيمة التيلوروكراتيا ـ ظاهرة مؤقتة. تعود الأوراسيا إلى رسالتها القارية في صيغة جديدة. وتؤخذ في الحسبان آنذاك العوامل الجيوبولتيكية التي أدت إلى الكارثة والقوى القارية (ستكون للمعسكر القاري الجديد حدود بحرية في **الجنوب** وفي **الغرب**، أي يطبق مبدأ مونرو على الأوراسيا وفي مثل هذه الحالة يعود العالم مجدداً إلى ازدواجية القطبين، ولكنْ بسمة مغايرة وعلى مستوى آخر.

الاحتمال الرابع: (وهو تطوير لسابقه). في هذه المواجهة الجديدة تنتصر التيلوروكراتيا، وتطمح إلى نقل أنموذجها الحضاري الخاص لتطبقه على الكرة الأرضية كلها و«تقفل التاريخ» وفقاً لإيقاعها الخاص ـ من الناحية النمطية يتحول العالم كله إلى **يابسة**، وفي كل مكان تسود «الأيديوكراتيا». كانت الأفكار المتعلقة بـ «الثورة العالمية». وبالسيطرة العالمية للرايخ الثالث(*) هي الاستشراف المسبق لهذا التحول.

وبما أن دور العامل الذاتي والعقلاني في تطوير العمليات التاريخية قد تعاظم، في أيامنا هذه، إلى درجة لم يسبق لها مثيل في الماضي فينبغي النظر إلى هذه الاحتمالات الأربعة لا كإقرار تجريدي للتطور المحتمل للعملية الجيوبولتيكية فقط بل وكمواقف

(*) الرايخ الثالث: (بالألمانية Drittes Reich حرفياً الإمبراطورية الثالثة أو المملكة الثالثة). مصطلح نادت به أجهزة الدعاية النازية الألمانية وتمت استعارته من تعاليم القرون الوسطى الغيبية المتعلقة بالإمبراطوريات الثلاث. «فالإمبراطورية الرومانية المقدسة» و «الإمبراطورية الألمانية 1871 ـ 1918» جسدتا المملكتين السابقتين أما «الثالثة»، «مملكة الألف سنة» فتمثل الأساس الإيديولوجي لطموحات الفاشية التي عدّت نفسها المرحلة الأعلى «الختامية» للتطور. (المترجم).

جيوبولتيكية فعّالة يمكنها أن تتحول إلى توجيه لعمليات ذات بعد كوني.

غير أن الجيوبولتيكا عاجزة في هذه الحالة عن أن تقدم أية صيغة محتومة. وهنا لا يُفضي أي شيء إلا إلى تجميع الاحتمالات التي يرتبط تطبيقها بمجموعة من العوامل التي لا يعود ممكناً زجّها في أطر التحليل الجيوبولتيكي الصرف.

الـ Rimland والمناطق ـ الحدود

يعتمد منهج البحث الجيوبولتيكي بكامله على تطبيق مبادىء الثنائية الجيوبولتيكية الكونية **لليابسة والبحر** على خصائص أكثر محليّة. وعند تحليل أي موقف يبقى الأنموذج الكوني دون غيره الأنموذج الرئيسي والمؤسس. وتلك العلاقات المميّزة بالنسبة للّوحة العامة تتكرر وعلى مستوى أكثر فردية.

بعد استخلاص مبدأي التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا الأساسيين يصبح المبدأ الأساسي التالي هو الـ rimland «منطقة الحافة». إنها المقولة الأساسية المكنونة في صلب البحث الجيوبولتيكي.

تمثل الـRimland المجال المركب الذي يتسم، من حيث الاحتمال بإمكانية أن يكون جزءاً من التالاسوكراتيا أو التيلوروكراتيا. وهو المنطقة المعقدة والزاخرة بالثقافة. كما أن تأثير البيئة البحرية، الماء يثير في «المنطقة الساحلية» التطور الفعال والديناميكي. أما الكتلة القارية فتضغط، وتحمل على إضفاء الصفة البنّاءة على الطاقة فمن ناحية تتحول الـrimland إلى **جزيرة** أو **سفينة** أو تتحول من ناحية أخرى إلى **امبراطورية** أو **منزل**.

على أن الـRimland لا تقتصر على الوسط البيني أو الانتقالي الذي تقوم فيه المواجهة بين نبضين. إنها واقع بالغ التعقيد يتسم بمنطقه المستقل الذي يؤثر بحجم كبير على التالاسوكراتيا وعلى التيلوروكراتيا أيضاً. وصراع التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا على الـ Rimland ليس تنافساً من أجل الاستحواذ على موقع استراتيجي عادي. فالـrimland تستقل بمصيرها الخاص بها وبإرادتها التاريخية الخاصة، والتي لا يمكن أن تحسم خارج الثنائية الجيوبولتيكية الأساسية. الـrimland حرة إلى حد ما في اختيارها لكنها ليست حرة في بنية اختيارها ـ إذ لم يعط لها طريق ثالث غير التالاسوكراتي أو التيلوروكراتي.

وانطلاقاً من هذه الخاصية كثيراً ما يتطابق «الهلال الداخلي» مع منطقة انتشار الحضارة الإنسانية. فالروح المحافظة تهيمن في قلب اليابسة، ويهيمن خارجها تحدّي الفوضى الناشطة.

إن «مناطق الحافة» متوضعة بفعل موقعها أمام حتمية تقديم الردّ على قضية تطرحها الجغرافيا.

الـ Rimland ـ منطقة حدودية، حزام، شريط. وهي في الوقت نفسه ـ حدود. ومثل هذا التركيب يؤدي إلى التعريف الجيوبولتيكي للحدود.

خلافاً للحدود القائمة بين الدول تفهم الجيوبولتيكا هذا المصطلح فهماً مختلفاً، منطلقة في ذلك من الأنموذج الأولي الذي تكون فيه الحدود الأولية والطرز البدئية لكافة أنواع الحدود هي المفهوم المحدّد التاريخي ـ الجيوبولتيكي والثقافي للـ rimland.

والحجم المساحي للمناطق الساحلية هو نتيجة للنظرة إلى اليابسة من الخارج، «من منظور الوافدين البحريين». فالشاطىء بالنسبة لـ «قوى البحر» بالذات **شريط** منبسط في عمق اليابسة. أما بالنسبة لليابسة فالشاطىء، على العكس من ذلك، نهايةً، **خط**.

والحدود كخط (وهي تذكر في القانون الدولي بهذه الصيغة بالذات) ـ واحدة من بقايا «علم القضاء البري» ورثتها الحقوق المعاصرة عن تقاليد موغلة في القدم. وهذه وجهة نظر برية حتى أبعد الحدود.

إلا أن النظرة البحرية، التي تظل خارجيةً من حيث علاقتها باليابسة، ترى في الأراضي الساحلية مستعمرات محتملة، شرائط من الأرض يمكن افتلاذها من باقي الكتلة القارية، وتحويلها إلى قاعدة، إلى مجال استراتيجي. وإلى جانب هذا فإن المنطقة الشاطئية لا تغدو أبداً «ممتلكات» خاصة حتى النهاية؛ إذ يمكن، عند الضرورة، ركوب السفينة والإبحار إلى الوطن، إلى «الجزيرة». فالشاطىء لا يصبح شريطاً إلا على أساس أن القادمين من البحر لا يكونون عند توغلهم في أعماق اليابسة، في مأمن من الخطر إلا في حدود معينة فقط.

وبما أن الجيوبولتيكا تجمع بين كلتا النظريتين إلى المدى البحري والبري فإن الـ rimland يفهم فيها كواقع خاص، كحدود ـ أشرطة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن

حجمه النوعي يتحدد بنوعية الحافز المهيمن في القطاع المقصود أبريّ هو أم بحري. إن الشواطىء البحرية الهائلة الاتساع والصالحة للملاحة في الهند والصين - خطوط - أشرطة ذات أحجام من النوع الأصغر. وللثقافات ذات الصلة توجّه بري واتساع الشرائط الساحلية يميل إلى الصفر، إلى أن تغدو مجرد نهايات لليابسة. أما في أوروبا، وبخاصة في المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط فالشرائط العريضة تتوغل بعيداً في أعماق اليابسة. ويتخذ حجمها أوسع مداه. لكن الحديث في الحالتين يتناول الحدود الجيوبولتيكية. وبناء عليه فإن هذه الصفة متقلّبة، تتبدل تبعاً للظروف، من الخط حتى الشريط.

وتطبق الجيوبولتيكا مثل هذه المقاربة أيضاً على تحليل المشاكل الفردية المرتبطة بالحدود. فهي تنظر إلى الحدود بين الدول على أنها «مناطق متغيّرة الأحجام». فهذا الحجم يرتبط - في تقلّصه أو انبساطه - بالديناميكية القارية العامة. وانطلاقاً منها تبدل هذه المناطق صيغتها ومسارها ضمن الحدود المعطاة. وفي مفهوم «الحدود الجيوبولتيكية» يمكن أن تدخل دول بكاملها. فالفكرة الإنكليزية «للنطاق الصحي» بين روسيا وألمانيا، كانت تفترض مثلاً، إقامة منطقة «محايدة» (نصف مستعمرة، ذات توجه نحو انكلترا) تتكون من دول البلطيق ودول أوروبا الشرقية. وكانت السياسة القارية لروسيا وألمانيا تميل، على العكس من ذلك، إلى تحويل هذه المنطقة إلى خط (بريست - ليتوفسك، رابّالو، وفق ميثاق ريبّينتروب - مولوتوف). وقد حاول التالاسوكراتيون - الأطلسيون أن يوسعوها حتى أبعد حدود ممكنة باختلاق «دول عزقات» (etats- tempons) مصطنعة.

وإلى جانب هذا فإن التالاسوكراتيا الناجزة والتي بلغت ذروة اكتمالها (انجلترا - الولايات المتحدة) تطبق في هذه الحالة معياراً مزدوجاً - فالتالاسوكراتيون يطمحون إلى جعل حدود جزرهم الخاصة خطوطاً وتوسيع المناطق الشاطئية للأوراسيا حتى الحدود القصوى. ومن المنطقي بالنسبة للجيوبولتيكا القارية أن نطبق بدقة مثل هذا المبدأ في اتجاه معكوس فتصبح: حدود الأوراسيا - خطوطاً، وحدود أمريكا - شرائط.

إن التشابه مع الـrimland التاريخي كـ«مهد الحضارة» يكشف المغزى البالغ الأهمية «للمناطق - الحدود». في حالات أكثر فردية. فعندما تحررت «المناطق الحدودية، من الحاجة إلى تحميل نفسها أعباء أن تكون الحشوة الجغرافية للتاريخ - غالباً ما وجهت

طاقاتها نحو الأجواء الثقافية ـ العقلية. وإن الاستخدام الحاذق لهذه الكفاءة الجيوبولتيكية «السهلة» يجسد فن الاستراتيجية الجيوبولتيكية للجانبين المتواجهين.

وإلى هذا فإن «القوى البحرية» بالذات قد أتقنت ذلك حتى حدود الكمال المطلق. إذ كانت تتصرف دوماً على أساس مبدأ الاستنزاف الأقصى والأسرع للمناطق المستعمرة، وهذا ما ميّزها عن الفاتحين البريين الذين كانوا، بعد احتلالهم الأراضي، يشرعون بإعلانها ملكاً لهم، وعليه فإنهم لم يتعجلوا إلى اعتصار كل ما يمكن منها.

الجيوبولتيكا مصيراً

قوانين الجيوبولتيكا ملائمة بصفة خارقة للعادة لتحليل التاريخ السياسي وتاريخ الدبلوماسية والتخطيط الاستراتيجي. ولهذا العلم عدد كبير من الاختراقات المتبادلة مع علم الاجتماع وعلم السياسة والأتنولوجيا والاستراتيجية العسكرية والدبلوماسية وتاريخ الأديان. فهو، بطريقة غير مباشرة، لكنها شديدة الوضوح، يرتبط بالاقتصاد حتى أن بعض علماء الجيوبولتيكا اقترحوا تأسيس علم جديد هو ـ الجغرافيا الاقتصادية. وعلى أية حال فإن العودة إلى الوقائع الاقتصادية أمر ضروري في بعض آفاق المنهج الجيوبولتيكي.

وفي اللحظة الراهنة ـ وأمام ميل جميع أشكال العلوم نحو التركيب، نحو التذاوب، نحو خلق نظم جديدة شديدة الاتساع بين العلوم ونماذج متعددة السياقات ـ تكتشف الجيوبولتيكا أهميتها في ميدان الدراسات النظرية الصرفة كما في ميدان الخطوات التطبيقية لتوجيه العمليات الحضارية المعقدة ـ سواء على مستوى الكوكب الأرضي أم على المستوى الفردي للدول أو تحالفات الدول ـ إنها ـ علم المستقبل، والذي ستدرّس أسسه في أقرب الأوقات لا في المؤسسات والأكاديميات العلمية المتخصصة فقط، بل وفي المدارس الاعتيادية. فبمساعدة التحليل الجيوبولتيكي يمكن التوصل، وبسهولة، إلى فهم أحقاب كاملة من التطور التاريخي للدول والشعوب، وأمام ما يتسم به عصرنا من توسع المساحات الإعلامية يغدو ظهور أمثال تلك المنهجيات المرئية المختصرة ـ أمراً لا مندوحة منه وإلاّ غامر الإنسان بالتضييع النهائي لأية علامات يهتدي بها في هذه الفوضى المتنوعة الأشكال والكثيرة الأبعاد تدفق سيول المعارف المختلفة.

والجيوبولتيكا عون لا يقدر بثمن في أمور الثقافة، ويعتمد بناؤها على أنها المؤهلة، دون غيرها، لتكون المادة العلمية المحورية خلال المرحلة الجديدة من تطور المدرسة.

وبالإضافة إلى ذلك يبدو دور الجيوبولتيكا أكثر حضوراً على الصعيد الاجتماعي الواسع. فمستوى تطور الإعلام، والاجتذاب الفعال للإنسان العادي إلى الاحداث الدائرة على مساحة القارة كلها، «وعولمة» وسائل الإعلام ـ كل هذا يدفع إلى المرتبة الأولى بالتفكير في المدى المكاني من خلال مصطلحات جيوبولتيكية، ذلك التفكير الذي يساعد على «تصنيف» الشعوب والدول والنظم والأديان وفقاً لسلم مبسّط بحيث يغدو مفهوماً، ولو بصورة تقريبية، المعنى الذي يتضمنه حتى أبسط الأخبار المذاعة بالتلفزيون أو بالراديو. فلو استخدمنا الشبكة الجيوبولتيكية الأقرب إلى البساطة ـ الـ heartland والـ rimland و World Island في تفسير أي مادة إعلامية تتعلق بالأحداث العالمية لارتسم أمامنا على التو الأنموذج الموضح الذي لا يطالب بكميات إضافية من المعارف المتخصصة الضيقة. «توسع **الناتو** نحو **الشرق**» يعني من هذا المنطلق «توسيع مساحة الـrimland لصالح التالاسوكراتيا»، «الاتفاق بين ألمانيا وفرنسا على إنشاء قوات مسلحة خاصة أوروبية صرفة»، خطوة في اتجاه إنشاء بنية تيلوروكراتية قارية»، «النزاع بين العراق والكويت»، «سعي دولة قارية إلى إزاحة تشكيل تالاسوكراتي مفتعل يحول دون السيطرة المباشرة على منطقة ساحلية» وهكذا.

وأخيراً حول تأثير المنهجية الجيوبولتيكية على السياسة الداخلية والخارجية إذا كان المغزى الجيوبولتيكي للخطوات المحدّدة للأحزاب والحركات السياسية بالإضافة إلى البُنى السلطوية واضحاً لتمكنا بسهولة من تنسيبها إلى نظام المصالح العالمية، وبالتالي كان سهلاً تشفير أهدافها البعيدة. فالتكامل، مثلاً، بين روسيا والدول الأوروبية (وبخاصة مع ألمانيا) ـ خطوة من طرف القوى التيلوروكراتية (الأوراسيين). ومن هنا يمكننا، وبطريقة آلية، التنبؤ بتعزيز الميول «الأيديوكراتية» («الاشتراكية») داخل البلاد. وعلى العكس من ذلك فإن تقارب موسكو مع واشنطن يعني الخضوع للخط التلاسوكراتي وهو ما يجر وراءه، وبطريقة محتومة، تعزيز مواقف «أساطين السوق» وهلمّ جرّا. وعلى هذه الشاكلة بالذات وفي ضوء القوانين الجيوبولتيكية الداخلية يمكننا بسهولة تفسير العمليات السياسية الداخلية ـ

انفصالية الشعوب داخل روسيا، الاتفاقيات الثنائية أو المتعددة الأطراف فيما بين التشكيلات والمناطق الإدارية المختلفة. وكل حادث يكتسب معنى واضحاً في ضوء الجيوبولتيكا. وهذا المعنى الجيوبولتيكي لا يمكن النظر إليه على أنه الـUltimo ratio(*) بالنسبة للحدث، إلا أنه في كل حالة من الحالات يبدو معبراً على أعلى المستويات، ومفيداً في حقل التحليل والاستشراف.

إن غياب أي نوع من الكتب التعليمية، مهما كان نوعه في يومنا الحالي، دفعنا إلى كتابة وتصنيف هذا الكتاب الذي يعد مدخلاً إلى الجيوبولتيكا كعلم.

(*) Ultima ratio (باللاتينية) الحجة النهائية: الدليل النهائي. (المترجم).

الباب الأول

آباء الجيوبولتيكا ـ المؤسسون

فريدريك راتسيل
الدول ككائنات حية في المدى المكاني

1 ـ 1 التعليم: «المدرسة العضوية» الألمانية:

يمكن عدّ فريدريك راتسيل (1844 ـ 1904) «أب» الجيوبولتيكا. على الرغم من أنه لم يستخدم ذلك المصطلح في أعماله. فقد كتب عن «الجغرافية السياسية» وسميت دراسته الأهم، التي رأت النور عام 1897 بـ «Politische geographie».

أنهى راتسيل جامعة البوليتيكنيك في كازلسروة، حيث استمع إلى محاضرات الجيولوجيا، الباليونتولوجيا، والزوولوجيا(*). وأكمل دراسته في هايدلبرج حيث تتلمذ على البروفيسور إيرنست غيكل (الذي كان أول من استخدم مصطلح «علم البيئة») وقد بنيت الرؤية الفكرية لراتسيل على التطورية والداروينية واصطبغت باهتمامه المعبر عنه بوضوح نحو علم الحياة.

شارك راتسيل في حرب 1870(**) والتي انضم إليها متطوعاً ونال وسام الصليب الحديدي على شجاعته. أما في السياسة فهو يغدو بالتدريج قومياً مؤمناً

(*) الباليونتولوجيا ـ علم الحفريات القديمة، الزوولوجيا ـ علم الحيوان. (المترجم).

(**) حرب 1870 ـ خاضتها فرنسا بغية الاحتفاظ بالهيمنة على أوروبا ضد بروسيا وعدد من الدول الألمانية. وإذا كانت بداية الحرب وحتى هزيمة الجيش الفرنسي في سيدان تحمل بالنسبة لبروسيا معنى تاريخياً وانتهت بوحدة ألمانيا، فقد تحولت بعد ذلك إلى حرب احتلال ونهب من طرف البروسيين الذين قضوا أيضاً على كومونة باريس سنة 1871، العام الذي انتهت فيه الحرب بصلح فرانكفورت. (المترجم).

وينتسب سنة 1890 إلى «الرابطة البانجرمانية» التي أسسها كارل بيترس. ويقوم برحلات كثيرة في أرجاء أوروبا وأمريكا ويضيف إلى دراساته العلمية الطريفة بحوثاً في الأنطولوجيا ويغدو مدرساً للجغرافيا في المعهد التقني بميونيخ، أما في سنة 1886 فينتقل إلى القسم المشابه في لايبزيغ.

في سنة 1876 يناقش راتسيل أطروحته حول «الهجرة في الصين» وفي سنة 1882 تصدر دراسته «الأنتروبوجغرافيا» «Antropogeographie» والتي يصوغ فيها أفكاره الأساسية: العلاقة بين تطور الشعوب والديموغرافيا وبين المعطيات الجغرافية، وتأثير التضريس المكاني على التكوين الثقافي والسياسي للشعوب، وما إلى ذلك.

إلا أن كتابه الأكثر أهمية هو «الجغرافيا السياسية».

1 ـ 2 الدول ككائنات حية:

يبيّن راتسيل في دراسته هذه أن التربة هي المعطى المؤسس الوطيد الذي تدور حوله مصالح الشعوب. وحركة التاريخ محددة مسبقاً بالتربة والأرض. وتلي ذلك نتيجة يستخلصها المؤلف على أساس التطور وهي إن «الدولة كائن حي»، إلا أنه كائن «متجذر في التربة». فالدولة تتكون من السطح الأرضي ومن البعد المساحي ومن وعي الشعب لهما. وعلى هذا ينعكس في الدولة المعطى الجغرافي الموضوعي والوعي الذاتي القومي العام لهذا المعطى، والذي يتم التعبير عنه في السياسة. ويرى راتسيل أن الدولة «الطبيعية» هي التي تجمع بصفة عضوية بين الكميات المتغيّرة للأمة، الجغرافية منها والديموغرافية والاتنو ثقافية.

فهو يكتب:

«ينظر إلى الدول خلال كل مراحل تطورها على أنها كائنات عضوية تحافظ بفعل الضرورة على علاقتها بتربة أرضها، ولهذا يجب أن تدرس من وجهة النظر الجغرافية. وعلى نحو ما تظهر الاتنوغرافيا والتاريخ فإن الدول تتطور على قاعدة تتفاعل معها وتتذاوب بها أكثر فأكثر وتستخلص منها كميات من الطاقة أكثر فأكثر. ولهذا فإن الدول تبدو ظواهر مكانية يوجهها ويحييها هذا المكان ويجب أن تقوم الجغرافيا بوصفها ومقارنتها وقياسها. وتدخل الدول في سلسلة ظواهر تطور **الحياة**

لتغدو الذروة العليا لهذه الظواهر. («الجغرافيا السياسية»[1]).

من هذه النظرة «العضوية» يتضح بجلاء أن راتسيل يفهم التطور الزاحف للدولة على أنه عملية طبيعية حية، شبيهة بنمو الكائنات الحيّة.

ونظرة راتسيل «العضوية» تنعكس أيضاً في علاقته بالمدى (Raum) نفسه، فهذا «المدى» ينتقل من الصفة المادية الكمية إلى صفة أخرى إذ يغدو «**وسطاً حيوياً**»، «**مجالاً حيوياً**» (Lebensraum) نوعاً من «**الوسط الجغرافي البيولوجي**». ومن هنا ينبثق مصطلحان مهمان آخران راتيسل هما «**المعنى المدوي**» (Raumsinn) و«**الطاقة الحياتية**» (Lebensenergie). وهذان المصطلحان متقاربان ويعنيان خاصيّة مميزة لصيقة بالنظم الجغرافية وتحدد مسبقاً التشكل السياسي لهذه النظم في تاريخ الشعوب والدول.

هذه الطروحات جميعاً تعد المبادىء المؤسسة للجيوبولتيكا في تلك الصيغة التي ستتطور بموجبها بعد قليل من الزمن لدى أتباع راتسيل. وعلاوة على ذلك فإن العلاقة بالدولة كـ«جهاز مدوي حي متجذر في التربة». تمثل الفكرة الأساسية والمحور بالنسبة لمنهج الجيوبولتيكا. وهذه النظرة موجهة نحو الدراسة النسيجية لكامل مجموع المظاهر بغض النظر عما إذا كانت تعود إلى الوسط البشري أم غير البشري. فالمجال كتعبير محدّد للطبيعة، للوسط المحيط، ينظر إليه كجسم حي متواصل للأتنوس، إنه مجال من يسكن فيه، وبنية المادة هي التي تحدد أحجام النتاج الغني للفنون.

وبهذا المعنى يكون راتسيل الوريث المباشر لمجموع مدرسة السوسيولوجيا «العضوية» الألمانية، أو التي كان فرديناند تينّيس أبرز ممثليها.

1 ـ 3 Raum ـ التنظيم السياسي للتربة:

القطعة التالية المقتطفة من كتاب «الجغرافيا السياسية» تبين الصورة التي رأى راتسيل من خلالها العلاقة المتبادلة بين الأتنوس والمكان:

«تتشكل الدولة مثل كائن حي مرتبط بجزء محدّد من سطح الأرض وتتطور سماتها طبقاً لسمات الشعب والتربة. أما السمات الأهم فهي الأبعاد، ومكان التوضع والحدود. تلي ذلك أنماط التربة مضافة إلى نوعية النبات

والريّ وأخيراً العلاقة مع بقية خلائط السطح الأرضي، وبالدرجة الأولى مع البحار المتاخمة والأراضي غير المأهولة والتي لا تمثل، للوهلة الأولى، أهمية سياسية خاصة. إن اجتماع هذه السمات كافة يكوّن البلاد (das Land). ولكن عندما يتناول الكلام «بلادنا» ينضاف إلى ذلك كل ما قام الإنسان بإبداعه وكل ما يرتبط بالأرض من ذكريات. وهكذا فإن المفهوم الذي هو، في صورته الأولى، جغرافي صرف يتحول إلى علاقة روحية عاطفية بين سكان البلاد وتاريخهم.

والدولة جهاز حي ليس فقط لأنها تستنطق حياة الشعب فوق تربة ثابتة، بل لأن هذه العلاقة المتبادلة تتقوى بصورة متبادلة لتغدو شيئاً ما متوحداً لا يمكن تصوره بمعزل عن واحد من مكوّنيه الاثنين. والآماد غير المأهولة، غير القادرة على إطعام الدولة هي أرض تاريخية مراح. أما الأراضي المأهولة فهي، على العكس من ذلك، تساعد على تطوير الدولة وبخاصة إذا كانت هذه الآماد مطوّقة بحدود طبيعية. وعندما يحس الشعب بأنه على أرضه بصورة طبيعية فإنه يقوم، وبصفة مستمرة، بإعادة إنتاج نفس السمات التي تنبثق من التربة وتكون هذه السمات مرقونة فيه»[2].

1 ـ 4 قانون التوسع:

النظرة إلى الدولة على أنها جهاز حي افترضت الانصراف عن فكرة «حصانة الحدود» فالدولة كالكائن الحي تولد وتنمو وتموت. وعلى هذا فإن توسعها وتقلصها المكاني عمليتان طبيعيتان مرتبطتان بدورتها الحياتية الداخلية. وفي كتابه «حول قوانين تطور الدولة في المجال» (1901) حدد راتسيل **سبعة قوانين للتوسع**.

1) امتداد الدول يتسع وفقاً لتطور ثقافتها.

2) توسع الدولة في المدى المكاني يترافق مع المظاهر الأخرى، لتطورها: في ميادين الأيديولوجيا، الإنتاج، النشاط التجاري، الإشعاع الجاذب القوي وقوة الدّعوة لديها.

3) تتوسع الدولة من خلال ابتلاعها وتمثّلها للوحدات السياسية الثانوية الأهمية.

4) الحدود ـ هي جهاز متوضع على أطراف الدولة (التي تفهم على أنها جهاز حي).

5) عندما تقوم الدولة بتحقيق توسعها في المدى المكاني، تحاول الاستيلاء على المناطق الأكثر أهمية بالنسبة لتطوّرها: الضفاف، سرر الأنهار، الوديان، وعلى العموم جميع المناطق الغنية.

6) الباعث على التوسع يأتي من الخارج، إذ إن الدولة تُثار للتوسع على حساب الدولة (أو الأراضي) ذات الحضارة الأدنى.

7) الميل العام نحو صهر الأمم الأضعف وتمثّلها يدفع إلى المزيد من زيادة المساحة في حركة تتشرّب نفسها[3].

فليس غريباً أن ينحي الكثيرون من النقاد باللآئمة على راتسيل لأنه ألف «الدليل المرشد للأمبرياليين». وإلى هذا فإنه لم يكن يطمح قطّ إلى تبرير الإمبريالية بأية طريقة من الطرق، على الرغم من أنه لم يخف تأييده للقناعات القومية. كان من المهم بالنسبة له أن يصوغ التصور الذهني من أجل الإدراك الصحيح لتاريخ الدول والشعوب في علاقتها مع المكان، أما على أرضية التطبيق فكان يطمح إلى إيقاظ الـ «Raumsinn» **«الإحساس بالمدى»** لدى قادة ألمانيا الذين كانت المعطيات الجغرافية للعلم الأكاديمي الجاف تبدو لهم، وفقاً لأقرب التقديرات، ضرباً من التجريد المحض.

1 ـ 5 الـWeltmacht والبحر:

مما ترك أثره في نفس راتسيل وإلى حدود ملموسة ـ تعرّفه على أمريكا الشمالية التي درسها جيداً كرّس لها كتابين «خرائط مدن الشمال الأمريكي وحضاراته» (1874) و«الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية» (1878 ـ 1880) وقد أشار إلى أن الإحساس بالمدى، متطور لدى الأمريكيين حتى أبعد الحدود لأنهم كانوا قد وضعوا أمام مهمة غزو الآماد «الخالية»، بينما كانت وراء ظهورهم التجربة **«السياسية ـ الجغرافية»** للتاريخ الأوروبي. وبناء على ذلك أنجز الأمريكيون بطريقة واعية الشيء الذي **كان العالم القديم** قد توصل إليه بحدسه وبالتدريج. وهكذا نلتقي لدى راتسيل بالصيغ الأولى لمقولة جيوبولتيكية أخرى ـ مقولة **«الدولة العالمية»**. وقد لاحظ أن الدول

الكبرى تعيش خلال تطورها إحساساً بالميل إلى التوسع الجغرافي في حدوده القصوى، والذي يبلغ تدريجياً مستوى الكرة الأرضية.

وبناء على ذلك كان على التطور الجغرافي أن يصل عاجلاً أم آجلاً إلى طوره القاراتي.

وباستخدام هذا المبدأ المستنبط من التجربة الأميريكية للتوحيد السياسي والاستراتيجي للآماد القاراتية مطبقاً على ألمانيا، كان راتسيل قد تنبأ لها بمصير الدولة العظمى القارية.

كما أنه كان سباقاً إلى موضوع آخر من موضوعات الجيوبولتيكا. ففي كتابه «البحر، مصدر قوة الشعوب» (1900)[4] أشار إلى ضرورة أن تقوم كل دولة عظمى بتطوير قواتها البحرية الحربية. وما حققته بعض الشعوب والدول (انجلترا، اسبانيا، هولندة، وما إلى ذلك) بطريقة عفوية ـ يجب على الدول البرية العظمى أن تحققه بوعيها: فتطوير الأسطول هو الشرط اللازم للاقتراب من وضع «الدولة العظمى العالمية» (weltmacht).

البحر، «والدولة العالمية العظمى» متلازمان لدى راتسيل على الرغم من أن هذا الموضع سيكتسب لدى الجيوبولتيكيين المتأخرين (ماهان، ماكندر، هاوسهوفر، وشميدت بشكل خاص) صيغته النهائية ومركزيته.

وأعمال راتسيل هي القاعدة الضرورية لجميع الدراسات الجيوبولتيكية، ففي هذه الأعمال تعرض، وبصورة مفتوحة، من الناحية العملية، كل المنطلقات التي ستترسخ في صلب هذا العلم.

فعلى أساس كتب راتسيل أقام السويدي تشيلّين والألماني هاوسهوفر تعاليمهما. وأخذ أفكاره بعين الاعتبار كل من الفرنسي ڤيدال دي لابلانش، والإنجليزي ماكيندر، والأمريكي ماهان والأوراسيان الروسيان (ب. ساڤيتسكي ول. غوميليوف).

وتجدر الإشارة إلى أن ميول راتسيل السياسية لم تكن أمراً عارضاً. فمن الناحية العملية كان جميع علماء الجيوبولتيكا يتسمون بالشعور القومي الشديد التألق بغض النظر عما إذا كان هذا الشعور قد ظهر في اللبوس الديمقراطي (الجيوبولتيكيان الإنجليزيان ماكيندر وماهان) أو «الأيديوقراطي» (هاوسهوفر، شميدت والأوراسيان).

رودولف تشيلين وفريدريك ناومن
«أوروبا الوسطى»

2 ـ 1 تعريف العلم الجديد:

كان السويدي رودولف تشيلّين (1864 ـ 1922) أول من استخدم مصطلح «الجيوبولتيكا».

كان تشيلّين أستاذ التاريخ والعلوم السياسية في جامعتي أوبسالا وغيتيبورغ. وبالإضافة إلى ذلك شارك بفعالية في السياسة، إذ كان عضواً في البرلمان يتسم بتوجه يفيض بالحب لألمانيا. ولم يكن جغرافياً متخصصاً وكان يعكف على دراسات الجيوبولتيكا التي طور أسسها منطلقاً من دراسات راتسيل (الذي عدّه أستاذه) كقسم من علم السياسة.

وقد عرّف الجيوبولتيكا بما يلي:

«إنها علم الدولة كجسم جغرافي متجسد في المكان»[5].

وبالإضافة إلى «الجيوبولتيكا» اقترح تشيلّين أربعة مصطلحات جديدة، كان عليها في رأيه، أن تكون الأجزاء المكوّنة للعلم السياسي وهي:

ـ الإيكوبولتيكا (دراسة الدولة كقوة اقتصادية).

ـ الديموبولتيكا (دارسة الدوافع الديناميكية التي تُرفد بها الدولة من قبل الشعب، شبيهة بـ «الأنتروجغرافيا» لدي راتسيل).

ـ السوسيوبولتيكا (دراسة الجانب الاجتماعي للدولة).

ـ الكراتوبوليتيكا (دراسة صيغ الحكم والسلطة في علاقاتهما مع قضايا الحقوق والعوامل الاجتماعية ـ الاقتصادية)[6].

إلا أن جميع هذه المواد التعليمية التي طورها تشيلّين بصورة متوازية مع الجيوبولتيكا لم تحقق الاعتراف الواسع، بينما ترسخ مصطلح «الجيوبولتيكا» ثابتاً في أكثر الأوساط تبايناً.

2 ـ 2 الدولة كصيغة للحياة ومصالحُ ألمانيا:

في دراسته الأساسية «الدولة كصيغة للحياة» (1916)[7] طوّر تشيلّين المسلَّمات الواردة في عمل راتسيل. وكان تشيلّين، شأن راتسيل، يرى نفسه تلميذاً «للعضوانية» الألمانية التي ترفض النظرة الآلية إلى الدولة والمجتمع. **ورَفْض التقسيم الصارم لمواد الدراسة إلى موضوعات غير حية (فون) و«ذوات إنسانية» (فعاليّات) يمثل السمة المميّزة لغالبية علماء الجيوبولتيكا**. وفي هذا السياق يندرج مدلول عنوان العمل الأساسي لتشيلّين.

وقد طور تشيلّين مبادىء راتسيل السياسية بتطبيقها على الوضع التاريخي المحدَّد في أوروبا المعاصرة له.

كما أوصل حتى النهاية المنطقية أفكار راتسيل حول«**الدولة القارية**» بتطبيقها على ألمانيا وأظهر أن ألمانيا تمثل في السياق الأوروبي ذلك المدى الذي يمتلك الدينامية المحورية ويناط به أن ينظم باقي الدول الأوروبية من حوله. وقد فسّر تشيلّين الحرب العالمية الأولى على أنها صراع جيوبولتيكي طبيعي نشب بين توسع ألمانيا الديناميكي (دول المحور) وبين من واجهها من دول الأطراف الأوروبية (وخارج الأوروبية)، (الأنتانتا)[*] والاختلاف في الديناميكية الجيوبولتيكية للنمو ـ التنازلي بالنسبة لفرنسا وانجلترا والتصاعدي بالنسبة لألمانيا ـ حدّد مسبقاً التوزع الأساسي للقوة. يضاف إلى ذلك أن المطابقة الجيوبولتيكية بين ألمانيا وأوروبا،

(*) دول الأنتانتا (من الفرنسية Entante ـ اتفاق؛ حلف ثلاثي عقد بين بريطانيا، فرنسا وروسيا القيصرية بين 1904 ـ 1907، وحشد خلال الحرب العالمية الأولى تحالفاً ضد ألمانيا زاد عدد أعضائه عن العشرين دولة (من بينها الولايات المتحدة الأمريكية، اليابان وإيطاليا وسواها. . .) (المترجم).

من وجهة نظره، أمرٌ لا مندوحة منه ولا مردّ له بغض النظر عن الهزيمة المؤقتة في الحرب العالمية الأولى.

وقد رسّخ تشيلّين المبدأ الجيوبولتيكي الذي أقره راتسيل: ـ مصالح ألمانيا (= مصالح أوروبا) وتتناقض مع مصالح أوروبا الغربية (وبخاصة فرنسا وانجلترا). إلا أن ألمانيا دولة **فتية**، والألمان ـ **«شعب فتي»**. (هذه الفكرة المتعلقة بـ «الشعبين الفتين» وكانا يُعدّان الروس والألمان، تعود إلى ف. دستويفسكي، الذي استشهد تشيلّين به أكثر من مرة. وعلى الألمان «الفتيان»، أن يتحركوا بإلهام من «المجال الأوروبي الأوسط»، نحو بناء الدولة القارية ذات البعد الكوني وذلك على حساب الأراضي التي يسيطر عليها **«الشعبان الهرمان»** ـ الفرنسيون والإنجليز. وإلى هذا فإن البعد الأيديولوجي للمواجهة الجيوبولتيكية كان أمراً ثانوياً بالنسبة لتشيلّين.

2 ـ 3 نحو نظرية أوروبا الوسطى:

على الرغم من كون تشيلّين سويدياً وإنه كان يؤكد على تقريب السياسة السويدية من الألمانية فإن تصوراته عن المعنى التكاملي المستقل للمدى الألماني تتطابق تطابقاً تاماً مع نظرية أوروبا الوسطى (Mitteleuropa) لفريدريك ناومن.

قدم ناومن في كتابه «Mitteleuropa» (1915)[8] تشخيصاً يتطابق مع نظرية رودولف تشيلّين. وانطلاقاً من وجهة نظره كان على الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وشعوب أوروبا الوسطى أن تتوحد وتشكل مجالاً سياسياً ـ اقتصادياً متكاملاً لتحقيق النجاح في منافسة تلك التشكيلات الجيوبولتيكية المنظمة كانجلترا (ومستعمراتها). ومن الطبيعي أن يكون محور هذا المجال ـ هم الألمان.

خلافاً للمشاريع «البانجرمانية»[*] المجردة، لم تكن الـMitteleuropa مفهوماً قومياً بل هي مفهوم جيوبولتيكي صرف تعطى فيه الأهمية الأولى لا للوحدة الأتنية

(*) سيرد في الكتاب عدد من المصطلحات المبتدئة بـ «بان»، وهي بادئة لغوية تعني المؤيد لاتحاد مجموعة ما فالبانجرماني ـ المؤيد لوحدة الجرمان. وقد آثرنا ترك المصطلح على حاله: كالبانآسيوي، البانتوركي باستثناء ما يتعلق بكلمة «عرب» إذ رأينا ترجمة المصطلح بـ «العروبي» ـ (المترجم).

بل لوحدة المصير الجغرافي. وكان مشروع ناوْمَنْ يضع في حسبانه التكامل بين ألمانيا، النمسا، دول الدانوب ثم فرنسا على المدى البعيد.

كما توطد المشروع الجيوبولتيكي بموازيات ثقافية أيضاً. بل إن ألمانيا نفسها صارت، كتشكل روحي، تتماهى مع مفهوم الـ«Mittellage» الروحي أي «الوضع المتوسط». وهذا ما كان آرنْدت قد صاغه منذ عام 1818 بقوله: «**أحلّنا الله في وسط أوروبا، فنحن (الألمان) قلب المنطقة التابعة لنا من العالم**».

ومن خلال تشيلّين وناومن اكتسبت أفكار راتسيل «القارية»، وبطريقة تدريجية، ملامحها الملموسة.

هيلفورد ماكيندر
المحور الجغرافي للتاريخ

3 ـ 1 العالِم والسياسي:

السير هيلفورد ج. ماكيندر (1861 ـ 1947) الشخصية الأوفر تألقاً بين علماء الجيوبولتيكا.

بعد أن أنهى علومه الجغرافية أخذ منذ عام 1887 يعمل في التدريس في أوكسفورد إلى أن عُيّن مديراً للمدرسة الاقتصادية في لندن. وصار بين 1910 ـ 1922 عضو مجلس العموم، وكان بين 1919 ـ 1920 الموفد البريطاني إلى روسيا الجنوبية.

يشتهر ماكيندر بمقامه الرفيع في عالم السياسة الإنجليزية التي ترك تأثيره العميق على توجهاتها الدولية، وبكونه، فضلاً عن ذلك، صاحب المخطط الأجرأ والأكثر ثورية بين مخططات التأويل السياسي لتاريخ العالم.

من خلال مثال ماكيندر تتجلى على أوضح الصور تلك المفارقة الأنموذجية التي تتميز بها الجيوبولتيكا كمادة علمية. فعالم العلم لم يتقبل أفكار ماكيندر بغض النظر عن علو كعبه لا في عالم السياسة فحسب بل وفي الوسط العلمي نفسه. بل إن حقيقة بقائه على مدار نصف قرن تقريباً يشارك بفعالية ونجاح في بناء الإستراتيجية الإنكليزية المتعلقة بالقضايا الدولية على أساس من تأويله للتاريخ السياسي والجغرافي للعالم، لم تستطع إقناع المتشككين بالاعتراف بأهمية الجيوبولتيكا وفعاليتها كمنظومة علمية.

3 ـ 2 المحور الجغرافي للتاريخ:

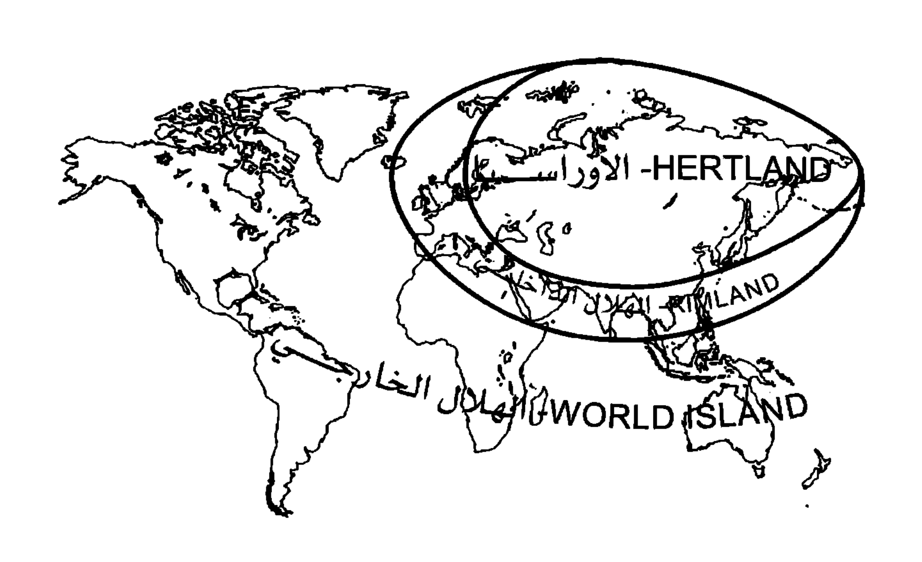
كان أول أعمال ماكيندر وأهمها ـ تقريره حول «المحور الجغرافي للتاريخ»[9] والذي نشر عام 1904 في «المجلة الجغرافية» وفيه عرض المؤلف أساس رؤيته للتاريخ والجغرافيا. تلك الرؤية التي طورها في أعماله التالية، وهذا النص العائد لماكيندر يمكن عدّه النص الجيوبولتيكي الرئيس في تاريخ هذا العلم ـ إذ لم يجر فيه فقط تعميم كافة الخطوط السابقة لتطور «الجغرافيا السياسية»، بل وتمت صياغة القانون الأساسي لهذا العلم.

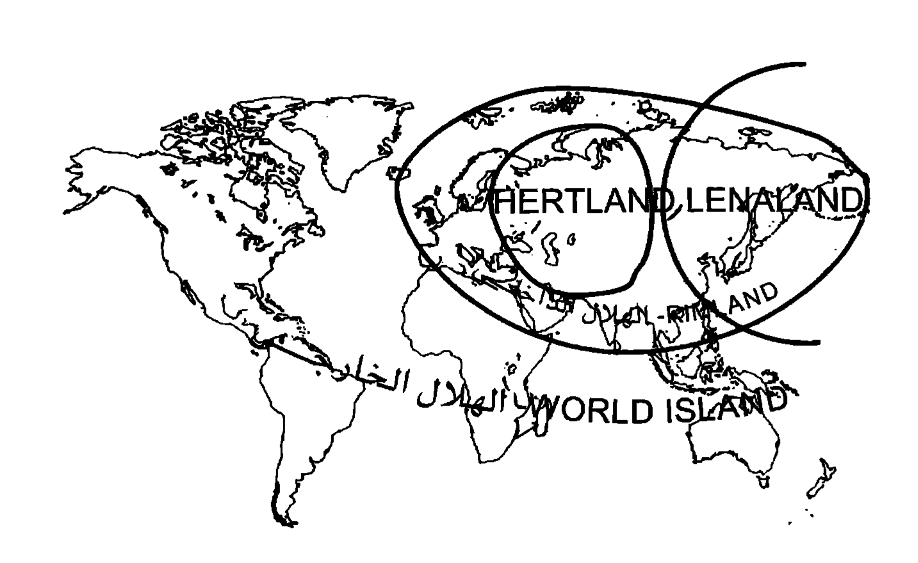
يؤكد ماكيندر على أن الوضع الجيوبولتيكي الأفضل لكل دولة هو الوضع المتوسط المركزي. والمركزية مفهوم نسبي ويمكنها أن تتبدل مع كل سياق جغرافي محدَّد. إلا أن **القارة الأوراسية**، من وجهة النظر الكونية، تقع في مركز العالم ـ ويقع في مركزها ـ «قلب العالم» أو الـ«heartland». فالـHeartland ـ هو تجمّع الكتل القارية للأوراسيا. وهذا هو رأس الجسر الجغرافي الأكثر ملاءمة للسيادة على العالم بأسره.

الـHeartland هو المنطقة الأكثر أهمية في السياق الأعمّ ـ ضمن حدود **الجزيرة العالمية**(World Island). ويدخل ماكيندر في الجزيرة العالمية آسيا، أفريقيا وأوروبا.

وعلى هذا يقوم ماكيندر بتدريج **المدى الكوني** عبر **نظام الدوائر المتحدة المركز**. وفي الوسط بالذات يقوم **المحور الجغرافي للتاريخ أو «المنطقة المحورية»** (pivot area). وهذا المفهوم الجيوبولتيكي متطابق جغرافياً مع روسيا، وذلك الواقع «المحوري» يسمى الـ heartland أي «أرض القلب».

يجيء بعد ذلك: **«الهلال الداخلي أو الحدّي»** (inneror marginal crescent). وهو الطوق المتطابق مع مجالات الحافة في القارة الأوراسية والهلال الداخلي يمثل، وفقاً لنظرية ماكيندر، منطقة حضارة ذات تطور أكثر كثافة. وهو ما يتفق والفرضية القائلة بأن الحضارة ظهرت لأول مرة على ضفاف الأنهار أو البحار أي **«النظرية البوتامية»**. وتنبغي الإشارة إلى أن هذه النظرية تمثل لحظة جوهرية بالنسبة لجميع النظم الجيوبولتيكية. فالتقاطع بين المدارات المائية والبريّة يمثل عاملاً أساسياً في تاريخ الشعوب والدول. وسوف يجري تطوير هذا الموضوع في


الاوراسيا - HERTLAND
الهلال الداخلي - RIMLAND
الهلال الخارجي - WORLD ISLAND


HERTLAND
LENALAND
الهلال الداخلي - RIMLAND
الهلال الخارجي - WORLD ISLAND

المستقبل على يدي شميدت وسبيكمان، إلا أن ماكيندر بالذات كان أول من طرح هذه الصيغة الجيوبولتيكية.

يلي ذلك الدائرة الأبعد نحو الخارج: **الهلال الخارجي أو الجزيري** (outer or insular crescent). وهذه المنطقة **خارجية** بصفة كلية (من الناحيتين الجغرافية والثقافية) بالنسبة للكتلة القارية للجزيرة العالمية (World Island).

يرى ماكيندر أن مسيرة التاريخ محكومة، بطولها، بالعمليات التالية. من مركز الـheartland وباتجاه الأطراف يجري الضغط المستمر لمن يسمون بـ **«قراصنة البر»**. وهو ما تجسد بالصورة الأكثر وضوحاً وملموسية في الغزوات المنغولية. إلا أن الصقالبة، الهون واللان وسواهم سبقوهم إلى ذلك. والحضارات التي تنساب من «المحور الجغرافي للتاريخ» من أعمق أعماق الـ heartland، تحمل في العادة، وفق رأي ماكيندر طابعاً «تسلطياً»، «تراتبياً»، «لا ديمقراطي»، و«لا تجاري». وفي العالم القديم تجسد هذا الطابع في المجتمع الشبيه بسبارطة الدورية أو روما القديمة.

ومن الخارج، من مناطق «الهلال الجزيري» يتحقق ضغط ما يسمى بـ**«قراصنة البحر»** أو «سكان الجزر» على الجزيرة العالمية. إنه ـ الحملات الاستعمارية المنطلقة من خارج المركز الأوراسي والتي تحاول أن توازن فيما بين الدفعات البرية المنطلقة من التخوم الداخلية للقارة. ومن مميّزات حضارة «الهلال الخارجي» الطابع «التجاري» و«الصيغ الديموقراطية» للسياسة. وفي العهود القديمة كانت الدولة الأثينية وقرطاج تتسمان بمثل هذا الطابع.

بين هذين العاملين القطبين الحضاريين ـ الجغرافيين تقع منطقة «الهلال الداخلي» التي كانت بسبب ازدواجيتها وتعرضها الدائم للتأثيرات الثقافية المتناقضة، الأكثر نشاطاً فأصبحت بفضل موقعها بؤرة التطوير الأفضل للحضارة.

من الناحية الجغرافية يدور التاريخ، وفقاً لنظرية ماكيندر، حول المركز القاري. وتظهر تجليات هذا التاريخ بأوضح صورة في مجال «الهلال الداخلي بينما يخيم ضمن الـ heartland القِدَم «المتحجّر» ويسود «الهلال الخارجي» نوع من الفوضى الحضارية.

3 ـ 3 موقف روسيا المفصلي:

أما ماكيندر نفسه فكان يوفق بين اهتماماته ومصالح العالم الأنجلوساكسوني الجزيري أي مصالح «الهلال الخارجي». وفي هذه الحالة كان أساس التوجه الجيوبولتيكي «للعالم الجزيري» يتراءى أمامه في صورة أقصى درجات ضعف الـheartland وأوسع درجات تأثير «الهلال الخارجي» على «الهلال الداخلي». وقد أكد ماكيندر على الأفضلية الاستراتيجية «للمحور الجغرافي للتاريخ» في السياسة العالمية بأسرها وقدّم قانونه الجيوبولتيكي الأهم في الصيغة التالية:

«إن من يسيطر على **أوروبا الشرقية** ومن يسيطر على الـheartland يسيطر على **الجزيرة العالمية** ومن يسيطر على **الجزيرة العالمية** يسيطر على العالم (المثل الديموقراطية والواقع)»[10].

أما على المستوى السياسي فكان ذلك يعني الاعتراف بالدور القيادي لروسيا في المفهوم الاستراتيجي. وقد كتب ماكيندر:

«تحتل روسيا في هذا العالم موقعاً استراتيجياً مركزياً هو الموقع الذي ينسب لألمانيا في أوروبا. وبإمكانها أن تسدد الضربات وأن تستقبلها في الوقت نفسه من كافة الاتجاهات باستثناء الشمال. والتطور النهائي لحركيتها والمرتبط بالسكك الحديدية ليس إلا مسألة وقت» (المحور الجغرافي للتاريخ)[11].

انطلاقاً من ذلك كان ماكيندر يرى أن المهمة الأولى للجيوبولتيكا الأنجلوساكسونية هي الحيلولة دون تشكّل الاتحاد الاستراتيجي القاري حول «المحور الجغرافي للتاريخ» وعليه فإن استراتيجية قوى «الهلال الخارجي» تتمثل في انتزاع أكبر قدر ممكن من الآماد الشاطئية من الـheartland ووضعها تحت سيطرة «الحضارة الجزيرية».

«إن الإخلال بتوازن القوى لصالح «الدولة المحورية» (روسيا ـ المؤلف) والمتمثل في توسعها على حساب الأراضي الحدودية للأوراسيا يسمح باستخدام الموارد القارية، التي لا تحيط بها الأبصار، من أجل بناء الأسطول البحري: ولا يبقى إلا القليل للوصول إلى الامبراطورية العالمية. ويمكن لذلك أن يتحقق إذا ما اتحدت روسيا مع ألمانيا. وتهديد مثل هذا التطور سيجبر فرنسا على الدخول في تحالف مع دول ما وراء البحار.

وبهذا تصبح فرنسا، ايطاليا، مصر، الهند وكوريا قواعد ساحلية تتوجه للرسوّ بها أساطيل الدول الكبرى الخارجية من أجل أن تبدو قوى «المساحة المركزية» في كافة الاتجاهات وتحول بينها وبين تركز كافة قواها لأجل بناء الأسطول الحربي» (المحور الجغرافي للتاريخ)[12].

ومن أطرف الأمور أن ماكيندر لم يكن، بكل بساطة، يبني الفرضيات النظرية، بل وكان يشارك بفعالية في تنظيم دعم «الأنتانتا» الدولي «للحركة البيضاء»(*) التي رأى فيها توجهاً أطلسياً يرمي إلى إضعاف قوة المشاعر المؤيدة للألمان لدى البلشفيك ـ الأوراسيين. فكان بصفته الشخصية يقدم نصائحه لقادة العمل الأبيض محاولاً أن يتحصل على أكبر قدر من الدعم من حكومة انجلترا. فكأنما كان يشهد بعينين متنبئتين لا صلح بريست(**) فقط بل وميثاق روبينتروب ـ مولوتوف أيضاً. . .

وفي سنة 1919 خطّ في كتاب «المثل الديمقراطية والواقع»: **«ما الذي سيحدث لقوى البحر فيما لو قامت القارة العظيمة بالتوحد سياسياً ذات يوم لتصبح أساس الأرمادا(***) التي لا تقهر؟»**[13].

من غير الصعب أن نفهم أن ماكيندر بالذات قد عزّز الجيوبولتيكا الأنجلوساكسونية، التي أصبحت بعد نصف قرن جيوبولتيكا الولايات المتحدة

(*) «الحركة البيضاء» يقصد بها نشاط «البيض» الذين شكلوا التيار الأساسي في الثورة المضادة في روسيا بين 1917 ـ 1922 وقوتها العسكرية والفكرية، وكان قادة هؤلاء من كبار ضباط الجيش القيصري (كورنيلوف، كولتشاك، دنيكين، أليكسييف، ميللر، يوردينتش وڤرانجل) وقدمت لهم «الأنتانتا» عوناً كبيراً. (المترجم).

(**) صلح بريست تم توقيعه بين روسيا السوفياتية وألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر وبلغاريا وتركيا (في 3 ـ 3 ـ 1918 في برست ـ ليتوفسك) تحت ضغط قسوة الأوضاع آنذاك في روسيا وبموجبه ضمت ألمانيا إليها بولندا وأقاليم البلطيق وأقسام من روسيا البيضاء وما وراء القوقاز وحصلت على غرامة بمقدار ستة مليارات مارك، وضمِنَ الصلح لروسيا التفرغ لترسيخ قواعد الدولة السوفياتية الجديدة ثم ألغته بتاريخ 13 ـ 11 ـ 1918. (المترجم).

(***) الأرمادا (من الإسبانية Armada): أسطول أو عمارة بحرية، كما تعني تجمعاً كبيراً لبواخر وطائرات ودبابات تتحرك بتنسيق مشترك. (المترجم).

الأمريكية وحلف شمالي الأطلسي، بالتوجه الأساسي وهو: الحيلولة بأية وسيلة مهما كانت دون إمكانية بناء المعسكر الأوراسي، دون بناء الحلف الاستراتيجي بين روسيا وألمانيا، دون التدعيم الجيوبولتيكي للـheartland وتوسعه. وهكذا لم تتخذ كراهية الغرب الثابتة لروسيا في القرن العشرين طابعاً أيديولوجياً بقدر ما اتخذت الطابع الجيوبولتيكي. وعلى الرغم من الأخذ بعين الحسبان العلاقة التي أكد عليها ماكيندر، بين النمط الحضاري والطابع الجيوبولتيكي لهذه القوى أو تلك فبالإمكان صياغة معادلة تترجم فيها المصطلحات الجيوبولتيكية بسهولة إلى مصطلحات أيديولوجية.

«الهلال الخارجي» - الديموقراطية الليبرالية: «المحور الجغرافي للتاريخ» - التسلطية اللاديموقراطية؛ «الهلال الداخلي» - الأنموذج البيني، المزاوجة بين النظامين الأيديولوجيين.

شارك ماكيندر في الإعداد لمؤتمر ڤرساي(*) والذي تعكس فكرته الجيوبولتيكية جوهر آراء ماكيندر. وقد وضعت تلك الاتفاقية بحيث ترسّخ لأوروبا

(*) صلح ڤرساي: نشير بشيء من التفصيل إلى بنود مؤتمر صلح ڤرساي نظراً لأهميتها بالنسبة لفهم ما يقوله المؤلف. تم توقيع صلح فرساي (وهي بلدة قريبة من باريس) في 28 حزيران 1919 من طرف الدول المنتصرة: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، اليابان، بلجيكا وسواها من جهة وألمانيا المهزومة من جهة أخرى. وبموجبه أعيدت الألزاس واللورين إلى فرنسا (وفق حدود 1870) ولبلجيكا مالميدي ويبين، ولبولندة بوزنان وأقسام من بوموريا وغيرها من مناطق بروسيا الغربية، واعتبرت مدينة دانتزيغ (غدانسك) مدينة حرة، ووضعت مدينة ميبيل (كلايبيدا) تحت تصرف الدول المنتصرة (ثم ضمت سنة 1923 إلى ليتوانيا). أما مسألة انتماء شليزفيغ، الجزء الجنوبي من بروسيا الشرقية، وسيليزيا العليا، فاتفق على حلها عن طريق الاستفتاء (انتقل القسم الشمالي من شليزفيغ سنة 1920 إلى الدانمرك، وفي سنة 1922 ضم قسم من سيليزيا العليا إلى بولندة وبقيت الأقسام الأخرى المتنازع عليها في أيدي ألمانيا). كما أعطي قسم صغير من الأراضي السيليزية إلى تشيكوسلوفاكيا، وأبقي على الأراضي البولندية على الضفة اليمنى من نهر الأودر جنوبي سيلزيا والقسم الأكبر من سيليزيا العليا - في أيدي ألمانيا. وانتقلت السار لمدة 15 عاماً لإدارة عصبة الأمم على أن يقرر مصيرها بعد ذلك عن طريق الاستفتاء. والتزمت ألمانيا بالسهر على استقلال النمسا واعترفت باستقلال تشيكوسلوفاكيا وبولندة. وجرد من السلاح القسم الألماني من الضفة اليسرى لنهر الراين وشريط الضفة اليمنى الذي يزيد عرضه عن الـ 50 كيلو متراً. كما تم تقسيم مستعمرات ألمانيا بين كبار الدول المنتصرة، وحدد جيش ألمانيا البري بـ 100 ألف رجل =

الغربية صفة القاعدة الساحلية للقوى البحرية (العالم الأنجلوساكسوني) وبالإضافة إلى ذلك أُخذ في الحسبان إيجاد دول محصورة من الجانبين تفصل بين الجرمان والسلاف وتحول بكل الطرق دون أن يعقد بينها التحالف الاستراتيجي القاري الذي يحمل كل ذلك الخطر على «الدول الجزيرية» وبالتالي على «الديموقراطية» ومن الأهمية بمكان رصد تطورات تخوم ارتسامات الـheartland في أعمال ماكيندر. فإذا كانت ارتسامات الـheartland في سنتي 1904 و1919 وما يتزامن معهما في مقالة «المحور الجغرافي للتاريخ» وفي كتاب «المثل الديموقراطية والواقع» قد تطابقت لديه في ملامحها العامة مع حدود الإمبراطورية الروسية ثم الاتحاد السوفياتي بعد ذلك فإنه غيّر نظراته سنة 1943 في النص المنشور بعنوان «الكوكب المستدير وغزو العالم»[14]. واقتطع من الـheartland أراضي سيبيريا الشرقية السوفياتية الممتدة وراء اليينيسي. وأطلق على تلك الأرض السوفياتية القليلة السكان اسم «روسيا الـLenaland» على اسم نهر اللينا.

«روسيا الـLenaland تضم: 9 ملايين من السكان يعيش 5 ملايين منهم على طول سكة الحديد التي تخترق القارة من إيركوتسك إلى ڤلاديڤوستوك. أما الأراضي المتبقية فيعيش فوقها ما يقل عن الفرد الواحد لكل 8 كيلومترات مربعة. والثروات الطبيعية لهذه الأرض ـ الأخشاب والمعادن وما إلى ذلك لم تمس بعد من الناحية العملية». (الكوكب المستدير وغزو العالم)[15].

كان عزل ما يسمى الـLenaland عن الحدود الجغرافية للـheartland يعني إمكانية النظر إلى هذه الأرض على أنها منطقة «هلال داخلي» أي كمدىً ساحلي يمكن أن تستخدمه الدول «الجزيرية» ضد «المحور الجغرافي للتاريخ». وماكيندر الذي ساهم مساهمة فعالة في تنظيم تدخل الأنتانتا وفي «الحركة البيضاء» كان، على ما يبدو، يعدّ سابقة كولتشاك(*) التاريخية، سابقة مقاومته للمركز الأوراسي، أساساً كافياً لاعتبار الأراضي الخاضعة له «منطقة ساحلية» محتملة.

= وأدخلت تقييدات أخرى على تسليح ألمانيا كما التزمت بدفع التعويضات. ومن أهم ما تم الاتفاق عليه ـ تشكيل عصبة الأمم. ولم تصدق الولايات المتحدة الأمريكية على مؤتمر فرساي وفي آب من سنة 1921 عقدت مع ألمانيا معاهدة خاصة تكاد تتفق كلياً مع مقررات مؤتمر فرساي، لكنها لا تتضمن بند تشكيل عصبة الأمم. (المترجم).

(*) كولتشاك ـ الكسندر (1873 ـ 1920) أحد أشهر منظمي الثورة المضادة في روسيا =

3 ـ 4 ثلاث مراحل جيوبولتيكية:

يقسم ماكيندر التاريخ الجيوبولتيكي للعالم إلى مراحل ثلاث[16]:

1) **المرحلة السابقة لكولومبوس**: وفيها كانت الشعوب العائدة لأطراف الجزيرة العالمية، كالرومان مثلاً، تعيش تحت التهديد الدائم لغزو قوى «الأرض القلبية». وهؤلاء بالنسبة للرومان، هم الجرمان، الهون، الآلان والفرس. أما بالنسبة للأويكومينا[*] في العصور الوسطى فهم القبيلة الذهبية[**].

2) **مرحلة كولومبوس**: في هذه المرحلة يخرج ممثلو «الهلال الداخلي» (المناطق الساحلية) لاحتلال المناطق المجهولة على الكوكب الأرضي دون أن يواجهوا بمقاومة جادة في أي مكان.

3) **مرحلة ما بعد كولومبوس**: لم تبق هناك أرض لم يجر غزوها. فالنبض الديناميكي للحضارات محكوم بالتصادم مع اجتذاب شعوب الأرض إلى حرب أهلية على الصعيد العالمي.

إن تقسيم ماكيندر لهذه المراحل وما يتبعه من تحولات جيوبولتيكية يقترب بنا أكثر من التوجهات الأكثر حداثة في الجيوبولتيكا والتي سوف نتعرض لها في جزء آخر من هذا الكتاب.

= وتحويلها إلى حرب أهلية. كان قائد أسطول البحر الأسود بين سنتي 1916 ـ 1917، نال رتبة أميرال سنة 1918، وترأس الحكومة الروسية بين 1918 ـ 1920 ثم أعدم بقرار من اللجنة الحزبية في ايركوتسك. (المترجم).

(*) الأويكومينا (من اليونانية Oikuméne) الجزء المسكون من الأرض. تم وصفها لأول مرة من قبل هيغاتي الميليتي الذي أدخل في مفهوم «المسكونة» أوروبا (باستثناء الشمالية)، شمال أفريقيا، آسيا الصغرى والأمامية والهند. (المترجم).

(**) القبيلة الذهبية: دولة منغولية ـ تترية أسسها الخان باطي بداية الأربعينيات من القرن الثالث عشر، ودخلت تحت سيطرتها أراضي سيبيريا الغربية، خوارزم الشمالية، البولغار على نهر الفولغا، القوقاز الشمالي وصحراء القفجاق، وخضعت لها الإمارات الروسية فكانت تدفع لها الجزية. عاصمتها ساراي ـ باتو ثم ساراي ـ بركة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر. تفتتت في القرن الخامس عشر إلى خانيات سيبيريا وقازان والقرم وآستراخان وسواها. (المترجم).

ألفريد ماهان
القوة البحرية

4 ـ 1 Sea Power:

لم يكن الأمريكي ألفريد ماهان (1840 ـ 1914)، خلافاً لراتسيل وتشيلّين وماكيندر، عالماً بل عسكريّ. ولم يستخدم مصطلح «الجيوبولتيكا»، إلا أن منهج تحليله والنتائج الأساسية التي توصل إليها تتطابق مع الرؤية الجيوبولتيكية الصرف.

قام ضابط الـUnion Navy الأمريكي منذ عام 1885 بتدريس تاريخ الأسطول الحربي في «Naval War Collage» في نيوبورت (رود ـ آيلاند). وفي سنة 1890 نشر كتابه الأول «القوى البحرية في التاريخ» (1660 ـ 1783)[17] والذى أمسى فور صدوره تقريباً نصاً كلاسيكياً في الاستراتيجية العسكرية. وتوالت بعد ذلك، مع بعض فترات الانقطاع، أعماله الأخرى: «تأثير القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية (1793 ـ 1812)»[18]، «اهتمام أمريكا بالقوة البحرية في الحاضر والمستقبل»[19]، «مشكلة آسيا وتأثيرها على السياسة الدولية»[20] و«القوة البحرية وعلاقتها بالحرب»[21].

وقد كرست جميع كتبه تقريباً لموضوع واحد ـ موضوع «**القوة البحرية**» «Sea Power». فصار اسم ماهان مرادفاً لهذا المصطلح.

ولم يكن ماهان منظراً للاستراتيجية العسكرية فحسب، بل وشارك بفعالية في السياسة. وقد ترك تأثيراً كبيراً بصفة خاصة على السياسيين من أمثال هنري كابوت لودج وتيودور روزفلت. وفضلاً عن ذلك فإننا إذا ما ألقينا بنظرنا إلى ماضي

الاستراتيجية العسكرية الأمريكية على مدار القرن العشرين بطوله رأيناها تقوم على تَطابق مباشر مع أفكار ماهان. يضاف إلى ذلك أن هذه الاستراتيجية إذا لم تحمل للولايات المتحدة الأمريكية النجاح الملموس في الحرب العالمية الأولى فإن تأثيرها كان ظاهراً في الحرب العالمية الثانية، أما الانتصار في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي فقد عزز نجاح استراتيجية **القوة البحرية**.

4 ـ 2 الحضارة البحرية = حضارة تجارية:

يرى ماهان أن التجارة هي الأداة الأولى للسياسة. وعلى الأعمال العسكرية أن تقتصر على تأمين الشروط الأفضل لإقامة الحضارة التجارية الكونية. وهو يرى الدورة الاقتصادية في نقاط ثلاث:

1) الإنتاج (تبادل السلع والخدمات عبر الطرق المائية).

2) الملاحة (التي تحقق هذا التبادل).

3) المستعمرات (التي تحقق تداول السلع على المستوى العالمي)[22].

ويرى ماهان أن تحليل موقف الدولة ووضعها الجيوبولتيكي يجب أن يتم على أساس بنود ستة:

1 ـ الموقع الجغرافي للدولة، انفتاحها على البحار، إمكانية إجراء الاتصالات البحرية مع الدول الأخرى، مدى امتداد الحدود البرية، القدرة على بسط السيطرة على المناطق الهامة استراتيجياً، قدرة الدولة على تهديد أراضي العدو بأسطولها.

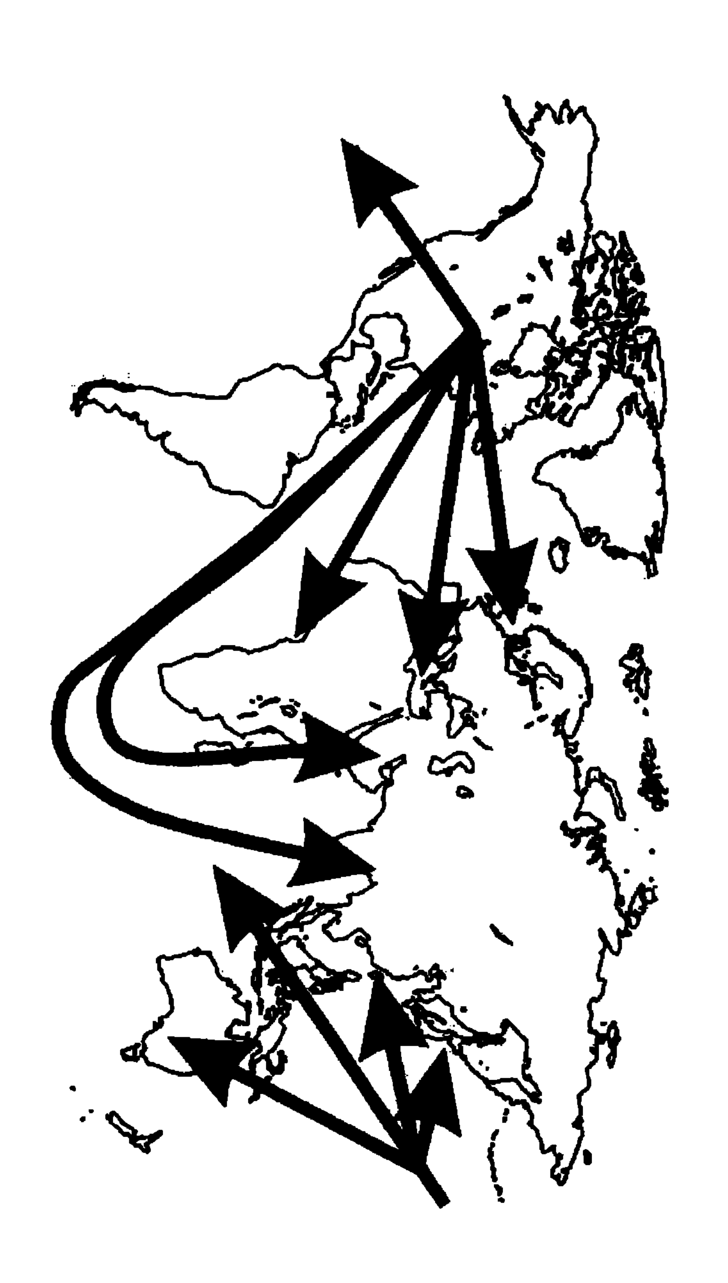
2 ـ الهيئة الفيزيائية للدولة أي هيئة الشطآن البحرية وإعداد الموانىء المتوضعة عليها فبهذا يرتبط ازدهار التجارة الاستراتيجية الدفاعية.

3 ـ امتداد مساحة الأراضي. وهي تعادل امتداد الخط الساحلي.

4 ـ العدد الإحصائي للسكان. ويكتسب هذا أهمية بالنسبة لتقييم قدرة الدولة على بناء السفن وخدمتها.

5 ـ الطابع القومي. مقدرة الشعب على العمل بالتجارة، إذ إن القوة البحرية تعتمد التجارة السلمية والواسعة.





6 ـ الطابع السياسي للإدارة: وبه ترتبط إعادة توجيه أفضل المصادر الطبيعية والبشرية نحو إنشاء القوة البحرية القادرة»[23].

يتبين من هذا الجرد أن ماهان يقيم نظريته الجيوبولتيكية منطلقاً بصفة استثنائية، من القوة البحرية ومصالحها. وكانت قرطاج القديمة أنموذج القوة البحرية بالنسبة لماهان، أما من الناحية التاريخية الأقرب إلينا ـ فهي انجلترا القرنين السابع عشر فالتاسع عشر.

ومفهوم «القدرة البحرية» يعتمد في نظر ماهان على حرية «التجارة البحرية»، أما الأسطول البحري ـ الحربي فلا دور له سوى ضمان تحقيق هذه التجارة. ويمضي ماهان خطوة أبعد من ذلك إذ يعدّ **«القوة البحرية»** نوعاً خاصاً من الحضارة (فيتجاوز بذلك آراء كارل شميدت)، الحضارة الأسمى والأكثر فعالية فهي إذن المهيّأة للسيادة العالمية.

4 ـ 3 إخضاع الولايات المتحدة الأمريكية للعالم manifest destiny:

لقيت أفكار ماهان قبولاً في جميع أنحاء العالم وتركت أثرها على عدد كبير من الاستراتيجيين الأوروبيين. حتى إن ألمانيا القارية، البرية الطرق، تبنّت في شخص الأميرال تيربيتس ـ أطروحات ماهان وأخذت تطور أسطولها بفعالية. وفي سنتي 1940 و1941 صدر لماهان كتابان في الاتحاد السوفياتي.

إلا أن الكتابين كانا مخصصين بالدرجة الأولى لأمريكا والأمريكيين. وكان ماهان من أشد أنصار مقولة الرئيس مونرو (1758 ـ 1831) الذي أعلن عام 1823 مبدأ اللاتدخل المتبادل بين أمريكا وأوروبا، كما ربط تنامي قوة الولايات المتحدة بتوسعها الترابي فوق الأراضي الممتدة بجوارها. وكان ماهان يرى أن لأمريكا **«مصيراً بحرياً»** وأن هذا هو Manifest destiny (المصير المعلن)[24] ويتجسد في مرحلته الأولى في التكامل الاستراتيجي لمجموع القارة الأمريكية ثم في تحقيق السيطرة العالمية.

وعلينا أن نؤدي واجب الاحترام لما يكاد يسمى بالرؤية التنبؤية لماهان. ففي أيامه لم تكن الولايات المتحدة قد خرجت بعد إلى مجموعة الدول العالمية المتقدمة، وفوق ذلك لم يكن قد ظهر بعد «نمطها الحضاري البحري». فمنذ سنة



1905 كان ماكيندر في مقالته «المحور الجغرافي للتاريخ» قد أدرج الولايات المتحدة في عداد «الدول البرية»، الداخلة في سياق «الهلال الخارجي» كمجرد استمرار استراتيجي نصف استعماري لأنجلترا البحرية. وكتب يقول:

«منذ هنيهة صارت الولايات المتحدة الأمريكية دولة شرقية. وهي تؤثر على ميزان القوى في أوروبا لا بطريقة مباشرة بل عبر روسيا»[25].

لكن قبل 10 سنوات من ظهور نصّ ماكيندر هذا كان الأميرال ماهان قد تنبأ لأمريكا بالذات بمصير كوني، أن تصبح دولة بحرية قيادية تترك أثرها على مصائر العالم.

وقد أكد ماهان في كتابه: «اهتمام أمريكا بالقوة البحرية» أن على أمريكا، لكي تصبح دولة عالمية، أن تنجز الأمور التالية:

1) التعاون بفعالية مع الدولة البحرية البريطانية العظمى.

2) إقامة العراقيل في وجه الطموحات البحرية الألمانية.

3) المراقبة اليقظة للتوسع الياباني في المحيط الهادي ومقاومته.

4) تنسيق العمليات المشتركة مع الأوروبيين ضد شعوب آسيا[26].

ورأى ماهان مصير الولايات المتحدة لا في أن تشارك بطريقة سلبية في السياق العام لدول الأطراف في «الهلال الخارجي» بل في أن تلعب الدور القيادي في العلاقات الاقتصادية، الاستراتيجية وحتى الأيديولوجية.

وبصورة مستقلة عن ماكيندر توصل ماهان إلى نفس النتائج المتعلقة بالخطر الأكبر على الحضارة البحرية. ويتمثل هذا الخطر في دول الأوراسيا القارية ـ في الدرجة الأولى، روسيا والصين؛ وفي الثانية ألمانيا. وكان الصراع مع روسيا، مع هذه الكتلة القارية المتواصلة **للإمبراطورية الروسية** الممتدة من غربي **آسيا الصغرى** وحتى خط الطول الياباني في **الشرق**، يمثّل بالنسبة للقوة البحرية المهمّة الاستراتيجية المستديمة.

وقد نقل ماهان إلى المستوى العالمي مبدأ «الأناكوندا»، الذي استخدمه الجنرال الأمريكي مك ـ كليلان في الحرب الأهلية في الشمال الأمريكي خلال سنوات 1861 ـ 1865. ويتجسد هذا المبدأ في حصار الأراضي المعادية من البحر وعبر الخطوط الساحلية، وهو ما يؤدي تدريجياً إلى الاستنزاف الاستراتيجي

للعدو. وبما أن ماهان كان يرى أن جبروت الدولة يتحدد بقدراتها على إقامة القوة البحرية ففي الحالة المعاكسة تصبح المهمة الاستراتيجية الأولى هي الحيلولة دون بناء تلك القوة في معسكر العدو. وعليه فإن مهمة المواجهة التاريخية لأمريكا هي تعزيز مواقعها في البنود الستة (التي سلف تعدادها) وإضعاف العدو في تلك البنود المذكورة. فينبغي أن تكون آمادها الساحلية تحت السيطرة. أما المناطق المطابقة لذلك عند العدو فينبغي العمل بكل الوسائل على قطعها عن الكتلة القارية. ثمَّ: بما أن مبدأ مونرو في جزئه الخاص بالتكامل الترابي، يعزز قدرات الدولة فلا ينبغي، على العكس من ذلك، معاملة العدو أو المنافس ـ وهو، في حالة ماهان، الدول الأوراسية الكبرى (روسيا، الصين وألمانيا) ـ بالعمل على أن تخنق الكتلة القارية في أصفاد الأناكوندا وأن تسحق عن طريق سحب المناطق الساحلية من تحت سيطرتها وإغلاق منافذها على المجال البحري بقدر المستطاع.

في الحرب العالمية الأولى جرى تطبيق هذه الستراتيجية من خلال دعم الأنتانتا للحركة البيضاء في أطراف الأوراسيا (رداً على عقد البلشفيك الصلح مع ألمانيا)، أما في الحرب العالمية الثانية فقد طبقت أيضاً ضد أوروبا الوسطى، وبخاصة عبر العمليات الحربية ـ البحرية ضد دول المحور واليابان. إلا أنها ظهرت بقدر أكبر من الوضوح خلال مرحلة الحرب الباردة عندما اتخذت المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تلك الأحجام العالمية على مستوى الكرة الأرضية والتي أخذ علماء الجيوبولتيكا يعتمدونها على المستوى القطري بدءاً من نهاية القرن التاسع عشر.

من الناحية العملية كانت الخطوط الأساسية لاستراتيجية الناتو وغيره من الأحلاف الموجهة نحو وقف الاتحاد السوفياتي (مبدأ «الوقف» مطابق لمبدأ الأناكوندا الاستراتيجي والجيوبولتيكي) ـ ومن ذلك الـ ASEAN والـ ANZUS والـ CENTO(*) ـ وتمثل التطوير المباشر للمنطلقات الأساسية للأميرال ماهان، والذي يمكننا أن نسميه، على هذا الأساس، الأب العقلي لمجموع الأطلسية المعاصرة.

(*) ASEAN ـ مجموعة دول جنوب شرقي آسيا.

ANZUS ـ اتفاقية دفاع مشترك بين أوستراليا، نيوزيلاندا والولايات المتحدة الأميركية.

CENTO ـ حلف دول وسط آسيا. (المترجم).

فيدال دي لابلانش
فرنسا ضد ألمانيا

5 ـ 1 لوحة جغرافية فرنسا

يعدُّ فيدال دي لابلانش (1845 ـ 1918) مؤسس المدرسة الجغرافية الفرنسية. كان ذلك الجغرافي المتخصص منجذباً إلى «جغرافية» راتسيل «السياسية» وكان يبني نظرياته معتمداً على ذلك المصدر، على الرغم من أن الكثير من آفاق المدرسة الجيوبولتيكية الألمانية كانت عرضة لنقده الشديد.

ففي كتابه «لوحة جغرافية فرنسا» (1903) يتوجه نحو نظرية التربة ذات الأهمية المميّزة بالنسبة لعلماء الجيوبولتيكا الألمان بقوله:

«العلاقة بين التربة والإنسان موسومة في فرنسا بالطابع المميّز للقِدَم والتواصل (. . .) فكثيراً ما يستوقف انتباهنا أن الناس في بلادنا يعيشون في الأماكن نفسها منذ أقدم العصور. فالينابيع والصخور الكلسية اجتذبت البشر منذ البداية كأماكن ملائمة للعيش والاحتماء. الإنسان عندنا تلميذ التربة الوفي. ودراسة التربة تساعد على توضيح طباع السكان وأمزجتهم وأولوياتهم»[27].

ولكن بغض النظر عن مثل هذه النظرة ـ الألمانية تماماً ـ إلى العامل الجغرافي وتأثيره على الثقافة، فقد كان فيدال دي لابلانش يرى أن راتسيل وأتباعه يبالغون بشكل واضح في تقييم العامل الطبيعي إذ يعدونه عاملاً محدِّداً.

ذلك أن الإنسان في رأي لابلانش يعد بدوره «**عاملاً جغرافياً مهمّاً**» إلا أنه

فوق ذلك «مميَّز بالمبادرة» فهو ليس جزءاً من الديكور فقط، بل وهو الممثل الأهم في المسرحية.

5 ـ 2 البوسيبيلزم:

هذا الانتقاد للتهويل المتعاظم للعامل المكاني عند راتسيل دفع فيدال دي لابلانش إلى طرح نظرية جيوبولتيكية خاصة هي «البوسيبيلزم» (من كلمة «possible» ـ وتعني «الممكن»). وللتاريخ السياسي، انطلاقاً من هذه النظرية، أفقان ـ **مكاني** (جغرافي) **وزماني** (تاريخي). وينعكس العامل الجغرافي في الوسط المحيط والتاريخي في **الإنسان** نفسه (صاحب المبادرة)[28]، وقد رأى ڤيدال دي لابلانش أن خطأ «الجغرافيين السياسيين» الألمان يعود إلى كونهم يعدّون السطح الأرضي عاملاً حاسماً في التاريخ السياسي للدول. وبهذا يُنتقص برأي دي لابلانش من عاملين: الحرية الإنسانية، وعامل التاريخية. أما هو فيقترح النظر إلى الوضع المكاني الجغرافي على أنه «احتمال» أو «إمكانية» يمكن أن تفعّل لتغدو عاملاً سياسياً حقيقياً، ويمكن أن لا تفعَّل، وهذا ما يرتبط إلى حدود بعيدة بالعامل الذاتي ـ بالإنسان، ساكن ذلك المكان.

وقد أخذت هذه النظرية في الحسبان من طرف علماء مدرسة هاوسهوفر الجيوبولتيكية الألمان الذين عدوا انتقاد دي لابلانش راجحاً ومهماً. وقد تنامى في هذه الحالة دور العامل الأتني أو العرقي أثناء النظر إلى التاريخ السياسي للدول، وتناغم ذلك مع طرطشات الإشكالية العرقية في ألمانيا في فترة العشرينيات.

واستقبلت «بوسيبيليزم» دي لابلانش من طرف غالبية المدارس الجيوبولتيكية على أنها تصحيح **للحتمية الجغرافية** الصارمة لدى من سبق من المؤلفين الجيوبولتيكيين.

5 ـ 3 فرنسا من أجل «قوة بحرية»:

كرس فيدال دي لابلانش اهتماماً خاصاً لألمانيا التي كانت الخصم السياسي الأول لفرنسا في ذلك الوقت. وكان يرى أن ألمانيا هي الدولة الأوروبية الوحيدة القوية التي يتعرض توسعها الجيوبولتيكي بشكل مقصود لحصار الدول الأوروبية

المتطورة الأخرى. فإذا كان لإنجلترا وفرنسا مستعمراتهما الواسعة في أفريقيا وفي العالم كله، وإذا كان بمقدور الولايات المتحدة أن تتحرك بحرية تقريباً نحو الجنوب والشمال، وإذا كان لدى روسيا آسيا، فإن ألمانيا مخنوقة من كافة الجهات ولا تملك متنفساً لطاقاتها. وقد رأى دي لابلانش في ذلك أكبر تهديد للسلم في أوروبا ورأى أن من الضروري العمل بكل الوسائل من أجل إضعاف تطور هذا الجار الخطير.

هذه النظرة إلى ألمانيا جرّت وراءها، وبطريقة منطقية التحديد الجيوبولتيكي لفرنسا على أنها تدخل في عداد الجبهة المشتركة «**للقوة البحرية**» الموجهة ضد الدول القارية. ولم يكن موقف دي لابلانش فريداً بين مواقف علماء الجيوبولتيكا الفرنسيين، فبصورة موازية لذلك ظهر في فرنسا اتجاه معاكس موال للألمان يمثله الأميرال لاڤال والجنرال ديغول.

وفي سنة 1917 ينشر فيدال دي لابلانش كتاب «فرنسا الشرقية» ويبرهن فيه على العودة الأصيلة لمقاطعتي الألزاس واللورين إلى فرنسا ولا شرعية الدعاوى الألمانية فيهما. وهو في الوقت نفسه، يستدعي الثورة الفرنسية ويرى في تقديراتها اليعقوبية تعبيراً عن التوجهات الجيوبولتيكية لدى الشعب الفرنسي الطامح إلى وحدة ومركزيّة دولته عبر تكامل جغرافي. أما الليبرالية السياسية فيفسرها أيضاً بتعلق البشر بالتربة ورغبتهم الطبيعية بجعلها ملكية خاصة، وعلى هذا فإن فيدال دي لابلانش يقرن، بطريقته الخاصة، مظاهر الوقائع الجيوبولتيكية بالوقائع الأيديولوجية: فالسياسة المكانية لأوروبا الغربية (فرنسا) مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بـ «الديموقراطية» و«الليبرالية»، وعبر هذه المعادلة يسهل التقريب بين النظرات الجيوبولتيكية لدي لابلانش مع ماكيندر وماهان.

أما اختيار دي لابلانش «للتوجه البحري» فيستجيب بصورة رائعة لهذا المخطط.

نيكولاس سبيكمان
مراجعة ماكيندر مركزية الـ rimland

6 ـ 1 في خدمة أمريكا:

يعدّ الأمريكي نيكولاس سبيكمان (1893 ـ 1943) الهولندي المولد، المتابع المباشر لخط الأميرال ماهان. كان سبيكمان أستاذاً للعلاقات الدولية وأصبح فيما بعد مديراً لمعهد العلاقات الدولية في جامعة ييل. وخلافاً لعلماء الجيوبولتيكا الأوائل لم تكن الجغرافيا تعني بالنسبة له أمراً عظيم الأهمية، وعلى مستوى أقل من ذلك كانت تشغله قضايا ارتباط الشعب بالتربة وتأثير السطح الأرضي على الطابع القومي وما إلى ذلك. كان ينظر إلى الجيوبولتيكا على أنها الأداة الأكثر أهمية في السياسة الدولية المحدَّدة كمنهج تحليلي ونظام للمعادلات يسمحان معاً باستنباط الاستراتيجية الأشد تأثيراً. وفي هذا المعنى وجه أعنف نقده للمدرسة الجيوبولتيكية الألمانية (وبخاصة في كتابه «جغرافية العالم»[29] والذي عد فيه التصورات المتعلقة بـ «الحدود العادلة والحدود الظالمة هراء ميتافيزيكياً».

وعلى نحو ما كان الأمر بالنسبة لماهان كان من سمات سبيكمان المدخل النفعي والرغبة المحدَّدة في تقديم المعادلة الجيوبولتيكية الأشد تأثيراً والتي تتمكن الولايات المتحدة بعونها من التوصل، وبأسرع الطرق، إلى تحقيق «السيطرة العالمية». وبهذه البراغماتية تتحدد بنية دراساته جميعاً.

6 ـ 2 تصويب ماكيندر:

بعد أن درس سبيكمان بكل اهتمام أعمال ماكيندر تقدم بصياغته لمخطط جيوبولتيكي أساسي يختلف قليلاً عن أنموذج ماكيندر. وكانت فكرة سبيكمان الأساسية تقوم على أساس أن ماكيندر قد بالغ في تقييم الأهمية الجيوبولتيكية للـ heartland. وهذه المبالغة لم تتناول فقط التوضع الحيوي للقوى على خارطة العالم ـ ومن ذلك جبروت الاتحاد السوفياتي بصفة خاصة ـ بل وتناولت المخطط التاريخي الأولي. فكان سبيكمان يرى أن التاريخ الجغرافي «للهلال الداخلي» الـ rimland، «المناطق الشاطئية» قد تكوَّن من تلقاء نفسه وليس بتأثير من «رحَّل اليابسة» حسبما رأى ماكيندر. فالـheartland من وجهة نظر سبيكمان ليس إلا مدى مكانياً محتملاً يتلقى جميع النبضات الحضارية من المناطق الشاطئية ولا يحمل في طياته أي رسالة جيوبولتيكية مستقلة أو حافز تاريخي. والـrimland وليس الـheartland هو، في رأيه، مفتاح السيطرة العالمية.

أما معادلة ماكيندر الجيوبولتيكية القائلة بأن **من يسيطر على أوروبا الشرقية يسيطر على الـheartland**، ومن يسيطر على الـ heartland يسيطر على الجزيرة العالمية، ومن يسيطر على الجزيرة العالمية يسد على العالم» ـ فيقترح سبيكمان استبدالها بمعادلته القائلة: «**من يسيطر على الـ**rimland يسيطر على الأوراسية ومن يسيطر على الأوراسيا يقبض على مصير العالم بيديه»[30].

من الناحية المبدئية لم يأت سبيكمان من خلال هذا بجديد. وبالنسبة لماكيندر نفسه كانت «المنطقة الشاطئية»، «الهلال الخارجي» أو الـrimland النقطة الاستراتيجية الأساسية في السيطرة على القارة. لكنه فهم هذه النقطة لا كتشكل جيوبولتيكي مستقل ومكثف بذاته بل كميدان للمواجهة بين نبضين «البحري» و«البري». وإلى جانب ذلك لم يفهم الـ heartland على الإطلاق على أنه مفهوم السيطرة على روسيا والتكتلات القارية اللائذة بها. وأوروبا الشرقية مجال بيْني ـ بين «المحور الجغرافي للتاريخ» والـ rimland وعليه ففي تناسب القوى على أطراف الـ heartland يكمن مفتاح مشكلة السيطرة العالمية. لكن سبيكمان تخيل عملية خلط الأوراق في مقولته الجيوبولتيكية المتعلقة بنظرية ماكيندر على أنها شيء جديد كل الجدة. أما في واقع الأمر فما دار الحديث إلا حول قليل من الاختلاف في اللوينات الدلالية للمفاهيم.

6 ـ 3 سلم تقدير القوة:

في كتابيه «الاستراتيجية الأمريكية في السياسة العالمية»[31]، و«جغرافية العالم»[32] يقدم سبيكمان 10 معايير ينبغي تقدير القوة الجيوبولتيكية على أساسها. إنها تطوير للمعايير التي كان ماهان قد طرحها لأول مرة وهي:

1 ـ سطح الأرض.

2 ـ طبيعة الحدود.

3 ـ عدد السكان.

4 ـ توفر أو انعدام الثروات الطبيعية.

5 ـ التطور الاقتصادي والتقني.

6 ـ القوة المالية.

7 ـ التجانس الإتني.

8 ـ مستوى التكامل الاجتماعي.

9 ـ الاستقرار السياسي.

10 ـ الروح الوطنية.

فإذا تبين أن إجمالي تقييم الإمكانات الجيوبولتيكية للدولة وفقاً لهذه المعايير ليس مرتفعاً حتى الدرجة الكافية كان ذلك يعني بطريقة شبه آلية أنه يتعين على هذه الدولة الدخول في حلف استراتيجي أكثر عمومية مضحية بجزء من استقلالها بغية الحصول على الحماية الجيوبولتيكية الاستراتيجية العالمية.

6 ـ 4 المحيط المتوسط:

بالإضافة إلى إعادة تقييم معنى الـrimland أدخل سبيكمان إضافة جديدة هامة إلى اللوحة الجيوبولتيكية للعالم والتي تمت رؤيتها من منظور «القوة البحرية». فقد طرح مفهوماً في غاية الأهمية هو «**المحيط المتوسط**» «Midland Ocean». وفي أساس هذا التصور الجيوبولتيكي يكمن تشابه مميّز بين البحر الأبيض المتوسط في تاريخ أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية في العصور القديمة، وبين المحيط

الأطلسي بالنسبة للحضارة الغربية في التاريخ المعاصر. وبما أن سبيكمان كان يرى في «منطقة الحافة»، الـ rimland بالذات أساساً للأرض التاريخية للحضارة فقد تبدت له منطقة البحر الأبيض المتوسط القديمة أنموذج الثقافة التي انتشرت فيما بعد في أعماق اليابسة (تحضير متوحشي البر) وعلى المساحات البعيدة المنبتّة التي ما كان الوصول إليها ممكناً إلا بواسطة الطريق البحرية (تحضير متوحشي **البحر**) وتشبيهاً لهذا الأنموذج المتوسطي يحدث الأمر نفسه في أيامنا الحاضرة وعلى مساحة كونية مضخمة بالنسبة للمحيط الأطلسي والذي تبدو ضفتاه ـ الأمريكية والأوروبية منطقة للحضارة الغربية الأكثر تطوراً في المفهومين التقني والاقتصادي.

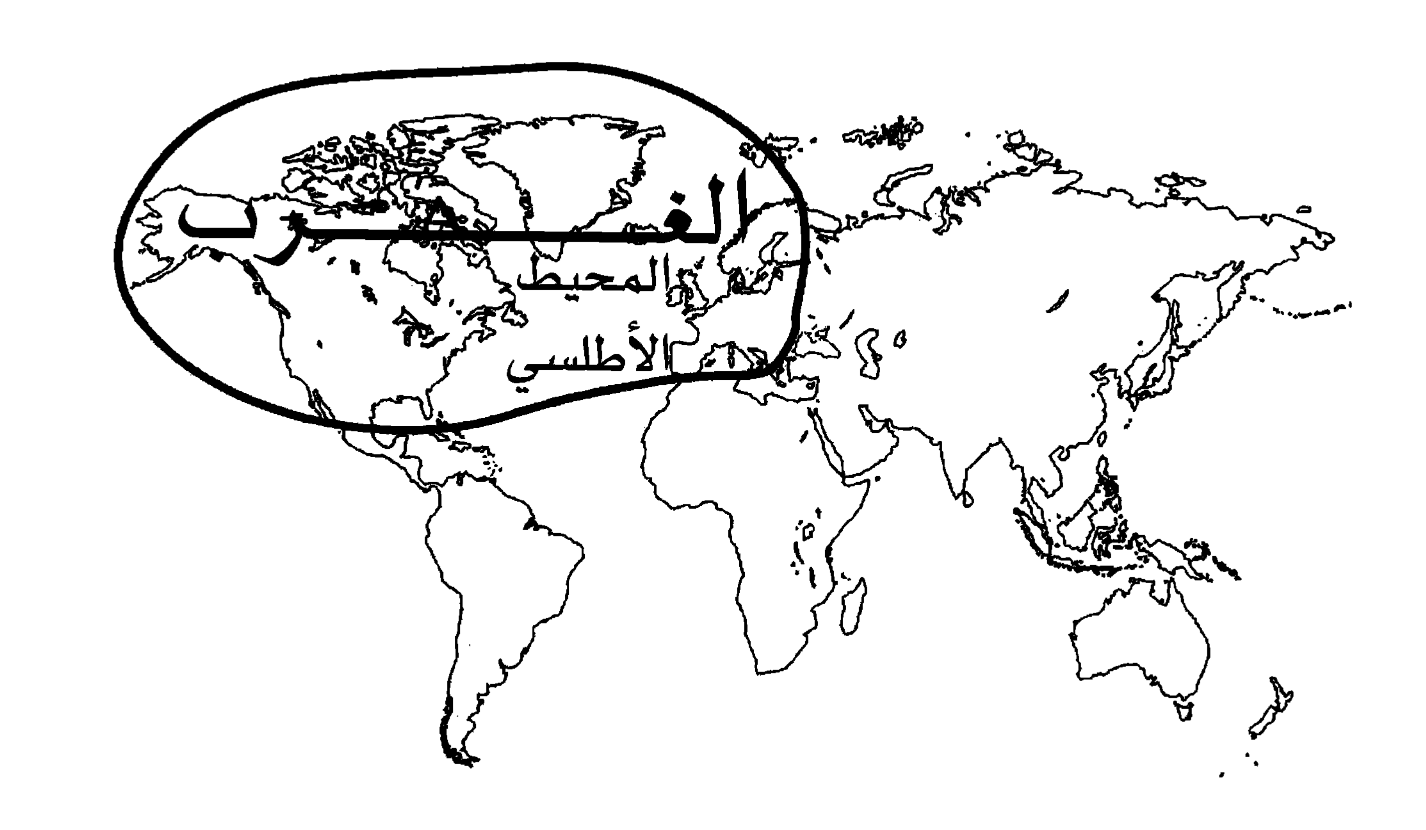
ولا يغدو «المحيط المتوسط» (Midland Ocean) في هذا المنظور عاملاً فاصلاً بل موحداً، «**بحراً داخلياً**» (mare internum). وعلى هذا تتحدد على يدي سبيكمان بقعة جيوبولتيكية يمكن تسميتها اشتراطياً «بالقارة الأطلسية»، ينبسط المحيط الأطلسي في وسطها شبيهاً ببحيرة وسط منطقة برية وهذه «القارة» النظرية ، «**الأطلنطيد** الجديدة» مرتبطة بوحدة ثقافة ذات مصدر أوروبي غربي، وبأيديولوجية الليبرالية ـ الرأسمالية والديموقراطية، وبوحدة المصير السياسي الإتني والتقني.

وقد أفرد سبيكمان وقفة خاصة لدور العامل العقلي في هذه «**القارة الأطلسية**». إن أوروبا الغربية وحزام الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية (وبخاصة نيويورك) يغدوان العقل المدبر لهذه «**الأسرة الأطلسية**» الجديدة. ومركزها العصبي وآلية قوتها هي الولايات المتحدة ومجمّعها التجاري والحربي ـ الصناعي. وتغدو أوروبا الملحق التفكيري للولايات المتحدة التي تصبح مصالحها الجيوبولتيكية وخطها الاستراتيجي الوحيدة والرئيسة بالنسبة لدول الغرب. وبصورة تدريجية ينبغي أن تتقلص الاستقلالية السياسية للدول الغربية وأن تنتقل لديها السلطة نحو نبرة خاصة توحد بين ممثلي كافة المجالات «الأطلسية» وتخضع للرئاسة الأفضل للولايات المتحدة.

لقد كان سبيكمان سباقاً إلى بناء العمليات السياسية العظمى ـ إقامة «**حلف شمالي الأطلسي** » (**الناتو**)، تحجيم استقلالية الدول الأوروبية في عالم ما بعد الحرب والسيطرة العالمية للولايات المتحدة وهلمّ جرّاً.

6 ـ 5 مهندس النصر الأمريكي:

لم يجعل سبيكمان أساس مقولته الشهيرة التفسير الجيوبولتيكي لمكانة


الغـــــرب
المحيط
الأطلسي

الولايات المتحدة كقوة بحرية في العالم كله (كما فعل ماهان) ربما لأن ذلك كان قد صار حقيقةً واقعة في عهده ـ بقدر ما كان ذلك الأساس ضرورة السيطرة على المناطق الشاطئية للأوراسيا، أوروبا، البلدان العربية، الهند والصين وغير ذلك ـ بنيّة تحقيق النصر النهائي في المبارزة بين القوى القارية والبحرية. فإذا كانت النظرة إلى الثنائية الكونية في لوحة ماكيندر تقوم على أساس أنها شيء «أبدي» «لا يمكن إلغاؤه» فقد كان سبيكمان يرى أن السيطرة الكاملة على الـ rimland من طرف «الدول البحرية» سيؤدي إلى النصر النهائي الذي لا رجعة فيه على القوى البرية، التي ستكون منذ اليوم وبكاملها تحت السيطرة.

من الناحية الواقعية كان ذلك التطوير الأقصى لـ «تاكتيك الأناكوندا» التي كان ماهان قد أرسى أسسها. وقد أكسب سبيكمان ذلك النظام صيغته النهائية.

استعرض انتصار الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب الباردة **«كقوة بحرية»** الصواب الجيوبولتيكي المطلق لسبيكمان الذي يمكن تسميته بـ «مهندس النصر العالمي لدول الليبرالية ـ الديموقراطية» على الأوراسيا.

يمكننا أن نقول اليوم بأن أطروحات سبيكمان المتعلقة بالأولوية الاستراتيجية للـ rimland وبأهمية **«المحيط المتوسط»** قد أثبتها التاريخ نفسه. أما نظرية ماكيندر المتعلقة بالتطلع الأبدي لمركز الأوراسيا إلى الانبعاث السياسي والتوسع القاري فلا يزال مبكراً الآن الإلقاء بها في مجموعها بعيداً.

ومن ناحية أخرى فإن بعض آراء سبيكمان (وبخاصة آراء تلميذه كيرك الذي طور نظرية الـ rimland بطريقة أكثر تفصيلاً قد جرى اعتناقها من طرف علماء الجيوبولتيكا الأوروبيين الذين رأوا في تقييمه الاستراتيجي العالي «للمناطق الساحلية» إمكانية الخروج بأوروبا إلى مصاف تلك الدول التي تجدد مصائر العالم. لكن كان لا بد في سبيل ذلك من التخلي عن فكرة «المحيط المتوسط».

وعلى الرغم من هذا المسار النظري لبعض علماء الجيوبولتيكا الأوروبيين (والذي يبقى مزدوج المعنى إلى حد بعيد) فإن سبيكمان ينتمي، بدون شك، إلى عداد «الأطلسيين» الأوفر ألقاً ومنطقية. وفضلاً عن ذلك فيمكن تسميته مع الأميرال ماهان «أب الأطلسية» و«الملهم الفكري للناتو».

كارل هاوسهوفر

«الحلف القاري»

7 ـ 1 الحرب والكر:

الجيوبولتيكا مدينة إلى حدود بعيدة لكارل هاوسهوفر (1869 ـ 1946) بالذات. بكونها بقيت ردحاً طويلاً من الزمن تعامل لا «كعلم زائف» بل وكنظرية «كارهة للإنسان»، «فاشية» و«آكلة للحوم البشر».

ولد كارل هاوسهوفر في ميونيخ في أسرة أستاذ جامعي. وقرر أن يصبح عسكرياً متخصصاً فخدم ضابطاً في الجيش نيّفاً وعشرين عاماً. وبين سنتي 1908ـ 1910، عمل في اليابان ومنغوريا بصفته الملحق العسكري الألماني. وهناك تعرف بأسرة الإمبراطور الياباني والفئة الارستقراطية العليا.

وقد اضطره ضعف صحته بعد ذلك إلى التخلي عن منصبه العسكري الذي كان ناجحاً إلى حد ما فعاد سنة 1911 إلى ألمانيا حيث عاش حتى نهاية حياته. واشتغل بالعلم فحصل في جامعة ميونيخ على درجة «دكتور» وأخذ منذ ذلك الحين ينشر تباعاً كتبه المكرسة للجيوبولتيكا بصفة عامة وبخاصة جيوبولتيكا إقليم المحيط الهادىء. وكان أول كتبه «داي نيخون»[33] المكرس لجيوبولتيكا اليابان.

وعن طريق تلميذه رودولف هيس تعرّف هاوسهوفر على هتلر فور الزج به في السجن إثر تمرده الذي لم ينجح. وثمة رأي لم يثبت صحته المؤرخون يقول

بأن هاوسهوفر قد ساهم في كتابه «**ماين كامبف**»(*) وذلك في المواضع المكرسة لبعض المفاهيم الجيوبولتيكية. لكن التحليل الذهني المتدبر يظهر فرقاً ملموساً بين نظرات هاوسهوفر الجيوبولتيكية وشطحات هتلر الدعائية العرقية المبسّطة.

على مدى عشرين عاماً ومنذ عام 1924 ظل هاوسهوفر مواظباً على نشر مجلته الجيوبولتيكية البالغة الأهمية والتي حققت شهرة عالمية كبرى وهي «Giopolitik» والتي استبدل اسمها فيما بعد بـ «Zeitschrift fur Geopolitik».

ونشر هاوسهوفر معظم نصوصه في هذه المجلة بالذات. وكانت علاقاته بالنازيين معقدة. فقد اقتربت أفكاره من أفكار القوميين الاشتراكيين في بعض الأمور وخالفتهم بطريقة جذرية، في أمور أخرى. كما كانت مواقفه من الرايخ الثالث تتبدل وفقاً لمراحل الحكم النازي ولعلاقات المؤلف الشخصية.

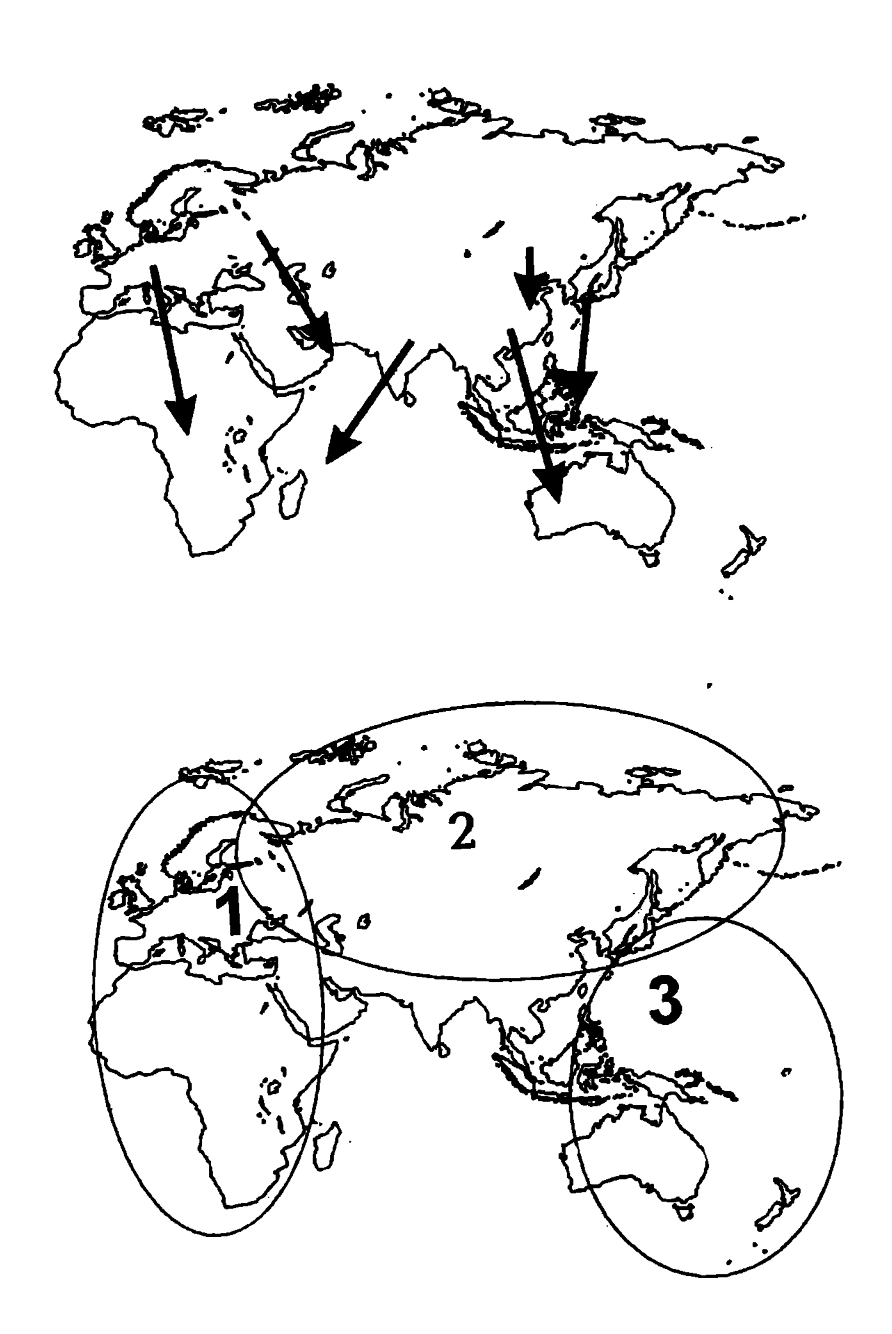
وقد أكرموه حتى سنة 1936 (وانعكست في ذلك بصفة خاصة حماية صديقه الأصغر هيس). ثم سرى البرود بعد ذلك. وعلى أثر طيران هيس إلى انجلترا فقد هاوسهوفر حظوته، وبعد إعدام ولده البيرت بتهمة الاشتراك في محاولة اغتيال هتلر سنة 1944 كاد هاوسهوفر نفسه أن يُعلن «عدواً للشعب».

وعلى الرغم من هذه الازدواجية في موقفه فقد كان الحلفاء يسلكونه في عداد «النازيين البارزين». وإذ عجز عن تحمل ضربات القدر المتكررة ودمار كل آماله قام هو وزوجته مارتا بالانتحار سنة 1946.

7 ـ 2 النظام الأوراسي الجديد:

درس هاوسهوفر باهتمام أعمال راتسيل، تشيلّين، ماكيندر، فيدال دي لابلانش، ماهان وغيرهم من رجال الجيوبولتيكا. أما لوحة الثنائية الأرضية ـ «القوى البحرية» في مواجهة «القوى البرية» أو التلاسوكراتيا («السلطة عن طريق البحر») في مواجهة **التيلوروكراتيا** («السلطة عن طريق البر») ـ فكانت بالنسبة له المفتاح الذي كشف له مغاليق السياسة الدولية التي كان ضالعاً فيها حتى أخمص

(*) «ماين كامبف (بالألمانية) كفاحي»؛ Zeitschrift fur Geopolitik (بالألمانية) ـ مجلة الجيوبولتيكا. (المترجم).



2
1
3

قدميه (ففي اليابان مثلاً ارتبطت علاقته بتلك القوى التي تتخذ القرارات الأكثر مسؤولية بالنسبة للوحة المكان). ومن الأمور ذات الدلالة أن مصطلح «**النظام الجديد**» الذي كان النازيون يستخدمونه بفعالية، وأخذ الأمريكيون يستخدمونه الآن في صيغة «**النظام العالمي الجديد**»، قد استخدم لأول مرة في اليابان في تطبيقه على تلك اللوحة الجيوبولتيكية لإعادة تقسيم النفوذ في منطقة المحيط الهادي، والتي كان رجال الجيوبولتيكا اليابانيون يقترحون تطبيقها.

لقد وضعت الثنائية الكونية «**للقوة البحرية**» و «**القوة البرية**» ألمانيا أمام مشكلة تحقيق الذات من الناحية الجيوبولتيكية، وتطلع أنصار الفكرة القومية، وكان هاوسهوفر ينتمي إلى صفوفهم دون شك، إلى تعزيز القوة السياسية للدولة الألمانية وهو ما كان يعني التطور الصناعي والنهوض الثقافي والتوسع الجيوبولتيكي. إلا أن توضع ألمانيا في وسط أوروبا والـ Mittellage[*] المكاني والثقافي جعلها العدو الطبيعي للدول الغربية البحرية ـ انجلترا وفرنسا ثم الولايات المتحدة فيما بعد. ثم إن رجالات الجيوبولتيكا «التالاسوكراتيين» لم يخفوا علاقتهم السلبية بألمانيا وقد عدّوها (مع روسيا) واحدة من الأعداء الجيوبولتيكيين للغرب البحري.

لم يكن من السهل على ألمانيا في مثل هذا الوضع أن تعوّل على إقامة تحالف قوي مع دول «الهلال الخارجي» وبخاصة أنه كان لانجلترا وفرنسا نحو ألمانيا مطاليب تاريخية ذات طابع يتعلق بالأرض. وعليه فقد كان مستقبل ألمانيا القومية العظمى يخوض مواجهة جيوبولتيكية مع الغرب وبخاصة مع العالم الانجلوساكسوني الذي كان يتماهى مع الـ Sea Power.

على هذا التحليل تعتمد عقيدة كارل هاوسهوفر الجيوبولتيكية ومريديه في مجموعها. وتتلخص هذه العقيدة بضرورة إقامة «حلف قاري» أو محور «برلين ـ موسكو ـ طوكيو» ولم يكن في ذلك الحلف أي شيء طارىء ـ لقد كان الرد الكافي والمرْضي على استراتيجية المعسكر المضاد الذي ما كان ينكر أن أكبر خطر يتهدده هو إقامة مثل هذا الحلف الاوراسي. وقد كتب هاوسهوفر في مقالة: «الحلف القاري»:

(*) Mittellage (بالألمانية ـ العصر الوسيط)، المترجم.

يستحيل خنق الأوراسيا ـ ما دام شعباها الكبيران ـ الألمان والروس ـ يحاولان بكل وسيلة تجنب الصراع الداخلي الذي وجد له شبيهاً في حرب القرم أو سنة 1914: إنها بَدَهية السياسة الأوراسية»[34].

وقد استشهد في تلك المقالة بالأمريكي هوميرلي الذي قال ـ **«ستدق الساعة الأخيرة للسياسة الانجلوساكسونية عندما يتحد الألمان والروس واليابانيون»**.

وقد ردّد هاوسهوفر بصور مختلفة هذه الفكرة في مقالاته وكتبه. واتخذ هذا الخط اسم Ostorientierung أي «التوجه نحو الشرق» إذ إنه تناول تحقيق الذات الألمانية وشعبها وحضارتها على أنها امتداد غربي للتقاليد الأوراسية الآسيوية. وليس من الأمور العابرة أن يطلق الإنجليز على الألمان في مرحلة الحرب العالمية الثانية تسمية «الهون» الاحتقارية. وبالنسبة لجيوبولتيكيّي مدرسة هاوسهوفر كان ذلك مقبولاً إلى حد بعيد.

وعلينا أن نشير في هذا السياق إلى أن فكرة **«الانفتاح على الشرق»** لم تكن على الإطلاق تعني «احتلال الأراضي السلافية». كان الحديث يتناول جهوداً حضارية مشتركة تقوم بها دولتان قاريتان ـ روسيا وألمانيا ـ عليهما أن تقيما «نظاماً أوراسياً جديداً» وأن تعيدا بناء المدى القاري للجزيرة العالمية بحيث تخرجانه كلياً من تحت نفوذ «القوة البحرية». وقد تم التخطيط لتوسيع الـ Lebensraum الألماني من قبل هاوسهوفر لا على حساب استعمار الأراضي الروسية بل على حساب استثمار الأراضي الآسيوية المترامية الأطراف وغير المأهولة بالسكان وإعادة تنظيم أراضي أوروبا الشرقية.

7 ـ 3 حل وسط مع التالاسوكراتيا

لكن الأمور بدت على غير هذا التماثل في المعنى عند التطبيق. فمنطق هاوسهوفر الجيوبولتيكي المحض والذي أفضى بصورة منطقية إلى ضرورة إقامة «الحلف القاري» مع موسكو اصطدم بتوجهات عديدة ذات طبيعة مغايرة تعدّ من خصائص الوعي القومي الألماني. ويدور الحديث حول النظرة العرقية إلى التاريخ والتي كان هتلر قد انعدى بها. هذه النظرة كانت ترى أن العامل الأهم هو التقارب العرقي وليس الخصيصة الجغرافية أو الجيوبولتيكية. وعلى هذا صار ينظر إلى

الشعوب الانجلوساكسونية ـ انجلترا والولايات المتحدة على أنهم الحلفاء الطبيعيون للألمان لأنها أقرب إليهم إتنيًا. وحُوّل السلافيون، وبخاصة الشعوب الأوراسية غير البيضاء إلى أعداء عنصريين. وأضيف إلى ذلك العداء الإيديولوجي للشيوعية والذي حمل أيضاً وإلى بعيد على نفس ذلك المبدأ العنصري ـ كان ماركس وعدد كبير من الشيوعيين يهوداً، وعلى هذا كانت الشيوعية في حد ذاتها أيديولوجية معادية للألمان في عيون أعداء السامية.

دخلت العرقية القومية الاشتراكية في مواجهة مباشرة مع الجيوبولتيكا، أو، بكلمة أدق، دفعت الألمان بطريقة غير واضحة نحو استراتيجية تالاسوكراتية عكسية معادية للأوراسية. ومن وجهة نظر المنهجية العرقية كان على ألمانيا أن تعقد منذ البداية حلفاً مع انجلترا والولايات المتحدة لتقف معاً بقواتها المشتركة في مواجهة الاتحاد السوفياتي. ومن جهة أخرى كانت تجربة ڤرساي المهينة لا تزال طرية جداً. من هذا الواقع تنطلق كل ازدواجية المعنى في سياسة الرايخ الثالث الدولية. وهذه السياسة كانت تتأرجح دوماً بين التالاسوكراتي، الذي تبرّره من الناحية المظهرية، العرقيةُ ومعاداة الشيوعية (المشاعر المعادية للسلافية، الهجوم على الاتحاد السوفياتي، تشجيع كرواتيا الكاثوليكية في البلقان وما إلى ذلك) وبين التيلوروكراتية الأوراسية، القائمة على مبادىء جيوبولتيكية صرفة (الحرب ضد انجلترا وفرنسا، حلف روبينتروب ـ مولوتوف وما إلى ذلك).

وما دام كارل هاوسهوفر قد اجتذب، بدرجة ما إلى حل المشاكل السياسية المحدّدة فقد كان مضطراً لتكييف نظريته وفق صيغة سياسية محدَّدة. ومن هنا تأتي صلاته داخل الأوساط العليا في انجلترا. وفضلاً عن ذلك فإن عقد الحلف المعادي للكومنترن(*) ـ أي إقامة محور برلين ـ روما ـ طوكيو قد تلقى، من الناحية المظهرية، تحية من هاوسهوفر، إذ حاول تصويره على أنه الخطوة التمهيدية لإقامة **«الحلف الأوراسي»** الكامل الشخصية، وما كان بمقدوره أن يفهم أن التوجه المعادي للشيوعية لذلك الحلف وظهور بديل عن مركز الـ heartland (موسكو) في

(*) الكومنترن: الأممية الثالثة. منظمة برولتيارية كانت بين 1919 ـ 1943 تجمع بين الأحزاب الشيوعية في مختلف دول العالم (المترجم).

صورة دولة نصف جزيرية ثانوية الأهمية ـ عائدة إلى الـ Rimland إنما هو صورة هزلية متناقضة عن الحلف القاري الحق.

ومع ذلك فإن مثل هذه الخطوات التي أملاها الالتزام السياسي ليست الشيء المميّز لجيوبولتيكا هاوسهوفر في عمومها. فاسمه وأفكاره تجسدت في أكمل صورها في تصوراته المتعلقة بـ **المصير الشرقي** لألمانيا والمعتمد على الحلف الأوراسي القوي والطويل الأمد.

كارل شميدت
بهيموت versus(*) لوياثان

8 ـ 1 الثائر المحافظ

اشتهر الألماني كارل شميدت (1888 ـ 1985) بكونه محامياً مشهوراً وعالماً في السياسة وفيلسوفاً ومؤرخاً. لكن أفكاره ترتبط أوثق الارتباط بالتصورات الجيوبولتيكية. وأهم أعماله «نوموس الأرض»[35] و «الأرض والبحر»[36] وما إليهما. وقد كرست في مجموعها لتفسير العوامل الجيوبولتيكية وتأثيراتها على الحضارة والتاريخ السياسي.

كان كارل شميدت قريباً من الممثلين الألمان للثورة المحافظة ـ من التيار المتناقض الذي جمع بين العناصر القومية ـ المحافظة والاجتماعية ـ الثورية ومصير شميدت ـ هو مصير كتبه ومدرسته الحقوقية ـ الفلسفية. وعلى نحو ما كان الأمر لدى عدد كبير من الثوريين المحافظين الآخرين فقد كانت علاقته بالنظام الوطني الاشتراكي مزدوجة. فمن جهة تركت نظرياته أثرها المؤكد على الإيديولوجية النازية. وحقق نجاحاً متميّزاً كتاباه المتعلقان بعلم السياسة وهما «التيولوجيا السياسية»[37] و «مفهوم السياسي»[38]. وقد قدم شميدت فيهما نقداً مستفيضاً للحق الليبيرالي ولأفكار «الدولة الحقوقية». وتضمن الكتابان ارتسامات كل النتاج الفكري التالي لشميدت ـ إذ تلاحظ فيهما الواقعية السياسية في أوسع مداها ـ والتطلع إلى

(*) Versus (باللاتينية) في مواجهة، مقابل. (المترجم).

تحرير القضايا السياسية من الخطابية الإنسانية والروح العاطفية المندفعة والديماغوجية الاجتماعية. وكان ذلك ما يتجاوب مع الروح القومية ـ الاشتراكية.

وفي الوقت نفسه كانت منظومة شميدت الفكرية تعتمد بكليتها على الفكرة المؤسسة وهي «حقوق الشعب (Velhsrechte) والتي عارضها بالنظرية الليبيرالية «حقوق الإنسان». وهو يرى أن لكل شعب الحق في الاستقلال السياسي وفي الحفاظ على الهوية الروحية، التاريخية والسياسية. وكانت هذه النظرة مميّزة لعدد من القوميين ـ الاشتراكيين الذين عدّوا هذه الإيديولوجيا شاملة وملائمة لكافة شعوب الأرض. إلا أن الخط المسيطر على النظام صار البانجرمانية دون غيرها والقائمة على الشوفينية والنظرة القومية الضيقة. ولهذا السبب تعرض شميدت ونظريته المتعلقة بـ «حقوق الشعب» لنقد شديد وبخاصة من طرف منظري الـ SS[*] (وفي سنة 1936 نشرت ضده مقالة في الـ Schwarze Korps لسان حال الـ SS تهدده بطريقة عدوانية).

سار التكوين الفكري لشميدت في نفس الأجواء الفكرية «للسوسيولوجيا العضوية» التي كانت لدى راتسيل وتشيلّين، إلا أنه وقع أيضاً تحت تأثير النظريات الرومانسية «نور الشمال» (Nordlicht)، والتي بموجبها تتجذر الصيغ الاجتماعية ـ السياسية والتشكلات الحكومية لا في التشغيل الآلي للشخصيات الفردية الصغرى المجمعة في خلائط حسابية، ولكن في الأساطير، في عالم العفويات والأرواح المقدسة[39]. وفي نظريات شميدت يظهر في كل مكان التجاور المتناقض بين «الرومانسية السياسية» و«العقلانية الصارمة». فالجهاز العقلي المشحوذ يوجّه للتعبير عن الوحدات الأسطورية الروحية.

في محاكم نورمبرج حاولوا إضافة اسم شميدت إلى قائمة «مجرمي الحرب» على أساس تعاونه مع نظام هتلر. ونُسب إليه التأسيس النظري لمشروعية العدوان

(*) الـSS اختصار لكلمة Shutzstaffeln ـ فرق الحراسة. كانت أحد الأركان الأساسية في النظام النازي بألمانيا بدأت سنة 1925 بفرق لحماية الفوهرر، ثم تحولت إلى منظمة خاصة سنة 1924 بقيادة هملر، تقوم بأعمال المخابرات وبالحراسة داخل البلاد وفوق الأراضي المحتلة وفي المعتقلات. أدانتها محكمة نورمبرج (1945 ـ 1946) على أنها منظمة إرهابية. (المترجم).

العسكري. وبعد التعرف المفصل على القضية من طرف القضاة رفضت التهمة. ومع كل ذلك أعلن شميدت، شأنه شأن هايدغير ويونغر وغيرهم من الثوريين المحافظين «شخصية غير مرغوب فيها» في الأسرة العلمية الدولية وتم تجاهل مؤلفاته بصورة كلية.

وفقط في السبعينيات وبفضل التأثير الخارق للعادة على الفكر القانوني من طرف بعض المفكرين الاشتراكيين اليساريين بدىء برد الاعتبار تدريجياً إلى أعماله.

وتم الاعتراف به اليوم واحداً من علماء البوليتولوجيا والقانون الكلاسيكيين.

8 ـ 2 نوموس الأرض

قام شميدت، وبروح من الرؤية الجيوبولتيكية، بإقرار العلاقة الأولية بين الثقافة السياسية والمدى المكاني. فليس الدولة فقط بل ومجموع الواقع الاجتماعي، والحقوق بصفة خاصة، تنساب من التنظيم النوعي للمدى المكاني.

من هنا استنبط شميدت تصور «**النوموس**». وهذا المصطلح اليوناني «النوموس» يعني «أمراً مأخوذاً، مكوَّناً، مهيّأً، منظّماً» بمعنى المدى المكاني. وهذا المصطلح قريب من مفهوم «**التضاريس**» لدى راتسيل و«بؤرة التطور» لدى الأوراسيين الروس (سافيتسكي). ويبين شميدت أن «النوموس» هو تلك الصيغة لتنظيم الوجود والتي تقيم العلاقات المتبادلة الأكثر هارمونية ضمن المجموعة الاجتماعية مثلما تقيمها بين هذه المجموعات. و«النوموس» ـ تعبير عن اجتماع نسيجي خاص لعوامل ذاتية وموضوعية تتجلى بصفة عضوية في إقامة النظم السياسية والحقوقية. وفي «النوموس» تتجلى الخصائص الطبيعية والثقافية للمجموعة الإنسانية في تفاعلها مع الوسط المحيط.

ويعرض شميدت في كتابه «نوموس الأرض» الصورة التي أثرت بها خصوصية هذا المدى المكاني أو ذاك على الحضارات والدول التي نشأت فيه. ويقارن بين «نوموسات» تاريخية مختلفة، مؤكداً بصفة خاصة على الثنائية الراسخة بين علاقة البدو الرحل بالمدى المكاني وعلاقة الشعوب المستقرة به.

إلا أن أهم نتيجة يصل إليها تحليل «نوموس الأرض» يتلخص في كون شميدت قد اقترب إلى حدود بعيدة من مفهوم المواجهة العالمية التاريخية

والحضارية بين حضارات **البر** وحضارات **البحر**. فمن خلال دراسته لـ«نوموس» **الأرض** اصطدم بتناقضه النوعي والمحاثي مع «نوموس» **البحر**. وهذا ما انتهى به إلى صياغة منهجية جيوبولتيكية خاصة لتفسير التاريخ السياسي للعالم.

8 ـ 3 الأرض والبحر

في سنة 1942 أصدر شميدت عمله الأهم ـ «**الأرض والبحر**»[40]. وبالإضافة إلى النص الأحدث تاريخاً بعنوان «التوتر الكوني بين **الشرق** والغرب والمواجهة بين البر والبحر»[41] يعد هذا العمل الوثيقة الأهم في العلم الجيوبولتيكي.

مصطلح المواجهة بين البر والبحر ينتهي بشميدت إلى القول بأن الحديث يدور حول حضارتين مختلفتين كل الاختلاف، لا يمكن التقريب بينهما، متعاديتين، لا عن صورتين لمجتمع حضاري واحد. وهذا التقسيم يكاد يتفق بصوزة كلية مع اللوحة التي رسمها ماكيندر، إلا أن شميدت يقدّم لعناصرها الأساسية ـ التالاسوكراتيا (**القوة البحرية**) والتيلوروكراتيا (**القوة البرية**) تفسيراً فلسفياً متعمقاً، يرتبط بالنظم الحقوقية والأخلاقية الأساسية. ومما يثير الفضول أن شميدت يستخدم لـ«**قوى الأرض**» اسم «**بَهيموت**» ولقوى البحر «**لوياثان**» تذكيراً بالهَوْلتين اللتين ورد ذكرهما في العهد القديم وإحداهما تجسد جميع المخلوقات البرية، والأخرى جميع المخلوقات المائية البحرية.

«نوموس» **الأرض** موجود، لا بديل له، على مدار الشطر الأعظم من التاريخ الإنساني، وجميع تجليات هذا «النوموس» تتصف بتوفر الصيغة التشريعية (والأخلاقية) الصارمة، الراسخة، والتي تنعكس فيها ثبوتية **اليابسة** الأرض ورسوخها. وهذا الارتباط **بالأرض** والتي يستجيب مداها بسهولة للتنظيم (دقة الحدود، ثبوتية طرق المواصلات، رسوخ الخصائص الجغرافية والتضاريسية). تولد الروح المحافظة الراسخة في الآفاق الاجتماعية والثقافية. ومجموع تجليات «نوموس» **الأرض** يكوّن ما اتفق على تسميته بتاريخ «المجتمع التقليدي».

في مثل هذه الحالة لا يبدو **البحر**، **الماء** إلا مظهرين حضاريين لا مركزيين لا يدخلان في مجال «الأخلاقي» (أو يدخلان بشكل مظهري). وفقط باكتشاف **المحيط الكوني** في نهاية القرن السادس عشر تبدل الوضع بشكل جذري. وبدأت

الإنسانية (وجزيرة انجلترا بالدرجة الأولى) بالتآلف مع «الوجود البحري» وأخذت تعي نفسها **جزيرة** في خضم **المياه**، **سفينة**.

إلا أن المدى المائي يختلف بشدة عن البري، فهو ليس مستقراً، عدواني، غريب، خاضع للتبدل الدائم. لا تتحدد فيه الطرق الثابتة ولا تتضح اختلافات التوجهات. و«نوموس» البحر يجر وراءه التحول الكوني للوعي. والمعايير الاجتماعية والحقوقية والأخلاقية تغدو «**جارية**». وتولد حضارة جديدة. ويرى شميدت أن العصر والوثبة التقنية، التي فتحت عهد التصنيع مدينان بوجودهما للحدث الجيوبولتيكي الخارق ـ انتقال الإنسان إلى «نوموس» البحر.

وهكذا فإن المواجهة الجيوبولتيكية للعالم الانجلوساكسوني «للهلال الخارجي» تتخذ لدى شميدت تعريفاً اجتماعياً، سياسياً. فـ«نوموس» البحر هو واقع معاد للمجتمع التقليدي. والمواجهة الجيوبولتيكية للدول البرية مع البحرية تكتسب معنى تاريخياً، ايديولوجياً وفلسفياً.

8 ـ 4 Grossraum

توصل شميدت أيضاً إلى صياغة النظرية الجيوبولتيكية الأعظم ـ **نظرية «المجال الكبير»** (Grossraum). وينظر هذا التصور إلى عملية تطور الدولة على أنها الطموح إلى احتياز الحجم المكاني الأوسع مدى. ومبدأ التكامل الإمبراطوري هو التعبير المنطقي والطبيعي عن الطموح الإنساني إلى التركيب. وعلى هذا فإن مراحل التوسع المكاني للدولة تتطابق مع مراحل تحرّك الروح الإنسانية نحو الشمولية.

هذا القانون الجيوبولتيكي ينسحب أيضاً على المجالات التقنية والاقتصادية. ويبيّن شميدت أنه بدءاً من لحظة معينة يأخذ التطور التقني والاقتصادي للدولة بمطالبتها بتضخيم سياستها كمّاً ونوعاً. والحديث هنا لا يدور بالضرورة حول الاستعمار والضم والاختراق العسكري. فإقرار الـGrossraum يمكن أن يجري وفق قوانين أخرى أيضاً، على أساس اتخاذ عدة دول أو شعوب صيغة دينية أو ثقافية موحدة.

ويرى شميدت أن تطور «نوموس» **الأرض** يجب أن يؤدي إلى ظهور **الدولة** ـ

القارة. ومراحل التحرك نحو **الدولة** ـ القارة تمر من المدن ـ الدول عبر الدول ـ الأقاليم. وظهور **الدولة** البرية ـ القارة ذات الـGrossraum البري ـ ضرورة تاريخية وجيوبولتيكية.

في النص العائد إلى عام 1940 بعنوان «المدى والمدى الكبير في حقوق الشعوب»(42) حدد شميدت «المجال الكبير» بقوله «**ميدان التخطيط والتنظيم والنشاط الإنساني، والمتجذر في التوجه الفعال والكبير للتطور المقبل**»(43). وفي ميدان تحديده لهذه الصيغة التي تبدو مائعة إلى حد ما يشير شميدت إلى مثال التحقيق الإرادي «للمجال الكبير» وهو تطبيق مبدأ مونرو الأمريكي في الحياة.

وعلى الرغم من إمكانية أن يتطابق الـGrossraum في حدود ما مع الدولة، أو مع الإمبراطورية (das Reich) بكلمة أدق، فإن هذا التصور يخرج عن حدود الدولة الاعتيادية. إنها الصيغة الجديدة للاتحاد ما فوق القومي القائم على أساس العامل الاستراتيجي، الجيوبولتيكي والإيديولوجي.

بخلاف الأنموذج البانجرماني الهتلري الموحد والعالمية السوفياتية فإن grossraum شميدت يقوم على أساس التعددية الثقافية والاتنية، على الاستقلالية الذاتية الواسعة التي لا تحدّ منها إلا المركزية الاستراتيجية والولاء الشامل للمرجعية العليا. وبالإضافة إلى ذلك كان شميدت يؤكد على أن إقامة «**المجال الكبير**» الجديد لا تتعلق بالقيمة العلمية للمقولة نفسها ولا بالكفاءة الثقافية ولا بالتطور الاقتصادي للجزيئات المكونة ولا حتى بالمركز المكاني أو الاتني الذي يولّد الحافز إلى التكامل. إن كل شيء يرتبط بالإرادة السياسية وحدها، والتي تعي الضرورة التاريخية لمثل هذه الخطوة الجيوبولتيكية.

وفي هذه المقولة كان شميدت متقدماً على الخط الرئيسي للسياسة التكاملية المعاصرة.

8 ـ 5 الحرب الشمولية وشخصية «الفدائي»

من الناحية العملية تتباين الدوافع الجيوبولتيكية لدى شميدت في كافة الموضوعات التي يدرسها. وقد عالج بصفة خاصة العلاقة بين تصورات ثلاثة ـ «**العدو الشامل، الحرب الشاملة، والدولة الشمولية**». و«الدولة الشمولية» من وجهة نظره هي الصيغة الأكمل للدولة ذات النمط التقليدي، أي إنها ذروة تطور

الـ«نوموس» البري. وبغض النظر عن إمكانات التطور التاريخي لمثل هذه الدولة حتى آفاق الـgrossraum، فالنوعية المحائية تبقى فيها دون تبديل. و«الدولة الشمولية» تنفي مبدأ «العدو الشمولي» و«الحرب الشاملة»، وذلك لأنها تبني تصوّرها عن الخصم، «العدو» (وقد أولى شميدت أهمية كبرى لصياغة مفاهيم) «**الصديق**»/ «**العدو**» hostis/amicus على أساس صورتها هي، ولهذا يطرح نظام «حرب الصيغ» التي يطبَّق فيها Jus bellum[*] ولا تشارك فيها إلا أرتال محدّدة من المحاربين المحترفين. أما السكان المدنيون والملكية الخاصة فتكون بدورها تحت حماية القانون، معزولة (من الناحية النظرية على الأقل) عن مجريات العمليات الحربية.

والمقولة الليبيرالية التي ربطها شميدت بمعنى واحد مع العصر **الحديث** وبالتالي مع «الحضارة البحرية»، مع «نوموس البحر» في سياق سيأتي رفضه «للدولة الشمولية» ولنظام «العدو الشامل» وفي سنة 1941 كتب في مقالته «سيادة الدولة والبحر المفتوح»:

> «كانت الحرب على اليابسة تخضع للأعراف الحقوقية، لأنها كانت حرباً بين دول أي بين قوى مسلحة لدول متعادية، وتجسدت عقلانيتها في محدوديتها وفي التطلع إلى إخراج السكان المدنيين ومواد الملكية الخاصة خارج حدودها. أما الحرب في البحر، فعلى العكس من ذلك، لا تبدو حرباً بين أعداء محدّدين بدقة وخاضعين لأعراف حقوقية ـ لأنها تقوم على نظام العدو الشامل»[44].

واللوحة الجيوبولتيكية العامة التي وصفها شميدت أدت إلى ثنائية حضارية متوترة، إلى مواجهة بين grossraum ين: الانجلوساكسوني (انجلترا+ أمريكا) والقاري ـ الأوروبي. وهذان «المَديان الأكبران» ـ التالاسوكراتي والتيلوروكراتي ـ يخوضان فيما بينهما حرباً عالمية لتحقيق الخطوة الأخيرة نحو الكونية وللانتقال من الملكية القارية إلى العالمية. وإلى ذلك فقد كان شميدت ينظر بعين التشاؤم إلى إمكانية الوصول بهذا النزاع إلى قاعدة حقوقية صارمة ما، وذلك لأن النظامين الحضاريين في الصورة العظمى «للمدَيين الأكبرين» يقومان على أساس الرفض

(*) hostis/amicus (باللاتينية) الصديق العدو، Jusbellum (باللاتينية) القانون الحربي. (المترجم).

المتبادل «للنوموسين» ـ «نوموس **الأرض**» و «**نوموس البحر**». والعنصر المدمر الأخير يأتي عن طريق الملاحة الجوية ـ لأن «المدى الجوي» يستجيب للنظم الأخلاقية ـ الحقوقية بدقة تقل كثيراً عما هي عليه في المدى البحري.

وقد ركز شميدت اهتمامه في نهاية حياته على شخصية **الفدائي**. فهو برأيه الممثل الأخير لـ «نوموس» **الأرض** الذي يبقى وفياً لمثله الأول على الرغم من «ترقق الحضارة»، وذوبان أسسها الحقوقية ـ الثقافية. الفدائي مرتبط بأرضه الأم لا بوشائج شكلية، والطابع التاريخي لهذه الرابطة يملي عليه أخلاقيات تكتيك الحرب التي تختلف عن المعايير الأكثر عمومية وتجريداً. وبمقدار عمومية «الأنموذج البحري» «والأخلاقية التجارية» واللذين ينطويان ـ بطريقة طبيعية أيضاً، على ميادين عمليات حربية، تكتسب شخصية «الفدائي»، حسب رأي شميدت، معنى يتزايد حضارياً، فالفدائي يبقى الشخص الفاعل الأخير في التاريخ، والذي يحمي (بكل الوسائل) «النظام البري» من هجوم التالاسوكراتيا الشمولي. ومن هنا تنطلق مهمته التاريخية التي تقترب من مهمة «السيد المخلِّص».

بيوتر نيكولايفتش... سافيتسكي
«الأوراسيا ـ الأرض المتوسطة»

9 ـ 1 مصير الأوراسي

ربما كان بيوتر نيكولايڤتش ساڤيتسكي (1895 ـ 1968) الكاتب الروسي الأول (والوحيد) الذي يمكن وصفه بالعالم الجيوبولتيكي بكل ما في الكلمة من معنى. وهو اقتصادي، من حيث الاختصاص، تلميذ ڤ. فرنادسكي وب. ستروڤي. وكان قبل الحرب قريباً من الكاديت(*). هاجر بعد الثورة إلى بلغاريا ثم انتقل إلى تشيكوسلوڤاكيا وفي سنة 1921 ترأس، برفقة الأمير ن. س. تروبيتسكوي الحركة الأوراسية التي كانت العوامل الجيوبولتيكية تلعب فيها دوراً مركزياً. وكان ساڤيتسكي الأكثر اهتماماً بقضايا الجيوبولتيكا بين جميع الأوراسيين.

تكونت أفكار ساڤيتسكي، مثل غالبية الأوراسيين الآخرين، بتأثير من أعمال مؤيّدي السلاڤيانوفيل(**) دنيليفسكي وليونتيف. وكان ذلك واحداً من مظاهر

(*) الكاديت: الحزب الدستوري الديموقراطي، حزب البورجوازية الليبيرالية في روسيا بين 1905 ـ 1917. تضمن برنامجه: إقرار الملكية الدستورية البرلمانية، الحفاظ على الملكية الإقطاعية للأرض والحل التشريعي «للمسألة» العمالية. وقف إلى جانب القيصرية في الحرب العالمية الأولى، ومنع من النشاط بعد ثورة أكتوبر. نظم أعضاؤه تحركات عنيفة خلال الحرب الأهلية وشاركوا في «الحكومات البيضاء». (المترجم).

(**) السلاڤيانوفيل (حرفيا محبّو السلاڤ) وهم مناصرو الحركة السلاڤية، ممثلو أحد اتجاهات الفكر الاجتماعي في روسيا القرن التاسع عشر وبدايات العشرين. كانوا يدعون =

السلافيانوفيلية الثورية مقترنة بالفكرة المركزية حول خصوصية التميّز التاريخي «لأبناء روسيا الكبرى»(*) والتي لا ترتبط بالخصوصية الدينية ولا بالخصوصية الأخلاقية السلافية، في هذا الميدان كانوا أقرب إلى كونستانتين ليونتيف الذي كان قد صاغ المقولة الأهم وهي: **«السلافية موجودة ولا وجود للسلافيانوية»** وهو ما يعني «أن التقارب الاتني واللغوي بين الشعوب السلافية ليس شرطاً كافياً للحديث عن وحدة ثقافية مميّزة لهذه الشعوب. والحركة الأوراسية، انطلاقاً من تشكيلة الموضوعات والقضايا المحببة، كانت قريبة حتى درجة عجيبة من الثوريين المحافظين الألمان. فالأوراسيون، شأن الثوريين المحافظين، كانوا يطمحون إلى الجمع بين الوفاء للينابيع ذات الاندفاع الإبداعي في المستقبل وبين التجذر في التقاليد القومية الروسية مع العصرنة الاجتماعية، والتطور التقني وسياسة الصيغ غير التقليدية. وعلى هذا أيضاً يستند موقف الأوراسيين «الإيجابي» الحذر من الدولة السوفياتية ومن ثورة أكتوبر.

وبغض النظر عن مشاعر الارتياح نحو السوفيات والتي لم تكن فقط من خصائص الجناح المؤيد بصفة علنية للسوفيات بين الأوراسيين (حلقة باريس التي كانت تصدر صحيفة «. . . أوراسيا») الذين قطع سافيتسكي علاقته معهم ـ بل وأيضاً من خصائص عناصرهم الأكثر اعتدالاً و «محافظةً». وبعد أن احتلت الجيوش السوفياتية براغ سنة 1945 ألقي القبض على سافيتسكي وحكم عليه بعشر سنوات اعتقال في المعسكر. وهناك تعرف على ليف ـ ابن الشاعر نيكولاي غوميليوف، فأصبح ليف تلميذه ثم صار واحداً من أفضل علماء الاتنوغرافيا والمؤرخين الروس المعاصرين.

وفي سنة 1956 أعيد الاعتبار إلى سافيتسكي فعاد إلى براغ حيث توفي بعد 12 سنة.

= إلى انتهاج خط خاص لتطوير روسيا يختلف مبدئياً عن خط «الغربيين»، ويضفون هالات القداسة على روسيا القديمة، على مجتمع الفلاحين، ويميلون إلى تطوير الأفكار الدينية المثالية، ولعبوا دوراً مهماً في تطوير الدراسات السلافية. (المترجم).

(*) روسيا الكبرى: آثرنا استخدام مصطلح «روسيا الكبرى» في الترجمة تمييزاً لها عن «روسيا الصغرى» التي سيرد ذكرها في تضاعيف هذا الكتاب، ولأن دولاً عديدة سترد فيه أيضاً مرتبطة بمثل هذه الصفة كرومانيا وبلغاريا وسواهما؛ (المترجم).

9 ـ 2 روسيا ـ الأوراسيا

الفكرة الأساسية لساڤيتسكي تتلخص في كون روسيا تمثل تكويناً حضارياً مميّزاً تحدّده خاصية «التوسط». وتبدأ إحدى مقالاته وهي «الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا» (1933) بهذه الكلمات: **«لروسيا عدد من الأسباب يفوق بكثير ما لدى الصين من الأسباب التي تسمح بتسميتها «دولة متوسطة»**[45].

وإذا كان «توسط» ألمانيا، الـ Mittellage يتحدد بالقارة الأوروبية، وكانت أوروبا لا تزيد عن كونها **«الرأس الغربي»** للأوراسيا، فإن روسيا تحتل الموقع المركزي في إطار القارة ككل. و «توسط» روسيا بالنسبة لساڤيتسكي هو أساس تفردها التاريخي. فهي ليست جزءاً من أوروبا وليست امتداداً لآسيا. إنها عالم مستقل بذاته، واقع جيوبولتيكي روحي ـ تاريخي مستقل يسميه ساڤيتسكي «بالأوراسيا».

وهذا المفهوم لا يعني أرضاً ولا قارة، بل فكرة انعكست في المجال الروسي والثقافة الروسية، إنها مقياس تاريخي، حضارة خاصة. ومن القطب الروسي يفتلذ ساڤيتسكي نظرية تتماهى بكيفية صارمة مع لوحة ماكيندر الجيوبولتيكية، ـ فقط «لصوص البر» التجريديون و «تلك الحوافز التي تهب بسرعة من المركز والمنطلقة من المحور الجغرافي للتاريخ» تتخذ لديه تلك الصورة الأولية، المميّزة السمات للثقافة الروسية، للتاريخ الروسي، للدَّوْلية الروسية، للأرض الروسية. وتظهر روسيا ـ الأوراسيا بالنسبة له شبيهة بـ Raum راتسيل أو، بكلمة أدق، بـ Grossraum شميدت.

وإذا كان ماكيندر يرى أن الدفعة الآلية التي تستحث المناطق الساحلية (الهلال الداخلي) على إبداع الثقافة والتاريخ إنما تنطلق من صحارى الـ heartland فإن ساڤيتسكي يؤكد على أن روسيا ـ الأوراسيا (=heartland ماكيندر) هي جُماع الثقافة العالمية والتاريخ العالمي وقد تجليا في المكان والزمان. وإلى جانب ذلك فإن طبيعة روسيا تساهم في ثقافتها.

يفهم ساڤيتسكي روسيا فهماً جيوبولتيكياً ـ لا كدولة قومية ـ بل كنمط خاص من الحضارة التي تشكلت على أساس من مكونات عدة ـ الثقافة الآرية ـ السلافية ـ بدوّية الترك والتقاليد الأرثوذكسية. وهذا بمجموعه ما يشكل تكويناً «توسطياً» فريداً، يمثل تركيبة التاريخ العالمي.

وساڤيتسكي لا يرى في سكان روسيا الكبرى مجرد فرع من السلاف الشرقيين بل تكوناً اتنياً امبراطورياً خاصاً يلتقي فيه الأساسان السلافي والتركي. وهذه اللحظة تخرج به إلى موضوع هام ـ موضوع **طوران**.

9 ـ 3 طوران

كانت العودة إلى طوران كتوجه إيجابي أمراً فضائحياً بالنسبة للكثيرين من القوميين الروس. فبهذه الطريقة برّر ساڤيتسكي بطريقة غير مباشرة الظلم المغولي ـ التتري الذي بفضله «**اكتسبت روسيا خصوصيتها الجيوبولتيكية وحافظت على استقلالها الروحي عن العالم الرومانو ـ جرماني العدواني**». وهذه العلاقة بالعالم التركي كانت مدعوة بحدّة لتبعد روسيا ـ الأوراسيا عن أوروبا ومصيرها، وتؤسس للفرادة العرقية الروسية.

«**لولا التترية لما كانت روسيا**» هذه الأطروحة من مقالة ساڤيتسكي «السهب والاستقرار»[46] كانت المعادلة الأهم بالنسبة للأوراسيّة، ومن هنا يأتي الانتقال إلى هذا الإقرار الجيوبولتيكي الصرف:

> «فلنقل بصراحة: الإحساس الأوروبي الغربي بالبحر يقابَل على مدى التاريخ العالمي بإحساس منغولي مكافىء وحيد، وإن كان قطبياً ـ بالبرّ؛ بينما يستقر في أعماق الروس «عابري الأرض» ـ في مدى فتوحاتهم واستصلاحاتهم الروسية ـ نفس تلك الروح، نفس الإحساس بالبرّ»[47].

ويلي ذلك:

> «روسيا ـ وريثة الخانات العظماء، متمّمة أعمال جنكيزخان وتيمورلانك ـ موحدّة آسيا (. . . .) تلتقي فيها «الاستقرارية» التاريخية والعفوية «السهبية» في وقت واحد»[48].

أما الثنائية المؤسسة للسطح التضاريسي الروسي ـ وتقسيمه إلى غابة وسهب ـ فأمر كان السلاڤيانوفيل قد لاحظوه من قبل. والمعنى الجيوبولتيكي للروسيا ـ الأوراسيا يظهر لدى ساڤيتسكي كتركيب لهذين الواقعين ـ الغابة الأوروبية والسهب الآسيوي. وإزاء ذلك فإن هذا التركيب ليس تنضيداً بسيطاً لنظامين جيوبولتيكيين

أحدهما فوق الآخر بل هو شيء متكامل، طريف، له مقياسه الخاص ومنهجه القيمي.

وروسيا ـ الأوراسيا لا تنتهي في مجموعها إلى طوران. إنها شيء أضخم من ذلك. أما بالنسبة لأوروبا التي ترى في كل ما يخرج عن أطر وعيها «الساحلي» «همجيّةً» فتصنيف الروس لأنفسهم «حَمَلةً للروح المغولية» استفزاز يكشف التفوق التاريخي والروحي للأوراسيين.

9 ـ 4 بؤرة التطور

تلعب «بؤرة التطور» دوراً خارقاً للعادة في نظرية سافيتسكي. وهذا المصطلح يمثل الشبيه الدقيق لمصطلح Raum في الصيغة التي تناقشها «الجغرافيا السياسية» لدى راتسيل والجيوبولتيكا الألمانية (+ تشيلّين) بصفة عامة. وتنعكس في المفهوم «عضوانية» الأوراسيين التي تتطابق بدقة مع المدرسة «العضوية» الألمانية وتتناقض بدقة مع براغماتية الجيوبولتيكيين الانجلوساكسون. ولو كان سبيكمان مطلعاً على أعمال سافيتسكي لكان سخطه على هذا «النونسنس(*) الميتافيزيكي» أشد ضراوة من سخطه على هاوسهوفر. فسافيتسكي يكتب في النص الذي يحمل عنوان «العرض الجغرافي لروسيا ـ الأوراسيا»:

> «الوسط الاجتماعي ـ السياسي وأرضه ينبغي أن يتذاوبا بالنسبة لنا في وحدة متكاملة في شخصية جغرافية أو سطح جغرافي»[49].

تلك هي حقيقة «بؤرة التطور» التي يتذاوب فيها الموضوعي والذاتي في وحدة لا تتجزأ ـ في كلّ متكامل. إنه تركيب ذهني. وفي النص نفسه يواصل سافيتسكي قوله:

> «التركيب ضروري. لا بد من القدرة على الإحاطة بالوسط الاجتماعي ـ التاريخي وبالأرض التي يشغلها في نظرة واحدة»[50] ويقترب سافيتسكي في هذا مع فيدال دي لابلانش. ومثل العالم الجيوبولتيكي الفرنسي الذي أصَّل

(*) النونسنس ـ الهراء. بالإنجليزية nonsense ـ (المترجم).

لعدم قبول فرنسا للتجزئة بفضل وحدة نمطها الثقافي بغض النظر عن الانتماء الإتني لسكان الألزاس واللورين يرى سافيتسكي:

«إن روسيا الأوراسيا «بؤرة تطور»، «وحدة متكاملة»، «شخصية جغرافية» ـ وهي في الوقت ذاته «سطح» جغرافي ـ اتني، اقتصادي، تاريخي إلى آخره، وهلمّ جرّاً»[51].

إن روسيا ـ الأوراسيا هي تلك «البؤرة التطور» التي تمثل الصيغة التكاملية لوجود كثير من «بؤر تطور» أصغر أحجاماً، إنه Grossraum شميدت، مكوناً من منظومة تدريجية كاملة تتألف من Raumـاتِ أصغر حجماً.

من خلال طرح مفهوم «بؤرة التطور» ابتعد الأوراسيون عن الضرورة الوضعية للتعرض بطريقة تحليلية للأحداث التاريخية إذ وزعوها على نظم آلية ـ لا بناءً على مظاهرها الطبيعية فقط بل والثقافية. واللجوء إلى «بؤرة التطور»، إلى «الشخصية الجغرافية» أعان الأوراسيين على تجنب الوصفات الشديدة التحديد والمتعلقة بالمشاكل العرقية، الدينية، الثقافية، اللغوية والايديولوجية. إن الشعور الحَدْسي لدى جميع سكان «المحور الجغرافي للتاريخ» بالوحدة الجيوبولتيكية قد اتخذ بذلك لغة «تركيبية» جديدة لا تؤدي إلى النظم التحليلية التجزيئية القاصرة لدى العقلانية الغربية.

وتجلى في هذا قبول سافيتسكي للتقليد العقلي الروسي ـ المتطلع دوماً إلى وعي «التكاملية» «الجماعية» و «وحدة الكل» وما إلى ذلك.

9 ـ 5 الايديوكراتيا

يمثل مبدأ الايديوكراتيا بعداً بالغ الأهمية في نظرية سافيتسكي. فقد كان يرى أن الدولة الأوراسية يجب أن تبنى على أساس الانطلاق من الدافع الأولي الروحي ـ من الأعلى إلى الأسفل. وعليه فإن البنيان كله يجب أن يقوم في توافق مع الفكرة الأولية وعلى رأس هذا النظام يجب أن تقف طبقة خاصة من «القادة الروحيين». وهذا الموقف شديد القرب من نظريات شميدت المتعلقة بالدافع «الإرادي» «الروحي» المكنون في منابع ظهور الـ grossraum.

كانت الايديوكراتيا تفترض أولوية النظرة غير البراغماتية، اللامادية،

اللاتجارية، إلى بناء الدولة وإن قيمة «الشخصية الجغرافية» تتجسد، برأي سافيتسكي، في القدرة على التسامي فوق الضرورة المادية، مع الجمع العضوي للعالم الفيزيائي في دافع روحي إبداعي واحد للتوزيع الكوني التاريخي.

الايديوكراتيا ـ مصطلح يجمع بين كافة صيغ الدوافع الديموقراطية، غير الليبيرالية للإدارة القائمة على بواعث لا مادية ولا نفعية. وإلى جانب هذا نجد سافيتسكي يتفادى عامداً تحديد هذا المصطلح الذي يمكن أن يتجسد في المجمعية التيوقراطية وفي الملكية الشعبية والديكتاتورية الوطنية والدولة الحزبية ذات النمط السوفياتي. هذا الاتساع في المصطلح يتفق والآفاق الجيوبولتيكية الصرفة للأوراسية، تلك الآفاق التي تشمل آماداً تاريخية وجغرافية كبرى وتلك محاولة للتعبير بصورة أكثر دقة عن الإرادة الحدسيّة للقارة.

ومن الواضح أن الايديوكراتيا تتعارض تعارضاً مباشراً مع النظرة البراغماتية ـ التجارية التي كانت طاغية في مقولات ماكيندر، ماهان وسبيكمان. وعلى هذا فإن الأوراسيين وصلوا بالمصطلحات الايديولوجية التي انعكست فيها المواجهة التاريخية بين **البحر والأرض** حتى أسمى درجات الوضوح. **فالبحر** ـ هو ـ «الديموقراطية الليبيرالية»، «النظام التجاري، البراغماتية. **والأرض** هي ـ الايديوكراتيا (بجميع أوجهها)،» الإدارة التدرجية، هيمنة المثل الديني الأعلى.

ونظرات سافيتسكي إلى الأيديوكراتيا تتناغم مع نظرات عالم الاجتماع والاقتصادي الألماني فيرنير زومبارت، الذي قسم كافة النماذج والأنماط إلى طبقتين عموميتين ـ «الأبطال» و «التجار» أما على المستوى الجيوبولتيكي فمصطلح «البطل» و «البطولة» يفقد معناه الميتافيزيكي ـ الحماسي ـ ليغدو مصطلحاً تقنياً للتعريف بالخصوصية الحقوقية والأخلاقية للإدارة الأيديوكراتية.

9 ـ 6 الاتحاد السوفياتي والأوراسية

إن دور بيوتر سافيتسكي والأوراسية الروسية ـ بصفة أوسع في تطوير الجيوبولتيكا كعلم، كبير جداً. ومن المستغرب قلة الاهتمام الذي توليه الكتب التعليمية الغربية لهذا الاتجاه. ففي شخص سافيتسكي نلتقي بالجيوبولتيكي الواعي بامتياز ـ المسؤول، الجدير والذي يعبّر بكل مقدرة وحجة عن موقف الـ heartland

معتمداً في الوقت ذاته على ميادينه الروسية العميقة. ونظرية سافيتسكي الجيوبولتيكية النقيض المباشر لنظرات ماهان ـ ماكيندر سبيكمان وفيدال دي لابلانش وغيرهم من «التالاسوكراتيين». وفي هذه الحالة فقط يدور الحديث عن العرض النهائي والمفصل للنظرية البديلة التي تناقش العوامل الايديولوجية والاقتصادية والثقافية والاتنية بكل تفصيل. وإذا ما استخدمنا مصطلح كارل شميدت وجدنا سافيتسكي والأوراسيين المعبّرين عن «نوموس **الأرض**» في حالته الفاعلة، منظّري «التيلوروكراتيين» المنهجيين، مفكري الـ Grossraum البديل للـ Grossraum الأنجلوساكسوني.

إن مقارنة أفكار الأوراسيين الروس بنظريات الجيوبولتيكيين القاريين الألمان (هاوسهوفر وشميدت وأمثالهم) ممن حاولوا أيضاً بناء نظريتهم الجيوبولتيكية الخاصة كنقيض لاستراتيجية القوة البحرية تبين أن الألمان قد قطعوا في هذا الاتجاه نصف الطريق فقط، أما بالنسبة للروس (ولسافيتسكي بالدرجة الأولى) فنحن أمام لوحة للعالم مكتملة، بريئة من التناقضات وكاملة القيمة. «وكلما ازداد اقتراب نظرات القاربين الألمان من الأوراسية الروسية ازداد تقبلهم للـ Ostorientierung، وازدادت نظرياتهم علمية ومنطقاً وتضاعفت فعالية مشاريعهم السياسية القائمة على أساس جيوبولتيكي».

وفي هذا المعنى كان أكثر من اقترب من سافيتسكي هم الوطنيون ـ البلشفيك الألمان ـ وبخاصة من بينهم أرنست نيكيش، ـ الذين وعوا بصفة ممتازة ازدواجية الوضع الجيوبولتيكي لألمانيا التي تبدو «توسطيتها» نسبية، ثانوية الأهمية إذا ما قيست بـ «توسطية» الروس الثقافية والقارية المطلقة. وانطلاقاً من ذلك توصلوا إلى الاستنتاج بأنه لا يمكن لألمانيا أن تتطلع إلى دور التركيب الجيوبولتيكي وأن عليها أن تختار بين ألمانيا الجنوبية ـ الغربية الكارهة للسلاف، ألمانيا (ومنها النمسا) الكاثوليكية، والتالاسوكراتية (البورجوازية) في بعض الوجوه وبين بروسيا الشمالية ـ الشرقية، الجرمانية ـ السلافية، الاشتراكية، المحبة للروس، البروتستانتية والسبارطية. وإلى نيكيش تعود الأطروحة الجيوبولتيكية الشهيرة «أوروبا من ڤلاديڤوستوك حتى فليسينغ» وفقط مثل هذه النظرة من طرف الألمان يمكن أن تتناغم مع الأوراسية القارية المنهجية. ومن الطبيعي أن خط هتلر، ذلك الكاثوليكي النمساوي، المعادي للشيوعية والكاره للسلاف ـ مهما حاول أن يصوّبه بعض الذين

يتطرفون قليلاً في التاريخية، المسؤولون من بين الثوريين المحافظين وعلماء الجيوبولتيكا ـ ما كان له أن يفضي إلا إلى أن تفقد ألمانيا ولفترة طويلة وجودها التاريخي بنتيجة تلك الهزيمة الكابوسية التي أوقعتها فيها بالذات تلك القوى التي كان من شأن «التحالف الأبدي» معها أن يضمن للألمان المشاركة في الهيمنة العالمية على «التيلوروكراتيا».

كان الواقع السوفياتي في معناه الجيوبولتيكي يتطابق في كثير من وجوهه مع نظريات ساڤيتسكي وغيره من الأوراسيين على الرغم من أنه ليس ثمة أية معلومات موثوقة عن تأثيرهم المباشر على القيادة السوفياتية. وإلى حد بعيد كان القريبون من الأوراسيين من بين السمينوڤيخوڤتسي(*) والوطنيين ـ البلشفيك ـ وبخاصة نيكولاي اوستريالوف ـ يتركون تأثيرهم بكل وضوح على البلشفيك وعلى ستالين بالذات بالرغم من أنهم لم يشغلوا أية مناصب رفيعة قط وكثيراً ما أمضوا حياتهم في معسكرات الاعتقال. وقام قسم من الأوراسيين ـ ايرفون وكارساڤين وغيرهم ـ بالتعاون العلني مع الاتحاد السوفياتي لكنهم لم يتلقوا، بدورهم، أي شكر. بيد أن تحليل السياسة السوفياتية الخارجية ـ حتى بداية البيريسترويكا ـ يؤدي إلى الاستنتاج بأنها كانت تسلك بصفة دائمة نهجاً أوراسيا بالذات دون أن تتحدث علانية عن ذلك على الإطلاق.

هنا فقط يمكننا أن نبني الافتراضات. فإما أن تكون قد وجدت منظمة مجهولة ما في داخل النظام السوفياتي ـ تهتدي بآراء ساڤيتسكي وتكيفها وفق الوقائع السياسية الفعالة وتغلفها بالمفردات الماركسية «الرسمية» أو أن الواقع الموضوعي للـ heartland كان يضطر الاتحاد السوفياتي للقيام، بمقتضى العادة، بالخطوات التي ينبغي أن تقوم بها دولة قارية واعية جيوبولتيكياً ـ هي الأوراسيا.

(*) السمينوڤيخوفتسي: تعود الكلمة إلى دورية صحفية باسم «سمينا ڤيخ» (تحوّل العصور) أصدرتها في باريس بين 1921 ـ 1922 جماعة تنتمي إلى تيار سياسي ظهر بين فئة من المثقفين البورجوازيين الروس (المهاجرين منهم بصفة خاصة) في عشرينيات القرن الماضي، ورأى بعض أتباعه ضرورة التحول عن الصراع ضد السلطة السوفياتية إلى الاعتراف بها مبررين ذلك بقرب ارتداد السلطة السوفياتية عن مواقفها ضمن ظروف النظام الاقتصادي الجديد الذي جرى تطبيقه في تلك الفترة. (المترجم).

الجيوبولتيكا أداة للسياسة القوميّة

10 ـ 1 الثنائية الكونية ـ قانون الجيوبولتيكا الأساسي

بإجمال حاصل التعرف الموجز على أفكار مؤسسي علم الجيوبولتيكا يمكننا القيام بعدد من الاستنتاجات العامة.

فعلى الرغم من تنوع وجهات النظر نتعامل مع لوحة واحدة للعالم يمكن أن نسميها اللوحة الجيوبولتيكية، ولوحة العالم هذه تطمح إلى أن تدخل في تحليل العمليات التاريخية والعلاقات ما بين الشعوب وما بين الدول عدداً من المقاربات التأسيسية ـ الجغرافية منها، والمتعلقة بعلم السياسة، والإيديولوجية والاتنوغرافية والاقتصادية وما إلى ذلك. وفي هذا يتجسد الطابع الأساسي لكافة النظريات الجيوبولتيكية والطموح إلى التركيب ما بين النظم العلمية.

أما الصيغة المنهجية الأكثر عمومية والمشتركة بين جميع علماء الجيوبولتيكا فهي توكيد الثنائية التاريخية التأسيسية بين **اليابسة**، التيلوروكراتيا، «نوموس» الأرض، الأوراسيا، الـheartland، «الأرض المتوسطة»، «الحضارة الإيديوقراطية»، «المحور الجغرافي للتاريخ» من جهة وبين **البحر**، التالاستوكراتيا، الـSea Power، «نوموس **البحر**»، العالم الأنجلو ساكسوني، الحضارة التجارية، «الهلال الخارجي أو الجزيري» من الجهة الأخرى. وهذا ما يمكن النظر إليه على أنه القانون الأساسي للجيوبولتيكا. وخارج التسليم بهذه الثنائية تفقد جميع النتائج معناها. فعلى الرغم من كل الاختلاف في الرؤى الخاصة لم يقم أي واحد من مؤسسي

العلم الجيوبولتيكي بوضع مثل هذه المقابلة موضع الشك. وهو ما يضارع في معناه قانون الجاذبية الكوني في الفيزياء.

10 ـ 2 لا يمكن لعالم الجيوبولتيكا إلا أن يُجتذب للعمل

والخصيصة الثانية لنظرات مؤسسي الجيوبولتيكا هي حتمية استخدامهم السياسي. فمن الناحية العملية لا نجد عالماً جيوبولتيكياً واحداً تم استبعاده عن المشاركة في الحياة السياسية لدولته. ومن هنا تأتي التحيّزية الواضحة لديهم جميعاً ودون استثناء. فلا بد للجيوبولتيكي، وهو ينطلق إلى بحوثه العلمية، من أن يحدد مكانه الخاص على خارطة الأقطاب الجيوبولتيكية، وبهذا ترتبط زاوية الرؤية التي سيحلل من خلالها كافة العمليات العالمية. ولا نجد في تاريخ الجيوبولتيكا بطوله مؤلفاً واحداً اتسم باللامبالاة نحو دولته أو شعبه أو لم يشاطرهما توجههما الخلقي والتاريخي. ويتجلى هذا واضحاً عند الأقطاب المتطرفة ـ فالمؤلفون الأنجلو ساكسون يسيرون دون أي إحساس بالحرج، وبطريقة موحّدة، وراء منطق وقيم نظام الـSea Power، التالاسوكراتيا عندما يصوغون نظرياتهم من مواقع المؤيدين للأطلسية بلا تحفظ، والأوراسيون الروس على نفس المستوى من الاستجابة في وفائهم لمثل الـheartland فهم أيضاً لا يضعون موضع الشك الأفضلية الخلقية والتاريخية للإيديوقراطية ولروسيا ـ الأوراسية.

ويبدو الأمر أكثر تعقيداً بالنسبة للفرنسيين الذين لديهم الخيار النظري لتحقيق ذاتيتهم الخاصة ـ التالاسوكراتية أو التيلوروكراتية. فعليهم في الحالة الأولى أن يتضامنوا مع العالم الإنجلو ساكسوني، مع الـSea Power، وفي الثانية ـ مع الميل للألمان، والاحتمالان يفترضان مشاعر استحسان قومي لا نهاية لها. وهذان الاتجاهان متوفران، من الناحية النظرية بين علماء الجيوبولتيكا الفرنسيين، إلا أن التصور الجيوبولتيكي الأكثر رسوخاً قدمته مجموعة «الأطلسيين» من أتباع فيدال دي لابلانش الذي بقي الشخصية الأساسية في هذا المضمار. أما خصماه الجيوبولتيكيان، لاڤال وديغول، فيقصّران عنه من الوجهة النظرية.

ولألمانيا موقف مزدوج أيضاً. فإذا كان تفكيرها الجيوبولتيكي موجهاً في عمومه توجهاً قارياً و«أوراسياً» فإن هذا التوجه محكوم بعلاقة معقدة نحو العالم

السلافي، نحو آسيا ونحو روسيا بصفة خاصة. وقد بلغ هذا التقييد حداً كبيراً من الملموسية كما بلغت محاولات ألمانيا لموازنة وضعها الأوروبي المتوسط مع وضعها الأوراسي المتوسط، متجاهلة بذلك المعنى التاريخي لروسيا ـ الأوراسيا، درجةً من العناد جعلت ألمانيا تضطر في الحربين العالميتين لخوض الحرب ليس فقط ضد الدول التالاسوكراتية بل وحتى ضد حليفها المنطقي الأوراسي ـ روسيا (الاتحاد السوفياتي). ويمكن القول إن القارية «اللاأوراسية» هي سمة الجيوبولتيكية الألمانية وهذه الوضعية تلخص التاريخ الألماني بأسره في معادلة جيوبولتيكية وتحدد مسبقاً بنية الوعي القومي ذاتها.

إن ضرورة أن يقوم عالم الجيوبولتيكا منذ البداية بتحديد موقفه الشخصي على خارطة العالم الجيوبولتيكية وأحزمتها (وفي هذا المعنى يبدو مخطط ماكيندر شاهداً في غاية الوضوح) هي التي دفعت ذلك العلم إلى أن ينمو، بطريقة استثنائية تقريباً على أيدي ممثلي الدول الكبرى الطامحة إلى أن تغدو «قوة عالمية» (Welt mächt) «دولاً فوق العظمى» وأن تحقق السيادة القومية.

فالأمريكيان ماهان وسبيكمان، والإنجليزي ماكيندر يمثلون «الهلال الجزيري». إنهم «الناطقون» بلسان الأطلسية ـ التالاسوكراتية.

وفيدال دي لابلانش (ومدرسته) يمثلون فرنسا الأطلسية. ويميل لاڤال وديغول نحو القارية، نحو «الأوروبوية»، نحو العداء للأطلسية، ومن هنا ينبثق ميلهما المتبادل لحب الألمان والذي يقرب جيوبولتيكياً بينهما على الرغم من انتمائهما إلى معسكرين متعاديين: كان لاڤال رئيس حكومة فيشي المتعاونة مع العدو، بينما كان ديغول قائد الجيش الفرنسي المعادي للفاشيّة.

ويطابق الألمانيون راتسيل وهاوسهوفر وشميدت بين ألمانيا ومحور الأرض، التيلوروكراتيا ويحاولون أن يخلقوا من ألمانيا «مدىً كبيراً» يمكنه أن يواجه التالاسوكراتيا الأنجلوساكسونية. ويقترب منهم السويدي تشيلّين والذي يفكر بطريقة تجعله أقرب إلى أن يكون ممثلاً لأوروبا الوسطى، للمدى المكاني الأوروبي الألماني، من أن يكون قومياً «سويدياً ـ ضيق الأفق». أما القاريون الأكثر راديكالية ـ أرنست نيكيش، فريدريك جيورغ، يونغر، أرتور، موللر فان دين بروك وأمثالهم ـ فيسيرون إلى أبعد من ذلك ولا يفترضون مستقبل ألمانيا إلا في تكاملها الاستراتيجي مع روسيا الأوراسية.

وأخيراً فإن الأوراسيين الروس (سافيتسكي، تروبتسكوي وأمثالهما) يستعرضون أكثر صور القارية اكتمالاً بتعبيرهم عن الموقف الأكثر راديكالية لـ«نوموس» اليابسة، التيلوروكراتيا.

أما غياب أي عدد مهما صغر من الأسماء المرموقة بين علماء الجيوبولتيكا لدى الدول الأخرى (على الرغم من أن أمثال هؤلاء وجدوا في إيطاليا، إسبانيا، بلجيكا، رومانيا وهولندا) فيفسر بأن الثنائية الجيوبولتيكية المؤسسة لا تمس الثانويين على مستوى الدول إلا بطريقة غير مباشرة، وتأثير هذه الدول على مسيرة المواجهة العالمية غير ذي شأن، ولهذا فإن خصوصية الجيوبولتيكا نفسها وحدّتها وفعاليتها وبُعْدها «الحامل للمصير» ليست حيويّة بالنسبة لهذه الدول.

10 ـ 3 مصائر العلماء ـ مصائر الدول

هوية علماء الجيوبولتيكا تنعكس بصورة مباشرة على آرائهم. والارتباط واضح هنا، فعلماء الجيوبولتيكا هم، في واقع الحال، أولئك الأشخاص القاردون، وبمستوى أعظم من نفاذ البصيرة ومن الإحساس بالمسؤولية، على تلمّس التوجهات التاريخية للتطور العالمي في المجال المكاني، وعلى أن يفهموا مكان دولتهم وشعبهم في هذا السياق وأن يصوغوا المشروع الأكثر رسوخاً، والأكثر فعالية بالنسبة للمستقبل. ولهذا السبب فإنهم كثيراً ما يتركون أثرهم المباشر أو غير المباشر على التاريخ العالمي الذي تصنعه قوى ومجموعات وأحزاب وقادة مختلفون تماماً يتصرفون تحت شعارات مختلفة كلياً وفعّالة بالنسبة لساعتها.

وثمة قانون آخر مثير للاهتمام. فدرجة التأثير المباشر لعلماء الجيوبولتيكا على السلطة، والعلاقة العكسية بين التحضيرات العلمية والنهج السياسي في العلاقات الدولية للدول ذات الصلة تتباين بشكل حاد.

كان ماهان، سبيكمان وماكيندر يشغلون مناصب رفيعة في بلادهم، وكان لفعاليتهم السياسية النتائج الأكثر مباشرة، وتأثيرهم المباشر على السياسة الأنجلوساكسونية واضح وكبير. وبغض النظر عن بعض المماحكات التي تعرضوا لها مع عالم العلم في بلادهم وبعض السكوت (التكتيكي) على أهمية أفكارهم بالنسبة لمجموع «الحضارة البحرية» ككل، فقد كانوا يتمتعون خلال حياتهم

بالاحترام، وقُدّم إليهم كل نوع من الدعم وكان مصيرهم ومناصبهم موفقة إلى حدود مثالية.

واختلف الأمر بالنسبة لعلماء الجيوبولتيكا القاريين. فما نظروا إلى فيدال دي لابلانش إلا كجغرافي حاول توسيع دائرة دراساته حتى الميدان السياسي. وكانت علاقة الدولة به مطبوعة بالاحترام، إلا أنها اتسمت بشكل عام باللامبالاة على الرغم من أن الكثير من مبادئه العلمية (وبخاصة ما عبر عنه في «فرنسا الشرقية») أخذت في ميدان التسليح. إنه لا يتمتع بالمكانة التي تبوأها الأنجلو ـ أمريكيون إلا أن تراثه النظري يؤخذ بالحسبان.

أما بالنسبة للألمان وبخاصة بالنسبة لهاوسهوفر وشميدت ـ فالأمر على مستوى أعلى من الحيوية. ففي جمهورية فايمار وخلال حياة هتلر كانت العلاقة بهما تقوم على النوازع الشخصية وتنتقل من بعض الاهتمام المحدود من طرف السلطة وحتى التنكيل المباشر. ومصيرهما إذا ما قورنا بعلماء الجيوبولتيكا «التالاسوكراتيين» ـ كان مأساوياً وقد سار خطهما المهني في خط متكسّر، ويغدوان في بعض الأحيان ضحايا حتى تلك النظم التي تتطابق أهدافها القومية مع أهدافهما الخاصة. وهنا لم يعد ثمة تقدير ولا احترام، بل نوع من الاهتمام الهستيري الذي تناوب مع ما تعرّضا له من ألوان الاضطهاد.

واللوحة تبدو أشد مأساوية بالنسبة للأوراسيين إذ لا نجد هنا أي احترام مباشر، ولا أي ذكر لهم في المصادر الرسمية؛ لا شيء سوى معسكرات الاعتقال، والمنافي والسجون والملاحقات مع التجاهل المطلق. وعلى الرغم من تكوّن الانطباع، حتى مرحلة معينة من التاريخ السوفياتي، بأن القرارات الأساسية على المستوى الدولي تتخذ من طرف أتباع بيوتر سافيتسكي، الذين يوفقون كل خطوة لهم ومنشورات الأوراسيين، تحل لحظة انكسار عام 1969 ـ عندما يتبيّن أنْ لا أحد في القيادة السوفياتية بقادر على أن يوضح بلغة مفهومة منطق السياسة الخارجية التقليدية، ونتيجة لذلك يتم التدمير الصاعق للنظام الأوراسي العملاق الذي أقامته بمثل ذلك التوتر ثلاثة أجيال كابدت الحروب والحرمان والمعانيات والآلام التي يعجز عنها البشر.

إن دور شخصية الجيوبولتيكيين بمعنى تأثيرهم على السلطة يتقلص بحدّة

وفقاً لمحور الغرب ـ الشرق. فمع الاحترام الذي قوبل به ماهان وسبيكمان تتعارض التهديدات المستمرة التي تعرض لها شميدت من طرف جماعة الـSS واضطهاد هاوسهوفر (وقد أطلق الرصاص على ولده) مثلما تتعارض معها وبدرجة أكبر معسكرات الاعتقال التي أرسل إليها سافيتسكي وكارسافين. ومن الأمور المذهلة أن تلك الدول التي استجابت أكثر من سواها لعلمائها الجيوبولتيكيين وأحاطتهم بالإجلال قد حصدت، في نهاية المطاف، نتائج مهولة واقتربت كثيراً من الوصول بصفة نهائية إلى السيطرة العالمية بمفردها. بينما دفعت ألمانيا سقوطها من التاريخ لمدة نصف قرن ثمناً لإهمالها أطروحات هاوسهوفر المتعلقة بـ«المعسكر القاري»، وتكبدت هزيمة مريعة وغارت في العدَم السياسي. أما الاتحاد السوفياتي الذي لم يعر اهتماماً لأعمال الأبطال الوطنيين الروس الأكثر إحساساً بالمسؤولية، والمتعمقين النافذي البصيرة فقد وجد نفسه وبدون معركة أو مقاومة في وضع يقترب من وضع ألمانيا بعد الحرب ـ فهبط تأثيره العالمي حتى الصفر، وتقلصت مساحته بشدّة وتحول اقتصاده ووسطه الاجتماعي إلى أطلال.

الباب الثاني

النظريات والمدارس الجيوبولتيكية المعاصرة

(النصف الثاني من القرن العشرين)

الفصل الأول 1

نظرة عامة

سلك تطور الفكر الجيوبولتيكي في النصف الثاني من القرن العشرين، في عمومه، نفس الطرق التي حدّدها مؤسسو هذا العلم. وقصة هاوسهوفر ومدرسته التي خيمت عليها الظلال الشريرة للتعاون الفكري مع الرايخ الثالث جعلت المؤلفين الذين يشغلون هذا الحقل العلمي يبحثون عن طرق ملتوية لكي لا يتهموا بـ«الفاشية». والأمريكي كولين س. غري اقترح مثلاً استخدام كلمتين للتعبير عن الجيوبولتيكا: الكلمة الإنجليزية «geopolitics» والألمانية «Geopolitik». وكان على الكلمة الأولى أن تعني البعد الأنجلوساكسوني البراغماتي لهذه الظاهرة أي أعمال المؤلفين الذين يؤثرون رؤية ماهان، ماكيندر وسبيكمان، أما الثانية - فتعني «البعد القاري»، تراث مدرسة هاوسهوفر الذي كان يضع في الحسبان بعض العوامل «الروحية» أو «الميتافيزيكية». ومن الطبيعي أن هذا التقسيم اشتراطي إلى حد كبير وليس إلا طريقاً ديماغوجياً أملته تصورات «اللباقة السياسية».

أما الخط الأمريكي، وبمعنى أوسع، الأطلسي (التالاسوكراتي) في الجيوبولتيكا فقد تطور من الناحية العملية دون أي انقطاع عن التقليد المعتمد. فبمقدار تطبيق مشاريع الأمريكيين في إقامة «الدولة العالمية» ما زاد علماء الجيوبولتيكا الأطلسيون، في فترة ما بعد الحرب، على أن دققوا الآفاق الجزئية لنظريتهم وزادوها تفصيلاً مع تطوير مجالاتها التطبيقية. والأنموذج المؤسس «للقوة البحرية» وأبعادها الجيوبولتيكية تحول من صياغات علمية لعدد من المدارس العسكرية، الجغرافية المتفرقة ليصبح السياسة الرسمية العالمية للولايات المتحدة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن تحول الولايات المتحدة إلى دولة فوق العظمى وخروجها إلى المرحلة النهائية للتالاسوكراتيا جعل علماء الجيوبولتيكا الأمريكيين

يتدارسون أنموذجاً جيوبولتيكياً بالغ الجدّة تشارك فيه لا القوتان الأساسيتان بل قوة واحدة فقط. إلى هذا فقد وضعت من الناحية المبدئية صيغتان لتطوير الأحداث ـ إما الفوز النهائي للغرب في المبارزة الجيوبولتيكية مع الشرق وإما الجمع بين المعسكرين الإيديولوجيين في واحد **وإقامة الحكومة العالمية** (وسمي هذا المشروع بـ**«الموندياليزم»** ـ من الكلمة الفرنسية «monde» «العالم») وكان الأمر في الحالتين يتطلب تفسيراً جيوبولتيكياً لهذه التخريجة الممكنة لتاريخ الحضارات. وقد استدعى هذا الموقف إلى الحياة اتجاهاً خاصاً في الجيوبولتيكا هو **«جيوبولتيكا العولمة»**. وبكلمة أخرى تعرف هذه النظرية بخطاب «النظام العالمي الجديد». وقد عكف الأمريكيون على صياغتها منذ السبعينيات لكن التصريح بها بصورة علنية لأول مرة تم سنة 1991 من طرف جورج بوش رئيس الولايات المتحدة خلال حرب الخليج.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، لم تعد الجيوبولتيكا الأوروبية قائمة، من الناحية العملية، كشيء مستقل. وما تغيرت الحال قليلاً إلا في غضون مرحلة قصيرة بين 1959 ـ 1968 عندما صار «القاري» شارل ديغول رئيساً لجمهورية فرنسا. فبداية من سنة 1963 اتخذ ديغول عدة خطوات مناوئة بشكل واضح للأطلسية، وبنتيجة ذلك انسحبت فرنسا من حلف شمالي الأطلسي وقامت بمحاولات بناء استراتيجيتها الجيوبولتيكية الخاصة. ولكن لما كانت تلك الدولة عاجزة بمفردها عن مواجهة العالم التالاسوكراتي فقد ظهرت على جدول أعمال تلك الأيام مسألة التعاون الداخلي الأوروبي، الفرنسي ـ الألماني وتعزيز العلاقات مع الاتحاد السوفياتي. ومن هنا بزغ الشعار الديغولي المشهور «أوروبا من الأطلسي إلى الأورال». هذه الأوروبا وقد تم تخيلها كتشكيل قاري مستقل من الناحية الاستراتيجية ـ وضمن روح **«القارية الأوروبية»** المعتدلة.

وبالإضافة إلى ذلك فعند بداية السبعينيات وعندما تغدو الدراسات الجيوبولتيكية في الولايات المتحدة مبسطة إلى أبعد حد بين الجماهير يأخذ العلماء الأوروبيون بالانضمام إلى هذه العملية، إلا أن علاقتهم بالمدرسة الجيوبولتيكية السابقة للحرب كانت في معظم الحالات قد قطعت بصفة نهائية. وكان عليهم أن يتكيفوا مع معايير النظرة الأنجلوساكسونية إلى الموضوع ـ وهكذا يدخل العلماء الأوروبيون خبراء تقنيين في المنظمتين الدوليتين ـ حلف الناتو ومنظمة الأمم المتحدة وما إلى ذلك، مشغولين بالدراسات **الجيوبولتيكية التطبيقية** ودون أن



يخرجوا عن حدود الموضوعات المحدّدة الضيقة. وبالتدريج تحولت هذه الدراسات إلى شيء مستقل، إلى «الجيوبولتيكا الإقليمية» التي لقيت تطويراً ملموساً في فرنسا (مدرسة إيف لاكوست، ناشر مجلة «هيرودوت») ثم تتحرر هذه «الجيوبولتيكا الإقليمية» من الخطط العالمية لماكيندر ماهان أو هاوسهوفر ولا تولي إلا القليل من الأهمية للثنائية المؤسسة ولا تستخدم المناهج الجيوبولتيكية إلا لوصف النزاعات بين الاتنيات أو بين الدول أو وصف العمليات الديموغرافية بل وحتى **«جيوبولتيكا الانتخابات السياسية»**.

التقليد المتواصل الوحيد للجيوبولتيكا الذي ظل محافظاً على ذاته في أوروبا منذ سنوات ما قبل الحرب كان في حوزة المجموعات الهامشية إلى حد ما والتي ارتبطت بهذا المستوى أو ذاك بالأحزاب والحركات القومية لما بعد الحرب. وفي هذه الأوساط الضيقة والعائدة سياسياً للأطراف تنامت الأفكار الجيوبولتيكية التي انطلقت مباشرة نحو «قارية» مدرسة هاوسهوفر وما شاكلها. وقد تلقت هذه الحركة في عمومها اسم «اليمينيين الجدد» الأوروبيين. وحتى مرحلة معينة كان رأيهم العام يقابل بكل بساطة بالتجاهل لاعتبارهم من «مخلفات الفاشية» وفي السنوات العشر الأخيرة فقط وبصفة خاصة بفضل النشاط التنويري والإعلامي الذي قام به الفيلسوف الفرنسي آلين دي بِنْوا، أخذت الأوساط العلمية الجادة تصغي إلى هذا التوجه، وعلى الرغم من المسافة المعتبرة الفاصلة بين الأوساط المفكرة «لليمينيين الجدد» الأوروبيين وبين أوساط السلطة، ومن «الاختلاف في الرأي» فإن أعمالهم تمثل، من الوجهة النظرية البحتة، إسهاماً ضخماً في تطوير الجيوبولتيكا. ولما كانت عقليتهم متحررة من ضرورات الالتزام السياسي فإنها تطورت مستقلة بصفة نسبية ودون تحيّز. وتجدر الإشارة إلى أن وضعاً قد تشكل في حدود التسعينيات اضطر إزاءه علماء الجيوبولتيكا الأوروبيون الرسميون (وعلى الغالب من بين المتحدرين من أحزاب اليسار أو اليسار المتطرف) للجوء إلى «اليمينيين الجدد» وأعمالهم وترجماتهم ودراساتهم من أجل استكمال اللوحة الجيوبولتيكية.

وأخيراً، الجيوبولتيكا الروسية. من الناحية الرسمية لم توجد في الاتحاد السوفياتي تلك الجيوبولتيكا التي توصم بـ«الفاشية» أو بـ«العلم البورجوازي الزائف». وقد قامت بوظائف تلك الجيوبولتيكا عدة علوم أخرى ـ الاستراتيجية، الجغرافيا العسكرية، نظرية القانون الدولي والعلاقات الدولية، الجغرافيا،

الاتنوغرافيا وسواها. وفضلاً عن ذلك كان المسلك الجيوبولتيكي في الاتحاد السوفياتي على الصعيد الكوني يشي بوجود أنموذج سلوكي عقلاني إلى حدود بعيدة من وجهة النظر الجيوبولتيكية. فطموحات الاتحاد السوفياتي إلى تعزيز مراكزه في جنوب الأوراسيا، في «المنطقة الشاطئية»، والتغلغل في أفريقيا، والعمليات المثيرة للاضطراب في أمريكا الجنوبية (والموجّهة إلى إحداث صدع في المدى المكاني الذي تسيطر عليه الولايات الأمريكية ـ الشمالية وفق مبدأ مونرو، بل واختراق القوات السوفياتية لأفغانستان بهدف كسر طوق «الأناكوندا» الأمريكية التي تحاول تقريب الحدود الاستراتيجية للتالاسوكراتيا لتلتصق بالحدود الجنوبية لـ«المحور الجغرافي للتاريخ») وما إلى ذلك. هذه السياسة السوفياتية المنهجية والمبررة تشير إلى وجود نوع من «مركز القرارات» الذي كان ينبغي أن تُلَخّص فيه ضمن صيغة واحدة نتائج عدد كبير من العلوم التقليدية ثم تتخذ الخطوات الاستراتيجية الأهم على أساس من هذا «المُعْطى»، «التركيب» إلا أن الحَصْر الاجتماعي لهذا «المركز الجيوسياسي السري» يبدو إشكالياً. وثمة رأي يقول إن الحديث يدور هنا حول قسم سري ما في إدارة المخابرات.

كانت الجيوبولتيكا تتطور بصفة استثنائية عن طريق حلقات هامشية قائمة على «الاختلاف في الرأي». وكان أسطع ممثل لهذا التوجه هو المؤرخ ليف غوميليوف على الرغم من أنه لم يستخدم في أعماله مصطلح «الجيوبولتيكا» ولا مصطلح «الأوراسية» قطّ. وفضلاً عن ذلك كله كان حريصاً كل الحرص على تجنب التوجه المباشر إلى الوقائع الاجتماعية ـ السياسية. وبفضل مثل هذا الموقف «الحذر» تمكن من أن ينشر حتى خلال النظام السوفياتي عدة كتب مكرسة للتاريخ الأتنوغرافي.

وبعد سقوط حلف وارسو والاتحاد السوفياتي عادت الجيوبولتيكا لتصبح فعالة في المجتمع الروسي. ومكّن إلغاء الرقابة الايديولوجية أخيراً من تسمية الأشياء بأسمائها. فليس غريباً أن يكون أول من قام ببعث الجيوبولتيكا هو الأوساط القومية ـ الوطنية (صحيفة «دين» ومجلة «ايلمنتي»)، وبدا المنهج مثيراً للانطباع إلى درجة أن المبادرة قد خطفتها بعض الحركات «الديموقراطية» أيضاً. ولم يمض على البيريسترويكا إلا القليل حتى صارت الجيوبولتيكا واحدة من أكثر الموضوعات شعبية في المجتمع الروسي بأسره.

وبهذا يرتبط الاهتمام المتعاظم في روسيا المعاصرة بالأوراسيين وتراثهم.

الأطلسيّة المعاصرة

2 ـ 1 أتباع سبيكمان ـ د. أ. ماينغ، أ. كيرك س. ب. كوين، ك. غري، هـ. كيسنجر

إن تطور الخط الأمريكي الأطلسي المحض، في الجيوبولتيكا بعد عام 1945 يجسد في الأساس تطوير أطروحات نيكولاس سبيكمان، ومثلما بدأ هذا بناء نظرياته بتصحيح ماكيندر فإن أتباعه قاموا في الأساس بتصحيح أفكاره الخاصة.

ففي سنة 1956 قام د. ماينغ، تلميذ سبيكمان بنشر نص بعنوان «الـHeartland والـ Rimland في التاريخ الأوراسي» أكد فيه بشكل خاص على أن «**المقاييس الجيوبولتيكية يجب أن تضع في الحسبان التوجه الوظيفي للسكان والدولة، وليس فقط العلاقة الجغرافية الصرف للأرض باليابسة والبحر**»[1] ويظهر واضحاً في هذا تأثير فيدال دي لابلانش.

ويتحدث ماينغ عن أن مجموع مساحة الـrimland الأوراسي يقسم وفقاً لتوضعها الوظيفي ـ الثقافي إلى ثلاثة نماذج: الصين، منغوليا، ڤيتنام الشمالية، بنغلاديش، أفغانستان، أوروبا الشرقية (بما في ذلك روسيا)، دول البلطيق وكاريليا ـ المناطق المائلة عضوياً إلى الـ heartland.

كوريا الجنوبية، بورما ـ الهند، العراق، سوريا، يوغسلافيا ـ المحايدة جيوبولتيكياً.

أوروبا الغربية، اليونان، تركيا، إيران، الباكستان، تايلاند ـ الميالة إلى الحلف التالاسوكراتي[2].

وفي سنة 1965 أصدر أ. كيرك، وهو تلميذ آخر لسبيكمان، كتاباً[3] يعيد صياغة عنوان مقالة ماكيندر الشهيرة «المحور الجغرافي للتاريخ». وقد طور كيرك نظرية سبيكمان المتعلقة بالأهمية المركزية للـrimland من أجل التوازن الجيوبولتيكي للقوى وبالاعتماد على تحليل ماييننغ الثقافي ـ الوظيفي وقوله بأفضلية«مناطق الحواف» بالنسبة للتوضع «التيلوروكراتي» أو «التالاسوكراتي» أقام كيرك أنموذجاً تاريخياً تلعب فيه الدور الأهم الحضارات الشاطئية التي تنطلق منها الدفقات الثقافية إلى دواخل القارة بدرجة من النشاط أعلى أو أقل. وأمام هذا يتم الاعتراف بالصيغ الثقافية «الأعلى» وبالبادرة التاريخية لصالح تلك القطاعات من «الهلال الداخلي» والتي يعرّفها ماييننغ إنها «موجّهة تالاسوكراتياً».

واقترح الأمريكي سول كوين في كتابه «الجغرافية والسياسة في عالم مجزأ»[4] تعزيز المنهج الجيوبولتيكي بتصنيف إضافي قائم على تقسيم الوقائع الجيوبولتيكية إلى «نوى» (nucleus) وإلى **«أحزمة متقطعة»**، ومن وجهة نظره يمكن لكل إقليم من الكوكب الأرضي أن يقسّم إلى 4 قطاعات جيوبولتيكية تتضمن:

«1) الوسط الخارجي البحري (المائي) المرتبط بالأسطول البحري والموانىء.

2) النواة القارية (nucleus) وتتطابق مع «الـ Hinterland»، (المصطلح الجيوبولتيكي الذي يعني «المناطق الداخلية البعيدة عن الشاطىء».

3) الحزام المتقطع (القطاعات الشاطئية ـ الموجهة إلى داخل القارة أو منها).

4) المناطق غير المرتبطة جيوبولتيكياً بهذه المجموعة»[5].

منظومة «الأحزمة المتقطعة» إلتقطها الاستراتيجيّون الأمريكان الطليعيون مثل هنري كيسنجر الذي رأى أن الاستراتيجية السياسية للولايات المتحدة، المتعلقة بالمناطق الشاطئية «المتقطعة» تمثل في ربط الأجزاء في كلّ موحد وتمكين الأطلسية بذلك من فرض هيمنتها المطلقة على الأوراسيا السوفياتية. وقد سميت هذه النظرية بالـ «Linkage» من الكلمة الإنجليزية «link» «أداة ربط» «حلقة». ولكي تكون استراتيجية «الأناكوندا» ناجحة حتى النهاية كان من الضروري إيلاء اهتمام خاص «للقطاعات الشاطئية» من الأوراسيا التي إما كانت تقف على الحياد وإما تميل نحو الآماد الداخلية للقارة. ومن الناحية العملية طبقت هذه السياسة عبر

الحرب الفيتنامية، وعبر تفعيل العلاقات الأمريكية ـ الصينية، ومساندة الولايات المتحدة للنظام الموالي لأمريكا في إيران، ودعم القوميين المعارضين في أوكرانيا ومناطق البلطيق وما إلى ذلك.

وعلى نحو ما كان الأمر في العهود السابقة بقيت المدرسة الجيوبولتيكية الأطلسية تؤيد بصفة متصلة العلاقة العكسية مع السلطة.

أما تطور النظرات الجيوبولتيكية في تطبيقه على العصر الذري فنجده لدى ممثل آخر للمدرسة الأمريكية نفسها وهو كولين غراي. ففي كتابه «جيوبولتيكا العصر الذري»[6] يقدم نظرة إلى الاستراتيجية العسكرية للولايات المتحدة والناتو ويضمنها أماكن التوضع الكونية للأهداف الذرية انطلاقاً من الخصائص الجغرافية والجيوبولتيكية للمناطق.

2 ـ 2 الأطلسيون كسبوا الحرب الباردة:

حتى بداية التسعينيّات كان التطور الجيوبولتيكي للأطلسية يحقق ذروته. وتستعرض استراتيجية «الأناكوندا» فعاليتها المطلقة. ويمكننا في هذه الفترة أن نلاحظ ما يقارب الصحة «التنبؤية» لعلماء الجيوبولتيكا الأوائل ـ ماكيندر وماهان واللذين قام سبيكمان بتصويبهما بدقة.

إن سقوط حلف وارسو والاتحاد السوفياتي يشيران إلى انتصار توجهات الاستراتيجية الأطلسية المطبقة في الحياة على مدار القرن العشرين بطوله. فالغرب يحقق انتصاره في حربه الباردة مع **الشرق والقوة البحرية** (Sea Power) تحتفل بانتصارها على الـheartland.

ومن الناحية الجيوبولتيكية يمكن تفسير ذلك بما يلي:

كانت مواجهة المعسكر السوفياتي مع الناتو الصيغة الأولى الصافية والنقيّة من صيغ المواجهة بين الأرض والبحر بين «**بهيموت ولَوِياثان**» في التاريخ. وإلى جانب ذلك فإن الميزان الجيوبولتيكي للقوى لم يكن يعكس الثوابت الأيديولوجية فقط بل والجيوبولتيكية أيضاً.

والاتحاد السوفياتي كـheartland، كأوراسيا، كان يجسّد الأيديوقراطية السوفياتية النمط. ومن وجهة النظر الجغرافية كان ذلك **مجالاً واسعاً** متكاملاً ذا

مصادر طبيعية مهولة وتسليح استراتيجي متطور. وتمثلت الأفضلية الرئيسية للاتحاد السوفياتي في الميول «الثقافية الوظيفية» للسكان الذين يعيشون في أراضيه الواسعة أو المجاورة والصعبة المنال والتي تسمح بإقامة الجسور التقنية والدفاعية الوطيدة. وفضلاً عن ذلك كان للاتحاد السوفياتي من جهتيه **الشمال والشرق** حدود بحرية كان الدفاع عنها أيسر بكثير من الدفاع عن الأراضي القارية.

وعلى حساب الاقتصاد القائم على المركزية كان الاتحاد السوفياتي قد حقق الاكتفاء الذاتي بالنسبة للمواد التموينية والوضع العسكري للدولة فوق العظمى. وكان يتطلع وفق الإمكانيات إلى بسط نفوذه على القارات الأخرى.

إلا أن الحلف الشرقي كان يشكو من مجموعة من أوجه النقص الجيوبولتيكية المبدئية. يتمثل أهمها في الامتداد الهائل لحدوده البرية. فإذا كانت الحدود من جهة الجنوب تتوافق مع سلسلة الجبال الأوراسية - من منشوريا حتى تيان شان والبامير والقوقاز - فإن الحدود في الغرب تخترق وسط أوروبا السهلية التي كانت الجسر الاستراتيجي للأطلسية بينما تستقر قاعدتها المركزية على الشاطىء الغربي **للمحيط المتوسط** (Midland Ocean) ولكن حتى في الجهة الجنوبية لم تكن الجبال وسيلة دفاعية فقط، بل وعقبة تسد الطريق أمام التوسع الممكن وتحول دون الخروج إلى البحار الجنوبية.

وبالإضافة إلى ذلك كان على الحلف الشرقي أن يحشد في مركز جيوبولتيكي واحد - قواه العسكرية - الاستراتيجية والاقتصادية والعقلية والانتاجية وموارده الطبيعية.

مع مثل هذا الوضع يتناقض بحدّةٍ وضع الغرب بمركزه الولايات المتحدة (ويكتسب هذا أهمية خاصة إذ لم يكن وضع أوروبا الغربية في مثل هذا التوزع للقوى مما تُحسد عليه، فقد كان من نصيبها دور القاعدة الأرضية للولايات المتحدة الأمريكية، يمتد على حدود المعسكر المضاد فهي نوع من «**النطاق الصحي**»). وكانت أمريكا محميّة بكاملها «**بالحدود البحرية**». وبعد أن حصنت قارتها من الناحية الاستراتيجية - حققت - فوق ذلك كله، السيطرة على قسم هائل من الشاطىء الـ rimland الأوراسي. ومن أوروبا الغربية عبر اليونان وتركيا (الدولتين - العضوين في الناتو) امتدت سيطرة الأطلسيين نحو **الشرق الأقصى**


الاتحاد السـوڤياتي

(تايلاند، كوريا الجنوبية، واليابان المستعمرة استراتيجياً) ثم تتحول هذه المنطقة بكل انسيابية إلى محيطين ـ الهندي والهادي ـ القاعدة العسكرية الأهم على جزيرة سان دييغو، في الفيليبين وبعد ذلك في غوام، الكاريبي وهايتي. وعليه فإن جميع النزاعات المحتملة كانت قد نقلت إلى خارج المدى الاستراتيجي الأوراسي.

وإلى جانب ذلك كان الأطلسيون قد أقاموا نظاماً تفاضلياً معقداً للتوزيع الجيوبولتيكي لـ «**نوى**» تركيز القوة. فقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بصورة مباشرة بتأمين القوة العسكرية ـ الاستراتيجية، فالنظم العقلية المالية والانتاجية بالإضافة إلى مراكز تصنيع التقنيات العالية قد تم تركيزها في أوروبا الغربية المتحررة من أعباء الإنفاق للمحافظة على أمنها العسكري الخاص (باستثناء الإنفاق على الشرطة وعلى القوات العسكرية التزيينية فقط)

والخامات الطبيعية تتوارد من المناطق الأقل تطوراً من الناحية الاقتصادية في العالم الثالث، ومن هناك تتوارد إلى حد بعيد القوة العاملة الرخيصة أيضاً.

إن الحفاظ على الوضع القائم الذي تكوّن فوراً بعد الحرب العالمية الثانية كان خندقاً هجومياً فمن شأن مثل هذا الوضع أن يؤدي، وفقاً لنبوءات الجيوبولتيكيين الأطلسيين، إلى إنهاك المعسكر القاري المقضي عليه بالاكتفاء الذاتي والمضطر لأن يقوم بمفرده بتطوير كافة توجهاته الاستراتيجية في وقت واحد.

لم يكن أمام الـ heartland في مثل هذا الوضع إلا خياران: الأول: تحقيق التوسع العسكري نحو **الغرب** بهدف احتلال أوروبا حتى الأطلسي. وبعد هذه الخطوة كان يمكن للاتحاد السوفياتي أن يؤمن لنفسه الحدود البحرية الهادئة والطاقة الصناعية ـ العقلية والتقنية. وفي الوقت نفسه كان ينبغي القيام بخطوات مماثلة في الاتجاه الجنوبي من أجل الخروج أخيراً إلى البحار الجنوبية وخرق «طوق الأناكوندا» للـSea Power. هذا الطريق الصعب الذي كان من شأنه أن يؤدي في حال نجاحه إلى قيام عالم قاري مستقر وإلى إفلاس أمريكا في أقرب مدى بعد أن تفقد الـrimland.

أما الطريق الثاني فكان يتمثل ـ على عكس ذلك ـ في انسحاب الاتحاد السوفياتي وقواته المسلحة **من أوروبا الشرقية** مقابل خروج قوى الناتو **من أوروبا الغربية** وإقامة معسكر أوراسي موحّد صارم الحياد (ربما مع الاحتفاظ بقدرة ذرية

محدودة «رادعة»). وقد تمت مناقشة هذا الخيار بصورة جادة في عهد ديغول.

وكان يمكن تحقيق الأمر نفسه في آسيا. القبول بالامتناع عن السيطرة السياسية المباشرة على بعض جمهوريات آسيا الوسطى والاستعاضة عن ذلك بتشكيل حلف استراتيجي مع أفغانستان وإيران والهند (وربما الصين أيضاً) معاد لأمريكا وذي توجه قاري داخلي.

وأخيراً كان يمكن الجمع بين الخيارين والتوجه بطريق سلمي في الغرب وعن طريق القوة في **الشرق** . (أو بالعكس) كان المهم البدء بهذين النشاطين في آن واحد. ففي هذه الحالة فقط كان يمكن عقد الآمال على تبدلات التوازن العالمي للقوى للتحول من الهزيمة الواضحة **لليابسة** في حرب الخنادق إلى انتصارها. كان من الضروري، وبأي ثمن إنهاء **«الكبح»** فبهذا المصطلح كانوا يسمون تكتيك «الأناكوندا» الجيوبولتيكي خلال مرحلة الحرب الباردة.

ولكن بما أن الاتحاد السوفياتي لم يقرر الإقدام على هذه الخطوة الجيوبولتيكية الراديكالية، فلم يتبق للدول الأطلسية إلا أن تقطف جنى استراتيجيتها الخنادقية الدقيقة الصارمة والمعيّرة جيوبولتيكياً والطويلة الأمد.

وبسبب من التوتر البالغ المتفاقم من كافة الوجوه لم تحتمل الدولة السوفياتية القائمة على الاكتفاء الذاتي فسقطت. أما الاختراق العسكري لأفغانستان والذي لم يترافق بخطوة استراتيجية متوازية في أوروبا الغربية (سلمية أو غير سلمية) فإنه، بدلاً من أن ينقذ الوضع، زاد من تردّيه بصورة نهائية.

2 ـ 3 الإيروكراتيا والأثيروكراتيا:

الجيوبولتيكا الأطلسية التقليدية التي تجعل الـSea Power في مركز تصوّراتها هي «جيوبولتيكا البحر». والاستراتيجية الشاملة القائمة على أساس هذه الجيوبولتيكا أدت بالغرب إلى بناء القوة العالمية. إلا أن تطوير التقنية أدّى إلى غزو المدى الجوي وهو ما جعل التعامل مع **جيوبولتيكا الفضاء** أمراً حيوياً.

وخلافاً لـ «جيوبولتيكا البحر» فإن «جيوبولتيكا الفضاء» المدروسة المكتملة الصياغة غير موجودة. ، فعامل الملاحة الفضائية يضاف إلى اللوحة الجيوبولتيكية العامة. بيد أن عدداً من العلاقات المتبادلة إزاء تفعيل الوسط الفضائي وما يرتبط به

من أنماط التسليح الجديدة ـ الطيران الاستراتيجي، الصواريخ والأسلحة الذرية عابرة القارات ـ قد تبدل بصورة ملموسة.

لقد ساوى غزو الفضاء إلى حد ما بين **اليابسة والبحر**، لأن الفارق بين هذين المجالين ليس كبيراً بالنسبة للطائرات والصورايخ. (كان اختراع حاملات الطائرات ذا أهمية خاصة لأنه قطع القواعد الجوية بصفة نهائية عن **اليابسة** وأنهى ارتباط هذه القواعد بطبيعة سطح الأرض).

وفضلاً عن ذلك بدّل تطور الطيران من نسب البعد الكوني، إذ جعل **الأرض** «أصغر حجماً» إلى حد بعيد والمسافات ـ أقصر. كما أن صناعة الصواريخ وتطور الطيران الاستراتيجي جعلا من العوامل الجيوبولتيكية التقليدية ـ الحدود البحرية والبرية ـ القواعد القارية الداخلية وسواها ـ أمراً نسبياً إلى حد بعيد.

كان نقل الأسلحة إلى المدار الأرضي والغزو الاستراتيجي للفضاء الخارجي المرحلة الأخيرة في «تقليص» الكوكب الأرضي وإضفاء النسبية النهائية على الفروق في المسافات.

وبالإضافة إلى **اليابسة والبحر** على الجيوبولتيكا العملية أن تضع في الحسبان عفويتين تاليتين ـ هما الجو والأثير (المدى الكوني). وعلى المستوى العسكري يقابل هاتين العفويتين السلاح النووي (الجو) وبرنامج «حرب النجوم» (الكون). وبالتشابه مع التيلوروكراتيا (سلطة البر) والتالاسوكراتيا (سلطة **البحر**) يمكن لهذين النظامين الجيوبولتيكيين الأكثر حداثة أن يسميا بالأيروكراتيا (سلطة **الجو**) والأثيروكراتيا (سلطة **الأثير**).

قدم كارل شميدت، رسماً تخطيطياً سريعاً لهذين الميدانين الجديدين. ولعل ملاحظته الأكثر أهمية ومبدئية هي أن «الإيروكراتيا» و«الأثيروكراتيا» تمثلان معاً التطور التالي لـ «نوموس **البحر**» دون سواه. وإنهما الحقبتان المتقدمتان من «التالاسوكراتيا» بالذات، لأن كل العملية التقنية لغزو الفضاءات الجديدة إنما تدفع إلى «تمييع» الوسط. وهو ما يترافق حسب رأي شميدت، مع العمليات الثقافية والحضارية المطابقة ـ مع الإشاحة المتعاظمة عن «نوموس» **البر** ليس فقط بالمعنى الاستراتيجي بل وبالمعاني الأخلاقية، الروحية والاجتماعية السياسية.

وبكلمة أخرى فإن غزو الفضاءات الجوية الكونية هو امتداد للتقاليد

التالاسوكراتية دون سواها، وعلى هذا يمكن النظر إليه على أنه المرحلة الأعلى للاستراتيجية الأطلسية بالذات.

وبصفة تقريبية تبدو مثل هذه المواجهة الذرية بين المعسكرات في الحرب الباردة وكأنها منافسة في الشروط التي تطرحها «**القوة** البحرية» على الـheartland، المضطر لقبول شروط المبارزة الاستراتيجية الوضعية التي يفرضها الطرف الآخر. ومثل هذه العملية من «التمييع» الفعال «للعفويات» والمترافق مع منطق تطور العالم الغربي بالمعنيين التقني والاستراتيجي تتوازى مع الموقف الهجومي للأطلسيين في سياستهم المعتمدة على قطع المناطق الساحلية عن المركز القاري ـ ونحن في الحالتين أمام المبادرة الهجومية لأحد المعسكرين الجيوبولتيكيين وردّة الفعل الدفاعية للطرف الآخر.

وعلى المستوى العقلي يعبِّر عن ذلك بأن الأطلسيين ـ على المستوى النظري ـ يصوغون «الجيوبولتيكا الفعالة» بانكبابهم على هذا العلم علانية وبطريقة منظمة.

الجيوبولتيكا في حالة **الغرب** مادة علمية تملي الخطوط العامة للاستراتيجية الدولية. أما في حالة المعسكر **الشرقي**، ومن حيث أنه لم يجر الاعتراف بها خلال مرحلة طويلة من الزمن، فقد وجدت ولا تزال موجودة في صيغة «**ردّ فعل**» على خطوات عدو مقتدر، وهكذا كانت ولا تزال «**جيوبولتيكا سلبية**» **ترد على تحدي الأطلسية الاستراتيجي وفقاً لمبدأ قوة الاستمرار لا أكثر**.

إذا كان الاتحاد السوفياتي قد تمكن في حالة السلاح الذري والطيران (ضمن مجال الأيروكراتيا) من التوصل عن طريق شحن كافة مصادره الداخلية إلى تكافؤ نسبي، فقد حدث في المرحلة التالية انكسار بنيوي في ميدان الأثيروكراتيا، والمنافسة في ميدان التقنيات المرتبطة بـ «حروب النجوم» أدت إلى الخسارة الجيوبولتيكية النهائية وإلى الهزيمة في الحرب الباردة.

ولفهم حقيقة العمليات الجيوبولتيكية في العالم الذري وضمن شروط غزو الفضاءات المدارية تبدو ملاحظة كارل شميدت القائلة بأن الأيروكراتيا والأثيروكراتيا ليستا نظامين حضاريين مستقلين بل هما تطور لـ «نوموس **البحر**»، ملاحظةً أصيلة.

2 ـ 4 صيغتا الأطلسية الجديدة:

انتصار الأطلسيين على الاتحاد السوفياتي (على الـ heartland) كان يعني الدخول في حقبة جديدة كل الجدة، تطالب بنماذج جيوبولتيكية مبتكرة. فالوضع الجيوبولتيكي لكل ما هو تقليدي من الأراضي والأقاليم والدول والاتحادات تبدَّل تبدلاً حاداً. وقراءة الواقع الكوني بعد انتهاء الحرب الباردة انتهت بعلماء الجيوبولتيكا الأطلسيين إلى رؤيتين مبدئيتين:

إحداهما: يمكن أن توصف بـ «التشاؤمية»: (بالنسبة للأطلسيين) وهي ترث الخط التقليدي للأطلسية والمتعلق بالمواجهة مع الـ heartland، التي تنبىء بتشكل أحلاف أوراسية جديدة قائمة على أساس التقاليد الحضارية والطرز البدئية الأخلاقية الراسخة. وهذه الصيغة يمكن أن تسمّى بـ «الأطلسية الجديدة» وتؤدي في جوهرها، في نهاية المطاف ـ إلى مواصلة النظر إلى اللوحة الجيوبولتيكية للعالم في المنظور التقريبي للثنائية المؤسسة ـ وهو ما يتشابه تقريباً مع بروز مناطق جيوبولتيكية إضافية (غير الأوراسيا) يمكنها في المستقبل أيضاً أن تصبح بؤراً للمواجهة مع الغرب. والمثل الأكثر وضوحاً لمثل هذه النظرة الأطلسية الجديدة هو صموئيل هنتينغتون.

الرؤية الثانية القائمة أيضاً على مثل هذه اللوحة الجيوبولتيكية المؤسسة، على العكس من الأولى، متفائلة (بالنسبة للأطلسيين) بمعنى أنها ترى في الوضع المتكون بنتيجة انتصار الغرب في الحرب الباردة وضعاً نهائياً ولا رجعة فيه. وعلى هذا تقوم نظرية «العولمة» ونظرية **نهاية التاريخ** والـ One World (العالم الواحد)، المؤكدة على أنه سيصار إلى التخلص من كافة أشكال التعددية الجيوبولتيكية ـ الثقافية، القومية، الدينية، الأيديولوجية والحكومية وما إلى ذلك بشكل نهائي وفي عهد قريب وتحل حقبة الحضارة الإنسانية المشتركة الواحدة القائمة على مبادىء الديموقراطية الليبرالية. وسينتهي التاريخ بانتهاء المواجهة الجيوبولتيكية التي منحت التاريخ حافزه الرئيسي منذ البداية. وهذا المشروع الجيوبولتيكي يرتبط باسم عالم الجيوبولتيكا الأمريكي فرانسيس فوكوياما الذي كتب مقالة بعنوان مثير هو «نهاية التاريخ». وعن هذه النظرية العولمية سيجري الحديث في الفصل التالي.

لنناقش المنطلقات الأساسية لنظرية هنتينغتون والتي تعدّ التطوير فوق

المعاصر للجيوبولتيكا الأطلسية التقليدية بالنسبة للغرب. ومن المهم الإشارة إلى أن هنتينغتون يبني مقالته البرنامجية «صدام الحضارات» (Clash of civilisations) ردّاً على أطروحة فوكوياما حول «**نهاية التاريخ**». ومن الأمور المميّزة أن هذا السجال يتطابق على المستوى السياسي مع الحزبين السياسيين القياديين في الولايات المتحدة: فوكوياما يعبر عن الموقف الاستراتيجي العالمي للديموقراطيين بينما يعد هنتينغتون لسان حال الجمهوريين. ويعبر هذا بدرجة كافية عن حقيقة المشروعين الجيوبولتيكيين الأحدث عهداً ـ فالأطلسية الجديدة تسير في الخط المحافظ بينما تفضل «العولمة» رؤية جديدة كل الجدة تخضع فيها كافة الوقائع الجيوبولتيكية لإعادة نظر شاملة.

2 ـ 5 صدام الحضارات: أطلسية هنتينغتون الجديدة:

إن مغزى نظرية صموئيل ب. هنتينغتون، مدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية التابع لجامعة هارفارد والذي عبر عنه في مقالته «صدام الحضارات»[7] (والتي ظهرت تلخيصاً لمشروع جيوبولتيكي كبير بعنوان «التحولات في الأمن الكوني والمصالح القومية الأمريكية») ينتهي إلى ما يلي:

الانتصار الجيوبولتيكي الظاهري للأطلسية على الكوكب الأرضي بأسره ـ فمع انهيار الاتحاد السوفياتي زال آخر حصن للقوى القارية ـ لا يلمس من الناحية الواقعية إلا القشرة السطحية للواقع. إن النجاح الاستراتيجي للناتو والمترافق مع الصياغة الأيديولوجية ـ رفض الأيديولوجية الشيوعية المنافسة ـ لا يمسّ الطبقات الحضارية العميقة. ويرى هنتينغتون، خلافاً لفوكوياما، إن الانتصار الاستراتيجي ليس انتصاراً حضارياً؛ فالأيديولوجيا الغربية ـ الليبرالـ ـ ديموقراطية، السوق وما إلى ذلك ـ أصبحت بلا بدائل ولفترة مؤقتة فقط، وقريباً سترشح لدى الشعوب غير الغربية خصائص حضارية وجيوبولتيكة من مثل «الشخصية الجغرافية» التي تحدث عنها سافيتسكي.

إن رفض أيديولوجية الشيوعية، والانزياحات داخل بنية الدول التقليدية ـ انهيار بعض التشكيلات وظهور أخرى وما إلى ذلك ـ لن يؤدي إلى التراصف الآلي للإنسانية بأسرها على النمط العالمي للقيم الأطلسية بل على العكس من ذلك

سيعيد تفعيل الرقائق الثقافية الأعمق والتي تحررت من القوالب الأيديولوجية السطحية.

ويستشهد هنتينغتون بجورج ويجل فإن «**نزع العلمنة عن العالم هو إحدى الحقائق الخالدة في أواخر القرن العشرين**» وعليه، فبدلاً من الإلقاء بعيداً بالهوية الدينية في **العالم الواحد**، وهو ما يقول به فوكوياما فإن الشعوب، على العكس من ذلك، ستحس بانتماءاتها الدينية بصورة أكثر حيوية.

ويرى هنتينغتون أنه إلى جانب الحضارة الغربية (الأطلسية) التي تشتمل على حضارة أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية يمكننا أن نرى مسبقاً الترسيخ الجيوبولتيكي لحضارات سبع أخرى محتملة وهي:

1 ـ السلافية ـ الأرثوذكسية.

2 ـ الكونفوشيوسية (الصينية).

3 ـ اليابانية.

4 ـ الإسلامية.

5 ـ الهندوسية.

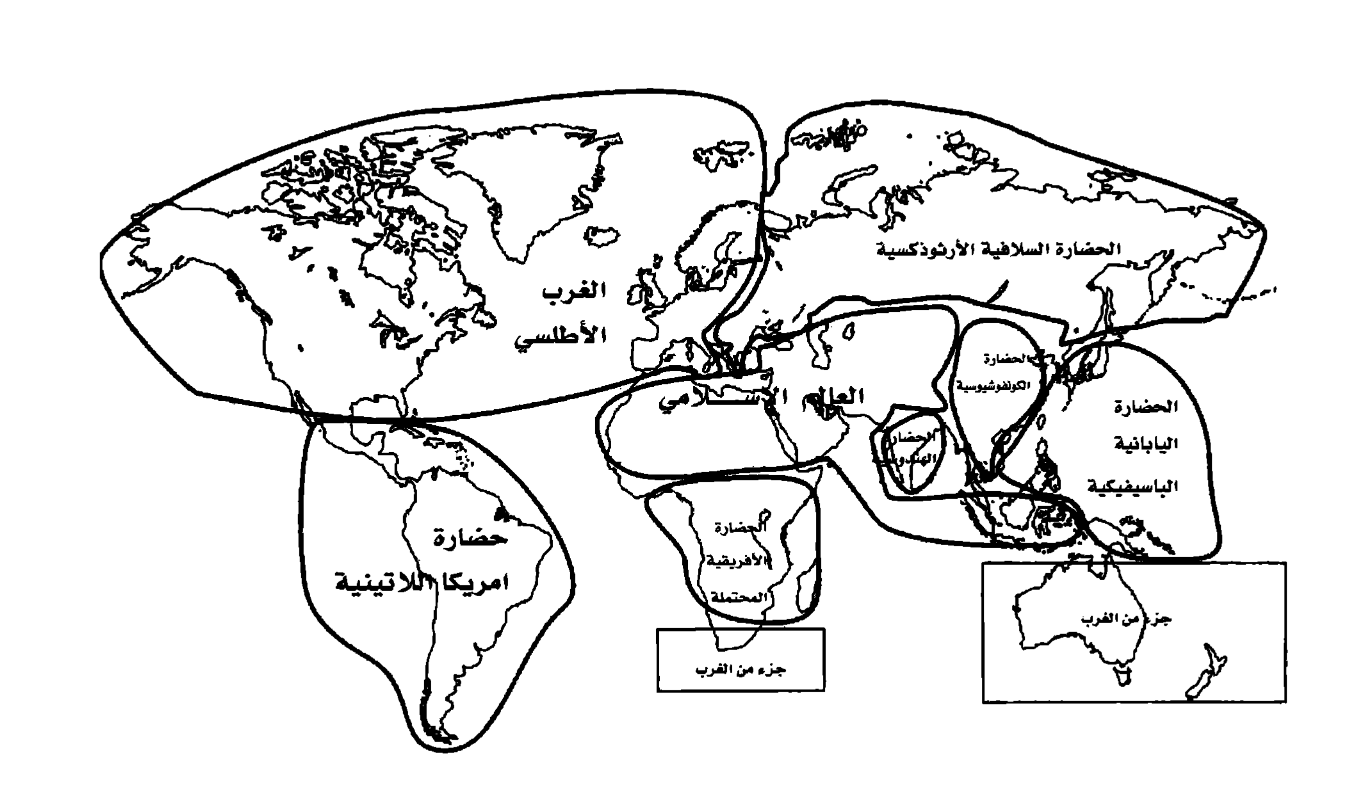
6 ـ حضارة أمريكا اللاتينية.

ومن المحتمل أيضاً؛

7 ـ الأفريقية[8].

ومن الطبيعي أن هذه الحضارات المحتملة ليست متكافئة الطاقة. إلا أنها تتلاقى في كون خط تطورها، وتكوّنها يتخذ مساراً يختلف عن مَحْرك الأطلسية وحضارة الغرب. وهكذا يجد **الغرب** نفسه في وضعية المواجهة من جديد. ويرى هنتينغتون أن ذلك أمر لا مندوحة منه من الناحية العملية، وأنه منذ الآن، وبغض النظر عن الأوساط المعولمة يجب الانطلاق أساساً من المعادلة الواقعية «The West and The Rest»، (**الغرب والآخرون**)[9].

والاستنتاجات الجيوبولتيكية من مثل هذه النظرية جلية للعيان: فهنتينغتون يرى أن على الأطلسيين أن يدعموا بكل السبل المواقع الاستراتيجية لحضارتهم الخاصة بهم، أن يستعدوا للمواجهة وأن ينسقوا قواهم الاستراتيجية وأن يبطلوا


الغرب الأطلسي
الحضارة السلافية الأرثوذكسية
العالم الإسلامي
الحضارة الكونفوشيوسية
الحضارة الهندوسية
الحضارة اليابانية الباسيفيكية
حضارة امريكا اللاتينية
الحضارة الأفريقية المحتملة
جزء من الغرب
جزء من الغرب

الميول المناوئة للأطلسية في التشكيلات الجيوبولتيكة الأخرى، وأن يحولوا دون توحدها في حلف قاري يشكل خطراً على **الغرب**.

وهو يقدم النصائح التالية:

«على الغرب:

- ضمان قيام التعاون الأكثر اتثاقاً وتوحداً في إطار الحضارة الذاتية. وبخاصة بين جزئيها الأوروبي والأمريكي الشمالي؛

- أن تتكامل في الحضارة **الغربية** تلك المجتمعات القائمة في أوروبا الشرقية وفي أمريكا اللاتينية، والتي تتقارب ثقافتها مع الثقافة الغربية؛

- تأمين العلاقات الأكثر اتثاقاً مع اليابان وروسيا؛

- الحيلولة دون تحول النزاعات المحلية بين الحضارات إلى حروب كونية؛

- الحد من التطور العسكري للدول الكونفوشيوسية والإسلامية؛

- وقف انكماش القوة الحربية الغربية وضمان التفوق العسكري في **الشرق الأقصى وفي جنوب غرب آسيا**؛

- استغلال المصاعب والنزاعات في العلاقات المتبادلة بين الدول الإسلامية والكونفوشيوسية؛

- دعم المجموعات الغربية التوجه في القيم والمصالح ضمن الحضارات الأخرى؛

- دعم المؤسسات العالمية التي تعكس المصالح الغربية وتضفي عليها الشرعية وتحقيق اجتذاب الدول غير الغربية إلى هذه المؤسسات»[10].

هي ذي الصيغة الموجزة المكثَّفة لنظرية الأطلسية الجديدة.

يعدّ هذا، من وجهة النظر الجيوبولتيكية المحض، اقتفاء دقيقاً لمبادىء ماهان وسبيكمان؛ ويلاحظ في هذا أن التشديد الذي يفرضه هنتينغتون على الثقافة والفروق الحضارية على أنها العوالم الجيوبولتيكية الأهم إنما يشير إلى انتمائه للمدرسة الجيوبولتيكية الكلاسيكية المتطلعة إلى الفلسفة «العضوية» والتي كان من أولى خصائصها النظر إلى البنى الاجتماعية والدول لا كتكوينات آلية أو أيديولوجية بل كـ «صيغ للحياة».

ويشير هنتينغتون إلى الصين وإلى الدول الإسلامية (إيران، العراق، ليبيا وما إليها) على أنها الأعداء الأكثر احتمالاً **للغرب** . وينعكس في هذا التأثير المباشر لمبادىء ماينغ وكيرك اللذين رأيا أن توجهات دول «المناطق الشاطئية» الـ rimland بالذات ـ أشدُّ أهمية من موقف الـ heartland. ولهذا، وخلافاً للممثلين الآخرين للأطلسية الجديدة ـ ومنهم بول ولڤوڤيتس بصفة خاصة ـ يرى هنتينغتون أن الخطر الأكبر كامن لا في الانبعاث الجيوبولتيكي للروسيا ـ الأوراسيا ـ للـ heartland أو أي تشكل قاري أوراسي جديد.

في تقرير للأمريكي بول ولڤوڤتس (مستشار الأمن القومي) يوجه الحديث لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية في آذار 1992 حول «ضرورة الحيلولة دون ظهور قوة استراتيجية في القارة الأوروبية أو الآسيوية يمكنها أن تقف في وجه الولايات المتحدة»[11]. ويجري التوضيح بعد ذلك بأن القوة الأكثر احتمالاً والتي تؤخذ في الحسبان هي روسيا وأن من الضروري إقامة «نطاق صحي» في وجهها على أساس دول البلطيق. وفي هذه الحالة يقف الاستراتيجي الأمريكي ولڤوڤيتس أقرب إلى ماكيندر منه إلى سبيكمان وهو ما يميّز رُؤاه عن نظرية هنتينغتون.

وفي جميع الحالات وبمعزل عن تعريف العدو المحدَّد المحتمل فإن مواقف جميع الأطلسيين الجدد تبقى واحدة في جوهرها. النصر في الحرب الباردة لم يلغ الخطر على الغرب والذي ينطلق من تشكلات جيوبولتيكية أخرى (حاضرة أو مستقبلية). ولهذا فمن السابق لأوانه الحديث عن «**عالم واحد**»، والثنائية الكونية للتالاسوكراتيا (المعزّزة بالأيروكراتيا والأثيروكراتيا) والتيلوروكراتيا تبقى الصورة الجيوبولتيكية الأهم بالنسبة للقرن الحادي والعشرين أيضاً.

وتغدو المعادلة الجديدة والأكثر تعميماً لمثل هذه الثنائية أطروحة هنتينغتون The West and The Rest.

الفصل الثالث 3

العولمة

3 ـ 1 خلفية العَوْلمة:

ظهرت مقولة «العولمة» قبل فترة طويلة من الانتصار النهائي **للغرب** في الحرب الباردة.

ويؤدي مفهوم العولمة إلى تسويد المسلّمة القائلة بحتمية التكامل الكوني التام، والانتقال من تعدّدية الدول والشعوب والقوميات والثقافات إلى وحدة العالم One World.

ويمكننا أن نتلمس منابع هذه الفكرة في بعض الحركات الطوباوية والألف سنويّة، العائدة إلى **القرون الوسطى** ثم إلى عهود موغلة في القدم. ويثوي في أساسها التصور القائل بأنه في لحظة من لحظات الذروة في التاريخ يجري تجميع كافة شعوب الأرض في **مملكة** واحدة لا تعرف بعد ذلك التناقضات ولا المآسي ولا النزاعات أو المشاكل المميّزة: للتاريخ الاعتيادي للأرض. وإلى جانب الصيغة الغيبية للطوباوية العولمية فقد وجدت أيضاً صيغها العقلانية والتي يمكن أن نعد من بينها تعاليم **الحقبة الثالثة** لفيلسوف الوضعية أوغست كونت أو غيبيات ليسنغ الإنسانية القائمة على الإيمان بالآخرة.

كانت الأفكار العولمية مميّزة بالنسبة للاشتراكيين الأوروبيين في الغالب وبخاصة الإنجليز منهم (وقد اتحد بعضهم في الجمعية الفابيانية(*). كما تحدث

(*) الفابيانية ـ جمعية المثقفين البورجوازيين الإنجليز. تأسست سنة 1884؛ تدعو إلى =

الشيوعيون أيضاً عن **الدولة العالمية** الموحدة. ومن جهة أخرى أقيمت منظمات عالمية مشابهة أخرى منذ نهاية القرن التاسع عشر من قبل شخصيات مرموقة في عالم الأعمال. كالسير سيسيل رودس(*) الذي نظم جماعة **الطاولة المستديرة** وكان على أعضائها «تشجيع إقامة نظام للتجارة المتحررة من المعوقات على صعيد العالم كله وإقامة **الدولة العالمية** الموحدة. وكثيراً ما كانت الأنغام الاشتراكية تتقاطع مع أنغام الليبيرالية الرأسمالية وكان الشيوعيون يتجاورون في هذه المنظمات مع ممثلي الرأسمال المالي الأعظم. يوحّد بين الجميع الإيمان بالفكرة الطوباوية القائلة بتوحيد الكوكب الأرضي.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أمثال هذه المنظمات كعصبة الأمم **فهيئة الأمم المتحدة** بعد ذلك ثم **اليونيسكو** كانت امتداداً لأمثال هذه الأوساط العالمية التي كان لها تأثيرها على السياسة العالمية.

وعلى مدار القرن العشرين قامت هذه المنظمات العالمية، التي تبتعد عن الدعاية الزائدة، وكثيراً ما اتسمت بطابع سري، بتبديل أسمائها مرات عديدة، فوجدت «الحركة الشاملة من أجل **الكونفيدرالية العالمية**» لهاري ديڤيس، و«الاتحاد الفيدرالي» بل و«**الحملة الصليبية** في سبيل **الدولة العالمية**» (وقد نظمها العضو البرلماني الإنجليزي هنري أسبورن عام 1946.

ومع تزايد تركيز مجموع سلطة الغرب الاستراتيجية والدينية في الولايات المتحدة، صارت هذه الدولة بالذات هيئة الأركان الرئيسية للعولمة التي أنشأ لها ممثلوها نظاماً موالياً للسلطة يتكون من المستشارين والمحللين ومن مراكز الدراسات الاستراتيجية.

وهكذا شُكلت ثلاث منظمات عالمية أساسية لم تعلم بها الأوساط

= الأفكار الاصلاحية عن طريق التحول التدريجي للمجتمع الرأسمالي إلى اشتراكي بتطبيق الإصلاحات. حملت اسم القائد العسكري الروماني فابيوس ماكسيموس (المترجم).

(*) سيسيل رودْس 1853 ـ 1902 أحد كبار الناشطين في سبيل استيلاء الاستعماريين الإنجليز على أجزاء كبيرة من أفريقيا الجنوبية والوسطى. وباسمه سميت روديسيا. كان بين 1890 ـ 1896 رئيس وزراء الكاب، وهو أحد منظمي حرب الإنجليز ضد البوير بين 1899 ـ 1902 (المترجم).

الاجتماعية في **الغرب** إلا منذ فترة غير بعيدة نسبياً. وخلافاً للبنى الرسمية كانت هذه المجموعات تتمتع بحرية كبيرة نسبياً في التخطيط والبحوث إذ إنها كانت معفاة من الإجراءات المحدَّدة والشكلية التي ترافق نشاطات منظمة الأمم المتحدة، وما إليها.

أولى هذه المجموعات «**مجلس العلاقات الدولية**» Council on foreign relations اختصاراً (C.F.R). ومؤسسه المصرفي الأمريكي الأكبر مورغان. وقد عملت هذه المؤسسة غير الرسمية على صياغة الاستراتيجية الأمريكية على الصعيد العالمي، ومما يُذكر أن هدفها النهائي عُدَّ توحيد الكرة الأرضية الكامل وإقامة الحكومة العالمية. وقد ظهرت هذه المنظمة منذ سنة 1921 كفرع لـ «صندوق كارنيجي للسلام العالمي»، وجميع السياسيين الكبار المشاركون فيها كانوا يساهمون في النظرات العالمية لمستقبل الأرض. وبما أن معظم أعضاء الـ .C.F.R كانوا في الوقت نفسه من المبجلين الرفيعي المستوى في الماسونية السكوتلندية فيمكن الافتراض بأن مشاريعهم الجيوبولتيكية كانت تتسم بقدر من البعد الإنساني ـ الغيبي.

وفي سنة 1954 أنشئت المنظومة العولمية الثانية ـ **نادي بيلديربيرغ** أو **جماعة بيلديربيرغ** وما كانت تضم المحللين والسياسيين والماليين والمثقفين الأمريكيين فحسب بل وزملاءهم الأوروبيين أيضاً. ومن الجانب الأمريكي كانت ممثلة بأعضاء الـ .C.F.R بصفة خاصة فكان ينظر إليها على أنها امتداد لها على الصعيد الدولي.

في سنة 1973 أنشأ ناشطو جماعة بيلديربيرغ المنظومة الدولية الثالثة الأهم ـ وهي اللجنة الثلاثية أو «التريلاتيرال» (Trilateral) ويترأسها أمريكيون داخلون في ملاك الـ .C.F.R وفي جماعة بيلديربيرغ ولها، بالإضافة إلى الولايات المتّحدة حيث يقوم مكتبها الرئيسي (العنوان ـ 345 East 46 th Street, New York)، مكتبان رئيسيان آخران ـ في أوروبا واليابان.

سميت اللجنة «الثلاثية» باسم الأسس الجيوبولتيكية المؤسِّسة، ونيط بها أن توحد تحت صولجان الأطلسية والولايات المتحدة «المجالات الكبرى» «**الثلاث**» الرائدة في تطورها التقني وفي اقتصادها السوقي.

1 ـ المجال الأمريكي، ويضم الأمريكتين الشمالية والجنوبية.

2 ـ المجال الأوروبي.

3 ـ مجال المحيط الهادي، الذي تسيطر عليه اليابان.

وعلى رأس المجموعتين الأعظم ـ بيلديربيرغ والثلاثية ـ يقف العضو الرفيع المقام في .C.F.R المصرفي الأكبر ديڤيد روكفيلر، صاحب «تشيز مانهاتن بانك».

وبالإضافة إليه يقف في مركز جميع المشاريع العالمية الأطلسيان الراسخان، الجيوبولتيكيان استراتيجيّا الأطلسية زبيغنيف بريجينسكي وهنري كيسنجر، وهناك أيضاً جورج بول الذائع الصيت.

إن الخط الأساسي لكافة المخططات العولمية يتمثل في الانتقال إلى النظام العولمي الواحد تحت السيطرة الاستراتيجية الغربية والقيم «التقدمية» «الإنسانية» و«الديموقراطية». وصيغت من أجل تحقيق ذلك نظم موازية تتكون من السياسيين، الصحفيين والمثقفين والماليين والمحللين وما إلى ذلك، والذي كان عليهم أن يمهّدوا التربة قبل أن يتم الإعلان بصورة واسعة عن هذا النظام العالمي للحكومة العالمية، إن يمكنه بدون هذا الإعداد أن يصطدم بمقاومة نفسية قوية من طرف الشعوب والدول التي لا ترغب في تذويب خصوصيتها في الـ melting pot(*)، العالمية.

ولم يكن المشروع العولمي الذي صاغته وهيأته هذه المنظمات متجانساً. فقد وجدت له صيغتان أساسيتان اختلفتا في المناهج، وكان عليهما أن تفضيا من الناحية النظرية إلى الهدف نفسه.

3 ـ 2 نظرية التقارب:

الصيغة الأولى للعولمة والأكثر مسالمة و«توفيقية» تعرف باسم «نظرية التقارب» وقد أخرجتها في السبعينيات وفي صلب الـ C.F.R مجموعة المحللين «اليساريين» بقيادة زبيغنيف بجيزينسكي، وكانت هذه النظرية تفترض إمكانية التخلص من الثنائية الأيديولوجية والجيوبولتيكية للحرب الباردة عبر إنشاء نمط ثقافي ـ أيديولوجي جديد للحضارة يمكن أن يكون بين الاشتراكية والرأسمالية بين الأطلسية المحضة والقارية المحضة.

(*) Melting pot (بالإنكليزية) البوتقة ـ و(المترجم).

كان يُنظر إلى ماركسية السوفيات على أنها عقبة يمكن التخلص منها بالانتقال إلى صيغتها المعتدلة، الاشتراكية ـ الديموقراطية المحرَّفة ـ عبر الكف عن أطروحات «ديكتاتورية البروليتاريا»، «النضال الطبقي» «تأميم وسائل الإنتاج» و«إلغاء الملكية الخاصة». وكان على **الغرب** الرأسمالي أن يكبح بدوره من حرية السوق وأن يدخل بصفة جزئية التنظيم الحكومي للاقتصاد وما إلى ذلك، أما وحدة التوجه الثقافي فكان يمكن أن توجد في تقاليد **التنوير** والإنسانية التي تنسب إليها النظم الديموقراطية الغربية والأخلاقية الاجتماعية للشيوعية (في الاشتراكية ـ الديموقراطية المبسَّطة).

والحكومة العالمية التي كان يمكن أن تظهر على أساس «نظرية التقارب» تمَّ تخيلها من خلال تمكين موسكو الوصول حتى حدود الإدارة الأطلسية للكرة الأرضية بمشاركة واشنطن. وفي هذه الحالة كانت تبدأ مرحلة السلم العام، وكان يمكن أن تنتهي الحرب الباردة، وكان يمكن للشعوب أن تلقي بعيداً بأعباء التوتر الجيوبولتيكي.

ومن المهم هنا أن نجري موازاة مع انتقال النظم التقنية من «التالاسوكراتيا» إلى «الأثيروكراتيا»: فسياسيو العولمة بدأوا ينظرون إلى الكرة الأرضية لا بعيون سكان القارة الغربية المحاطة بالبحر (كالأطلسيين التقليديين) بل بعيون رجال فضاء فوق مدار كوني، وفي هذه الحالة كان يظهر أمامهم حقيقة One World عالم واحد.

وكان للمراكز العولمية مراسلوهم في موسكو. وكان من الشخصيات المؤسسة هنا الأكايمي غويشياني ـ مدير معهد الدراسات المنهجية والذي كان نوعاً من فروع «**التريلاتيرال**» في الاتحاد السوفياتي، إلا أن نشاطهم حقق نجاحاً أكبر بين الأحزاب اليسارية المتطرفة في أوروبا الغربية، تلك الأحزاب التي وقفت في غالبيتها على طريق «الشيوعية» الأوروبية، وهو ما عدَّ القاعدة الذهنية الأساسية للتقارب الكوني.

3 ـ 3 الانتصار العالمي للغرب:

كانت نظرية التقارب الأساس الأيديولوجي الذي اعتمده ميخائيل غورباتشوف ومستشاروه ممن قاموا بالبيريسترويكا. وإلى جانب هذا فقبل عدة سنوات من بداية

البيريسترويكا السوفياتية كان ثمة مشروع مشابه قد بدأ تطبيقه في الصين التي أقام ممثلو «اللجنة **الثلاثية**» معها علاقات وثيقة منذ نهايات السبعينيات. إلا أن المصائر الجيوبولتيكية «للبيريسترويكتين» الصينية والسوفياتية كانت متباينة. فالصين كانت تصرّ على التوزيع «العادل» للأدوار وعلى تحركات مقابلة في أيديولوجيا الغرب باتجاه الاشتراكية، بينما قطع الاتحاد السوفياتي مسافة أطول في طريق التنازلات.

وبالسير على هذي منطق العولميين الأمريكان بدأ غورباتشوف إعادة الصياغة البنيوية للمجال السوفياتي في اتجاه «الدمقْرطة» و«اللّبْرلة»(*)، ولمس ذلك بالدرجة الأولى دول حلف وارسو ثم جمهوريات الاتحاد السوفياتي بعد ذلك. وشُرع من بعده بتقليص الأسلحة الاستراتيجية فالتقارب الأيديولوجي مع **الغرب** إلا أن من الضروري لفت الأنظار في هذه الحالة إلى حقيقة أن سنوات حكم غورباتشوف تتفق ومرحلة رئاسة أشد المتطرفين الجمهوريين في الولايات المتحدة. وهما ريغان وبوش. يضاف إلى هذا أن ريغان كان الرئيس الوحيد الذي رفض في السنوات الأخيرة المشاركة في أيّ من المؤسسات العولمية. ومن حيث القناعات كان ريغان الأطلسي الصارم المقتنع والذي لا يقبل بأنصاف الحلول، الليبرالي - رجل السوق والمجرد من أدنى ميل للتنازل أمام الأيديولوجيات اليسارية. حتى الأشد اعتدالاً فيها بين التوجهات الديموقراطية والاشتراكية - الديموقراطية. وعليه فإن خطوات موسكو الهادفة إلى التقارب أو إلى إقامة الحكومة العالمية التي يكون فيها وزن معتبر للحلف الشرقي كانت تقابل في القطب الآخر بأشد العقبات الأيديولوجية المضادة. وقد استخدم الأطلسي ريغان (ثم بوش) بكل بساطة قرارات غورباتشوف العولمية في أهداف مغرقة في نفعيتها والتنازلات الطوعية من طرف الـ **heartland** لم تقابل بتنازلات مطابقة من طرف الـ Sea Power ولم يقم الغرب بأية خطوات تنازل جيوبولتيكية أو أيديولوجية مع الأوراسية التي تصفي نفسها. فلا الناتو انحل ولا قواته غادرت أوروبا ولا آسيا، بينما ضاعفت الأيديولوجيا الليبيرالية - الديموقراطية من تعزيز مواقعها.

تصرفت العولمة في هذه الحالة لا كنظرية جيوبولتيكية مستقلة ثم تحقيقها في الميدان التطبيقي بل كأداة نفعية جرى استخدامها في «الحرب الباردة» التي لم

(*) من كلمتي «الديموقراطية» و «الليبرالية» (المترجم).

تتنازل الولايات المتحدة عن منطقها المؤسس على نظريات ماكيندر وماهان.

3 ـ 4 «نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما:

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتصار **الغرب** والأطلسية، كان على المخططات العولمية إما أن تضمحل أو أن تبدل منطقها.

أما الصيغة الجديدة للعولمة فصارت بعد الحقبة السوفياتية نظرية فرانسيس فوكوياما الذي نشر في بداية التسعينيات مقالته التوجيهية «نهاية التاريخ»، والتي يمكن النظر إليها كأساس فكري للعولمة الجديدة.

يقترح فوكوياما الصيغة الجديدة للعملية التاريخية. فبداية من العهد المظلم لـ «قانون القوة» «الظلام» و«الإدارة غير العقلانية للواقع الاجتماعي» تتجه الإنسانية نحو البناء العقلاني المنطقي الذي تجسد في الرأسمالية، الحضارة الغربية المعاصرة، اقتصاد السوق والأيديولوجية الليبرالية ـ الديموقراطية، والتاريخ وتطوره ما استمرا إلا على حساب العوامل غير العقلانية، التي أخذت تتخلى شيئاً فشيئاً عن مواقعها لقوانين العقل، المعادل النقدي العام لجميع القيم وما إلى ذلك. فسقوط الاتحاد السوفياتي إيذان بسقوط آخر معاقل «اللاعقلانية»، وبهذا ترتبط نهاية التاريخ وبداية الوجود الكوني الخاص الذي سيسير تحت شعار السوق والديموقراطية اللذين سيوحدها العالم في آلية عقلانية وظيفية منسقة.

هذا النظام الجديد، وعلى الرغم من أنه يبنى على شمولية نظام أطلسي بحت، سيخرج عن أطر الأطلسية، وتبدأ جميع مناطق العالم بإعادة تنظيم نفسها وفقاً للأنموذج الجديد، وحول مراكزه الأكثر تطوراً من الناحية الاقتصادية.

3 ـ 5 «جيوايكونوميكا» جاك أتالي:

ثمة شبيه لنظرية فوكوياما لدى المؤلفين الأوروبيين أيضاً. فجاك أتالي الذي عمل سنوات طويلة مستشاراً للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران مثلما كان لفترة ما مدير المصرف الأوروبي لإعادة التصميم والتطور صاغ نظرية مشابهة في كتابه «خطوط الأفق».

يرى أتّالي أن اللحظة الحاضرة تشهد حلول عصر ثالث هو «عصر النقود»

التي تعد المكافىء العالمي للقيمة، فمن خلال معادلة جميع الأشياء، بتعبيرها الرقمي المادي يمكن التصرف بها بدرجة لا نهاية لها من البساطة وبالطريقة الأكثر عقلانية. ومثل هذه النظرة يربطها أتّالي بحلول العهد التبشيري المفهوم في السياق اليهودي ـ القبالي، ويطور هذه الناحية بصورة أكثر تفصيلاً في كتابه الآخر المكرس للتبشرية بصفة خاصة ـ وعنوانه «إنه قادم» وهو ما يميّز أتّالي عن فوكوياما الذي يبقى ضمن إطار النفعية والتطبيقية.

ويقترح جاك أتّالي تصوره الخاص للمستقبل الذي «قد حلّ». فهيمنة الأيديولوجية الليبيرالية ـ الديموقراطية ونظام السوق مضافتين إلى تطور تقنيات الدعاية على العالم بأسره تؤدي إلى جعل العالم واحداً، متجانساً. والوقائع الجيوبولتيكية التي ظلت مسيطرة على مدى التاريخ بطوله تتراجع في «العهد الثالث» إلى المرتبة الأخيرة وتبطل الثنائية الجيوبولتيكية.

إلا أن العالم الموحَّد يكتسب مع كل ذلك بنيوية جيوبولتيكة جديدة. تقوم هذه المرة على مبادىء «**الجيويكونوميكا**». وكان المؤرخ فريتس ريريغ قد اقترح لأول مرة تطوير نظم «الجيوايكونوميكا» وقام فيرنان بروديل(*) بتبسيطها.

«الجيوايكونوميكا»، صيغة جديدة من جيوبولتيكا العولمة، تعطي الأولوية لا للعوامل الأيديولوجية ـ الأتنية ـ الدينية وما سواها من العوامل التي تمثل جوهر النظرة الجيوبولتيكية بل للواقع الاقتصادي المحض في علاقته بالمكان. فبالنسبة «للجيوايكونوميكا» ليس ثمة أي أهمية لنوعية الشعب الذي يعيش في مكان ما ـ ولا لتاريخه الخاص ولا لتقاليده الثقافية وما إلى ذلك. كل الخطوط توجه نحو توضع مراكز البورصات العالمية والخامات الطبيعية والمراكز الإعلامية والصناعات الكبرى. وتتصرف «الجيوايكونوميكا» نحو الواقع السياسي وكأن الحكومة العالمية والدولة العالمية الواحدة قد قامتا حقاً.

ونظرة أتّالي الجيواقتصادية تؤدي إلى اختيار المناطق الثلاث التي ستغدو **في العالم الواحد** مراكز المجالات الاقتصادية الجديدة.

(*) بروديل، فرنان (1902 ـ 1985) مؤرخ فرنسي، كُرّست أعماله في معظمها للتاريخ الاقتصادي لأوروبا الغربية في القرون السادس عشر ـ الثامن عشر. (المترجم).

1) المجال الأمريكي والذي يوحد بصفة نهائية بين الأمريكيتين في منطقة مالية ـ صناعية واحدة.

2) المجال الأوروبي الذي ظهر بعد توحيد أوروبا الاقتصادي.

3) منطقة المحيط الهادي، منطقة «الازدهار الجديد» ولها عدة مراكز تتنافس فيما بينهما ـ طوكيو ـ تايوان ـ سنغافورة وما إليها[12].

ويرى أتّالي أنه لن تكون بين هذه المجالات العالمية الثلاثة أية اختلافات أو تناقضات ملموسة، لأن النمط الاقتصادي والأيديولوجي سيكون في جميع الحالات متماثلاً. وسيكون الفارق الوحيد في التوضع الجغرافي للمراكز الأكثر تطوراً، والتي تقيم حولها، بحيث يكون المركز في الوسط، المناطق الأقل تطوراً والمتوزعة على مسافات متقاربة مكانياً. إن إعادة التوزع هذه على أساس وحدة المراكز لا يمكن أن يتحقق إلا في «**نهاية التاريخ**» أو بمصطلحات أخرى، عند إلغاء الوقائع التقليدية التي فرضتها الجيوبولتيكا.

وتنتفي الثنائية الحضارية ـ الجيوبولتيكية، كما يؤدي اختفاء القطب المعارض للأطلسية إلى إعادة النظر الجذرية في تفسير معنى المكان. ويحل عهد الجيوايكونوميكا.

في أنموذج أتّالي لقيت انعكاسها النهائي تلك الأفكار التي كانت مركوزة في أساس «**اللجنة الثلاثية**» التي تعد الأداة الذهنية ـ السياسية التي تقوم بصياغة أمثال هذه المشاريع وتحققها.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن قادة «**التريلاتيرال**» (ديڤيد روكفلر، جورج بيرتوين، الذي كان رئيس القسم الأوروبي آنذاك ـ وهنري كيسنجر) قاموا في كانون الثاني 1989 بزيارة إلى موسكو حيث استقبلهم الِكسانْدر ياكوفليف غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي، كما حضر اللقاء غيره من كبار شخصيات القيادة السوڤيات ـ ميدڤيديف، ڤالين، أخروميف، دوبرينين، تشيرنيايف، أرباتوف وبريماكوف. أما جاك أتّالي فقد أقام علاقات شخصية مع الرئيس الروسي بوريس يلتسين.

وثمة أمر واحد لا يعتريه الشك وهو أن الانتقال إلى المنطق الجيواقتصادي

وإلى العولمية الجديدة لم يتحقق إلا بعد التصفية الجيوبولتيكية الذاتية للاتحاد السوفياتي الأوراسي.

والعولمة الجديدة ليست الامتداد المباشر للعولمة التاريخية ـ التي افترضها منذ البداية حضور العناصر الاشتراكية اليسارية في أنموذجها النهائي. إنها الصيغة البينيّة بين العولمة والأطلسية.

3 ـ 6 العولمة ما بعد الكارثية للبروفيسور سانتورو:

هناك صيغ أكثر تفصيلية للعولمة، وإحدى صورها الأكثر ألقاً هي الصيغة الجيوبولتيكية المستقبلية التي قدمها معهد الدراسات السياسية العالمية في ميلانو **(ISPI)** برئاسة البروفيسور كارلو سانتورو.

في وقتنا الحاضر تدخل الإنسانية، وفقاً لأنموذج سانتورو مرحلة انتقالية من العالم الثنائي القطبين إلى الصيغة العالمية من تعدد الأقطاب (والتي جرى فهمها بطريقة جيواقتصادية من طرف أتّالي). والمؤسسات العالمية (الأمم المتحدة وسواها) والتي كانت بالنسبة للعولمي المتفائل فوكوياما قد بلغت درجة كافية من التطور تؤهلها لتكون نواة «**الحكومة العالمية**»، تبدو بالنسبة لسانتورو، على العكس من ذلك، عاجزة، وتعكس المنطق الهرم للجيوبولتيكا الثنائية القطبين. وفضلاً عن ذلك فإن العالم كله يحمل الطابع الثابت «للحرب الباردة» والتي يبقى منطقها الجيوبولتيكي مسيطراً. ويتنبأ سانتورو بأن مثل هذا الوضع لا يمكن إلا أن ينتهي بمرحلة **الكوارث الحضارية**.

ثم يقدم بعد ذلك السيناريو المقترح لهذه الكوارث:

1) الضمور المقبل لدور المؤسسات العالمية.

2) تفاقم الميول القومية ضمن الدول الداخلة في حلف وارسو وفي العالم الثالث، وهو ما سيؤدي إلى عمليات فوضى.

3) لا تكامل الأحلاف التقليدية (وهذا ما لا يمس أوروبا) والتساقط المتتالي للدول القائمة حالياً.

4) بداية حروب من المستوى الصغير والمتوسط تؤدي إلى تشكلات جيوبولتيكية جديدة.

5) خطر الفوضى العالمية سيضطر الأحلاف المختلفة للاعتراف بضرورة إقامة مؤسسات عالمية جديدة ذات صلاحيات هائلة وهو ما يعني من الناحية العملية إقامة **الحكومة العالمية**.

6) الإقامة النهائية للدولة العالمية تحت راية مرجعيات دولية جديدة (**الحكومة العالمية**)[13].

وسيكون هذا الأنموذج وسطاً بين تفاؤلية فرانسيس فوكوياما العولمية وتشاؤمية صموئيل هنتينغتون الأطلسية.

الجيوبولتيكا التطبيقية

4 ـ 1 «الجيوبولتيكا الداخلية» ـ مدرسة إيف لاكوست:

ترتبط اليقظة الجيوبولتيكية في أوروبا بنشاط العالم الجغرافي إيف لاكوست الذي أنشأ عام 1976 مجلة «هيرودوت» حيث صارت النصوص الجيوبولتيكية تصدر لأول مرة وبصورة دائمة في أوروبا ما بعد الحرب. وينبغي أن نشير بشكل خاص إلى أن رجلاً قريباً من الأوساط السياسية اليسارية كان يقف على رأس هذا العمل بينما لم تكن تهتم بالجيوبولتيكا في أوروبا تلك الفترة إلا الأوساط القومية اليمينية الهامشية إلى حد كبير.

وفي سنة 1983 تُدخل مجلة «هيرودوت» في تسميتها عنواناً ثانوياً هو «مجلة الجغرافية والجيوبولتيكا»، فتبدأ منذ ذلك التاريخ الحياة الثانية للجيوبولتيكا والتي يتم الاعتراف بها رسمياً كمنظومة علمية سياسية خاصة تساعد على التحليل المتضافر الجوانب للأوضاع.

حاول إيف لاكوست أن يكيف المبادىء الجيوبولتيكية مع الوضع المعاصر. أما لاكوست نفسه فما كان يتفق مع «المقاربة العضوانية» الخاصة بالمدرسة القارية ولا مع الآراء الجيوبولتيكية النفعية الآلية والمتعلقة بتطبيقية منظري الـ Sea Power وجميع التصورات الجيوبولتيكية ما كانت من وجهة نظره تعمل إلا «**لتحديد الطموحات التنافسية للهيئات السلطوية والمتعلقة بمناطق محدَّدة وبالبشر الذين يقطنونها**»[14]. ويتعلق هذا بالعلاقات الدولية مثلما يتعلق بالقضايا المحلية الضيقة الأبعاد.

فالجيوبولتيكا تصبح لدى لاكوست مجرد أداة لتحليل حالة محدَّدة، وجميع النظريات الشمولية التي تتكون هذه المنظومة على أساسها تسفّ إلى مستوى المفاهيم النسبية والمشروطة تاريخياً.

وعلى هذا يقترح لاكوست تعريفاً محدداً بصفة كلية للجيوبولتيكا، بل، من الناحية الواقعية علماً جديداً. إنه لا يعود بعد ذلك تفكيراً قارياً يقوم على الثنائية الحضارية ـ الجغرافية الكونية الراسخة والمقترنة بالنظم الأيديولوجية الشمولية بل يغدو استخداماً لبعض الأنماط المنهجية التي كانت قائمة لدى علماء الجيوبولتيكا التقليديين في سياقها العام ولكن تؤخذ في هذه الحالة كشيء مستقل ذاته. إنه «لاعولمة» **الجيوبولتيكا**، الوصول إلى مستوى المنهج التحليلي الضيق.

وسميّت هذه الجيوبولتيكا بـ «الجيوبولتيكا الداخلية» (la geopolitique interne)، لأنها بكل ما فيها تتناول القضايا المحلية.

4 ـ 2 الجيوبولتيكا الإلكترونية:

ومن صور هذه الجيوبولتيكا الداخلية تلك المنهجية الخاصة التي صيغت لدراسة العلاقة بين الميول السياسية للسكان والأرض التي يعيشون فوقها. وكان المبشر بهذه النظرية الفرنسي أندريه زيغفريد (1875 ـ 1959) السياسي والجغرافي. وإليه تعود المحاولات الأولى لدراسة «الجيوبولتيكا الداخلية» في تطبيقها على الميول السياسية لهذه الأصقاع أو تلك. وإليه تعود الصياغات الأولى للقوانين المكنونة في صلب «الجيوبولتيكا الإلكترونية» لمدرسة إيف لاكوست الجديدة.

كتب زيغفريد:

«لكل حزب، وبكلمة أدق، لكل اتجاه سياسي أرضه المفضّلة؛ ومن اليسير أن نلاحظ أنه مثلما توجد المناطق الجيوبولتيكية أو الاقتصادية توجد هناك أيضاً مناطق سياسية. ويمكن للمناخ السياسي أن يخضع للدراسة كالمناخ الطبيعي. وقد لاحظتُ أنه على الرغم من الظاهرية الخداعة فإن الرأي العام يحافظ على استمرارية معينة طبقاً للمناطق. وتحت اللوحة الدائمة التحول للانتخابات السياسية يمكننا متابعة التوجهات الأكثر عمقاً وديمومة، والتي تعبر عن الحرارة الجهوية»[15].

وفي مدرسة لاكوست لقيت هذه المدرسة تطويراً منهجياً وصارت أداةً سوسيولوجية مألوفة يجري استخدامها على نطاق واسع في التطبيقات السياسية.

4 ـ 3 الميدياكراتيا عاملاً «جيوبولتيكياً»:

حدد إيف لاكوست مهمته في أن يعزز الجيوبولتيكا بالمعايير الأكثر جدة والخاصة بمجتمع المعلومات. أما الأهمية الأعظم بين النظم المعلوماتية التي تترك أثرها على العمليات الجيوبولتيكية فتملكها وسائل الإعلام الجماهيرية، والتلفزيون من بينها بشكل خاص. وفي العالم المعاصر تسيطر لا الطريقة البنيوية ـ العقلانية بل ألق«الشخصية» («الإيميج»). فالنظرات السياسية والأيديولوجية والجيوبولتيكية تصاغ لدى جزء كبير من المجتمع، وبطريقة استثنائية، على أساس برامج البث التلفزيوني و«الصورة الشخصية» الوسطية تمثل التركيب الذري الذي تتركز فيه دفعةً واحدة عدة رؤى ـ الإتنية، الثقافية، الأيديولوجية والسياسية، والنوعية التركيبية «للإيميج» تقربه من تلك الخصائص التي تعتمدها الجيوبولتيكا بطريقة تقليدية.

وعلى الريبورتاج الإعلامي، المبثوث من نقطة حارة، مجهولة تماماً بالنسبة لساكن الكابيتول مثلاً، أن يقدم في فترة بالغة القصر الصورة الجغرافية التاريخية والدينية والاقتصادية ـ الثقافية والاتنية للمنطقة، كما «عليه أن يوزع نقاط تركيزه وفقاً للهدف السياسي المعطى بشكل محدّد وبناء على هذا تقترب وظيفة الصحفي (وبخاصة الصحفي التلفزيوني) من وظيفة الجيوبولتيكي. فوسائل الإعلام لا تلعب في المجتمع المعاصر ذلك الدور المساعد الذي كان لها في السابق، بل تغدو العامل الجيوبولتيكي المستقل الأوفر قوة والقادر على ترك تأثير قوي على المصائر التاريخية للشعوب.

4 ـ 4 تاريخ الجيوبولتيكا:

هناك أيضاً اتجاه آخر ضمن العملية العامة لانبعاث «الجيوبولتيكا الأوروبية» وهو تاريخ الجيوبولتيكا. ولا يتمثل معناها بكل ما لكلمة جيوبولتيكا من معنى لأنه يحدد مهمته في إعادة تركيب هذه المادة العلمية، العمل على المصادر، الترتيب الزمني. والتصنيف والمعطيات البيبلوغرافية وما إلى ذلك. وهو بصورة ما «تناول

متحفي»، لا يطمح إلى تقديم أية استنتاجات أو تقييمات تتعلق بالحالة الملحّة، وهذا الخط التاريخي تمثله بالدرجة الأولى أعمال بيير ـ ماري غولْوا ومؤلفين آخرين من أمثال إيرڤي كوتو ـ بيغاري، جيرار شاليان، هانس ـ أدولف ياكوبسين وأمثالهم.

وفي إطار هذه المبادرة تنشر وتعاد طباعة نصوص الجيوبولتيكيين التاريخيين، ماكيندر، ماهان، تشيلّين، هاوسهوفر وسواهم.

وأمثال هذه الدراسات التاريخية كثيراً ما تنشر في مجلة «هيرودوت» الفرنسية وفي المجلة الجيوبولتيكية الإيطالية الجديدة «Limes» التي يصدرها لوتشو كارتشولو وميشيل كورينمان بمشاركة من لاكوست الآنف الذكر نفسه.

4 ـ 5 «الجيوبولتيكا التطبيقية» ليست جيوبولتيكا:

الجيوبولتيكا «التطبيقية » أو «الداخلية» التي أشرف على تطويرها إيف لاكوست بالإضافة إلى اختصاصيين آخرين كبار ـ ميشيل كورينمان، بول ـ ماري دي لا غورس وغيرهما ـ أمر مميّز بالنسبة للجيوبولتيكا الأوروبية المعاصرة، تتجنب بصورة واعية التعميمات الذهنية والصياغات ذات العلاقة بالمستقبل، وفي هذا يتجسد الاختلاف المبدئي بين هذا الاتجاه في مجموعه والذي شهد نمواً في فرنسا وإيطاليا على الخصوص، وبين المدارس الأطلسية والعولمية القائمة في الولايات المتحدة وانجلترا.

والجيوبولتيكا التطبيقية تحتفظ مع جيوبولتيكا ما قبل الحرب بعلاقات تقل بكثير عما تحتفظ به الأطلسية والعولمية، هذا إذا لم نتحدث عن التقليد «القاري». إنها مجرد منهجية تحليلية سياسية، سوسيولوجية، لا أكثر. ولهذا ينبغي وضع الفارق بينهما وبين المشاريع الكونية الخاصة بعلماء الجيوبولتيكا والتي تشمل الأرض. فالحديث يجري في حقيقة الحال حول منظومتين علميتين لا تقرب بينهما إلا المصطلحات وبعض المنهجيات. وبتجاهل الثنائية الجيوبولتيكية واعتبارها أمراً تجاوزه الزمن أو غير موجود أو أمراً يقع، بكل بساطة، ما وراء الموضوع الأساسي للدراسة، تكف «الجيوبولتيكا التطبيقية» عن أن تكون جيوبولتيكا بالمعنى الحقيقي للكلمة وتغدو مجرد شكل من أشكال المنهجية الإحصائية ـ السوسيولوجية.

إن القرارات والمشاريع الجيوبولتيكية الواقعية والمرتبطة بمصير أوروبا وشعوبها القاطنة على أرضها، إنما تدرس في مرجعيات أخرى، مرتبطة بالمراكز الاستراتيجية للأطلسية والعولمية. فقد تمت صياغة مشروع التكامل الأوروبي بصورة كلية بجهود الذوات المفكرة المتعاونين في «اللجنة الثلاثية» أي في المنظمة العولمية ما فوق القومية والتي لا تتمتع بالوضع الحقوقي الصارم، ولا بالمشروعية السياسية. كما طور جاك أتّالي نظرياته الجيوبولتيكية معتمداً على معطيات هذه المؤسسة بالذات والتي كان عضواً فيها، وليس على أساس الجيوبولتيكا «التطبيقية» للمدرسة الأوروبية المعاصرة.

جيوبولتيكا «اليمينيين الجدد» الأوروبيين

5 ـ 1 أوروبا الرايات ـ المئة ـ آلين دي بنوا:

إن إحدى المدارس الجيوبولتيكة الأوروبية القليلة التي احتفظت بعلاقة لا تنفصم مع أفكار الجيوبولتيكيين الألمان ـ القاريين لفترة ما قبل الحرب هي مدرسة **«اليمينيين الجدد»** وقد ظهر هذا الاتجاه في فرنسا في نهاية الستينيات ويرتبط بشخصية قائد هذه الحركة ـ الفيلسوف والكاتب الاجتماعي آلين دي بنوا.

و«اليمينيون الجدد» يختلفون اختلافاً حاداً عن اليمنيين الفرنسيين التقليديين من الملكيين والكاثوليك وكارهي الألمان والشوفينيين والمعادين للشيوعية والمحافظين وما إلى ذلك اختلافاً يسري على كافة الجوانب من الناحية العملية. فـ «اليمينيون الجدد» ـ أنصار «للديمقراطية العضوية»، وثنيون، محبون للألمان ـ اشتراكيون ـ حداثيون وما إلى ذلك. و«المعكسر اليساري» الذي يتمتع من الناحية التقليدية،بتأثير خارق للعادة في فرنسا عدّ ذلك، في بادىء الأمر، «مناورة تكتيكية» من طرف اليمينيين الاعتياديين لكن تم البرهنة، مع مرور الزمن، على جديّة التطور وتم الاعتراف بها من قبل الجميع.

إن أحد المبادىء الأساسية لأيديولوجية «اليمينيين الجدد» والتي لم تلبث شبيهاتُها أن ظهرت في دول أوروبية أخرى كان مبدأ «الجيوبولتيكا القارية». وخلافاً «لليمينيين القدامى» وللقوميين الكلاسيكيين، كان بنوا يرى أن التاريخ قد تجاوز مبدأ **الدولة ـ القومية** (Etat- Nation) المركزية، وأن المستقبل وَقْف على «الآماد الكبرى»، وبالإضافة إلى ذلك فإن أساس أمثال هذه «الآماد الكبرى» لاينبغي أن

يكون تجمع مختلف الدول في حلف سياسي نفعي، بل دخول المجموعات الاتنية ذات الأبعاد المختلفة في **«امبراطورية فيدرالية»** موحدة على أسس متساوية. ومثل هذه **«الامبراطورية الفيدرالية»** ينبغي أن تكون موحّدة من الناحية الاستراتيجية، تعدّدية من الناحية الأتنية. وإلى ذلك فإن الوحدة الاستراتيجية يجب أن تتدعم بوحدة ثقافية مؤسِّسة.

و«المدى الكبير» الذي أثار اهتمام دي بنوا أكثر من غيره هو - أوروبا. وقد رأى «اليمينيون الجدد» أن لشعوب أوروبا أصلاً هندأوروبياً مشتركاً، منبعاً واحداً. فهذا مبدأ **«التاريخ المشترك»**. إلا أن ظروف المرحلة المعاصرة التي تنشط فيها توجهات التكامل الاستراتيجي والاقتصادي والذي لا بد منه من أجل التوصل إلى استقلالية جيوبولتيكية حق تمليه ضرورة التوحد في المفهوم البراغماتي الصرف. وعلى هذا فإن شعوب أوروبا محكومة **«بالمستقبل المشترك»**. ويتوصل دي بنوا من ذلك إلى استنتاج مفاده بأن المبدأ الجيوبولتيكي الأساسي يجب أن يكون أطروحة «أوروبا الموحدة ذات المئة راية»[16]. وفي مثل هذا الأفق كما هو الأمر بالنسبة لكافة تصورات «اليمينيين الجدد» يغدو واضحاً تلمّس الرغبة نحو الجمع بين العناصر «المحافظة» و«الحداثية» أي «اليميني» و«اليساري». وفي السنوات الأخيرة رفض «اليمينيون الجدد» مثل هذا التعريف إذ عدّوا أنفسهم «يمينيين» بقدر ما هم «يساريون» أيضاً.

تقوم أطروحات دي بنوا على أساس فرض **«مصير أوروبا القاري»**. وهو في هذا يقفو أثر مبادىء مدرسة هاوسهوفر. ومن هنا تصدر المواجهة المميّزة «لليمينيين الجدد» بين **«أوروبا»** و**«الغرب»**. فـ «أوروبا» بالنسبة لهم تكوُّن جيوبولتيكي قاري، يقوم على تجمّع أتني هندأوروبي الأصل ذي جذور ثقافية. وهذا المفهوم تقليدي. أما **الغرب**، فعلى العكس من ذلك، مفهوم جيوبولتيكي وتاريخي، يرتبط بالعالم المعاصر الذي يرفض التقاليد الاتنية والروحية التي تطرح المعايير المادية والكمية للوجود؛ وهذه هي الحضارة النفعية، العقلانية، الآلية البورجوازية. والتجسّد الأكثر اكتمالاً **للغرب** وحضارته هي الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن هنا يتشكل المشروع الملموس «لليمينيين الجدد». فعلى أوروبا أن تتكامل في «امبراطورية فيدرالية» تقف في مواجهة **الغرب** والولايات المتحدة. ومن

الضروري، بالمناسبة، تشجيع الميول الجهوية بصفة خاصة، وذلك لأن المناطق الجهوية والأقليات العرقية قد احتفظت بقدر من الملامح التقليدية يربو عما احتفظت به المدن الضخمة والمراكز الثقافية التي صعقتها «روح **الغرب**»، وعلى فرنسا، إزاء ذلك، أن تقتدي بألمانيا وأوروبا الوسطى. ومن هنا ينطلق اهتمام «اليمينيين الجدد» نحو ديغول وفريدريخ ناومن. وعلى مستوى السياسة العملية ينادي «اليمينيون الجدد» منذ بداية السبعينيات بالحياد الاستراتيجي الصارم لأوروبا، إلى جانب الخروج من الناتو، وتطوير القدرة النووية الأوروبية المكتفية بذاتها.

أما بالنسبة للاتحاد السوفياتي (روسيا فيما بعد) فموقف «اليمينيين الجدد» قد تطور وبدءاً من الأطروحة الكلاسيكية «لا **الغرب**، لا **الشرق**، بل أوروبا» أخذوا يتطورون تدريجياً نحو أطروحة «أوروبا قبل كل شيء ومن الأفضل حتى مع **الشرق** ولا مع **الغرب**». أما على المستوى العملي فإن الاهتمام الأولي بالصين ومشاريع إقامة حلف أوروبا الاستراتيجي مع الصين من أجل مواجهة «الامبرياليتين الأمريكية والسوفياتية» تم استبدالها بـ «مودّة السوفيات» المعتدلة وبفكرة اتحاد أوروبا مع روسيا.

وجيوبولتيكا «اليمينيين الجدد» متجهة بصفة جذرية توجهاً معادياً للأطلسية وللعولمة. وهم يرون مصير أوروبا نقيضاً للمشاريع الأطلسية والعولمية. كما أنهم أعداء «التالاسوكراتية» ومنظومة الـ One World.

وتجدر الإشارة إلى أنه ضمن شروط الهيمنة الاستراتيجية والسياسية الشاملة للأطلسية في أوروبا خلال مرحلة الحرب الباردة كان الموقف الجيوبولتيكي لدي بنوا (وغير الملوث من الناحيتين النظرية والعملية) يتجه بصورة مناقضة لـ «معايير التفكير السياسي» إلى درجة أنه لم يستطع أن يحقق أي انتشار واسع. لقد كان نوعاً من «الاختلاف في الرأي» وكأي نوع من «الاختلاف في الرأي» و«الانشقاقية» فقد كان ذا طابع هامشي. وحتى الآن فإن المستوى الفكري «لليمينيين الجدد» والنوعية العالية الجودة لإصداراتهم ومنشوراتهم، بل والكثرة العددية لأنصارهم في الوسط الأوروبي تتناقض تناقضاً حاداً مع الاهتمام الهزيل الذي تختصهم به المرجعيات السلطوية والبُنى التحليلية التي تقدم خدماتها للسلطة عن طريق مشاريعها الجيوبولتيكية.

5 ـ 2 أوروبا من فلاديفو ستوك حتى دوبلن:

قام أوروبي آخر، مخالف في الرأي، هو البلجيكي جان تيريار (1922 ـ 1992) بتطوير صيغة للجيوبولتيكا القارية مغايرة إلى حد ما وكان منذ بداية الستينيات قائداً لحركة «أوروبا الفتية» الجذرية في عموم أوروبا.

كان تيريار يعد الجيوبولتيكا المادة الرئيسية في علم السياسة، والتي لا يمكن بدونها إقامة استراتيجية حكومية سياسية عقلانية بعيدة النظر. وكان هذا المريد لكل من هاوسهوفر ونيكيش يعد نفسه «البولشيفيكي ـ الوطني الأوروبي» وباني «الامبراطورية الأوروبية». وأفكاره هذه بالذات كانت سابقة على مشاريع «اليمينيين الجدد» التي تتسم بمستوى أعلى من التطور والإرهاف.

أقام جان تيريار نظريته السياسية على مبدأ «الاكتفاء الذاتي للآماد الكبرى» وهذه النظرية التي طوّرها الاقتصادي الألماني فريدريخ ليست(*) في أواسط القرن التاسع عشر تؤكد على أن التطوير الاستراتيجي والاقتصادي الكامل للدولة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توفر لها المدى الجيوبولتيكي الكافي والإمكانات المساحية الكبرى. وطبق تيريار هذا المبدأ على الوضع العملي وتوصل إلى القول بأن المعنى العالمي لدول أوروبا سيفقد أهميته بصورة نهائية إذا لم تتوحد هذه الدول في **امبراطورية** واحدة تواجه الولايات المتحدة. وإلى جانب ذلك كان تيريار يرى أن مثل هذه **الامبراطورية** لا يجب أن تكون «فيدرالية» ذات توجه إقليمي بل أن تكون متحدة إلى أبعد حدود الاتحاد، مركّزة، شبيهة بالأنموذج اليعقوبي. ويجب أن تصبح دولة ـ قومية قارية قوية متحدة. وفي هذا يتمثل الخلاف الأساسي بين نظرات دي بنوا وتيريار.

في نهاية السبعينيات طرأ بعض التحول على نظريات تيريار. فتحليله للوضع الجيوبولتيكي أوصله إلى الاقتناع بأن حجم أوروبا ليس كافياً بعد لكي تتحرر من

(*) ليست، فريدريخ (1789 ـ 1846) اقتصادي ألماني، عبّر عن مصالح البورجوازية الصناعية الألمانية. من أنصار الحماية الجمركية. ومن منطلق قومي متعصب دعا إلى تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية. دافع عن الفكرة الشوفينية القائلة بسيادة ألمانيا على أوروبا. تبنت المدرسة التاريخية للاقتصاد السياسي البوجوازي أفكاره. (المترجم).



دوبلن
الامبراطورية
الاوروبية ـ السوفياتية
فلاديفوستوك

التالاسوكراتية الأمريكية. وعليه فإن الشرط الرئيسي «للتحرر الأوروبي» هو وحدة أوروبا مع الاتحاد السوفياتي. ومن المخطط الجيوبولتيكي الذي يتضمن مناطق أساسية ثلاث - **الغرب، أوروبا وروسيا (الاتحاد السوفياتي)** انتقل إلى مخطط يتضمن اثنتين فقط هما - **الغرب** والقارة الأوروبية. وإلى جانب هذا فقد انتقل تيريار إلى استنتاج راديكالي يقول بأن من الأفضل لأوروبا أن تختار الاشتراكية السوفياتية على أن تختار الرأسمالية الأنجلوساكسونية.

وهكذا ظهر مشروع «**الامبراطورية الأورو - سوفياتية من ڤلاديفوستوك إلى دوبلن**»[17]. وقد قدم فيه وصفاً شبه تنبؤي للأسباب التي ستؤدي بالاتحاد السوفياتي إلى الانهيار ما لم يقم في أقرب وقت ممكن باتخاذ الخطوات الجيوبولتيكية الفاعلة في أوروبا وفي الجنوب. وكان يرى أن أفكار هاوسهوفر المتعلقة بالمعسكر القاري «برلين - موسكو - طوكيو» لا تزال تتمتع بحيويتها على أعلى المستويات حتى الآن. ومن المهم القول بأن تيريار قد صاغ أفكاره هذه قبل سقوط الاتحاد السوفياتي بـ 15 سنة. وقد كان سباقاً إلى التعبير عن منطق هذا السقوط وأسبابه بدقة مطلقة. كما قام تيريار بمحاولات إيصال آرائه إلى القادة السوفيات. لكنه لم يفلح في ذلك على الرغم من أن لقاءات جمعت بينه وبين عبد الناصر وتشوان اين لاي وأعلى القياديين اليوغسلاف في الستينيات. ومن الأمور اللافتة للنظر أن موسكو رفضت مشروع تنظيم «كتائب التحرير الأوروبي» السرية من أجل الكفاح الإرهابي ضد «عملاء الأطلسية». وتثوي أفكار جان تيريار في أساس الحركة الانشقاقية للوطنيين - البولشفيك الناشطة الآن «جبهة التحرير الأوروبي» وهم يقتربون إلى حدود قريبة من مشاريع الأوراسية الروسية الجديدة المعاصرة.

5 - 3 تفكير عبر القارات يورديس فون لوهاوزين:

يقترب الجنرال النمساوي يورديس فون لوهاوزن اقتراباً كبيراً من تيريار. وهو، خلافاً لتيريار، أو دي بنوا، لا يشارك في النشاط السياسي ولا يقيم المشاريع الاجتماعية المحددة، فهو يلتزم النظرة العلمية الصارمة ويكتفي بالتحليلات الجيوبولتيكية الصرفة. ومنطلقه الأساسي نفس منطلق الوطنيين - البولشفيك و«اليمينيين الجدد» فهو قاري ومن أتباع هاوسهوفر.

ويرى لوهاوزن أن السلطة السياسية لن تملك فرصة الاستمرار والثبات لفترة طَويلة إلا عندما يبدأ رجالها، بالتفكير لا من خلال المقولات الآنية والمحلية بل «عبر آلاف السنين وعبر القارات». وكتابه الأساسي يحمل هذا التوجه «رجولة امتلاك السلطة. التفكير عبر القارات»[18].

كما يرى لوهاوزن أن العمليات الاجتماعية، الثقافية، الحضارية والتي تدور على مساحات كونية، لا تغدو مفهومة إلا إذا جرت رؤيتها من أفق «بعيد النظرة» يعارضه المؤلف بـ «قصور النظر» التاريخي. فالسلطة في المجتمع الإنساني والتي يرتبط بها اختيار الطريق التاريخي والقرارات الأهم يجب أن تسيّر من طرف مخططات عامة جداً تسمح بإيجاد مكان لهذه الدولة أو تلك أو لهذا الشعب أو ذاك في السياق التاريخي الهائل الأبعاد. ولهذا فإن العلم الأساسي الضروري لتحديد استراتيجية السلطة هو الجيوبولتيكا في مفهومها التقليدي - العمل عن طريق مقولات عالمية مع الانصراف عن الجزيئيات التحليلية (لا الجيوبولتيكا الداخلية، التطبيقية لمدرسة لاكوست). إن الأيديولوجيات الجديدة والتحولات التكنولوجية والحضارية تبدّل - من دون شك، سطح العالم، لكنها عاجزة عن أن تبدل عدداً من القوانين الأساسية المرتبطة بالدورات الطبيعية والثقافية والتي تقدّر بآلاف السنين.

وهذه المقولات الدوليّة هي - المدى المكاني - اللغة، الأتنوس، الموارد وسوى ذلك.

ويقترح لوهاوزن هذه المعادلة للسلطة: **العظمة = القوة × مكان التوضع**.

ويعرّف ذلك بقوله:

«وبما أن العظمة هي القوة مضروبة بمكان التوضع، فإن التوضع الجغرافي المناسب يمكّن من التطوير الكامل للقوى الداخلية»[19].

وعلى هذا فإن السلطة السياسية العقلية وما إلى ذلك ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمدى المكاني.

ويفصل لوهاوزن مصير أوروبا عن مصير الغرب، معتبراً أوروبا تكوّناً قارياً وقع لفترة محدودة تحت سيطرة التالاسوكراتيا. ولكن أوروبا في حاجة إلى الحد

الأدنى المكاني (المَوْقعي) من أجل تحريرها السياسي. ويمكن تحقيق هذا الحد الأدنى فقط عبر توحيد ألمانيا والعمليات التكاملية في أوروبا الوسطى وإقامة الوحدة الترابية لبروسيا (الممزقة بين بولندا، الاتحاد السوفياتي وجمهورية ألمانيا الديموقراطية) ثم تشكيل الدول الأوروبية مستقبلاً في حلف مستقل موحد لا علاقة له بالأطلسية. ومن المهم الإشارة إلى دور بروسيا. ولوهاوزن يرى على أثر نيكيش وشبينغلر أن بروسيا تمثل القسم الأكثر قارية، «الأوراسي» من ألمانيا ولو أن عاصمة ألمانيا لم تكن برلين بل كانت كينيغسبيرغ لسار «التاريخ الأوروبي مساراً آخر»، أقرب إلى الصواب بتوجهه إلى الاتحاد مع روسيا ضد التالاسوكراتيات الأنجلو ساكسونية.

ويرى لوهاوزن أن مستقبل أوروبا في الأفق الاستراتيجي لا يمكن تصوره بدون روسيا ـ وعلى العكس من ذلك فإن روسيا (الاتحاد السوفياتي) في حاجة إلى أوروبا إذ إنها جيوبولتيكياً ناقصة بدونها ومكشوفة الجراح أمام أمريكا ذات التوضع الأفضل بكثير. وعليه فإن قوتها ـ عاجلاً أم آجلاً ـ ستتقدم على الاتحاد السوفياتي بمراحل. وقد شدد لوهاوزن على أن بوسع الاتحاد السوفياتي أن يكون له في الغرب أربع أوروبات: «**أوروبا المعادية، أوروبا الخاضعة، أوروبا المفرغة وأوروبا الحليفة**». أما الاحتمالات الثلاثة الأولى فلا مندوحة منها في ظروف الإبقاء على ذلك النهج من السياسة الأوروبية التي ظل الاتحاد السوفياتي يطبقها على مدار «الحرب الباردة». والتوجه إلى جعل أوروبا بأي ثمن «حليفة وصديقة» هو وحده القادر على تصحيح الوضع الجيوبولتيكي القدري للاتحاد السوفياتي وتأسيس البداية لمرحلة جديدة من التاريخ الجيوبولتيكي ـ مرحلة الأوراسية».

يتحدد موقف لوهاوزن بشكل واعٍ بقرائن جيوبولتيكية. فهو يسقط المسائل الايديولوجية من حسابه. فجيوبولتيكا روسيا البويارية(*) على سبيل المثال وروسيا

(*) البويار: الفئة الإقطاعية العليا في روسيا بين القرنين التاسع والسابع عشر. ينتمون إلى القبائل والأسر العريقة المعروفة، وكان لهم تابعوهم وصوتهم المسموع عند الأمراء والحكام حتى توصلوا إلى المشاركة في الحكم بل انفردوا به في إمارة نوفجورود. ومنذ القرن الرابع عشر بدأ الأمراء يزحمونهم، لكنهم ظلوا يشرفون على مختلف الفروع الاقتصادية ثم القضاء والمناصب العسكرية، إلى أن ألغى بطرس الأكبر طبقة البويار في بداية القرن الثامن عشر. (المترجم).

القيصرية أو روسيا الاتحاد السوفياتي تبدو أمامه عملية واحدة متصلة لا ترتبط باسْتبدال النظام الحاكم أو بالايديولوجية. فروسيا من الناحية الجيوبولتيكية هي الـ heartland وبناء على ذلك فإن مصيرها محكوم بأراضيها مهما كان نظام الحكم فيها.

وقد تنبأ لوهاوزن ـ مثل تيريار ـ بالإفلاس الجيوبولتيكي المحتوم للاتحاد السوفياتي إذا ما ظل سائراً على نهجه المألوف. وإذا كانت مثل هذه النتيجة تعدّ بالنسبة للجيوبولتيكيين الأطلسيين انتصاراً فقد رأى لوهاوزن فيها هزيمة للقوى القارية. مع احتساب تلك اللوينة وهي أن الإمكانات الجديدة التي ستنفتح بعد انهيار النظام السوفياتي ـ يمكنها أن تنشيء المنطلقات الملائمة لاقامة معسكر أوراسي جديد في المستقبل ـ امبراطورية قارية ـ إذ إن القيود المحدَّدة التي كانت عليها الايديولوجية الماركسية تكون، في هذه، قد أزيلت.

5 ـ 4 «امبراطورية الختام» الأوراسية. جان بارڤوليسكو

يعرض الكاتب الفرنسي المشهور جان بارڤوليسكو صيغة رومانسية للجيوبولتيكا. وقد ظهرت الموضوعات الجيوبولتيكية في الأدب لأول مرة على يدي جورج أورويل(*) الذي وصف في طوباويته المعاكسة «1984» التقسيم المستقبلي للكوكب الأرضي إلى معسكرات قارية ثلاثة كبرى: الأوستازيا، الأوراسيا والأوكيانيا، ونلتقي بموضوعات متشابهة لدى أرتور كيستلر(**)، أولدوس هكسلي(***)، ريمون ابيليو وسواهم.

(*) أورويل Orwell، جورج. اسمه الحقيقي ايريك بريل (1903 ـ 1950) كاتب إنجليزي. عاش اتجاهات فكرية متضاربة. من مؤلفاته «مزرعة الحيوانات» وهي عمل أدبي ساخر. ومن أشهر ما كتبه رواية «1984» وتتضمن رؤية موغلة في التشاؤم. يرى فيه بعضهم الممثل المبكر «لليساريين الجدد» (المترجم).

(**) كستلر Koestler آرثر، (1905 ـ 1983) كاتب، فيلسوف إنجليزي. انتقل من الماركسية إلى البورجوازية والليبرالية ومعاداة الشيوعية، والدعوة إلى التشاؤمية الاجتماعية اللاعقلانية، فالإنسان لديه «مأزق»، «خطأ» في تطور الطبيعة. له دراسات في الفلسفة وعلم الحياة. (المترجم).

(***) هكسلي Huxley، اولدوس (1894 ـ 1963) كاتب إنجليزي. من رواياته العقلية =

وجان بارڤوليسكو يجعل الموضوعات الجيوبولتيكية أموراً مركزية في كافة مؤلفاته، فيفتح بذلك عالماً جديداً هو «**الأدب الفني الجيوبولتيكي**».

ومؤدى نظرية بارڤوليسكو هو[20]: إن تاريخ البشرية هو تاريخ القوة، السلطة. وفي سبيل الوصول إلى المواقع المركزية في الحضارة، أي إلى تحقيق أعظم القوى تتوجه مختلف المنظمات نصف السرية والتي تتجاوز دورات وجودها، إلى حدود بعيدة، الامتداد الزمني للايديولوجيات السياسية الاعتيادية، الأسر الحاكمة والمؤسسات الدينية والحكومات والشعوب. هذه المنظمات التي تدخل التاريخ تحت أسماء مختلفة يحدّدها بارڤوليسكو كـ «محفل الأطلسيين» و«محفل الأوراسيين». ويدور بينهما صراع يمتد قروناً يشارك فيه البابوات، البطاركة، الملوك، الدبلوماسيون، كبار رجال المال، الثوار، الغيبيون، الجنرالات، العلماء، الفنانون وسواهم. وهكذا فإن كافة التجليات الاجتماعية ـ الثقافية تؤدي إلى الطرز الأولى وإن كانت بالغة التعقيد.

إنه الخط الجيوبولتيكي وقد أُوصل إلى حدوده المنطقية، والذي يجري تتبع أساسياته بشكل واضح لدى مؤسسي الجيوبولتيكا العقلانيين والبعيدين عن «الغيبية».

يلعب الجنرال ديغول دوراً مركزياً في الموضوعات الأدبية التي يعالجها بارڤوليسكو، وفي النظام الجيوبولتيكي الذي أسسه والذي بقي في الظل بعد انتهاء رئاسة الجنرال. ويسمّي بارڤوليسكو هذا «بالديغولية الجيوبولتيكية». هذه الديغولية الجيوبولتيكية هي الشبيه الفرنسي بقارية مدرسة هاوسهوفر.

المهمة الأساسية لأنصار هذا الخط هي تنظيم المعسكر القاري الأوروبي «باريس ـ لندن ـ برلين ـ موسكو». وفي هذا السياق تتقارب نظريات بارڤوليسكو وأطروحات «اليمينيين الجدد» و «الوطنيين ـ البلشڤيك».

ويرى بارڤوليسكو أن المرحلة التاريخية الحالية هي ذروة المواجهة

= «الكروم الأصفر» 1921، «جوقة المهرجين»، «كونترا بوُنكنت» 1928 وهي تناقش بطلان العقلية البورجوازية. أما «العالم الجديد الرائع» فهي نقيض للطوباوية وتتحدث عن المجتمع التقنوقراطي المعياري. ويؤدي الشك بهكسلي إلى لا إنسانية الابداع كما في روايته «العبقرية والإلهة» 1955. (المترجم).

الجيوبولتيكية التي امتدت قروناً طويلة والتي يقترب فيها التاريخ الدراماتيكي للمبارزة القارية الحضارية من الحل. وهو يستبق رؤية الظهور الوشيك للبناء القاري الهائل «**امبراطورية الختام الأوراسية**» ثم الصدام الختامي مع «**امبراطورية الأطلسي**» وهذه المبارزة القائمة على الغيبيات المتعلقة بالآخرة ويصفها الكاتب بألوان من سفر الرؤيا يسميها Endkampf (معركة الختام). ومن الطريف أن الشخصيات المتخيلة تتجاور مع الشخصيات التاريخية الواقعية والتي عقد المؤلف معها (ولا يزال يعقد مع بعضها حتى الآن) أواصر المودة. ومن بين هؤلاء ـ سياسيون من أقرب المحيطين بديغول ـ دبلوماسيون إنجليز وأمريكان، الشاعر عزرا باوند، الفيلسوف يوليوس ايڤولا، السياسي والكاتب رايمون آبيليو، النحات أرنو بريكير وأعضاء المنظمات الغيبية وما إلى ذلك.

وعلى الرغم من الصيغة الأدبية لنصوص بارڤوليسكو فإنها تتسم بقيمة جيوبولتيكية هائلة، إذ إن عدداً من مقالاته التي نشرت في السبعينيات يصف بدقة تثير الاستغراب الوضع الذي لم يتكون في العالم إلا في منتصف التسعينيات.

5 ـ 5 المحيط الهندي طريقاً إلى السيطرة العالمية روبير ستويكيرس:

النقيض الكلي «للرؤيوي الجيوبولتيكي» بارفوليسكو هو العالم الجيوبولتيكي والكاتب الاجتماعي البلجيكي روبير ستويكيرس، ناشر المجلتين الراقيتين «أوريانتاسيون» و«ڤولوار»، وهو يقترب من الجيوبولتيكا من منطلقات عقلانية علمية بحتة، محاولاً تحرير هذا العلم من جميع القشور «العارضة». إلا أنه بمسيره وراء منطق «اليمينيين الجدد» في التوجه الأكاديمي يتوصل إلى نتائج قريبة إلى حد مذهل من «نبوءات» بارڤوليسكو.

وستويكيرس يرى بدوره أن المشاريع الاجتماعية السياسية والدبلوماسية بصفة خاصة لدى مختلف الدول والأحلاف مهما كانت الصيغة الأيديولوجية التي تكتسي بها، تمثل التعبير غير المباشر والمقنع أحياناً للمشاريع الجيوبولتيكية العالمية. وهو يرى في ذلك تأثير عامل «الأرض» على التاريخ الإنساني. فالإنسان مخلوق أرضي (خلق من التراب). وعلى ذلك فإن الأرض والمكان يجسّدان الإنسان في تجلياته الأكثر صميمية. وهذه مقدمة «للجيوإستوريا».

وللتوجه القاري أفضلية لدى ستويكيرس؟ ويرى أن الأطلسية معادية لأوروبا، أما مصير الرفاه الأوروبي فيربطه بألمانيا وأوروبا الوسطى[21]. وستويكيرس من أنصار التعاون الفعال مع أوروبا ودول العالم الثالث وبخاصة مع العالم العربي.

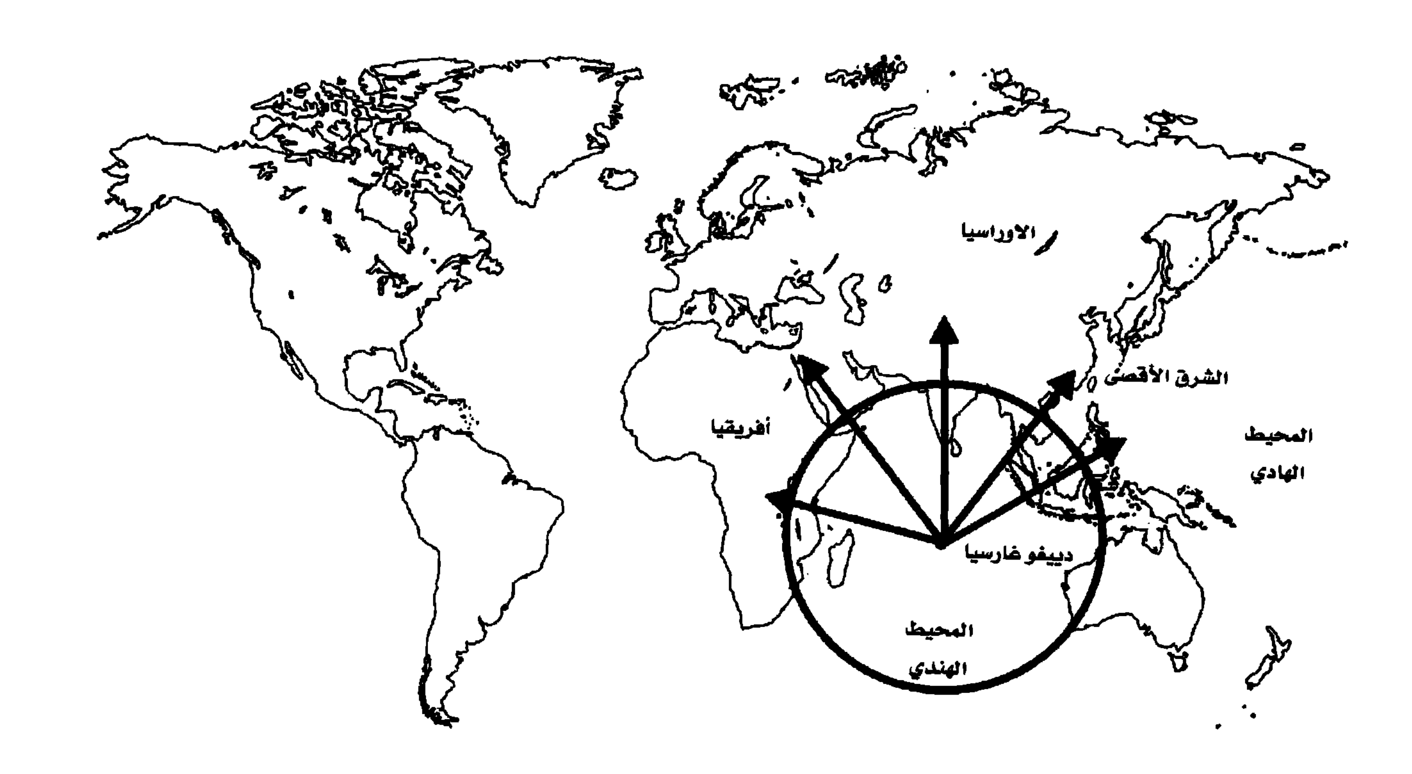
وبالإضافة إلى ذلك يؤكد على الأهمية الكبرى للمحيط الهندي من أجل البناء الجيوبولتيكي المستقبلي للكرة الأرضية ويعرف المحيط الهندي بأنه «المحيط المتوسط»، الواقع بين الأطلسي والهادي. والمحيط الهندي يمتد بدقة في الوسط بين الساحل الشرقي لأفريقيا ومنطقة المحيط الهادي التي تقع فيها نيوزيلاندة، أوستراليا، غينيا الجديدة، أندونيسيا، الفليبين والهند الصينية. والسيطرة البحرية على المحيط الهندي تمثل الموقع الأهم للتأثير الجيوبولتيكي على أهم «الآماد الكبرى» الثلاثة دفعة واحدة ـ أفريقيا، الـ rimland الأوراسي ـ الجنوبي، ومنطقة المحيط الهادي. ومن هنا تنبثق الأفضلية الاستراتيجية لعدد من الجزر الصغيرة في المحيط الهندي، وبخاصة دييغو غارسيا الواقعة على بعد واحد من جميع المناطق الساحلية.

ويؤكد ستويكيرس على أن المحيط الهندي هو تلك المنطقة التي يجب أن تتركز عليها الاستراتيجية الأوروبية كلها، فمن خلال هذه البقعة يمكن لأوروبا أن تؤثر على الولايات المتحدة وعلى الأوراسيا وعلى اليابان. والمواجهة الجيوبولتيكية الحاسمة التي ستحدد، حسب رأيه، لوحة المستقبل في القرن الحادي والعشرين ستجري في هذه البقعة دون سواها.

ويعكف ستويكيرس بكل فعالية على دراسة تاريخ الجيوبولتيكا وتعود إليه مقالات حول مؤسسي هذا العلم في الطبعة الجديدة من «موسوعة بروكسل».

5 ـ 6 روسيا + الإسلام = إنقاذ أوروبا
كارلو تيراتشانو:

يقع في إيطاليا أيضاً مركز جيوبولتيكي فاعل للتوجه القاري. فبعد الحرب العالمية الثانية حققت أفكار كارل شميدت في ايطاليا انتشاراً فاق مستواه في الدول الأوروبية الأخرى، وبفضل ذلك انتشر النمط الجيوبولتيكي للتفكير هناك إلى حد بعيد. وبالإضافة إلى ذلك فإن حركة «أوروبا الفتية» لجان تيريار وأفكار الناسيونال


الاوراسيا
الشرق الأقصى
المحيط
الهادي
أفريقيا
دييغو غارسيا
المحيط
الهندي

ـ البلشفيك القارية طبقاً لذلك، حققت في إيطاليا تطوراً لم تعرفه في مكان آخر. وبين مجلات «اليمينيين الجدد» ومراكزهم الاجتماعية منها والمتخصصة بالشؤون السياسية، الكثيرة العدد والمهتمة بدراسة الجيوبولتيكا تمثل أهمية خاصة دورية «أوريون» الصادرة في ميلانو، حيث صارت في السنوات العشر الأخيرة تصدر تحليلات الدكتور كارلو تيراتشانو بصفة دورية. ويعبر تيراتشانو عن الموقف الأكثر تطرفاً للقارية الأوروبية التي تقترب اقتراباً شديداً من الأوراسية.

يتبنى تيراتشانو بصفة كلية لوحة ماكيندر وماهان ويوافق على الثنائية الحضارية، والجغرافية الصارمة التي وضعاها وإلى جانب ذلك يقف على نفس المستوى إلى جانب الـ heartland إذ يرى أن مصير أوروبا يرتبط كلية وبشكل كامل بمصير روسيا والأوراسية؛ بالشرق فالشرق القاري هو الإيجابي أما الغرب الأطلسي فهو السلبي. ومثل هذا الموقف الجذري من طرف أوروبي يعد استثناء حتى بين الجيوبولتيكيين ذوي التوجه القاري، إذ إن تيراتشانو لا يقوم حتى بتركيز اهتمام خاص على وضع أوروبا، فهو يرى فيه نقطة ثانوية الأهمية أمام المواجهة الكونية بين التالاسوكراتية والتيلوروكراتية.

وهو يوافق كل الموافقة على فكرة الدولة الأوراسية الواحدة «الامبراطورية الأوروسوفياتية من ڤلاديفوستوك إلى دوبلن» الأمر الذي يقربه من تيريار لكنه في الوقت نفسه لا يقر تيريار على «يعقوبيته» و«عالميته» مؤكداً على التعددية الاتنوثقافية وعلى الناحية الدينية، وهو ما يقربه بدوره من آلين دي بنوا.

والتوكيد على مركزية العامل الروسي يتجاور لدى تيراتشانو مع موقف طريف آخر: فهو يرى أن الدور الأهم في الصراع ضد الأطلسية يعود للعالم الإسلامي، وبخاصة للنظم المعادية علانية للأمريكيين. النظام الإيراني، الليبي، العراقي وما إليها. وهذا ما يوصله إلى نتيجة أن العالم الإسلامي في أعلى درجات التعبير عن المصالح الجيوبولتيكية القارية. وإلى جانب هذا فإنه ينظر إلى الصيغة «الأصولية» للإسلام على أنها إيجابية. والمعادلة النهائية التي تلخص النظرات الجيوبولتيكية للدكتور تيراتشانو هي: روسيا (heartland) + الإسلام ضد الولايات المتحدة الأمريكية (الأطلسية، العولمة)[22].

ويرى تيراتشانو في أوروبا جسراً للحلف الروسي الإسلامي المعادي

للعولمة. وترى وجهة نظره أن مثل هذا الطرح الجذري للسؤال يمكن فقط أن يؤدي موضوعياً إلى الانبعاث الأوروبي الحق.

وإلى جانب الأفكار المشابهة لآراء تيراتشانو يقف العاملون الآخرون في دورية «أوريون» وفي المركز الفكري العامل على أساسها (البروفيسور كلاوديو موتّي، موريتسيو موريللي، والعالمة الاجتماعية الكسندرا كولاّ، ماركو بتّارا وسواهم) ونحو هذا التوجه الوطني البولشفيكي تميل بعض الدوائر الاجتماعية - الديموقراطية، والشيوعية والفوضوية في إيطاليا. من ذلك صحيفة «أومانيتا» ومجلة «نووڤي انجولاتسيوني» وغيرهما.

الأوراسية الجديدة

6 ـ 1 الاندفاعيّة الأوراسية

ليف غوميليوف

كان أكثر تلامذة الأوراسي سافيتسكي ألقاً العالم الروسي المشهور ـ المؤرخ ليف غوميليوف. وهو لم يتطرق في أعماله للموضوعات الجيوبولتيكية لكن نظرته في الأصل العرقي والتشكيلات الأتنية تتمم بصورة واضحة خط النظرة «العضوانية» وإلى حد ما «الحتمية الجغرافية» اللتين تمثلان معاً جوهر الجيوبولتيكا عند راتسيل، تشيلّين وهاوسهوفر ومن جرّ جرهم.

وتكتسب أهمية خاصة دراسات غوميليوف الخاصة بالمراحل القديمة من الخارطة الأتنية للأوراسيا والسهوب، والشعوب الرحالة وحضاراتها. ومن أعماله تتضافر رؤية جديدة تماماً للتاريخ السياسي يظهر فيها **الشرق** الأوراسي لا كمجرد بقاع همجية على مشارف الحضارة (المتماثلة مع الحضارة الغربية) بل كمركز مستقل وديناميكي للأصل الأتني، للثقافة والتاريخ السياسي والتطور الحكومي والتقني. والغرب وتاريخه يظهران في بعديهما النسبيين، والثقافة الأوراسية ومجموعة نجوم الأتنيات الأوراسية تتبدى عالماً متعدد الأبعاد لم يسبق له أن درس قط ـ بمقاييسه القيمية، بقضاياه الدينية وقوانينه التاريخية وما إلى ذلك.

ويطور غوميليوف ويوصل إلى النهاية المنطقية الفكرة الأوراسية القائلة بأن أبناء روسيا الكبرى، الروس، يمثلون لا مجرد فرع من السلاف الشرقيين بل أتنوساً

خاصاً تكوّن على أساس التذاوب التركي ـ السلافي. ومن هنا تنبثق بشكل غير مباشر إثباتية السيطرة الروسية على تلك الأراضي الأوراسية المأهولة بالاتنوسات التركية. لقد تكونت حضارة روسيا الكبرى على أساس التمازج العرقي التركي ـ السلافي الذي تحقق على الخلفية الجغرافية كتحالف تاريخي بين **الغابة والسهب**. فالتفاعل الجيوبولتيكي بين **الغابة والسهب** بالذات هو ما يمثل الجوهر التاريخي لروسيا محدداً طابع ثقافتها، حضارتها، أيديولوجيتها ومصيرها السياسي.

ويحدد غوميليوف من بعد شبينغلير وتوينبي دورات الحضارات والثقافات وما يطابقها من الاتنوسات أيضاً. والتشكلات الأتنو ـ ثقافية ـ القوميات، الدول، المجموعات الدينية ـ شبيهة من وجهة نظره بالأعضاء الحية. فهي تمر عبر مراحل الولادة، الصبا ـ النضج فالشيخوخة ثم تتلاشى بعد ذلك أو تتحول إلى ما يسمى «المتبقيات». وينعكس في هذا من جديد، وبشكل واضح تأثير «الفلسفة العضوانية» المشترك بين جميع المدارس الجيوبولتيكية القارية.

وإلى أعلى الدرجات تكتسب أهميتها نظريات غوميليوف المتعلقة بأسباب الأصل الاتني أي ولادة الأتنوس أو الدولة. ولوصف هذه العملية يدخل مصطلح «العاطفية» أو «**الدفع العاطفي**»[23] وهو نَفْثة لا تفسير لها من الطاقة البيولوجية والروحية في آن معاً تبث الحركة فجأة في الوجود التاريخي البطيء الانسياب للشعوب والثقافات «الهرمة» وتستحوذ على المجموعات الدينية والأتنية المتكونة المختلفة في دفقة ديناميكية من التطور التقني والروحي والمدوي وهو ما يدفع بها إلى الفتوحات وإلى صهر بقايا الاتنوسات المختلفة الأنواع في صيغ فاعلة جديرة بالحياة. والعاطفية العالية الجديرة والعملية الديناميكية للتشكل الأتني تؤديان في الحالة العادية إلى ظهور أتنوس عالي النوعية يستجيب للصيغة القومية الحكومية للتنظيم السياسي بقدر ما يستجيب للامبراطورية.

والعاطفية تميل تدريجياً إلى الهبوط وبديلاً عن «العاطفية» (وهي خصيصة إيجابية برأي غوميليوف يساويها بـ «البطولية» بالطموح الخلقي نحو الخلق الإبداعي المجرّد من الأَثَرَة باسم الوفاء للتقليد الوطني) تأتي «الفعالية» أي الانشغال فقط باللحظة الحاضرة في انقطاع عن التقاليد ودون الالتفات إلى مصير الأجيال القادمة. وفي هذه المرحلة يحدث «انكسار عاطفي» ويدخل التشكل الإتني في مرحلة سلبية هي المحافظة وبداية الانحدار. ويلي ذلك المرحلة «المستقبلية» والتي يغلب فيها

نمط العجزة من «الحالمين» «المتخيلين»، و«الهاربين الدينيين» الذين يفقدون الإيمان بالواقع المحيط ويتطلعون للمضي إلى «العالم الآخر». ويعد غوميليوف ذلك مَعْلم السقوط النهائي. فيتحلل الأتنوس وتتفتت الأتنوسات العلوية إلى جزيئاتها وتهوي الامبراطوريات.

تستمر هذه الحالة حتى «النفثة العاطفية» الجديدة عندما يظهر أتنوس نضير جديد فيدفع بتشكل أتني جديد تتفاعل فيه البنى السابقة. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأتنوسات تبقى في حالة «متبقيات» (ويسميها غوميليوف بـ «الأطياف) أما البقية فتختفي في ديناميكية العملية الأتنوجينيتيكية الجديدة.

ومن الأمور ذات الأهمية بمكان تأكيد غوميليوف المتعلّق بأن الروس يمثلون إلى حد ما أتنوساً «ناضراً» «فتياً» كوّن من حوله «أتنوساً أعلى» هو روسيا ـ الأوراسيا أو هو الامبراطورية الأوراسية.

ومن أوراسية غوميليوف تفرض نفسها النتائج الجيوبولتيكية التالية (والتي لم يكن هو نفسه، وبسبب تصورات سياسية مفهومة، قد صاغها إذ آثر البقاء بصرامة في إطار العلم التاريخي).

1) تمثل الأوراسيا «بؤرة تطور» ذات قوام سليم، أرضاً غنية شديدة الخصوبة للتشكل الأتني والتشكل الثقافي. وعلى هذا يجب أن نتعلم النظر إلى التاريخ الإنساني لا عبر عدسة أحادية القطب، **الغرب** والآخرون» (على نحو ما هو مميّز في الكتابة الأطلسية للتاريخ)، بل عبر تعددية الأقطاب فإن الأوراسيا الشمالية والشرقية تمثلان طرافة خاصة لأنهما بالنسبة للغرب البديل الذي تتفجر منه العمليات الحضارية العالمية الأهم. ويقدم غوميليوف في أعماله اللوحة المهمة لمقولة ماكيندر المتعلقة «بالمحور الجغرافي للتاريخ» ويضفي على هذا المحور المضمون التاريخي والاتني.

2) التركيب الجيوبولتيكي للغابة والسهب والذي يكمن في أساس نمط الدَّوْلية الروسية يمثل الواقع الأهم للسيطرة الثقافية ـ الاستراتيجية على آسيا وأوروبا الشرقية. وإلى هذا فإن من شأن مثل هذه السيطرة أن تساعد على إحداث التناغم بين **الشرق والغرب** بينما لا تؤدي المحدودية الثقافية للحضارة الغربية **(الغابة)**، مع

تعطشها إلى الهيمنة المترافقة مع الجهل المطلق بثقافة **الشرق (السهوب)** إلا إلى النزاعات والزلازل.

3) **الحضارة الغربية الآن في آخر مراحل انحطاط التشكل الاثني تمثل مقياساً للأتنوسات «الأطياف»**. وعلى هذا فإن مركز الثقل يجب أن ينتقل إلى شعوب أكثر فتوة.

4) **من الممكن أيضاً أن تنطلق في المستقبل القريب «نفثة عاطفية» لم يجر التنبؤ بها ولم يسبق تصوّرها**، فتبدل بحدة لوحة العالم السياسية والثقافية ـ ذلك إن هيمنة الأتنوسات القائمة على «المتبقيات» لا يمكن أن تدوم طويلاً.

6 ـ 2 الأوراسيون الروس الجدد

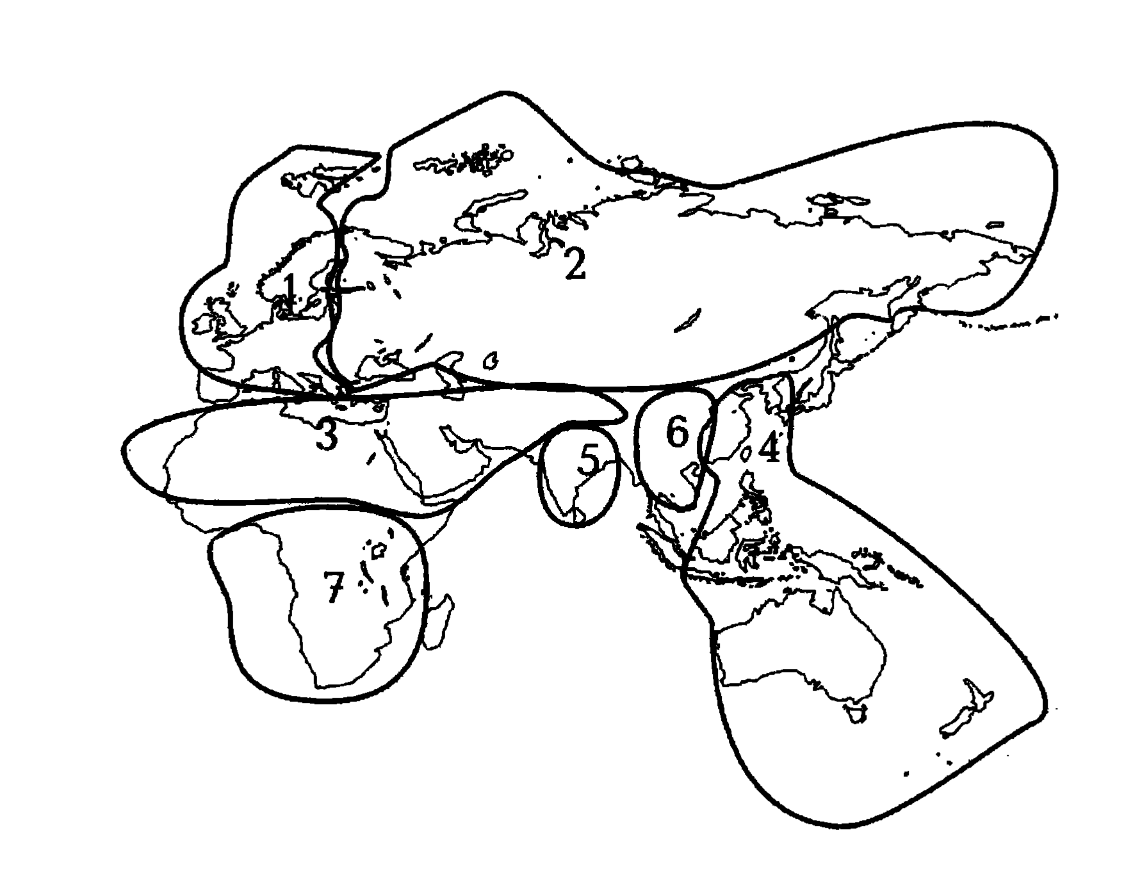
لم يقم غوميليوف شخصياً بصياغة النتائج الجيوبولتيكية على أساس لوحته التي رسمها للعالم. بل قام بذلك مريدوه في مرحلة ضعف (ثم إلغاء) الرقابة الايديولوجية الماركسية. وقد سمي هذا الاتجاه في عمومه باسم «الأوراسية **الجديدة**» التي تشتمل بدورها على صيغ متعددة. إلا أنها جميعاً ترث أفكار غوميليوف كما إن تأثيره على هذه الايديولوجيا الجيوبولتيكية خارق للعادة.

والأوراسية الجديدة تتضمن عدة صيغ.

الأولى (وهي الأشد رسوخاً والأكثر تطوراً) وتمثل الايديولوجيا الجاهزة التي صاغتها بعض الأوساط السياسية من المعارضة الوطنية التي وقفت في وجه الإصلاحات الليبيرالية خلال سني 1990 ـ 1992. والحديث يدور عن مجموعة من المثقفين الذين تجمعوا حول صحيفة «دين» («زافترا» فيما بعد) ومجلة «ايليمنتي»[24].

تعتمد هذه الأوراسية الجديدة على أفكار ب. سافيتسكي، غ. فيرنادسكي الأمير ن. تروبتسكوي(*) بالإضافة إلى منظّر الناسيونال ـ بلشفية الروسي نيكولاي

(*) تروبتسكوي، نيكولاي (1890 ـ 1938) أمير روسي. عالم لغة. أحد منظري حلقة باريس اللغوية. له نشاط في دراسة علمَيّ الأصوات والنحو. له دراسات في الأدب الروسي، في اللغات السلافية المقارنة، وفي لغات القوقاز وثقافاته.



1
2
3
6
4
5
7

أوستريالوف. وعلى أعلى المستويات يتم الاعتراف بتحليل الأوراسيين التاريخي على أنه فعال وقابل للتطبيق على الوضع القائم. وفي الوقت نفسه تواجه الايديوكراتيا الوطنية ذات المدى الإمبراطوري القاري بالغربية الليبيرالية وبالقومية الاتنية الضيقة. وتظهر روسيا على أنها محور «المدى الجيوبولتيكي الكبير» وتُماهى رسالتها الاتنية مع بناء الامبراطورية.

على المستوى الاجتماعي ـ السياسي يميل هذا التوجه نحو الاشتراكية الأوراسية، معتبراً الاقتصاد الليبيرالي السمة المميّزة للمعسكر الأطلسي. ويتم النظر إلى المرحلة السوفياتية من التاريخ الروسي من خلال رؤية السمينوڤيخوڤيين ـ أي على أنها صيغة حداثية من التطلع الروسي القومي التقليدي نحو التوسع العالمي ونحو «الشمولية الأوراسية المعادية للأطلسية». وهذا هو مصدر الميل «المؤيد للشيوعية» لدى هذه الصيغة من الأوراسية الجديدة.

ويتم قبول إرث ليف غوميليوف ـ إلا أن نظرية العاطفية تُقرن إلى التعاليم المتعلقة بـ «دورة النّخب» العائدة لعالم الاجتماع الإيطالي ويلفريد باريتو بينما تصحح نظريات غوميليوف الدينية على أساس مدرسة التقليديين الأوروبيين (غينون، ايفولا وغيرهما).

وأفكار التقليديين ـ «أزمة العالم المعاصر»، «انحلال الغرب» «تدنيس الحضارة» وما إلى ذلك ـ تدخل مرافقاً مهماً في الأوراسية الجديدة ـ مكملة ومطورة تلك الجوانب التي كانت قد قدمت من طرف المؤلفين الروس بطريقة حدسية وجزئية فحسب.

وفضلاً عن ذلك تتم دراسة المشاريع الأوروبية القارية (هاوسهوفر، شميدت، نيكيش، «اليمينيين الجدد» وسواهم) بطريقة مدققة شاملة ـ وعلى أساس ذلك تُبسط آفاق المقولة الأوراسية أيضاً على أوروبا التي تفهم على أنها قوة قارية محتملة. وهذه الفكرة غريبة كل الغرابة على المهاجرين ـ الأوراسيين التاريخيين الذين كتبوا مؤلفاتهم الأساسية في ظروف لم تكن للولايات المتحدة خلالها أي أهمية جيوبولتيكية مستقلة، ولم تكن أطروحة تميُّز أوروبا والغرب قد اتخذت صيغتها المطلوبة. إن الأوراسية الجديدة تعترف، وهي تصغي إلى القاريين الأوروبيين، بالأهمية الاستراتيجية لأوروبا بالنسبة للاكتمال الجيوبولتيكي واكتمال

«المجال الكبير» الأوراسي، واضعة في الاعتبار بصفة خاصة أن عامل التقسيم المتذبذب للخارطة الجيوبولتيكية لأوروبا هو بالذات الذي أدى إلى هزيمة الاتحاد السوفياتي في «الحرب الباردة».

والخاصية الأخرى للأوراسية الجديدة هي اختيار الدول الإسلامية (وبخاصة إيران القارية) على أنها الحليف الاستراتيجي الأهم. وتكمن فكرة الحلف الروسي ـ الإسلامي في أساس الاستراتيجية المعادية للأطلسية على الساحل الجنوبي الغربي من اليابسة الأوراسية. وعلى مستوى العقيدة يتسم هذا الحلف بالطابع التقليدي للحضارتين الروسية والإسلامية ـ وهو ما يوحّدهما في مواجهة الغرب العلماني النفعي.

في هذا التوجه الذي تتخذه الأوراسية الجديدة يتم اكتمال بناء لوحة المشاريع الجيوبولتيكية مطبقة على الوضع الحيوي ـ ذلك لأن المشروع الأوراسي الجديد يمثل ـ من جوانبه الإيديولوجية والسياسية والموقفية أيضاً، النقيض الثابت، الأكمل، والأتمّ ـ والمؤسس تاريخياً ـ بالنسبة لكافة المشاريع الجيوبولتيكية الغربية (سواء منها الأطلسية أو العولمية).

العولمة والأطلسية تعبّران عن مظهرين من الإيديولوجية الجيوبولتيكية للغرب المتطرف. فالأوروبية والقارية المعتدلة لدى الجيوبولتيكيين الأوروبيين تمثل واقعاً بينياً. وأخيراً فإن الأوراسية الجديدة في صحيفة «دين» ومجلة «ايليمنتي» بصفة خاصة تعبر عن وجهة النظر الجذرية المعادية للغرب ـ التي تتلاقى مع كافة المشاريع الجيوبولتيكية البديلة الأخرى ـ من الناسيونال ـ بلشفية الأوروبية وحتى الأصولية الإسلامية (أو «الاشتراكية الإسلامية) وحتى حركات التحرر الوطنية في كافة أصقاع **العالم الثالث**.

أما الصور الأخرى من الأوراسية الجديدة فأقل منطقية وتمثّل تكيف مجموع الأفكار التي سبقت الإشارة إليها مع الواقع السياسي المتغير: سواء اقتصر الحديث على «الأوراسية» الاقتصادية البراغماتية ـ المدعوة لإعادة التأثير الاقتصادي المتبادل بين جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة (مشروع رئيس جمهورية كازاخستان ن. نزاربايف)، أم كان يدور حول تأثير الأطروحات التوسعية (مشروع ف. جيرينوفسكي المتعلق بالدولة العظمى) أو حول الدعوة الخطابية المجردة إلى

«الجماعة الأوراسية» من أجل الحفاظ على وحدة الأقليات الروسية والقومية (وهم في غالبيتهم من إتنيات الترك والمسلمين) في نطاق الفيدرالية الروسية (مشروع عدد من شخصيات حكومة ب. يلتسين) أو حول الاهتمام التاريخي المجرد بتراث حلقة سافيتسكي، تروبتسكوي، سوفتشينسكي، كارسافين وسواهم في المهجر. إلا أن جميع هذه الصيغ مصطنعة بالضرورة، جزئية، بعيدة عن المنطق ولا يمكنها أن تطمح إلى مستوى الإيديولوجية أو المنهجية الجيوبولتيكية الجادة. ولهذا فإن التوقف الأكثر تفصيلاً إزاءها لا يكتسب أي معنى.

نشير فقط إلى أن أي استعانة بالأوراسية والأوراسيا مهما كان محدوداً المغزى الذي يضمنه لهذين المفهومين أولئك الذين يستخدمونهما، وما إذا كان هؤلاء يحيلون، تعريضاً أو بصورة مباشرة ـ إلى ذلك المشروع غير الأوراسي الذي تمت صياغته في دوائر المعارضة واتخذ صياغته في أعمال كتّاب «دين» و «ايليمنتي»؛ ففي هذا السياق فقط يتخذ استخدام كلمة الأوراسية تبريره ويكتسب مقبولية المدرسة الجيوبولتيكية الروسية وتطابقه مع المجموع العام للمشاريع الجيوبولتيكية ذات البعد الكوني والموجودة خارج روسيا.

6 ـ 3 نحو ثنائية جديدة للقطبين

تقف الأوراسية الجديدة، إلى جانب تراثها الثقافي والمبادىء العامة للجيوبولتيكا القارية، في مواجهة القضايا الأكثر حداثة والموضوعة في صيغة مشاريع الغرب الجيوبولتيكية الأخيرة. وفضلاً عن ذلك فإن هذا التوجه الجيوبولتيكي يكتسب مغزاه فقط في المستوى الذي يفلح لا في أن يفسّر فقط ومن وجهة النظر الجيوبولتيكية ـ منطق الأحداث التاريخية الجارية، بل وأن يصوغ المشروع المستقبلي المترابط القادر على مواجهة مخططات الغرب.

وانتصار **الغرب** في «الحرب الباردة» يعني من الناحية البنيوية انتهاء ثنائية القطبين وبداية العالم أحادي القطب. وإزاء ذلك إذا كان الأطلسيون الخالصون (هنتينغتون) يفترضون أن هذه الأحادية القطب ستكون نسبية ـ فسيضطر **الغرب** (The West) المنتصر بصفة دائمة لتسوية النزاعات المتنامية بين الحضارات مع «الباقي» (The Rest). فإن العولميين (فوكوياما، أتّالي) يرون الهيمنة الخالية من

المشاكل للغرب على الكوكب الأرضي كله على أنه حدث قد تم فعلاً. حتى إن الصيغة الأكثر تناقضاً والتي يطرحها البروفيسور سانتورو تفترض في النهاية، إقامة **الحكومة العالمية**.

تلك هي مشاريع المنتصرين الجيوبولتيكيين الذين يملكون اليوم الأفضليات التي لا تجادل والمبادرة الاستراتيجية والتي لا بد من أخذها في الحسبان وعلى أعلى المستويات. وهم جميعاً يلتقون عند أمر واحد: على الكوكب الأرضي ـ لا بد وأن تنتصر ـ عاجلاً أو آجلاً العالمية الغربية النمط، أي إن النظام الأطلسي، التالاسوكراتي، للقيم يجب أن يصبح المسيطر في كل مكان. أما العالم الثنائي القطبين العائد لأيام الحرب الباردة فيعد أمراً تم التخلص منه. وبكل بساطة لم يعد للأوراسيا والأوراسية من مكان في مثل هذه اللوحة ـ وهذا كله منطقي وينبثق مباشرة من أعمال الجيوبولتيكيين الانجلوساكسون الأول الذين كانوا يحاولون بكل الوسائل إضعاف قوى **البر** بتدمير قدراتهم وتحجيم تطورهم بمختلف الأساليب الاستراتيجية ـ واستراتيجية «الأناكوندا» بشكل خاص، أي السيطرة المتشددة على مساحات متزايدة من الـ Rimland.

والأوراسية الجديدة لا يمكنها ـ وقد بقيت على حالها، الاعتراف بمشروعية مثل هذه الوضعية للأمور ـ وهي مدفوعة لأن تبحث عن إمكانية الدفع بكل هذه العمليات إلى الوراء. وهي تبدأ من المسألة المركزية ـ مسألة القطب الواحد. فالقطب الواحد (سيطرة الأطلسية في أي صيغة كانت ـ سواء في صيغتها المصفّاة أم عبر العولمة) يحكم على الأوراسيا كـ heartland بالعَدَم التاريخي. وتصر الأوراسية الجديدة على مواجهة هذه الأحادية القطبية.

ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عبر **ثنائية قطبية جديدة**.

وهذا أمر يتطلب الإيضاح. فثمة وجهة نظر تقول إن العالم سينتقل، بعد نهاية المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، بصفة تلقائية إلى نظام التعددية القطبية. فتبرز الصين ـ والعمليات الديموغرافية ستخرج البلاد الإسلامية جيوبولتيكياً إلى عداد البلدان المركزية، وتعلن منطقة المحيط الهادي عن قدرتها التنافسية مع أوروبا وأمريكا إلى ما هنالك. وهذا كله ممكن ـ لكن ما لا يؤخذ هنا في الحسبان هو أن مثل هذه التعددية الجديدة للأقطاب ستجري تحت راية «النظام

الأطلسي للقيم» أي إنها لن تمثل إلا التنوعات الأقليمية للنظام التالاسوكراتي وليس بأي شكل من الأشكال البديل الجيوبولتيكي الحق. تحدي الغرب، تحدي السوق والليبيرالية ـ الديموقراطية ـ هو شمولي. وبعد هزيمة الـ heartland جردت جميع محاولات الشعوب والدول في السير عبر طريق آخر غير الغربي من قاعدتها الأساسية. والنظم الموالية للسوفيات وجميع دول «عدم الانحياز» المصرّة على سلوك «الطريق الثالث» إنما وجدت على حساب ثنائية القطبين، على حساب الشرخ الذي كان قائماً بين الغرب والشرق في صراعهما الخنادقي الجيوبولتيكي. وسيبدأ **الغرب** المعاصر المنتصر منذ اليوم بإملاء شروطه الإيديولوجية والاقتصادية على كل من يتطلع إلى دور المنطقة المتطورة. ولهذا فإن أي تعددية قطبية إزاء الحفاظ على الواقع القائم ستكون زائفة وعولمية.

وهذا ما يعيه بصورة غير سيئة الاستراتيجيون الغربيون الذين يدركون جيداً أن مهمة **الغرب** الجيوبولتيكية الرئيسية في هذه المرحلة هي الحيلولة دون إمكانية تشكيل معسكر جيوبولتيكي واسع قاري البعد يمكنه بهذه المقاييس أو تلك أن يقارن بقوة الأطلسية. وهذا هو المبدأ الرئيس في المعتقد العسكري السياسي للولايات المتحدة وقد تمت صياغته في تقرير بول ولفوفيتس. وبكلمة أخرى فإن **الغرب** لا يرغب بعد الآن في العودة إلى ثنائية القطبين. وإلا كان ذلك خطراً قاتلاً عليه.

انطلاقاً من مصالح «المحور الجغرافي للتاريخ» تُفترض الأوراسية نقيضاً مباشراً للغرب. والمخرج الوحيد من الوضع المتشكل يمكن أن يكون فقط الثنائية القطبية الجديدة. ففي هذا التوجه وحده يمكن للأوراسية أن تمتلك أفق الاستقلالية الجيوبولتيكية الحق. ويمكن للثنائية القطبية الجديدة وحدها أن تفتح الطريق فيما بعد لمثل هذه التعددية القطبية التي من شأنها أن تتجاوز أطر النظام التالاسوكراتي الليبيرالي ـ الديموقراطي أي لتلك التعددية القطبية الحقيقية في العالم والتي يختار كل شعب فيها وكل معسكر جيوبولتيكي منظومة قيمه الخاصة ويمتلك فرصة وجوده فقط بعد التحرر من الهيمنة الأطلسية العالمية عبر مواجهة كونية جديدة.

ومما له أهميته أيضاً أن المعسكر الأوراسي القاري لا يمكن أن يصبح مجرد إعادة لحلف وارسو. فانهيار البناء الجيوبولتيكي القاري السابق أمر لا عودة فيه، وهو يتجذر في بنيته ذاتها. وعلى الحلف القاري الجديد إما إن يشتمل على أوروبا

كلها حتى الأطلسي بالإضافة إلى عدد من القطاعات الأهم من الشاطىء الجنوبي للأوراسية ـ الهند، إيران، الهند الصينية وما إلى ذلك. وأما أن يضمن الحياد الودّي لهذه البقاع أي أن يخرجها من تحت هيمنة الأطلسية. والعودة إلى الثنائية القديمة غير ممكنة لأسباب كثيرة ـ من بينها الإيديولوجية. والثنائية الأوراسية الجديدة يجب أن تنبثق من منطلقات إيديولوجية مغايرة تماماً وأن تؤسس على مناهج مختلفة كل الاختلاف.

نظرية «الثنائية القطبية» الجديدة هذه لقيت تطويرها الكافي في المشاريع الأوراسية الجديدة إذ كانت الأساس النظري لكافة النظريات الجيوبولتيكية الانشقاقية في أوروبا والعالم **الثالث**. ومثلما يعد الـ heartland من الناحية الموضوعية النقطة الوحيدة التي يمكنها أن تكون جسراً للبديل الكوني للتالاسوكراتيا فإن الأوراسية الجديدة تمثل القاعدة النظرية الوحيدة التي يمكن على أساسها بناء مجموعة كاملة من الاستراتيجيات الشمولية الرافضة للهيمنة العالمية للأطلسية ومنظومتها الحضارية للقيم: السوق، الديموقراطية الليبيرالية، الثقافة العلمانية، فلسفة الفردية وما إلى ذلك.

الباب الثالث

روسيا والمدى

Heartland

تمثل روسيا، من وجهة النظر الاستراتيجية، كتلة قارية هائلة تتماهى مع الأوراسية نفسها. وبعد استصلاح سيبيريا وتكاملها تطابقت روسيا مع مفهوم الـ heartland الجيوبولتيكي أي «الأرض المتوسطة» في القارة. وقد حدّد ماكيندر المدى المكاني الروسي الكبير بأنه «المحور الجغرافي للتاريخ». وتمثل روسيا الناحية الجغرافية وسطحية الأرض، ومن الناحية اللغوية، المناخية، الثقافية والدينية الوحدةَ النسيجية **للغرب** الأوراسي والشرق الأوراسي، ووظيفتها الجيوبولتيكية تؤدي إلى إجمال التوجهات الغربية والشرقية، أو الحديث عنها بالوساطة، فروسيا ـ شيء ثالث، مستقل وخاص ـ لا هي **الشرق** ولا هي **الغرب**. وقد تحدث الأوراسيون الروس من خلال تفسيرهم الثقافي للوضع «المتوسط» لروسيا، عن الثقافة الخاصة «**للإمبراطورية المتوسطة**» حيث تُشطب المواجهات الجغرافية والجيوبولتيكية في تركيبها الروحي، العمودي. ومن وجهة النظر الاستراتيجية البحتة تتماهى روسيا مع الأوراسية نفسها، على الأقل لأن أراضيها بالذات وسكانها وتطورها الصناعي ـ التقني تتمتع جميعاً بالحجم الكافي لتكون أساساً للاستقلالية القارية، للاكتفاء الذاتي ولتصبح أساساً للتكامل القاري التام، وهو ما ينبغي أن يجري، وفق القوانين الجيوبولتيكية، لكل «جزيرة» بما في ذلك «**الجزيرة العالمية**» (World Island) نفسها أي الأوراسيا.

بالنسبة لروسيا ـ الـ Heartland **تبدو جميع** الدول والأراضي الأوراسية الأخرى **ساحلية** Rimland فروسيا «**محور التاريخ**» ما دامت الحضارة تدور **حولها** مبدعة صيغها الزاهرة، المعبّرة، المكتملة لا في مصبها القاري المبدع للحياة بل في «بقعتها الشاطئية»، في الشريط الحرج، حيث يتجاوز مدى **اليابسة** مع مدى

الماء، البحر أو المحيط. ومن وجهة النظر الاستراتيجية تبدو روسيا بنياناً مكانياً مستقلاً يتماهى أمنه واستقلاليته مع أمن واستقلالية قارة بكاملها. وهذا ما لا يمكن قوله عن أي دولة أوراسية أخرى ـ لا عن الصين، ولا ألمانيا. ولا فرنسا ولا الهند. وإذا كانت الصين، ألمانيا أو فرنسا أو الهند أو غيرها تستطيع، في علاقاتها مع جيرانها الساحليين أو نحو دول «الجزر» أو القارات الأخرى، أن تتصرف كقوة **قارية** فإنها تبقى بالنسبة لروسيا «شريطاً ساحلياً» أو **Rimland** مع كل التبعات الاستراتيجية، الثقافية والسياسية. روسيا وحدها القادرة على أن تتعرف باسم الـ Heartland بكل حجتها الجيوبولتيكية الكاملة. والمصالح الاستراتيجية الخاصة بها لا تقترب فقط من مصالح القارة بل وتتماهى معها (على الأقل على المستوى الفاعل لتطور المجال التقني).

مشكلة الـ Rimland

علاقة روسيا بالحضارات القارية المجاورة ـ الرومانو ـ جرمانية في **الغرب** والحضارات التقليدية الثلاث في **الشرق** (الإسلامية ـ الهندوسية والصينية) ـ تتسم، على الأقل بمستويين لا يجوز الخلط بينهما بأي حال لأن ذلك يؤدي بصورة حتمية إلى عدد كبير من الارتباكات. أولاً، الجوهر الثقافي ـ التاريخي لروسيا، وخصوصيتها الروحية «وهويتها الذاتية» تُعرّف ـ دون شرط في إطار صيغة «**لاالشرق** ولا **الغرب**» أو «لا أوروبا ولا آسيا بل الأوراسيا» (وفقاً لتعبير الأوراسيين الروس). وروسيا من الناحية الروحية شيء آخر، مستقل وخاص، لا تعبير عنه في مصطلحات الشرق ولا في مصطلحات الغرب. وعلى هذا المستوى فإن المصلحة العليا لروسيا تتمثل في **الحفاظ** بأي ثمن على فرادتها، الدفاع عن خصوصيتها أمام تحدي **الغرب** وتقاليد **الشرق**. وهذا لا يعني الانعزالية التامّة، إلا أنه يحد من أفق الاستعارات الممكنة: والواقعية التاريخية تطالبنا بالاعتراف الشجاع بأن التأكيد على «ما هو خاص بنا، ما هو لنا» يسير متوازناً دوماً مع رفض «ما هو غريب»، «ما ليس لنا». والتأكيد والرفض يمثلان العناصر الأساسية للاستقلالية القومية الثقافية، التاريخية والسياسية للشعب والدولة. ولهذا فإن رفض **الغرب والشرق** في المخطط **الثقافي** يمثل العنصر التاريخي الثابت لاستقلالية روسيا. ومن الطبيعي بالنسبة لهذه القضية أن تكون أشد اللوينات والسجالات اختلافاً ـ فمع الاعتراف بالخصوصية يرى البعض أن من الأفضل الانفتاح على **الشرق** من الانفتاح على **الغرب** («التوجه الآسيوي» ويرى آخرون (الغربيون(*)) عكس ذلك بينما يفضل ثالثون رفض أي نوع

(*) الغربنة: اتجاه في المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر. كان يدعو إلى تطور =

من الحوار («الانعزاليون») ويقترح رابعون انفتاحاً متساوي الوتيرة على الجهتين (بعض اتجاهات «الأوراسية الجديدة»).

أما على المستويين الاستراتيجي والجيوبولتيكي المحض فيبدو الوضع مختلفاً تماماً. وبما أن روسيا ـ الأوراسيا في المرحلة التاريخية الحاضرة لا تواجه «عدواً كونياً» في صورة «الحضارات الشاطئية» الـ Rimland بقدر ما تواجه «الجزيرة» المقابلة لها وهي «أمريكا الأطلسية» فإن ما هو استراتيجي وأكثر إلحاحاً تحويل «الأراضي الساحلية» إلى حلفاء لها، التغلغل الاستراتيجي إلى المناطق «الساحلية»، إقامة الحلف الأوراسي العام أو، على الأقل، تأمين الحياد الكامل والصارم لأكبر عدد من الـ Rimland في مواجهة «خنادقية» مع الغرب ما بعد الأطلسي. والصيغة الاستراتيجية لروسيا يجب أن تعني هنا وبمعنى واحد «الشرق والغرب» وذلك لأن التكامل القاري بين الأوراسيا والمركز في روسيا يمكنه، لوحده أن يضمن **لجميع** الشعوب والدول الاستقلالية الحقيقية والحد الأعلى من الاكتفاء الذاتي السياسي والاقتصادي. وعلى المستوى الاستراتيجي ليس فعالاً اليوم إلا هذه المواجهة الواحدة ـ الوحيدة: إما العولمة (الهيمنة العامة للأمركة والأطلسية على العالم) أو القارية (تقسيم الكوكب الأرضي إلى مجالين كبيرين أو أكثر لكل منهما استقلاليته السياسية، العسكرية، الاستراتيجية والجيوبولتيكية). والـ Rimlands ضرورية لروسيا من أجل أن تصبح فعلاً قوة جيوبولتيكية قارية مستقلة. أما في اللحظة الحاضرة، وإزاء التطور الفاعل للتقنيات العسكرية، الاستراتيجية والاقتصادية فلا يمكن أن يكون هناك أي نوع من الاستقلالية غير القارية: فجميع المشاريع «الاتنوكراتية» أو «الانعزالية» المحضة والخاصة بحل المشكلة الحكومية لروسيا في الميدان الاستراتيجي تقدم نتيجة تتطابق بصفة صارمة مع المخططات العولمية وذلك فيما يخص الهيمنة الشمولية على الكوكب الأرضي والاحتلال الاستراتيجي ـ السياسي والاقتصادي الكامل للأوراسيا وروسيا.

= روسيا وفقاً للطريق الأوروبي الغربي، ووقف معارضاً لدعوة السلافيانوفيل. وانتقد أتباعه نظرية «الشعبية» وحق القنانة والحكم المطلق. وطرحوا موضوع تحرير الفلاحين والأرض. من أهم ممثليهم ب. أنينكوف، ف. بوتكين، ت. غرانوفسكي، ب. تشاآدايف، ك. كافيلين م. كاتكوف وإ. تورغينيف. كان لهم عدد من المنابر الصحفية منها «المعاصر»، «البشير الروسي» و «مذكرات وطنية». (المترجم).

من الواضح أن نقل الاشكالية الثقافية ـ التاريخية لروسيا إلى المستوى الاستراتيجي أو الجيوبولتيكي (أي إسقاط المعنى الجيوبولتيكي المحض على معادلة «لا **الشرق** ولا **الغرب**») ليس إلا **عملاً تخريبياً سياسياً** موجهاً نحو تضليل استراتيجي للنهج السياسي الخارجي لروسيا. وكائناً ما كان ذلك الذي يثوي في أسس النماذج «الاتنية الضيقة»، «العرقية ـ القومية» أو «الشوفينية» للدولتيّة الروسيّة ـ أهو الجهل، أم السخط أم العمل الواعي ضد الشعب وضد استقلاليته ـ فإن نتائج ذلك هي التماهي الكامل مع الأهداف العولمية. فبدون تحويل روسيا إلى «معزل اتني» لن تستطيع الولايات المتحدة تحقيق الهيمنة **الكاملة** على العالم.

ومشكلة الـ Rimland تُطرح على هذه الصورة بالذات في أيامنا الحاضرة عندما يتبقى وراء ظهورنا كل التاريخ الاستراتيجي للعالم الثنائي القطبين والحرب العالمية الباردة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. وفي ذروة الفعالية السياسية للأوراسيين الروس كان الوضع الاستراتيجي مختلفاً بالكلية ـ وما كان قادراً على النظر نحو المستقبل إلا القلائل. ولهذا ينبغي النظر إلى بعض مشاريع الأوراسيين الجيوبولتيكية بحذر. فقد كانوا يناقشون قضية الـ Rimland بصورة أقرب إلى المفهوم الثقافي منه إلى الاستراتيجي. ومن الضروري أخذ هذا كله في الحسبان حتى تتمكن روسيا من وضع برنامج جيوبولتيكي جاد ومؤسس، واقعي وحافل بالأمل يحسن أن توضع على رأس قائمته الأولية الجيوبولتيكية الرئيسة ـ استقلالية روسيا العظمى ـ سيادتها، ذاتيتها، اكتفاؤها الذاتي وحريتها.

تجميع الإمبراطوريّة

أحد المنطلقات الأساسية للجيوبولتيكا هو التوكيد على أن الوضع الجيوبولتيكي للدولة يفوق في الأهمية بكثير خصائص البناء السياسي لهذه الدولة. فالسياسة والثقافة والايديولوجيا وطابع النخبة الحاكمة بل والدين نفسه يُنظر إليها جميعاً في عدسة الجيوبولتيكا على أنها **عوامل مهمة، لكنها ثانوية** بالمقارنة مع المبدأ الجيوبولتيكي الأساسي ـ **علاقة الدولة بالمكان**. وكثيراً ما ينظر (وبخاصة عندنا في روسيا) إلى خاصية الجيوبولتيكا هذه كعلم بنظرة تقترب من «الاستهتار» بل و «العداء للوطن». ومن الطبيعي أن هذا كله غير صحيح. فالجيوبولتيكا ببساطة لا تطمح لأن تكون المرجعية الوحيدة والعليا عند تحديد المصالح الحكومية والسياسية للأمة. الجيوبولتيكا ـ واحدة من عدد من العلوم الأساسية، التي تمكّن، بصورة صحيحة، من صياغة العقيدة العالمية والعسكرية للدولة بالإضافة إلى علوم أخرى لا تقل عنها أهمية. فلكي تكون الفيزياء علماً دقيقاً عليها أن تتجرد من الكيمياء وقوانينها (وهذا لا يعني أن الفيزياء ترفض الكيمياء)، وهكذا الجيوبولتيكا فلكي تكون علماً صارماً يجب عليها أن تتخلص من المقاربات الأخرى غير الجيوبولتيكية، والتي يمكن بل ويجب أن تؤخذ في الحسبان عند اتخاذ القرارات النهائية المتعلقة بمصير الدولة والشعب مضافة إلى الجيوبولتيكا.

وأحد المطالب الجيوبولتيكية الأكثر إلحاحاً بالنسبة لروسيا هو «تجميع **الإمبراطورية**». ومهما كانت علاقتنا بـ «اشتراكية» «الاتحاد السوفياتي» بالمعسكر الشرقي، بدول حلف وارسو وما إلى ذلك، وبأي صورة من الصور قيمنا الواقع السياسي والثقافي لاحدى الدولتين العظميين فمن وجهة النظر الجيوبولتيكية كان

وجود المعسكر الشرقي يعني في الوقت نفسه العامل الايجابي لاحتمال قيام الوحدة الأوراسية من أجل التكامل القاري واستقلالية **مدانا المكاني الكبير** فالمنطق الجيوبولتيكي هو الذي جعل المنظّر البلجيكي جان تيريار يتحدث عن ضرورة إقامة «الإمبراطورية الأورو - سوفياتية من فلاديفوستوك إلى دوبلن» فالمعسكر الشرقي وحده كان قابلاً ليكون الأساس لتوحد الأوراسيا في امبراطورية، علماً بأن تقسيم أوروبا ولا منطقية السياسة السوفياتية في آسيا كان عائقاً جدياً في وجه تحقيق هذا الهدف. وقد كان انهيار الاتحاد السوفياتي وفق رأي عدد كبير من علماء الجيوبولتيكا المعاصرين مشروطاً إلى حد كبير بانكشاف الجراح الاستراتيجية على الحدودين الغربية والشرقية - كانت الولايات المتحدة تهيمن على Rimland **الغرب والشرق** بدرجة من المهارة والمنطق إلى درجة أنها لم تسمح بالتكامل القاري وساعدت على انهيار المعسكر الشرقي نفسه. ونهاية العالم الثنائي القطبين - هي الضربة الاستراتيجية للأوراسيا، ضربة للاستقلال القاري وللاستقلال المحتمل **لجميع** دول الأوراسيا.

إن الأولية الملحة للاستقلالية الجيوبولتيكية والاستراتيجية لروسيا لا تتحدد بإعادة المناطق المضيعة، «الخارج القريب» فقط، وليس فقط في بعث علاقات التحالف مع دول أوروبا الشرقية بل وأيضاً في تعزيز إدخال دول **الغرب** القاري (وبالدرجة الأولى المعسكر الفرانكو - جرماني الذي يتطلع إلى التحرر من الرعاية الأطلسية للناتو المناصر لأمريكا) والشرق القاري (إيران - الهند واليابان) في الحلف الأوراسي الاستراتيجي الجديد.

و«تجميع الإمبراطورية» في مفهومه الجيوبولتيكي لا يعد بالنسبة لروسيا واحداً من الطرق المحتملة للتطور فقط بل واحداً من العلاقات الممكنة للدولة نحو المدى المكاني بل والضمانة والشرط اللازم لوجود الدولة المستقلة، وفوق ذلك - **الدولة المستقلة في القارة المستقلة.**

وإذا كانت روسيا لن تبدأ على التو بإعادة بناء المجال المكاني الكبير أي بإعادة تلك الآماد الأوراسية المضيّعة ضمن مجال تأثيرها الاستراتيجي فإنها تلحق الكارثة بنفسها وبجميع الشعوب القاطنة في **الجزيرة العالمية.**

ويمكن بسهولة استشراف مسيرة الأحداث. فإذا ما اختارت روسيا طريقاً آخر غير «طريق تجميع **الإمبراطورية**» فإن دولاً أخرى أو تحالفات دول ستتبنّى رسالة الـHeartland القارية. وفي هذه الحالة تغدو الآماد الروسية هدفاً استراتيجياً أساسياً لتلك القوى التي تعلن نفسها «قلعة الأوراسيا» الجديدة. فإما أن تقوم الصين بقفزة يائسة باتجاه **الشمال** ـ نحو كازاخستان **وسيبيريا الشرقية**، أو **تتحرك أوروبا الوسطى** باتجاه الأراضي الروسية ـ الغربية ـ نحو أوكرانيا، بيلوروسيا، روسيا الكبرى الغربية، أو يقوم المعسكر الإسلامي بمحاولة التكامل مع **آسيا الوسطى**، منطقة الفولجا والأورال بالإضافة إلى بعض مناطق روسيا الجنوبية. ومن المستحيل تلافي مثل هذا التكامل القاري الجديد لأن الخارطة الجيوبولتيكية الكونية نفسها تقف في مواجهة الأطلسية الأحادية القطب. وثمة في الجيوبولتيكا قانون مقدس مشروع يقول: «المكان المقدس لا يخلو» ويجب القول إن ما يدفع إلى تفعيل التحركات الأوراسية الأخرى باتجاه الأراضي الروسية لن يكون «الأنانية الإقليمية» ولا «كراهية الروس» بل منطقية المدى المحتومة والسلبية الجيوبولتيكية من طرف روسيا. وفي أجواء الاستراتيجية القارية يكون من الغباء توقع أن تتوقف الشعوب الأخرى أمام التوسع الإقليمي باتجاه الأراضي الروسية فقط بسبب الاحترام لـ«أصالة الثقافة الروسية» ففي هذا الميدان لا تتحرك إلا الحوافز المرتبطة بالقوة وبمساحة الأرض وبالأفضليات في المواقف، بل إن مجرد حقيقة التردد في موضوع «تجميع **الإمبراطورية**» يعد تحدياً كافياً ـ أساساً كافياً لتقوم الآماد الجيوبولتيكية البديلة الكبرى بالتحرك باتجاه الحدود الروسية. ومن الطبيعي أن يستدعي ذلك ردة فعل الروس وأن يجر وراءه نزاعاً أوراسياً بشعاً لا مستقبل له، فهو بلا مستقبل لأنه لن يحظى بالحل الإيجابي حتى من الناحية النظرية، فإقامة أوراسيا غير روسية تستلزم إبادة كاملة للشعب الروسي وهذا أمر ليس من السهولة بمكان ـ بل ويؤكد التاريخ على أنه مستحيل. ومن ناحية أخرى فإن مثل هذا النزاع سيفتح خط جبهة بين دول متجاورة ذات توجه قاري معاد للأطلسية، وهو ما لا يزيد على أن يعزز مواقع القوة الثالثة أي الولايات المتحدة وحلفائها في المشاريع العولمية.

إن انتفاء الفعل، نوع من الفعل نفسه، والتباطؤ في «تجميع **الإمبراطورية**» (هذا إذا صرفنا الحديث عن الرفض الممكن لتوسع روسيا الجيوبولتيكي سيجر وراءه بصورة حتمية سيولاً من الدماء الأوراسية. والأحداث في البلقان تقدم مثالاً

مرعباً لما يمكن أن يحدث في روسيا ولكن ضمن أحجام أعظم إلى حدود لا يمكن قياسها.

إن توحيد الأراضي الروسية تحت حماية روسيا كـ«**محور التاريخ**» محفوف اليوم بصعوبات محدّدة إلا أن هذه الصعوبات زهيدة جداً أمام تلك الكوارث التي تحْدق إذا لم يجر البدء بـ«**تجميع الإمبراطورية**» في أسرع وقت.

البحار الدافئة والباردة

عملية «تجميع **الإمبراطورية**» ينبغي أن تتوجه منذ بدايتها نحو غاية بعيدة وهي انفتاح روسيا على البحار الدافئة. فبفضل كبح التوسّع الروسي في الاتجاهات الغربية، الجنوبية الغربية، والشمالية الغربية بالذات، تمكنت انجلترا الأطلسية من الاحتفاظ بهيمنتها على جميع «الآماد الشاطئية» المحيطة بالأوراسيا. ومن الناحية الجيوبولتيكية كانت روسيا دولة «مكتملة» في **الشرق والشمال** حيث تطابقت حدودها السياسية مع الحدود الجغرافية الطبيعية للبر الأوراسي. لكن المفارقة تتمثل في كون هذه السواحل تتلاصق بالبحار **الباردة** وهو ما يشكل حاجزاً منيعاً دون تطوير الملاحة البحرية في المستوى الذي يمكن به بصورة جادة القيام بالمنافسة على البحار التي ترفع راية **الجزيرة الغربية** (انجلترا، ثم أمريكا فيما بعد). ومن ناحية أخرى فإن الأراضي الروسية، الشرقية والشمالية لم يجر استثمارها بصورة كافية بسبب من خصائص طبيعية وثقافية، وكافة المشاريع المتعلقة بتكامل آسيا الروسية ـ بدءاً من تلك التي اقترحها الدكتور بادمابيف على الإمبراطور الأخير وحتى خط بايكال ـ أمور المرتبط ببريجنيف ـ تم تدميرها بفعل منطقية محيّرة ما وتحت تأثير الجوائح التاريخية، العفوية منها والمقصودة.

ومهما يكن من أمر فإن إيجاد مخرج على البحار الباردة في الشمال والشرق يجب أن يُتّمم بالانفتاح على البحار الدافئة في الجنوب والغرب، وفي هذه الحالة فقط تصبح روسيا «مكتملة» من الناحية الجيوبولتيكية، وفي سبيل ذلك دارت الحروب الروسية ـ التركية الوفيرة الأعداد والتي على فكرة، ما جنى ثمارها الترك ولا الروس، بل الإنجليز الذين أراقوا دماء الإمبراطوريتين التقليديتين الأخيرتين من بين الإمبراطوريات الثلاث (الثالثة هي ـ إمبراطورية النمسا والمجر). أما الاندفاعة

الأخيرة نحو الجنوب الذي يمثل ضرورة حياتية لروسيا فكان التوسع الفاشل للاتحاد السوفياتي نحو أفغانستان. والمنطق الجيوبولتيكي يظهر بنفس المعنى بأنه سيكون حتماً على روسيا أن تعود إلى هناك على الرغم من أنه كان أفضل بكثير أن تعود في صورة حليف وفيّ، حام وصديق، من أن تعود في صورة جلاد غليظ القلب. وآنذاك فقط وعندما يصبح الخط الساحلي حدوداً جنوبية وغربية لروسيا يمكن الحديث عن الاكتمال النهائي لبنيانها الاستراتيجي. وليس ضرورياً إزاء ذلك أن يدور الحديث حول الفتوحات والتوسع وعمليات الإلحاق فالحلف الاستراتيجي المكافىء، القوي، المعادي للأطلسية، المعقود مع الدول القارية، الأوروبية منها والآسيوية، يمكن أن يكون كافياً لتحقيق هذا الهدف. والخروج إلى البحار الدافئة يمكن التوصل إليه ليس فقط عن طريق الحرب الدامية، بل ومن خلال سلام عقلاني مفيد للمصالح الجيوبولتيكية لجميع الدول القارية، لأن مشروع التكامل الاستراتيجي الأوراسي سيمكن **جميع** تلك الدول من أن تكون حرة ومستقلة أمام **الجزيرة** الأطلسية البديلة والتي وحّدها بدورها مبدأ مونرو الاستراتيجي. كانت الخلجان والبحار الدافئة محظورة على روسيا عندما لم يكن قد وجد بعد ذلك العامل الأطلسي الواضح، الولايات المتحدة، الذي يهدد مصالح أوروبا بأسرها وآسيا بأسرها وعندما كانت الدول الكبرى المختلفة في البر تنافس إحداها الأخرى على الأولوية في مواجهة إنجلترا وعلى القيادية في قضية الوحدة الترابية الاستراتيجية. لقد سلّط تطبيق مبدأ مونرو الضوء على مجموع الأهمية الجيوبولتيكية لروسيا ولهذا صار الاتحاد مع روسيا الثابت الملحّ الواضح بالنسبة لجميع علماء الجيوبولتيكا الواقعيين في القارة ـ مهما كان اللبوس السياسي الذي يلبسونه تبعاً للظروف، وخطر العولمة والشمولية الأطلسية يفتح لروسيا، من الناحية النظرية، منفذاً إلى البحار الدافئة عبر الحلف الذي يفرض نفسه بنفسه بين الـHeartland والـRimland ضد المحتلين القادمين من وراء البحار.

الباب الرابع

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

استحقاقية البديل الجذري

يطرح في مجتمعنا الحالي مشروعان مبدئيان يختصان بالمستقبل الروسي. وهما يلمسان، بهذه الدرجة أو تلك، كافة نواحي الحياة ـ القومية ـ الاقتصادية ـ الجيوبولتيكية وميدان العلاقات الدولية، المصالح الاثنية، التركيبة الصناعية، النمط الاقتصادي، البنية العسكرية وما إلى ذلك.

يعود المشروع الأول لليبيراليين الراديكاليين، «الإصلاحيين» الذين يتخذون مثلهم الأعلى المجتمع الغربي، «البناء التجاري» المعاصر، ويوقعون بأسمائهم بصفة كلية تحت المشاريع المتعلقة بـ«نهاية التاريخ» والتي جرى تطويرها في مقالة فرانسيس فوكوياما التي تحمل نفس العنوان وهذا المشروع يرفض تلك القيم المسماة بالشعب، الأمة، التاريخ، المصالح الجيوبولتيكية، العدالة الاجتماعية، العامل الديني وما إليها. ويقام كل شيء فيه على مبدأ الفعالية الاقتصادية القصوى، أولوية الفردانية، الاستهلاك و«السوق الحر». والليبراليون يريدون أن يُحلّوا في مكان روسيا مجتمعاً جديداً لم يسبق له وجود من الناحية التاريخية تقام فيه تلك القواعد والإحداثيات الثقافية التي يعيش عليها الغرب المعاصر وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن لهذا المعسكر أن يصوغ بكل سهولة الإجابة على أية أسئلة تتعلق بهذه الزاوية أو تلك من الواقع الروسي انطلاقاً من النماذج الجاهزة في الغرب، مستخدماً المصطلحات الليبرالية الغربية والمعايير الحقوقية ومعتمداً، فضلاً عن ذلك، على البنى النظرية التي أعدتها الليبرالية ـ الرأسمالية ككل. وكاد هذا الموقف أن يهيمن إيديولوجياً، ومنذ فترة غير بعيدة، على مجتمعنا، بل إنه لا يزال يمثل في أيامنا الحاضرة بالذات الموقف الأكثر شهرة لأنه يتطابق في عمومه مع المنحى العام للاصلاحات الليبرالية ولمنطقها المبدئي.

أما المشروع الثاني للمستقبل الروسي فيعود إلى ما يسمى بـ«المعارضة القومية ـ الوطنية» التي تمثل واقعاً سياسياً متعدد الأشكال متباين الوجوه، يوحد بينها رفض الاصلاحات الليبرالية والإعراض عن المنطق الليبرالي الذي يدعو له الاصلاحيون. وهذه المعارضة لا تبدو قومية ببساطة ولا وطنية ببساطة ـ إنها «وردية ـ بيضاء» أي يسيطر فيها ممثلو الشيوعيين الدّولتيين (ممن تخلوا بدرجة كبيرة عن العقائدية الماركسية ـ اللينينية المتشددة)، وأنصار الأرثوذوكسية ـ الملكية ذات النمط القيصري للحكم، لكن التشابه قائم بينهما ليس فقط في تحديد العدوّ المشترك، بل وفي بعض القوالب الإيديولوجية العقلية التي يتقاسمونها فيما بينهم وفضلاً عن ذلك تتكون «المعارضة» الوطنية في غالبيتها من شخصيات نظام ما قبل البيريسترويكا، ممن يقحمون عناصر العقلية السوفياتية الصرفة حتى في «المشاريع القيصرية»، «البيضاء» التي ما كانوا يمتّون إليها، في أغلب الأحيان بأي صلة تاريخية، أسرية، أو سياسية حتى بداية البيريسترويكا، فهم يحسّون بأنفسهم إحساساً رائعاً في الواقع البريجنيفي. ومهما يكن من أمر فمشروع المعارضة يمكن أن يسمى بالمشروع «السوفياتي ـ القيصري» لأنه يقوم على عدد من المفاهيم القديمة الإيديولوجية والجيوبولتيكية والسياسية، الاجتماعية والإدارية التي تقرب فيما بينها، من الناحية الموضوعية، المرحلة السوفياتية وما قبل السوفياتية (على الأقل في إطار القرن العشرين). وإيديولوجيا الوطنيين أشد تناقضاً وتضارباً من البنى المنطقية والمكتملة الصياغة لليبراليين، ولهذا فهي كثيراً ما تتجلى لا في صيغةٍ نظرية أو مقولة متكاملة بل متناثرةً عاطفية، غير مدروسة، مجزوءة، فإن هذا الخليط الساخر من النثرات السوفياتية ـ القيصرية العقلية يتميّز بشيء من التماسك الذي تصعب، في كثير من الأحيان، صياغته بطريقة عقلانية.

ومن الناحية الجوهرية يتخذ كلا هذين المشروعين ـ الليبرالي والسوفياتي ـ القيصري **طالباً مأزقياً** بالنسبة للشعب الروسي وللواقع الروسي. فالمشروع الليبرالي يفترض على العموم محواً تدريجياً للخصائص القومية للروس في المرحلة الكوسموبولتيكية لـ«نهاية التاريخ» و«السوق الكونية»، أما المشروع السوفياتي ـ القيصري فيحاول جاهداً بعث الأمة والدولة في نفس تلك الصيغ والبنى التاريخية التي أودت بالروس تدريجياً إلى الإفلاس.

وعلى الجانب الآخر من ليبرالية «الإصلاحيين» و«المعارضة الموحدة»

للسوفياتية، القيصرية ينضج الطلب الملح لإيجاد «الطريق الثالث» لمشروع إيدَيولوجي خاص، ليس توفيقياً ولا «وسطاً» بين أولاء وهؤلاء، بل خطة مستقبلية تجديدية تقطع أي علاقة مع منطق الازدواجية العقيم - «إما الليبراليون وإما «المعارضة» - حيث يهيم - كما في المتاهة ودون أن يجد مخرجاً، الوعي الاجتماعي المعاصر لدى الروس.

يجب قطع عقدة غورديوس(*) وفرض البديل الحق الذي يعارض أولئك وهؤلاء. فعلى الخارطة تُعرض أمةٌ عظيمة، مصالحها ومصيرها.

(*) عقدة غورديوس: تقول الأسطورة اليونانية إن غورديوس، ملك فريجيا كان قد شد عريش مركبة برباط ضخم بالغ التشابك سمي بعقدة غورديوس وتنبأ العرافون بأن من يحلها يملك العالم. فأعجز ذلك الكثيرين حتى جاء الاسكندر المقدوني فحلها بضربة من سيفه (سنة 334ق.م) وهكذا صار قطع عقدة غورديوس يعني الحل الحاسم السريع لمسألة معقدة (المترجم).

ما هي «المصالح القومية الروسيّة»

2 ـ 1 ليس للروس دولة الآن

في الوضع السياسي الحالي، يستحيل علينا، إذا ما تحدثنا بدقة، أن نتأمل في «الآفاق الاستراتيجية لروسيا». والأشد استحالة من ذلك أن نطرح أية مشاريع تتعلق بالسياسة الخارجية والداخلية لروسيا ما دام السؤال الرئيسي ـ **ما هي روسيا** اليوم؟ يبقى لا دون حل فقط بل ودون أن يطرح بما يستحقه من جديّة.

إن التحولات المندفعة في مجموع التكوين السياسي، الجيوبولتيكي، الإيديولوجي والاجتماعي، والتي حدثت في الاتحاد السوفياتي السابق، قلبت رأساً على عقب كافة المعايير الحقوقية والسياسية التي كانت قائمة. وانهيار النظام الاشتراكي الأوحد، والدولة السوفياتية من بعده، أقام على الأراضي السوفياتية السابقة حقلاً من اللامحدودية المطلقة لم تعد فيه أية توجهات واضحة ولا أية أطر حقوقية صارمة، ولا أية آفاق اجتماعية محدَّدة. وتلك البُنى الجيوبولتيكية التي تكونت «بطريقة آلية» بفعل عملية التسارع بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، طارئة، عارضة وبعيدة كل البعد عن الاستقرار. وهذا لا ينسحب فقط على الجمهوريات المنفصلة عن موسكو، بل وبالدرجة الأولى على روسيا نفسها.

ولبناء الخطط المتعلقة بـ«مصالح الدولة» علينا أن نملك تصوراً واضحاً عن الدولة التي يدور الحديث حولها بالذات. وبكلمة أخرى، فإن هذا يكتسب معناه عند وجود موضوع سياسي واضح الرؤية. وفي الوضع الراهن فإن مثل هذا الموضوع **لا وجود له** في الحالة الروسية.

من الواضح أن وجود روسيا، التي تفهم على أنها الفيدرالية الروسية (ف.ر) لا يَستجيب لأية معايير جادة عند تحديد وضع «الدولة». والهذيان المتعلق بتقييم وضع الفيدرالية الروسية في السياسة العالمية إنما هو بالذات الدليل على هذا الوضع للأمور. فما هي الفيدرالية الروسية. أهي وريثة الاتحاد السوفياتي وخليفته الحقوقية؟ أهي دولة جهوية؟ دولة متعددة القوميات؟ فيدرالية متعددة الاتنيات؟ جندرمة الأوراسيا؟ بيدق في المشاريع الأمريكية؟ أراض مكرّسة للتقسيم في المستقبل؟ انطلاقاً من شروط معينة تلعب الفيدرالية الروسية واحداً من هذه الأدوار بغض النظر عن التناقض المطلق في هذه التحديدات. فهي في لحظة من اللحظات ـ دولة ذات تطلع إلى دور خاص في السياسة العالمية، وهي في لحظة أخرى ـ دولة جهوية ثانوية الأهمية، وفي ثالثة ـ هي حقل للتجارب الانفصالية. وإذا كان لتشكل إقليمي سياسي أن يلعب بمفرده جميع هذه الأدوار في وقت واحد فمن الواضح أن الحديث يدور حول خاصية اشتراطية ما، حول عَظَمةٍ متبدلة، لا عن ذلك الحدث السياسي الخارق الكامل الراسخ الذي يمكن تسميته بالدولة بكل ما في الكلمة من معنى.

الفيدرالية الروسية ليست روسيا، ليست الدولة الروسية الكاملة الشخصية، إنها تشكل انتقالي في عملية جيوبولتيكية شمولية ديناميكية واسعة لا أكثر من ذلك. ومن الطبيعي أنه يمكن للفيدرالية الروسية أن تكون الدولة الروسية في المستقبل، لكن ليس من الواضح على الاطلاق أن ذلك سيحدث، كما أن من غير الواضح ما إذا كان ذلك يستحق السعي من أجله.

وعلى أية حال فإن من المستحيل الحديث على الأمد الطويل عن «المصالح الاستراتيجية» لمثل هذه الظاهرة المؤقتة غير المستقرة، كالفيدرالية الروسية، والأدهى من ذلك أن من الغباء صياغة «المبدأ الاستراتيجي للفيدرالية الروسية»، من غير الممكن الحديث عن آفاق بعيدة بالتأسيس على وضع الأمور في العصر الحاضر. فلا يمكن «للمصالح الاستراتيجية للفيدرالية» الروسية أن تتضح وترتسم ويتحدد الموضوع السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي والإيديولوجي لهذه المصالح، وبما أن ذلك لم يحدث بعد فإن كافة المشاريع في هذا الاتجاه تبدو في اللحظة الراهنة وهماً.

وليس للفيدرالية الروسية تاريخ دولة، حدودها جاءت بالصدفة، توجهاتها

الثقافية غامضة ونظامها السياسي متذبذب ـ رجراج، لوحتها الاتنية متنوعة، أما بناؤها الاقتصادي فمجزوء ومتفسخ إلى حد ما. وهذا الخليط ليس إلا نتيجة لانهيار تشكل جيوبولتيكي أكثر عالمية، جزيئة اقتطعت من لوحة متكاملة. وحتى من أجل أن يقام على هذا الهيكل من **الإمبراطورية** شيء راسخ البنيان سيحتاج الأمر إلى ثورة حقيقية شبيهة بثورة الشبان الأتراك الذين أقاموا من جزء من **الإمبراطورية العثمانية** تركيا العلمانية المعاصرة، (على الرغم من أن سؤالاً ينبثق في هذه الحالة أيضاً ـ وهل يستحق ذلك السعي من أجله؟).

وإذا كانت الفيدرالية الروسية ليست الدولة الروسية فإن مجموعة الدول المستقلة ليست إياها أيضاً. وعلى الرغم من أن جميع أراضي مجموعة الدول المستقلة (باستثناء ما نَدَر) كانت من الناحية العملية ـ تدخل في عداد الإمبراطورية الروسية، أي إنها كانت في وقت ما جزءاً من الدولة الروسية، فإن دول هذه المجموعة تملك في اللحظة الراهنة مستوى كافياً من الاستقلال الذاتي وتعد من الناحية الحقوقية تشكيلات سياسية مستقلة. ويمكننا بالنسبة لهذه الدول أن نؤكد (وعلى أساس راسخ) كل ما ذكرناه حول الفيدرالية الروسية ـ ليس لهذه التشكيلات أية مظاهر جادة للحكومية الأصيلة، وهي مجردة من خصائص الاستقلالية الحقة وأقرب إلى «العملية الإقليمية» منها إلى الوحدات الجيوبولتيكية المحدَّدة الراسخة. وحتى لو صرفنا النظر عن الروح القومية المتنامية لمجموعة الدول المستقلة، والتي كثيراً ما تتخذ اتجاهاً معادياً لروسيا فمن الشظايا غير الثابتة والمتناقضة في ذات نفسها يستحيل تشكيل لوحة متناغمة. وقد أورد الجيوبولتيكي البلجيكي جان تيريار بهذه المناسبة مقارنة دقيقة إذ قال: «**كان الاتحاد السوفياتي شبيهاً بلوح من الشوكولاته، حزت فوقه حدود الجزيئات ـ الجمهوريات. وعندما تفتتت هذه الجزيئات لم يعد كافياً ضمها إلى بعضها لإعادة اللوح بكامله إلى ما كان عليه. فلا يمكن التوصل إلى ذلك الآن إلا عن طريق إعادة صهر اللوح كله وإعادة طبعه**».

«المصالح الاستراتيجية للفيدرالية الروسية» ـ إنها نفس الصيغة الكلامية الفارغة في عبارة المصالح الاستراتيجية لمجموعة الدول المستقلة». ولهذا علاقة غير مباشرة بـ«المصالح الاستراتيجية للروس».

2 ـ 2 مقولة «مشروعية ما بعد الإمبراطورية»

بغض النظر عن لا وجود الدولة الروسية بالمعنى الكامل، فإن ثمة مبادىء حقوقية معينة تعمل على مجموع المدى ما بعد السوفياتي الذي تتأسس عليه ردة الفعل الغربية على هذا أو ذاك من تصرّفات الفيدرالية الروسية، كما يتأسس عليه المنطق الحالي لخطوات القيادة الروسية. وهذه المبادىء بالذات هي التي تحمي، للوهلة الأولى، الفيدرالية الروسية ومجموعة الدول المستقلة من الفوضى الشاملة. والحديث يتناول مبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية». ولكي نفهم حقيقة العمليات الجيوبولتيكية الحالية في الأوراسيا لا بد لنا من أن نعرض باختصار منطلقات النظرية المطروحة.

«المشروعية ما بعد الإمبراطورية» هي مجموعة الأقيسة الحقوقية شديدة الارتباط المباشر بالمرحلة السابقة للتطور السياسي للمنطقة، أي بـ«المشروعية الإمبراطورية» (legacy of empire) فالإمبراطورية (على الأقل «العلمانية»، الليبرالية ـ أو الاشتراكية) تسترشد في أغلب الأحيان، بالنسبة للبناء الترابي لمستعمراتها، بملامح إدارية واقتصادية صرفة غير واضعة في الحسبان العوامل الاتنية ولا الدينية ولا القومية. فالحدود الإدارية كيفيّةٌ إلى حد كبير ضمن إطار الإمبراطورية، وما وضعت إلا لتسهيل السيطرة المركزية للمتروبول. والإمبراطورية خلال مراحل وجودها تجبر الدول الأخرى على الاعتراف بنظامها الإداري الداخلي نظاماً شرعياً. ولكن عند انهيار **الإمبراطورية** تظهر دوماً «مناطق اللامحدودية الحقوقية»، إذ تكف عن الوجود تلك البنية التي نسقت من الناحية الحقوقية وضع جزيئاتها المكونة لها.

وفي عملية التحولات «ما بعد الاستعمارية» صيغ النظام الحقوقي ـ الدولي الذي استقر في أساس تصنيف مشروعية ولا مشروعية التكوينات الترابية ـ السياسية. وهو نظام «مشروعية ما بعد الامبراطوريّة». ومؤداه أنه على الرغم من غياب الإمبراطورية كأمر كلي فإن مكوّناتها الإدارية البحتة تكتسب وضعاً حقوقياً بغض النظر عما إذا كان التشكيل المعطى يستجيب لمتطلب الدولة الكاملة الأهلية أم لا. وفي أساس هذه النظرة تأوي الفكرة الليبرالية العلمانية المتعلقة بتعسّفية أي تشكيل حكومي كحدث تاريخي عابر. ووفقاً لهذا المنطق تبدو العناصر المكونة، الاتني منها والديني والثقافي والاجتماعي طفيفة الأهمية أو عديمة القيمة لأن

السكان يُؤخذون هنا على أنهم مجموعة بسيطة من وحدات اقتصادية ـ إحصائية. وتنعكس في هذا قوة الاستمرار في المقاربة «الامبراطورية»، «الاستعمارية» التي درجت على اعتبار «المستعمرات» و «الأطراف» أمراً ثانوياً عديم القيمة، أمراً «إضافياً» في إطار السياق العام.

وكقاعدة عامة فإن «التشكيلات ما بعد الإمبراطورية» لا تغدو أبداً «أو أبداً على وجه التقريب» دولاً كاملة الأهلية بل تواصل وجودها في صورة توابع اقتصادية ـ سياسية للمتروبول السابق (أو الجديد). والصفوة الحاكمة فيها هي دوماً على وجه التقريب الوريث المباشر (وغالباً ما تكون الصنيعة) للإدارة الاستعمارية، أما الاقتصاد فيرتبط بكامله بالعوامل الخارجية وأما النمط السياسي ـ الاجتماعي فيتكيّف وفقاً لأنموذج المركز السابق. وبقاء مثل هذه «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» كثيراً ما يؤدي إلى أن يقوم الاتنوس الأصلي نفسه باستيطان أراضي الدول بعد الإمبراطورية المختلفة بينما تعيش في إطار الدولة الواحدة عدة مجموعات إتنية ودينية. ومن الناحية الواقعية لا يتعزز التوازن النسبي للمصالح في أمثال هذه الحالات إلا عن طريق اللجوء إلى العامل الخارجي ـ وفي غالب الأحيان إلى العون الصريح أو المستتر من طرف المتروبول السابق (أو تلك الدولة المتطورة التي تأتي بديلاً عنه). ومن الأمور ذات الدلالة أن الكونغرس **البانأفريقي** في المراحل المتأخرة من تحرير، أفريقيا قد قرر تطبيق مبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» بالذات في كافة الدول التي تكونت من جديد، على الرغم من أن عدداً كبيراً من الشعوب الإفريقية الكبرى ـ وبخاصة البانتو والزولو وغيرهما ـ ألفت نفسها تعيش في دولتين أو ثلاث دول دفعة واحدة. وجرى ذلك تحت ذريعة تجنب الحروب الاتنية، بين القبلية والدينية. أما في واقع الحال فكان الحديث يدور حول تطلعات رؤساء الإدارة ما بعد الامبريالية إلى الحفاظ على النُّخب المصطنعة في السلطة دون السماح بصنع ممثلين جدد للتراتبية الوطنية العضوية، وذلك من خلال عملية المد القومي. وبالأخذ بالاعتبار تخلف أفريقيا الاجتماعي ـ الاقتصادي وغياب التقاليد الحكومية الحياتية الطازجة فقد تم استغلال هذه الرؤية بطريقة ناجحة إلى حد بعيد.

ومبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» يطبق اليوم على البلدان التي ظهرت على أنقاض الاتحاد السوفياتي. ففي «الجمهوريات الاتحادية» السابقة وفي كل

مكان تقريباً يقف على رأس السلطة ورثاء «الإدارة الاستعمارية»، شظايا البنية الإدارية التي فتتت أجزاء، والتي تكونت بكاملها في السياق الإمبراطوري السوفياتي. وهذه الصفوة مغرّبة عن التقاليد القومية ـ الثقافية لشعوبها وموجهة بقوة الاستمرار للحفاظ على الارتباط الاقتصادي ـ السياسي بالمتروبول. والاستثناء الوحيد هو أرمينيا حيث جرى خرْق منطق «الشرعية ما بعد الإمبراطورية» (في حالة ناغورني كاراباخ) وحيث تملك القوى القومية السياسية المجردة طبقاً لذلك وزناً أكبر مما هو عليه في كافة مجموعة الدول المستقلة جميعاً. وأرمينيا، فضلاً عن ذلك، هي الجمهورية الفريدة، الوحيدة الاتنية بين بلدان مجموعة الدول المستقلة.

وللوهلة الأولى، قد يتولد الانطباع بأن مبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» يلعب لصالح الفيدرالية الروسية وموسكو، لأنه يوحد المنطلقات الأساسية للمحافظة على تأثير الفيدرالية الروسية في «عالم الخارج القريب» وييسّر العلاقات السياسية ـ الاقتصادية مع الجيران الجغرافيين. بيد أن الأمر يبدو في واقع الحال أكثر تعقيداً. فكما هو الأمر في حالة «تصفية الاستعمار» لبلدان العالم **الثالث** يؤدي انهيار **الإمبراطورية** إلى إضعاف القدرة الجيوبولتيكية للمتروبول، وينتقل قسم من المستعمرات والدومينيونات إلى السيطرة غير المرئية لدولة أخرى أشد قوة تستخدم نظام «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» لصالح أهدافها الخاصة. والمثال الأوضح على ذلك هو ـ الولايات المتحدة التي أخضعت لسيطرتها، من الناحية العملية، غالبية المستعمرات الإنجليزية، الاسبانية، الفرنسية والهولندية السابقة خلال عملية «تصفية الاستعمار». وعلى هذا فبدلاً من «الإدارة الاستعمارية» بعد السوفياتية يمكن أن يحل في بلدان مجموعة الدول المستقلة (وتحلّ) «إدارة استعمارية» أخرى تستخدم البنى الاصطناعية القائمة لصالح أهدافها الخاصة.

ومن جهة فإن «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» تضع الفيدرالية الروسية نفسها في صف واحد مع الدول في مجموعة الدول المستقلة حالما يتم بصورة كاملة تجاهل المصالح القومية ـ الثقافية والدينية والاتنية **للشعب الروسي** الواقع تحت المعايير التجريدية للحق «بعد الإمبراطوري» الإداري المحض والمتناثر في تشكيلات شبه حكومية غريبة وقومية زائفة. إن أشلاء الإدارة الإمبراطورية في إطار الفيدرالية الروسية (الجهاز الحزبي ـ البيروقراطي) تبدو، بالنسبة للسياق القومي للروس، على درجة من الغرابة، بقدر ما هي غريبة في الجمهوريات الأخرى،

وذلك لأن نظام **الإمبراطورية** نفسه أقيم على مبادىء أخرى، إدارية واقتصادية صرفة، لا على مبادىء قومية أو ثقافية. والروس الذين «تحرروا» من الجمهوريات لا يحصلون على الحرية والاستقلال لكنهم يضيعون القسم الأكبر من رابطتهم القومية ويحتفظون بوضع مرتبط ببقايا المسميات السابقة ـ كما يتعرضون بالإضافة إلى ذلك لخطر جديد هو الوقوع تحت تأثير القوى السياسية الخارجية للدول الأكثر جبروتاً. وهذا الخطر الأخير لم يكن على هذه الدرجة من القرب خلال مرحلة وجود **الإمبراطورية** ، إلا أن الفيدرالية الروسية في صورة «دولة جهوية» بسيطة تتعرض لها في أكمل درجة.

هذه التصورات جميعاً تجبرنا على التشكيك بجدوى مبدأ «المشروعية بعد الامبريالية» في الظروف الحالية، لأن ذلك يناقض المصالح القومية الروسية إلى حد كبير.

ولكن ما هي المعايير التي يتوجب الاهتداء بها في تحديد ماهية «المصالح القومية الروسية؟ من الذي يؤخذ بصفته **الرأس** المدبّر والذي يمكن بالنسبة له تحديد ما هو مجد وما هو غير مجد؟ وضمن أية مقولات يمكن التفكير بروسيا اليوم؟

2 ـ 3 الشعب الروسي ـ مركز التصوّر الجيوبولتيكي

إن انهيار الإمبراطورية السوفياتية وهشاشة التشكلات الحكومية على أراضيها (بما في ذلك الفيدرالية الروسية) وإفلاسها الحكومي يدفع إلى البحث عن صفة أكثر تحديداً لفهم «المصالح القومية الروسية». والواقع العضوي الوحيد، الطبيعي، المتجذر تاريخياً في هذه المسألة يمكن أن يكون الشعب الروسي.

الشعب الروسي ـ جماعة تاريخية تحمل جميع ملامح الشخصية السياسية التامة القيمة والراسخة. والشعب الروسي متوحد اتنياً، ثقافياً، نفسياً ودينياً. لكن ليس هذا فقط ما يكوّن الأساس الأهم لوضعه في مركز التصوّر الجيوبولتيكي موضوعاً للاستراتيجية السياسية والاجتماعية. تكوَّن الشعب الروسي، خلافاً للكثير من الشعوب، كحامل **لحضارة خاصة** تتسم بكل الملامح المميّزة للظاهرة العالمية ـ التاريخية الأصلية المتكاملة. الشعب الروسي ـ ذلك الثابت الحضاري الذي كان

المحور المؤسس لإقامة لا دولة واحدة بل **لكثير** من الدول: بدءاً من موزاييك الإمَارات السلاڤية الشرقية **قبل روسيا الموسكوفية وإمبراطورية بطرس** والمعسكر **السوفياتي**. زد على ذلك أن هذا الثابت قد حدّد التتابع والارتباط بين التشكلات ومدى اختلافها سياسياً، اجتماعياً، ترابياً وبنيوياً. الشعب الروسي لم يقدّم القاعدة الاثنية فحسب لجميع هذه التكوينات الحكومية، بل وعبّر فيها عن **فكرة حضارية** لا تشبه أي فكرة حضارية أخرى. فليست الدولة هي التي كونت الأمة الروسية. بل، على العكس، إن الأمة الروسية، الشعب الروسي قد وازن في التاريخ بين الأنماط المختلفة لنظم الحكومة معبراً بطريقة مختلفة (طبقاً للظروف) عن خصوصية رسالته الفريدة.

ينتمي الشعب الروسي من دون شك إلى عداد الشعوب ذات الرسالة. وله، كما لكل شعب ذي رسالة، أهميته الكونية التي تشمل الإنسانية كلها، والتي لا تتنافس فقط مع الأفكار القومية الأخرى بل ومع أنماط الصيغ الأخرى من العالمية الحضارية. وقد طوّر ك. ليونتيف(*) والأوراسيون الروس هذه الفكرة إلى حدود بعيدة من الكمال.

وبغض النظر عن الفتن والمراحل الانتقالية والجوائح السياسية بقي الشعب الروسي محتفظاً بهويته الرساليّة، وبناء على ذلك بقي على الدوام **فاعلاً** سياسياً في التاريخ. وبعد كل هزّة حكومية دورية كانت نفس تلك القوة الروسية العريقة الجبارة تقيم بنى سياسية جديدة مجسدة اندفاعها الروحي في صيغ جيوبولتيكية جديدة. زد على ذلك أنه ما إن تتطور البنى الحكومية حتى الخط الحرج والذي ينداح من بعده الضياع النهائي للصيغة السياسية ذات المضمون القومي حتى تحل الأزمات والكوارث التي يبدأ بعدها بناء جيوبولتيكي واجتماعي جديد، تجسيد الرسالة الحضارية للشعب الروسي في هياكل وبنى سياسية جديدة.

وفي المرحلة الانتقالية الحالية يجب أن يؤخذ الشعب الروسي بالذات على

(*) ليونتيف، كونستانتين (1831 ـ 1891) أديب، كاتب اجتماعي وناقد أدبي روسي. تحول فيما بعد إلى اتجاه السلاڤيانوفيل. كان يرى في الليبرالية البورجوازية تتفيهاً وتحولاً نحو عبادة الترف. دعا إلى «البيزنطية» (الكنيسة والملكية والتراتبية الطبقية) وإلى اتحاد روسيا مع دول الشرق كوسيلة للاحتماء من الهزات الثورية. له روايات وأعمال نقدية حول تولستوي، تورغينيف ودستويفسكي.

أنه الفاعل السياسي الرئيس الذي يبدأ منه سلّم مصالح روسيا الجيوبولتيكية والاستراتيجية بالإضافة إلى مصالحها الاجتماعية ـ الاقتصادية. إن الشعب الروسي **هو روسيا** اليوم ولكن لا كدولة مرسومة بوضوح بل كطاقة جيوبولتيكية واقعية وملموسة من جهة، ولكنه لم يحدد بعد بنيته الحكومية الجديدة ـ لا إيديولوجيتها ولا حدودها الترابية ولا تركيبتها الاجتماعية السياسية.

ومع ذلك فإن «الطاقة الروسية الكامنة» تملك اليوم من الخصائص الثابتة ما يزيد بكثير على ما تملكه السريعات الزّوال ـ الفيدرالية الروسية أو مجموعة الدول المستقلة. وترتبط هذه الخصائص مباشرة بتلك الرسالة الحضارية التي يتمثل في تحقيقها مغزى وجود الشعب الروسي.

ـ أولاً، الشعب الروسي (= روسيا) مسؤول دون شك عن السيطرة على المناطق الشمالية ـ الشرقية من الأوراسيا وهذا الـDrang nach Osten und Norden الروسي يمثل العملية الجيوبولتيكية الطبيعية للتاريخ الروسي خلال القرون الأخيرة والتي لم تتوقف لدى نزول أية كوارث سياسية. لقد أسمى ماكيندر روسيا «المحور الجيوبولتيكي للتاريخ» وهذا قول صحيح كل الصحة، لأن الشعب الروسي كان في حقيقة الحال يتطلع تقليدياً إلى الإعمار الحضاري لكافة تلك الآماد الأوراسية داخل القارية، الممتدة في نفس مركز الكتلة القارية. ومن هنا يمكننا الاستنتاج بأن المصالح الاستراتيجية للروس غير منفصلة عن آماد الأوراسيا **الشمالية ـ الشرقية** وفي هذا يكمن المبدأ المؤسس لدى تحديد الآفاق الحقيقية لجيوبولتيكا روسيا (= الشعب الروسي).

ـ ثانياً: وُهب الشعب الروسي (= روسيا) نمطاً خاصاً من التديّن والثقافة اللذين يختلفان اختلافاً حاداً عن الغرب الكاثوليكي ـ البروتستانتي ، وعن تلك الحضارة بعد المسيحية التي نمت هناك. وبصفة النقيض الثقافي والجيوبولتيكي لروسيا ينبغي أخذ «الغرب» بمجموعه لا واحدة من الدول المكوّنة له. فالحضارة الغربية المعاصرة ذات توجه عالمي: ففي كل حُبيباتها المتناثرة توجد وحدة ثقافية قائمة على الحل المميّز للمشاكل الفلسفية والرؤيوية للعالم. أما العالمية الروسية، أساس الحضارة الروسية فتتباين بصفة جذرية عن الغرب في جميع نقاطها الأساسية. فهما، بمعنى من المعاني، نموذجان متناقضان ينفي كل منهما الآخر، قطبان متناقضان. وعلى هذا فإن المصالح الاستراتيجية للشعب الروسي يجب أن

توجه **ضد الغرب** (وهو ما ينبجس من ثابت خيار الحفاظ على الهوية الحضارية الروسية)، أما في المستقبل فيمكن أن يتحقق التوسع الحضاري أيضاً.

- ثالثاً، الشعب الروسي (= روسيا) لم يضع قط هدفاً له إقامة دولة وحيدة الاتنية متجانسة عرقياً. فرسالة الروس تميّزت بطابع عالمي ولهذا السبب بالذات كان الشعب الروسي يسير بطريقة منهجية إلى بناء **الإمبراطورية** التي كانت حدودها تتوسع محتضنة خليطاً أكبر فأكبر من الشعوب والثقافات والأديان والأراضي والأقاليم. ومن العبث عَدُّ «توسعية» الروس المنهجية والواضحة التعبير صدفةً تاريخية. فهذه «التوسعية» تمثل جزءاً لا يتجزأ في الوجود التاريخي للشعب الروسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنوعية رسالته الحضارية. وهذه الرسالة تحمل في داخلها «قاسماً مشتركاً» يسمح للروس بأن يجتذبوا للتكامل مع **إمبراطوريتهم** أكثر الوقائع الثقافية تشعباً. إلا أن لهذا «القاسم المشترك» خصائصه ولا يمكن تطبيقه إلا على تلك الشعوب ذات الخصوصية التاريخية المحدَّدة والمضمون الثقافي، هذا بينما تبقى الشعوب الأخرى (وعلى وجه الخصوص بعض أمم الغرب) غريبة غربة شديدة عن العالمية الروسية (وهو ما يتجلى تاريخياً في لا ثبوتية بل وحتى تناقضية التأثير الروسي في أوروبا).

- رابعاً، الشعب الروسي (= روسيا) ينطلق في وجوده من أفق «لاهوتي خلاصي» أكثر كونية يكتسب في النهاية معنى مسكونياً عاماً. والحديث لا يدور حول الاتساع اللامحدود «للمجال الحيوي» الروسي بل حول فرض النمط «الروسي» الخاص برؤية العالم، النمط المتشدد في مسألة الآخرة ويتطلع إلى الكلمة **الأخيرة** في التاريخ. وهذه هي المهمة الأسمى للأمة «كشعب متوشح بالله».

وهكذا ليس، ومن الناحية النظرية، على وجه البسيطة شعب ولا ثقافة ولا أرض يستقبل الشعب الروسي مصيره أو طريقه باللامبالاة. ويتجلى ذلك بصفة خاصة في إيمان الروس الذي لا يتزعزع بالانتصار **النهائي للحقيقة والروح والعدالة** وليس فقط في إطار الدولة الروسية بل وفي كل مكان. وحرمان الروس من هذه العقيدة الغيبية الخلاصيّة مرادف لخصائه الروحي. فالروس معنيون بكل شيء وبالجميع قاطبة. ولهذا فإن مصالح الشعب الروسي لا تقتصر في نهاية المطاف على الاتنوس الروسي ولا على **الإمبراطورية الروسية** ولا حتى على الأوراسيا

كلها. وهذا الأفق «المتسامي» للأمة الروسية لا بد من أخذه بالحسبان عند اعداد الاستراتيجية الجيوبولتيكية المقبلة.

ومن الواضح أنه في الظروف الحالية وضمن القواعد الغربية المعمول بها، العلمانية، الكميّة ـ الليبرالية للنظرة الحقوقية ليس ثمة أية إمكانية موضوعية ليس فقط لتثبيت «الشعب الروسي» بطريقة حقوقية موضوعاً سياسياً مستقلاً بل ولفرض مصطلح كمصطلح «الشعب» في التعامل الحقوقي والدبلوماسي. إن الحق الدولي المعاصر (المنسوخ في ملامحه الأساسية عن الحق الروماني) لا يعترف إلا **بالدولة والفرد** موضوعات سياسية كاملة الصلاحية.

ولهذا يوجد قانون «حقوق الدول» و «حقوق الإنسان» بينما مفهوم «حقوق الشعب» غائب. وليس هذا مستغرباً، فالنظرة العلمانية والكمية لا يمكن أن تضع في الحسبان أمثال هذه المقولات الثقافية الروحية كالإتنوس والشعب وما إلى ذلك. كما أن علاقة كمية متشابهة كانت تَسِمُ البناء السوفياتي والعالم «الديموقراطي». ولكن بما أن الشعب الروسي في المرحلة الحالية موجود فوق أرض تسودها إما مبادىء المشروعية «ما بعد الإمبراطورية» وإما مبادىء المشروعية الليبرالية ـ الديموقراطية فلا يمكن أن يكون ثمة أي كلام عن أي اعتراف آلي بالوضع السياسي «للشعب». وعلى هذا فإن منطق إظهار وحماية «المصالح القومية الروسية» يتطلب تغيرات جادة في التطبيق الحقوقي المعمول به في الوقت الحاضر وفضلاً عن ذلك إعادة النظر الجذرية إلى هذا التطبيق في المنبع القومي.

وما كان لمثل هذا التحول أن يبدو ممكناً لو تناول الحديث شعباً ضعيف التطور، غير مجهز تقنياً. أما بالنسبة للروس فالأمر، لحسن الحظ، يختلف عن ذلك. فلا تزال تتوفر لدينا اليوم إمكانية التحولات السياسية غير المرتبطة ببقية العالم، لأن توفر روسيا على الأنواع الاستراتيجية من الأسلحة يسمح في مستوى معين، بمقاومة ضغط **الغرب**. وهنا يرتبط كل شيء بالإدارة السياسية وحدها، وبتصميم تلك الشخصيات التي تأخذ على عاتقها المسؤولية عن مصائر روسيا والشعب الروسي.

ومهما يكن من أمر فإن الخطوة الأولى نحو إظهار «المصالح القومية للشعب الروسي» هي الاعتراف بهذا الشعب **موضوعاً سياسياً مستقلاً** يملك الحق في أن يقرر بنفسه ما ينفعه وما لا ينفعه، وأن يتخذ الخطوات الجيوبولتيكية، الاجتماعية ـ الاقتصادية والاستراتيجية انطلاقاً من ذلك.

لا معنى لروسيا بدون إمبراطورية

3 ـ 1 انعدام وجود «الدولة ـ الأمة» لدى الروس

ما كانت روسيا قط شبيهة بتلك «الدول ـ الأمم» المميّزة بالنسبة لأوروبا العصر الحديث والتي تم إعداد نموذجها من أجل آسيا والعالم الثالث بصفة عامة خلال الحقبة الاستعمارية وما بعدها.

تقوم «الدولة ـ الأمة» على الوحدة الإدارية والمركزية البيروقراطية اللتين تصوغان الجامعة السياسية التي تقيمها الدولة وترتبط أشد الارتباط بالدولة. ومما هو خارج عن كل الشكوك أن نموذج «الدولة ـ الأمة» قد ظهر لأول مرة في فرنسا الحكم المطلق ثم جرى تثبيتها في الانموذج الثوري اليعقوبي. وكانت «الدولة ـ الأمة» منذ بدايتها ذات طبيعة علمانية مؤكدة وتمثل بالدرجة الأولى الوحدة السياسية. وفي مثل هذه الرؤية يُفهم مصطلح «الأمة» على أنه «جملة المواطنين» وليس على أنه «الشعب» أو «الشعوب» بالمعنى العضوي المقدس. ونمط الدولة هذا يقوم على أساس المساواة الاتنية، الطائفية والطبقية بين السكان وعلى إقرار المعايير الحقوقية والعملياتية المتشابهة في المجتمع بكامله، تلك المعايير التي لا تأخذ في حسبانها لا الخصائص الجهوية ولا الدينية ولا العرقية. ومن الناحية الاسمية يمكن أن تكون «الدولة ـ الأمة» ملكية، وديموقراطية واشتراكية. والعنصر الأهم فيها ليس خصوصية البنية السياسية بل فهم الدولة على أنها المرجعية الإدارية ـ المركزية، الموضوعة فوق جميع الفروقات الاجتماعية ـ الاتنية والثقافية ـ الدينية. وينبغي التوكيد على أن «للأمة» في هذه الحالة معنى سياسياً استثنائياً صرفاً يختلف بحدة عن ذلك الذي يضمّنه القوميون لذلك المفهوم.

ظهرت «الدولة ـ الأمة» تاريخياً في أوروبا خلال مرحلة السقوط النهائي للوحدة الإمبراطورية نتيجةً لتدمير الأشلاء الأخيرة من النظام الإمبراطوري والتي كانت قد بقيت في صورة بنى إقطاعية إقليمية. و «الدولة ـ الأمة» مقترنة في جوهرها بسيادة القيم البورجوازية الملتبسة التي أوصلت الفروقات الاجتماعية الكمية إلى التركيب الكمي الإداري المبسّط، و «الدولة ـ الأمة» تدار في العادة لا «بالفكرة الإلهية» (كالتيوقراطية أو **الإمبراطورية** المقدسة) لا «بالشخصية الارستقراطية البطولية» (كالنظام الاقطاعي) بل بـ «ديكتاتورية القانون» (النوموكراتيا)، وهو ما يمنح سلطة هائلة لعلماء الحقوق وللبيروقراطية الحقوقية. ومن الناحية الواقعية فإن «الدولة ـ الأمة» هي الأسلس قيادةً والواقع السياسي الأدقّ تنظيماً من الناحية الكمية، لأن جميع العوامل «غير العقلانية» غير الكميّة مقلصة فيها حتى الحد الأدنى.

لم تظهر «الدولة ـ الأمة» في التاريخ الروسي. وعندها بدأ هذا الأنموذج بالذات يتجذر في أوروبا بدءاً من القرن الثامن عشر، جاهدت روسيا لمناهضته جهاد المستميت وبكل الوسائل أما النظام القيصري فقد حاول الحفاظ إلى الحد الأقصى على البنية الإمبراطورية بالذات دون مساس على الرغم من أن بعض التنازلات للأنموذج الأوروبي بقيت تقدم بصورة مستمرة. وبغض النظر عن إصلاحات بطرس(*) الموالية لأوروبا، فإن الإمبراطورية الروسية بقيت محافظة على

(*) إصلاحات بطرس: يقصد بها الإصلاحات التي طبقها الإمبراطور بطرس الأول (الأكبر) (1672 ـ 1725) في بلاده. بدأ حكمه منذ سنة 1689، سمّي قيصراً سنة 1682، وكان أول إمبراطور في روسيا سنة 1721، أجرى إصلاحات على هيئة الحكم، استحدث نظام السينات، واللجان وهيئات الرقابة الحكومية العليا والمساءلة السياسية، أخضع الكنيسة للدولة، قسم البلاد إلى محافظات، وأقام عاصمة جديدة (بطرسبرج) سار ببلاده خطئً حثيثة في ركب التقدم الحضاري، أقام مصانع صب الحديد وترسانة صناعة السفن ومد قنوات الري. وقام بنفسه بقيادة جيوشه في حملات آزوف 1695 ـ 1696، في الحرب الشمالية 1720 ـ 1721 وشارك في الاستيلاء على نوتيبرغ وفي حرب ليسنايا (1708) وبولتافا (1709)، وكان يشرف بنفسه على بناء الأسطول وإقامة الجيش النظامي. ولما كان من أشد أنصار الحكم المركزي المطلق فقد ساعد على ترسيخ الوضع الاقتصادي والسياسي للأعيان. وبمبادرة منه تم استخدام أبجدية روسية وطنية مبسّطة وافتتح أعداداً من المؤسسات العلمية والتعليمية ومنها أكاديمية العلوم وكانت إصلاحاته تتم عن =

العناصر التيوقراطية والمبدأ الارستقراطي أما نقل الكهنة وممثلي الأعيان إلى صفوف بيروقراطي الدولة فلم يطبق في الواقع حتى النهاية (خلافاً لبلدان أوروبا الغربية). وقد ناهضت العفويّة القومية هذا التحلل للإمبراطورية وانقلابها إلى «دولة ـ أمة»، وهو ما كان يفرخ وبصورة دورية ردود فعل تلقائية أو واعية سواء من طرف الشعب أو من طرف نخبته العليا، بل وفي نفس الدولة الواحدة في روسيا كثيراً ما كانت تتبادل المشاعر الاصلاحية والرجعية. وعن الإصلاحات الليبرالية كثيراً ما كانوا يتحولون إلى المشاريع الغيبية والتجديدية لعادات قديمة (وتجلى ذلك على أوضح صورة في تسلم العرش من طرف الكسندر الأول(*) مؤسس **الحلف المقدس**).

فقط في بداية القرن العشرين اقتربت روسيا اقتراباً شديداً من تحقيق «الدولة ـ الأمة» وفق النموذج الأوروبي. إلا أن العملية أوقفت في هذه المرة أيضاً بسبب دفقة ثورية حملت في أعماقها (وإن كان بطريقة غير واعية) الاحتجاج الوطني العميق ضد هذا النمط من بناء الدولة، والذي ما كان ليتوفر فيه مكان لظهور

= طريق التوتير الشديد للقوى المادية والبشرية حتى وصل الأمر إلى فرض ضريبة على الرأس. وهو ما أثار عدداً من الانتفاضات كانتفاضة الستريلتسي واستراخان وبولافيتسك فكانت تقمع بأشد الأساليب قسوة، لكنه مع ذلك يُعدّ أعظم شخصية إصلاحية في تاريخ روسيا، إذ استطاع أن يلحق بلاده بركب الثورة الصناعية في أوروبا، والتي كانت قد قطعت مراحل متقدمة حتى ذلك الحين. ولم تعد أي مشكلة كبيرة لتحل بعد بطرس على الصعيد الأوروبي إلا بمشاركة روسيا. (المترجم).

(*) الكسندر الأول (1777 ـ 1825) الابن الأكبر لباڤل الأول. إمبراطور روسيا منذ 1801. قام في أول عهده بعدد من الإصلاحات، وكان حريصاً في سياسته الخارجية على التوازن بين بريطانيا وفرنسا. شارك بين 1805 ـ 1807 في النشاطات المعادية لفرنسا ثم أخذ يتقرب إليها بين 1807 ـ 1812. خاض حروباً ناجحة ضد تركيا (1806 ـ 1812) والسويد (1808 ـ 1809) وفي عهده ضمت جورجيا الشرقية إلى روسيا (1801) وفنلندة (1809) وبيسارابيا (1812) وأذربيجان (1813). وبعد حرب (1812) ضد نابليون ترأس حلف الدول الأوروبية ضد فرنسا، وكان أحد قادة مؤتمر فيينا (1814 ـ 1815) وأحد منظمي الحلف المقدس الذي وقع في باريس في 26/9/1815 بين روسيا والنمسا وبروسيا بعد هزيمة نابليون ثم انضمت إليه فرنسا وعدد من الدول الأوروبية، لكن الحلف لم يلبث (في نهاية العشرينيات) أن تصدّع بفعل امتداد الحركات الثورية التحررية في أوروبا. (المترجم).

الرسالة الشعبية الروحية. ومن خلف الخطابية الحداثوية البلشفية تعرّف الروس بصورة غامضة على مثلهم الغيبية الخاصة ـ انتصار الفكرة، العدالة، الحقيقة. واستقبلت الدولة السوفياتية من طرف الشعب كبناء «للإمبراطورية الجديدة»، «مملكة النور» «مغاني الروح»، لا كوعي لبناء أكثر عقلانية للإدارة والحكم من قبل وحدات كمية. أما مأساوية وعصبوية وقدرية الكوارث البلشفية فقد استدعتها بالذات «مثالية» المهمة لا ما يقال حول العجز عن تطبيق حجم أكبر من «الإنسانية» مضافاً إلى حجم أقل من التنظيم الهادر للموارد البشرية.

لم يصبح الاتحاد السوفياتي «دولة ـ أمة». فقد كان استمراراً للتقاليد الإمبراطورية الوطنية المكتسبة بأشكال ظاهرية مضخمة، ووجهت بالأنموذج القيصري المتأخر الذي انزلق نحو المجتمع البورجوازي الاعتيادي، نحو «ديكتاتورية القانون». ومثل أي بنية سياسية عرفت **الإمبراطورية السوفياتية** ثلاث مراحل ـ «المرحلة الثورية» التي بنيت وفق نظام فريد (لينين ـ الشباب)، المرحلة المستقرة لتقوية الدولة وتوسيعها (ستالين ـ النضج) ومرحلة الهرم والانهيار (بريجنيف ـ الشيخوخة) زد على ذلك أن مرحلة بريجنيف المتأخرة بالذات قد ولدت البنية السياسية الإدارية التي كانت أقرب إلى المركزية البيروقراطية النموذجية في «الدولة ـ الأمة». وبالبيريسترويكا انتهت الدورة الحياتية لكل هذا التكوين السوفياتي، واختتمت معها مرحلة دورية من التاريخ القومي للشعب الروسي.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة قانوناً في التاريخ الروسي يرى أن الأمور عندما تصل إلى تحويل روسيا إلى «دولة ـ أمة» تنزل الكوارث، وعند التفافة جديدة تجد الأمة طريقة جديدة (كثيراً ما تكون خارقة للعادة) للتملّص من تحول بدا أمراً لا مندوحة منه. والروس يحاولون أن يتفادوا بأي ثمن مثل ذلك الانعطاف في الأحداث إذ إن إرادتهم السياسية لا تتوافق مع المعايير الضيقة للوجود العقلاني والكمي الموسَّط في إطار آلية بيروقراطية فعالة. والروس مستعدون للسير نحو تقديم ما لا يمكن تصوره من الضحايا وألوان الحرمان فقط من أجل أن تتحقق وتتطور الفكرة القومية، الحلم الروسي الكبير.

أما حدود هذا الحلم فتراه الأمة وفق أقل تقدير في **الإمبراطورية**.

3 ـ 2 الروس ـ شعب إمبراطورية

لا دولة وحيدة الاتنية، لا دولة ـ أمة. فمنذ أول البدايات كانت صورة الدولة الإمبراطورية تكمن في طيات الروسيا وبداية من توحد القبائل السلافية الأوغرو ـ فنلندية برئاسة روريك(*) وحتى الأبعاد المهولة للاتحاد السوفياتي والأراضي الخاضعة لتأثيره، كان الشعب الروسي يسير دون توقف عبر طريق التكامل السياسي والمكاني، نحو بناء الإمبراطورية والتوسع الحضاري. وتجدر الإشارة إزاء ذلك إلى أن التوسع الروسي كان يحمل معنى حضارياً بالذات، وإنه لم يكن على الإطلاق توسعاً مصلحياً يسيّره السعي وراء المستعمرات أو الصراع المرضي في سبيل المجال الحيوي. فلا الافتقار إلى هذا «المجال الحيوي» ولا الضرورة الاقتصادية هو ما دفع الشعب الروسي إلى توسيع حدوده شيئاً فشيئاً نحو الشرق والجنوب والشمال والغرب. والنقص في الأراضي لم يكن قط السبب الأصلي لإقامة الروس للإمبراطورية. توسع الروس كحاملي رسالة خاصة شكل التمهيد الجيوبولتيكي لما يتجسد في الوعي العميق لضرورة توحد أراض هائلة المساحات في الأوراسية القارية.

والتكامل السياسي للآماد الأوراسية يحمل للتاريخ الروسي **معنى مستقلاً تماماً**. ويمكن القول إن الروس يشعرون بالمسؤولية أمام هذه الآماد، أمام وضعها، أمام ارتباطها، أمام تكاملها واستقلالها. وبحق عدَّ ماكيندر روسيا الدولة القارية الأهم في عصره، الدولة التي ترث رسالة روما الجيوبولتيكية، **إمبراطورية** الكسندر الأكبر، جنكيز خان وما إلى ذلك. هذا «المحور الجغرافي للتاريخ» لا يمكنه ببساطة إلا أن يحقق مهمته الجيوبولتيكية بغض النظر عن العوامل الخارجية العارضة.

(*) روريك: شخصية تاريخية تعود بأصلها إلى الفارياغ (من الكلمة السكاندينافية القديمة Vaeringiar) وهم أمراء سكاندينافيون نصف أسطوريين، تشير المصادر الروسية إلى أن الأمراء السلافيين الايلين استدعوهم للخدمة في الكتائب السلافية العسكرية بين القرنين التاسع والحادي عشر فتولى روريك نوفجورود وأسس فيها أسرة روريك الحاكمة وتولى شقيقه سينيوس منطقة «البحيرة البيضاء» وشقيقه الثاني تروڤور منطقة ايربورسك. (المترجم).

والشعب الروسي يرتبط بالواقع الجيوبولتيكي إلى درجة أن المدى ومعاناة هذا المدى ووعيه وتقبله الروحي قد صاغ نفسية الشعب حتى صارت واحداً من المحددات الأهم لهويته، لجوهره.

والمدى الترابي الواقعي ليس مجرد مقولة كمية. فالمناخ والتضاريس وجيولوجية المكان والطرق المائية والسلاسل الجبلية تشارك بفعالية في صياغة النمط الاتني وبكلمة أوسع النمط الحضاري. ومن وجهة نظر الجيوبولتيكا تتحدد الحضارة وخصائصها وجوهرها بالجغرافيا بصفة صارمة ويخضعان بالضرورة للقوانين النوعية الخاصة. والروس ـ شعب بري، قاري، أوراسي، شمالي، أما الخصوصية الثقافية للأمة فهي من النوع الذي يجعل «روحها» مهيأة بدرجة قصوى «للانفتاح» لتحقيق المهمة «التكاملية»، العملية، الدقيقة المعمقة، عملية صياغة جامعة أوراسية قارية خاصة.

والعامل الثقافي يمثل إضافة طبيعية للتوصيف الجيوبولتيكي المسبق لروسيا. فالرسالة الجيوبولتيكية توعى على المستوى الثقافي، وعلى العكس من ذلك فإن الثقافة تفسر وتُشكّل وتفعّل الدافع الجيوبولتيكي، والمدى والثقافة، هما المكونان الأكثر أهمية للشعب الروسي كشعب بانٍ للإمبراطورية بالدرجة الأولى. فلا الدم، ولا العرق، ولا الرقابة الإدارية، ولا حتى الدين جعل هذا الجزء من السلاف الشرقيين جماعةً لا تقارن بأي شيء آخر ـ هي الشعب الروسي؛ لقد صاغته بالذات الآمادُ الأوراسيّة اللامحدودة، والانفتاحية الروحية، الثقافية في حدودها القصوى. وتحت شعار «المدى والثقافة» تمت إعادة تفسير الآفاق الاتنية والسياسية والأخلاقية والدينية. وقد تكوَّن الروس وتطوروا وأدركوا نضجهم كأمة ضمن الإمبراطورية بالذات وفي بطولية بنائها وفي مآثر حمايتها وفي الحملات من أجل توسيعها. والنكوص عن مهمة بناء الإمبراطورية يعني نهاية وجود الشعب الروسي كواقع تاريخي، كظاهرة حضارية. ومثل هذا النكوص يمثل انتحاراً قومياً.

خلافاً لروما (روما الأولى) تملك موسكو، روسيا في ثنايا دافعها الإمبراطوري مغزى تيولوجياً عميقاً. ولقد طور هيغل نظرية طريفة تقول بأن الفكرة المطلقة في وضعها الغيبي يجب أن تتجسد في صورتها النهائية «التي تم وعيها» في صيغة الدولة البروسية، بيد أن بروسيا، على الصعيد العالمي، بل وحتى ألمانيا إذا ما أخذت كل واحدة على حدة، غير كافيتين جيوبولتيكياً لأخذ هذه النظرية بعين

وفضلاً عن ذلك فإن تغير صفة الأرثوذوكسية اليونانية قرّبها بصورة ما من خطَ روما، لأن واحداً من الأقانيم الثلاثة للخلافات العقائدية (مسألة «الكاتيخون») سقطت من تلقاء نفسها. فتقارب الفناريوت الروحي مع الفاتيكان ترافق مع تقاربهم السياسي مع الإدارة التركية، التي كان الكثيرون من اليونان الأرثوذوكس يشغلون فيها تقليدياً مناصب عالية. ومثل هذا الوجود المزدوج المقترن بالتنافس مع الكنسية الروسية على التأثير على العالم الأرثوذوكسي جَرَّد الأرثوذوكسية اليونانية عملياً من رسالتها الجيوبولتيكية المستقلة وجعلها مجرد واحد من العوامل الجيوبولتيكية الثانوية ضمن السياق اللاأرثوذوكسي العام لمكائد السلطات العثمانية والرسل البابويين.

ومهما يكن من أمر فمنذ القرن الخامس عشر صار مصطلح «جيوبولتيكا الأرثوذوكسية» يتطابق تقريباً مع مصطلح «جيوبولتيكا روسيا».

وبالإضافة إلى هذا فإن من الخطأ النظر إلى مجموع العالم الأرثوذوكسي غير الروسي على أنه خاضع لسياسة الفناريوت. ففي أجزائه المختلفة وجدت أيضاً مشاعر مناهضة اعترفت بالأولوية اللاهوتية والغيبية لروسيا الأرثوذوكسية. وتعلق ذلك بصفة خاصة بالصرب والألبان والرومان والبلغار الذين كانت الميول الجيوبولتيكية، الموالية منها لروسيا والفناريوتية، تتنافس لديهم بصفة تقليدية. وقد تجلى ذلك بزخمه الأقصى في القرن التاسع عشر عندما قامت الشعوب الأرثوذكسية الداخلة في نطاق الإمبراطورية العثمانية بمحاولات يائسة لتحقيق استقلالها الوطني والسياسي.

1 ـ 3 مرحلة بطرسبرج

ولكن بين سقوط القسطنطينية وبداية نضال شعوب البلقان الأرثوذوكسية من أجل حريتها جرى حدث ذو أهمية كبرى بالنسبة للأرثوذوكسية في معناها الواسع. والحديث يدور حول الانقسام الروسي والإصلاحات التالية له مباشرة والتي قام بها بطرس الأول. ففي تلك اللحظة طرأ تحول نوعي على وضع الأرثوذوكسية، واضطربت، منذ ذلك الحين، الأسس العقائدية للكنيسة الأرثوذوكسية والتي بقيت حوالي 200 عام وطيدة الأسس. ذلك أن نقل العاصمة من موسكو إلى سانت

بطرسبرج وإلغاء منصب البطريرك مع إنشاء السينودس كانا يعنيان أن روسيا كفت عن كونها امبراطورية أرثوذوكسية شرعية من الناحية العقائدية في المعنيين اللاهوتي والغيبي. ومن الناحية العملية كان قد تحقق الانتقال من النموذج الجيوبولتيكي الأرثوذوكسي إلى نوع شبيه بالدولة البروتستانتية. وتحولت الأرثوذوكسية الروسية منذ ذلك الحين إلى واقع مزدوج المعنى لا يتطابق على المستوى الجيوبولتيكي إلا تطابقاً جزئياً مع الدولة الروسية. ولكن إذا كانت اللحمة قد تخلخلت بصورة مكشوفة فإن المنطق العام للجيوبولتيكا الروسية واصل خطه الأولي على الرغم من أن ذلك تم على مستوى آخر لأن المصالح العلمانية والسياسية المحضة صارت بكل وضوح تتقدم على الإشكالية الدينية ـ الأخروية. وبصفة موازية لذلك كان الأنموذج الكاثوليكي التقليدي في الغرب نفسه يتراجع أيضاً ليخلي المكان للتشكلات القومية ـ السياسية الصرفة، الدول ـ القوميات، وهكذا فإن الاشكالية اللاهوتية امّحت هناك أيضاً وتراجعت إلى المرتبة الثانية أمام زحف المصالح الأكثر تطبيقية، التجارية منها والسياسية الضيقة. إلا أن الترتيب الجيوبولتيكي المحدَّد مسبقاً على أساس عقائدي في خريطة الكنائس بقي في مجموعه على حاله، هذا إذا لم نضع في الحسبان ظهور الدول البروتستانتية.

من الناحية الجيوبولتيكية تقسم البروتستانتية بصراحة إلى قطاعين ـ اللوثرية البروسية، والكالفينية الأنجلو ـ سويسرو ـ هولندية. وإلى جانب التشابه الظاهري والتزامن بين فورتي الاحتجاج على كنيسة روما فإن لكل من اللوثرية والكالفينية معنى يكاد يتعارض تعارضاً قطبياً تقريباً مع الأخرى. فالمعسكر اللوثري الذي ترسخت قواعده في الدولة البروسية كان قد تأسس عقائدياً وغيبياً على أساس انتقاد الفاتيكان من وجهة نظر تأصيل منطلقات **«العهد الجديد»**، وفي الملامح العامة كان ذاك هو الذي أنتج الدعاوى التقليدية لدى الأرثوذوكسية في حق الكاثوليكية. كانت بروسيا اللوثرية تتوضع من الناحية الجيوبولتيكية أيضاً بين روسيا الأرثوذكسية وأوروبا الغربية الكاثوليكية. أما الكالفينية التي صارت ديانة الدولة في انجلترا (وتركت فيما بعد أثراً مهولاً على البنية السياسية للولايات المتحدة) فقد تأسست، على العكس من ذلك، على النظرة المنطلقة تحديداً من العهد الجديد وانتقاد روما انطلاقاً من هذا المنظور. فليس من قبيل الصدفة أن تنجذب الكالفينية والفرق المتحدرة منها، من الناحية الجغرافية، إلى الغرب الأقصى سواء أكان ذلك

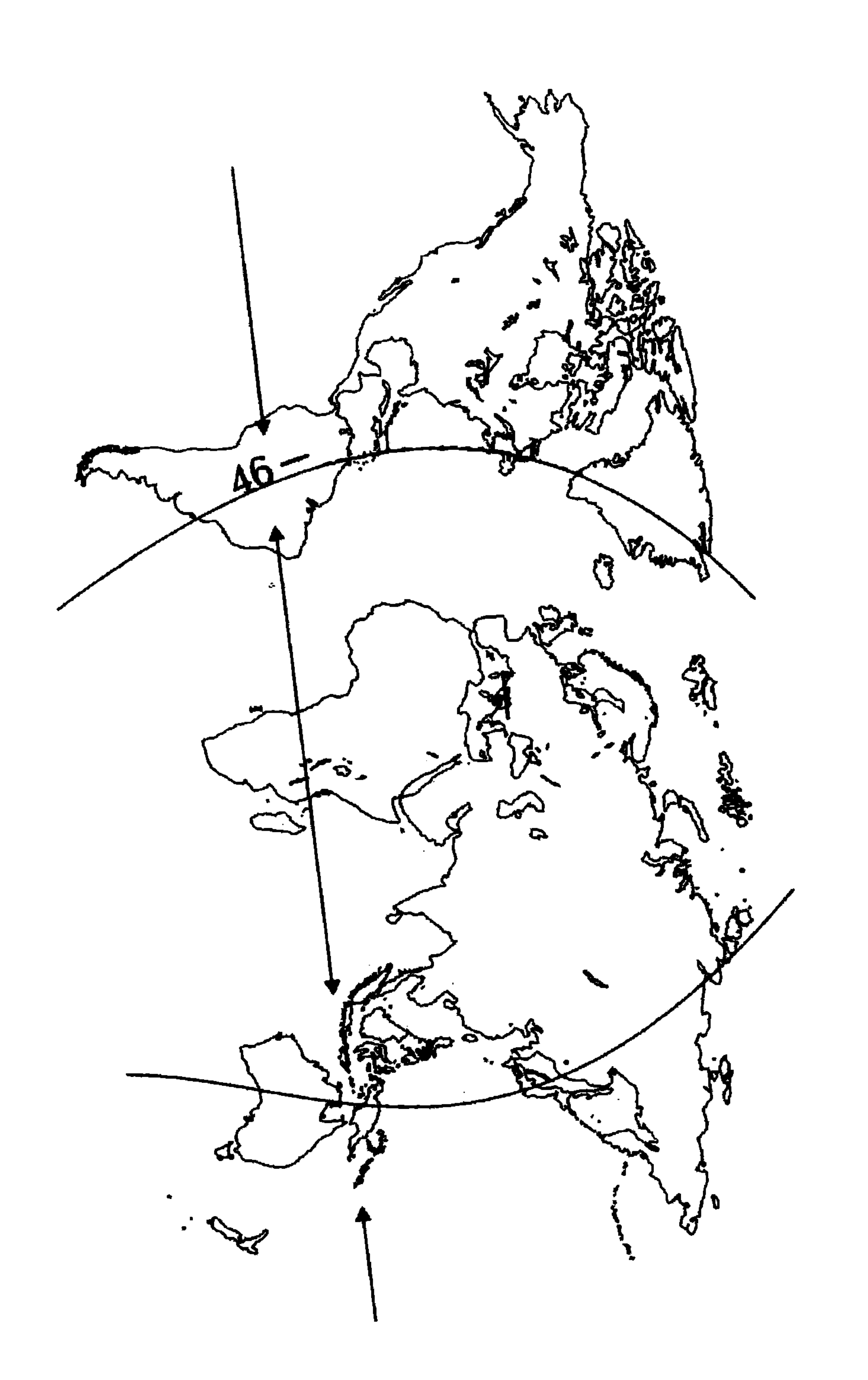
في حدود أوروبا أم على الجانب الآخر من الأطلسي.

كانت روسيا ما بعد البطرسية، روسيا أسرة رومانوف أقرب إلى النموذج البروسي بمعنى أنها بانصرافها عن العقائدية الأرثوذوكسية توقفت عند منتصف الطريق إلى الكاثوليكية التي كانت إلى جانب ذلك، تقوم بتسليم مواقعها تدريجياً للدول ـ الأمم. وكان التوتر الجيوبولتيكي الأساسي يتركز إزاء ذلك بين روسيا من جهة وبين الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الإنكليزية من جهة أخرى. أما على المستوى الديني فكان ذلك مواجهة الأرثوذوكسية للكاثوليكية (النمسا) والكالفينية (انكلترا)، وقد لعبت فرنسا الحكم المطلق ثم الثورية بعد ذلك دوراً مميّزاً في ذلك كله من خلال محاولاتها نشر الأفكار الجمهورية والتنوير. ومن المهم الإشارة في هذا الصدد إلى أنه إذا كانت لروسيا بعض المصالح الجيوبولتيكية المشتركة مع النمسا (المواجهة مع تركيا على وجه الخصوص)، فإن استراتيجية انكلترا كانت من الناحية العملية مناقضة في كل شيء لاستراتيجية روسيا إلى حد دعم الإنكليز للإمبراطورية العثمانية.

ومهما يكن من أمر فإن روسيا ما بعد البطرسية قد ورثت الملامح الرئيسية للجيوبولتيكا البيزنطية على الرغم من أن الاكتمال العقائدي لـ«روما الثالثة» قد اختل. فمنذ ذلك الحين لم يعد ممكناً الحديث إلا عن التواصل المدفوع بقوة الاستمرار لما كان في يوم من الأيام طريقاً مكتملاً ومؤسَّساً من الوجهة اللاهوتية «للشعبْ المتوشح بالله» في التاريخ. وبصورة موازية لهذا التحول بدأت المصالح المادية والسياسية الضيقة تلعب في السياسة الخارجية دوراً أكبر فأكبر بل إن الدوافع الدينية نفسها كثيراً ما صارت تستخدم ذريعة لهذا المُدْخل السياسي أو ذاك، والمتوجه بصفة استثنائية إلى خير الدولة في سياقها العلماني.

1 ـ 4 تحرّر الشعوب الأرثوذكسية الوطني

في القرن التاسع عشر أخذ عدد كبير من الشعوب الأرثوذكسية ـ اليونان، الصرب، البلغار، الألبان والرومانيون ـ يتحررون بفعالية من السيطرة السياسية للأتراك. ولعب العامل الديني دوراً ملموساً في ذلك إذ تحول إلى واحد من الحوافز الأساسية في النضال الوطني التحرري.


46

وظهور الدول الأرثوذوكسية الجديدة وتدمير إمبراطورية العثمانيين كانا نتيجة عدد من العوامل الجيوبولتيكية والإيديولوجية:

1 ـ تحلل سلطة الأتراك السياسية مكّن من تنامي الشعور الوطني لدى اليونان وغيرهم من شعوب البلقان وهو ما مهد له بدوره، انتشارُ أفكار التنوير، ولعبت في ذلك دوراً كبيراً فرنسا، مهد «الأنسام الحداثية».

2 ـ قامت روسيا، كعدو جيوبولتيكي لتركيا، باستثمار الوضع بفعالية، وذلك لتقويض عدوها من الداخل، فقد ركز العملاء الروس في اليونان والبلقان جهودهم على تدعيم مطاليب الأرثوذوكس، وهو ما كان يترافق مع الضغط الجيوبولتيكي لروسيا.

3 ـ ظهرت صحوة دينية مميّزة لدى الشعوب الأرثوذوكسية، وفكرة النضال من أجل الحرية السياسية والقومية ترافقت بأحاسيس رسالوية ذات طابع لاهوتي يتعلق بالآخرة.

وفي هذه المرحلة تكونت النظم السياسية ـ الإيديولوجية، اليونان الكبرى (أو الفكرة العظمى Megale idea)، بلغاريا الكبرى، صربيا الكبرى، (مخطط تقريبي)، رومانيا الكبرى وما إلى ذلك.

1 ـ 5 Megale Idea

كان أنصار اليونان الكبرى يتطلعون إلى تخليص الأراضي اليونانية من الأتراك وإقامة «بيزنطة الجديدة» وإعادة السلطة القيصرية، «عودة بطريرك القسطنطينية إلى دوره الرئاسي في كامل العالم الأرثوذوكسي. وبنتيجة النضال المرير والانتفاضة الوطنية استطاع اليونانيون أن يستخلصوا سنة 1830 دولة مستقلة صغيرة حول البيلوبونيز والمورة، وضاعفت الحروب البلقانية سنة 1913 مساحتها من الناحية الفعلية. وإلى ذلك فإن تحقيق «الفكرة العظمى» اصطدم بالمصالح الجيوبولتيكية للشعوب الأرثوذوكسية الأخرى، لأن اليونانيين طالبوا بضم مكدونيا وتراقيا وغيرهما من الأراضي التي كان يطالب بها البلغار والصرب أيضاً. وكانت ذروة هذا المخطط تحرير القسطنطينية (استامبول) من الأتراك. إلا أن الخطة ختمت بكارثة بعد هزيمة اليونان في حربها مع تركيا أتاتورك الذي كسر اليونانيين وأجبر سكان الأناضول اليونان على النزوح الجماعي إلى الأراضي اليونانية.

ومن المهم جداً الإشارة إلى أن النضال الوطني التحرري لليونان لم يلق الترحيب ولا الإلهام من طرف الهيئة الروحية الفناريوتية ولا من بطريرك القسطنطينية، الذين كانوا متضامنين سياسياً مع الإمبراطورية العثمانية أكثر من تضامنهم مع الجيوبولتيكية الروسية أو شعوب البلقان المتطلعة إلى الحرية. وفضلاً عن ذلك كان انهيار الإمبراطورية التركية كارثة على الهيئة الروحية العليا في العالم الأرثوذكسي خارج روسيا. ولهذا أخذت القومية اليونانية و«الفكرة العظمى» على الرغم من اكتسائها بالطابع الأرثوذكسي، تتقدمان باديء الأمر عن طريق تنظيمات سرية خاصة ماسونية الطابع لعب فيها الدورَ الأهم عملاء التأثير الروس وأنصار التنوير الفرنسي. وبكلمة أخرى فإن الفكرة الأرثوذكسية في اليونان كانت في المرحلة الحرجة من تحرير البلاد من السيطرة التركية في أيدي تركيب ديني مواز يرتبط بالدياسبورا اليونانية في روسيا وفي مناطق أخرى من البحر الأبيض المتوسط. ومما هو مثير للفضول أيضاً أن الارستقراطية اليونانية المرتبطة جينيتيكياً وسياسياً بالفناريوتية أخذت بعد انتزاع الاستقلال تتوجه في الأكثر إلى النمسا وألمانيا بينما كانت البورجوازية اليونانية، والتي ترعرعت «الفكرة العظمى» في أحضانها، النصيرة المتحمسة للاتحاد مع روسيا. وفي هذا يتضح بجلاء بعض تضامن الأرثوذوكسية اليونانية الرسمية ما بعد البيزنطية مع خط الفاتيكان.

1 ـ 6 (مخطط تقريبي)

فكرة صربيا الكبرى المؤسسة على الحدث التاريخي للدولة البلقانية الكبرى، والتي أقامتها في القرن الرابع عشر أسرة نيمانيتشي، بُعثت من جديد خلال مسيرة النضال الصربي التحرري. وفي بداية الأمر حرَّر ثوار الصرب من السيطرة العثمانية بقعة صغيرة هي شومادِيّا وبدأوا بعد ذلك نضالهم من أجل إقامة دولة سلافية حرة في البلقان يسيطر عليها الصرب وأسرة حاكمة أرثوذوكسية. وبداية من 1915 توصل الصرب إلى تحقيق بعض الاستقلال، لكنه كان يحمل توجهين جيوبولتيكيين مختلفين تجسّدا في الأسرتين الصّربيّتين ـ أسرتي أوبرينوفتش وكاراغيورغيفتش(*). وعلى الرغم من أن آل أوبرينوفتش كانوا أرثوذوكسيين إلا أن توجههم كان نحو

(*) أوبرينوفتش: أسرة أمراء (بين 1815 ـ 1842 و1858 ـ 1882) ثم أسرة ملكية بين =

النمسا القريبة ولم يلعب الدور الأخير في هذه المسألة نشاط بعض الأوساط السياسية المثقفة من ڤويڤودينا، المنطقة الممتدة على مسافة أقرب إلى النمسا. أما أسرة كاراغيورغيڤتش فكانت على العكس من ذلك تميل إلى روسيا. وفي سنة 1903، وليس بدون مساعدة المكتب الروسي الخاص للخدمات، أزيحت أسرة أوبرينوڤتش وتوجهت صربيا نحو الخط الموالي لروسيا. وفي سنة 1920 وبواسطة كاراغيورغيڤتش أقيمت يوغوسلافيا، الدولة البلقانية الكبرى التي وحدت تحت شعارها الصربي كثيراً من الشعوب البلقانية بما في ذلك الكروات الكاثوليك والسلوفينيين والمكدونيين الأرثوذوكس ومسلمي البوسنة والألبان. وبالإضافة إلى ذلك وقع الكاثوليك المجريون في شمالي يوغوسلافيا تحت السيطرة الصربية. بيد أن هذه التركيبة الجيوبولتيكية بدت غير ثابتة، لأن الشعوب غير الأرثوذوكسية في يوغوسلافيا أخذت (وليس بمعزل عن مساعدة عملاء النفوذ النمساويين والأتراك) تعارض الهيمنة الإتنية للصرب والأولوية الدينية للأرثوذوكسية. واكتسبت هذه المواجهة حدة خاصة خلال الحرب العالمية الثانية عندما قامت كرواتيا والبوسنة المواليتين لألمانيا بإبادة جماعية للصرب الأرثوذوكسيين.

1 ـ 7 رومانيا الكبرى

مشروع رومانيا الكبرى ظهر أيضاً في وسط أرثوذوكسي، وما كان الحديث يدور حول التحرير الكامل من السيطرة التركية فقط (على الرغم من أن مولدافيا وڤالاخيا ما دخلتا قط من الناحية الاسمية في عداد الإمبراطورية العثمانية) بل وأيضاً حول مقاومة سياسة الفناريوت الذين كانوا يحاولون إخضاع الكهنوت الكنسي لنفوذهم. وكانت روسيا تدعم المشاعر المعادية للترك والمعادية للفاناريوت في هذا التيار وقد ساعد على ذلك انتماء بيسارابيا المأهولة بالرومانيين إلى

= 1882 ـ 1903 في صربيا. أسسها ميلوش أوبرينوڤتش. من أشهر أعضائها ميخائيل الثالث، ميلان، وآخرهم الكسندر (1899 ـ 1903) (المترجم).

كاراغينوڤيتش: أسرة أمراء منذ 1808، وملكية منذ 1903 في صربيا ثم في مملكة الصرب والكروات والسلوڤينيين (1918 ـ 1929) ويوغوسلاڤيا (1929 ـ 1945، حكمت عملياً حتى 1941). أشهر أعضائها. المؤسس ـ كاراغيورغي. وبيوتر الأول (ملك بين 1903 ـ 1921) والكسندر الأول (ملك بين 1921 ـ 1934) وبيوتر الثاني. (المترجم).

الأراضي الروسية. وبالإضافة إلى ذلك أخذت النزعات الأونياتية تشتد في رومانيا بداية من القرن التاسع عشر. والأونياتية ـ هي فكرة خضوع الكنيسة الأرثوذوكسية للفاتيكان مع الحفاظ على الطقوس الأرثوذوكسية، إلا أن الرابح جيوبولتيكياً من هذه النظرة، في واقع الحال، وبصفة استثنائية، هو الفاتيكان وهو ما يعني أن الخاسر ـ هو الأرثوذوكسية. فليس من قبيل الصدف أن ينظر الأرثوذوكس إلى الأونياتية على أنها خطوة تكتيكية للكاثوليكية التي تعمل على توسيع نفوذها التبشيريّ، والسياسي والروحي نحو الشرق على حساب الشعوب الأرثوذوكسية. وفي رومانيا نفسها ترافقت الأونياتية التي انتشرت بصفة خاصة في ترانسلفانيا مع التقاليد الثقافية للّتْنَنَة وإعلاء شأن الجوهر الروماني لرومانيا والجذور اللاتينية للّغة وما إلى ذلك. لقد اعتمدت الأونياتية في رومانيا على النمسا الكاثوليكية، بينما لقيت الأرثوذوكسية دعمها بصورة طبيعية من طرف روسيا. ومما له دلالته أن الفناريوت الأرثوذوكس اليونانيين كانوا يطبقون في رومانيا سياسة مناصرة، من الناحية العملية، للأتراك، تناقض المصالح الجيوبولتيكية النمساوية ـ الكاثوليكية والروسية ـ الأرثوذوكسية. وفكرة رومانيا الكبرى كانت تحمل معنى أرثوذوكسياً مضمراً وتحت هذه الراية كان الرومانيون يناضلون من أجل استقلالهم الوطني. ومن المهم أن الوطنية الرومانية تحمل طابعاً معادياً بصفة علنية لليونان أما في الجو المذهبي فالأونياتية المقترنة بالتوجه نحو الثقافة اللاتينية تميل إلى روما وأوروبا الغربية ـ بينما تلتزم الأرثوذوكسية الرومانية الخط الموالي لموسكو. والطريف أنه بعد سَفْيَتَة رومانيا سنة 1948 شغل النظام الشيوعي الإلحادي، من الناحية الشكلية، مواقع الأرثوذوكسية الرومانية بصورة لا تقبل أي تأويل آخر فأخضع لذاته الطوائف الأونياتية وأوقع بالأقليات الكاثوليكية عقوبات محدَّدة.

1 ـ 8 بلغاريا الكبرى

يمكن تحديد الانطلاقة لحركة انبعاث البلقان الأرثوذوكسي والانبعاث الوطني في وقت واحد بسنة 1870 وذلك عندما أنشىء بضغط من روسيا وبدعم منها الايكزارخات(*) البلغاري الذي حدّد هدفه بتوحيد الأرثوذوكس الذين يعيشون في

(*) الايكزارخات: (من اليونانية exarchos ـ الرئيس) وتحمل معنيين، الأول: =

البلقان في حلف جيوبولتيكي معاد من الناحية السياسية للإمبراطورية العثمانية والمعارض من الناحية الروحية لبطريرك القسطنطينية ولهيمنة الفناريوت.

وبصورة متوازية مع الحصول على الاستقلال السياسي صاغت بلغاريا المشروع القومي المسمى «بلغاريا البحار الثلاثة» ويفترض توحيد مكدونيا وتراقيا والقسطنطينية. ولما كانت الأرثوذوكسية البلغارية موالية تقليدياً لروسيا فقد انحرفت في بعض لحظات التاريخ عن هذا الخط من أجل تحقيق بعض الأهداف القومية الضيقة على نحو ما فعله أونياتيو رومانيا وأسرة أوبرينوفتش الحاكمة في صربيا والارستقراطية اليونانية وبعض القوى الأوروبية ـ الشرقية الأخرى أيضاً، فإنها وقفت إلى جانب أوروبا الوسطى فكانت حليف النمسا والمجر ضد روسيا.

والطريف أنه بمقدار ما كانت تظهر أعداد أكبر من الدول الأرثوذوكسية الجديدة في البلقان كان توجهها الجيوبولتيكي يتأرجح بين روسيا والنمسا أي بين الأرثوذوكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية. وإلى هذا فإن الذريعة الشكلية لتلك الازدواجية الثانية كانت بعض الأراضي المتنازع عليها، وبالدرجة الأولى مكدونيا. فبسبب مكدونيا كانت تظهر دوماً المماحكات بين اليونان ـ بلغاريا وصربيا وكان دعم روسيا لهذا الجانب من النزاع أو ذاك يلقي بالجانب الآخر وبطريقة آلية في أحضان النمسا.

1 ـ 9 ألبانيا الأرثوذوكسية

وفقاً للتوزع السكاني للألبانيين مرت حدود تقليدية بين العالمين البيزنطي والكاثوليكي. وفي هذا الشعب توجد أربع طوائف: الألبان السنّة (الألبان المترّكون) والألبان البكتاشيون (أعضاء الفرقة الصوفية التي تتسم، كما في بعض الحالات الاستثنائية ـ بطابع قبلي لا بطابع يقوم على المبادرة وحدها)، الألبان الكاثوليك والألبان الأرثوذوكس. وعلى الرغم من أن الألبان الأرثوذوكس يمثلون

= وحدة إدارية عسكرية في بيزنطية خلال القرنين السادس والسابع يرأسها الإيكزارخ، وكانت هذه الوحدات تشكل على أطراف الدولة، الثاني ويعني بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية دائرة أو منطقة تجمع عدة أسقفيات معاً وتتمتع باستقلالية خاصة، تنتشر في أوروبا الغربية، في أمريكا الجنوبية وفي أوكرانيا (المترجم).

الأقلية فإن هذه المجموعة بالذات كان في مركز النضال الوطني التحرري. ودولة ألبانيا المستقلة ظهرت بفضل الأسقف الأرثوذوكسي فان نولي(*) الذي صار أول حاكم ألباني عام 1918. وكان فان نولي نفسه نصيراً وفياً لروسيا، دعمته الأرثوذوكسية الروسية في جميع مبادراته. وقد جمع الألبان الأرثوذوكسيون تحت سيطرتهم الأمة بأسرها دون النظر إلى الطائفة، إلا أن عدوّهم ومنافسهم الأوحد لم يكن حتى الكاثوليك بقدر ما كانت طبقة الكهنوت اليونانية التي تجذّرت تقليدياً في ألبانيا! ومن جديد نواجه في المثال الألباني بالثنائية الجيوبولتيكية في العالم الأرثوذوكسي ما بعد البيزنطي حيث تتجابه المصالح الجيوبولتيكية للكنيستين اليونانية والروسية.

واحتفظ فان نولي بتوجهه الموالي لروسيا حتى بعد ثورة أكتوبر، ولهذا السبب أطيح به من طرف أحمد زوغ، الذي صار ملك ألبانيا. وخلال احتلال إيطاليا الفاشية لألبانيا أخذت السلطات الموالية للكاثوليك بمطاردة الألبان الأرثوذوكس، ولكن بعد «السَّقْيتة» حصلت الكنيسة الأرثوذوكسية من جديد على الدعم الحكومي ومن طرف السلطات الشيوعية هذه المرة. وفقط في سنة 1967 وخلال «الثورة الثقافية» وتوجهها الماوي أعلنت ألبانيا السوفياتية نفسها «أول دولة إلحادية بصفة استثنائية في العالم» وأخذت بالاضطهاد المباشر لكافة المؤمنين من أي طائفة كانوا.

1 ـ 10 اللوبّيات الجيوبولتيكية في البلدان الأرثوذوكسية

إن نظرة عامة إلى الميول الجيوبولتيكية للبلدان الأرثوذوكسية البلقانية تبرز قانوناً على جانب كبير من الأهمية. ففي كل دولة هناك اثنان على الأقل من اللوبيات الجيوبولتيكية يرتبط طابعهما ببعض الخصائص الدينية.

(*) فان نولي (Noli)، تيوفان (1882 ـ 1965) رئيس الحكومة الديموقراطية في ألبانيا بين حزيران وكانون الأول من عام 1924، والتي تم تشكليها بعد الثورة البورجوازية ـ الديموقراطية. وهو كاتب ومؤرخ، شارك في حركة التحرر الوطنية منذ 1903، عاش بين 1906 ـ 1920 في الولايات المتحدة (وكان كاهناً منذ 1908)، رجع إلى المغترب بعد 1924. له دراسات في التاريخ الألباني، وأشعار وطنية وترجمات من أدب وشكسبير، م. سرڤانتس، عمر الخيام وف. تيوتشيف، وغير ذلك (المترجم).

أولاً، يوجد في كل مكان اللوبي الموالي لروسيا والمتوجه نحو جيوبولتيكا الكنَيسة الأرثوذوكسية الروسية التي ترث بدورها (وإن كان ذلك بشيء من التحفظ) خط «موسكو ـ روما الثالثة». وهذا اللوبي موجه ضد روما وضد أي نوع من التقارب معها (ويعني أنه ضد النمسا، المجر وألمانيا الكاثوليكية، أي ضد القطاع الكاثوليكي في أوروبا الوسطى)، لكنه يقف في الوقت نفسه ضد المواقع التركية وضد المواقع الفناريوتية واضعاً نفسه بهذا المستوى أو ذاك في مواجهة بطريرك القسطنطينية. وفي بعض الحالات (كما في اليونان نفسها على سبيل المثال) يشمل هذا اللوبي ليس فقط الأوساط الأرثوذوكسية بل وأيضاً بعض الجمعيات السرية الماسونية النمط.

ثانياً: يوجد في هذه البلدان لوبي نقيض وهو، سواء أكان أرثوذوكسياً أم لم يكن، يتعاطف مع التقرّب من روما، مع التوجه نحو أوروبا الوسطى والنمسا، وفي النهاية نحو الأونياتية أو حتى الكاثوليكية.

ثالثاً: تتبقى في كل مكان آثار النفوذ التركي الذي كانت تدعمه انكلترا في هذه المنطقة وهذا يعني أن للجيوبولتيكا الأنجلو ساكسونية في هذه الحالة توجهاً جنوبياً وتعتمد على الميول الفناريوتية حتى في الأرثوذوكسية المعاصرة في دول البلقان التي كانت مرتبطة تقليدياً بالإدارة العثمانية.

وانهيار يوغوسلافيا يقدم لنا المثال على التوضع الجيوبولتيكي في البلقان. فخط الولاء للروس متجسد في موقف بلغراد وصرب البوسنة. كرواتيا وسلوفينيا تتوجهان نحو أوروبا الوسطى، أما الأنجلو ساكسون (الولايات المتحدة وانكلترا) فتؤيدان بفعالية مسلمي البوسنة وُرثاء الترك. وإزاء هذا تستيقظ من جديد مسألة مكدونيا التي يثور الجدل ثانية حولها بين صربيا، اليونان وبلغاريا. وبقوة جديدة تعرّف بنفسها المشكلة الألبانية ـ وبصفة خاصة في كوسوفو. فالمأساة الدائرة بقرب نهر الدنيبر والمشاعر المعادية للروس في رومانيا المعاصرة ومولدافيا تجبر من جديد على لفت النظر إلى اللوبي الأونياتي والموالي للكاثوليك، والذي يمكنه فقط أن يكون حاملاً للمشاعر المعادية لموسكو والاتجاهات اللاتينية في هذه المناطق.

1 ـ 11 الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية والسوفيتيات

العلاقة بين الأرثوذوكسية والنظام السوفياتي مسألة على غاية من التعقيد.

فمن جهة توجد وجهة نظر ترى بأن العهد السوفياتي، بغض النظر عن كل شيء، قد ورث عن روسيا ما قبل الثورة خطاً جيوبولتيكياً يتطابق بصرامة في جوانبه الأهم مع جيوبولتيكية الكنيسة الروسية. ويمكننا أن نحدد ذلك اشتراطياً «بالسيرغيانية» على اسم سيرغي بطريرك موسكو الذي كان قد صاغ أطروحة مشهورة صارت نقطة انطلاق لجدالات كنسية داخلية لم تهدأ حتى في أيامنا هذه: «**إنجازاتكم - إنجازاتنا**» (في خطابه لنظام إ. ستالين الالحادي المعادي للكنيسة). وهذه المعادلة السيرغيانية ليست بتلك العبثية والشناعة التي يريد أن يصورها به المحافظون الأرثوذوكس. كل ما في المسألة أن الثورة البلشفية قد جرّت وراءها أمثال هذه التغييرات في حياة روسيا الكنسية التي تذهل برمزيتها. ففي وقت واحد أعيدت البطريركية، ونقلت العاصمة إلى موسكو (العودة الرمزية إلى فكرة «موسكو - روما الثالثة»)، الاحتياز المعجزي على أيقونة «السيّدة» في كولومينسك، مكان الإقامة الموسكوفية للقياصرة الروس، كانت تشير إلى العودة إلى المهمة الغيبية الخلاصية الاسكولاتية للسلطة القيصرية التي أعيد اعتبارها في حجمها ما فوق الطبيعي بعد مرحلة بطرسبرج التي امتدت مئتي سنة. وإلى جانب ذلك ورث البلشفيك مجموع الجيوبولتيكا الروسية وقوّوا الدولة ووسعوا حدودها. وبصورة موازية لذلك كانت تجري عملية البعث الروحي للكنيسة التي بعثت عبر الاضطهاد والآلام التي أعادت التوهج المنسي للشعور الديني وممارسة الاعتراف ومأثرة مكابدة العذاب في سبيل المسيح.

ووجهة النظر الثانية ترى في السلطة السوفياتية نقيضاً كاملاً لروسيا الأرثوذوكسية، وأما «السيرغيانية» فتراها امتثالاً تواقتياً مع المسيح الدجال والردّة. وهذه الرؤية تنفي إمكانية النظر إلى المرحلة السوفياتية على أنها امتداد لجيوبولتيكا الأرثوذوكسية. أما صاحب هذه الإيديولوجيا في أوضح صيغة لها فهو الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية خارج الوطن والطائفة الأرثوذوكسية الكنسية الحقة، والتي تصدر مواقفها من المماهاة الغيبوية بين البلشفية وظهور المسيح الدجال. ومما يثير الفضول أن هذه النظرة ترفض الأرثوذوكسية كمقياس سياسي وتتوافق نمطياً مع موقف «الفناريوت» الذين يرفضون ضرورة ربط الكنيسة الأرثوذوكسية بالسياسة، هذا الربط الذي يعد أساس العقيدة الأرثوذوكسية المتكاملة. وفي الوقت نفسه تتوافق هذه النظرة والتعاطف مع الحركة «البيضاء» التي قامت جيوبولتيكياً على

أساس دعم الأنتانتا، الدول الأوروبية الغربية، وبخاصة الدول الانجلوساكسونية. وليس من قبيل الصدفة أن يوجد مركز الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية خارج حدود الوطن في الولايات المتحدة. فمثل هذا العداء «الأرثوذوكسي» للسوفياتية و «للسيرغيانية» يتطابق مع الخط الأطلسي التقليدي بالنسبة للغرب والموجه ضد روسيا (السوفياتية، البطريركية، الحداثية، الديمرقراطية وما إلى ذلك) بغض النظر عن نظامها الإيديولوجي.

1 ـ 12 خلاصة

بعد سقوط **الإمبراطورية البيزنطية** تجردت الأرثوذوكسية من المهمة اللاهوتية الغيبوية التي كانت في عصر «مملكة الألف سنة» من القرن الخامس حتى الخامس عشر. أما المئتا سنة من عهد **«موسكو ـ روما الثالثة»** فيقترب من ذلك العهد «المقدس الذي يتطابق بالنسبة للوعي الأرثوذوكسي مع عهد التقاليد المتكاملة. وبعد الانقسام والإصلاحات البطرسية تبدأ مرحلة قريبة من الاحتواء على معنيين، تتبع روسيا، على مداها، خطها الجيوبولتيكي السابق في ملامحه العامة، فاقدة خلال ذلك صلابتها العقائدية. والمرحلة التالية للبيزنطية تتسم بطولها بالازدواجية في إطار الأرثوذوكسية نفسها حيث تقوم **الأرثوذوكسية الروسية**، المرتبطة مباشرة بجيوبولتيكا الدولة الروسية، بالوقوف في وجه الخط اليوناني ـ الفناريوتي لبطريرك القسطنطينية، والذي يجسد خط الأرثوذوكسية التي انقطعت بصرامة عن التطبيق السياسي وراحت تطبق مهاماً آلية في البنية العامة للنظام العثماني.

إن روسيا نفسها تقتبس التقليد البيزنطي المتعلق بالموزانة بين «العكازة اللاتينية والعمامة التركية» ومضطرة بمفردها لحماية مصالح **الأرثوذوكسية** على المستويين الجيوبولتيكي والحكومي. وهذا الخط يضطر روسيا للمشاركة في السياسة البلقانية، حيث تصطدم بمجموعة من التقاليد الجيوبولتيكية المعادية بما فيها النفوذ «الفناريوتي» المعادي لروسيا.

وأخيراً فإن الجيوبولتيكا في المرحلة السوفياتية، ومهما كان في ذلك من مفارقة، تواصل الاستراتيجية الكونية العامة للدولتية الروسية موسعة آفاق هيمنة روسيا على حساب البلدان والشعوب المعادية تقليدياً للأرثوذوكسية، وبالطبع لا

يمكن أن يدور الحديث هنا حول استخلاف دوغماتي للسوفيات بالنسبة **للكنيسة الأرثوذوكسية الروسية**. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الوضوحية العقائدية التي ضيعت خلال حكم بطرس قد تكدَّرت في مرحلة الانشقاق. وإذا ما توقفنا عند وجهة نظر «السيرغيانية» أمكننا أن ننظر إلى الإنجازات الجيوبولتيكية للدولة السوفياتية فوق العظمى والتي أخضعت نصف العالم الذي يعادي بصفة تقليدية المسيحيين الروس الأرثوذوكس ودولتنا على أنها إنجازات **للكنيسة الروسية** وللجيوبولتيكا الأرثوذوكسية. وهذه الأطروحة الأخيرة تبدو، خارج أية شكوك، مثيرة للجدل إلى حدود كبيرة، لكن بنفس المستوى من الإثارة للجدل، إذا ما تحدثنا بصرامة، تبدو مطابقةُ روسيا الرومانوفية ما بعد البطرسية بالدولة الأرثوذوكسية الحق. على الرغم من أننا في الحالتين الأولى والثانية أمام استخلاف جيوبولتيكي.

وفي الوقت الحاضر حيث لا توجد روسيا قيصرية ولا روسيا سوفياتية بل توجد بلاد على الرمق الأخير، مشوّهة، منتهبة، مباعة للغرب، لعدوّنا الأبدي، يمكننا أن نعي مجموع التاريخ الجيوبولتيكي للأرثوذوكسية بموضوعية، وبلا تحيّز وأن نستخرج ثوابته التي يجب أن نسطّرها على ألواح سلطة حكومية جديدة تحرص على أن تُسمى «روسية».

الدولة والأرض

2 ـ 1 ـ الأنواع الجيوبولتيكية الثلاثة

غالبية المناقشات المتعلقة باللوحة الجيوبولتيكية الجديدة للعالم مركزة حول أنواع سياسية ثلاثة:

1 ـ «**الدولة ـ الأمة**» (Etat Nation) أي الدولة المركزية التي تكونت تاريخياً (مثل فرنسا، إيطاليا، ألمانيا وما شابهها)؛ .

2 ـ **الإقليم** وهو المدى الإداري، الإتني أو الثقافي الذي يعد جزءاً من واحدة أو عدة دول (Etat-Nation) ولكنه يتمتع في الوقت نفسه بمستوى ملموس من الاستقلال الذاتي الثقافي ـ الاقتصادي (مثل بريتاني في فرنسا، الفلاندر في بلجيكا، كاتالونيا، غاليسيا وإقليم الباسك في إسبانيا وما إلى ذلك)؛ .

3 ـ **المجال الكبير** «الرابطة» أو «الجامعة» التي تجمع عدة دول ـ أمم (Etat-Nation) في حلف اقتصادي أو سياسي.

والكثيرون من «الأوروبيين»، اليساريين منهم واليمنيين يرون أن نوع «الدولة ـ الأمة» (Etat-Nation) أي الدولة المركزية التقليدية قد استهلك نفسه وأنه ينبغي التوكيد بالذات على النموذجين الاثنين الآخرين ـ على الجهوية وحتى على الاستقلالية الذاتية من جهة وعلى التوحيد القاري للأقاليم في معسكر واحد من جهة أخرى. ومن الأمور ذات الدلالة أن نلتقي هنا بوجهات نظر الأطياف السياسية القطبية، فـ «اليساريون» الجدد يرون الـ(Etat-Nation) تشكلاً «يمينياً» جداً، «شمولياً» جداً، «قمعياً» جداً و «محافظاً» جداً ويجب التخلي عنه باسم التقدم، أما

«اليمينيون الجدد»، فـ «على العكس من ذلك» ينسبون الدولة ـ الأمة (Etat-Nation) إلى المرحلة الأكثر «حداثة» والأكثر لا تقليدية من التاريخ الأوروبي، وذلك عندما تم تدمير الإمبراطورية الأوروبية التقليدية من طرف الحكم الفرنسي المطْلق، العدْمي، العلماني. وفضلاً عن ذلك يرى «اليمينيون الجدد» في الإقليمية عودة إلى التقاليد الإتنية وإلى مبدأ التعددية الاتنو ثقافية وهو ما يعد جوهر الفكر «اليميني الجديد» في مجموعه.

ومن جهة أخرى هناك صنف واسع الحضور من السياسيين الذين ـ على العكس من ذلك، يدافعون عن قيم «الدولة الأمة» (Etat-Nation) ويعود الوفاء للمركزية الحكومية لإمكانية أن يوحّد بين «اليمينيين» و «اليساريين». ولكن من يقف هذا الموقف فليسوا، كقاعدة عامة، باليمينيين «الجدد» بل «القدامى». من اليمنيين واليساريين ومن المميّز أن مناهضي الوحدة الأوروبية كانوا في فرنسا قوى سياسيّةً ثلاثاً: جبهة لوبان الوطنية (أقصى اليمين) شيوعيو مارشيه (أقصى اليسار) والاشتراكيون الوسط ذوو الاتجاهات القومية حول جان بيير شيڤينمان. ومن هنا نصل إلى أن المشاعر الإيديولوجية يمكن أن تتلاءَم في إطار المشروع الجيوبولتيكي الواحد. ومع كل ذلك فإن لكل قوة سياسية فهمها الخاص للصيغ الجذرية الثلاث للبناء الجيوبولتيكي للمجتمع المعاصر. وكان من المثير للفضول بناء تصميم يبيّن كيف تقيم القوى المختلفة في منظور إيديولوجياتها الخاصة المشاريع الثلاثة جميعاً ولزيادة الإيضاح سوف نتحدث عن المواقف المتطرفة التي تزداد اكتساء باللوينات والظلال كلما زاد الاقتراب من المركز السياسي.

2 ـ 2 إقليميّة اليمينيين واليساريين

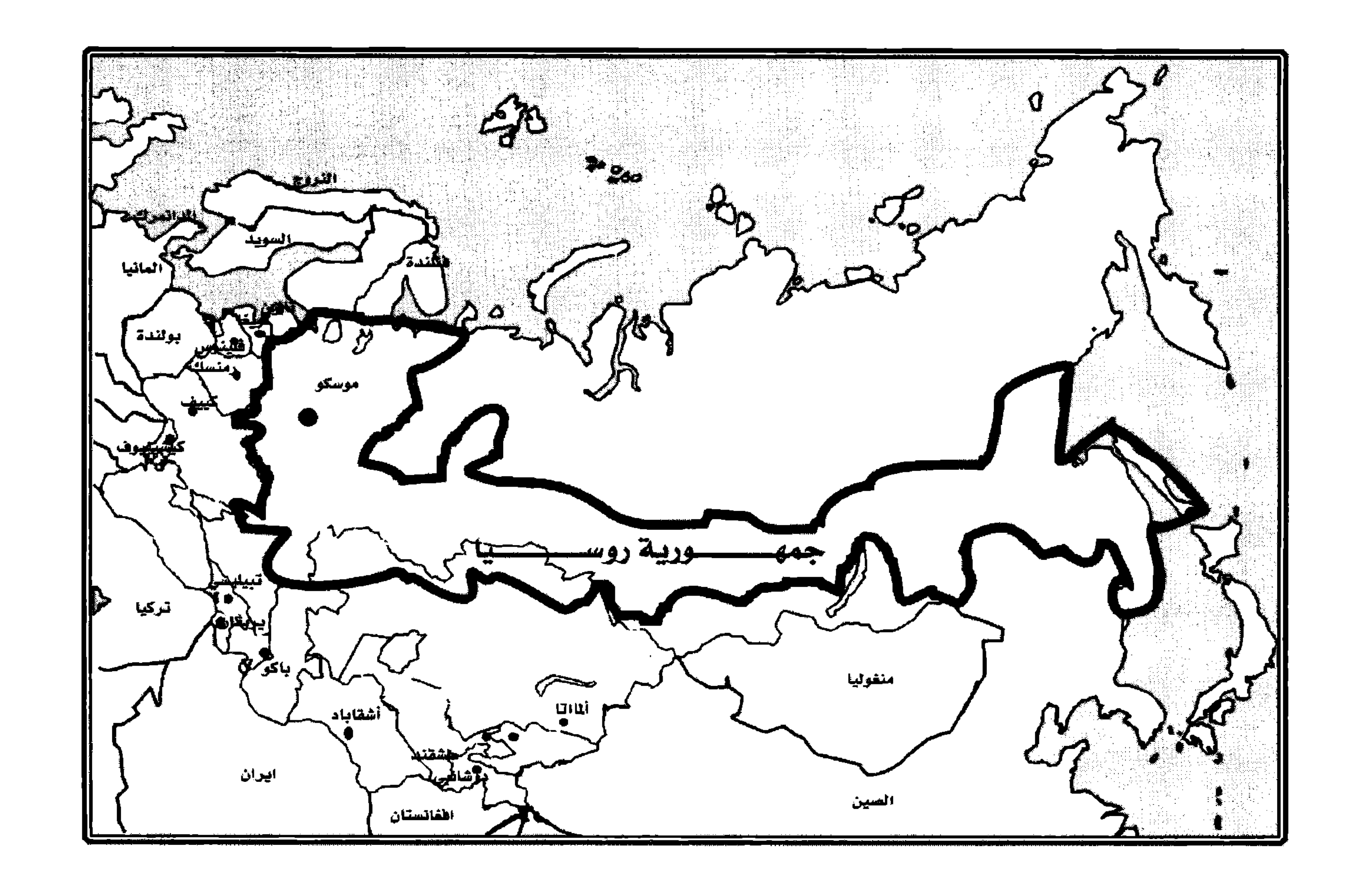
تتوجه المجموعة العامة للإيديولوجيات اليسارية نحو إضعاف تأثير الدول والبنى الإدارية والسياسية على الحياة العامة. وهذا ما يفترض مبدأ اللامركزية، والتطور التدريجي من المركز الواحد للسلطة إلى عدة مراكز فإلى أعداد كبيرة منها في المستقبل. وكان الفوضوي المشهور برودون قد عالج في حينه هذه النظرية. فاليساريون يتطلعون إلى الإضعاف ومن ثم الإلغاء التدريجي للصيغ الشمولية والتسلطية للإدارة وهذا يعني أن توجههم الجيوبولتيكي مكرس ضد الحفاظ على

الدولة التقليدية بحدودها وجهاز موظفيها وأجهزتها القمعية وما إلى ذلك. وينطلق هذا كله من توجه اليساريين الإيديولوجي الرئيسي نحو «الإنسانية»، نحو قيمة الفرد ـ النواة، وليس إلى نوع من البنى ما فوق الفردية، والتي تحد من حريته. وعلى هذا الأساس الفكري تطورت الإقليمية الأوروبية المعاصرة كتوجه ثابت نحو اللامركزية الاجتماعية الاقتصادية، نحو الكف عن مبدأ الدولة القومية الذي كان تقليدياً بالنسبة لغرب المئات السنين الأخيرة.

وهذا الاتجاه الليبرالي لليساريين يرفض كل الرفض حتى مفهوم «الدولة» نفسه ومفهوم «الأمة» نفسه كراسب تاريخي. وتواجه هذه المبادىء بفكرة «حقوق الإنسان»، «الإنسانية» والتي كفّت منذ زمن بعيد عن أن تكون شعاراً تجريدياً مشفقاً على البشر ثم تحولت إلى مجمّع إيديولوجي هجومي إلى حد بعيد ـ وموجهة بصفة علنية ضد الصيغ التقليدية للوجود الجماعي للبشر كأعضاء في أمة، شعبٍ، دولةٍ، أو عرق وما إلى ذلك. ومن هنا ينطلق توكيد اليساريين على الإقليمية، ذلك أن الاستقلالية الإدارية للأجزاء الترابية من الدول تقرّب ، وفقاً لوجهة نظرهم، المعيار القيمي من الفرد وتنزع عن الأنواع الاجتماعية الواسعة هالة الهيبة غير المشروطة ومهمة الرقابة.

ومن الواضح أن هذا الاتجاه من طرف اليساريين يعارض ايديولوجيّي الدولة ـ الأمة أي «الايتاتيين» «والناسيوناليين» والذين تمثل وحدة الشعب التاريخية والسياسية والمتجسدة في الـEtat-Nation بالذات القيمة الأسمى بالنسبة لهم. ومواجهة أنصار الدولة ـ الأمة لليبراليين ـ الإقليميين تمثل ثابتاً لنقاشات عاصفة تتعلق بالمشاريع السياسية الأساسية في جميع الدول التي تتطور فيها العمليات السياسية بفعالية وديناميكية.

بيد أن هناك «إقليمية يمينية» ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة الموروث والاتنوس. وهذه الإقليمية تنطلق من أطروحة ترى أن الدولة المركزية المعاصرة ليست إلا أداة للتسوية الثقافية والإيديولوجية بين أعضائها، وأنها قد فقدت منذ زمن بعيد مهماتها المقدسة وتحولت إلى جهاز قمعي موجه ضد التقاليد الثقافية والأخلاقية والإتنية الأصيلة. «والإقليميون اليمينيون» يرون في اللامركزية إمكانية أن تُبْعَثَ إلى حد ما الصيغةُ الطقوسية والثقافية للشعوب، والمهن التقليدية وأن تُستعاد تلك الصيغ من الإدارة والتي كانت من خصائص الحضارة التقليدية حتى هجوم


جمهـــورية روســـيا
النرويج
السويد
فنلندة
المانيا
بولندة
موسكو
كييف
تركيا
باكو
أشقاباد
ألماآتا
ايران
افغانستان
منغوليا
الصين

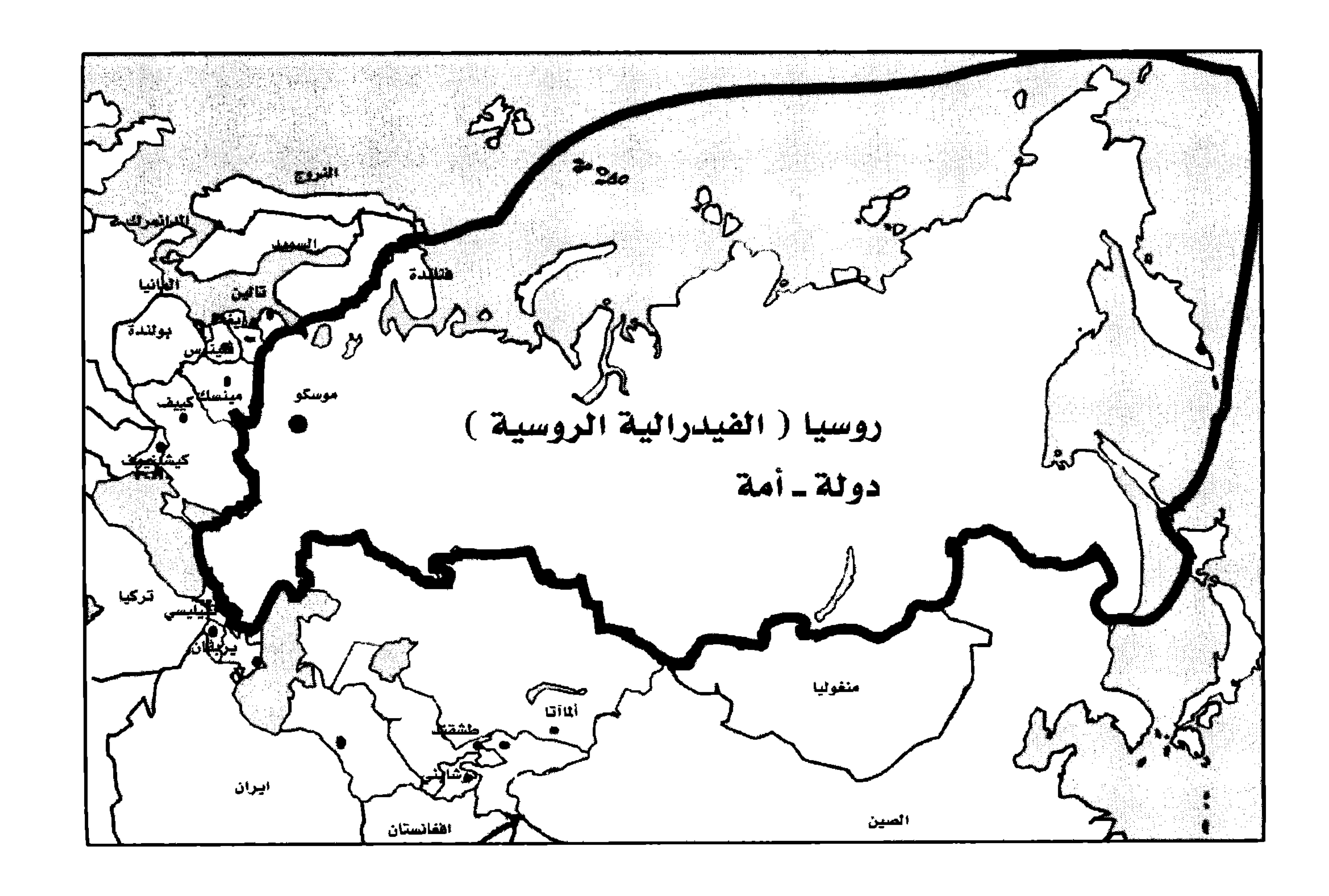
العالم المعاصر. ومن الناحية العملية تتطابق هذه «الإقليمية اليمينية» بصفة دقيقة مع مفهوم «التُربوية». ومن الناحية المبدئية يعني اليمينيون من وراء ذلك بطريقة خفيّة شيئاً من التميّز «الفطري» الخاص بسكان الأطراف والذين يتجاوبون مع الغرباء بحرارة أكثر وتحرّج أقل من تجاوب سكان المدن الكبرى.

بهذه الكيفية يتكون الخط الجديد من التعارض السياسي: «الإقليميون الجدد» الذين كثيراً ما يستعيذون بالنقاوة الثقافية ـ العرقية، و «الايتاتيون اليساريون» الذين يرون أن الطريقة الأفضل لغرس القيم «التقدمية» و «الليبرالية» في المجتمع هي المركزية الحكومية التي تصون المجتمع من إمكانية عودة الرواسب «التي قضى عليها المجتمع».

2 ـ 3 المدى الكبير الجديد عولمة أم إمبراطورية

بالنسبة للتكامل ما فوق الدولي هناك أيضاً توزع سياسي متناقض إلى حد ما. فهناك، من جهة، «المشروع العالمي» الذي يفترض إزالة كاملة للدول التقليدية وإقامة حقل حضاري كوني يُدار من طرف مركز واحد يمكن تسميته اشتراطياً بـ «الحكومة العالمية». وهذا المشروع في أساسه هو الخاتمة المنطقية للاتجاهات الليبرالية التي تحاول تدمير جميع البنى الاجتماعية التقليدية واصطناع مجال «إنساني عام» موحد مكوّن لا من الشعوب بل من «الأفراد»، لا من الدول، بل من جمعيات تكنوقراطية ومن عمال غير مهرة. على هذه الصورة بالذات ظهرت في عيون عولميي بدايات القرن «الولايات المتحدة الأوروبية»، التي كان يحلم بها الرأسماليون ـ الليبراليون (مونيه، كودينوف ـ كاليغري وسواهما) والشيوعيون (تروتسكي وآخرون) وفيما بعد ألهمت هذه الأفكار مصممي ماستريخت وإيديولوجي «النظام العالمي الجديد».

إلا أن ثمة صيغة موازنة لهذا الأفق العولمي، تحميها القوى السياسية غير الملتزمة. والحديث يدور حول منظري الإمبراطورية الجديدة الذين يرون في الدول ـ الأمم المعاصرة نتيجةً للانهيار المأساوي للإمبراطوريات التقليدية التي لا تحسن شيئاً سوى أن تتطابق، بصفة كاملة، مع البنية القداسية الأصلية والقائمة على التعددية النوعية، على التراتبية الروحية ـ على القاعدة التعاونية والدينية. ومثل هذا


روسيا (الفيدرالية الروسية)
دولة - أمة
النروج
السويد
فنلندة
ألمانيا
بولندة
موسكو
مينسك
كييف
تركيا
ايران
افغانستان
طشقند
ألماتا
منغوليا
الصين

الفهم «للمدى الكبير الجديد» ينبثق لا من النظرة الكمية نحو التكامل (كما هو بالنسبة للعولميين) بل من مبدأ روحي ما فوق القومي، والذي كان يمكن أن يبدو متسامياً بالنسبة للتكوينات التاريخية القائمة ويمكنه أن يجمعها معاً في تركيب مقدس أعلى. وطبقاً للظروف يتخذ «المشروع الإمبراطوري» أساساً له أما العامل الديني (المناصرون الكاثوليك لانبعاث إمبراطورية النمسا والمجر) أو العرقي (إيديولوجيو الإمبراطورية الأوروبية الموحدة بوحدة أصل الشعوب الهند أوروبية و«اليمينيون الجدد» الفرنسيون من بينهم بصفة خاصة)، أو العامل الجيوبولتيكي (نظرية البلجيكي جان تيريار) أو الثقافي (مشاريع الأوراسيين الروس).

وبناء عليه نجد هنا أيضاً قطبين أساسيين متعارضين - يريان واقعين جيوبولتيكيين متشابهين ولكن ضمن أفق معكوس.

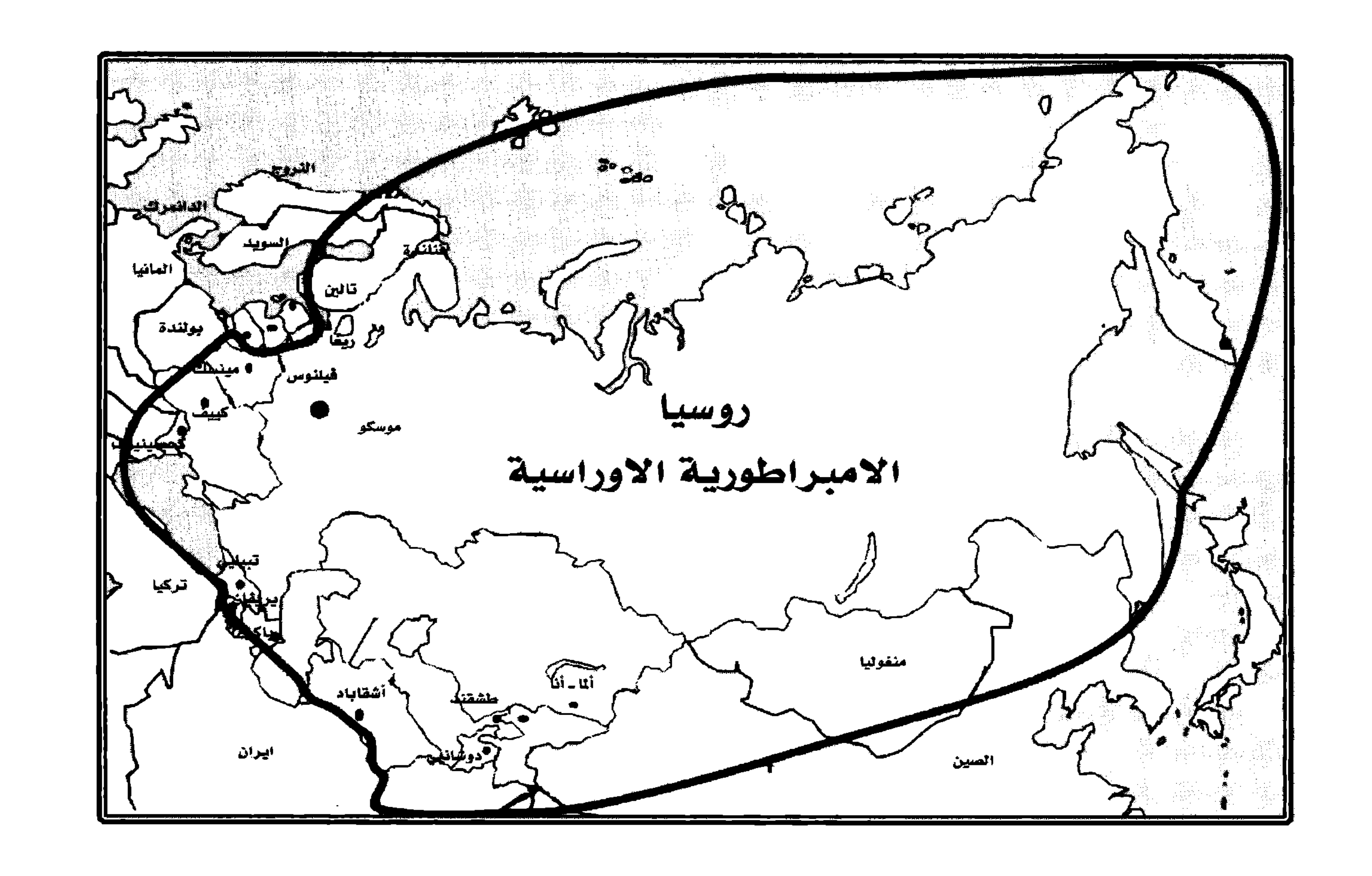
	الإقليمية	الدولة ـ الأمة	المدى الكبير
اليساريون	اللاقومية الفوضوية	الدولة التقدمية المتنورة	العولمة
اليمينيون	الإتنية التقليدية التربوية	القومية «الايتاتية»	الإمبراطورية

وهكذا فقد أبرزنا في كل واحد من المشاريع الجيوبولتيكية نظرتين متناقضتين متباينتين بصفة جذرية، وهو ما يحدد في مجموعه كافة الإمكانات الأساسية للصراع الإيديولوجي حول المشائل البدئية. وبفضل مثل هذا المخطط يمكننا تصنيف التحالفات السياسية المختلفة بين قوى يبتعد بعضها عن البعض الآخر إلى حدود كبيرة.

2 ـ 4 جيوبولتيكا روسيا

ترتبط الإشكالية العامة للبناء الجيوبولتيكي في العالم المعاصر بعلاقة مباشرة بروسيا، حيث نلتقي بنفس المشاريع الجيوبولتيكية الأساسية. فللأصناف الثلاثة ـ الإقليمية، الدولة ـ الأمة والمدى الكبير نظائر مباشرة في واقعنا الجيوبولتيكي.

تتطابق الإقليمية مع الاتجاهات الانفصالية ضمن نطاق الفيدرالية الروسية ـ سواء في الجمهوريات القومية والأقاليم أو حالة التطلع إلى الاستقلال الذاتي الكامل للتشكلات الترابية المحضة (مشاريع جمهوريتي سيبيريا والأورال وغيرهما من الجمهوريات).



روسيا
الامبراطورية الاوراسية
النروج
الدانمرك
السويد
المانيا
فنلندة
تالين
بولندة
ريغا
فيلنوس
مينسك
كييف
موسكو
تبليسي
تركيا
اشقاباد
طشقند
ألما ـ أتا
دوشانبي
ايران
منغوليا
الصين

أنموذج المركزية الحكومية ويدعو إليه أنصار المشروع الجيوبولتيكي «روسيا ضمنَ حدود الفيدرالية الروسية».

وأولئك الذين يدعون إلى إعادة الاتحاد السوفياتي، إعادة الإمبراطورية الروسية ضمن إطار الاتحاد السوفياتي، أو إلى إقامة الأمبراطورية الأوراسية، ينتمون إلى صنف منظري المدى الكبير الجديد.

وعلى نحو ما هو الأمر في التصميم العام فليس من الضروري إطلاقاً أن يعتنق أنصار هذا المشروع أو ذاك قناعات سياسية واحدة. يمكن أن تكون لكل مشروع شارتان قطبيتان تحددان اشتراطياً بـ «اليمينية» و «اليسارية».

فلنحاول تحديد مواقع «اليمينيين» و «اليساريين» في الحياة السياسية الروسية بالنسبة لوجوهها الجيوبولتيكية الثلاثة.

فالتوجهات الانفصالية في الجناح «الأيسر» الأكثر تطرفاً تُستخدم من قبل نفس القوى التي وقفت وراء دمار الاتحاد السوفياتي. فمن خلال اعتبارهم الدولة السوفياتية معقلَ «الرجعية» و «الشمولية»، طرح الليبراليون الروس منذ زمن بعيد أفكار «روسيا داخل حدود القرن الرابع عشر» وما إليها، وهو ما افترض تفتيت الأراضي الروسية إلى جزيئات منفصلة وفقاً للمبدأ الإتني ووفقاً للمبدأ الجغرافي الصرف في الوقت نفسه. فوحدة الأمة الروسية وقوة «الدولة الروسية» لا تعنيان بالنسبة لهؤلاء اليساريين أية قيمة تاريخية، بل إنهم، على العكس من ذلك، يرون فيهما عقبة في طريق «التقدم» على الصعيد الإنساني العام. وهذا المشروع الإقليمي يلقى من يدافع عنه من طرف بعض الليبراليين المتطرفين الذين يرغبون بصورة علنية في انهيار الفيدرالية الروسية.

هذه الصيغة الثقافية ـ ما فوق الليبرالية تتناغم مع بعض الأفكار لدى قسم محدَّد من المعسكر المعارض، الموغل في تطرفه القومي والذي يرى بأن على الروس أن يقيموا دولة مكثفة وحيدة الإتنية، تقوم على أساس النقاء العرقي والانعزال الإتني. وتلك هي فكرة إقامة «الجمهورية الروسية». وبين الاتنوسات غير الروسية، التي تستوطن أراضي الفيدرالية الروسية ثمة مشاريع مشابهة في جوهرها لإقامة دول وحيدة القومية.

والصيغة «اليسارية» للبرنامج الوطني الحكومي ضمن حدود الفيدرالية الروسية

جسّدت القيادة الروسية بعد الغورباتشوفية التي كانت على قناعة أن من الأكثر جدوى من أجل إجراء الإصلاحات هو تطبيق الأساليب المركزية بإخضاع كافة الأقاليم الروسية لخط موسكو المتشدد. والمزكزية الحكومية تعد في مفهوم هذه القوى الوسيلة الأفضل والأسرع لتحويل واقع روسيا الاجتماعي ـ السياسي بطريقة تصل به إلى المعايير «الإنسانية العامة» «التقدمية»، أي المعايير «الغربية» «الأطلسية في حقيقة الحال . . وبشكل طبيعي يرى المركزيون «اليساريون» في الإقليمية خطراً على تحقيق أهدافهم، لأن بإمكان اللامركزية والاستقلال الذاتي للأقاليم أن يخلقا تلك النظم التي من شأنها أن تدحض منطق الصيغ الليبرالية وأن تقيم مشاريع اجتماعية سياسية بديلة (اشتراطياً «يمينية»). كما إن التوسع الإمبراطوري غير مقبول بالنسبة لهذه القوى لأن إعادة الاتحاد السوفياتي يمكن أن تجر وراءها عواقب إيديولوجية مماثلة.

كما توجد وتشتد قوة حركة الحكوميين «اليمينيين» وهؤلاء هم وطنيون سلّموا بانهيار الاتحاد السوفياتي ويرون أن خلق دولة روسية مركزية قوية من الفيدرالية الروسية يمكن أن يعزّز قضية تراص الأمة وتنظيم مدى قوي مستقل مكتف بذاته. والدولتيون «اليمينون» يرفضون الانفصالية والإمبريالية لأن تفتيت الفيدرالية الروسية يعني، في رأيهم تضييع الروس للأراضي التابعة لهم، أما التوسع الإمبراطوري فسيجيء بعدد كبير من العناصر غير القومية وسيهدد الهيمنة القومية للروس.

كما وإن بين منظري إعادة الإمبراطورية أيضاً قطبين. «فاليساريون» العولميون الروس، المتوجهون في الأساس نحو غورباتشوف واللوبي الخاص به، يرون أن من الضروري التسريع بإقامة «المجال الديمرقراطي الموحَّد» على أراضي مجموعة الدول المستقلة، وعلى نطاق أوسع أيضاً في إطار المدى الأوراسي.

وقد تجسد الفهم «اليميني» للمجال الكبير الجديد في البرامج السياسية للمعارضة المتشددة في خصومتها مع النظام. وغالبية ممثلي هذه المعارضة ـ كالشيوعيين الوطنيين والتقليديين الإمبرياليين ـ يرون بأن روسيا في إطار الفيدرالية الروسية ليست فقط تشكلاً جيوبولتيكياً غير كاف من الناحية الترابية بل وهي من الناحية المبدئية حلٌّ خادع في مسألة حماية المصالح الاستراتيجية لروسيا كدولة عظمى. والأوراسية «اليمينية» تنطلق من فهم إمبراطوري للرسالة التاريخية لروسيا

التي ينبغي أن تكون إما «قارة» مستقلة مكتفية بذاتها أو أن تنحرف عن مهمتها التاريخية، والجيوبولتيكية.

وهكذا يمكننا أن نلخص جميع صور المشاريع الجيوبولتيكية المتعلقة بمستقبل الحكومية الروسية في تصميم واحد يأخذ في الحسبان التوجه الإيديولوجي لهذه القوى أو تلك.

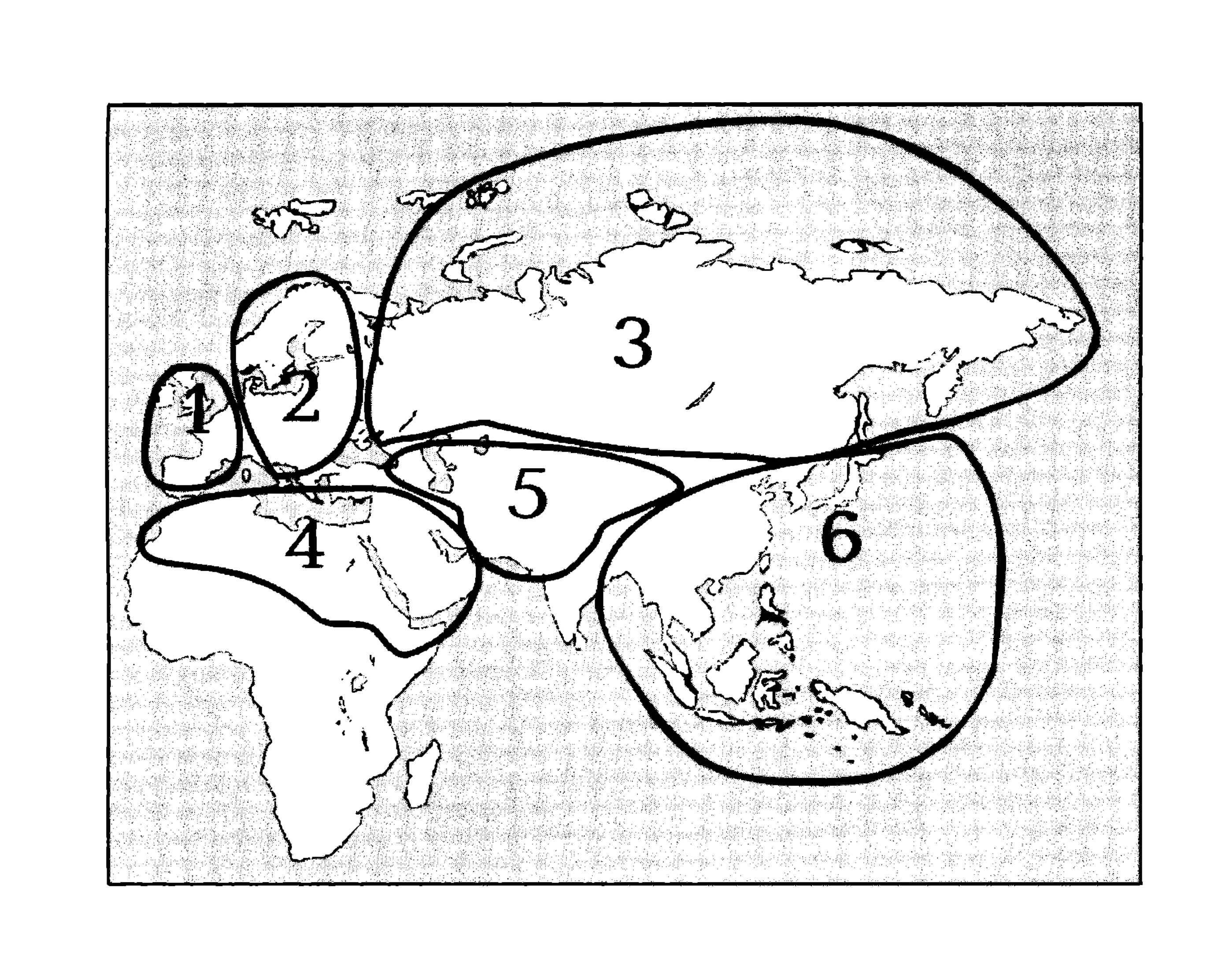
	الجهوية الروسية	المركزية الروسية	«الأوراسية» «المدى» «المكاني الكبير»
«الإصلاحيون» «الليبراليون» «اليساريون» «الروس»	الانفصالية، الجمهوريات الإتنية	الإصلاحيات الليبرالية التابعة للمركز المتسلط «اليلتسينيّة»	«المدى الديموقراطي الموحد» «البيت الأوروبي المشترك» «لوبي غورباتشوف» «العولمية اليسارية»
المحافظون الوطنيون «اليمينيون» الروس	«الجمهورية الروسيّة»	«اليلتسينية اليمينية» «الروح الوطنية» في «الفيدرالية الروسية»	«الإمبراطورية» «الأوراسية» إعادة «الاتحاد السوفياتي»

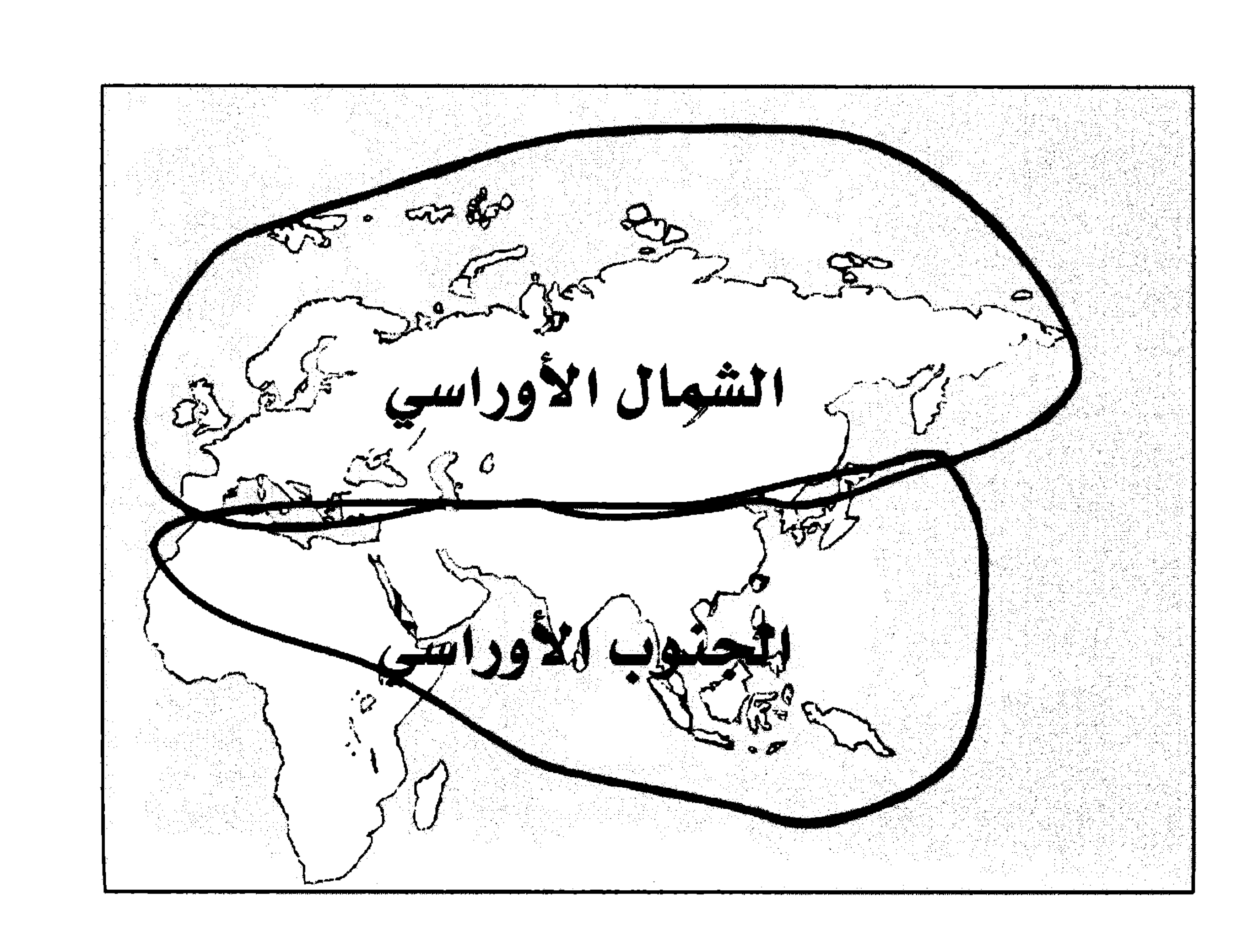
المشاكل الجيوبولتيكية في الخارج القريب

3 ـ 1 قوانين المدى الكبير

قانون الجيوبولتيكا الأساسي هو **مبدأ المدى الكبير** الذي استنبطه ماكيندر وهاوسهوفر وطوره كارل شميدت. والاستقلال الوطني للدولة لا يرتبط وفقاً لهذا المبدأ فقط بالقوة العسكرية، وبالتطور التقني والقاعدة الاقتصادية بقدر ما يرتبط باتساع أراضي هذه الدولة ومساحاتها وبمكان توضعها الجغرافي. وقد دبّج منظرو الجيوبولتيكا الكلاسيكيون مئات المجلدات ليبرهنوا على أن مشكلة الاستقلال ترتبط ارتباطاً مباشراً بالاستقلالية الجيوبولتيكية للإقليم وباكتفائه الذاتي. وعلى تلك الشعوب والدول التي تتطلع حقاً إلى الاستقلال أن تحل بالدرجة الأولى مشكلة اكتفائها الذاتي الترابي. وفي أيامنا هذه لا يمكن أن تتمتع بهذا الاكتفاء الذاتي إلا الدول البالغة الضخامة والواقعة في مناطق محمية استراتيجياً من أي هجوم محتمل استراتيجياً (عسكري، سياسي أو اقتصادي) من طرف التشكلات الدولية الأخرى.

وفي مرحلة المواجهة بين الرأسمالية والاشتراكية كانت الحاجة إلى الأحلاف والمجالات الكبرى أمراً واضحاً. ولم يكن أحد يشك في أن البلاد لا يمكن أن تكون «غير منحازة» إلا بثمن إزاحتها عن مجال الجيوبولتيكا الكونية على حساب التهميش والعزل إلى الأطراف. وفضلاً عن ذلك فإن جميع «غير المنحازين» قاموا باختيارهم لصالح هذا المعسكر أو ذاك وإن كان اختياراً أقل جذرية من اختيار أنصار الاشتراكية أو الرأسمالية. وانهيار إحدى الدولتين الأعظم يغير دون شك وبصفة جادة المدى الجيوبولتيكي للأرض. لكن مبدأ المجالات الكبرى لا يفقد بأي حال قوته ـ بل على العكس من ذلك يغدو مشروع «العولمة» الجيوبولتيكي


1
2
3
4
5
6


الشمال الأوراسي
الجنوب الأوراسي

اليوم الأكثر انتشاراً والذي يفضي مغزاه إلى تحويل كافة سطح الأرض إلى مجال كبير موَحد، تتم إدارته من المركز الأمريكي.

3 ـ 2 Pax Americana وجيوبولتيكا العولمة

مشروع المجال الأطلسي الكبير الموالي لأمريكا وإقامة الـPax Americana أو فرض «النظام العالمي الجديد» ذي «الحكومة العالمية» الواحدة ـ كل هذا في جوهره مترادفات جيوبولتيكية. ومثل هذا المخطط بالذات يُتدارس ويطبق اليوم في سياسة الغرب الدولية والولايات المتحدة بالدرجة الأولى. ومن الواضح أن المنظومة العالمية للمجال الكبير تستثني بصفة كلية أية صيغ للاستقلالية الحكومية والسياسية الأصلية بالنسبة لأي شعوب أو دول مهما كانت. والأدهى من ذلك أن العالم المزدوج القطبين قد أعطى من مستويات الحرية (السيادة) للدول الداخلة في نطاق نفوذ أحد المجالين الكبيرين ما يزيد بدرجة لا يمكن مقارنتها بما يخطط له في المشروع المعولم، وذلك على الأقل لأن المجابهة الكونية ما أجبرت فقط على خنق الدول التابعة بل وعلى رشوتها أيضاً. والمجال الكوني الكبير الوحيد لدارسي المستقبل العولميين سيعني الزوال الكامل حتى لأقل ظل من أي استقلال مهما كان طفيفاً، لأن الضغط بالقوة (العسكرية أو الاقتصادية) على «الآماد الصغرى» المفتتة المذرّاة يغدو الوسيلة الوحيدة للسيطرة (وضرورات الرشوة تنتفي من تلقاء نفسها خلف غياب المنافس الجيوبولتيكي المعادي).

والوضع العملي يطرح أمام كل دولة وكل شعب (وبخاصة أمام الحكومات والشعوب التي كانت قد دخلت في المعسكر الجيوبولتيكي المعادي للغرب الأطلسي)، خياراً ملحّاً ـ **إما التكامل ضمن مجال كبير تحت قيادة الأطلسيين، وإما إقامة مجال كبير جديد قادر على مواجهة الدولة فوق العظمى الأخيرة.** ومسألة الاستقلال الجيوبولتيكي الحقيقي ترتبط بعلاقة مباشرة بهذا الخيار، ولكن لا يمكن أن يكون ثمة أي استقلال كامل لأي شعب أو دولة في أي حالة من الحالتين. فلدى اعتناق الأنموذج العالمي يتم بصورة معروفة مسبقاً استبعاد أي استقلال لأن «الحكومة العالمية» تصبح مركز السلطة الأوحد والذي لا خيار سواه والمستقل في هذه الحالة هو فقط إمبراطورية «النظام الكوني الجديد» العالمية الزائفة. وتصبح

جميع أجزائها، وفقاً لذلك مستعمرات وإزاء تنظيم المجال الكبير الجديد نتعامل مع سيادة نسبية في إطار تشكل جيوبولتيكي كبير، لأن هذا المجال الكبير سيغدو حراً بصفة نسبية لدى تحديد الفكرة الأساسية الأيديولوجية المتعلقة برؤية العالم. وهذا يعني أن الشعوب والدول التي تدخل في هذا المعسكر يمكن أن تعوّل، على الأقل، على سيادة إتنوثقافية وعلى مشاركة مباشرة في بناء وإعداد إيديولوجية كبرى، بينما تكون الصيغة المعولمة «للنظام العالمي الجديد» قد انتهت فكرياً وتم إعدادها فتعرض على جميع شعوب الأرض كنظير استعماري للنموذج الليبرالي ـ السوقي الأمريكي.

3 ـ 3 المفارقة الروسية.

خصيصة الموقف الجيوبولتيكي الفعال في أن مبادرة دمار المجال الأوراسي الكبير والذي كان قد وجد في صيغة المعسكر الاشتراكي انطلقت من نفس مركز هذا المعسكر، من عاصمة الأوراسيا ـ موسكو. فالاتحاد السوفياتي بالذات في شخص غورباتشوف صار المبادر إلى إدخال المعسكر الأوراسي في المشروع العولمي. وأفكار «البيريسترويكا» و «التفكير الجديد» وما إلى ذلك كانت، على المستوى الجيوبولتيكي، تعني الاعتناق الكامل لأنموذج المجال الكبير والموحّد والانتقال الواعي من العالم ثنائي القطبين إلى العالم الوحيد القطب. فتم في البداية تدمير المعسكر الاشتراكي، ثم تقليص الحلف الشرقي. وتواصلت التصفية الجيوبولتيكية الذاتية بعد ذلك وأبعدت عن روسيا تلك الأقاليم التي دُرج على تسميتها اليوم «ببلاد الخارج القريب».

ومهما يكن من أمر فإن روسيا ـ كقلب الجزيرة الأوراسية، كـ heartland، استطاعت في الوضع الجيوبولتيكي الحيوي، وبصورة أفضل من جميع الأقاليم الأخرى، أن تواجه الجيوبولتيكية الأطلسية وأن تكون مركز المجال الكبير البديل. إلا أن حقيقة تصفيتها الجيوبولتيكية الذاتية قد أجبرتها على التنحى لفترة زمنية (نأمل أن تكون قصيرة) عن الأدوار المركزية في المواجهة الجيوبولتيكية. ولهذا ينبغي تدارس إمكانات أخرى لإقامة مجال كبير بديل لكي تتمكن الدول والشعوب الرافضة المشروع العولمي من اتخاذ بعض الخطوات الذاتية دون انتظار

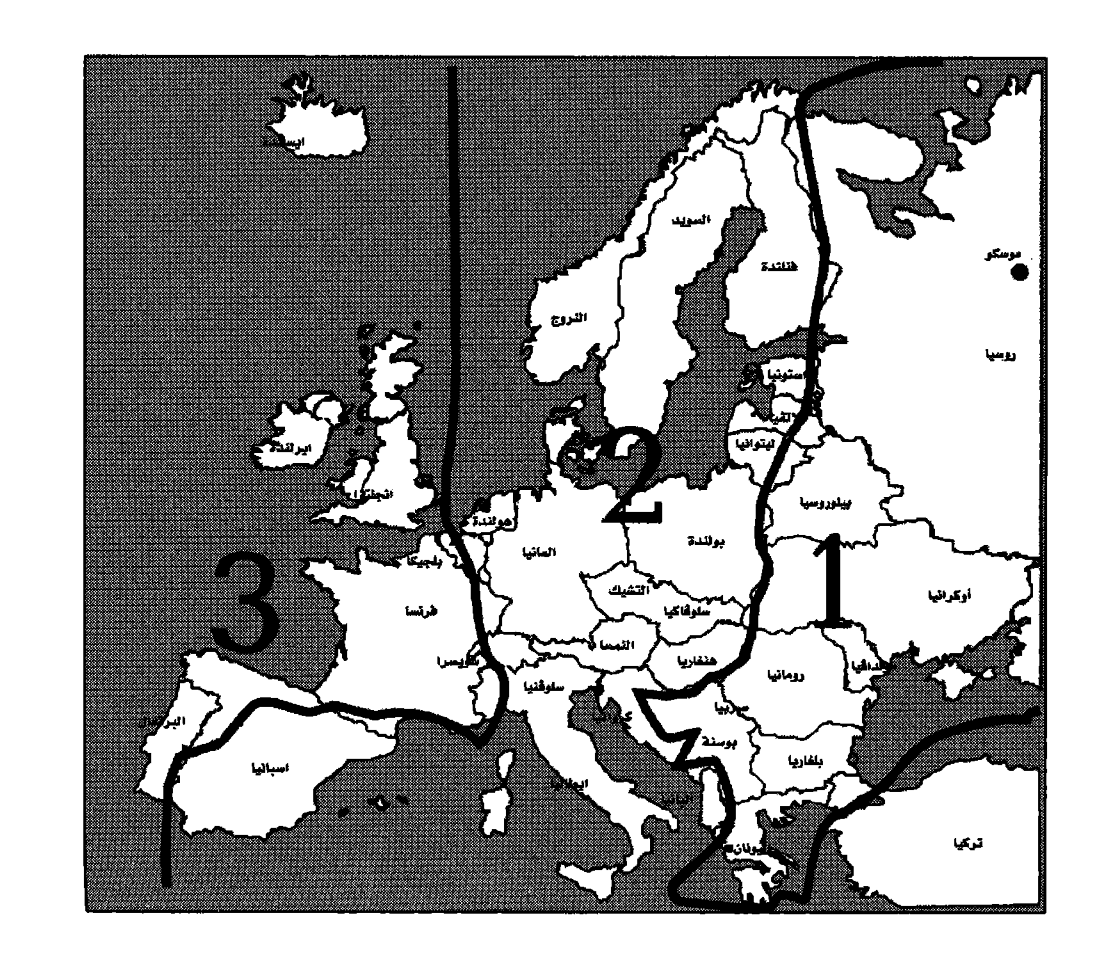
صحوة روسيا الجيوبولتيكية. (وعلى فكرة فإن من شأن هذه الخطوات أن تسرّع فقط مثل هذه الصحوة).

3 ـ 4 تبقى روسيا «محور التاريخ»

إن الاختيار الجيوبولتيكي للصيغة المناهضة للعولمة من طرف روسيا التي شلّت في غير أوانها على أية حال يجب أن يضع في الحسبان الوظيفة الاستراتيجية والجغرافية للأراضي الروسية وللشعب الروسي بالذات، وهذا يعني أن مواجهة العولميين المعاصرين، الذين يهيمنون إلى حد ما على المدى السياسي الروسي يجب ألاّ تتحول إلى كراهية لروسيا. وفضلاً عن ذلك فإن المصالح الجيوبولتيكية الجذرية للروس تتطابق ثقافياً ودينياً واقتصادياً واستراتيجياً مع أفق المدى الكبير، البديل المعادي للعولمة والمعادي للأطلسية. ولهذا السبب ستكون الميول القومية للمعارضة متضامنة بالضرورة مع جميع المشاريع المعادية للعولمة في التكامل الجيوبولتيكي خارج روسيا.

3 ـ 5 Mitteleuropa والإمبراطورية الأوروبية

أحد البدائل المحتملة **للمجال الكبير** الجديد هو أوروبا التي تضعها الأوساط السياسية والإيديولوجية المعنية في مواجهة **الغرب** ـ العالم الأنجلوساكسوني والولايات المتحدة بالدرجة الأولى. وهذه الأوروبا المعادية للغرب ليست أمراً طوباوياً محضاً، لأن هذا المشروع قد تحقق أكثر من مرة في التاريخ وإن كان ذلك قد ترافق بعدد من الأخطاء والتحريفات. ففي القرن العشرين كانت دول المحور تمثل هيكل هذه الأوروبا بالذات على الرغم من أن محبة انكلترا وكراهية فرنسا لدى بعض أوساط القيادة الألمانية (بالإضافة إلى ظروف أخرى) قد حالت دون التحقيق الكامل لهذا المشروع. وبعد الحرب العالمية الثانية قام ديغول بمثل هذه المحاولة ولسياسته تلك يعود الفضل في أن لا تكون فرنسا اليوم عضواً رسمياً في الناتو. وعلى أية حال فإن فكرة أوروبا المعادية للغرب، التقليدية، الإمبراطورية، تغدو اليوم أكثر حيوية عندما لم يعد وجود القوات الأمريكية على القارة الأوروبية مبرَّراً بوجود «التهديد السوفياتي» ويتخذ طابع الاحتلال الأمريكي العلني. وأوروبا



1
2
3
السويد
فنلندة
النروج
موسكو
روسيا
استونيا
ليتوانيا
ايرلندة
بيلوروسيا
هولندة
بولندة
المانيا
بلجيكا
أوكرانيا
التشيك
فرنسا
سلوفاكيا
النمسا
هنغاريا
رومانيا
سويسرا
سلوفنيا
بوسنة
بلغاريا
اسبانيا
ايطاليا
تركيا

بمستوى تطورها التقني والاقتصادي تعد الخصم الجاد لأمريكا وبمضاعفة ضغط المصالح الجيوبولتيكية الطبيعية للأوروبيين من الأسفل يمكن للفئة العليا العولمية والموالية لأمريكا أن تتراجع فتبدأ أوروبا حياتها الجيوبولتيكية المستقلة. والتوجهات نحو التحرر السياسي وإلى البحث عن بديل إيديولوجي تتعاظم في أوروبا يوماً بعد يوم، وبصورة متوازية مع ذلك تتعاظم فرص إقامة **المجال الكبير** الأوروبي المستقل.

3 ـ 6 ألمانيا ـ قلب أوروبا

المجال الأوروبي الكبير ينبغي أن يتشكل حول الدولة الأكثر قارية من بين الدول الأوروبية ـ حول ألمانيا، وبكلمة أدق، حول Mittelauropa أي وسط أوروبا. والمصالح الجيوبولتيكية لألمانيا كانت من الناحية التقليدية مناقضة للتوجهات الأطلسية للغرب. وكان ذلك يمس الآفاق القارية والاستعمارية للجيوبولتيكا. وقد كانت ألمانيا دوماً معادية للغزوات الانجلوساكسونية الاستعمارية وكانت تتطلع إلى بناء حضارة قارية برية، ذات اكتفاء ذاتي، تعتمد على قيم قارية، تراتبية وترابية. وكانت الـMitteleuropa في هيئة إمبراطورية هابسبورغ[*] النمساوية ـ المجرية، الأثر الأوروبي الأخير **للإمبراطورية الرومانية العظمى**، والتي تغوص إليها جذور الحضارة الأوروبية في صورتها الحكومية ـ الاجتماعية. وإذا ما تحدثنا بدقة أكبر فقد كانت أوروبا المدى الكبير الذي يوحد أوروبا الغربية والوسطى في وحدة جيوبولتيكية واحدة. وفكرة الإمبراطورية الأوروبية مرتبطة اليوم ارتباطاً مباشراً بألمانيا وبالدول الداخلة في منطقة النفوذ الألماني.

(*) هابسبورغ (Habsburger) أسرة حكمت في النمسا (منذ 1282 بصفة دوقات، ومنذ 1453 بصفة كبار الدوقات ومنذ 1804 بصفة الأباطرة النمساويين). وعندما تم ضم تشيخيا والمجر سنة 1526 (وكان حكامها يلقبون بالملوك) وغيرها من الأراضي صار أبناء هابسبورغ حكام منطقة واسعة تضم عدداً من القوميات (يجمعها بين 1867 ـ 1918 اسم امبراطورية النمسا والمجر) كما كان أبناؤها أباطرة «الامبراطورية الجرمانية المقدسة» (بصفة متواصلة بين 1438 ـ 1806 باستثناء 1742 ـ 1745) وملوك أسبانيا 1516 ـ 1700. ومن بين أهمهم جميعاً ـ كارل الخامس، فيليب الثاني (إسباني)، ماريا تيريزا، يوسف الثاني، وفرانس يوسف الأول (المترجم).

ومن هذه المنطلقات يمكن أن نستخلص على الفور نتيجة جيوبولتيكية هامة وهي ـ **لا يمكن للتحالف الجيوبولتيكي المعادي للعولمة أن يتحقق بالنسبة لكافة دول «الخارج القريب» الغربية (كجمهوريات البلطيق وأوكرانيا ومولدافيا) إلا بدخولها في حلف أوروبا الوسطى (هذا بالطبع إذا لم يتبدل الوضع في روسيا نفسها) مع التوجه نحو ألمانيا**. وفي هذه الحالة ستتوفر أمام المناطق الغربية من الاتحاد السوفياتي فرصة أن تكون المناطق الحدودية الشرقية للمدى الكبير الأوروبي ويمكن أن تتمتع بشيء مما يشبه الاستقلال (وإن كان سيقل عما يمكن أن عليه وهي ضمن روسيا أو ضمن الحلف الأوراسي المحتمل ومركزه في روسيا المعادية للعولمة).

ويمكن للإمبراطورية الأوروبية أن تضمن لهذه المناطق حريتها الذاتية الثقافية واللغوية والاقتصادية وأن تصونها من النظام العولمي المتساوي والذي يدمر ضمن بنيته الليبرالية ـ السوقية البلوتوقراطية حتى مجرد التلميحات إلى الخلاف أو الاكتفاء الذاتي والحفاظ على الهوية القومية. بيد أنه لن يمكن الحديث عن أي نوع من الاستقلال السياسي أو الحكومي. وفضلاً عن ذلك ستبقى الإمبراطورية الألمانية مهدَّدة بخطر اشتعال النعرة القومية الألمانية وإن كان ذلك سيحمل انهيارها مثلما كانت «بانألمانية» هتلر مهددة بخطر الانهيار.

3 ـ 7 «التقرّب من أوروبا»

وهذا الأفق قريب من أوكرانيا الغربية وإستونيا لأن هاتين المنطقتين فقط تنتميان، حقيقة، من الناحيتين التاريخية والدينية إلى الثقافة الغربية وتريان أن مصالحهما الجيوبولتيكية متطابقة مع مصالح أوروبا الوسطى. أما فيما يتعلق بغير ذلك من «دول الخارج القريب» فإن بيلوروسيا والمناطق الشرقية والوسطى من أوكرانيا تنتمي سياسياً وثقافياً إلى روسيا ـ الأوراسيا، وإذا كانت ثمة أية فروق ثقافية فيمكن ردّها إلى تفاصيل خاصة لا تفترض على الإطلاق استبدال الحلف الجيوبولتيكي من **شرقي** إلى **وَسَطي** (أوروبا الوسطى)، كما يمكنه أن يحل ضمن إطار الاستقلال الذاتي الاتنو ثقافي (ولكن ليس المتعلق بالدولة!). لقد ظلت ليتوانيا تلعب من جانبها وعلى الدوام دوراً خاصاً في جيوبولتيكا أوروبا الشرقية من

خلال أدائها مهمة مزدوجة ـ فبالنسبة لروسيا كانت تتصرف على أنها حاملة الثقافة الغربيّة، أما بالنسبة لأوروبا الوسطى فكانت، على العكس من ذلك، تقدم نفسها، بالإضافة إلى بولندا، قوةً شرقية تدافع عن الاستقلال البلطيقي ـ الغربي ـ السلافي في وجه الضغط الألماني. ومن وجْهة النظر الجيوبولتيكية كانت ليتوانيا خلال المئات السنين الأخيرة تبدو ألمانية تارة وطوراً روسية، والصورة الوحيدة التي لم تظهر بها منذ زمن بعيد (ولا يمكنها أن تظهر بها) هي الوجه الليتواني؛ لأنها لا تملك المنطلقات الجيوبولتيكية الأساسية لتتطابق مع شروط السيادة التي يفرضها العصر الحاضر.

وهذا ما يمكن قوله بصفة جزئية عن لاتڤيا، على الرغم من أنها، خلافاً لليتوانيا، لم تلعب أي دور مستقل في التاريخ الجيوبولتيكي قط، إذ كانت منطقة طرفية بالنسبة للتأثيرات الجانبية في البلطيق.

أما بالنسبة لمولداڤيا فإن هذا التشكل الترابي لم يتميّز أيضاً بأية صبغة حكومية في أي يوم من الأيام، ومهما كان من أمر التقليد الحكومي السياسي المستقل لدى الرومانيين فإن هذه الصيغة تغيب عندهم بصورة كلية، كما تغيب لدى المولدافيين. إلا أن رومانيا، من الناحية التاريخية (متضمّنة بعض أراضي مولدافيا) دخلت في الحلف الجيوبولتيكي الروسي ـ الأوراسي مثلما دخلت في حلف أوروبا الوسطى (ممثلاً بالنمسا والمجر)، ولهذا فإن حَدَثاً محدَّداً من التحالف مع أوروبا الوسطى قد وجد لدى الرومانيين. على الرغم من أن أرثوذوكسية الغالبية العظمى من المولداڤيين والرومانيين تقربهم أكثر من الشرق ومن روسيا.

3 ـ 8 حدود «الحرية» والامتيازات المضيعة

إن أفق دخول البلدان الغربية التابعة «للخارج القريب» في الإمبراطورية الأوروبية وتقربها من أوروبا الوسطى يمكن أن يكون ممكناً ومبرراً من الناحية التاريخية، على الرغم من أنه في جميع الحالات (باستثناء إستونيا كأراضٍ مستعمرةٍ لمنظمة التيتون(*) مأهولة بأحفاد العاملين الصامتين والمطواعين الأوغرو ـ فنلنديين

(*) التيتون: (يعود الاسم لعدد من القبائل الألمانية القديمة)، ويتعلق هنا بفرقة دينية =

القدامى وباستثناء أوكرانيا الغربية) يبدو حلف روسيا ـ الأوراسيا الشرقي، من وجهة النظر الجيوبولتيكية، أفضل بمرات كثيرة، لأن هذه المناطق أكثر ارتباطاً من الناحية الثقافية بالشرق منها بأوروبا الوسطى. ولهذا فإن اتحاد «دول الخارج القريب» الغربية يمكن أن يكون الصورة البينية للتوجه الجيوبولتيكي المعادي للعولمة إذا ما واصلت روسيا رفضها لرسالتها التكاملية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدول لن تحصل على أي استقلال سياسي في حال دخولها منظومة **«الإمبراطورية الأوراسية»** المفترضة لأن المجال الكبير ـ وهو يقدم الحماية الجيوبولتيكية والاقتصادية والحربية، يطالب الخاضعين له، بدوره، بالتنازل عن الاستقلال السياسي ـ الوطني. وعن الحق في تطبيق السياسة الإيديولوجية أو الدبلوماسية الخاصة التي تسير مخالفة لمصالح الإمبراطورية. ومهما ترك ذلك من تأثير في نفوس ممثلي «القومية الصغرى» فإنه لا يمكن أن يكون مستقلاً في وضعنا إلا الدول فوق العادة، الإمبراطوريات القارية التي تؤخذ ككل موحد.

3 ـ 9 «النطاق الصحي»

للمشكلة الجيوبولتيكية «لدول الخارج القريب» أفق آخر ـ **وهو العامل الأطلسي**، الذي يتصرف بطريقة مباشرة ويفرض على هذه الدول خطوات سياسية تعود بالمنفعة على العولمة والأمركة. ولهذه المسألة عدة مستويات ـ فلنبدأ بالترتيب.

لن تكون للولايات المتحدة إمكانية السيطرة العالمية إلا في حالة انعدام وجود أي مدى كبير آخر فوق الكرة الأرضية. من هذا ينطلق الاستنتاج بأن تضع الجيوبولتيكا الأمريكية هدفها تدمير المعسكر الجيوبولتيكي القوي المحتمل وإقامة

= من الفرسان أسست في فلسطين خلال الحروب الصليبية. وبعد الانتصار على الصليبيين وإخراجهم من بلاد الشام نقلت الفرقة نشاطها بين القرن الثالث عشر و1525 إلى أرض تم انتزاعها من البروسيين والليتوڤيين والبولنديين على شواطىء البلطيق. وهزمت فرقة التيتون في معركة غروناڤال سنة 1420 فصارت سنة 1466 تابعة لبولندا. وفي سنة 1525 حوّلت ممتلكاتها في البلطيق إلى دوقية بروسيا النبيلة (المترجم).

العراقيل للحيلولة دون إقامته. ولنا في التاريخ مثال على هذه السياسة في شخص انجلترا، التي كانت تحاول دوماً إنشاء «النطاق الصحي» أو «النطاقات الصحية» في القارة. فـ «النطاق الصحي» هو أراضي دول أو شعوب تتوضع بين تشكلين جيوبولتيكيين كبيرين يمكن لاتحادهما أو دخولهما المشترك في مدى كبير أن يشكل تنافساً خطيراً على الدولة المعنية (انجلترا سابقاً ـ الولايات المتحدة حالياً). عادة ما تكون دول «النطاق الصحي» في الوقت نفسه سبباً لنشوب النزاعات بين الدولتين القاريتين وتكون استقلاليتهما الجيوبولتيكية غير ممكنة واقعياً فهما مضطرتان للبحث عن الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري من الخارج. وجوهر سياسة القوة الجيوبولتيكية الكبيرة الثالثة في هذا الوضع يتمثل في أن تجعل من «النطاق الصحي» منطقة توتر بين الآماد الكبرى المتقاربة عن طريق تصعيد النزاع من خلال التأثير الدبلوماسي على حكومات الدول «البينية». والصورة الأكثر جذرية «للنطاق الصحي» هي الوضع الذي تتطلع فيه الدولة «البينية» إلى الاستقلال الكامل عن الجارين القاريين وهو ما يحيلها من الناحية العملية إلى مستعمرة للدولة الكبرى الثالثة «البعيدة».

أما المثال الأشهر على «النطاق الصحي» فكان الدول المتوضعة في بدايات القرن بين روسيا وألمانيا وكانت تشرف عليها انجلترا. فقد فصلت هذه الدول بين المدى الكبير لأوروبا الوسطى والمدى الكبير لروسيا ـ الأوراسيا جاعلة من أنفسها عملاء مباشرين وطغاة في أيدي بلدان **الغرب** الأوروبي. وتكررت مثل هذه الخطوة أكثر من مرة في أوضاع أخرى أكثر محلية. والولايات المتحدة مضطرة بفعل الضرورات الجيوبولتيكية المباشرة لأن تجعل «النطاق الصحي» الأداة الأساسية لسياستها الخارجية. وفي تقرير بول ولفوفتس، مستشار الأمن القومي الأمريكي، إلى حكومة الولايات المتحدة (في نيسان 1992) تم التنصيص بصراحة حول «ضرورة الحيلولة» دون ظهور قوة استراتيجية في القارتين الأوروبية والآسيوية قادرة على مواجهة الولايات المتحدة»، وجرت الإشارة بهذا المعنى إلى أن دول «النطاق الصحي» (وبخاصة دول البلطيق) هي الأراضي الاستراتيجية البالغة الأهمية التي يستوجب الاعتداء عليها من طرف الروس رداً مسلحاً من طرف دول «الناتو» هوذا الأنموذج المثالي للمنطق الجيوبولتيكي للدولة الثالثة في منطقة المصالح المتبادلة بين ألمانيا وروسيا.

3 ـ 10 التحول من منطقة طرفية إلى مستعمرة:

يمكن التعبير عن سياسة «النطاق الصحي» بمعادلة «الاستقلال عن القريب والتبعية للبعيد». وينبغي أن ندرك جيداً إزاء ذلك أنه لا يمكن الحديث عن أي نوع من الاستقلال الحقيقي أو السيادة في مثل هذا السياق هذا على الرغم من أن «القومية الضيقة» القصيرة النظر قادرة على مستوى ضيق تفكيرها أن تساوي بين هذه «التبعية الاستعمارية للدولة الثالثة» وبين انتصارات «النضال الوطني التحرري». كما وعلينا أن ندرك أيضاً أنه بالنسبة للدول الصغيرة في عصرنا هذا الذي أحسنت إدارته بطريقة رائعة، لا يمكن أن تكون ثمة انتصارات فقط بل ولا أنه يكون أيضاً أي نضال حقيقي وحيد الروح.

و«بلدان الخارج القريب» والتي خرجت من تحت سيطرة موسكو بقوة شروط جيوبولتيكية مختلفة لعب النضال الداخلي لهذه الدول دوراً تافهاً فيها (هذا إن وجد مثل هذا النضال على العموم) تملك الآن كل الفرص لتصبح «نطاقاً صحياً»، لسياسة الولايات المتحدة العولمية في القارة، وهذا يعني تضييع ثقة جيرانها واستجلاب لعنة «الخيانة المزدوجة» على نفسها كما إنها ستتحول فضلاً عن ذلك، من **أطراف إلى مستعمرات**. أما ما الذي يجري في هذه الحالة لثقافتها فمن المخيف تصوّره. فالعولمة ستعرض عوضاً عنها البديل الاستعماري العالمي و«الكوكا ـ استعمارية» الثقافية. وسيكون «للنطاق الصحي» نُظّار من العملاء بصفة حكام، وبصفة كاملة تجرد هذه البلدان من ذاتيتها السياسية، أما أمن سكانها فسيكون دوماً تحت تهديد الجيران القاريين الذين لن يتأخروا في الانتقام.

وعلى هذا فالتحول إلى «النطاق الصحي» يعني لـ «بلدان الخارج القريب» تضييع أي نوع من الاستقلال الجيوبولتيكي فنظير إغاظة «الموسكا الصحي» «للفيل القاري» سيدفع مقابل ذلك عبوديّة سياسية وثقافية واقتصادية لدى سادة «النظام العالمي الجديد، فيما وراء البحار (يضاف إلى ذلك ردّة فعل «الفيل» المنطقية تماماً في المستقبل الأقرب).

(*) موسكا: تحريف للـ Mops (بالألمانية) وهو نوع من الكلاب المنزلية الصغيرة مدوّر الرأس أفطس الأنف ذو شعر قصير كثيف ذكره الشاعر الروسي إ. كريلوف في أشعاره الشهيرة عن الحيوان ضمن خرافة «الفيل وموسكا».

إن أفق «النطاق الصحي» بالنسبة للبلدان الغربية في «الخارج القريب» واضح. وصيغته «لا ألمانيا ولا روسيا» (أي لا أوروبا الوسطى، ولا الأوراسيا). وما دامت ألمانيا كقوة جيوبولتيكية مستقلة تمثل احتمالاً محضاً فمن الإنصاف الافتراض أن نرى وراء مفهوم «استقلال» (سيادة) البلدان الغربية في «الخارج القريب» انتقالاً إلى خدمة العولمة والأمركة. وعلى الأقل فهذه هي اللوحة الجيوبولتيكية العملية. وبكلمة أخرى فإن دول «الخارج القريب» الغربية الطامحة حقاً إلى «الاستقلال» (وليس «المقضي عليها بالتحرر» بسبب من سياسة موسكو الخيانية) ستختار وفق أقرب الاحتمالات وبطريقة واعية دور «النطاق الصحي» لخدمة الولايات المتحدة. وينطبق هذا بصفة خاصة على تلك «البلدان» التي كانت ترتبط بألمانيا بعلاقات عدائية إلى حد ما.

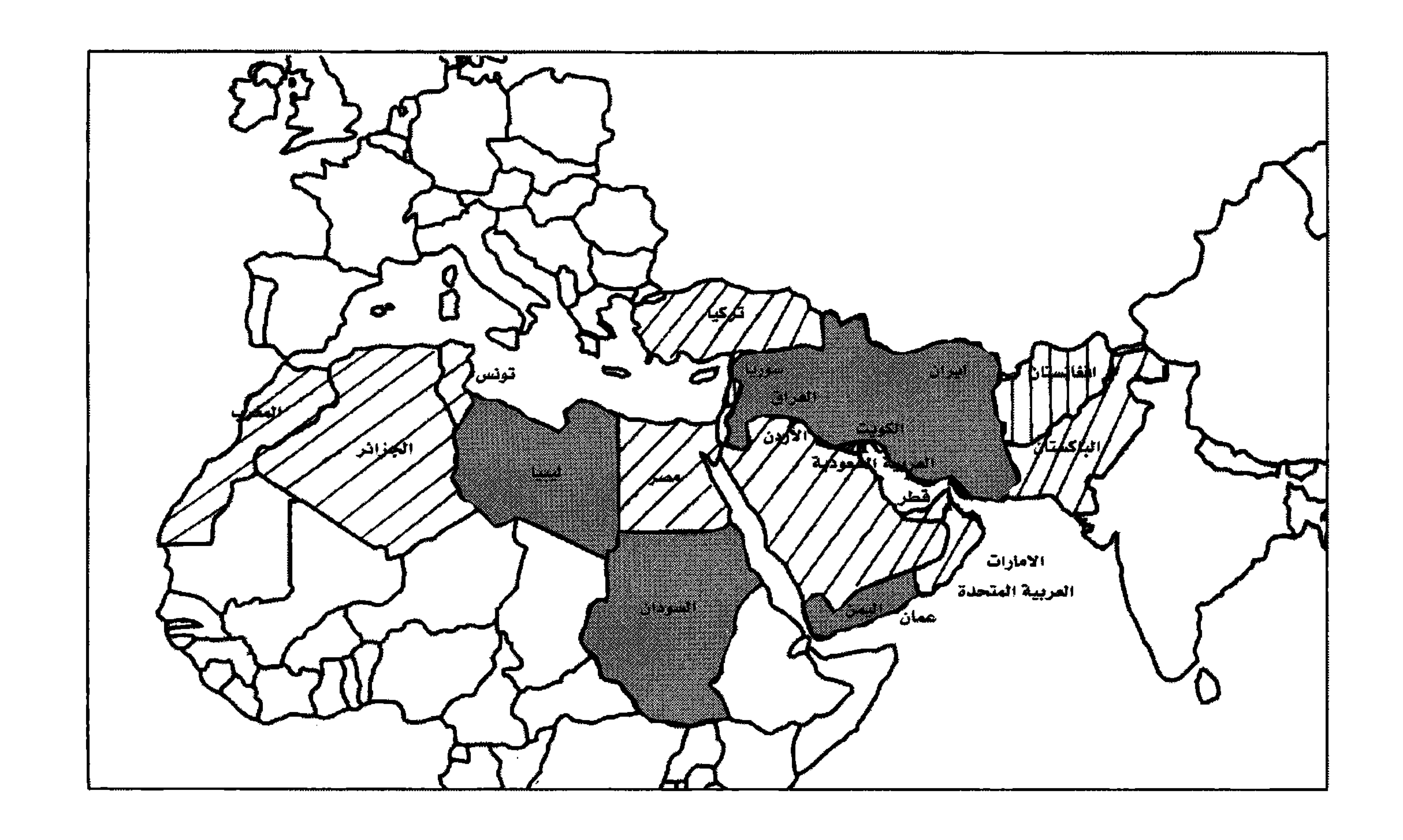
وبلدان «النطاق الصحي» التابعة «للخارج القريب» تدخل في حلف مع **الغرب** (مع **أوروبا الغربية**) متجاوزة **أوروبا الوسطى**، وليد هذا المظهر الأسطع لتوجهها الأطلسي العولمي.

ومن ناحية المبدأ ينطبق الأمر بصدق على الدول الشرقية أيضاً في «الخارج القريب». إلا أننا إذا أردنا فهم آفاقها الجيوبولتيكية بصفة وافية بالمراد فعلينا أن نقف وقفة أكثر تفصيلاً أمام قوى الشرق الجيوبولتيكية.

3 ـ 11 آسيا أمام الاختيار:

توجد في **الشرق** تلك القوى الجيوبولتيكية المحتملة التالية والتي يمكنها أن تتطلع لتكون آماداً سكانية كبرى: الصين، إيران، تركيا والعالم العربي، فلنحلل باختصار جوهر كل واحد من هذه الآماد الكبرى مطبقاً على البلدان الشرقية من «الخارج القريب».

يجدر القول إن جيوبولتيكا الصين موضوع خاص لا يمكن تغطيته ببضعة أسطر. وبما أن «الخارج القريب» من الشرق يمثل منطقة انتشار الإسلام فإن إمكانية أن يشكل مع الصين مدى كبيراً واحداً تنسحب إلى المرتبة الثانية أمام إمكانات التحالفات الجيوبولتيكية الإسلامية. وعلى أقل تقدير فتلك هي حال الأمور في اللحظة الراهنة وهو ما لا يستبعد الفعالية الحادة للعامل الصيني كعامل تكاملي في المستقبل القريب.



تركيا
تونس
سوريا
ايران
العراق
الكويت
الأردن
الجزائر
ليبيا
مصر
قطر
الباكستان
الامارات
العربية المتحدة
السودان
اليمن
عمان

بالنسبة للبلدان الشرقية من «الخارج القريب»، ثمة في إطار العالم الإسلامي ثلاثة عوامل جيوبولتيكية ذات آفاق كونية ولكل واحد من هذه العوامل خصائصه الأيديولوجية المعبّر عنها بكل وضوح. وهي ـ إيران الثورية القارية ـ الإسلامية، تركيا العلمانية، الأطلسية، المتعصبة قومياً ـ فالصيغة التيوقراطية العربية «السعودية» من الإسلام. وبالطبع هناك في العالم العربي إمكانات سياسية أخرى (العراق، سوريا، ليبيا)، لكن أية واحدة منها لا تستطيع في اللحظة الراهنة أن تتطلع إلى دور المدى الكبير التكاملي بالنسبة لبلدان آسيا الوسطى. وعلى العموم فإن التوجه نحو العربية السعودية يمكن مساواته اشتراطياً وجيوبولتيكياً بالتوجه نحو «الإسلام العربي (غير الاشتراكي)».

وللبلدان الشرقية من «الخارج القريب، إمكانية تكاملات جيوبولتيكية محتملة في إطار المعسكر الآسيوي.

3 ـ 12 الآفاق القارية «للثورة الإسلامية»:

إيران اليوم بلد فريد من نوعه، يؤدي في آسيا دور أوروبا الوسطى في **الغرب** ومن الأمور المميّزة أن الإيرانيين يميّزون أنفسهم عن الغرب وعن الشرق، وهم يفهمون **الغرب** على أنه «حضارة أوروبا العولمية الفجة» و«**الشرق**» على أنه ـ الهند، الصين و«روسيا».

والإسلام الإيراني قوة ديناميكية قادرة ذات توجه معاد بشكل واضح للعولمة وذات تطلعات نحو ثورة إسلامية عالمية كونية. وفي المعنى الجيوبولتيكي تبدو إيران دولة قارية وتملك استراتيجياً واقتصادياً وأيديولوجياً كل الفرص لتكون نواة المعسكر الأوراسي الكبير.

وبمقدور توجه جمهوريات آسيا الوسطى إلى إيران (وبالدرجة الأولى أذربيجان بنفطها وكازاخستان النووية الجبارة) أن يهيء وبصورة تامة، المنطلقات الأساسية للاستقلال القاري الحق. ويمكن للتحالف الموالي لإيران أن يكون الشبيه بآسيا الوسطى (قارن آسيا الوسطى ـ أوروبا الوسطى) لأن الأحداث التاريخية والمبادىء الأيديولوجية والتجانس الثقافي ـ الديني لهذه المناطق القارية يمكن أن تكون الأساس الكافي لترسيخ مثل هذا الاتحاد وتفعيله.

ومن المهم الإشارة إلى أن **المدى الكبير** الموالي لإيران يمكن أن يتضمن أفغانستان والباكستان وهذا يفتح بدوره شريط التواصل الترابي مع طاجكستان وأوزبسكتان. أما تركمانيا فلإيران معها حدود مباشرة.

3 ـ 13 مصيدة «البانتوركية»:

وللتوجه نحو تركيا طابع مختلف تماماً «يترافق هذا التوجه عادة بـ «البانتوركية» (لأن شعوب آسيا الوسطى في «الخارج القريب» تركية في معظمها).

ظهرت تركيا كدولة في مكان الإمبراطورية العثمانية لا كامتداد بل كصورة هزلية لها. وبدلاً من البنية الإسلامية الإمبراطورية المتعددة المراكز والكثيرة القوميات أقام كمال أتاتورك الصيغة الشرقية للـEtat- Nation الفرنسية الدولة ـ الأمة، ذات البناء العلماني ـ الإلحادي الفج والقومي الضيق. فكانت تركيا الدولة الأولى في الشرق التي قطعت العلاقات مع تقاليدها الروحية والدينية والجيوبولتيكية. ومن الناحية الواقعية تمثل تركيا كعضو في الناتو اليوم ـ المخفر الأمامي الشرقي للأطلسية والعولمة ـ «النطاق الصحي» بين الشرق الآسيوي والعالم العربي. والأنموذج الجيوبولتيكي الذي تقدمه تركيا ـ هو التكامل مع العالم الغربي والحضارة العولمية الإلحادية. ولكن بما أن تركيا نفسها ـ الطامحة إلى الدخول في «أوروبا» لا تزال بعد المستعمرة «السياسية ـ الأيديولوجية» للولايات المتحدة، وليست العضو الحقيقي في المدى الكبير الأوروبي (وهو ما كان يمكن أن يفترض من الناحية النظرية مشاركة تركيا في معسكر أوروبا الوسطى) فإن التوجه نحو تركيا يعني بالنسبة لبلدان «الخارج القريب»، تكاملاً مع المشروع العولمي ضمن حقوق «النطاق الصحي» وبصفة «العزقة الاستعمارية» بين كتلة أوراسيا القارية الشرقية (مع إيران والصين والهند) وبين العالم العربي الذي يهدد بالانفجار والذي يتطلع دوماً إلى التخلص من القيادة العولمية العملية.

وطريق تركيا ـ هو طريق خدمة الدولة الأطلسية فوق العادة وتقبل الأنموذج العولمي للمدى الكوني الكبير الخاضع «للحكومة العالمية» وقد يُعترض علينا بأن خارطة «البانتوركية» التي تلعبها تركيا تحمل من الناحية الظاهرية طابعاً قومياً تقليدياً. وهذا صحيح إلى حد ما، ومشاريع «تركيا العظمى من ياقوتيا إلى

سراييفو» تناقش بحيوية في أجهزة الدعاية التركية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن التحول الجذري في النهج السياسي والأيديولوجي والاقتصادي لتركيا هو وحده الذي يمنح الجدية لهذه المشاريع، وهذا ما يفترض ثورة وانعطافاً في المصالح الجيوبولتيكية لا يزيد ولا ينقص عن 180 درجة. ودون استبدال مثل هذه الإمكانية علينا أن نشير إلى ضعف احتمال مثل هذا المجرى للأمور في المستقبل القريب. ولكن في الوقت نفسه يمكن لمثل هذا الأفق الذي تتم الدعاية له في الحاضر أن يؤدي إلى نتيجة جيوبولتيكية محدَّدة ـ إلى تحول الدول الشرقية في «الخارج القريب» عن إيران إلى اختيار الأنموذج العلماني الإلحادي للمجتمع، إلى التكامل التدريجي مع «نطاق صحي»، موال للأطلسية. و«البانتوركية» ذات معنى مزدوج، مثلها مثل «البانسلافية» والبانجرمانية، أي مثل جميع الأيديولوجيات التي تضع المظهر القومي فوق المصالح الجيوبولتيكية والترابية والدينية للشعوب والدول.

3 ـ 14 دولارات النفط والعولمة:

العربية السعودية قلعة الإسلام العربي والتيوقراطية الإسلامية، وهي من الناحية الأيديولوجية تمثل الأنموذج، «الوهابي» الخاص للإسلام المهيب، الأخلاقي ـ «الصافي» والقريب جداً، من الناحية النمطية، بالصيغ البروتستانتية من المسيحية. وقد استبدلت التأملية الآسيوية الشرقية والتنسُّك والحماسة المدينية هنا بالطقوس وسيطرة ما يقترب من الأخلاقية الدنيوية. ووفقاً لملاحظة الأصولي الإسلامي حيدر جمال «تمثل العربية السعودية، في وضعها الفاعل نقيضاً كاملاً لعالم «الإسلام القاري» والمصالح الجيوبولتيكية للعربية السعودية الوهابية تتفق كل الاتفاق مع صيغة معينة من المشروع العَوْلمي لأن الرفاه الاقتصادي والعسكري لهذه البلاد مؤسس على دعم الولايات المتحدة التي تحمي مصالح الأسرة الحاكمة للملوك السعوديين في المجالات العسكرية والاقتصادية. ومثال الدعم العسكري ـ الحرب ضد العراق، «والدعم» الاقتصادي يتمثل في ما يلي: فاقتصاد العربية السعودية بأسره يعود إلى النفط. والنفط العربي كله يصل إلى السوق العالمية تقليدياً عبر الأيادي الأنجلو ـ أمريكية. وتعدين المناجم الأوراسية واستثمارها يمكن من الناحية النظرية أن يمثل منافسة للسعوديين وأن يُغني الدول الأرواسية ويجعل أوروبا واليابان مستقلتين عن الولايات المتحدة. وعلى هذا فإن الولايات المتحدة

التي تدير اقتصاد أوروبا من خلال سيطرتها على النفط العربي، والملوك السعوديين الذين يقيمون اقتصادهم على دولارات النفط الأمريكية ذوو مصالح واحدة.

وقد وقفت التيوقراطية الوهابية السعودية في مرات كثيرة عقبة في وجه إقامة **المدى العربي الكبير** لأن ذلك كان يناقض مصالح الأسرة الحاكمة ومصالح الأطلسيين. ولدى السعوديين أسس أكبر للتخوف من المدى القاري الإسلامي الكبير. وإيران الثورية تعد على العموم العدو الأيديولوجي رقم 1 للسعوديين. وعلى هذا فإن المصالح الجيوبولتيكية للعربية السعودية في البلدان الشرقية من «الخارج القريب» تتعارض كليةً مع ظهور المدى الكبير الإسلامي الآسيوي. وهذا يعني أن الطريق إلى التكامل ـ العربي الإسلامي تحت الراية «الوهابية» سيبدو بالنسبة للجمهوريات العربية الإسلامية، من الناحية العملية، إقحاماً في المشروع العولمي، ولكن لا في صيغة «البانتوركية» العلمانية ـ القومية بل في الصيغة الأخلاقية التيوقراطية. وليس هذا الطريق، بمعنى من المعاني ـ إلا إقحاماً في «النطاق الصحي» بيد أن «الإغراء» في هذه الحالة ليس القومية بل العامل الديني (والمال).

وبتلخيص هذه التصورات جميعاً يمكننا القول إن للبلدان الشرقية في «الخارج القريب» طريقاً إيجابياً واحداً لإقامة المدى الكبير الجديد ـ وهو طريق **«الثورة الإسلامية»**، مع التوجه نحو طهران. فإزاء ذلك يمكن أن تحل النزاعات القومية وأن تحقق إحياء التقليد الديني والنظام الديني. أما على الصعيد الجيوبولتيكي فسيعني ذلك إقامة حلف قاري جبار، قادر كل القدرة على مواجهة المشاريع العولمية في هذه المناطق. وفضلاً عن ذلك ستستدعي الخطوات الأولى المتخذة في هذا الاتجاه تفاعلاً تسلسلياً في العالم العربي وهو ما يهدد العولميين بتضييع هيمنتهم على نطاق الأمة الإسلامية بأسرها. وفضلاً عن ذلك فإن مثل هذا التحالف الجيوبولتيكي سيوقظ بصورة لا مندوحة منها القوى المعادية للعولمة في أوروبا الوسطى (حليف إيران الطبيعي والأهم في الغرب) وفي روسيا ـ الأوراسيا.

3 ـ 15 قطبان كحدّ أدنى أو. . . «الموت»:

في الوضع الجيوبولتيكي المعاصر يرتفع السؤال في حدته الاستثنائية: إما «نظام عالمي جديد» كوني، برئاسة الولايات المتحدة، حيث تكون جميع الدول

والشعوب بلا وجود، «براغي» طيعة في الأنموذج الكوسموبولتيكي، العالمي، التكنوقراطي الإلحادي ـ التجاري «الديزني ـ لاندي» ـ وإما البناء الفوري للمعارضة الجيوبولتيكية للأطلسية والعولمة وتنظيم الشعوب والدول المعادية للأطلسية، التقليدية، التربوية في حلف بديل (أو عدة أحلاف). وقد بلغ الوضع درجة من التأزم اليوم حتى صار من غير المهم تقريباً بأي طريقة وتحت أي شعار يمكن أن يظهر المدى الكبير البديل، فإذا ما ظهر وإذا كان سيقف حقاً معارضاً للعولمة فإن ذلك كاف لوحده لتوسيع البدائل الجيوبولتيكية وتنويعها وتكثيرها، وذلك لمضاعفة المستويات الضمنية للحرية في إطار المعارضة للعولمة. وينبغي أن نتذكر دوماً **إن «المهمة الرئيسية** بالنسبة للولايات المتحدة، **الحيلولة دون ظهور البديل الجيوبولتيكي»** (كائناً ما كان البديل عن ذلك). ولهذ فإن من العدل تقديم الأطروحة المعادية بشكل مباشر لقوى العولمة وهي **«المهمة الأهم ـ إقامة البديل الجيوبولتيكي» (مهما كانت صيغته).**

لقد بلغ الوضع اليوم مستوى من الجدية لا سبيل معه إلى الاختيار بين «الجيّد» و«الأجود». فإذا استطاعت روسيا أن تقيم استقلالها الجيوبولتيكي وأن تتجنب القيادة الأطلسية ـ كان أمراً رائعاً. وستتهيأ في هذه الحالة إمكانية ممتازة لبلدان «الخارج القريب» للدخول من جديد في روسيا الأوراسية التي تجردت، في هذه المرة، من السلبية الأيديولوجية للماركسية المزدوجة المعنى. وفضلاً عن ذلك فإن العودة الطوعية والواعية «للخارج القريب» الحالي ستكون ضمانة لاستقلالها الذاتي (ولكن ليس الحكومي)، الثقافي، الديني، اللغوي، الاقتصادي بل وحتى السياسي أيضاً. ويمكن أن يكون ذلك الصيغة الأبسط والأفضل. وتغدو تعرية الأهداف الاستعمارية الحقيقية للأطلسيين في هذه المرحلة الانتقالية المأساوية المنطلق الأساسي دون شك لزيادة أكبر لعدد الحلفاء والتابعين لروسيا ـ الأوراسيا (سواء **في الشرق** أو في **الغرب**).

فإذا لم يحدث ذلك فإن مفجر المشروع الجيوبولتيكي المعادي للعولمة وإما آسيا الوسطى الموحدة تحت شعار **«الثورة الإسلامية»**، وفي الأساس يبقى أفق الانتفاضة المعادية للعولمة في العالم العربي وفي أمريكا اللاتينية على الرغم من أن هذين **المَدَيَين الكبيرين** المحتملين ليسا مجهزين تماماً من الناحية العسكرية بحيث يمثلان منافسة لقوة فوق العظمى.

بالنسبة لبلدان «الخارج القريب» تبدو مشكلة **المدى الكبير** أساسية، وذات أهمية حيوية. وبناء على اختيار التوجه الجيوبولتيكي هناك يرتبط كل شيء اليوم - مستقبل الأمة، دينها، ثقافتها، حريتها، رفاهها وأمنها. والسؤال مطروح بحدّة لا تضاهى. واليوم يجب أن يعي جميع المسؤولين بأن قبول الأنموذج العولمي يعني ما لا يزيد ولا ينقص عن التدمير الكامل والنهائي لذاتيتهم، لهويتهم، للوجه التاريخي لدولهم وأممهم، ونهاية تاريخهم القومي.

آفاق الحرب الأهلية

4 ـ 1 المصالح الوطنية واللوبي العولمي:

مشكلة قيام حرب أهلية محتملة في روسيا تصبح أكثر حيوية، ومن الضروري اليوم دراسة هذه المسألة المخيفة من وجهة نظر تحليلية ومن وجهها المقابل كاندفاعات تحذيرية ومواعظ مسالمة. فأسوأ الأمور (إذا ما نشبت الحرب الأهلية في روسيا) أن يجد الإنسان نفسه غير مستعد لها على الإطلاق، ضائعاً وسط توزع معقد ومتناقض للقوى، يمكن أن يضلل أبعد الوطنيين نظراً وأكثرهم منهجية من الناحية الأيديولوجية.

في هذه المسألة كما هو الأمر في كافة الآفاق المهمة الأخرى من الوجود السياسي للأمة والدولة يلزم البدء بتذكر اللحظات المبدئية التي تحدد الخطوط العامة للوضع الجيوبولتيكي في صورته المعاصرة. والثابت الأهم لوجود الدولة والأمة هو مبدأ السيادة والاستقلال والحرية السياسية. فمطالب السيادة السياسية هي، بالذات، مرادف المصالح الوطنية. ولروسيا والشعب الروسي في سياق التاريخ السياسي للعالم مكانهما المتفرد، رسالتهما، دورهما، وإن أداءهما الحر والكامل لمهمتهما القومية ـ الدولية، يمثل المعنى الرئيسي لوجود الشعب كجماعة عضوية.

بيد أننا نعيش في عصر خاص ترتبط فيه السياسة الوطنية الداخلية ارتباطاً لا ينفصم بسياق السياسة الخارجية وربما لم يتخذ الضغط على التشكلات الوطنية ـ الدولية مثل هذه القوة والإلحاح في أي يوم من نظرية العولمة، أي ذلك التنظيم

لحياة البشر في العالم بأجمعه والذي لا يجوز إزاءه وجود التشكلات القومية ـ الحكومية ولا أي استقلال أو مصالح وطنية. ويُطلب أن تكون على رأس التجمع العالمي قيادة كوسموبولتية تدير لا المجتمعات بل عدداً حسابياً من الأفراد الذريين، وعليه فإن الخيط العولمي موجه منذ البداية **ضد** أي تشكلات وطنية ـ حكومية ومهمته الرئيسة إزالة العالم التقليدي **القديم** المقسم إلى شعوب وبلدان وبناءُ «نظام عالمي جديد» يرفض كافة صيغ التشكلات المجتمعية ـ الاجتماعية التاريخية والعضوية.

والعامل العولمي موجه بشكل طبيعي ليس ضد روسيا فقط (فالأمم والدول الأخرى تمثل أيضاً عقبة في وجهه)، ولكن روسيا بالذات، ومن خلال كونها التشكل الجيوبولتيكي الأقدر، كانت حتى فترة متأخرة القلعة الأساسية التي عوقت الانتشار التدريجي من الغرب على العالم كله، ومن الطبيعي أن النظام السوفياتي قد حمل في بعض وجوهه ملامح عولمية ويتمثل أحد مشاريع العولميين الغربيين في الادخال التدريجي «التصاعدي» للاتحاد السوفياتي في البنية الكونية «للنظام العالمي الجديد» والأقرب إلى الواقع أن نظرية التقارب الشهيرة تلك، كانت الموجه الرئيس للقوى التي بدأت البيريسترويكا. لكن الصيغة الناعمة لـ «عولمة» روسيا، لسبب من الأسباب، لم «تشتغل»، وآنذاك اتخذت السياسة العولمية بالنسبة لروسيا صيغة الضغط العدواني والنشاط التخريبي العلني. والانهيار القاسي وما فوق السريع للاتحاد السوفياتي جرَّد أنصار «التقارب» من أذرع القيادة فانتقلت السياسة العولمية نحو صيغ عدوانية مكشوفة ومبنية على كراهية الروس.

والخط العولمي عنصر يكتسب أهمية قصوى لفهم الوضع الحالي لروسيا. فإذا كان التأثير الخارجي على بلادنا يفرض فيما مضى من طرف تشكلات قومية ـ حكومية أخرى تحاول إضعاف قوة الدولة الروسية أو استمالتها إلى جانبها في هذه أو تلك من النزاعات الدولية، وإذا كان الأعداء المحتملون لروسيا (العلنيون والمستترون) هم القوى الجيوبولتيكية التي تُقايَس في بنيتها مع روسيا نفسها، فقد صار العامل الخارجي الرئيسي في اللحظة الراهنة صيغة خارجية من الضغط لا تحمل أية ملامح وطنية ـ قومية أو جيوبولتيكية واضحة وتمثل مشروعاً فوق القومي، كونياً، طوباوياً، اجتماعياً ـ سياسياً تقف من ورائه أجهزةُ تحكّم تملك قوة اقتصادية ـ سياسية جبارة. ومن الطبيعي أن العوامل السياسية الخارجية التقليدية

تواصِل عملها أيضاً (فالمشروع العولمي لم يصل بعد إلى تحققه الكامل)، لكن أهمية هذه العوامل وثقلها يشحبان بالقياس مع شمولية الضغط العولمي ويتأخران إلى المرتبة الثانية. فعلاقات روسيا مع ألمانيا واليابان أو الصين على سبيل المثال لا تبدو اليوم أمراً بين طرفين بل بين ثلاثة على الأقل ـ روسيا، الدولة الأخرى واللوبي العولمي العالمي الذي يتصرف إما مباشرة أو عبر «عملاء التأثير» في التشكلات السياسية التي تتطارح فيما بينها المشاكل التي تهم الطرفين. وإزاء ذلك تكون «القوة الثالثة» العولمة ـ في غالب الأحيان هي التي تحسم لأن وسائلها للضغط، وبناها التأثيرية أكثر تنسيقاً وتأثيراً بمقارنتها مع ما يقابلها من آليات التشكلات القومية ـ الحكومية «المهترئة».

وعلى هذا يمكننا في روسيا، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية، التمييز بين عنصرين مؤسسين يقفان خلف هذه القرارات أو تلك، خلف تنظيم هذه العمليات أو تلك، خلف تحديد هذه أو تلك من توجهات الحياة السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية في روسيا: وهي «عملاء التأثير العولميون» والمجموعات التي توجه المصالح القومية ـ الحكومية. ومن الواضح، انطلاقاً مما ذكرناه، أن كلاً من القطبين، يناقض أحدهما الآخر في الأمر الأهم: بعضهم يحاولون تتفيه سياديّة روسيا واستقلاليتها واكتفائيتها الذاتية (حتى حدود إلغائها الكامل في السياق العولمي الكوسموبولتيكي «للنظام العالمي الجديد») ويتجه الآخرون، على العكس من ذلك، نحو توكيد وتعزيز وتوسيع السيادة الوطنية، الحكومية نحو الإخراج الأعظم للأمة من البنية العولمية الكونية، المعادية، حسب تعريفهم، لوجود أي مجتمع مكتف ذاتياً وكامل الأهلية. ومن الطبيعي أنه لا يمكن لهذين القطبين أن يجتمعا أبداً في السياسة الواقعية بصفتها المجردة، وغالبية البُنى السلطوية تمثل نظماً هجينة يتعايش فيها الاتجاهان، ومع ذلك فإن هذين القطبين يحددان التوجهات الأساسية الكامنة في المواجهة الشرسة الدائمة المستترة تحت المساومات، والسذاجة، وقصر النظر أو إقصاء الممثلين الثانويين «غير المطّلعين» عن السياسة.

وهكذا فقد ميّزنا في اللوحة السياسية الحيوية لروسيا، قطبين تقابلهما وجهتا نظر متباينتان حول إمكانية قيام حرب أهلية في روسيا، وهاتان القوتان بالذات ستكونان، في نهاية المطاف، الفاعلين الرئيسين في النزاع المحتمل، الخصمين

الأساسيين، الطرفين الأساسيين على الرغم من أن مواجهتهما قد تكون مغيّبة تحت توزيع للأدوار أسرع وتيرة وأكثر تعقيداً. ومثال الحرب الأهلية الأولى في روسيا يظهر أن القوى الوطنية والمعادية للوطنية قد نشطت لا تحت راياتها الخاصة بل تحت نظام معقد ومتناقض من التوجهات الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية التي تغطي الدوافع والاتجاهات الجيوبولتيكية الحقيقية. ولكي لا تتكرر أخطاء الماضي ينبغي، وبصورة موضوعية، تحليل الأفق المريع للحرب الأهلية الجديدة وراء الميول السياسية أو الإيديولوجية.

4 ـ 2 تنويعات توزيع القوى

فلنميّز المضامين الأساسية للحرب الأهلية في روسيا، ولنحدد القوى الفاعلة والدوافع المباشرة، ولنشر إلى تنويعاتها المحتملة.

1 ـ الصورة الأولى (والأقل احتمالاً) من صور الحرب الأهلية، والتي يمكن أن تقوم ضمن خط المواجهة بين **القوى الوطنية ـ الحكومية واللوبي العولمي**.

والحق أن مثل هذا التحديد للأدوار يمكن أن يكون الأكثر منطقية لو أخذنا في الحسبان الاستحالة الكاملة للجمع بين توجهات أولاء وهؤلاء. فالعولميون يحاولون بكل الوسائل إضعاف استقلالية روسيا، وتدمير ذاتيتها الاقتصادية ـ السياسية وجعلها مرتبطة بالمؤسسة الكوسموبولتية العالمية وتجريدها من إمكانية تأديتها لرسالتها الوطنية بصورة حرة. وعلى العكس من ذلك يحاول القوميون والدولتيون تدعيم الاكتفاء الذاتي والتوصل إلى أكبر حد من الاستقلالية السياسية والاستقلالية الاقتصادية ـ الاجتماعية. ومن الطبيعي أن الجمع بين هذين التوجهين بصفة سلمية أمرٌ غير ممكن لأن كلا منهما يناقض الآخر في كل شيء ـ في العام والخاص.

إلا أن مثل هذه الصيغة من الحرب الأهلية (الكوسموبوليتيون ضد القوميين) لا يمكنها بصفة عامة أن تكون شعبية عامة وعالمية، لأن الإيديولوجيا العولمية غير قادرة من الناحية المبدئية على أن تغذي الجماهير بمشاعر التعصب أو أن تدفع ولو بجزيئة صغيرة من السكان إلى الدفاع عن مبادئها. ومن الطبيعي أنه في الشروط السلمية يمكن للخمول واللامبالاة والسلبية العامة أن تكون عوامل مساعدة بالنسبة

للعولميين، ولكن في حال النزاع الدامي وإطلاق النار والقتل لا بد من اللجوء إلى طبقات أعمق من النفسية الإنسانية، لا بد من التعصب والفداء. والقوميون، على العكس من ذلك، يمكنهم بسهولة أن يركنوا إلى دعم الغالبية الساحقة من الشعب في حال المواجهة المسلحة المفتوحة والواسعة مع العولميين؛ هذا إذا كان النزاع سيتخذ طابعاً قومياً شاملاً وليس محصوراً ضمن مراكز يسيطر عليها العولميون بصفة صارمة.

وبكلمة أخرى فإن الحرب الأهلية وفق سيناريو «العولميين ـ والقوميين» لن تصبح على أية حال حرباً أهلية حقيقية شاملة لأنه ليس لدى العولميين، ولن يكون لهم في الصيغة الصافية ذلك الأساس السياسي الثابت الفعال المتماسك إيديولوجيا والقادر على تنظيم الجماهير لمواجهة القوميين. فلو اندلع مثل هذا النزاع لكانت نهايته سريعة ووحيدة المعنى: تغلبت القوى القومية ـ الحكومية بسرعة على اللوبي المعادي للقومية الذي يسمى بهذا الاسم، والذي يقف وجهاً لوجه مع الشعب المنتفض في سبيل فكرته الوطنية. ومن حيث المبدأ فإن من شأن مثل هذه الحرب الأهلية أن تجري بدون إراقة دماء تقريباً، وأن تكون قصيرة الأمد جداً، وأن تتم تصفية الينبوع الداخلي للتنازع بعد تدمير العولميين، أما في الحياة السياسية والاجتماعية للدولة فيمكن أن تنمو بصورة حازمة ضمن حدود المصالح الوطنية وهو ما نجده في الدول والأمم التقليدية.

لكن مما هو ضعيف الاحتمال ألاّ يدرك اللوبي العولمي وضعه الحقيقي وانتحارية مثل هذا السيناريو، مما يعني أنه سيحاول تجنب مثل هذا الانعطاف في الأحداث بأي ثمن. ولهذا السبب بالذات تبدو مثل هذه الصيغة بعيدة عن الاحتمال.

2 ـ الصورة الثانية للحرب الأهلية وتحدَّد بمعادلة: **الفيدرالية الروسية ضد واحدة (أو عدّة) من جمهوريات الخارج القريب**. ومثل هذا الوضع يمكن أن يتكون بسهولة بسبب من لا استقرار التشكلات الحكومية الجديدة فوق أراضي الاتحاد السوفياتي السابق. فهذه الدول التي لا تملك غالبيتها العظمى أية تقاليد قومية أو دولية ثابتة بأي صورة من الصور، والتي أقيمت ضمن حدود تعسفية على الإطلاق لا تتفق مع الأراضي الإتنية ولا الاجتماعية ـ الاقتصادية ولا الدينية للمجتمعات العضوية، ستكون مقحمة بصورة لا مندوحة منها في الأزمة الداخلية والخارجية العميقة. **وهي من الناحية المبدئية لن تتمكن من الحصول على أية**

استقلالية حقيقية لأن إمكاناتها الاستراتيجية لا تسمح لها بالدفاع عن استقلالها دون اللجوء إزاء ذلك إلى المساعدة الخارجية. وانهيار النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها أمر محتوم ومن الطبيعي أن ذلك لا يمكن إلا أن ينعكس على علاقاتها بالسكان الروس (أو ذات التوجه الروسي) وبروسيا نفسها.

والأقرب إلى الواقع في مثل هذه الحالة أن يوجه التحدي من جانبها إلى روسيا، وهو ما ستكون الفيدرالية الروسية مضطرة إلى الرد عليه بهذا المستوى من العدوانية أو ذاك. وستحمل هذه العملية طابعاً تسلسلياً لأن انفجار النزاعات بين الإتنية أو النزاعات من أجل مساحات الأرض، والذي يمس روسيا والروس سيلقى انعكاسه حتماً في الجمهوريات السوفياتية السابقة الأخرى.

ومن البين أن مصالح الروس القومية وتوجهات اللوبي العولمي في داخل روسيا (وداخل الجمهوريات الجديدة) لن تصطدم في مثل هذه الحالة فيما بينها بصورة مباشرة وعلنية، وسيكون خصم الروس الأساسي في مثل هذه الحالة هم الجيران المباشرون. وليس من الضروري على الإطلاق أن يعمل اللوبي العالمي في مثل هذه الحالة لصالح هزيمة الفيدرالية الروسية. ومثل هذا النزاع الذي يسميه الاستراتيجيون الأمريكان بـ«حرب من الدرجة الصغرى» (أو حتى من الدرجة الوسطى!) يمكنها أن تتوافق بصورة كاملة مع مصالح اللوبي العالمي إذا كان من شأنها زعزعة استقرار الوضع الاستراتيجي والجيوبولتيكي في روسيا وفي الأوراسيا بصورة أوسع عندما يكون ذلك النزاع محلياً، متطاول الأمد ومزدوج المعنى. كما إن من غير المؤكد أن تتحقق المصالح الوطنية الروسية في مثل هذه الحالة حتى ولو جرت الحرب الأهلية تحت شعارات وطنية وقومية. فمثلما كان الأمر في أفغانستان لن يؤدي صراع روسيا المسلح مع الأقاليم المجاورة إلا إلى إضعاف النفوذ الروسي في هذه الدول وإبطال جاذبية الدافع التكاملي لدى الجيران من أجل التوحد مع روسيا في معسكر أوراسي جيوبولتيكي واحد. وفضلاً عن ذلك فإن تشابه النمط الثقافي ـ الاجتماعي بين سكان الفيدرالية الروسية وبين الجمهوريات السوفياتية السابقة سيحيل مثل هذا النزاع إلى مذبحة بين الأشقاء وإلى حرب أهلية حقيقية. أما في حال الجمهوريات السلافية (وأوكرانيا بالدرجة الأولى) فإنها ستكون، علاوة على ذلك، مأساة وطنية داخلية.

وعلى هذا فإن هذه الصيغة من الحرب الأهلية تبدو متناقضة ومزدوجة

المعني. المصالح القومية الروسية، وثبوتية السيادة الوطنية لن تطرح بالضرورة في مثل هذا التطور للأحداث، أما اللوبي العالمي الكاره للروس، فقد يصل حتى إلى تحقيق بعض المآرب إذ يحيط الفيدرالية الروسية بحزام من «حروب الدرجة الصغرى» التي تقوم بفضح الروس على المستوى الدولي وتزعزع استقرار الدولة الذي يعاني، وبغير ذلك، من الاختلال. وهذا لا يعني بالطبع أنه ليس على روسيا أن تتصرف حاميةً للروس وللشعوب الموالية للروس في الخارج القريب. ولكن يتوجب عليها وهي تؤدي ذلك كله، أن تعنى بصفة خاصة، بتوسيع نفوذها الجيوبولتيكي والاستراتيجي. وحتى لو تسنى للروس أن يربحوا من جيرانهم قطعة من الأراضي الروسية الصميمية، فقد يصبح ثمن ذلك ظهور دول معادية جديدة، يُقذف بها في معسكر أعداء روسيا الأساسيين، أي العالميين، وفي مثل هذه الحالة قد يؤجَّل التكامل الإمبراطوري الجديد، الضروري جداً بالنسبة لروسيا ـ إلى موعد غير محدَّد.

3 ـ الصيغة الثالثة، وهي شبيهة بالأولى في بنيويتها، إلا أن الحرب الأهلية في هذه الحالة قد تبدأ ضمن إطار **الفيدرالية الروسية نفسها بين الاتنوسين الروسي وغير الروسي**[3]. ويمكن للسيناريو أن يكون شبيهاً بسابقه: يتعرض السكان الروس لعدوان من طرف الأغراب في إحدى الدوائر ذات الاستقلال الذاتي أو في جمهورية داخلية، ويدفع التضامن الإتني الروس الآخرين للمشاركة في المواجهة المسلحة على قاعدة إتنية؛ وتتخذ الحرب الأهلية طابع «حرب من الدرجة الصغرى». ويكون هذا أشد خطراً على روسيا في هذه الحالة إذ قد تكون نتيجتها اختراق الوحدة الترابية للفيدرالية الروسية أو على أقل تقدير استثارة العداوة الإتنية نحو الروس من طرف الأغراب حيث يتيسَّر «خنقهم». وإزاء ذلك لا بد من استقطاب التشكلات الحكومية والقومية الأخرى للنزاع مع الروس وهو ما قد يجعل الصراع مزمناً وطويل الأمد. ومثل هذا الصراع ينقل وضع الروس من الصعيد الوطني الدولي إلى صراع إتني ضيق وهو ما يزيد من تضييق الصفة الجيوبولتيكية لروسيا التي كانت قد فقدت صفتها الإمبراطورية منذ انهيار حلف وارسو ومن بعده الاتحاد السوفياتي.

ومثل هذه الصيغة من الحرب الأهلية تتناقض بصفة عامة مع المصالح الوطنية للروس إذ يتم من الناحية الواقعية، إضفاء الصبغة القانونية على التحلل

المقبل للمدى الروسي إلى مكوناته الإتنية وهو ما سيسفّ في المستقبل المنظور بالصفة الجيوبولتيكية لشعب كان امبراطورياً إلى المستوى الإتني الصرف والذي يكاد يكون «قبلياً». أما بالنسبة للعولمة الشرسة القائمة على كراهية الروس والمتوجهة نحو تدمير الاكتفاء الذاتي القومي ـ الحكومي الروسي فستكون مثل هذه الصيغة مغرية إلى حد كبير، إذ تفترض أن تغرس في الروس لا الهوية الذاتية الدولتية بل الهوية الإتنية الضيقة وهو ما سيضيق بصورة لا مندوحة منها حجم روسيا الاستراتيجي. وثمة من جهة أخرى مجازفة بالنسبة للعولميين لأن انفجار الوعي الإتني الذاتي قد يسدد ضربة إلى «عمالة النفوذ» ومثل هذا النزاع ليس مجزياً، بأي شكل من الأشكال، بالنسبة للوطنيين الروس.

4 ـ والصيغة الرابعة تبدو أيضاً روسية داخلية لكنها لا تقوم على الانشقاق الإتني بل على **التناقضات الدينية والإدارية الترابية** إذ لا بد لسياسة موسكو المركزية في المسائل السياسية ـ الاقتصادية والاجتماعية من أن تستثير مواجهة شديدة من طرف الأقاليم التي تحاول ضمن العملية المشتركة للاّتكامل من الحصول على الحد الأعظم من الاستقلال الذاتي وهنا كما في حالة المماحكات الإتنية، يؤدي انهيار الإمبراطورية السوفياتية إلى تجريد الفكرة المركزية والتكاملية من مشروعيتها ومن وضوحيتها وجاذبيتها. وفضلاً عن ذلك تكون سياسة المركز الفعالة، وقد اكتسبت أسلوب النظام السابق، الشمولي، المتأمّر، قد تنازلت عملياً عن النصف الثاني من علاقات المركز ـ الأقاليم المرتبطة بالمساعدة والمؤازرة الاجتماعية ـ الإدارية.

والمركز يريد بدوره أن يستملك وأن يسود مثلما كان الأمر عليه في السابق، لكنه لا يستطيع الآن تقديم أي بديل مثلما كان الأمر في السابق. ومن الناحية الاقتصادية لا تجني الأقاليم شيئاً سوى الخسائر لأن حقل إمكاناتها يضيق ويرتبط بالمركز. ولكن تضاف إلى ذلك الخصوصية السياسية للأقاليم، حيث الطابع المعادي للقوميات ضمن الإصلاحات العولمية يظهر في صورة أشد مَرَضية بكثير مما هو في مدن العواصم الكوسموبولتيكية الضخمة.

الخطوات الأولى نحو انفصالية الأقاليم كانت قد اتخذت، على الرغم من أن المركز كان قد قطع تلك المحاولات. غير أن من المحتمل إلى حد بعيد أن يرغب الروس في جنوب روسيا أو في سيبيريا أو في أي مكان آخر، في لحظة ما، بإقامة دولة مستقلة، متحررة من ديكتاتورية موسكو السياسية والاقتصادية. وقد

يكون ذلك على أساس من النفعية الاقتصادية المحضة ـ فبيع الموارد الطبيعية الإقليمية أو البضائع المحلية الصنع في حركة التفاف على موسكو قد يحسّن الحالة المحلية بشكل حاد في بعض الحالات. وبإمكان «الثورة الجهوية»، من جهة أخرى، أن تطرح مهمات سياسية ـ كرفض سياسة المركز الليبرالية المتطرفة والحفاظ على الضمانات الاجتماعية وتشديد العنصر القومي في الإيديولوجية. وهذا كله ما يجعل إمكانية النزاع المدني على هذا المستوى حقيقة واقعة. وتستطيع الأقاليم في لحظة ما أن تصرَّ بكل جدية على مطالبها وهو ما يثير بشكل طبيعي معارضة المركز الذي لا يرغب في تضييع سيطرته على الأقاليم.

مثل هذه الصيغة للحرب الأهلية لا تقل عن سابقتيها تناقضاً وازدواجيةً في المعنى. ومن الناحية الواقعية فإن متطلبات الأقاليم الراغبة في الانفصال عن موسكو، مركز الإصلاحات، تحمل من ناحية أخرى بعض ملامح الوطنية والقومية، وتستجيب لمطالب الشعب، وستقوم قوى المركز العولمية، وهي تعارض الأقاليم، بالدفاع لا عن المصالح القومية بل اللاقومية، لأن سيادة الليبراليين على كامل مجموع الأراضي الروسية يعود بالدرجة الأولى، بالنفع على مصممي «النظام العالمي الجديد» بالذات. ولكن الانفصالية الإقليمية تؤدي، من جهة ثانية، إلى دمار الأراضي الروسية الحكومية وتوهن القدرة القومية المشتركة وتحضّر خطوط الانهيار في داخل الشعب الروسي الواحد. ويمكن للعولميين أن يذهبوا بكل وعي إلى خلق مثل هذا النزاع إذا ما ضعفت هيمنتهم على روسيا وفي حالة ما إذا كان انهيار الوحدة الترابية للبلاد الخطوة الأخيرة في قضية إضعاف الاكتفاء الذاتي القومي ـ الحكومي.

على القوى الوطنية أن تتصرف في هذه المسألة انطلاقاً من المنطق المعاكس. وما دامت سلطة المركز قوية فينبغي التضامن مع المطالب الجهوية بتأييد رغبتها في الاستقلال الذاتي عن المركز. ولكن ينبغي التوكيد منذ البداية على ضروريات التكامل الاستراتيجي والسياسي لجميع الأقاليم على أساس إمكانيات إعادة الإمبراطورية. وبمقدار ضمور قوة اللوبي العولمي في المركز على الوطنيين تغيير توجههم بصورة انسيابية، والإصرار على الحيلولة دون النزاع المدني ودعوة الأقاليم إلى الاتحاد.

ومهما يكن من أمر فإن الحرب الأهلية على أساس إقليمي لا يمكنها أن

تتوافق مع المصالح الوطنية مثلما كان الأمر عليه في السيناريوهين السابقين.

وينبغي التحفظ بصفة خاصة على النقطة التالية. إذ تطرح نفسها بنفسها الصيغة الخامسة للحرب الأهلية، تلك الصيغة التي تتوزع فيها القوى لا وفق المظهر الإيديولوجي القومي والترابي بل وفق المظهر الاجتماعي الاقتصادي ـ على مثال «الأثرياء الجدد» ضد «الفقراء الجدد». وبصفة مبدئية لا تستبعد مثل هذه الصيغة ويمكن أن تتشكل كل المنطلقات المؤسسة لها في المستقبل. ولكن أمام الوضع الحالي للمجتمع لا يعد العامل الاقتصادي مسيطراً على ما يبدو. فعلى الرغم من الجائحات الاقتصادية المروّعة، من الافتقار الشامل للطبقات العاملة والإثراء المبالغ فيه «للروس الجدد»، فإن المجتمع الروسي لم يصغ بعد مطاليبه في مصطلحات اقتصادية. والآفاق الجيوبولتيكية، والوطنية والإيديولوجية لا تزال أكثر حيوية وفعالية. فهي بالذات القادرة على إخراج الجماهير إلى الساحات وجعلها ترفع السلاح، والأزمة الاقتصادية هي الخلفية الرائعة للنزاع المدني، ويمكن أن تكون في حالات محدَّدة الدافع إلى الكوارث، إلا أن خطوط القوة الأساسية ستكون منطلقات أخرى غير اقتصادية. فاللجوء إلى الأمة، الاتنوس، الوطنية والحرية قادر اليوم على إضفاء النسبية على الجانب المادي من الحياة وجعلها أمراً ثانوياً. ولكن حتى في الحالة التي تكون فيها الناحية المادية رئيسية فإنها لن تستطيع، بقوة نزع الثقة عن المقولات الماركسية والاشتراكية، التعبير عن مطالبها في صيغة إيديولوجية منهجية مثيرة للحماسة. والأقرب إلى الواقع أن يكون العامل الاقتصادي في النزاعات المحتملة مقولة مرافقة لا محدِّدة.

4 ـ 3 نتائج التحليل

من المؤسف القول إن الحرب الأهلية ممكنة في روسيا. فمن الاحتمالات الضعيفة أن تحل التناقضات الجذرية بين المصالح الوطنية ـ الحكومية وبين مخططات العولميين بطريقة سلمية وودية. ومن أجل إجراء الحديث بصفة جادة حول الـ «كونسينسوس»(*) أو «المصالحة» بين هذه القوى لا بد من التدمير النهائي

(*) الكونسينسوس: التوافق العام، التفاهم على المسائل الجدلية، والمؤدي إلى صياغة القرار الموحّد (المترجم).

لذوي الاتجاهات القومية ـ الحكومية؛ (وهذا ممكن فقط بتدمير الدولة الروسية نفسها والأمة الروسية) أو القضاء على ممثلي اللوبي العالمي.

ولهذا السبب بالذات فإن إشعال حرب أهلية في روسيا أو إشعال حزام من «حروب الدرجة الصغرى» في أراضيها يمكن أن يصبح في كل لحظة المشروع الأساسي للّوبي العولمي. وليس ثمة أي شك في أن ممثلي هذا اللوبي سيحاولون بذل كل ما في وسعهم لإبقاء أنفسهم في الظل وتحت أي راية أخرى (انفصالية كانت أو مركزية).

والصيغ الثلاث للحرب الأهلية ـ الفيدرالية الروسية ضد الخارج القريب، سكان الفيدرالية الروسية ضد الغرباء، الأقاليم ضد المركز ـ غير مقبولة مبدئياً بالنسبة لجميع من تهمهم المصالح القومية ـ الحكومية لروسيا والشعب الروسي. وجميع هذه الصيغ محفوفة بخطر التصدع المقبل في مدى روسيا الجيوبولتيكي والاستراتيجي، وحتى في حالة انتقال أراض محدّدة إلى السيطرة الروسية. وبناء على ذلك يجب على الوطنيين الحيلولة بأي صورة دون الحرب الأهلية وفقاً لهذه السيناريوهات الثلاثة. هذا إذا لم نتحدث عن أن هذه الحرب **غير مجدية** من وجهة النظر الأخلاقية. وما دام الأمر كذلك فمن المنطقي القول بأن العولميين بالذات سيمدّون أيديهم لتأجيج هذا النوع من النزاعات (إذا ما بدأت بالاندلاع).

إن ما هو شبيه بالحرب الأهلية في روسيا يمكن أن يكون مجدياً بالنسبة للعولميين لأسباب عدة أخرى أيضاً. فبداية النزاع المسلح بمشاركة مباشرة من طرف الروس يمكن أن يتيح لليبيراليّ المركز:

1 ـ **طرح مبدأ سياسي** تحت ذريعة «إنقاذ الوطن» والتخلص من الأعداء السياسيين بالقوة.

2 ـ **تحميل الحرب مسؤولية الانهيار الاقتصادي** وإجبار الاقتصاد على أداء وظيفته تحت رقابة المركز المباشرة.

3 ـ **صرف الانتباه العام عن نشاط «الإصلاحيين»** الذي صار اليوم مكشوفاً إلى درجة خطرة.

4 ـ بصورة متعمدة **قطع الاتحاد الممكن في المستقبل بين الروس وبين التشكيلات القومية ـ الحكومية الأوراسية والأوروبية** تحت شعار التضامن القاري ضد هيمنة الغرب الأطلسية والمشاريع العولمية.

وهذا كله يدفع إلى الافتراض بأن حَمَلة الصيغة الشرسة من العولمية في روسيا سيلجأون، عاجلاً أم آجلاً، إلى «الحرب الأهلية» وبخاصة إذا ما كان موقف النظام الليبيرالي سيميل بصفة أكثر فأكثر إلى الاختلال، ومن المهم الإشارة في هذا السياق إلى أن «بيريسترويكا بنيوية» ستجري، في هذه الحالة، في داخل «اللوبي العولمي» بالضرورة. وقد يتصرف قسم منه تحت شعارات وطنية بل وربما تحت شعارات قومية ضيقة وشوفينية.

ومن الصعب الجزم بموعد بدء الانفجارات الأولى بالذات فهذا يتعلق بمجموعة من العوامل العفوية والمصطنعة. ولكن حتى إذا لم يحدث أي شيء مشابه لذلك خلال بعض الوقت فإن التهديد المحتمل لمثل هذا الانعطاف في الأحداث سيكون أكثر من فعال عندما لا يصبح اللوبي العولمي موجوداً في روسيا فحسب بل ويهيمن على مقابض القيادة الأهم في السلطة الحكومية ـ السياسية.

الصيغة الأولى من «الحرب الأهلية» ـ العولميون ضد القوميين ـ يمكن أن تكون قصيرة، وخالية تقريباً من الدماء ومجزية بالنسبة للوطنيين ولروسيا. وفضلاً عن ذلك فإن الصدام المباشر للأمة مع أعدائها الداخليين يمكن أن يعقد النصر للقوى القومية بالذات. ومن الناحية العملية لن تكون هذه «حرباً أهلية» فقط وبالمعنى الكامل للكلمة بل اشتعالة قصيرة لمواجهة فعالة إذا لم تقْضِ بصفة كلية على إمكانية قيام الحرب الأهلية بنتيجتها فإنها ستؤخرها إلى موعد بعيد غير محدود. ولكن من الضروري لتحقيق ذلك تحفيز اللوبي العولمي على التحرك تحت راياته الخاصة وأن تتكتل القوى الوطنية باسم المصالح الروسية القومية ـ الحكومية المعرَّفة بوضوح والمسمّاة بدقة. والقيام بذلك أمر ليس سهلاً دون شك (بل يكاد يكون مستحيلاً) فالعولميون، من جهة، ليسوا سذّجاً إلى درجة أن يتكلموا بصوت جهري عن كراهيتهم للبلاد التي ينشطون فيها وعن تطلعهم إلى تدميرها، ومن جهة أخرى فإن ممثلي القوى الوطنية ـ الحكومية كثيراً ما يكونون عاجزين عن صياغة أسس موقفهم الإيديولوجي بطريقة عقلانية ومنهجية، وبصورة موجزة ومقنعة في وقت واحد، يحول دون ذلك وفاؤُهم للقوالب التعبيرية السوفياتية ـ الشيوعية التي تجاوزها الزمن؟ حماستُهم المفرطة ومقدرتهم الضعيفة على التفكير التحليلي وتجاهل المنطلقات الأساسية للجيوبولتيكا وما إلى ذلك.

السلام المدني الأصيل لا يمكن أن يقوم على المساومة إذا كان طرفا هذه

المساومة نقيضين متجابهين في كل شيء، وما دام النظام العولمي للقيم هو المسَيطر فإن جميع أجنحته ـ اليمينية واليسارية والمركزية ـ مع كل ما فيها من اختلاف لا تضع التوجه العام تحت الشك. أجل، إن «السلام» ممكن في مثل هذا الموقف ولكن لقاء هلاك الدولة والإقصاء الجذري للقوى الوطنية عن الحوار. وإذا كان النظام الوطني ـ الحكومي للقيم هو المسيطر أمكن مناقشة البحث عن حل يقع بين الوطنيين ـ الرأسماليين، الوطنيين ـ الاشتراكيين، الوطنيين ـ الشيوعيين، الوطنيين ـ القيصريين أو الوطنيين ـ التيوقراطيين ولكن لا بد في هذه الحالة من استبعاد القوى اللاوطنية، العولمية، ذات التوجه المعادي لروسيا، عن الحوار ووضعها من الناحية الإيديولوجية، خارج القانون.

مجتمعنا حافل بالنزاع المدني المخيف، وإذا كانت لا تزال لدينا قدرة التأثير على الأحداث، القدرة على الاختيار، فيجب علينا اختيار الأهون بين الشرور.

جيوبولتيكا النزاع اليوغوسلافي

5 ـ 1 رمزية يوغوسلافيا

مما هو معروف على صعيد واسع أن يوغوسلافيا تمثل تلك البقعة الأوروبية التي تبدأ منها الأكثر جدية والأوسع مدى بين النزاعات الأوروبية. وعلى الأقل كان الأمر يبدو على هذه الشاكلة في القرن العشرين. فالبلقان ـ هو العقدة التي تلتقي فيها مصالح جميع الأحلاف الجيوبولتيكية الأوروبية الرئيسة، ولهذا فإن مصير الشعوب البلقانية يرمز إلى مصير الشعوب الأوروبية كلها. فيوغوسلافيا ـ أوروبا المصغّرة. وبين الشعوب القاطنة فيها نلتقي بالمماثلات الدقيقة للقوى القارية الكبرى.

الصرب يمثلون في البلقان روسيا الأرثوذوكسية (الأوراسيا). ويمثل الكروات والسلوفينيون ـ أوروبا الوسطى (أي ألمانيا، النمسا، إيطاليا وما إلى ذلك). المسلمون الألبان، والبوسنيون ـ بقايا الإمبراطورية العثمانية، يعني تركيا بل والعالم الإسلامي ككل. والمكدونيون، أخيراً الاتنوس الصربي البلغاري الذي يمثل رمز يوغوسلافيا الأرثوذوكسية الكبرى (القائمة على أساس اتحاد الصرب وبلغاريا)، والتي لم تفلح في الظهور تاريخياً، على الرغم من قيام مشاريع صربية ـ بلغارية في بداية القرن.

5 ـ 2 القوى الأوروبية الثلاث

يمكننا القول إن خارطة أوروبا الجيوبولتيكية تنقسم في ملامحها الأكثر عمومية إلى المناطق الأساسية الثلاث:

المنطقة الأولى **هي الغرب**. **الغرب** القاري بالذات. والذي تمثله فرنسا والبرتغال بالدرجة الأولى. وبالمعنى الأكثر اتساعاً تنتسب إليه انجلترا والولايات المتحدة ما وراء الأطلسية، الواقعة خارج أوروبا. وعلى الرغم من إمكانية وجود تناقضات داخلية بين الغرب القاري (فرنسا) والغرب الجزيري (انجلترا) والغرب الممتد فيما وراء المحيط (أمريكا) فإن الغرب في موقفه من التشكلات الجيوبولتيكية الأوروبية الأخرى، يتصرف في أغلب الأحيان كقوة جيوبولتيكية واحدة.

المنطقة الثانية ـ أوروبا الوسطى (Mitteleuropa). وتنتسب إليها دول القوميات الجرمانية في **الإمبراطورية الرومانية المقدسة** السابقة، الأراضي السابقة للنمسا والمجر، ألمانيا، إيطاليا وما إليها. ومن الملامح المميّزة لأوروبا الوسطى المواجهة الجيوبولتيكية مع **الغرب** الأوروبي ومع **الشرق** أيضاً.

وأخيراً فالمنطقة الثالثة هي روسيا والتي تتصرف في أوروبا ليس فقط باسمها بل وباسم شعوب **الشرق** الأوراسية كافة.

وعلى العموم فقد كان بوسعنا أن نخصص أيضاً المنطقة الإسلامية الجيوبولتيكية الرابعة ـ بداية من بلدان المغرب في **الشمال الأفريقي** وحتى الباكستان والفيليبين، إلا أن هذا المعسكر الجيوبولتيكي يقع خارج أوروبا، وفضلاً عن ذلك فإن تأثيره الجيوبولتيكي على أوروبا في القرن العشرين لم يكن ملموساً إلى حد كبير، هذا على الرغم من إمكانية أن يتحول العالم الإسلامي في المستقبل من جديد (على نحو ما كان عليه الأمر في القرون الوسطى) مكوّناً مهماً في الجيوبولتيكا الأوروبية.

هذه التشكلات الأوروبية الجيوبولتيكية الثلاث تكوّن بؤر التوتر الدائمة في القارة، والتي تنعقد فوق الحدود الشريطية الدائمة التبدل بين الغرب الأوروبي وأوروبا الوسطى (Mitteleuropa) من جهة، وبين أوروبا الوسطى وروسيا ـ الأوراسية ـ من جهة أخرى.

ويمكننا، من الناحية التخطيطية، أن نتلمس عدداً من الاتحادات الجيوبولتيكية، أو على العكس من ذلك، عدداً من المواجهات، التي تشكل ثوابت السياسة الأوروبية الدولية.

يمكن **للغرب** الأوروبي أن يتصدى لمواجهة أوروبا الوسطى كأقرب جار لها من **الشرق** وقد تجسد هذا الاتجاه الجيوبولتيكي بالصورة الأكثر وضوحاً في مواجهة فرنسا (الدولة ـ الأمة) الاستبدادية وبين امبراطورية النمسا والمجر. وعبرت هذه المواجهة عن نفسها فيما بعد في النزاعات الفرنسية ـ الألمانية الكثيرة الأعداد. ومن جهة أخرى ثمة إمكانية نظرية لقيام اتحاد فرنسي ـ ألماني جيوبولتيكي، كان قد ألهم فكرته كل من فيشي(*) وديغول(**). ومن الأمور ذات الدلالة إن بإمكان **الغرب** الآن في صراعه ضد أوروبا الوسطى الدخول في حلف مع **الشرق** الأوروبي (روسيا ـ الأوراسيا) وفي حالات أخرى تغدو روسيا بالذات الخصم الجيوبولتيكي الأهم بالنسبة للغرب الأوروبي من جهة ولأوروبا الوسطى من جهة أخرى.

كما إن أوروبا الوسطى (ألمانيا) في علاقتها مع جارها الجيوبولتيكي الشرقي يمكن أن تظهر في حال مواجهة (وهو ما يعود بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالفائدة على **الغرب** الأوروبي أو في حالة حلف (وهو ما يشكل خطراً على **الغرب**).

وأخيراً فإن الاختيارات الجيوبولتيكية الأفضل بالنسبة لروسيا في السياسة الأوروبية يمكن أن توجه نحو الأساس المعادي لألمانيا (وتغدو فرنسا وانجلترا وحتى الولايات المتحدة من الناحية المنطقية حلفاء في هذه الحالة)، أو في الاتجاه المعادي للغرب (ولا مندوحة عند ذلك من الحلف الروسي ـ الألماني).

تلك هي في الصورة التقريبية الأكثر خشونة، العوامل الجيوبولتيكية الأساسية للسياسة الأوروبية. ولا بد من وضعها جميعاً في الحسبان عند تحليل المشكلة

(*) فيشي (Vichy) مدينة في فرنسا الوسطى حملت اسم الحكومة التي تعاملت مع ألمانيا النازية بين تموز 1940 ـ آب 1944 خلال الاحتلال الألماني للأراضي الفرنسية وفيها أقامت حكومة المارشال أ. بيتان (Petain) (1856 ـ 1951) (المترجم).

(**) ديغول (De Golle) شارل (1890 ـ 1970) رئيس جمهورية فرنسا بين 1958 ـ 1969، ومنذ سنة 1940 نظم وترأس حركة المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي لبلاده. في 1941 ترأس الجمعية الوطنية الفرنسية وبين 1944 ـ 1946 كان رئيس الحكومة المؤقتة لفرنسا. بعد الحرب أسس وترأس حزب «وحدة الشعب الفرنسي» وصار رئيس وزراء فرنسا سنة 1948، وبمبادرة منه تم إعداد دستور جديد (1958) وسّع صلاحيات رئيس الجمهورية. وفي عهده تحررت الجزائر وخرجت فرنسا من حلف الناتو. ترجمت مذكراته إلى العربية وصدرت في عدة مجلدات (المترجم).

البلقانية، لأن هذه التوجهات الثلاثة تتصادم فيما بينها في النزاع اليوغوسلافي مشكّلة تهديداً ممكناً بحرب أوروبية جديدة كبرى.

5 ـ 3 حقيقة الكروات

دخل الكروات (مثلهم مثل السلوفينيين) بصفة تقليدية في نطاق إمبراطورية النمسا والمجر، وكانوا اتنوساً يتكامل بصفة كلية مع القطاع الكاثوليكي لأوروبا الوسطى الألمانية. وارتبط مصيرهم الجيوبولتيكي الطبيعي بهذا التكتل الأوروبي. فميل الكروات إلى ألمانيا والنمسا ليس تعسفاً انتهازياً عارضاً على الإطلاق، بل نتيجة لمنطق الوجود التاريخي لهذا الشعب. وكان سقوط إمبراطورية النمسا والمجر وانشاء يوغوسلافيا نتيجة صراع طويل الأمد قام به **الغرب** الأوروبي **ضد أوروبا الوسطى** وبهذا يُفسر الدعم البراغماتي الذي قدمه الفرنسيون للصرب. (صيغة **الغرب** مع **الشرق** ضد **أوروبا الوسطى**). وأولئك الكروات الذي رحبوا بإقامة يوغوسلافيا كانوا يسيرون، بمعنى من المعاني، ضد التقليد الجيوبولتيكي والديني الخاص بهم، وليس من قبيل الصدفة أن توجهات الغالبية بينهم، عبر المؤسسات الماسونية، كانت نحو «**شرق فرنسا العظيم**» ونحو مشاريعه الجيوبولتيكية الموجهة إلى انتصار قوى **الغرب** في أوروبا. ولدى إقامة يوغوسلافيا ووفقاً لمجموع توزع القوى خلال الحرب العالمية **الأولى**، تُستجلى سيطرة التوجه الغربي بالذات والذي استخدم بنجاح قوى الشرق (صربيا وروسيا الكبرى) ضد أوروبا الوسطى.

وعند إقامة يوغوسلافيا كان الكروات بالذات أول ضحايا هذه السياسة، فليس مستغرباً منهم أن يستقبلوا الألمان فيما بعد كمحررين (وعلى أية حال فقد كان ذلك مسلك الأوكرانيين الكاثوليك والأونيات الذين كانوا يميلون دوماً إلى دائرة التأثير الأوروسطوي)، إلا أن دعم قوى الغرب ـ فرنسا ـ للصرب (وعلى فكرة فقد تم ذلك الدعم عبر القنوات الماسونية بالدرجة الأولى) اتخذ معنى مزدوجاً، لأن الصرب أنفسهم قد غدوا بدورهم رهائن ذلك التشكل الجيوبولتيكي في البلقان، والذي ما كان يمكن الحفاظ على اكتماله إلا بطريق الهيمنة بالقوة.

ولدى الأزمة الفعالة للمعسكر الشرقي (أي في مجموع بؤرة التأثير روسيا ـ

الأوراسيا) في مرحلة البيريسترويكا طرأ بعض الضعف على القوى اليوغوسلافية المتكاملة ولم يتأخر الكروات (ومنهم السلوفينيون) في الإعلان عن اغترابهم الجيوبولتيكي بالنسبة ليوغوسلافيا الصربية التي تمّ فهمها بشكل مزدوج ـ كتشكل مصطنع أقامه **الغرب**، وكمخفر متقدم **للشرق في أوروبا الوسطى** .

وعلى هذا فإن الكروات يدافعون، على المستوى الجيوبولتيكي، عن المبدأ القائل بإبقاء أوروبا الوسطى على حالها، أي بقعة أوروبية مستقلة ذاتية موحدة الأراضي. هذا على الرغم من ضرورة الإشارة إلى أن فكرة تحويل كرواتيا إلى دولة ـ أمة (Etat-Nation) بلقانية قزمة مستقلة وحيدة الإتنية على النمط الفرنسي إنما يدس، بطريقة مقصودة، لغماً تحت الوحدة الجيوبولتيكية للمجال الأوروسطوي، والذي ليس بإمكانه أن يعيش إلا كبنية متكاملة لا كخليط كسحري من الدول الأنانية البالغة الصغر. وبكلمة أخرى فإن التوجه الجيوبولتيكي للكروات لا يمكن أن يكون كاملاً إلا في حالة توجههم ما فوق القومي، وهذا ما يفترض الحل السلمي لمشكلة الإقليمية الصربية في كرواتيا. فالتعصب القومي الكرواتي عندما يخرج عن السويّة الجيوبولتيكية إلى سوية إتنية محضة يفقد مبرره ويحوّل مدلوله إلى نقيض.

5 ـ 4 حقيقة الصرب

للأفق الجيوبولتيكي للصّرب طابع وحيد المعنى موال لروسيا، أوراسي الطابع. وصربيا عبر طابعها الديني والإتني تميل إلى روسيا، وهي امتدادها الجيوبولتيكي في جنوب أوروبا. فمصير الصربيين ومصير الروس على المستوى الجيوبولتيكي ـ واحد. ولهذا فإن على الصربيين لكي يعودوا إلى منابع رسالتهم الأوروبية أن يتجهوا بالضرورة نحو **الشرق**، نحو الأوراسيا وأن يفهموا معنى الجيوبولتيكا الروسية وأهدافها. وإلى جانب هذا فإنه لا الولاء للسلاڤية الساذجة والمصطنعة والتي كشف الفيلسوف الروسي كونستاتين ليونتيف بطريقة رائعة عن تهافتها بل بالذات مشروع الأوراسيا الكبرى ومحورها روسيا ـ البيزنطية الأرثوذوكسية الجديدة ذات البعد المسكوني ـ الكوني ـ هي بالذات التي ينبغي أن تكون نجم الهداية للجيوبولتيكا الصربية الحق. وفي هذه الحالة فقط يعود التوجه

الصربي إلى جذوره الخاصة ويكف عن لعب دور الدمية في أيدي الأطلسيين والتي لا يستخدمونها إلا في الصراع ضد أوروبا الوسطى والعالم الألماني.

في تاريخ أوروبا الجيوبولتيكي يمكننا تلمس توجّه دائم يمكن لتفسيره أن يكشف **ما الذي** يعد حلاً إيجابياً بالنسبة لصربيا. هذا التوجه هو: اتحاد **الشرق** مع أوروبا الوسطى ضد الغرب يعود دوماً بالفائدة على هذه الجهة وتلك. تماماً مثلما يعود بالفائدة على **الغرب** القاري (فرنسا) الاتحادُ مع **أوروبا الوسطى** (ألمانيا) ضد **الغرب** الجزيري وما وراء البحار (العالم الانجلوساكسوني). وبكلمة أخرى فإن الأفضلية التي تعطى **للشرق** الجيوبولتيكي (بل وحتى **الشرق** النسبي) ـ فأوروبا الوسطى، على سبيل المثال، تعد **شرقاً** بالنسبة لفرنسا، يعود دوماً بالنفع ليس فقط على **الشرق** نفسه، بل وعلى المشارك الغربي في هذا الاتحاد. وعلى العكس من ذلك فإن الاتحاد الجيوبولتيكي مع أفضلية التوجه الغربي (فرنسا مع انجلترا والولايات المتحدة ضد ألمانيا، فرنسا مع ألمانيا ضد روسيا وما إلى ذلك) يشدّ عُقَدَ نزاعات وحروب أوروبية جديدة وجديدة.

وبالأخذ بهذه التصوّرات في الحسبان يمكننا القول بأن توجه الصربيين الجيوبولتيكي ينبغي أن يتحول إلى قدوة بالنسبة للسياسة البلغارية التي كانت دوماً تجمع في ثناياها موالاة الروس وموالاة الألمان مرسّخة في **أوروبا الجنوبية** مجالاً من الاستقرار السياسي والتناسق، وهو ما مكّن وبطريقة تدريجية من أن يشق لأوروبا الوسطى طريقاً إلى الجنوب الإسلامي ومعناه أن يضع حداً لهيمنة الغرب الأطلسي في هذه المنطقة. وعلى صربيا فضلاً عن ذلك أن تعي مجموع ازدواجية المعنى في ذلك الدعم الذي قدمه لها **الغرب** في يوم ما، والثمن الذي تجلت صورته في العقوبات التي أوقعتها الدول الغربية بالصرب. وحده التوحد الجيوبولتيكي مع الدول الأرثوذوكسية الأوروبية الشرقية الأخرى (ومع بلغاريا بالدرجة الأولى) في معسكر واحد موال لروسيا، وصديق في الوقت نفسه لأوروبا الوسطى يمكنه أن يقيم في البلقان منطقة استقرار وأن يبطل استعمال مصطلح «البلقنة» المخزي.

وعلى نحو ما هو الأمر في حالة الكروات أيضاً، فإن فكرة الدولة ـ الأمة الصربية الصرف لن تحل أية مشاكل في حال ما إذا ورثت هذه الدولة الصربية عن الماسونيين الذين أقاموا يوغوسلافيا، كراهيتهم للألمان وتوجههم نحو الغرب.

5 ـ 5 حقيقة المسلمين اليوغوسلاف

يمثل مسلمو البوسنة اليوغوسلاف والألبانيون معاً العامل الجيوبولتيكي الإسلامي «العثماني» في أوروبا. ومن المهم الإشارة إلى أن تركيا التي يمكن الأحساس بنفوذها أكثر من كل شيء بين المسلمين اليوغوسلاف، تمثل في أوروبا، ودون شك المعبر عن الميول الأطلسية في أشد صورها الغربية تطرفاً. وإذا كان **الغرب** الذي حاول استخدام الشرق الأوروبي (روسيا) ضد **أوروبا الوسطى**، قد عجز عن أن يخنق بصفة نهائية التجلي الجيوبولتيكي المستقل لهذا الأقليم القاري، وكثيراً ما ووجه، على العكس من ذلك، بتوسع روسيا ـ الأوراسيا (إما عن طريق الحلف الروسي ـ الألماني وإما بطريقة مباشرة عبر إقامة حلف وارسو) فإن تركيا العلمانية الإسلامية الزائفة قد صارت الأداة المعول عليها في أيدي السياسيين الأطلسيين. وعلى مدى أوسع من ذلك، فإن التأثير الأطلسي على جيوبولتيكا الدول الإسلامية كبير إلى درجة خارقة للعادة. ولهذا فإن التحركات المعادية للصرب من طرف المسلمين اليوغوسلاف تعد مؤشراً على قيام نزاع قاري أكثر عالمية بين الأوراسيا الشمالية (روسيا ومجالها الجيوبولتيكي) وبين **الجنوب** نفسه، ما دام يتحول في هذه الحالة أداةً في أيدي الغرب الأطلسي على نحو ما كان **الشرق** الأوراسي (في صورة الصرب) ضد أوروبا الوسطى (في صورة النمسا والمجر وممثليهما من الكروات).

والمخرج المنطقي الوحيد بالنسبة لمسلمي البوسنة اليوغوسلاف وللمسلمين الألبان، التوجه نحو إيران وتبني سياستها، لأن هذه البلاد وحدها التي تطبق في الوقت الحاضر الجيوبولتيكا المتطلعة إلى الاستقلال والذاتية والتلاؤم القاري والتي تتصرف طبقاً لمنطقها الخاص مستقلةً عن مصالح الأطلسيين في هذه المنطقة. وبالتوجه نحو إيران يستطيع المسلمون اليوغوسلاف أن يحصلوا على الأفق الجيوبولتيكي المطلوب لأن إيران، المعادية بصفة جذرية للغرب، القارية، والملتزمة بالتقاليد، تعد الحليف الكامل الأهلية لجميع المعسكرات الأوروبية ذات التوجه الشرقي ـ بدءاً من روسيا ـ الأوراسيا وحتى أوروبا الوسطى. وفضلاً عن ذلك فإن من شأن توجه الآماد الأوروبية الشرقية الكبرى نحو إيران أن يبدل بشكل حاد توضع الأمور في العالم الإسلامي بكامله وأن يضعف بحدّة النفوذ الأمريكي

هناك، وهو ما لا يعد في صالح الأوروبيين فقط، بل ومن شأنه أيضاً أن يحرر الشعوَب الإسلامية من سياسة الإملاء الاقتصادي والعسكري للأطلسيين الانجلوساكسونيين.

وفقط بمثل هذا التوجه من طرف المسلمين اليوغوسلاف يمكن لوجودهم الجيوبولتيكي في أوروبا أن يصبح متناسقاً ومنطقياً خالياً من النزاعات. ويمكن القول إن مثل هذه المشكلة تنقسم إلى ثلاثة مراحل. المرحلة الأولى: تحويل توجه المسلمين من تركيا إلى إيران. المرحلة الثانية: تعزيز الاتحاد الجيوبولتيكي لأوروبا الوسطى مع إيران والعالم الإسلامي ككل. المرحلة الثالثة: الحلف الجيوبولتيكي الأوراسي بين **الشرق وأوروبا الوسطى**. وإلى جانب هذا فبالإمكان إجراء المراحل المذكورة متزامنةً وكل واحدة منها ضمن مستواها الخاص. ومن المهم هنا أن ندرك بصفة خاصة أن مشكلة الشعب البلقاني الصغير لا يمكن أن تحل جيوبولتيكياً بدون أكثر التحولات العالمية جدية. وليس لنا أن ننسى أبداً أنه من النزاعات المحلية الصغيرة في أحجامها والهائلة بمدلوليتها الرمزية، بدأت جميع الحروب العالمية.

5 ـ 6 حقيقة المكدونيين

تتجذّر المشكلة المكدونية ليوغوسلافيا المعاصرة بالذات في صميم اصطناعية «يوغوسلافيا» القائمة عملياً والتي عُدَّت، بالاسم فقط، «دولة السلافيين الجنوبيين». والمكدونيون الذين يمثلون اتنوساً وسطاً بين الصرب والبلغار ويدينون بالأرثوذكسية، كان ينبغي أن يدخلوا جزءاً طبيعياً في يوغوسلافيا الحالية، المكونة من صربيا وبلغاريا. إلا أن وجود دولتين سلاڤيتين يعقوبيتي النمط في البلقان بدلاً من دولة سلاڤية فيدرالية «إمبراطورية» واحدة أوراسية التوجه، أدى إلى أن وجد الشعب المكدوني الصغير نفسه على الحد الفاصل بين منطقتين سياسيتين ذاتَيْ خاصية سياسية متباينة إلى حد بعيد.

ويزداد الأمر تفاقماً في اللحظة الراهنة لأن بلغاريا الحالية تشهد تنامياً للقوى اليعقوبية النمط التي أدت أكثر من مرة إلى تصادم دول البلقان الأرثوذوكسية فيما بينها وحالت دون التوجه إلى الجيوبولتيكية البيزنطية الجديدة الصحيحة لوحدها.

وقد أقحم في هذه العملية منذ البداية اللوبي الأطلسي (الكاثوليكي منه والإنكليزي) والذي لا يزال يذكّر بنفسه في بلغاريا المعاصرة وإن كان ذلك بصيغ أخرى.

وفي الحقيقة يبقى التاكتيك الغربي في هذه المنطقة على حاله التي كان عليها في بداية القرن. فيومذاك وبعد أن دمر الغرب إمبراطورية النمسا والمجر لم يسمح بإقامة التجمع السلافي الكبير، إذ لعب بورقة «القوميات البلقانية» ـ اليونانية، البلغارية، الصربية، الرومانية وما إلى ذلك. واليوم تسدّد قوى **الغرب** الجيوبولتيكية من جديد ضربة مزدوجة إلى أوروبا الوسطى وإلى الوحدة اليوغوسلافية وتستثير الانفصالية الكرواتية في **الغرب** والمكدونية في **الشرق** .

أما في حالة مكدونيا فمثلما هو الأمر في جميع النزاعات البلقانية الأخرى لا يمكن الوصول إلى المخرج إلا عبر العملية التكاملية العالمية لتنظيم الآماد الأوروبية الكبرى، وليس عن طريق الانفصالية المباشرة وإقامة الدول القزمية الزائفة. كما إن ضم مكدونيا إلى بلغاريا لن يحل المشكلة بأي حال من الأحوال وإنما يهيء فقط لقيام نزاع جديد لكنه في هذه المرة وبحق نزاع بين الدول، بين السلافيين.

5 ـ 7 أولويات الحرب اليوغوسلافية

لما كان النزاع اليوغوسلافي عميقاً في رمزيته، خارقاً في مدلوليته فإنه يطالب كل دولة وكل قوة سياسية وجيوبولتيكية أوروبية أن تحدد موقفها وأن تتبيّن أولوياتها بالنسبة لهذه المسألة. والحديث هنا لا يدور فقط حول النزوع العاطفي، الطائفي التاريخي الإتني أو السياسي لأولاء أو هؤلاء من البشر أو الشعوب أو الدول. فالحديث يدور عن مستقبل أوروبا ومستقبل الأوراسيا.

أما أنصار أولوية أوروبا الوسطى والموالون لألمانيا فقد اتخذوا الموقف المؤيد لكرواتيا. وتأسس هذا الاختيار على التحليل الجيوبولتيكي لأسباب إنشاء يوغوسلافيا، ورفض سياسة فرنسا الماسونية في وسط أوروبا، على فهم ضرورة البعث الطبيعي للمجال الأوروسطوي الموحد بعد انتهاء «مرحلة يالطا» والتي قسمت أوروبا خلالها وبطريقة مفتعلة إلى معسكرين جيوبولتيكيين لا إلى ثلاثة. وبهذا بالذات يفسَّر وجود الكثيرين من القوميين ـ الثوريين الأوروبيين بين الكروات.

لكن منطق تفضيل أوروبا الوسطى لم يضع في الحسبان واحداً من التصوّرات البالغة الأهمية. فإلى جانب الدور الأداتي **للشرق** الجيوبولتيكي لدى تنفيذ مخططات **الغرب** ضد أوروبا الوسطى توجد، وكانت توجد دوماً، الجيوبولتيكا الأوراسية الجذرية العميقة التربة لهذا **المجال الكبير**، جيوبولتيكا روسيا الأرثوذوكسية المتوجهة نحو مصالحها القارية الخاصة وفي المدى البعيد ـ نحو **الحلف المقدس** الجديد. وعندما استيقظ الوعي الذاتي الصربي بكامله خلال عملية النزاع الداخلي العنيف، وعندما استدعى دم الشعب الصربي من أغوار اللاوعي مجدداً الرسوبات القومية والروحية الجيوبولتيكية الأقدم، وعندما أصبحت عمليةً فكرةُ صربيا الكبرى، صربيا الروحية، انتهت رسالة يوغوسلافيا الأداتية وحلت محلها **الفكرة الأوراسية الكبرى**، **فكرة الشرق** .

وبينما كان الصرب يخوضون حربهم مع أوروبا الوسطى (في شخص الكروات) كان الأطلسيون يصفقون ليوغوسلافيا الفيدرالية في كل مكان من باريس إلى نيوريوك أو كانوا يدمغون الكرواتية بـ «القومية الضيقة» و «بموالاة الفاشية». ولكن ما إن تجاوز الصربيون الخط المحدَّد واتخذت حربهم طابع الحرب ضد فكرة **الغرب** نفسه حتى أُعلنت صربيا العقبة الأولى في وجه إقامة «**النظام العالمي الجديد**» وأعقب ذلك تطبيق العقوبات السياسية والاقتصادية الصارمة ضدها.

ولكي يتم القيام بالخيار النهائي لا بد من الالتفات من جديد إلى القانون الجيوبولتيكي الذي سبق أن صغناه والذي لا تكون الهارمونية القارية بموجبه واقعية إلا بإقرار أولوية الشرق وباختيار الأوراسيا توجهاً إيجابياً فحتى الفكرة الإيجابية في حد ذاتها، والقائلة بـ **أوروبا المتوسطة** في مواجهتها لروسيا ـ الأوراسيا تغدو سلبية ومدمّرة مثلما تبين ذلك في الغلطة المأساوية العميقة لهتلر، الذي بدأ حربه التوسعية ضد الشرق، ضد روسيا، وهو ما عاد بالنفع فقط على المعسكر الغربي الأطلسي، فدمَّرَ ألمانيا وفرّخ بذور الأزمة في روسيا. ولهذا فإن الأفضلية الجيوبولتيكية في النزاع اليوغوسلافي يجب أن تعطى للعامل الصربي، ولكن، بصورة طبيعية ـ بمقدار ما يسير الصربيون وفق التوجه الجيوبولتيكي الأوراسي الموالي لروسيا المتطلع إلى إقامة المعسكر ـ السلافي الجنوبي القوي والمرن، والذي يعي أهمية أوروبا المتوسطة ويعين على إقامة الحلف الألماني ـ الروسي ضد الغرب. إن الكراهية الصربية للألمان مقترنة بالمحبة نحو الماسونية الفرنسية،

لن تستطيع أبداً، مهما كانت الذرائع التي تستتر وراءها، أن تقدّم الأساس لحل إيجابي للمشكلة اليوغوسلافية.

وبكلمة أخرى فإن الأفضلية الكبرى ينبغي أن تعطى للتقليديين الصربيين، المتعمقين في العقيدة الأرثوذوكسية والذين يعون تراثهم الروحي، السلافي ويتوجهون نحو وعي البنية الجيوبولتيكية الهارمونية الموالية لروسيا مع وعي التوجه المضاد للغرب، المضاد للأطلسية في وقت واحد.

ومن جهة أخرى فإن من المهم النظر باهتمام إلى مطالب الكروات وميولهم نحو منطقة **أوروبا الوسطى**، فبإمكان الكروات، مع توفر الميول المعادية للأطلسية فيهم، أن يغدوا في المستقبل قوة إيجابية داخل أوروبا.

كما وينبغي أخذ العامل البوسني بعين الاعتبار لدى نقل توجه المسلمين اليوغوسلاف من تركيا إلى إيران، وذلك لتحويل «السم إلى ترياق»، وعلى هذه القاعدة وضع حجر البداية لسياسة أوروبية جديدة تماماً في العالم الإسلامي مناوئة بصورة مباشرة للامبريالية الاقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة في البلدان الأسيوية.

وأخيراً فبدلاً من أن يصبح المكدونيون تفاحة الشقاق بالنسبة للسلافيين الأرثوذكس الجنوبيين فإن من واجبهم أن يكونوا بذرة الوحدة الصربية ـ البلغارية والخطوة الأولى نحو إقامة **يوغوسلافيا الكبرى** الحقيقية.

إلى هذه النتائج يؤدي التحليل الجيوبولتيكي الرصين للمشكلة اليوغوسلافية. وطبيعي أن من الصعب الاحتفاظ بالتفكير المتعقل داخل هَوْل حرب الأشقاء المريعة، فجداول الدماء لا تحرك في القلوب إلا الحقد وشهوة الانتقام. ولكن ربما تيسَّر للتحليل المتعقل البارد لوحده في بعض الأحيان، والذي يضع في حسبانه، الجذور التاريخية والقوانين الجيوبولتيكية، أن يقترح المخرج الصحيح من مأزق حرب الأشقاء الدموية، لأن التضامن العاطفي مع أولاء أو هؤلاء لن يؤدي إلا إلى لا مخرجية الكابوس الدموي ـ وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذا التحليل يظهر بوضوح أن العدو الحق الذي يثير كل هذه المذبحة العرقية بين السلافيين يبقى وراء الستار مُؤثراً أن يراقب عن بعد شعباً سلاڤياً يدمر شعباً سلاڤيا آخر ويبذر بذور الشقاق مغلقاً لسنوات طويلة إمكانية الاتحاد والسلام بين الأشقاء، مدمراً

المجال الكبير للقارة الأعظم قوةً، والمفتتة في الوقت الحاضر.

والمبادر الحقيقي للمذبحة اليوغوسلافية هو **قوى الغرب الأطلسية** التي تهتدي بشعار ـ «في معسكر الأعداء ينبغي أن نحرش بعضهم على بعض وأن نحول بكل صورة دون التوحد، دون التحالف ودون وحدة الأشقاء». وهذا ما ينبغي أن يفهمه جميع المشاركين في الحرب اليوغوسلافية المعقدة في سبيل أوروبا، وذلك لكي لا تتحول بصفة نهائية حرباً ضد أوروبا.

5 ـ 8 صربيا ـ هي روسيا

تكتسب الأحداث اليوغوسلافية أهمية إضافية لأن سيناريو حرب قارية كبرى يمكن أن تندلع في روسيا، يدور فوق أنموذج بلد بلقاني صغير. ولجميع القوى الجيوبولتيكية المشاركة في نزاع البلقان نظائرها في روسيا ولكن في أحجام مَدَوية أكبر إلى درجة لا يمكن مقارنتها. فالكروات والسلوفينيون الذين يطمحون إلى الدخول في أوروبا لهم نظراؤهم الجيوبولتيكيون ـ من الأوكرانيين على الرغم من أن قرابة هؤلاء مع روسيا الكبرى تعود بتاريخها لا لبضع عشرات من السنين بل لبضع عشرات من القرون، ولم تُعرف هنا أية مماحكات طائفية باستثناء الأونيات والأوكرانيين الكاثوليك. ومهما يكن من أمر فإننا إذا ما حكمنا وفقاً لتوجهات معينة نجد بعض قوى كييف قد بدأت «تضيق بالشرق الروسي» وتتطلع إلى التقارب مع المدى الأوروبي الذي تهيمن عليه ألمانيا اقتصادياً. ويمكن للروس وغيرهم من القوميات القاطنة في أوكرانيا أن يصبحوا رهائن السياسة «الأوروسطوية» لهذه الجمهوريات وفي هذه الحالة يصبح مصيرها شبيهاً بمصير الصرب في كرواتيا.

هذه المقارنة تكشف، بالإضافة إلى كل ما سبق، أن على روسيا، في علاقاتها الجيوبولتيكية والدبلوماسية مع أوكرانيا وبيلوروسيا أن تهتدي بفهمها الجذري لمشكلة **أوروبا الوسطى**، أي ألمانيا بالدرجة الأولى. ولكي نكون واقعيين في طرح هذه المشكلة علينا أن ننطلق في حلها لا من الشعارات الانفعالية المتعلقة بـ «وحدة الأشقاء في الدم ـ السلافيين» (أما الصورة التي تتخذها هذه الوحدة فيمكن أن نقتنع بها من خلال أنموذج المذبحة الصربية ـ الكرواتية)، بل من خلال منطق التحليل العميق للعلاقات الروسية ـ الألمانية، فلا أوكرانيا ولا حتى بولندة ـ

تمثل تشكلاً جيوبولتيكياً مستقلاً بل هما مجرد مناطق حدودية بين مجالين كبيرين - الأوراسية - روسيا وأوروبا الوسطى. وليس لنا أن ننسى أن النزاع في هذه المنطقة الحدودية يعود بفائدة خارقة للعادة على القوة الجيوبولتيكية الأخرى - الغرب. فليس من قبيل الصدفة أن تنظر الدبلوماسية الانجلوساكسونية دوماً إلى هذه المناطق جميعاً، من رومانيا وحتى البلطيق، على أنها «نطاق صحي» يحمي الغرب (والعالم الانجلوساكسوني بالذات) من الحلف الروسي - الألماني غير المرغوب فيه حتى الحدود القصوى.

والنزاع الصربي مع المسلمين شبيه بالمواجهة الروسية - الإسلامية الممثلة في آسيا الوسطى وفي القوقاز، وفي هذه الحالة تمثل الجمهوريات الإسلامية التي كانت داخلة في عداد الاتحاد السوفياتي منطقة نفوذ جيوبولتيكي تنافسي بين تركيا وإيران. ومثلما كان الأمر في حالة المسلمين اليوغوسلاف تظهر هذه المقارنة أن الجمهوريات المتوجهة نحو إيران ذات حظ أكبر في الانتقال إلى الهارمونية الجيوبولتيكية مع المعسكر الروسي الأساسي للقارة الأوراسية. وعلى العكس من ذلك فإن العامل الجيوبولتيكي لتركيا والذي يلعب في الوقت الحالي دور دليل السياسة الأطلسية في هذه المنطقة، مقترن بالضرورة مع الأوضاع الدراماتيكية المرتبطة بالنزاعات.

ومن خلال مثال يوغوسلافيا يتبين لنا **ما** الذي يهدد روسيا في مسيرة مشابهة للأحداث، والحقيقة القائلة بأن هذه الأحداث ستتحول حقيقة في اتجاه واحد لم تعد اليوم تثير الشك لدى أحد. والفارق فقط في السرعة التي تتزايد كلما كانت المساحة أضيق والشعوب أقل عدداً. ولكي نحول دون وقوع «يوغوسلافيا» مهولة في روسيا - مريعة بأبعاد مذبحتها الدامية ونتائجها فعليا قبل كل شيء أن نقدم الإجابة عن الأسئلة الجيوبولتيكية الجذرية، وأن نحدد الاستراتيجية القارية الروسية، التي يجب أن تهتدي بمعرفة التقليد السياسي الروسي وفهم المهام الجيوبولتيكية الأساسية لروسيا - الأوراسيا، «**للمحور** الجغرافي **للتاريخ**» . وإزاء ذلك فإن الحركة بقوة الاستمرار، والتتبع السلبي لمسيرة الأحداث القدرية، لن يكون فقط مدمراً لمجموع نظام الأمن القاري فحسب بل ومحفوفاً أيضاً بخطر هلاك البشرية بأجمعها.

من الجغرافيا المقدسة إلى الجيوبولتيكا

6 ـ 1 الجيوبولتيكا ـ «عِلْم بَيْني».

صارت النظم الجيوبولتيكية منذ زمن بعيد عاملاً بالغ الأهمية في السياسة المعاصرة. فهي تبنى على الأسس العامة التي تسمح بسهولة بتحليل وضعية أي بلد بمفرده وأية منطقة بمفردها.

والجيوبولتيكا بالمظهر الذي تبدو فيه اليوم ـ علم علماني دون شك، «دَنِس»، دنيوي. ولكن ما كان هذا العلم بالذات الوحيد بين جميع العلوم الأخرى، الذي حافظ في داخله على العلاقة الأكبر مع **الموروثات** ومع العلوم التقليدية. وقد أشار رينيه غينون إلى أن الكيمياء الحديثة هي نتيجة نزع القداسة عن علم الخيمياء التقليدية، والفيزياء المعاصرة ـ نزع القداسة عن السحر. وبمثل ذلك يمكننا القول إن الجيوبولتيكا المعاصرة ـ هي نتيجة العلمانية، نزع القداسة عن علم تقليدي آخر ـ هو الجغرافيا المقدسة. ولكن بما أن الجيوبولتيكا تلعب دوراً خاصاً بين العلوم المعاصرة وكثيراً ما ينسبونها إلى «العلوم الزائفة» فإن دناستها لا تبدو على نفس المستوى من الكمال والتعذر على الصلاح كما هو الأمر بالنسبة للكيمياء والفيزياء. ولهذا يمكننا القول إن الجيوبولتيكا تشغل وضعاً بينياً بين العلم التقليدي (الجغرافيا المقدسة . . وبين العلم الدنس).

6 ـ 2 البر والبحر

مفهومان انطلاقيان في الجيوبولتيكا ـ **البر والبحر** وهاتان العفويتان بالذات ـ

اليابسة والماء ـ مركوزتان في أساس التصور النوعي للإنسان عن المدى الأرضي. ففي معاناة البر والبحر، اليابسة والماء، يتفاعل الإنسان مع الآفاق الأساسية لوجوده. اليابسة هي الاستقرار، الكثافة، التركيز، المدى المكاني كما هو. والماء هو الحركية، الليونة، الديناميكية، الزمن.

هاتان العفويتان هما التجليان الأكثر وضوحاً للطبيعة الملموسة للعالم. وهما خارج الإنسان: كل ما هو كثيف وسائل. وهما في داخله أيضاً، الجسد والدم (والأمر نفسه على مستوى الخلية).

وعالمية معاناة الأرض والماء تولّد التصور التقليدي **لليبوسة السماوية**، فوجود المياه العليا (منبع المطر) في السماء يفترض أيضاً وجود العنصر الموازي المؤكد ـ الأرض، اليابسة، القلعة السماوية .. ومهما يكن فإن الأرض، البحر، المحيط هي الأصناف الأهم في الوجود الأرضي ولا يمكن للإنسانية ألا ترى فيها بعض الخصائص الأساسية للبناء الكوني. وهما كمصطلحين أساسيين للجيوبولتيكا يحتفظان بمعناهما بالنسبة للحضارات ذات النمط التقليدي كما هو بالنسبة للحكومات والشعوب المعاصرة والمعسكرات الإيديولوجية. أما على مستوى الظواهر الجيوبولتيكية الكونية فقد ولدت **اليابسة والبحر** مصطلحي التالاسوكراتيا والتيلّوروكراتيا، أي «القوة عن طريق البحر» و «القوة عن طريق البر».

وكل دولة وكل إمبراطورية تقيم قوتها على التطوير التفضلي لواحد من الصنفين. والإمبراطوريات تكون «تالاسوكراتية» أو «تيلوروكراتية». وتفترض الأولى وجود المتروبولات والمستعمرات ـ والثانية ـ وجود العاصمة والأطراف «على الأرض المشتركة». والأراضي في حالة «التالاسوكراتية» ليست مجمعة في مدى يابسي موحد، وهو ما يخلق عامل التقطع. والبحر ـ مكان القوة والضعف بالنسبة «للقوة التالاسوكراتية». أما «التيلوروكراتيا» فتتميزّ، على عكس ذلك، بخاصية التماسك الترابي.

إلا أن المنطق الجغرافي والكوني سرعان ما يعقِّدان ما يتراءى نظاماً سهلاً لهذا التقسيم: فالثنائي «الأرض ـ البحر» يطرح لدى تطبيق عناصر كل منهما على الآخر فكرتي «الأرض البحرية» و «الماء الأرضي». والأرض البحرية ـ هي الجزيرة، أي أساس الإمبراطورية البحرية، قطب التالاسوكراتية. والماء الأرضي أو

ماء البر ـ هو الأنهار التي تحدد تطور الإمبراطورية البرية. فعلى النهر بالذات تتوضع المدن، وهذا ما يعني العاصمة أيضاً، قطب التيلوروكراتيا. وهذا التناظر يبدو رمزياً واقتصادياً وجغرافياً في وقت واحد. ومن المهم الإشارة إلى أن وضع الجزيرة **والقارة** لا يتحدد على أساس حجمها الفيزيائي بقدر ما يتم ذلك على أساس خاصية الوعي النموذجي للسكان. فجيوبولتيكا الولايات المتحدة تحمل طابعاً جزيرياً بغض النظر عن أحجام **أمريكا الشمالية** بينما تمثل اليابان الجزيرية من الناحية الجيوبولتيكية أنموذج العقلية القارية وهكذا.

وهناك نقطة أخرى ذات أهمية: فالتالاسوكراتيا مرتبطة تاريخياً بالغرب وبالمحيط الأطلسي، والتيلوروكراتيا ـ **بالشرق** والقارة الأوراسية. (ومثال اليابان الذي سلف وروده يفسّر في هذه الحالة بـ «الجاذبية» الأقوى، بتأثير الأوراسية).

صارت التالاسوكراتيا والأطلسية مترادفين قبل وقت طويل من توسع بريطانيا العظمى الاستعماري أو الفتوحات البرتغالية ـ الإسبانية. ومنذ فترة سابقة لبداية موجة الهجرات البحرية كانت شعوب **الغرب** وثقافاته قد بدأت زحفها إلى **الشرق** انطلاقاً من مراكز متوضعة على الأطلسي كما إن استيطان البحر الأبيض المتوسط تم من جبل طارق فإلى الشرق الأدنى وليس العكس. وعلى العكس من ذلك تكشف الحفريات في سيبيريا الشرقية ومنغوليا عن أن الأراضي المركزية للقارة كانت بالذات مهد الإنسانية الأوراسية.

6 ـ 3 رمزية السطح الأرضي

وبالإضافة إلى الصنفين الكونيين ـ **البر والبحر** ـ تتعامل الجيوبولتيكا مع تعاريف أكثر خصوصية. فبين الوقائع التالاسوكراتية يتم الفصل بين التشكلات البحرية والمحيطية. فحضارة البحرين الأسود والأبيض المتوسط تختلف بطبيعتها عن حضارة المحيطات أي الدول الكبرى الجزيرية والشعوب التي تستوطن شطآن المحيطات المفتوحة. وتتخذ الحضارات النهرية والبحيرية والمرتبطة بالقارات تقسيماً أكثر خصوصية.

وللتيلوروكراتية أيضاً أشكالها الخاصة بها. فيمكننا أن نميّز حضارة **السهب** وحضارة **الغابة**، حضارة **الجبال** وحضارة **الوديان**، حضارة الصحراء وحضارة

الجليد. وتنويعات السطح الأرضي تفهم ضمن الجغرافيا المقدسة كمركبات رمزية ترتبط بخصوصية الإيديولوجية الحكومية والدينية والأخلاقية لهذه الشعوب أو تلك. وحتى عندما نتناول الموضوع من خلال ديانة عالمية مسكونية فإن تجليها المحدَّد لدى هذا الشعب أو العرق أو الدولة أو ذاك لا بد وأن يخضع للتكيف طبقاً للسياق المحلي الجغرافي المقدس.

الصحارى والسهوب هي عالم الرحّل الجيوبولتيكي المصغّر. ففي الصحارى والسهوب بالذات تبلغ الاتجاهات التيلوروكراتية ذراها فعامل «الماء» قد أوصل هنا إلى حدّه الأدنى. ومن المنطقي أن تكون امبراطوريات **الصحراء والسهب** بالذات الجسر الجيوبولتيكي للتيلوروكراتيا.

ويمكننا اعتبار امبراطورية جنكيزخان. أنموذج امبراطورية السهب أما الأنموذج المميّز لامبراطورية الصحراء فيمكن اعتباره امبراطورية الخلافة العربية التي ظهرت تحت التأثير المباشر للبدو الرحل.

أما الجبال وحضارات الجبال فهي في أغلبها تشكلات قديمة مكونة من قطع. والدول الجبلية ليست فقط بعيدة عن أن تكون بؤراً للتوسع بل، وعلى العكس من ذلك تلوذ إليها ضحايا التوسع الجيوبولتيكي للقوى التيلوروكراتية الأخرى. وما قامت أي امبراطورية إلا وجعلت المناطق الجبلية مركزاً لها. من هنا يصدر اللحن الذي يتردد كثيراً في الجغرافيا المقدسة: «الجبال مسكونة بالشياطين». ومن ناحية أخرى فإن فكرة الاحتفاظ في الجبال ببقايا العروق والحضارات القديمة تتجلى في كون المراكز المقدسة للتقاليد قد توضعت ضمن الجبال دون سواها. بل ويمكن القول إن الجبال في التيلوروكراتيا تُنسب إلى نوع من السلطة الروحية.

وقد صارت الهضبة ـ أي المرتفع غير الشاهق، الذي يتوسط الجمع المنطقي بين هذين التصورين ـ الجبال كصورة كهنوتية والسهل كصورة ملكية. فالهضبة ـ رمز السلطة الملكية تشمخ فوق المستوى الدنيوي للسهب، لكنها لا تتجاوز حدود مصالح ذوي السلطان (كما هو الأمر في حالة الجبال). الهضبة مكان إقامة الملك، الدوق، الإمبراطور ولكن لا الكاهن. وجميع عواصم الإمبراطوريات التيلوروكراتية الكبرى تتوضع على هضبة أو هضاب (كثيراً ما تكون سبعة ـ بعدد الكواكب؛ أو خمسة ـ بعدد العناصر بما في ذلك الأثير، وما إلى ذلك).

والغابة في الجغرافيا المقدسة قريبة، إلى حد ما، من الجبال. ورمز الشجرة يرتبط بصلة القربى برمز الجبل (وهذا وذاك يعني مركز العالم) ولهذا تؤدي الغابة في التيلوروكراتيا مهمة جانبية أيضاً ـ فهي بالإضافة إلى ذلك «مقر الكهنة» (الدّرويْد، الڤولخڤي(*) والنسّاك) إلا أنها في الوقت نفسه «مقرّ الشياطين» أي البقايا القديمة للماضي الذي اندثر. كما إن المنطقة الغابية لا يمكن أيضاً أن تكون مركز امبراطورية قارية.

وتمثل التوندرا النظير الشمالي للسهب والصحراء ـ إلا أن طقسها البارد يجعلها من الناحية الجيوبولتيكية أقل قيمة بكثير من حيث الأهمية. وهذه «الطرفيّة» في المرتبة تصل إلى ذروتها في مناطق الجليد التي، مثلها مثل الجبال، تمثل مناطق الإيغال في القدم. ومما له مغزاه أن التقليد الشاماني لدى الاسكيمو يفترض العزلة المنفردة في جلاميد الجليد حيث يتكشف العالم الآخر لشامان المستقبل. وهكذا فإن جلاميد الجليد ـ منطقة كهنوتية، عتبة العالم الآخر.

وبالأخذ بهذه السمات الأساسية والأكثر عمومية للخارطة الجيوبولتيكية يمكننا تحديد مناطق العالم المختلفة طبعاً لخصوصيتها القداسية. وهذا المنهج يتفق أيضاً مع الخصائص المحلية للسطح الأرضي على مستوى البلد الواحد بل والأقليم الواحد. كما ويمكن أيضاً تتبع التشابه بين الايديولوجيات والتقاليد لدى الشعوب التي تبدو الأكثر تبايناً في حالة ما إذا كانت التضاريس الخارجية لموقع عيشها واحدة.

6 ـ 4 الشرق والغرب في الجغرافيا المقدسة.

في سياق الجغرافيا المقدسة تتخذ حركات العالم طابعاً نوعياً خاصاً. ففي

(*) الدّرويْد: (Druides ـ باللاتينية) كهنة الكلت القدامى. كانوا يكهنون عن طريق النظر في الأضاحي، كما كانوا ينهضون بمهمات القضاء بالإضافة إلى كونهم معلمين وأطباء ومتنبئين بما يكون.

الڤولخڤي: كهنة الطقوس ما قبل المسيحية في روسيا القديمة، والمتنبئون بالمستقبل وقراءة الطالع والنجوم. شاركوا بين القرنين العاشر والحادي عشر في التحركات الشعبية الداعية إلى التحرر من الظلم في بلادهم (المترجم).

التقاليد المختلفة وخلال المراحل المختلفة لهذه التقاليد يمكن للجغرافيا المقدسة أن تتبدل طبقاً للمراحل الدورية لتطويرها لهذا التقليد. وكثيراً ما تتبدل إزاء ذلك الوظيفة الرمزية لاتجاهات العالم. وبدون الدخول في التفاصيل يمكننا صياغة القانون الكوني الأهم للجغرافيا المقدسة مطبقاً على الشرق والغرب.

في الجغرافيا المقدسة، وعلى أساس من «الرمزية الكونية» يعد الشرق أرض الروح، أرض الجنة، أرض الكمال والفيض، «موطن» المقدس في صورته الأكمل والأسمى. وتتخذ هذه الفكرة انعكاسها بشكل خاص في الكتاب المقدس حيث يدور الحديث عن التوضع الشرقي لـ«جنّة عدن». ومثل هذا الفهم مميّز أيضاً للتقاليد الإبراهيمية الأخرى (الإسلام واليهودية)، كما بالنسبة لتقاليد كثيرة غير إبراهيمية ـ كالصينية والهندوسية والإيرانية. «**الشرق** ـ موطن الآلهة» تقول كلمة قدماء المصريين المقدسة بل إن كلمة «**الشرق**» (وهي «نيتر» بالمصرية) كانت في البداية تعني «الإله» و «**الشرق**» من وجهة نظر الطبيعة ـ المكان الذي تبزغ «تشرق» فيه الشمس، **نور العالم**، الرمز المادي للألوهية والروح.

ويتخذ **الغرب** معنى رمزياً متناقضاً بصورة مباشرة. إنه «أرض الموت»، «عالم الموتى»، «الأرض الخضراء» (حسبما أسماها قدماء المصريين). **الغرب** ـ «مملكة المغترب»، «بئر الغربة» وفق تعبير الصوفيين الإسلاميين. **الغرب** هو «نقيض ـ **الشرق** بلاد «الغروب»، السقوط، التحلل، الانتقال من الظاهر إلى الباطن، من الحياة إلى الموت، من الشبع إلى الفقر، وما إليه. **الغرب** ـ المكان الذي تغرب فيه الشمس، حيث (تسقط ـ وراء).

طبقاً لمنطق الرمزية الطبيعية الكونية هذه نظمت التقاليد القديمة «مجالها المقدس» وأقامت مراكز عبادتها ومدافنها، ومعابدها، ومبانيها، وفسّرت الخصائص الطبيعية و «الحضارية» للمناطق الجغرافية والثقافية والدولية للكرة الأرضية. وعلى هذا الأساس فإن بنية الهجرات والحروب والحملات العسكرية وموجبات الهجرة وبناء الإمبراطوريات وما إلى ذلك يتحدد وفقاً للمنطق القياسي للجغرافيا المقدسة. ووفقاً لمحور **الشرق ـ الغرب** تراصفت الشعوب والحضارات، التي اتخذت خصائص تراتبية ـ فكلما ازداد الاقتراب من **الشرق** ـ زاد الاقتراب من المقدس، من التقاليد، من الغنى الروحي. وكلما ازداد الاقتراب من الغرب، زاد الانحطاط، الانحلال وإماتة **الروح** .

ومن الطبيعي أن ذلك المنطق لم يتخذ صفة الإطلاق لكنه في الوقت نفسه ما كانَ ثانوياً ولا نسبياً ـ على حسب ما يتوهم الكثيرون من «الجهلة» بأمور الديانات والتقاليد القديمة. أما في واقع الحال فإن المنطق القداسي واقتفاء أثر الرمزية الكونية كان قد تم وعيهما وتفسيرهما لدى الشعوب القديمة بصورة أعمق بكثير مما هو دارج اليوم حتى في عالمنا المناوىء للقداسة، وعلى مستوى «اللاوعي» فإن أنماط الجغرافيا السياسية وبصفة دائمة تقريباً تبقى كاملة وتنبعث في اللحظات الأكثر أهمية وحرجاً من الهزات الإجتماعية.

وعلى هذا فإن الجغرافيا المقدسة تفرض قانون «المدى النوعي» والذي يمثل فيه الشرق «الزائد الانطولوجي» الرمزي، أما **الغرب** فيمثل «الناقص الانطولوجي».

و «**الشرق**» وفقاً للتقليد الصيني هو اليان، المبدأ المذكر، المنير، الشمسي، أما «**الغرب**» فهو ـ الاين، المبدأ المؤنث، المظلم، القمري.

6 ـ 5 الشرق والغرب في الجيوبولتيكا المعاصرة.

فلنتأمل الآن انعكاس هذا المنطق الجغرافي المقدس في الجيوبولتيكا والتي تبدو علماً شديد العصرية، لا يرصد سوى الوضع الحقيقي للأمور، تاركاً المبادىء المقدسة نفسها خلف الستار.

فالجيوبولتيكا في صيغتها الانطلاقية لدى راتسيل ـ تشيلّين وماكيندر (ثم لدى هاوسهوفر والأوراسيين الروس) كانت ترتد عن خصائص الأنماط المختلفة للحضارات والدول وفقاً لتوضعها الجغرافي. وقد ضبط علماء الجيوبولتيكا حقيقة التباين الجذري بين الدول الجزيرية والدول القارية، بين الحضارة «الغربية»، «التقدمية» و «الصيغة الثقافية» «الشرقية»، «الاستبدادية» و «العتيقة». وما دامت مسألة الروح في مفهومها الميتافيزيكي المقدس لا تطرح ألبتة في العلم المعاصر فإن علماء الجيوبولتيكا يتركونه جانباً مؤثرين تقييم الوضع من خلال مصطلحات تتجاوز في عصريتها مفاهيم «المقدس» و «الدنس»، «التقليدي» و «غير التقليدي» وما إلى ذلك.

ويرصد علماء الجيوبولتيكا الفرق المبدئي للتطور الحكومي، الثقافي والصناعي لمناطق **الشرق** ومناطق **الغرب** في القرون الأخيرة. وتظهر اللوحة في

هذه الصورة. **الغرب** هو مركز التطور «المادي» و «التقني». وعلى المستوى الثقافي ـ الإيديولوجي تهيمن فيه التوجهات الليبرالية ـ الديموقراطية والنظرة الفرديّة الإنسانية. وعلى المستوى الاقتصادي تعطى الأولوية للتجارة والتحديث التقني. وفي **الغرب** بالذات ظهرت لأول مرة نظريات «التقدم»، «الارتقاء» و «التطور الارتقائي للتاريخ» والغريبة كل الغربة عن العالم التقليدي **للشرق** (وعن تلك المراحل من تاريخ **الغرب** عندما كانت توجد فيه أيضاً التقاليد المقدسة الكاملة على نحو ما كانت الأمور عليه في العصور الوسطى بشكل خاص). والإكراه على المستوى الاجتماعي اكتسب في **الغرب** طابعاً اقتصادياً بحتاً بينما استبدل قانون الفكرة والقوة بقانون المال. وبصفة تدريجية انسكبت خاصية «أيديولوجية **الغرب**» في المعادلة الشاملة «أيديولوجية حقوق الإنسان» والتي صارت المبدأ المسيطر في المنطقة المتطرفة حتى أقصى غرب الكرة الأرضية ـ أمريكا الشمالية والولايات المتحدة بالدرجة الأولى. أما على المستوى الصناعي فتوافقت هذه الايديولوجيا مع فكرة «الدول المتطورة» ومع نظرية «السوق الحرة» «الليبرالية الاقتصادية» على المستوى الاقتصادي. ومجموع هذه الصفات مضافة إلى التوحيد الاستراتيجي العسكري البحت، لمختلف قطاعات حضارة الغرب تجتمع اليوم تحت مفهوم «الأطلسية». وفي القرن الماضي كان علماء الجيوبولتيكا يتحدثون عن «نمط الحضارة الانغلوساكسوني» أو «الديموقراطية الرأسمالية البورجوازية». وفي هذا النمط «الأطلسي» وجدت تجسيدها الأكثر صفاء معادلة «**الغرب** الجيوبولتيكي».

والشرق الجيوبولتيكي يمثل النقيض المباشر **للغرب** الجيوبولتيكي. فبدلاً من تحديث الاقتصاد تهيمن عليه الصيغ التقليدية المهترئة للصناعة ذات النمط التعاوني المنجمي (الدول النامية). وعوضاً عن الإكراه الاقتصادي غالباً ما تلجأ الدولة فيه إلى استخدام الإكراه «الخلقي» أو ببساطة الجسدي (قانون الفكرة وقانون القوة). وبدلاً عن «الديموقراطية» و «حقوق الإنسان» يميل الشرق إلى الشمولية والاشتراكية والهيبة الفردية، أي نحو الأنماط المختلفة من النظم الاجتماعية التي لا يوجد بينها إلا شيء واحد وهو غياب «الفرد»، «الإنسان» بـ «حقوقه» وبـ «قيمه الفردية» البحتة وحضور شيء لا فردي، خارج عن الإنسان ـ سواء أكان «المجتمع» أم «الأمة»، «الشعب»، «الفكرة»، «الرؤية»، «الدين»، «عبادة القائد» أو ما إلى ذلك. وقد واجه الشرق الديموقراطية الغربية الليبرالية بأكثر الأنماط اختلافاً من المجتمعات غير

الليبرالية، غير الفردية ـ بدءاً من الملوك المستبدين، وحتى التيوقراطية أو الاشتراكية. وإلى جانب ذلك فإن الخاصية السياسية لهذا النظام أو ذاك، كانت، من وجهة النظر الجيوبولتيكية النمطية البحتة، ثانويةً بالمقارنة مع التقسيم النوعي إلى بناء «غربي» (= «فردي ـ تجاري») وبناء «شرقي» (= «لا فردي ـ قسري»). والصيغ النموذجية لمثل هذه الحضارة المعادية للغرب كانت الاتحاد السوفياتي، الصين الشيوعية، اليابان حتى سنة 1945 أو إيران الخميني.

ومما هو مثير للفضول أن رودولف تشيلّين، المؤلف الذي كان أول من استخدم مصطلح «الجيوبولتيكا» قد استعرض الفرق بين الغرب والشرق على هذه الصورة إذ كتب: «**كلمة الأمريكي النموذجية هي** «go ahead»وهي ما تعني حرفياً «إلى الأمام». وفي هذا ينعكس التفاؤل الجيوبولتيكي الداخلي والطبيعي و «تقدمية» الحضارة الأمريكية، التي تعد الصيغة النهائية للأنموذج الغربي. أما الروس فعادةً ما يرددون كلمة « **ничего** »[*] نِتشِڤو (وردت بالروسية في نص تشيلّين ـ المؤلف)، وينعكس في هذا ما يتسم به الشرق من «التشاؤمية»، «التأملية» «القدرية» و «التمسك بالتقاليد».

فإذا عدنا الآن إلى مقياس الجغرافيا المقدسة لوجدنا التناقض المباشر بين أولويات الجيوبولتيكا المعاصرة (مفاهيم مثل «التقدم»، «الليبرالية»، «حقوق الإنسان» و «النظام التجاري» وما إلى ذلك صارت اليوم إيجابية بالنسبة للغالبية أو بين أولويات الجغرافيا المقدسة التي تقيم أنماط الحضارة من وجهة نظر مناقضة تماماً (فمفاهيم مثل «الروح»، «التأمل» «الخضوع لقوة فوق إنسانية أو لفكرة فوق إنسانية»، «الإيديوكراتيا» وما إلى ذلك كانت في الحضارة المقدسة إيجابية تماماً وتبقى بهذه الصفة حتى الآن بالنسبة لشعوب الشرق على مستوى «لا وعيها الجماعي».) وعلى هذا فإن الجيوبولتيكا المعاصرة (باستثناء الأوراسيين الروس، وتابعي هاوسهوفر من الألمان، والأصوليين الإسلاميين) تقيم لوحة العالم بصورة مناقضة تماماً لما تراه الجغرافيا المقدسة. وإزاء ذلك فإن العِلْمين يلتقيان في توصيفهما للقوانين الجذرية للمشهد الجغرافي للحضارة.

(*) هذه الكلمة الروسية تعني «لا بأس» لا عليك، «لا تثريب» (المترجم).

6 ـ 6 الشمال المقدّس والجنوب المقدّس.

وإلى جانب الحتمية الجغرافية ـ المقدسة وفقاً لمحور **الشرق ـ الغرب** فإن مما هو على غاية الأهمية قضية محور عمودي آخر ـ محور **الشمال والجنوب** وهنا، وعلى ما هو الأمر في جميع الحالات الأخرى تكتسب مبادىء الجغرافيا المقدسة ورمزية جهات الكون وما يتطابق معهما من القارات، تناظراً مباشراً في الخارطة الجيوبولتيكية للعالم التي إما أن تتشكل بطريقة طبيعية من خلال العمليات التاريخية أو أن تبنى بصورة واعية أو مصطنعة بنتيجة المسالك الموجهة لقادة هذه التشكيلات الجيوبولتيكية أو تلك. والفرق بين «المصطنع» والطبيعي نسبي جداً من وجهة نظر «التقليدية التكاملية» لأن التقليد ما عرف قط شيئاً مشابهاً للثنائية الكارتيزيانية(*) أو الكانتية التي تفصل بصرامة بين «الذاتي» و «الموضوعي» («الحادث» و «الاسمي»). ولهذا فإن الحتمية القداسية **للشمال أو الجنوب** ليست مجرد عامل فيزيائي، طبيعي، أو ترابي ـ مناخي (أي «موضوعي») أو مجرد «فكرة» أو «تصور» ولّدته عقول هؤلاء أو أولاء من الأفراد (أي شيء «ذاتي») بل هي شيء ثالث يتجاوز القطب الموضوعي والذاتي معاً. فيمكن القول إن الشمال المقدس، النموذج البدئي للشمال يتشعب في التاريخ إلى سطح ترابي طبيعي شمالي من جهة وإلى فكرة الشمال «النورديزم» من جهة أخرى.

إن الطبقة البدئية الأقدم للتقليد تفرض أولوية **الشمال** على **الجنوب** فرمزية الشمال ذات علاقة بالنبع، بالجنة النوردية الأولى، والتي منها تستمد الحضارة الإنسانية كلها بدايتها. والنصوص الإيرانية القديمة والزرادشتية تتحدث عن البلاد الشمالية «آريانا ڤايدْجا» وعاصمتها «ڤارا» والتي أُخرج منها الآريون القدماء بفعل التجمد الذي سلّطه عليهم أهريمان، روح الشر وعدو أهورامزدا المشرق. والڤيد القدماء يتحدثون أيضاً عن بلاد **الشمال** كوطن أول للهندوس، وعن **سڤيتادڤيب**،

(*) الكارتيزيانية: اتجاه في الفلسفة الطبيعية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، يعود بمنبعه إلى أفكار (Descartes ـ ديكارت)، رينيه (1596 ـ 1650) واسمه باللاتينية Cartesius ومنه جاءت تسمية الكارتيزيانية. وتقول هذه الفلسفة بالثنائية أي تقسيم العالم الفكري إلى جوهرين ـ موثوقية الوعي (أنا أفكر فأنا إذن موجود) ونظرية الأفكار الفطرية (المترجم).

الأرض البيضاء، الممتدة في أقصى الشمال.

وقد تحدث اليونانيون القدماء عن هيبيربوريا، الجزيرة الشمالية وعاصمتها تولا. وعُدَّت تلك الأرض موطن الإله أبولون مرسل النور. وفي كثير من التقاليد الأخرى يمكن أن نتلمس آثار الرمزية النوردية الأقدم والتي كثيراً ما طواها النسيان وصارت فتاتاً. أما الفكرة الأساسية المرتبطة تقليدياً **بالشمال** فهي فكرة المركز، **القطب الراسخ**، نقطة **الأبدية**، والتي لا يدور حولها المدى فقط بل والزمن، الدورة. الشمال هو الأرض التي لا تغيب فيها الشمس حتى في الليل، مدى النور، النور الأبدي. وكل تقليد مقدس يوقر **المركز**، **الوسط**، النقطة التي تلتقي عندها النقائض، المكان الرمزي الذي لا يخضع لقوانين الانتروبيا(*) الكونية. إنه المركز الذي يرمز له **الصليب المعقوف** (الذي يؤكد السكون وسرمدية **المركز** وحركة وتبدل الأطراف)، والذي يسمى في كل تقليد بطريقة خاصة إلا أنه على الدوام كان يرتبط مباشرة أو بصورة غير مباشرة برمز **الشمال**. ولهذا يمكننا القول بأن جميع التقاليد المقدسة ما هي إلا إسقاطات للتقليد **البريموردیالي الشمالي الواحد** تم تكييفها مع هذه أو تلك من الشروط التاريخية. **الشمال** هو تلك الجهة من العالم اختارها **اللوغوس** الأول من أجل أن يتجلى في التاريخ ولم يزد كل تجل من تجلياته التالية على أن أعاد الرمزية القطبية ـ الفردوسية الأولى.

والجغرافيا المقدسة تربط **الشمال** بالروح، بالنور، بالطّهر، بالكمال، بالوحدة، بالأبدية.

أما الجنوب فيرمز إلى شيء مختلف كل الاختلاف ـ إنه المادية، الظلمة، الاختلاط، الحرمان، الكثرة، الغوص في تيار الزمن والتحول. وحتى من وجهة نظر الطبيعة فإن في المناطق القطبية **نهاراً** طويلاً واحداً يمتد نصف عام **وليلاً** واحداً طويلاً يمتد نصف عام. إنهما **نهار وليل** الآلهة والأبطال والملائكة. حتى إن التقاليد التي اضمحلت ذكرت هذه الجهة المقدسة الروحية الخارقة للطبيعة من **الشمال** وعدت المناطق الشمالية موطن «الأرواح» و «قوى العالم الآخر». **أما في الجنوب فالنهار والليل** يفتتان إلى عدد كبير من الأيام البشرية، وتضيع الرمزية

(*) الأنتروبيا: عامل رياضي يعتبر مقياساً للطاقة غير المستفادة في نظام دينامي حراري (المترجم).

الأولى للهيبيربوريا ويغدو استذكاره عامل «ثقافة»، و «مأثورات». ويُربط **الجنوب** في العادة بالثقافة أي بذلك الجانب من النشاط الإنساني الذي يكتسب فيه **اللامرئي والروحي الخالص** ملامحه المادية المخشوشنة ـ المرئية. **الجنوب** مملكة المادة، الحياة، البيولوجيا، والغرائز. **الجنوب يفكّك** طهارة التقليد، لكنه يحتفظ بآثارها في صورة اكتسبت ماديّتها».

ثنائية **الشمال ـ الجنوب** لا تؤدي في الجغرافيا المقدسة إلى التناقض المجرد بين **الخير والشر**. إنها أقرب إلى أن تكون تناقض الفكرة الروحية وتجسّدها المادي الفظ. وفي الحالة العادية وإزاء اعتراف **الجنوب** بأولوية **الشمال** تقوم بين هاتين الجهتين من جهات العالم علاقات متناغمة ـ **الشمال** ـ يلهم **الجنوب**، والرسل النورديون يهبون الجنوبيين التقليد، ويوطدون أسس الحضارات المقدسة. فإذا ما رفض الجنوب الاعتراف بأولوية الشمال بدأ التنازع المقدس، «حرب القارات»، هذا وإن الجنوب بالذات، من وجهة نظر التقليد، هو المسؤول عن هذا النزاع بتخطّيه حدود القوانين المقدسة. ففي «الرامايانا» على سبيل المثال تعد جزيرة لانْكا الجنوبية موطن الشياطين الذين خطفوا سيتا زوجة راما وأعلنوا الحرب على الشمال القاري من العاصمة آيدوهيا.

ومن المهم الإشارة في هذا الصدد إلى أن محور **الشمال ـ الجنوب** في الجغرافيا المقدسة يرجح في الأهمية على محور **الشرق ـ الغرب** ولكنه لما كان أكثر أهمية فإنه يُربط بالأدوار الأقدم من تاريخ الأحقاب فالحرب العظمى بين الشمال والجنوب، بين هيبيربوريا وهوندواندا (أرض **الجنوب** الباليو قديمة) تعود إلى عهود «ما قبل الطوفان». وتغدو في دورات الأحقاب الأخيرة أكثر سرية ـ ملفوفة بالغموض. ثم تتلاشى نفس قارات **الشمال والجنوب** الباليو قديمة نفسها. وتنتقل راية التنازع إلى الشرق والغرب.

استبدال محور الشمال ـ **الجنوب** العمودي بمحور **الشرق والغرب** الأفقي أمر مميّز بالنسبة للمراحل الأخيرة من دورة الأحقاب، ومع ذلك فهو يحتفظ بالرابطة المنطقية والرمزية بين هذين الثنائيين الجغرافيين ـ المقدسين. فثنائي **الشمال ـ الجنوب** أي **الروح ـ المادة، السرمدية الزمن** يجري إسقاطه على ثنائي الشرق ـ الغرب (أي **الأصالة والدنس، والمنبع والغروب. والشرق** هو الإسقاط الأفقي **للشمال** نحو الأسفل **والغرب** إسقاط **الجنوب** نحو الأعلى). ومن هذا النقل للمعاني

المقدسة يمكننا أن نحصل بسهولة على بنية الرؤية القارية، المميّزة بالنسبة **للموروث** .

6 ـ 7 أهل الشمال.

يتحدد الشمال المقدس بالنمط البشري الذي يمكنه أن يتخذ تجسده البيولوجي العرقي، ولكن يمكنه أن لا يتخذه. وجوهر «النوردية» يتميّز بقدرة الإنسان على ردّ كل تجسيد بيولوجي، عرقي إلى صورته البدئية، إلى فكرته. وهذه الخاصية لا تمثل تطويراً بسيطاً لبداية عقلانية. وعلى عكس ذلك فإن «العقل المحض» الكارتيزياني والكانتي هو العاجز عن استبعاد «الحدود الدقيقة» بين «الحادث» و «الاسمي» بطريقة طبيعية، إلا أن هذه الخاصية بالذات تثوي في أساس التفكير «النوردي» فإنسان الشمال ـ ليس مجرد «آري» أبيض أو هند أوروبي بالدم واللسان والثقافة. إنسان **الشمال** هو النمط الجوهري لمخلوق اختص بالحدس المباشر للمقدس. والكوسموس بالنسبة له ـ نسيج من الرموز يشير كل واحد منها إلى مبدأ أوّلي روحي خفي عن العين. إنسان **الشمال** ـ هو «الإنسان الشمسي» Sonnenmensch، الذي لا يستهلك الطاقة كالمخلوق الأسود، بل الذي ينتجها، الذي يفجر من داخل روحه تيارات الخلق والنور والقوة والحكمة.

اختفت الحضارة النوردية الصرفة باختفاء الهيبيربوريا، إلا أن رسلها بالذات أرسوا أسس جميع التقاليد الموجودة. و «عرق» **المعلّمين** النوردي هذا بالذات الذي كان يقف عند منابع الديانات والثقافات لشعوب جميع القارات وجميع ألوان البشرة. فيمكن العثور على آثار العبادة الهيبيربورية عند هنود أمريكا الشمالية والسلافيين القدماء وعند مؤسسي الحضارة الصينية، عند السكان الأوائل في المحيط الهادي ولدى الجرمان الشقر الشعور، ولدى الشامانات السود في أفريقيا الغربية ولدى الأزديك حمر البشرة والمنغول البارزي الوجنات. فليس ثمة شعب على وجه الأرض لا يملك أسطورة عن «الإنسان الشمسي Sonnenmensch الذكاء الروحي الأصيل ما فوق العقلاني، **واللوغوس** الإلهي والقدرة على النفاذ **عبر** العالم إلى روحه السرية ـ تلك هي الصفات المحدَّدة **للشمال** وحيثما توجد **الطهارة المقدسة والحكمة** يوجد الشمال غير مرئي ـ بغض النظر عن النقطة الزمانية أو المكانية التي نكون فيها.

6 ـ 8 أهل الجنوب.

إنسان الجنوب، هو النمط الهوندواندي ـ النقيض المباشر للنمط «النوردي». وإنسان الجنوب يعيش في وسط النتائج، التجليات الثنائية، فهو ينزل في الكوسموس الذي **يجلّه** ولكن لا **يفهمه**. فهو ينحني أمام الخارجي ولكن لا الداخلي. وهو بكل حرص يحتفظ بآثار الروحانية وتجسّدها في الوسط المادي ولكنه عاجز عن الانتقال من الرامز إلى المرموز. وإنسان الجنوب يعيش بالشهوات والاندفاعات وهو يضع الروحي أعلى من الروحاني (الذي بكل بساطة لا يعرفه) ويحترم **الحياة** على أنها المرحلة الأعلى. ويتسم إنسان الجنوب بعبادة **الأم الكبرى**، المادة، التي تولد التنوع الكبير للصيغ. حضارة **الجنوب** هي حضارة **القمر** الذي يستمد ضوءه من **الشمس** (الشمال) فيحتفظ به ويرسله لبعض الوقت، لكنه بصفة دورية يفقد الاتصال معه (الأهِلّة) **إنسان الجنوب** ـ Mondmensch.

وعندما يدخل أهل **الجنوب** في انسجام مع أهل **الشمال** أي يعترفون بقدرهم وبتفوقهم النمطي (لا العرقي) تسود الهارمونيا الحضارية. وعندما يتطلعون إلى ترئيس علاقتهم القدمية نحو الواقع يظهر النمط الثقافي المشوّه والذي يمكن تحديده عموماً **بعبادة الأوثان، بالفيتيشية أو الوثنية** (بالمعنى السلبي المهين لهذا المصطلح).

وكما هو الأمر في حالة الباليوقارّات فإن الأنماط الشمالية والجنوبية ما وجدت إلا في العهود السحيقة التقدم. فقد واجه أهل **الشمال** وأهل **الجنوب** أحدهما الآخر في العهود الأولى. وفيما بعد تغلغلت شعوب شمالية بكاملها في الأراضي الجنوبية فأقامت الحضارات «النوردية» الواضحة التعبير ـ إيران القديمة، الهند. ومن ناحية أخرى تغلغل الجنوبيون أحياناً مسافات بعيدة إلى الشمال حاملين معهم طرازهم الثقافي ـ الفنلنديون، الأسكيمو، والتشوكتشي وسواهم. ثم أخذ الصفاء الأول للبانوراما الجغرافية المقدسة يكبو بالتدريج. ولكن وبغض النظر عن كل شيء فإن الثنائية النمطية «لأهل **الشمال**» و«أهل **الجنوب**» ظلت باقية عبر جميع العصور وجميع الأحقاب ولكن لا كنزاع **خارجي** بين حضارتين مختلفتين بل كنزاع **داخلي** في إطار الحضارة الواحدة نفسها. وبداية من لحظة ما من التاريخ المقدس يواجه نمط **الشمال** ونمط **الجنوب** أحدهما الآخر في كل مكان بغض النظر عن مكان معين فوق الكوكب الأرضي.

6 ـ 9 الشمال والجنوب في الشرق والغرب

كان يمكن لنمط أهل **الشمال** أن يتم اسقاطه على الجنوب وعلى **الشرق** وعلى **الغرب**. ففي **الجنوب** ولّد **نور الشمال الحضارات الميتافيزيكية** الشبيهة بالهندية والإيرانية والصينية والتي حافظت في وضعية الجنوب «المحافظ» فترة طويلة على الكشف الذي ائتُمنت عليه. إلا أن بساطة الرمزية الشمالية ووضوحها تحولا هنا إلى شباك معقدة ومتنوعة من المقولات والطقوس والعبادات المقدسة. بيد أننا كلما ابتعدنا **جنوباً** كلما تضاءلت آثار **الشمال** والموتيفات «النوردية» في الميثولوجيا والطقوس تبقى لدى سكان جزر المحيط الهادي وأفريقيا الجنوبية في صيغة مجزوءة مستحاثة بل ومشوّهة.

في **الشرق** يتجلى **الشمال مجتمعاً تقليدياً كلاسيكياً** قائماً على تفوق ما فوق الفردي على الفردي، حيث يمّحي «الإنساني» و«العقلاني» أمام وجه المبدأ ما فوق الإنساني وما فوق القومي. وإذا كان الجنوبي يسم الحضارة بميسم «الثبوتية» فإن **الشرق** يحدد قداستها وأصالتها وضمانتها الرئيسة هي **نور الشمال**.

في **الغرب** يتجلى **الشمال** في المجتمعات البطولية، حيث من خصائص **الغرب** كغرب الميل إلى التفتيت، إلى الفردية والعقلنة قد تغلب على نفسه، والفرد عندما صار **بطلاً** خرج عن الأطر الضيقة للشخصية «الإنسانية ـ الإنسانية إلى ما فوق الحد»، وتم تشخيص **الشمال في الغرب** بشخصية هرقل الرمزية الذي يحرر، من جهة بروميثيوس (توجُّه «إنساني»، مصارع للآلهة، غربي محض)، ومن جهة أخرى يساعد زيوس والآلهة في الانتصار على العمالقة المتمردين (أي إنه يعمل لصالح الأعراف المقدسة **والنظام** الروحي).

وعلى العكس من ذلك يتم إسقاط **الجنوب** على كافة التوجهات الثلاثة مباشرة وبطريقة معاكسة. فهو في **الشمال** يطرح تأثير «القدم» و«الركود الثقافي» حتى تكتسب التقاليد «النوردية» الشمالية نفسها بتأثير العناصر الجنوبية «الباليو آسيوية»، «الفنلندية» و«الأسكيموسية» طابع «عبادة الأوثان» و«الفيتيشية». (وهذا مميّز بصفة خاصة للحضارات الجرمانية ـ السكاندينافية في «عصر السكالد»)(*).

(*) السّكالد: الشعراء في النرويج وإيسلندا بين القرنين التاسع ـ الثالث عشر. كانوا =

في **الشرق** تجسدت قوى **الجنوب** في **المجتمعات الاستبدادية** حيث اللامبالاة الشرقية الطبيعية والعادلة نحو الفردي تتحول إلى رفض للفرد ما فوق البشري. وكافة صور الشمولية في **الشرق** تربط نمطياً وعرقياً **بالجنوب**.

وأخيراً ففي **الغرب** يتجسد **الجنوب في صيغ الفردية اللامتناهية في فظاظتها وماديتها** وذلك عندما تصل الفرديات «النووية» حتى أقاصي حدود تعبيرها المعادي للبطولية من خلال ركوعها أمام «العجل الذهبي» للكومفورت والمتعة الأنانية. ومن البيّن أن مثل هذا الجمع بين التوجهين الجيوبولتيكيين المقدسين هو بالذات الذي يعطي النمط الأكثر تنفيراً للحضارة لأنه يتضمن توجهين يتوضع أحدهما فوق الآخر ـ وكل منهما سلبي في ذاته ـ **الجنوبي** عمودياً **والغربي** أفقياً.

6 ـ 10 من القارات إلى ما وراء القارات

إذا كان الشمال الرمزي يتطابق في المستقبل المنظور مع الآفاق الإيجابية للجغرافيا المقدسة والجنوب ـ مع الآفاق السلبية، ففي اللوحة الجيوبولتيكية المعاصرة يصبح كل شيء أكثر تعقيداً وحتى معكوساً في بعض الحدود. فالجيوبولتيكا المعاصرة تحت مصطلح **الشمال والجنوب** تفهم صفات كاملة أخرى غير الجغرافيا المقدسة.

أولاً: فقارة **الشمال** القديمة ـ الهيبيربوريا لم تعد منذ عدد كبير من آلاف السنين موجودة على المستوى الفيزيائي، وهي تبقى واقعاً روحياً تتجه النظرة الروحية نحوه.

ثانياً: أن العرق النوردي القديم، عرق «المعلمين البيض» الذين جاؤوا من القطب في العصر البريموردياليّ لا يتفق إطلاقاً مع ما درج اليوم على تسميته «بالعرق الأبيض» بالاستناد فقط إلى الخصائص الفيزيائية، إلى لون البشرة وما إلى ذلك. إن شمال الموروث وسكانه الأول «السكان النورديون الأصليون» لم تعد منذ زمن بعيد تمثل واقعاً تاريخياً ـ جغرافياً محدّداً. وتشير كافة الشواهد إلى أن آخر بقايا هذه الثقافة

= ينظمون الأغاني في الموضوعات الشعبية والبطولية وأشعار الهجاء لمحاربة المثالب البشرية. بقيت أشعارهم في صيغ نتف مجزوءة في الآثار الأدبية العائدة للقرن الثالث عشر. أشهرهم السكالد الأيرلندي إيغيل سكالاًغريمسون (القرن العاشر) (المترجم).

البريموردياليّة قد اختفت من الواقع الفيزيائي منذ بضع آلاف من السنين.

وعلى هذا فإن **الشمال** في **المورو**ث ـ واقع ما وراء التاريخ وما وراء الجغرافيا. والشيء نفسه يمكن قوله حول «العرق الهيبيربوري» ـ فهو «عرق» لا بالمعنى البيولوجي بل بالمعنى الروحي الميتافيزيكي الصرف. (وموضوع «الأعراق الميتافيزيكية» لقي تطويراً مفصلاً في أعمال يوليوس إيفولا»).

كما إن قارة **الجنوب وجنوب التراث** ما عادت، على العموم، موجودة منذ غابر الزمن في صورتها الصافية، والأمر نفسه يتعلق بسكانها الأوائل الغابرين. ومنذ فترة ما صارت الكرة الأرضية بكاملها من الناحية العملية «**جنوباً**» إذ ضاق تأثير المركز القطبي الأولي ورسله على العالم. وأعراق **الجنوب** المعاصرة تمثل خلاصة الاختلاطات الكثيرة العدد مع عروق **الشمال**، ولون البشرة كف منذ زمن بعيد عن أن يكون المظهر المميّز الرئيسي للانتماء إلى هذا «العرق الميتافيزيكي» أو ذاك.

وبكلمة أخرى فإن اللوحة الجيوبولتيكية المعاصرة لا تملك إلا القليل مما يجمعها مع الرؤية المبدئية للعالم في قطاعه ما فوق التاريخي، ما فوق الزماني. فالقارات ومن عليها من السكان ابتعدت في عصرنا عن تلك الصّور البدئية التي كانت مطابقة لها في العصور البريموردياليّة. ولهذا فإن بين القارات الحقيقية والعروق الحقيقية (كوقائع للجيوبولتيكا المعاصرة) من جهة وبين ما وراء القارات وما وراء العروق (كوقائع للجغرافيا التقليدية المقدسة) من جهة أخرى توجد لا الفروق، بل وما يشبه التطابق العكسي تقريباً.

6 ـ 11 وهْم «الشمال الغني»

غالباً ما تستخدم الجيوبولتيكا المعاصرة مفهوم «**الشمال**» مقترناً بصفة «الغني» ـ «**الشمال** الغني» بالإضافة إلى «**الشمال** المتطور». وتحت هذا يجري فهم مجموع الحضارة الغربية التي تولي اهتماماً أساسياً لتطوير الجانبين المادي والاقتصادي من الحياة. و«**الشمال** الغني» غني لا لأنه أوفر ذكاءً أو أوفر عقلانية وروحانية من «**الجنوب**» بل لأنه يبني نظامه العام وفق مبدأ الحد الأقصى من المنفعة المادية، التي يمكن استخلاصها من قدرات المجتمع والطبيعة، من استغلال الموارد الإنسانية والطبيعية. و«**الشمال** الغني» مرتبط ارتباطاً عنصرياً بتلك الشعوب ذات

اللون الأبيض للبشرة، وهذه الخاصية مكنونة في أساس التشكيلات المختلفة «للعنصرية» الغربية (والأنجلوساكسونية بصفة خاصة) بصورة مكشوفة أو مستترة. وانجازات «**الشمال** الغني» في الميدان المادي أدخلت في المبدأ السياسي بل و«العنصري» وبالذات في تلك البلدان التي كانت تقف في طليعة التطور الصناعي، التقني والاقتصادي ـ أي انجلترا، هولندة وفي فترة متأخرة ألمانيا والولايات المتحدة. وفي هذه الحالة جُعل الرفاه المادي والكمي مساوياً للمعيار النوعي، وعلى هذه القاعدة تم تطوير أشد الخرافات فظاظة حول «همجية»، «بدائية»، «تخلف» و«لاإنسانية» الشعوب الجنوبية (أي التي لا تنتمي إلى «**الشمال** الغني») ومثل هذه «العنصرية الاقتصادية» تجلت في هيئة أكثر وضوحاً في الحروب الاستعمارية الأنجلوساكسونية، وفيما بعد دخلت صوره المزوّقة في الآفاق الأكثر فظاظة وتناقضاً من الإيديولوجيا الوطنية ـ الاشتراكية. وهكذا فكثيراً ما جنح الإيديولوجيون النازيون إلى خلط التخمينات الغامضة المتعلقة «بالنوردية الروحية» و«العرق الروحي الآري» بالعنصرية الفظّة، المركانتيلية، البيولوجية التجارية الإنكليزية الطراز. (وعلى فكرة فإن الاستبدال لصفات الجغرافيا المقدسة بصفات التطور المادي ـ التقني كان يمثل بالذات الجانب الأكثر سلبية من جوانب الوطنية ـ الاشتراكية والذي أودى بها في النهاية إلى الإفلاس السياسي والنظري بل وحتى العسكري) ولكن حتى بعد انهيار **الرايخ الثالث** لم ينته هذا الطراز من عنصرية «**الشمال** الغني» إلى الزوال من الحياة السياسية. بيد أن حامليه صاروا، بالدرجة الأولى، الولايات المتحدة ومشاركوها الأطلسيون في أوروبا الغربية. وبالطبع لا يقع التشديد في الأطروحات العالمية الأكثر حداثة، والمتعلقة بـ«**الشمال** الغني» على مسألة الصفاء البيولوجي والعرقي، ومع ذلك فـ«**الشمال**» الغني، في علاقته مع البلدان المتخلفة والنامية في العالم الثالث لا يزال يستعرض فوقيته «العنصرية» المميزة بالنسبة للاستعماريين ـ الإنكليز مثلما هي مميّزة لمتعصبي الوطنية الاشتراكية الألمان من خط روزنبرغ.

وفي واقع الحال يعني «**الشمال** الغني» من الناحية الجيوبولتيكية تلك الدول التي انتصرت فيها القوى المناوئة بصفة مباشرة **للتراث**، قوى الكم، المادية، الإلحاد، الاضمحلال الروحي والتحلل الروحي. «الغني» شيء يختلف جذرياً عن «النوردية الروحية» عن «الروح الهيبيربورية». فجوهر **الشمال** في الجغرافيا المقدسة

ـ هو سمو الروح على المادة والانتصار النهائي **والشامل للنور والعدالة والصفاء** على ظَلمة الحياة الحيوانية، على استبداد الأهواء الفردية ودنس الأنانية المنحطة. وعلى العكس من ذلك يعني «**الشمال** الغني» الرفاه المادي المحض، المتعة، المجتمع الاستهلاكي، الجنة المصطنعة الكاذبة الخالية من المشاكل بالنسبة لأولئك الذين نعتهم نيتشه «بآخر البشر». لقد ترافق التقدم المادي للحضارة التقنية بتخلف روحي مريع للثقافة المقدسة الحق، ولهذا، فمن وجهة **نظر التقليد** لا يمكن أن يعد «ثراء» **الشمال** «المتطور» المعاصر معيار التفوق الأصيل على «الفقر» المادي والتخلف التقني «**للجنوب** البدائي».

وفضلاً عن هذا كثيراً ما يكون «فقر» **الجنوب** على المستوى المادي مرتبطاً بالحفاظ في أقاليمه الجنوبية على الصيغ المقدسة حقاً للحضارة، وهذا يعني أن ثراءً روحياً يستتر وراء هذا «الفقر». وعلى الأقل فإن حضارتين مقدستين لا تزالان تواصلان وجودهما في أراضي الجنوب حتى هذا اليوم، على الرغم من كل محاولات «الشمال الغني» (والعدواني) فرض معاييره وطرق تطويره على الجميع. وهذان هما ـ الهند الهندوسية والعالم الإسلامي. أما بالنسبة لتقاليد الشرق الأقصى فثمة وجهات نظر متباينة، لأن بعضهم يرون حتى تحت ستار الخطابية «الماركسية» و«الماويّة» بعض المبادىء التقليدية التي كانت دوماً محدّدة للحضارة الصينية المقدسة. ومهما يكن من أمر فحتى تلك المناطق الجنوبية المأهولة بشعوب تحتفظ بولائها للتقاليد المقدسة القديمة نصف المنسية فهي على أية حال إذا ما قورنت «بالشمال الغني» الذي أضفي عليه الإلحاد والمادية حتى النهاية القصوى تبدو شعوباً «روحية»، «صحية» و«طبيعية» بينما يبدو «**الشمال** الغني» من وجهة النظر الروحية «غير سوي» على الإطلاق، و«مريض».

6 ـ 12 مفارقة «العالم الثالث»

في المخططات العالمية يبدو «**الجنوب** الفقير» من الناحية الواقعية رمزاً. «للعالم **الثالث**» وقد سمي هذا العالم بـ«الثالث» في مرحلة الحرب الباردة، وهذا المفهوم نفسه كان يفترض أن «العالمين» الأوَّلين ـ الرأسمالي المتطور والسوفياتي الأقل تطوراً ـ هما الأكثر أهمية ورجحاناً، بالنسبة للجيوبولتيكا الكونية ـ من جميع المناطق المتبقية. ومن

الناحية المبدئية يحمل مصطلح «العالم **الثالث**» مفهوماً تحقيرياً فمن منطق نظرة «**الشمال** الغني» النفعية نفسها يسوّي مثل هذا التعريف دول «العالم **الثالث**» بالقواعد «السائبة» من المصادر الطبيعية والبشرية والتي لا يَحْسُنَ إلا إخضاعها واستغلالها واستخدامها في مصالح من يفعل ذلك. وإذا كان ذلك «**الشمال** الغني» يلعب بمهارة على الخصائص السياسية ـ الإيديولوجية والدينية «**للجنوب** الفقير» محاولاً أن يلحق بخدمة مصالحه المادية والاقتصادية البحتة تلك القوى والبُنى التي تتفوق بإمكاناتها الروحية كثيراً على المستوى الروحاني «**للشمال**» نفسه، وكان «**الجنوب**» دوماً يحقق النجاح في ذلك لأن نفس لحظة التطور الدورية في حضارتنا تيسّر الطريق للتوجهات الشذوذية غير السوية والمناقضة للطبيعة (فنحن طبقاً **للتقليد** نقع الآن في المرحلة الأخيرة من «العصر المظلم»، الكالي يوغي). فالهندوسية والكونفوشيوسية، والإسلام والتقاليد الأصيلة القديمة للشعوب «التي لم يعرف لها مثيل» ما كانت بالنسبة لغزاة «الشمال الغني» الماديين إلا عقبات دون تحقيق الأهداف، إلا أنها كثيراً ما استخدمت آفاقاً مختلفة للتراث من أجل التوصل إلى أهدافها التجارية ـ باللعب على التناقضات والخصائص الدينية أو المشاكل القومية. وما كان مثل هذا الاستخدام النفعي للتراث في أهداف لا تقليدية إلا شراً كبيراً يتجاوز الرفض المباشر للتقليد برمته، فأشد أنواع الفظاعةِ ـ جَعْل العظيم يعمل في خدمة التافه.

وفي واقع الحال فإن «الجنوب الفقير» «فقير» على المستوى المادي بفعل توجهه الروحي المميّز الذي يخصص دوماً للمكوِّنات المادية للوجود حيزاً ثانوياً قليل الأهمية. وفي الملامح العامة حافظ **الجنوب** الجيوبولتيكي في عصرنا هذا على علاقة تقليدية صرفة بموضوعات العالم الخارجي ـ علاقة هادئة، محيّدة ولا مبالية في نهاية المطاف ـ وفي تناقض مباشر مع الهوس المادي «**للشمال** الغني» على الرغم من جنونه المادي والمتعي. وأهل «**الجنوب** الفقير في الحالة العادية، وهم يعيشون التقليد فإنهم حتى الآن يعيشون بصورة أكثر كمالاً وعمقاً بل وأكثر **بذخاً** لأن مشاركتهم الفعالية في التقليد المقدس تضفي على **كافة** آفاق حياتهم الخاصة ذلك المغزى، وتلك الحرارة وذلك التشبّع الذي حرم منه، ومنذ زمن بعيد، ممثلو «**الشمال** الغني»، الممزقون بالعصبية، بالرعب المادي والفراغ الداخلي، وبالخلو الكامل للوجود والذي لا يمثل إلا مشكالاً رخواً من لويحات لماعة فارغة من المضمون.

كان بوسعنا القول إنّ العلاقة بين **الشمال والجنوب** في الأزمنة الأولى كانت مناقضَة بصورة كلية للعلاقة بينهما في عصرنا الحاضر، لأن الجنوب بالذات لا يزال يحافظ اليوم على علاقاته مع **الموروث** بينما ضيعها الشمال بصفة نهائية. ومع كل ذلك فإن هذه الفرضية لا تغطي بصورة تامة كمال اللوحة الحقيقية، لأن **الموروث** الحقيقي لا يمكنه أن يسمح باتخاذ مثل هذا المسلك المهين نحوه والذي يمارسه «**الشمال** الغني» الإلحادي ـ العدواني نحو «العالم **الثالث**» والمسألة أن **التقليد** لا يبقى في **الجنوب** إلا بقوة الاستمرار وبشكل مجزوء مفتت. إنه سيشغل موقفاً سلبياً ولا يقاوم إلا من خلال الدفاع عن نفسه. ولهذا لا ينتقل الشمال الروحي في نهاية الأيام إلى **الجنوب** بصفة كاملة، ففي **الجنوب** فقط تتجمع وتحفظ الدوافع الروحية التي جاءت في يوم ما من **الشمال** المقدس. وبصفة مبدئية لا يمكن للمبادرة التقليدية الفعالة أن تنطلق من **الجنوب**. وعلى العكس من ذلك استطاع «**الشمال**» العولمي «**الغني**» أن يعزز تأثيره الضار على الكرة الأرضية إلى درجة كبيرة بفضل نفس خاصية المناطق الشمالية المهيأة للفعالية. لقد كان **الشمال** ولا يزال موطن القوة على العموم ولهذا تملك المبادرات الجيوبولتيكية القادمة من الشمال فعالية حقيقية.

يملك «**الجنوب** الفقير» اليوم كافة الأفضليات الروحية أمام «الشمال الغني» لكن إزاء ذلك لا يمكن أن يكون البديل الجاد للعدوانية الدنسة من طرف «**الشمال** الغني» ولا يمكنه أن يطرح المشروع الجيوبولتيكي الجذري القادر على خرق اللوحة المَرَضية للمدى الكوني المعاصر.

6 ـ 13 دور «العالم الثاني»

في اللوحة الجيوبولتيكية الثنائية القطبين ـ إلى جانب «الشمال الغني» ـ «الجنوب الفقير» دوماً مرافق إضافي مستقل بمعناه وعلى غاية من الأهمية، وهو «العالم الثاني». ودُرج على أن يفهم من «العالم الثاني» المعسكر الاشتراكي الذي تكامل بالنظام السوفياتي. ولم يكن هذا «العالم الثاني» **شمالاً** غنياً بحق وصدق لأن بواعث روحية معينة كانت بشكل خفي تترك أثرها على الإيديولوجيا المادية اسمياً، للاشتراكية السوفياتية، ولا كان عالماً **ثالثاً** بحق وصدق، لأن التوجه نحو

التطور المادي، و«التقدم» وغير ذلك من المبادىء الدنسة كانت تستقر في أساس النظام السوفياتي. ثم إن الاتحاد السوفياتي الأوراسي كان يتوضع من الناحية الجيوبولتيكية على أراضي «آسيا الفقيرة» مثلما كان على أراضي أوروبا «المتحضرة» إلى حد ما. وخلال العهد الاشتراكي كان الحزام الأرضي «**للشمال** الغني» مقطوعاً شرقي الأوراسيا، معقداً بذلك شفافية العلاقات الجيوبولتيكية المتبادلة وفق محور **الشمال ـ الجنوب**.

نهاية «العالم الثاني» كحضارة خاصة تفترض بالنسبة للآماد الأوراسية للاتحاد السوفياتي السابق أحد خيارين ـ إما أن تتكامل مع «**الشمال** الغني» (الذي يمثله الغرب والولايات المتحدة) وإما أن تنزلق نحو «الجنوب الفقير»، أي تتحول إلى «عالم **ثالث**». ومن الممكن أيضاً طرح احتمال تساومي ينصرف بموجب جزء من المناطق إلى «الشمال» وآخر إلى «**الجنوب**» ومثلما كان الأمر خلال القرون الأخيرة كانت المبادرة الخاصة بتقسيم الأراضي الجيوبولتيكية في هذه العملية تعود إلى «**الشمال** الغني» الذي كان، ومن خلال استخدامه الصفيق لمفارقات نظرية «العالم الثاني» نفسها، يرسم خطوط الحدود الجيوبولتيكية الجديدة ويعيد توزيع مناطق النفوذ. ولا تعني العوامل القومية والاقتصادية والدينية بالنسبة للعولميين إلا وسائل لخدمة نشاطهم المنحط، المبرر عميقاً بالدوافع المادية، فليس عجيباً أن تستخدم كثيراً إلى جانب الخطابية «الإنسانية» الكاذبة وبصورة علنية تقريباً حجج «عنصرية» كرست لتوحي للروس بعقدة «الغطرسة» البيضاء نحو الجنوبيين الآسيويين والقوقازيين. وقد نيطت بذلك عملية عكسية ـ هي أن يترافق القذف النهائي بالأراضي الجنوبية «للعالم الثاني» إلى **الجنوب** الفقير باللعب على الميول الأصولية، على انجذاب الناس إلى **التقليد**، إلى انبعاث الدين.

إن «العالم الثاني» من خلال انهياره، يتفتت وفقاً لخط «**التقليد**» (النمط الجنوبي، اللاعقلاني، المحافظ) ـ والخط «**المعادي للتقليد**» (النمط الشمالي الفعال، الحداثي والمادي). وهذه الثنائية التي لم تلاحظ إلا اليوم لكنها ستغدو في المستقبل العاجل ظاهرة مسيطرة للجيوبولتيكا الأوراسية، وسيحددها توسع الفهم الكوني للعالم ضمن مصطلحي «**الشمال** الغني» ـ «**الجنوب** الفقير». ومحاولة إنقاذ المجال الكبير السوفياتي السابق، محاولة مجرد الحفاظ على «العالم الثاني» ككيان مستقل يتأرجح على الحدود بين الشمال والجنوب (في المفهوم المعاصر المحض)

لا يمكن أن تكلل بالنجاح حتى توضع موضع الشك نفس النظرية الأساسية للجيوبولتيكا المعاصرة والتي تم فهمها ووعيها في صيغتها الواقعية، بمعزل عن كافة التصريحات الخداعة ذات الطابع الإنساني والاقتصادي.

«العالم الثاني» يتلاشى. ولم يعد له مكان في اللوحة الجيوبولتيكية المعاصرة. وفي الوقت نفسه يتنامى ضغط «**الشمال** الغني» على «**الجنوب** الفقير» الذي يبقى وجهاً لوجه أمام ماديّة الحضارة التكنوقراطية مع غياب المسافة البينية التي كانت قائمة حتى الآن ـ مسافة «العالم الثاني». ثمة مصير آخر غير التصديع الشامل وفق القواعد التي يمليها «**الشمال** الغني»، وهو ليس ممكناً بالنسبة «للعالم الثاني» إلا عبر الامتناع الجذري عن المنطق الكوني لقطب **الشمال ـ الجنوب** وقد أُخذ في أساسه العالمي.

6 ـ 14 مشروع «بعث الشمال» .

«الشمال» العولمي الغني يضفي الصفة الكونية على سيطرته على الكرة الأرضية عبر تصديعه «العالم الثاني» وتدميره. وهذا ما يسمى في الجيوبولتيكا المعاصرة بـ «النظام العالمي الجديد. فالقوى الفاعلة المعادية للتقليد تعزز انتصارها على المقاومة السلبية للمناطق الجنوبية بفعل التخلف الاقتصادي للمحافظين على التقليد وحمايته في صيغه المتخلفة. وطاقات «العالم الثاني» الجيوبولتيكية الضمنية أمام الخيار التالي: إما أن تتراصف ضمن نظام «الشريط الشمالي المتحضر» وتلقي بعيداً بارتباطاتها بالتاريخ المقدس (مشروع العولمة اليسارية) أو أن تتحول إلى أرض محتلة مع السماح لها ببعث جزئي لبعض عناصر التراث (مشروع العولمة اليمينية). في هذا الاتجاه بالذات تسير الأحداث اليوم وسوف تسير في المستقبل القريب.

وكشروع بديل يمكن، من الناحية النظرية، صياغة طريق آخر للتحولات الجيوبولتيكية قائم على نبذ منطق العولمة **الشمال ـ الجنوب** والعودة إلى روح الجغرافيا الصميمية المقدسة إلى الحدود الممكنة في نهاية العصر المظلم. وهذا مشروع «**العودة العظمى**» أو بمصطلح آخر «**الحرب الكبرى بين القارات**» .

ومؤدّى هذا المشروع في خطوطه العامة هو:

1 ـ **«الشمال الغني» يواجه لا «الجنوب الفقير» بل «الشمال الفقير». «الشمال الفقير»** ـ هو المثال الأمثل المقدس للعودة إلى المنابع النوردية للحضارة. ويبدو هذا الشمال «فقيراً» لأنه أقيم على التنسكية الشمولية، على الوفاء الجذري لقيم التراث العليا، على التضحية الصادقة بالمادي في سبيل الروحي. و **«الشمال** الفقير» لا يوجد جغرافياً إلا على أراضي روسيا التي تعد في جوهرها «عالماً **ثانياً»** ظل من الوجهة الاجتماعية ـ السياسية يقاوم، حتى اللحظة الأخيرة، القبول النهائي لحضارة العولمة في صيغها الأشد «عدوانية». والأراضي الأوراسية الشمالية في روسيا ـ هي الأراضي الكونية الوحيدة التي لم يستثمرها «الشمال الغني» حتى النهاية، والمأهولة بشعوب تقليدية وتشكِّل الـterra incognita(*) للعالم المعاصر. وطريق «الشمال الفقير» يعني بالنسبة لروسيا رفض الانتظام في الشريط العولمي، ورفض تجميد التقاليد الخاصة أو الهبوط بها إلى الحد الفولكلوري للذخيرة الإتنية ـ الدينية. يجب أن يكون **«الشمال** الفقير» روحياً، عقلانياً، فعالاً وهجومياً. وفي مقاطعات أخرى من **«الشمال** الغني» يمكن تطبيق معارضة **«الشمال** الفقير»، وهو ما يمكن أن يتجلى في التخريب الجذري الذي تقوم به النخبة الغربية المثقفة ضمن النهج المؤسس لـ«حضارة البيّاعين» وفي الانتفاضة ضد عالم المال وفي سبيل القيم العريقة والخالدة للروح والعدالة والتضحية. و **«الشمال** الفقير» يبدأ حربه الجيوبولتيكية والايديولوجية مع **«الشمال** الغني» رافضاً مشاريعه، مفجراً مخططاته من الداخل ومن الخارج، مدمراً تأثيريته التي لا يأيتها الباطل، محطماً آلياته الاجتماعية ـ السياسية.

2 ـ **«الجنوب الفقير» غير قادر بصفته المستقلة على التصدى «للشمال الغني» يدخل في حلف جذري مع «الشمال الفقير» (الأوراسي) ويبدأ صراعاً تحررياً ضد الديكتاتورية «الشمالية»** . ومن المهم توجيه ضربة لممثلي ايديولوجية **«الجنوب** الغني» أي لتلك القوات التي تنادي، وهي تعمل لصالح **«الشمال** الغني» بـ«التطوير» و «التقدم» و «عولمة» البلدان التقليدية وهو ما سيعني من الناحية العملية الانصراف الأكبر عن بقايا التقليد المقدس.

3 ـ **«الشمال الفقير» للشرق الأوراسي إلى جانب «الجنوب الغني» الممتد**

(*) terra incognita (باللاتينية) ـ الأرض المجهولة (المترجم).

حول الكرة الأرضية بكاملها يركز قواه في الصراع ضد الشمال الغني للغرب الأطلَسي . وإزاء ذلك يوضع من الناحية الايديولوجية وإلى الأبد، حد للتصورات الفجة للعنصرية الانجلوساكسونية ولتمجيد «الحضارة التقنية للشعوب البيضاء» وما يرافقها من الدعاية العولمية (عبر آلين دي بينوا عن هذه الفكرة في تسميته لكتابه الشهير «العالم الثالث وأوروبا: متحدون في الصراع» «L'Europe, Tiers-monde meme-combat»، ومن الطبيعي أن الحديث فيه عن «أوروبا الروحية» ـ عن أوروبا الشعوب والتقاليد (لا عن أوروبا البياعين الماسترختية). إن عقلانية **الشمال** المقدس الأصيل وفعاليته وروحانيته تعيد تقاليد **الجنوب** إلى منبعها النوردي وتسمو بـ«الجنوبيين» إلى الثورة العالمية ضد العدو الجيوبولتيكي الطبيعي. وبهذا تكتسب مقاومة «الجنوبيين» السلبية نقطة اعتماد في رسالة «الشماليين» الكونية الذين يرفضون رفضاً جذرياً الفرع الثابت والفاسق لتلك الشعوب البيضاء التي سارت في طريق التقدم التقني والتطور المادي. وتتفجر الثورة الجيوبولتيكية العالمية ما فوق العرقية وما فوق القومية والقائمة على أساس التضامن الجذري «للعالم **الثالث**» مع ذلك الجزء من «العالم **الثاني**»، والذي يرفض مشروع «**الشمال** الغني».

الباب السابع

نصوص علماء الجيوبولتيكا الكلاسيكيين

المحور الجغرافي للتاريخ[1]

عندما يود أحد المؤرخين في المستقبل البعيد البحث في الأزمنة التي نعيشها الآن وفي تقديمها بصورة ملخصة على نحو ما نقوم به اليوم بصدد الأسر الحاكمة في مصر القديمة، فإن ما هو شديد الاحتمال أن يسمّي السنوات الأربعمئة الأخيرة بـ«عصر كولومبوس»، وسيقول إنه انتهى بُعيد سنة 1900. ومما صار أمراً مشتركاً في عصرنا الحاضر تناول الدراسات الجغرافية على أنها أمر مفروغ منه من الناحية العملية. كما ويُعد من الصواب أيضاً الانتهاء بالجغرافيا وبصفة استثنائية إلى العرض المدقق والتركيب الفلسفي. وعلى مدى أربعمئة عام اتخذت المواضع على الخارطة الجغرافية ارتسامات صحيحة ودقيقة إلى حد كاف بل وحتى في مناطق القطبين كليهما قَلّصت رحلات نانسن وسكوت(*) إلى حدّ كبير إمكانات تحقيق اكتشافات جديدة أو خارقة للعادة. وإلى هذا فإن بداية القرن العشرين تصنّف على أنها نهاية عصر تاريخي عظيم؛ وعلى فكرة فإن هذا لا يتعلق فقط بإنجازات ذلك

(*) نانسن، فريتوف (1861 ـ 1930) مكتشف نرويجي. قام بدراسة القطب الشمالي. في سنة 1888 كان أول من قطع غرينلاند على الزلاجات وفي 1893 ـ 1896 ترأس رحلة علمية على باخرة «فرام» (معناها: إلى الأمام) لدراسة القطب الشمالي. وفي 1914 ـ 1918 كان مبعوث الأمم المتحدة لشؤون أسرى الحرب. فاز بجائزة نوبل للسلام (1922) (المترجم).

سكوت روبرت (1868 ـ 1912) مكتشف إنجليزي ترأس بين 1901 ـ 1904 بعثة اكتشفت شبه جزيرة إدوارد السابع، وبين 1911 ـ 1912 بعثة ثانية اكتشفت القطب الجنوبي (بعد تأخر 33 يوماً عن اكتشاف النرويجي ر. آموندسون للقطب) وفي رحلة العودة توفي سكوت ورفاقه في عاصفة ثلجية (المترجم).

العصر مهما بلغ من عظمتها. لقد سار المبشر، والغازي، والصناعي، وعامل المنجم وأخيراً المهندس حرفياً على خطا الرحالة، وهذا ما يحملنا على القول بكل ثقة إن العالم كان حتى أقاصي أطرافه قد تم اكتشافه قبل أن نشرع في الحديث عن استيطانه. فمن الصعب العثور في أوروبا، أمريكا الشمالية والجنوبية، في أفريقيا أو أوسترالاسيا على ذلك المكان الذي يمكن أن تضرب في أرضه الأوتاد إعلاناً عن الحق في استملاك ذلك القطاع. ذلك يمكن أن يتحقق فقط في مسيرة حرب بين دول متحضرة ونصف متحضرة. وحتى في آسيا يمكننا، وبالكاد أن نكون شهوداً على الفصول الأخيرة من المسرحية التي بدأها خيالة يرماك(*) والقوزاق وبحّارة ڤاسكو دي غاما. ويمكننا، للمقارنة، أن نواجه عصر كولومبوس بالعصور السابقة مستعرضين، بصفة الملمح المميّز لها، توسع أوروبا التي ما لقيت من الناحية العملية أيّة مقاومة بينما حشرت المسيحية القروسطوية ضمن إطار منطقة صغيرة وكانت تحت تهديد الهجوم الخارجي للبرابرة. وبداية من هذا اليوم وما بعده سنكون مضطرين، بالنسبة للعهد ما بعد الكولومبي، إلى التعامل مع نظام سياسي مغلق، ومما هو شديد الاحتمال أن يكون لهذا النظام أبعاد عالمية. فبدلاً من أن ينتشر كل انفجار للقوى الاجتماعية في المجال المجهول المحيط وفي فوضى البربرية ـ سرعان ما يرتد صدى قوياً من الطرف المقابل من الكرة الأرضية، وهذا ما سيفضي بالنتيجة إلى أن تؤول كافة العناصر الضعيفة في الجهاز السياسي والاقتصادي للأرض إلى الدمار. وثمة فرق كبير بين أن تسقط القذيفة في حفرة وبين أن تسقط في مجال مغلق وسط الهياكل القاسية لمبنى كبير أو سفينة. ومما هو جائز أن يصرف حتى الفهم الجزئي لهذه الحقيقة اهتمام الشخصيات الحكومية عن التوسع الترابي وأن يجبرهم على التركيز على الصراع في سبيل إبداع يتم الاتفاق عليه.

لهذا يتراءى لي بأننا في السنوات العشر الحالية نجد أنفسنا، ولأول مرة، في الوضع الذي نتمكن فيه من إقامة الصلة، بقدر معين من التحديد، بين التعميمات

(*) يرماك تيموفييڤتش (؟ ـ 1585)، فارس من القوزاق، بدأ استيطان سيبيريا بحملته التي دخل بها تلك الأصقاع الشمالية حوالي سنة 1585. قتل في معركة مع الخان كوتشوم. ويرماك أحد أبطال الأغاني الشعبية الروسية (المترجم).

الجغرافية والتاريخية. وبمقدورنا لأول مرّة من أن نتلمس بعض الأحجام الفعلية بالنسبة للأحداث الجارية على الصعيد العالمي، وأن نوضح المعادلة التي تعبر بهذه الصفة أو تلك عن آفاق معينة في الاشتراطية الجغرافية للتاريخ العالمي. وإذا ما أسعدنا الحظ فستكتسب هذه المعادلة قيمة عملية ـ ويغدو ممكناً بمساعدتها حساب آفاق تطور بعض القوى المتنافسة في الحياة السياسية الدولية الحالية. والعبارة المشهورة والقائلة بأن الإمبراطورية تنتشر باتجاه الغرب ليست إلا محاولة تجريبية من هذا القبيل. ولهذا فإنني أود اليوم أن أصف تلك الملامح الفيزيائية المميّزة للعالم، والتي ترتبط، في رأيي، ارتباطاً وثيقاً بالنشاط الإنساني وأن أستعرض بعض مراحل التاريخ الأساسية، المتصلة بها اتصالاً عضوياً، وذلك حتى عندما لم تكن بعد معروفة بالنسبة للجغرافيا. وأنا لا أهدف على الإطلاق إلى مناقشة هذا العامل أو ذاك ولا أن أدرس الجغرافيا الإقليمية، بل أقرب ما أصبو إليه أن أبسط تاريخ الإنسانية كجزء من حياة الكيان العالمي. وأعترف بأن ليس في مقدوري التوصل إلا إلى وجه واحد من وجوه الحقيقة كما إنني لا أعاني من الرغبة في الاستغراق كلياً في المادية. فالمبادرة يبديها الإنسان لا الطبيعة، بيد أن الطبيعة بالذات هي التي تحقق الرقابة إلى حد بعيد. واهتمامي منصب بالدرجة الأولى على ميدان دراسة العامل الطبيعي العام أكثر منه على ميدان أسباب التاريخ العام. ومما هو جلي للعيان أن أقصى ما يمكن عقد الأمل عليه هو الاقتراب الأولي من الحقيقة ولهذا السبب فإنني بكل طواعية أتقبل جميع ملاحظات منتقديَّ.

كان البروفيسور الراحل فريمان يقول إن التاريخ الوحيد الذي يستحق الدراسة هو تاريخ عروق البحر الأبيض المتوسط وأوروبا. وهذا إلى حد ما صحيح بالطبع، ولكن بين هذه العروق بالذات ولدت الأفكار المؤدية إلى أن يغدو أحفاد اليونان والرومان المسيطرين على العالم كله. إلا أن مثل هذا التحديد لا بد له في سياق لا يقل أهمية، من أن يزحم الفكرة. والأفكار التي تكوّن الأمة كنقيض لجمهور بسيط من الكائنات البشرية، يتم اعتناقها في العادة تحت ضغط كارثة جماعية أو عند الضرورة المشتركة لمقاومة قوة خارجية. ففكرة انكلترا كانت قد أدخلت في دول غيبتارهيا من طرف الغزاة الدانمركيين والنورمان، وفكرة فرنسا فرضها الهون على الفرانك والغوت والرومان الذين كانوا يتجادلون فيما بينهم في

المعركة بالقرب من شالون. ثم فيما بعد أيام حرب المئة عام(*) مع انجلترا، وفكرة المسيحية انبثقت من الاضطهاد في الإمبراطورية الرومانية وأُوصلت إلى خاتمتها المنطقية في مرحلة الحروب الصليبية. ولم يتم اعتناق فكرة الولايات المتحدة الأمريكية ـ مع مشاركةِ وطنيةِ المستعمرين المحلية ـ إلا أيام حرب الاستقلال الطويلة؛ وقد تم قبول الإمبراطورية الألمانية، وبدون رغبة مع ذلك، في ألمانيا الجنوبية بعد صراعها مع فرنسا المتحالفة مع ألمانيا الشمالية. وذاك الذي أستطيع وصفه كتصور أدبي للتاريخ، يمكن أن يُسقط على غير إرادة منه، الحركات الابتدائية والتي لعب ضغطها دوره الباعث الموقظ في الجو الذي غرست فيه الأفكار الكبرى. شخصية ما تثير الاشمئزاز تؤدي وظيفة اجتماعية مهمة في توحيد أعدائها حتى إن أوروبا ما تمكنت من إقامة حضارتها إلا بفضل ضغط البرابرة الخارجيين. ولهذا السبب أطلب منكم أن تنظروا إلى أوروبا وإلى التاريخ الأوروبي على أنهما ظاهرة خاضعة لآسيا وتاريخها، لأن الحضارة الأوروبية إلى حد كبير نتيجةُ الصراع الأبدي ضد الهجمات الآسيوية.

والتناقض الأهم الذي نلاحظه على الخارطة السياسية لأوروبا المعاصرة ـ هو التناقض الذي تمثله الآماد الشاسعة لروسيا التي تشغل نصف هذه القارة من جهة ومجموعة المساحات الأصغر حجماً والتي تشغلها الدول الأوروبية الغربية ـ من جهة أخرى. ومن الطبيعي أن ثمة، من وجهة النظر الفيزيائية، تناقضاً مشابهاً أيضاً بين وهاد الشرق غير المحروثة وبين ثروات الجبال والوديان والجزر وأشباه الجزر التي تمثل في مجموعها القسم المتبقي من هذه المنطقة من الكرة الأرضية. وقد

(*) حرب المئة عام (1337 ـ 1453) بين إنجلترا وفرنسا. كان سببها حرص انجلترا على الاحتفاظ بالأراضي التي كانت لها شمالي فرنسا منذ القرن الثاني عشر، وكان السبب المباشر دعاوى الملك الانجليزي إدوارد الثالث، وهو حفيد الملك الفرنسي فيليب الرابع، بأحقيته في عرش فرنسا. بدأت الحرب بانتصارات الإنجليز في معارك عديدة انتهت بصلح بريتان (1360) الذي ثبّت حق انجلترا في الاحتفاظ بالقسم الأكبر من الأراضي الفرنسية ثم تمّ إجلاؤهم في سبعينيات القرن الرابع عشر عن كامل التراب الفرنسي تقريباً. وبالتعاون مع البورغونيين تمكن الإنجليز بعد ذلك من احتلال الشمال الفرنسي بعد معركة ازينكور (1415). ثم كانت الثورة الشعبية في فرنسا بقيادة جان دارك واستطاعت أن تفك الحصار عن أورليان (1422). وانتهت الحرب بالإجلاء النهائي للأنجليز عن بوردو (1453) ولم يبق لهم في الأراضي الفرنسية غير كاليه (حتى سنة 1558) (المترجم).

يتراءى لكم للوهلة الأولى أن في هذه الحقائق المعروفة تتضح أمامكم تلك العلاقة البالغة الوضوح بين الوسط الطبيعي والتنظيم السياسي والتي بالكاد تستحق الحديث عنها، وبخاصة إذا ما أشرنا إلى أن الشتاء البارد في السهل الروسي يقابل الصيف الحار، وعلى هذا فإن شروط الوجود البشري تحمل رتابة إضافية إلى الحياة. ومع كل هذا فإن عدداً من الخرائط التاريخية التي يتضمنها أطلس أوكسفورد ـ على سبيل المثال، يظهر لنا أن التلاقي الفج للقسم الأوروبي من روسيا مع السهل الأوروبي الشرقي ليس أمراً عابراً، ولم يحدث هذا خلال المئة سنة الأخيرة، وإن الأزمنة الأقدم عرفت هنا توجهاً مخالفاً تماماً في التوحد السياسي. مجموعتان من الدول تولتا في العادة تقاسم هذه البلاد في نظامين سياسيين شمالي وجنوبي. ذلك أن الخرائط الجغرافية لا تعكس تلك الخصوصية الطبيعية التي بقيت حتى الأحقاب المتأخرة تتحكم في تنقلات الإنسان وتوزعه فوق الأراضي الروسية. عندما ينسحب الغطاء الثلجي من هذه السهول الواسعة بصورة تدريجية نحو الشمال تحل محله الأمطار التي تزداد قوة في شهري أيار وحزيران بصفة خاصة على شطآن البحر الأسود بينما لا تهطل في منطقة البلطيق والبحر الأبيض إلا في تموز وآب على الأكثر. وفي الجنوب يهيمن صيف طويل جاف. وبنتيجة هذا النظام المناخي صارت المناطق الشمالية والشمالية الغربية مغطاة بغابات نادراً ما تتخلل أدغالها البحيرات والمستنقعات بينما يمثل جنوبها وجنوبها الشرقي سهوباً عشبية لا نهاية لها وحيث لا يمكن رؤية الأشجار إلا على ضفاف الأنهار. والخط الفاصل بين هاتين المنطقتين يتجه بانحراف قطري نحو الشمال الشرقي بادئاً من الطرف الشمالي للكاربات ومنتهياً عند المناطق الجنوبية للأورال أكثر منه عند جزئها الشمالي.

وخارج حدود روسيا تنطلق حدود هذه الغابات الشاسعة نحو الغرب مخترقة بصفة تقريبية قلب البرزخ الأوروبي الذي يعادل عرضه (أي مجموع المسافة بين بحري البلطيق والأسود) 800 ميل. ومن خلفه ـ على المساحة الأوروبية المتبقية تغطي الغابات سهول ألمانيا إلى الشمال بينما تشكل السهوب في الجنوب حوض ترانسلفانيا الكبير عند الكاربات وتمتد حتى الدانوب ـ هناك حيث تتماوج الحقول الرومانية وحتى البوابة الحديدية(*) والمنطقة السهبية المنفصلة والمعروفة بين

(*) البوابة الحديدية: مضيق على نهر الدانوب على الحدود بين يوغسلافيا ورومانيا. يقع =

السكان المحليين باسم «بوشتا» والتي تستغل بفعالية في أيامنا هذه قد شغلت السهل المجري، وتؤطره سلسلة الجبال الكارباتية والألبيّة الغابيّة. أما في غربي روسيا، وباستثناء الشمال القاصي، فإن استئصال الغابة وتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي غير المستصلحة قد حدد منذ فترة غير بعيدة نسبياً طابع السطح الأرضي وقضى على ذلك التفاوت الذي كان شديد البروز فيما سبق.

ظهرت روسيا وبولندة على مساحات مغطاة بالغابات. وبالإضافة إلى هذا كانت تتوجه عبر السهوب إلى هذا المكان، من النقاط المنفصلة والمجهولة في آسيا، ونحو بوتقة شكلتها جبال الأورال وبحر قزوين منذ القرن الخامس وحتى السادس عشر، زحوف لا نهاية لها من البداة الطورانيين: من الهون، الآفار، البولغار، الماديار، الخزر، البيتشينيغ، الكومان، المنغول والكالميك. وخلال حكم أتيلا(*) تجذر الهون في مركز البوشتا والجُزَيْرات «الدانوبية» الأكثر تباعداً في السهوب، ومن هناك كانوا يشنون غاراتهم على الشمال والغرب والجنوب على سكان أوروبا المستقرين. والقسم الأكبر من التاريخ المعاصر يمكن أن يكتب كهوامش على التغيرات التي حدثت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نتيجة لهذه الغارات. ومما هو محتمل كل الاحتمال أن الإنجل والساكس قد أجبروا في هذه المرحلة بالذات على عبور البحر وإقامة انجلترا على الجزر البريطانية. ولأول مرة وجد الفرانك والغوت وسكان الأطراف الرومانية أنفسهم مجبرين على الوقوف كتفاً إلى كتف في ساح المعركة قرب شالون يحدوهم هدف مشترك هو الحرب ضد الآسيويين، وبهذه الطريقة أقاموا فرنسا المعاصرة بطريقة لا إرادية. وبنتيجة تدمير أكفيليا وبادُوا أقيمت فينيسيا، بل وإن البابوية مدينة بهيبتها المهولة لوساطة البابا ليف الناجحة خلال لقائه مع أتيلا في ميلانو. تلك كانت النتيجة التي أحدثها جمهور من الخيالة الذين لا يعرفون الرحمة ولا يملكون أي تصور عن الحضارة

= في منطقة جردان الممتدة بين الجبال على نهر الدانوب بطول 120 ك.م وعرض يصل إلى 150 متراً (المترجم).

(*) أتّيلا (؟ ـ 1453) كان منذ سنة 434 قائد قبائل الهون التي قامت بزحوفها المدمرة على القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية (في سنوات 443، 447، 448) وبلاد الغال وشمالي إيطاليا (454) وحقق اتحاد الهون في عهده أعلى درجات قوته (المترجم).

والذين أغرقوا السهول غير الخاضعة لحُكْم ـ تلك كانت ضربة هوت بها المطرقة الآسيوية بحرية على آماد غير مأهولة. ثم جاء الآقار بعد الهون. ومن خلال الصراع معهم أقيمت النمسا، وبنتيجة حملات شارلمان الكبير(*) تم تدعيم ڤيينا. ثم جاء الماديار وبفضل هجماتهم التي لا تتوقف من داخل معسكراتهم السهبية المقامة على أراضي المجر ضاعفوا من أهمية النقطة النمساوية المتقدمة، وبذلك نقلوا البؤرة من ألمانيا إلى الشرق نحو حدود هذه المملكة. وقد تحول البولغار إلى طبقة حاكمة في الأراضي الممتدة جنوبي الدانوب، فطبعوا اسمهم على خارطة العالم على الرغم من أن لغتهم ذابت في لغة رعاياهم السلافيين. ولعل الأطول مدة والأشد تأثيراً في السهوب الروسية كان توضّع الخزر الذين عاصروا حركة السراسين(**) العظمى: وكان الجغرافيون العرب يعرّفون قزوين ببحر الخزر. ولكن في نهاية المطاف دخلت جحافل جديدة من منغوليا، وعلى مدى مئتي سنة ظلت الأراضي الروسية الممتدة في الغابات شمالي المناطق المشار إليها تدفع الجزية للخانات المغول أو «للسهب»، وعلى هذا ففي هذه المرحلة بالذات تم تعويق تقدم روسيا وتشويهه بينما كانت بقية أوروبا تتقدم بخطى سريعة إلى الأمام.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الأنهار المنطلقة من هذه الغابات إلى البحرين الأسود وقزوين تجري معارضةً لمجموع الطريق السهبي للرحّل وأنه بين الفينة والفينة وعلى طول مجاري هذه الأنهار ـ كانت تدور تحركات عابرة مواجهةً لزحوف هؤلاء الخيالة. فمبشرو الكنيسة اليونانية اتجهوا صعداً عبر الدنيبر حتى كييف على نحو ما قام به الڤارياغ الشماليون قبل فترة قصيرة عندما انحدروا في

(*) شارلمان الكبير (عن الاسم اللاتيني Carolus magnus) (742 ـ 814)، فرنسي من أسرة الكارولنجيين، ملك منذ 768 وامبراطور منذ 800. أدت فتوحاته إلى إنشاء امبراطورية كبرى في أوروبا وكان من سياسته إخضاع الكنيسة وتطبيق الإصلاحات في الجيش والقضاء. وأعانت هذه الإجراءات على إقامة العلاقات الإقطاعية في أوروبا الغربية. هناك سفارات ودية بينه وبين الخليفة العباسي هارون الرشيد. تقاسم أحفاده الثلاثة الامبراطورية من بعده بموجبه اتفاقية ڤردان (سنة 843) (المترجم).

(**) السراسين: وتعني العرب وأحياناً المسلمين. وعلى الرغم من أن بعض المصادر الأوروبية تنسب «السراسين» إلى «كلمة» «الشرقيين» العربية، فإن مضمونها غير بريء من التحامل والاستهانة (المترجم).

النهر نفسه في طريقهم إلى القسطنطينية. إلا أن قبيلة الغوت الجرمانية كانت قد ظهرت قبل ذلك ولفترة قصيرة على شطآن الدنيبر منطلقة عبر أوروبا من شطآن البلطيق في نفس الاتجاه الجنوبي ـ لكن ما هذا كله إلا لوحات عابرة وهي مع ذلك لا تلغي إمكانية التعميمات الواسعة. فعلى مدار عشرة قرون خرجت بضع موجات من الخيالة ـ الرحل من آسيا عبر الممر العريض بين الأورال وقزوين فقطعت الآماد المفتوحة لجنوب روسيا واتخذت مكان إقامتها الدائم في المجر فوصلت بهذا إلى حبة قلب أوروبا حاملة بذلك إلى تاريخ الشعوب المجاورة لهؤلاء الخيالة لحظة المواجهة المؤكدة: ذاك ما كان بالنسبة للروس وللجرمان والفرنسيين والإيطاليين واليونان البيزنطيين. وكونهم أثاروا ردّة فعل صحيّة وقوية بدلاً من المعارضة المدمرة في وجه الاستبدادية المنتشرة على نطاق واسع، صار أمراً ممكناً يعود الفضل فيه إلى أن حركية دولتهم كانت مشروطة بالسهب نفسه وكانت تتلاشى بصفة مؤكدة عند ظهور الجبال أو الغابات من حولهم.

مثل هذه الحركية للدولة كانت أيضاً من خصائص البحارة الڤايكنغ(*). فبعد انحدارهم من سكاندينافيا إلى شاطىء أوروبا الجنوبي والشمالي كانوا يرشحون إلى أراضيها مستخدمين الطرق النهرية لذلك. إلا أن مجال تحركاتهم كان محدوداً فما كانت سلطتهم، إذا ما تم قول الحق، تمتد إلا إلى المناطق الملاصقة مباشرة للماء. وعلى هذا فإن سكان أوروبا المستقرين كانوا يجدون أنفسهم محصورين بالكلابات بين الآسيويين الرحل من الشرق وقراصنة البحار المنقضين من الجهات الثلاث. وبفضل طبيعتهم ما كان أي جانب من هذين الجانبين بقادر على أن يقهر الجانب الآخر، ولهذا تركوا أثراً تحريضياً. وتنبغي الإشارة إلى أن التأثير التكويني للسكاندينافيين كان يقف في الدرجة الثانية بعد التأثير المشابه له من طرف الرحل، فبفضلهم بالذات بدأت انجلترا وفرنسا طريقهما الطويل نحو الوحدة الذاتية، بينما سقطت إيطاليا الموحدة تحت ضرباتهم. لقد كان بمقدور روما في الماضي البعيد

(*) الڤايكنغ ـ السكاندينافيون القدماء؛ قاموا بحملات بحرية في أوروبا بهدف التجارة والنهب والاحتلال بين نهاية القرن الثامن والحادي عشر. سمّوهم بالڤارياغ في روسيا وبالنورمان في أوروبا. احتلوا شمالي شرق انكلترا في القرن التاسع وشمال فرنسا (نورماندیا) في العاشر وبلغوا حتى شمال أمريكا (المترجم).

أن توحد سكانها باستخدام الطرق لهذه الغاية، إلا أن الطرق الرومانية كانت قد آلت آنذاك إلى الإنهيار ولم يجر تبديلها حتى القرن الثامن عشر.

ويبدو أن حملة الهون نفسها لم تكن الأولى في هذه السلسلة «الآسيوية». فمن المرجح أن الصقالبة، الذين كانوا وفق أحاديث هوميروس وهيرودوت يتغذون بحليب الخيل، كانوا يمارسون نمط الحياة نفسه وينتمون إلى نفس العرق الذي ينتمي إليه أهل السهب المتأخرون. فالعناصر الكلتية في مسميات الأنهار ـ الدون، الدونتس، الدنيبر، الدنيستر والدانوب يحتمل أن تكون مفاهيم محدّدة لدى أناس متشابهين في العادات وإن لم ينتموا إلى عرق واحد. بيد أنه ليس ثمة ما يشير إلى أن الكلتيين جاؤوا من الغابات الشمالية كما فعل غوت وڤارياغ الأزمنة التالية. ومع ذلك فإن شطراً هائلا ممن يسميهم الانتروبولوجيون بالبراهيكيفال ممن دُفعوا باتجاه الغرب من آسيا البراهيكيفالية عبروا أوروبا الوسطى حتى فرنسا قد توطن، وفق ما هو محتمل، بين المجموعات الشمالية، الغربية والجنوبية من السكان الدوليهوكيفاليين(*)، ومن المحتمل جداً أن يكون منحدراً من آسيا.

هذا بينما يبدو تأثير آسيا على أوروبا غير ملموس حتى اللحظة التي نبدأ فيها الحديث عن الاختراق المنغولي للقرن الخامس عشر، والحق أن من المرغوب فيه قبل أن نبدأ بتحليل الوقائع المتعلقة بهذا في مجموعه، أن نبدّل وجهة نظرنا «الأوروبية» بكيفية تسمح لنا بتصور «العالم القديم» بكل تكامله. وما دامت كمية الأمطار ترتبط بالبحر فإن وسط الكتل الأرضية الكبرى، جاف من الناحية المناخية إلى حد ملموس. ولهذا ليس مما يثير الاستغراب أن يكون ثلثا سكان الكرة الأرضية متركزين في مناطق غير واسعة نسبياً وممتدة على أطراف القارات الكبرى ـ بجوار المحيط الأطلسي في أوروبا، وبقرب المحيطين الهندي والهادي في الهند والصين، وعبر مجموع الشمال الأفريقي وحتى جزيرة العرب يمتد شريط عريض من الأراضي غير المأهولة بسبب انعدام الأمطار من الناحية العملية. وعلى نفس الشاكلة كانت أفريقيا الوسطى والجنوبية خلال الشطر الأكبر من تاريخيهما

(*) البراهيكيفالي والدوليهوكيفالي: (من اليونانية Kephale: الرأس) ـ مصطلحان انتروبولوجيان يحدّدان عرض الرأس البشري بالنسبة لطوله ففي الأول تكون نسبة العرض إلى الطول 81٪ أما في الثاني فهي أقل من 75٪ (المترجم).

مقطوعتين أيضاً عن أوروبا وعن آسيا انقطاع أمريكا عن أوستراليا. وفي الواقع فإن الحدود الجنوبية لأوروبا كانت ولا تزال الصحراء الكبرى أكثر منها البحر الأبيض المتوسط ما دامت هذه الصحراء بالذات هي التي تفصل البيض عن السود. والأراضي الهائلة في الأورو ـ آسيا والواقعة على هذه الحالة بين المحيط والصحراء تضم 000 21000 ميل مربع أي نصف مجموع الأراضي في الكرة الأرضية إذا ما أسقطنا من حساباتنا الصحراء الكبرى وجزيرة العرب. وهناك عدد كبير من المناطق الصحراوية المتفرقة والمتبعثرة على مجموع مساحة آسيا، من الشام وفارس في الشمال الشرقي باتجاه منغوريا إلا أننا لا نجد بينها تلك الصحاري التي يمكن مقارنتها بالصحراء الكبرى. ومن ناحية أخرى تتميّز الأورو ـ آسيا بتوزع ممتاز لمجاري الأنهار. وعلى القسم الأعظم من الشمال والوسط كانت هذه الأنهار، من الناحية العملية، عديمة الفائدة بالنسبة لأهداف التواصل الإنساني مع العالم الخارجي. فالفولغا وأوكس وياكسارت تصب في بحيرات مالحة؟ ويصب أوب، يينيسي ولينا ـ في المحيط البارد الشمالي. في العالم ستة أنهار كبرى. وفي هذه المناطق عدد كبير من الأنهار التي، على الرغم من كونها أصغر إلا أنها ذات أهمية كبرى مثل نهري تاريم وهيلموند اللذين لا يصبّان أيضاً في المحيط. وعلى هذا فإن مركز الأورو ـ آسيا المرقش بنُقيطات الصحراء، هو في مجموعه أرض سهبية تمثل مراعي واسعة وإن كانت في الأكثر شحيحة، وحيث لم يعد هناك ولو عدد من الواحات المروية بالأنهار، بيد أن من الضروري التأكيد مرةً أخرى على أن أراضيها بمجموعها ليست مخترقة مع ذلك بالطرق المائية المنطلقة إلى المحيط. وبكلمة أخرى فإننا في هذه المنطقة الواسعة أمام كافة الشروط الملائمة لتثبيت عدد قليل جداً، ولكن ذي أهمية ملموسة، من السكان الرحل المتنقلين على الخيل والجمال. أما في الشمال فمملكتهم مقيدة بشريط عريض من الغابات والمستنقعات المجاورة للقطبية، حيث الطقس باستثناء الأطراف الغربية والشرقية، بالغ القسوة بالنسبة لتطوير المستوطنات الزراعية. والغابات في الشرق تصل حتى شطآن المحيط الهادي على طول نهر آمور، نحو منغوريا. والأمر نفسه في الغرب أيضاً، ففي أوروبا ما قبل التاريخ كانت الغابات تشغل الأراضي الأساسية. والسهوب التي قيدت على هذا الأساس من الشمال ـ الشرقي، ومن الشمال والشمال ـ الغربي، تنبسط دون انقطاع على امتداد 4000 ميل من البوشتا المجرية وحتى الغوبي

(الصحراء) الصغرى في منغوريا، وباستثناء الجزء المتطرف نحو الغرب لا تعبرها الأنهار الجارية نحو المحيط الذي يمكنها بلوغه. ولهذا فبوسعنا ألا نلقي بالاً إلى الجهود غير البعيدة العهد والموجهة إلى تطوير التجارة في مصبي نهري أوب وينيسي. وفي أوروبا، وسيبيريا الغربية وتركمانستان الغربية ينبسط السهب على مستوى البحر بل وأدنى من مستواه في بعض الأماكن. وهو عند مسافة أبعد نحو الشرق، في منغوليا، يمتد في صورة نجود، إلا أن الانتقال من مستوى إلى آخر فوق المناطق السهلية المنخفضة العارية من الأراضي المركزية الجافة لا يمثل مصاعب تذكر.

والجحافل التي تهاطلت في نهاية المطاف على أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر كانت تحشد قواها على مسافة 3000 ميل منها، في سهوب منغوليا العليا. وألوان الدمار التي تم إحداثها على مدار عدد من السنين في بولندة، سيليزيا، مورافيا، المجر، كرواتيا وصربيا، كانت، مع ذلك، النتائج الأبعد مدى والأسرع زوالاً للاجتياح الكبير الذي قام به رحّالة الشرق والذي يرتبط باسم جنكيزخان. وبينما كانت القبيلة الذهبية تحتل سهب كيبتشاك من بحر الآرال عبر الممر الواصل بين هضبة الآرال وبحر قزوين حتى مشارف الكاربات كانت فرقة أخرى تنحدر نحو الجنوب - الغربي بين بحر قزوين وهيندوكوش نحو فارس، ما بين النهرين وحتى الشام لتقيم دولة إيلخان. وفيما بعد كانت فرقة أخرى قد هاجمت الصين الشمالية واستولت على الصين. وكانت الهند ومانغي أو الصين الجنوبية محصنة لوقت محدود بحاجز جبال التيبت الممتاز والذي ما كان لأي شيء في العالم أن يقارن بتأثيره، اللهم إلا إذا أخذنا في الحسبان الصحراء الكبرى والجلاميد القطبية. لكن تلك العقبة لم تلبث أن ذلّلت فيما بعد أيام ماركو بولو بالنسبة لمانغي وأيام تيمورلنك بالنسبة للهند. وحدث أن جميع الأصقاع المأهولة من العالم القديم قد ذاقت على جلودها عاجلاً أم آجلاً، في تلك الحالة الشهيرة، والتي أُحسن وصفها، الجبروتَ التوسعي للدولة السريعة الحركة والتي ولدت في الآماد السهبية. فروسيا وفارس والهند أو الصين إما قامت بدفع الجزية أو اعترفت بالأسرة المنغولية الحاكمة. بل إن دولة الترك التي كانت حديثة الولاية في آسيا الصغرى عانت مرارة تلك العبودية على مدى نصف قرن.

وعلى نحو ما كان الأمر في أوروبا فإن المدونات المتعلقة بالاجتياحات

الأقدم عهداً قد حفظت فوق أراض أخرى مجاورة للأورو ـ آسيا. وأكثر من مرة خضعت الصين لغزاة من الشمال، والهند لغزاة من الشمال الغربي. وعلى أقل تقدير فإن هجوماً واحداً على أراضي فارس لعب دوراً مميّزاً في تاريخ الحضارة الغربية. فقبل ثلاثمئة أو أربعمئة سنة قبل دخول المنغول كان الترك السلاجقة الذين برزوا من منطقة آسيا الصغرى قد انداحوا هنا فوق مساحات هائلة يمكننا اشتراطياً أن نسميها المنطقة المنبسطة بين خمسة بحار ـ قزوين، الأسود، المتوسط، الأحمر والخليج الفارسي. فقد توضعوا في كرمان، هادامان، وآسيا الصغرى وقضوا على سيطرة السراسين في بغداد ودمشق. وظهرت ضرورة إنزال العقوبة بهم على مسلكهم نحو الحجاج المتجهين إلى القدس، وهوذا السبب الذي جعل العالم المسيحي يشن سلسلة كاملة من الحملات العسكرية المعروفة باسم الصليبية المشترك. وعلى الرغم من أنه لم يتسن للأوروبيين تحقيق المهمات المطروحة فإن تلك الأحداث قد هزت أوروبا ووحّدتها، وهو ما يمكننا بحق أن نعتبره بداية التاريخ الحديث. وكان ذلك مثالاً آخر على تحرك أوروبا التي حفزتها ضرورة ردّة الفعل العكسية على الضغط الموجه إليها من وسط آسيا نفسه.

إن مفهوم الأورو ـ آسيا الذي نتحصل عليه بهذه الطريقة يعني الأراضي الواسعة المزنّرة بالجليد من الشمال والمخترقة في كل مكان بالأنهار والتي تشغل مساحة 000 21000 ميل مربع أي ما يزيد بثلاثة أضعاف على أمريكا الشمالية التي تعدّ مناطقها الوسطى والشمالية 9000000 ميل مربع وما يزيد على ضعف مساحة أوروبا. إلا أنها خالية من الطرق المائية المُرْضية المؤدية إلى المحيط ـ على الرغم من أنها من جهة أخرى، ملائمة عموماً، باستثناء الغابات المجاورة للقطب، لتحرك أي نوع من الرحّل. وإلى الغرب والجنوب والشرق من هذه المنطقة تتوضع المناطق الحدودية في صورة هلال عريض، وهي ملائمة للملاحة البحرية. وطبقاً للبنية الطبيعية فإن عدد هذه المناطق يعادل أربعاً، ومما لا يقل أهمية عن ذلك كونها تتطابق مع آفاق انتشار الديانات الكبرى الأربع ـ البوذية، البراهمانية، الإسلام والمسيحية. والأولى والثانية تنتشران في منطقة الرياح الموسمية وتتجه إحداهما نحو المحيط الهادي والأخرى ـ نحو الهندي. أما الرابعة، أوروبا فتروى بالأمطار القادمة من الغرب، من الأطلسي. وهذه المناطق الثلاث التي تشكل معاً أقل من سبعة ملايين ميل مربّع يستوطنها ما يربو عن مليار نسمة وبكلمة أخرى، ثلثي

سكان الكرة الأرضية. أما المنطقة الثالثة، المتطابقة مع منطقة البحار الخمسة، منطقَة الشرق الأوسط حسبما يسمونها في العادة، فتعاني في الغالب، من نقص الرطوبة بسبب قربها من أفريقيا وهي، باستثناء الواحات ضعيفة الكثافة السكانية. وإلى حد ما فهي تتضمن أربعاً من المناطق الحدودية ومن المنطقة الوسطى للأورو ـ آسيا. وهذه المنطقة محرومة من الغابات وقد غطي سطحها بالصحارى ولهذا فإنها ملائمة تماماً لنشاط الرحل، وتظهر فيها ملامح المنطقة الحدودية إذ إن الخلجان البحرية والأنهار المنصبة في المحيطات تجعلها مطروقة بالنسبة للدول البحرية وتيسر لها بسط سيطرتها على البحر. هوذا السبب الذي مكّن من الظهور الدوري في هذا المكان لإمبراطوريات تنتسب إلى النمط «الحدودي» والتي شكل السكان الزراعيون في الواحات الكبرى بمصر وبابل، عمودها الفقري. وكانت، فضلاً عن ذلك، مرتبطة بخطوط بحرية مع العالم المتحضر للبحر الأبيض المتوسط والهند. ولكن وعلى نحو ما هو منتظر الحدوث وقعت هذه الإمبراطوريات في منطقة مهاجر لم تكن معروفة حتى الآن، أقام بعضها الصقالبة، والترك، والمنغول القادمون من آسيا الوسطى، وكان بعضها نتيجة جهود شعوب البحر الأبيض المتوسط ممن رغبوا في أن يضعوا أيديهم على الطرق الأرضية الممتدة من المحيط الغربي إلى الشرقي. وهذا المكان ـ هو الحلقة الأضعف بالنسبة لتلك الحضارات المبكرة إذ أن برزخ السويس الذي قسم الدول البحرية الكبرى إلى غربية وشرقية وصحارى فارس الجافة الممتدة من آسيا الوسطى وحتى الخليج الفارسي قدما الإمكانية الدائمة لتجمعات الرحل للوصول إلى شاطىء المحيط الذي كان يفصل بين الهند والصين من جهة ومن جهة أخرى كان يفصلهما معاً عن عالم البحر الأبيض المتوسط. وفي كل مرة عانت واحات مصر والشام وبابل من الانحطاط كان سكان السهوب يتحصلون على إمكانية استخدام السهول المسطحة لإيران مخافر أمامية يسددون منها ضرباتهم عبر البنجاب إلى الهند مباشرة وعبر الشام إلى مصر وعبر جسر البوسفور المدمَّر والدّردنيل إلى المجر. وعلى الطريق المباشر نحو أوروبا الداخلية كانت تقف فيينا التي تتصدى لغارات الرحل كأولئك الذين قدموا بطريق مباشر من السهوب الروسية أو من تسللوا بطريق ملتوية تمتد إلى الجنوب من البحرين الأسود وقزوين.

وهكذا فقد استعرضنا الفرق الواضح بين السيطرة السراسينية والتركية على الشرق الأوسط. كان السراسينيون فرعاً من العرق السامي، أقواماً استوطنوا حوضي النيل والفرات والواحات الصغيرة في جنوب آسيا. وباستخدامهم للإمكانيتين اللتين قدمتهما لهما هذه الأرض ـ الخيل والجمال من جهة والسفن من الجهة الأخرى أقاموا امبراطورية عظمى. وفي مراحل تاريخية مختلفة كان أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض المتوسط حتى إسبانيا، وعلى المحيط الهندي أيضاً حتى جزر الملايو. ومن هذه الوجهة النظر الاستراتيجية المركزية، من الموقف القائم بين المحيطين الغربي والشرقي، حاولوا أن يستولوا على كافة المناطق الحدودية في العالم القديم، وبذلك كرروا الإسكندر المكدوني بكيفية ما وسبقوا نابليون. بل وتمكنوا من تهديد السهوب. لكن الحضارة السراسينية دمرها الأتراك، الوثنيون ـ الطورانيون البعيدون بعداً كاملاً عن جزيرة العرب، عن أوروبا والهند والصين والذين كانوا يعيشون في حبة قلب آسيا.

كان الانتقال على سطح المحيط المنافس الطبيعي للانتقال على الجمال والخيل وهو المعمول به في دواخل القارة. وعلى أساس استصلاح الأنهار المحيطية بالذات أقيمت المرحلة البوتامية من الحضارة الصينية على يان تسزي(*)، الهندية على الغانج(**)، البابلية على الفرات، المصرية على النيل. وعلى قاعدة استطلاح البحر الأبيض المتوسط أقيم ما يسمى بالمرحلة «البحرية» من الحضارة، حضارة اليونان والرومان. وما تمكن السراسين والفايكنغ من إدارة شواطىء

(*) يانتسي (معناه النهر العميق) نهر في الصين طوله 5800 ك م، 2850 منها صالحة للملاحة. أطول نهر في الأوراسيا. مساحة سريره: مليون وثمانمئة وثمانية آلاف كيلو متر مربع. يبدأ من التيبت. ويصب في بحر الصين الشرقي. من أهم المدن الواقعة عليه تشونتسين، أوهان، نانكين وشانغهاي (المترجم).

(**) الغانج (غانجا) نهر في الهند وبنغلاديش. طوله 2700 ك م. مساحة سريره مليون ومئة وعشرين ألف كيلومتر مربع. ينبع من الهيمالايا، يمر بسهل الغانج ويرويه ويصب في خليج البنغال. من أهم روافده: جامنا، سون، دار مودار من اليمين وغوماتي، غانداك وكوسي ـ من اليسار، أهم المدن الواقعة عليه الله آباد، ڤاراناسي، وبانتا كما يقع ميناء كلكوتا على دلتا مصبه في البحر. والغانج في الأساطير الهندية نهر سماوي نزل إلى الأرض فصار الغانج، يجله الهندوس ويحجون إليه وتقام طقوس الحج بخاصة عند منابعه بالقرب من مدينتي خاردڤا ـ وڤاراناسي حيث يرفده نهر جامنا (المترجم).

المحيطات إلا بفضل قدراتهم على الإبحار.

تتمثل النتيجة الأهم لاكتشاف طريق الهند حول رأس الرجاء الصالح في أنها تربط الملاحة الساحلية غربي الأوراسيا وشرقها ولو بطريقة تقريبية، وبذلك تحيّد وإلى درجة ما، التفوق الاستراتيجي للوضعية المركزية التي كان يحتلها أهل السهوب بالضغط عليهم من المؤخرة. والثورة التي بدأها كبار البحارة من جيل كولومبوس أعطت للعالم المسيحي حركية لا اعتيادية واسعة وإن لم تبلغ المستوى المطلوب. فالمحيط الوحيد والممتد الذي يطوق الأراضي المقسّمة والجزيرية، هو بلا شك ذلك الشريط الجغرافي الذي ضمن المستوى الأعلى من تركيز السيطرة على البحر وفي مجموع نظرية الاستراتيجية العسكرية البحرية المعاصرة، وهو ما كتب عنه الكابتن ماهان والسيد سبنسر ويلكينسون بكل تفصيل. والنتيجة السياسية لذلك كله تتلخص في تبدل العلاقات بين أوروبا وآسيا. ولا ينبغي أن ننسى أن أوروبا كانت في منتصف القرن، محصورة بين الرمال المستحيلة العبور في الجنوب، المحيط المجهول في الغرب، الجليد أو الغابات اللانهائية في الشمال والشمال الشرقي بينما كانت تهددها حركية الرحل غير المعتادة في الشرق والجنوب الشرقي. وها هي ذي الآن وقد تسامت على العالم بعد أن بلغت البحار الثمانية والثلاثين وغيرها من الأراضي وبسطت سلطانها حول الدول الأوراسية القارية التي كانت حتى الآن تهدد وجودها نفسه. وعلى الأراضي الحرة التي اكتشفت وسط الآماد المائية أقيمت أوروبات جديدة. وما كانت بريطانيا وسكاندينافيا بالنسبة للأوروبيين في الماضي تصير إليه الآن أمريكا وأوستراليا، بل وإلى حد ما أفريقيا عبر الصحراء والتي تتجاور الآن مع الأورو ـ آسيا. وتمثل بريطانيا، كندا، الولايات المتحدة، أفريقيا الجنوبية، أوستراليا واليابان طوقاً مميزاً يتكون من قواعد جزيرية مخصصة للتجارة وللقوى البحرية التي لا تطالها دول الأورو ـ آسيا البرية.

ومع كل هذا يواصل الآخرون وجودهم، وقد أكدت الأحداث الأخيرة أهميتهم، وبينما غطت الشعوب «البحرية» في أوروبا الغربية وجه المحيط بسفنها، وتوجهت إلى الأراضي البعيدة وفرضت، بهذه الطريقة أو تلك، إتاواتها على سكان ضفاف البحار في آسيا، قامت روسيا بتنظيم الكازاك، ولدى خروجها من غاباتها الشمالية بسطت سيطرتها على السهوب بوضع رحالتها الوطنيين في مواجهة

الرحّل ـ التتار. وعصر التيودورات(*) الذي رأى انفتاح أوروبا الغربية على الآماد البحرية شهد أيضاً تحرّك الدولة الروسية من موسكو باتجاه سيبيريا. إن وثبة الخيالة عبر آسيا بطولها كان حدثاً، وكان الحدث في الوقت نفسه محفوفاً بالتبعات السياسية، مثلما كان اجتياز رأس الرجاء الصالح، على الرغم من أن هذين الحدثين بقيا زمناً طويلاً لا يرتبط أحدهما بالآخر.

وربما يتمثل التطابق الأكثر إثارة للانطباع في التاريخ في كون التوسع البري والبحري لأوروبا قد واصل بمعنى من المعاني المواجهة القديمة بين اليونان والرومان. وما كان لعدة إخفاقات في هذا الميدان أن تحمل من التبعات ما حمله إخفاق محاولة روما في جعل الرومان لاتيناً. وقد كان التوتون متحضرين وتلقوا المسيحية عن الرومان، أما السلافيون ـ فعن اليونان. وفيما بعد كان الرومانو ـ توتون بالذات هم الذين خاضوا البحار؛ وكان اليونان ـ السلافيون هم الذين انطلقوا خبباً في السهوب وطوّعوا الشعوب الطورانية. وهكذا اختلفت الدول البرية المعاصرة عن البحرية حتى في منبع مثلها العليا لا في شروطها المادية وحركيتها[2].

وعلى أثر القوزاق ظهرت على خشبة المسرح روسيا التي ودعت بهدوء وحدتها التي كانت تعيشها في غابات الشمال. والتبدل الآخر ذو الأهمية الداخلية الخارقة للعادة، والذي حدث في أوروبا في القرن الماضي كان هجرة الفلاحين الروس إلى الجنوب، وهكذا فإذا كانت المستوطنات الزراعية تنتهي في الماضي عند الحدود مع الغابات فإن مركز سكان روسيا الأوروبية بكاملها ينبسط جنوبي هذه الحدود وسط حقول القمح التي حلت محل السهوب التي كانت قائمة هناك أو باتجاه أكثر غرباً. وبهذه الطريقة بالذات ظهرت مدينة أوديسا ذات الأهمية الخارقة والتي نمت بسرعة أمريكية صرفة.

منذ جيل واحد كان يتراءى لنا أن الباخرة وقناة السويس قد ضاعفتا من حركية الدول البحرية بالمقارنة مع الدول البرية. وكانت الطرق الحديدية تلعب، بالدرجة الأولى دور التابع في التجارة البحرية. إلا أن السكك الحديدية العابرة

(*) التيودور: أسرة ملكية في انجلترا، تسلمت العرش بين 1485 ـ 1603 ملوكها: هنري السابع، هنري الثامن، إدوارد السادس، ماري الأولى، إليزابيت الأولى (المترجم).

للقارات تبدل اليوم حالة الدول البرية، فهي لا تعمل في أي مكان بفعالية أكبر مما هي عليه في المناطق المركزية المغلقة من الأورو ـ آسيا، والتي يستحيل العثور في آمادها الواسعة على أي جذع شجرة أو حجر ملائم لبناء هذه السكك. السكك الحديدية تجترح في السهوب معجزات لم تعرف من قبل لأنها حلت بطريقة مباشرة محل الحصان والجمل، ولهذا فإن المرحلة الضرورية للتطور ـ الطرق، قد طبقت هنا.

وليس علينا عند دراسة الحالة مع التجارة أن ننسى أن الطرق البحرية، على الرغم من كونها رخيصة نسبياً، فإنها تقذف بالبضاعة عبر أربع مراحل ـ المصنع ـ المنتج، ترسانة المرسل، ترسانة المتلقي ومستودع البيع بالمفرق، هذا بينما تؤدي سكة الحديد القاريّة مباشرة من المصنع ـ المنتج إلى مستودع المستورد. وعلى هذا فإن التجارة البحرية البينية تؤدي، فضلاً عن الشروط المتساوية الأخرى، إلى إقامة منطقة تسلل حول القارات التي رسمت حدودها الداخلية بصورة فظة، بخط، تكون تكلفة عمليات النقل البحري والحديدي الأربع على طوله من الشاطىء المجاور معادلة لكلفة عمليتين مضافة إلى النقل عن طريق سكة الحديد القارية.

تنطلق السكك الحديدية الروسية على امتداد 6000 ميل من فيربالّين غرباً إلى ڤلاديڤوستوك شرقاً. والجيش الروسي في منشوريا يعد شاهداً بديعاً على القدرة الحركية البرية، بينما تقدم بريطانيا في جنوب أفريقيا الشاهد على الدولة البحرية. ومن الطبيعي أن الخط الحديدي عبر سيبيريا يظل مثلما كان خط الاتصال الوحيد والبعيد عن الأمان، ولكن لن يمر قرن واحد إلا وتكون آسيا قد غطيت بشبكة من السكك الحديدية. وأبعاد المساحات الترابية في الإمبراطورية الروسية ومنغوليا ضخمة جداً وإمكاناتها بالنسبة لحجم السكان، الحبوب، والقطن، والوقود، والمعادن عالية إلى درجة أنه لا بد وأن ينفتح هنا ودون شك عالمها الاقتصادي المهول الذي قد يكون بعيداً إلى حد ما لكنه فوق طاقة التجارة البحرية.

وعندما نلقي بنظرة سريعة على التوجهات الأساسية للتاريخ، ألا نرى بكل وضوح الثبوتية في الميدان الجغرافي؟ ألا تبدو منطقة محورية في السياسة العالمية هذه الرقعة الواسعة من الأورو ـ آسيا العصيّة على المراكب البحرية لكنها كانت في القديم سهلة المنال بالنسبة للرحل، المنطقة التي ينبغي أن تغطي اليوم بشبكة من السكك الحديدية؟ لقد توفرت هنا ولا تزال تتوفر الشروط الواعدة كثيراً (وإن كانت

مقيدة بعامل محدَّد) من أجل تطوير الدول العسكرية والصناعية. روسيا تحل محل الإمبراطورية المنغولية وضغطُها على فنلندة، سكاندينافيا، بولندة، تركيا، فارس، الهند والصين حل محل غارات السهوبيين التي كانت تنطلق من مركز واحد. وتحتل روسيا في هذا العالم موقعاً استراتيجياً مركزياً كالموقع المخصص لألمانيا في أوروبا. وبإمكانها أن تسدد الضربات وأن تستقبلها في الوقت نفسه من كافة الاتجاهات باستثناء الشمال. والتطور النهائي لحركيتها والمرتبط بالسكك الحديدية ليس إلا مسألة وقت. ولن تبدل أي ثورة اجتماعية علاقاتها بالحدود الجغرافية الكبرى لوجودها. ومن خلال الفهم الواعي لقوتهم تخلّى حكامُ روسيا عن الألاسكا، فمن الناحية الواقعية يبدو أن عدم استملاك أية أراض ما وراء البحار ـ قاعدة بالنسبة للسياسة الروسية مثلما أن بسط الحكم على الآماد البحرية ـ قاعدة بالنسبة لبريطانيا.

خارج حدود هذه المنطقة المحورية يوجد هلال داخلي كبير يضم ألمانيا، النمسا، تركيا، الهند والصين وهلال خارجي ـ بريطانيا، أفريقيا الجنوبية، أوستراليا، الولايات المتحدة، كندا واليابان. وفي الحالة الأخيرة للتوازن لا تتكافأ الدولة المحورية، روسيا مع دول الأطراف. ويمكن أن تقوم فرنسا هنا بدور الوزن المقابل. وقد صارت الولايات المتحدة حديثاً دولة شرقية. وهي تؤثر على توازن القوى لا بطريقة مباشرة بل عبر روسيا وليس ثمة أي شكوك في أنها ستبني قناة بناما لتيسّر ضخ موارد الميسيسيبي والأطلسي في المحيط الهادي. ومن وجهة النظر هذه ينبغي البحث عن خط الفعل الواقعي بين الشرق والغرب في الأطلسي بالذات[3].

إن الإخلال بتوازن القوى لصالح الدولة المحورية، والمتمثل في توسعها على حساب الأراضي الحدودية للأورو ـ آسيا، يسمح باستخدام الموارد القارية التي لا تحيط بها الأبصار، من أجل بناء الأسطول. وبفضل ذلك ستبرز قريباً أمام عيوننا إمبراطورية عالمية. ويمكن لذلك أن يتحقق إذا ما رغبت ألمانيا في الانضمام إلى روسيا كحليف. هوذا السبب الذي يجعل التهديد بقيام مثل هذا الحلف لا بد وأن يدفع بفرنسا إلى أحضان الدول البحرية، وعند ذلك تشكل فرنسا، إيطاليا، مصر، الهند وكوريا تلك الوحدة القوية التي يقوم الأسطول فيها بدعم الجيش وهو ما يجبر حلفاء المحور في نهاية المطاف على تعزيز قواهم البرية

لصرفهم عن تركيز كل قواهم في البحار. وإذا قمنا بإجراء مقارنة أكثر تواضعاً فإنه يشابه ما كان يقوم به ويلينغتون خلال العمليات القتالية من قاعدة تورّيس فيرداس. ثم ألم تتمكن الهند في نهاية المطاف من أن تلعب الدور نفسه في نظام الإمبراطورية البريطانية؟ ثم أليست هذه هي الفكرة الكامنة في أساس منظومة المستر آميري الذي كان يقول بأن جبهة العمليات القتالية تمتد بالنسبة لبريطانيا من رأس الرجاء الصالح عبر الهند وحتى اليابان.

إن تطوير الإمكانات المهولة لأمريكا الجنوبية يمكن أن يترك تأثيره الحاسم على هذا النظام. ذلك أن بإمكانها تعزيز مواقف الولايات المتحدة من جهة، ومن جهة أخرى يمكن لألمانيا بالطبع أن تقوم بتحد فعال لمبدأ مونرو بمقدور تلك الإمكانيات أن تقطع توجه برلين عما كنت قد وصفته بسياسة المحور. والتراكيب الجهوية للدول الكبرى لا معنى لها هنا. وأفترض أنها من وجهة النظر الجغرافية تقدّم بما يشبه الدوران الدائري حول دولتها الخاصة والتي تبدو عظيمة دوماً بهذه الصورة أو تلك، لكنها تملك قدرة حركية محدودة بالمقارنة مع الدول الحدودية أو الجزيرية المحيطة.

أتكلم عن هذا كله كجغرافي. أما التوازن الحقيقي للثورة السياسية في كل لحظة محدّدة، فهو من جهة، نتيجة للشروط الجغرافية (بالإضافة إلى الاقتصادية والاستراتيجية) ومن جهة أخرى نتيجة التعداد النسبي للسكان، الشجاعة، التزويد والتنظيم لدى الشعوب المتنافسة. فإذا ما احتسبنا بدقة تعداد هذا كله أمكننا أن نتنبأ مسبقاً بنتيجة المباراة دون اللجوء إلى قوة السلاح. والمؤشرات الجغرافية أكثر استعمالاً في الحسابات وأكثر ديمومة من المؤشرات البشرية. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نأمل بالوصول إلى المعادلة التي يمكن تطبيقها بدرجة متكافئة على التاريخ الماضي وعلى السياسة الحاضرة. لقد كانت الحركات الاجتماعية تحمل في كافة العصور وإلى حد تقريبي الملامح الفيزيائية نفسها، ذلك لأنني أرتاب في أن يكون الجفاف المتعاظم للطقس، هذا إذا تمت البرهنة عليه، قد بدّل في زمن تاريخي الوسط المحيط في آسيا وأفريقيا. وحركة الإمبراطورية نحو الغرب تبدو لي أقرب إلى أن تكون دورة قصيرة الأمد للدول الحدودية حول الزاويتين الجنوبية الغربية والغربية من المنطقة المحورية. إن المشاكل المتعلقة بالشرق الأدنى، والأوسط، والأقصى ترتبط بالتوازن غير الثابت بين الدول الداخلية والخارجية

وتلك الأجزاء من الهلال الحدودي حيث لا تؤخذ الدول المحلية المتوضعة هناك تقريباً في الحسبان.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن استبدال سيطرة روسيا بأي شكل آخر من أشكال السيطرة القارية الداخلية لن يؤدي إلى تقليص أهمية هذا الموقف المحوري. فلو قام الصينيون، على سبيل المثال، بمساعدة اليابان بضرب الإمبراطورية الروسية واحتلوا أراضيها لخلقوا خطراً أصفر على الحرية العالمية وذلك بإضافة الآماد البحرية إلى موارد القارة العظمى ولحققوا بهذه الطريقة أفضلية لم يصل إليها حتى الآن المالك الروسي لهذه المنطقة المحورية.

الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا(4)

لروسيا عدد من الأسباب يفوق بكثير ما لدى الصين من الأسباب التي تسمح بتسميتها دولة متوسطة («تشجون ـ غو» بالصينية). وكلما تقادم الزمن ـ ازدادت هذه الأسس بروزاً. فليست أوروبا بالنسبة لروسيا إلا شبه جزيرة من البر القديم تمتد إلى الغرب من حدودها. أما روسيا نفسها فتشغل في ذلك البر مجاله الأساسي، جذعه. وإلى هذا فإن المساحة المشتركة للدول الأوروبية معاً تقترب من 5 ملايين كيلو متر مربع. أما مساحة روسيا في حدود الاتحاد السوفياتي المعاصر على الأقل فتربو بصفة خاصة على الـ20 مليون كيلو متر مربع. (على الخصوص إذا أضفنا إليها أراضي جمهوريتي منغوليا وتوڤا الشعبيتين ـ واللتين كانتا «منغوليا الخارجية»، «وإقليم ريان خوي» والموجودتان في اللحظة الراهنة في وضعية جزئي الاتحاد السوفياتي من الناحية العملية).

في نهايات القرن التاسع عشر ـ وبداية القرن العشرين كان الروس ينسون الآماد الممتدة خلف الأورال إلا في استثناء نادر (وأحد الذين تذكروها كان العالم الكيميائي الروسي العبقري د. إ. مندلييف). أما اليوم فقد حلت أزمنة جديدة «فمجمّع أورالو ـ كوزنيتسكي» بمجموعه، بأفرانه العالية، ومناجم فحمه، ومدنه الجديدة، وتضم كل منها ـ مئة أو مئتي ألف ساكن ـ يقام **وراء الأورال**. وهناك أيضاً يقيمون «التوركسيب»، ولم يسبق لانتشار الثقافة الروسية أن سرى بمثل هذا الاتساع والعفوية كما سرى في الجزء الآخر من زاأوراليه(*) ـ في ما يسمى «جمهوريات آسيا الوسطى» (تركمانيا، طاجيكستان، أوزبكستان وقرغيزيا). وينبعث

(*) زاأوراليه: (بالروسية) ـ ما وراء الأورال (المترجم).

هنا جذع الأراضي الروسية ـ «من عَقْرَبَي نيغوريلي وحتى محطة سوتشان». وللأوراسيين نصيب من الفضل في منعطف الأحداث هذا. ومعه تتكشف بصورة بالغة الوضوح طبيعة العالم الروسي، **كعالم مركزي** للبر القديم. وكانت هناك لحظات بدا فيها أن بين الأطراف الغربية ـ أوروبا التي كانت تنسب إليها روسيا ما قبل الأورال («روسيا الأوروبية» لدى الجغرافيين القدماء) وآسيا (الصين، الهند وإيران) يمتد الفراغ. والتكوين الأوراسي للواقع الروسي الحالي يملأ هذا الفراغ بنبض الحياة الحية. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر كان الطريق المباشر من أوروبا إلى الصين واليابان يمتد عبر روسيا (سكة الحديد السيبيرية العظمى). وتشير الجغرافيا بقدر كامل من انتفاء الشك إلى أن الطرق ينبغي ألاّ تمد بطريقة أخرى من أوروبا (الشمالية على أية حال) إلى إيران، الهند، والهند الصينية. وهذه الإمكانات لم تتحقق على أرض الواقع حتى الوقت الحاضر والسكة الحديدية عبر الفارسية والتي تخترق فارس متجهة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي والمتصلة بشبكة الخطوط الحديدية التابعة للهند البريطانية ولأوروبا أيضاً (ما وراء القوقاز والقرم وأوكرانيا) كانت وشيكة التحقيق قبيل الحرب العالمية. أما في العصر الحاضر وبفعل الظروف السياسية فقد تراجعت إلى ميدان المشاريع العديمة الأسس. وليس ثمة ربط بين سكك حديد تركستان الروسية («جمهوريات آسيا الوسطى») والهند كما لا يوجد توجه لشبكة سكك الحديد الروسية نحو مركز الترانزيت الأوروبية ـ الهندية. ولكن مثل هذه الحركة ستصبح حقيقة واقعة عاجلاً أم آجلاً سواء أكان ذلك في صيغة طرق سكك حديد أو خطوط سيارات أو خطوط جوية. وبالنسبة لهذه الأخيرة فإن للمسافات الأقصر التي تقدمها روسيا أهمية كبرى خاصة. وكلما زاد الوزن الذي تكتسبه الاتصالات الجوية مضافاً إلى ما يتسم به هذا النوع من المواصلات من الرغبة في **الطيران المباشر** ازداد وضوحاً دور روسيا ـ الأوراسيا كـ «عالم متوسط» ويمكن للخطوط العابرة للقطب أن تضاعف من قوة هذا الدور. ففي الشمال الأقصى تبدو روسيا على مسافات هائلة جاراً لأمريكا. وبافتتاح الخطوط عبر القطبية أو بكلمة أدق فوق القطب ـ تصبح حلقة وصل بين **آسيا وأمريكا الشمالية**.

ويجري الحديث في المقالات التالية حول رغبة الأوراسيين في تقديم التوليفة الروحية للبدايات الشرقية والغربية. ومن المهم الإشارة هنا إلى تلك التطابقات التي

يبديها **ميدان الجيوبولتيكا** لهذه الرغبة. فروسيا ـ الأوراسيا هي مركز العالم القديم. أبعدوا هذا المركز ـ وإذا كل أجزائه المتبقية، وكل هذا النظام من الأطراف البرية (أوروبا، آسيا الصغرى، إيران، الهند، الهند الصينية ـ الصين، واليابان) ـ تتحول إلى ما يشبه «المبنى المبدَّد». هذا العالم الممتد من حدود أوروبا وإلى الشمال من آسيا «الكلاسيكية» يشكل تلك الحلقة التي تؤلف بينها جميعاً في وحدة متماسكة. وهذا ما نراه في الواقع المعاصر، وهو ما سيغدو أكثر حضوراً في المستقبل. والدور الرابط والموحّد «للعالم المتوسط» ينعكس أيضاً في التاريخ. فعلى مدى عدد من آلاف السنين كان الرجحان السياسي في العالم الأوراسي يعود للرحَّل. وبعد أن شغل هؤلاء المساحة من أوروبا الأمامية وحتى حدود الصين متلصّقين في الوقت نفسه بآسيا الصغرى وإيران والهند كان الرحّل وسطاء بين عوالم متبعثرة من عوالم الثقافات المستمرة والتي لا تزال في حالتها الانطلاقية الأولى. ونضيف إلى أن العلاقات بين إيران والصين لم تكن وثيقة خلال التاريخ مثلما كانت في عصر السيادة المنغولية (القرون ـ الثاني عشر والرابع عشر) وقبل ثلاثة عشر ـ أربعة عشر قرناً من ذلك وبصفة استثنائية وفقط في العالم الأوراسي المترحل تقاطعت إشعاعات الحضارتين الهيلينية والصينية حسبما أظهرت الحفريات الأحدث في منغوليا. والعالم الروسي مدعو بقوة الحقائق التي لا تُدحض إلى لعب الدور الموحِّد في نطاق العالم القديم. وفقط بمقدار ما تؤدي روسيا ـ الأوراسيا رسالتها هذه يمكنها أن تدور وتدور في كلٍّ متكامل عضوي كلّ مجموعة الثقافات المختلفة في البر القديم وتزال المواجهة ويزال التناقض بين الشرق والغرب. وهذا الشرط لم يجر وعيه بصفة كافية بعد في عصرنا إلا أن العلاقات المعبّر عنها من خلاله تكمن في طبيعة الأشياء. فمهام التوحيد هي بالدرجة الأولى **مهام إبداع ثقافي**. وفي صيغة الثقافة الروسية نبتت في مركز العالم القديم قوة تاريخية مستقلة جديدة لتؤدي الدور التوحيدي والتوفيقي فلا يمكنها أن تحقق مهمتها إلا بالتفاعل مع ثقافات جميع الشعوب المحيطة. وفي هذا السياق تكتسب ثقافات الشرق بالنسبة لها نفس الأهمية التي تكتسبها ثقافات الغرب. في مثل هذا التوجه **في وقت واحد وبوتيرة واحدة** نحو الشرق ونحو الغرب ـ تتجلى خاصية الثقافة الروسية والجيوبولتيكا الروسية. فهاتان بالنسبة لروسيا ـ جبهتاها المتكافئتان ـ الغربية والجنوبية ـ الشرقية ـ يمكن ويجب أن يكون حقلاً روسيا على الأغلب.

فلنعد الآن إلى مظاهر ذات نظام جغرافي محض. فبالمقارنة مع «الجذع» الروسي، تمثل أوروبا وآسيا بدرجة واحدة أطراف العالم القديم. وأوروبا إلى جانب ذلك، ومن وجهة النظر الروسية ـ الأوراسية ـ كل ما يمتد **إلى الغرب** من السهل الروسي، وآسيا ـ كل ما يمتد إلى الجنوب **والجنوب الشرقي** منها، حسبما يقال. أما روسيا نفسها فليست آسيا ولا أوروبا ـ هوذا المنطلق الجيوبولتيكي الأساسي للأوراسيين. ولهذا ليس ثمة روسيا «أوروبية» ولا «آسيوية» بل ثمة أجزاء منها ممتدة إلى الغرب وإلى الشرق من الينيسي وهكذا. ويواصل الأوراسيون قولهم: روسيا ليست آسيا ولا أوروبا لكنها عالم جغرافي خاص. فبم يتميّز هذا العالم عن أوروبا وآسيا؟ تتميّز الأطراف الغربية، الجنوبية، والجنوبية ـ الشرقية من البر القديم بوفرة الخلجان والرؤوس لشطآنها مثلما تتميّز بتنوع شكل تضاريسها. وهذا ما لا يمكن قوله عن «الجذع» الأساسي الذي يكوّن، حسبما سبق، روسيا الأوراسيا.

وهو يتألف بالدرجة الأولى من ثلاثة سهول «البيلوموري» القوقازي، السيبيري الغربي، والتركستاني، ثم من المناطق الممتدة إلى شرقية (بما في ذلك من بلدان جبلية قليلة الارتفاع ـ إلى الشرق من نهر الينيسي) والتكوين الإقليمي للأطراف الغربية والجنوبية من اليابسة تتميز بملامح «موزاييكة ـ دقيقة» وبعيدة عن البساطة. فالأماكن الغابية في حالتها الطبيعية تستبدل هنا في تتابعها الغريب، من جهة بالمناطق السهبية والصحراوية، ومن جهة أخرى بمناطق التوندرا (على الجبال العالية). وهذا «الموزاييك» يقابل في السهول المتوسطة من العالم القديم بتوضع المناطق البسيط نسبياً، والشبيه بـ«العَلَم». وبهذا التشبيه الأخير نشير إلى تلك الخاصية، وهي أنه عندما ينقل إلى الخارطة يذكر بخطوط عَلَم قسم وفق خطوط أفقية. وفي الاتجاه من الجنوب إلى الشمال تحل الصحراء والسهب والغابة والتوندرا، أحدها محل الآخر. وكل واحدة من هذه المناطق تشكل شريطاً عرضانيا متراصاً. والتعضي العرضاني العام للعالم الروسي يزداد وضوحاً فوق ذلك بغلبة التوضع العرضاني لامتداد السلاسل الجبلية التي تطوق هذه السهول المشار إليها من الجنوب. سلسلة جبال القرم، السلسلة القوقازية وكوبيتداغ، بارباميز، هيندوكوش، سلاسل تيان شان الأساسية، السلاسل على الأطراف الشمالية من التيبت، أين شان في منطقة سور الصين العظيم. والأخيرة من بين السلاسل التي

ذكرناها، من الجنوب السهل المرتفع الذي تشغله صحراء غوبي وهي ترتبط بسهل تركسَتان عبر بوابة جونغار.

في البنية الإقليمية لليابسة في العالم القديم يمكن ملاحظة ملامح التناظر الشرقي ـ الغربي الطريف والذي ينعكس في كون توضع الظواهر في طرفه الشرقي شبيه بتوضعها في الطرف الغربي ويتميّز عن طابع الظواهر في القسم الأوسط من اليابسة. كما أن الطرفين الشرقي والغربي من اليابسة (الشرق الأقصى وأوروبا) بين درجتي عرض 35 و60 شمالاً تبدو في حالتها الطبيعية مناطق غابية. فالغابات الشمالية تتجاور هنا مباشرة وتتداخل تدريجياً في غابات النباتات الجنوبية. ولا نلاحظ أي شبيه بذلك في العالم المتوسط. وغابات النباتات الجنوبية لا تتوفر فيه إلا ضمن مناطق طوقه الجبلي (القرم ـ القوقاز ـ تركستان). وهي لا تتلاصق في أي مكان بغابات النباتات الشمالية أو المتأثرة برياح الشمال، فهي مفصولة عنها بشريط سهبي ـ صحراوي متراص. وعلى هذا يمكن تعريف الجزء المتوسط من العالم القديم بأنه منطقة شريط سهبي وصحراوي يمتد خطاً غير متقطع من الكاربات إلى خينغان يؤخذ مع إطاره الجبلي (في الجنوب) والمناطق الممتدة إلى شماليه (المناطق الغابية والتوندرا) والأوراسيون يسمّون هذا العالم بالأوراسيا في المعنى الدقيق للكلمة (Eurasis sensu stricto) وينبغي تمييزها عن «أوراسيا» القديمة لـ أ. فون هومبلدت التي تشمل كل اليابسة القديمة (Eurasis sensu latiore).

الحدود الغربية للأوراسيا تمر بعتبة البحر الأسود ـ والبلطيق أي في المنطقة التي تضيق فيها اليابسة (بين البحرين البلطيق والأسود). عبر هذه العتبة وفي الاتجاه العام من الشمال ـ الغرب إلى الجنوب الشرق، تمر مجموعة من الحدود النباتية ـ الجغرافية ذات الدلالة، كالحدود الشرقية المكونة من السد ـ الجبلي والزان والقطيفة طويلة الزئبر، وكل واحدة منها تبدأ على ضفاف بحر البلطيق وتنتهي بعد ذلك على ضفاف البحر الأسود. وإلى الغرب من الحدود المشار إليها يتسم انفساح المنطقة الغابية على مجموع الامتداد من الشمال إلى الجنوب بطابع اللاانقطاع. وإلى الشرق منها يبدأ التعضي إلى منطقة غابية، في الشمال وإلى سهبية في الجنوب. وهذا الحد يمكن أن نعدّه الحدود الغربية للأوراسيا أي إن حدودها مع آسيا في الشرق الأقصى تتناهى في خطوط طول اضمحلال الشريط السهبي المتراص لدى اقترابها من المحيط الهادي أي في خطوط طول خينغان.

العالم الأوراسي عالم «النظام الدوري» للمناطق والمتناظر في الوقت نفسه. حدود المناطق الأوراسية الأساسية مؤقتة بدقة ملموسة مع استمرار الفصول المناخية المحدّدة. فالحدود الجنوبية للتوندرا ـ على سبيل المثال ـ تقابل الخط الذي يصل النقاط ذات الرطوبة النسبية السنوية المتوسطة عند الساعة الواحدة ظهراً حوالي 79,5٪ (للرطوبة النسبية عند **الواحدة ظهراً** أهمية كبرى خاصة بالنسبة لحياة النبات والتربة). والحدود الجنوبية للمنطقة الغابية تمتد بامتداد الخط الذي يصل بين نقاط تصل رطوبتها النسبية إلى 67,5٪ ومع الحدود الجنوبية للسّهب (عند تلاصقها مع الصحراء) تتفق رطوبة نسبية مماثلة عند الساعة الواحدة ظهراً بمقدار 55,5٪ وهي في كل مكان بالصحراء أدنى من هذا الحجم. ويلفت النظر في هذا المكان تساوي التقطعات التي تشمل المناطق الغابية والسهبية. ويمكن التأكد من مثل هذا التطابق ومثل هذا التوزع الإيقاعي للتقطعات بواسطة مظاهر أخرى (انظر كتابنا «خصائص روسيا الجغرافية»، الجزء الأول، براغ، 1927) وهذا ما يطرح الأسس للحديث عن «النظام الدوري للمناطق في روسيا ـ الأوراسيا»، وهو أيضاً نظام تناظري ولكن لا بمفهوم التناظرات ـ الشرقية ـ الغربية التي تحدثنا عنها فيما سبق بل في مفهوم التناظرات الجنوبية ـ الشمالية. لا غابيّة الشمال (التوندرا) تقابلها لا غابية الجنوب (السهب) ووجود الكالسيوم ونسبة الدُّبال في التربة من الأجزاء المتوسطة من منطقة الأراضي السوداء تتضاءل بصورة متناظرة نحو الشمال ونحو الجنوب. والتوزع التناظري للمظاهر يلاحظ بطابع لون التّربَتَيْن. وهو يبلغ في حدوده القصوى في تلك الأجزاء الوسطية من المنطقة الأفقية ويتضاءل بالاتجاه نحو الشمال ونحو الجنوب (الانتقال من اللوينات البنيَّة إلى المبيضة) في الأسس الرملية والحجرية ـ من الحدود بين المنطقة الغابية والسهبية تفترقان تناظرياً: الجزر السهبية نحو الشمال والغابات «الجزيرية» نحو الجنوب. وهذه الظاهرة يعرّفها العلم الروسي بـ «ما فوق المنطقية» والقطع السهبية في المنطقة الغابية يمكن وصفها بظاهرة «حاملة الجنوب» أما الغابات الجزيرية في السهب فهي ظواهر «حاملة الشمال». والتكوينات حاملات الجنوب في المنطقة الغابية تقابل التكوينات حاملات الشمال في السهب.

لم تتجسد تدرجية الانتقالات ضمن إطار النظام الإقليمي، و«دوريتها» و«تناظريتها» في الوقت نفسه في أي مكان من العالم القديم بالوضوح الذي

تجسدت به في سهول روسيا ـ الأوراسيا.

للعالم الروسي نظام جغرافي **بالغ الشفافية**. والأورال في هذه التركيبة لا يملك على الإطلاق ذلك الدور المحدَّد والفاصل الذي هيأته له (ولا تزال تهيئه)، الـفـامـبـوكـا(*) الجغرافية. «فالأورال بفضل خصائصه الأوروغرافية(**) والجيوبولتيكية، لا يحجم فقط عن أن يكون فاصلاً، بل هو على العكس من ذلك، يربط، وبالصورة الأشد اتثاقاً، بين روسيا ما قبل الأورال وما بعد الأورال»، مؤكداً مرة أخرى على أنهما مجتمعان جغرافيا ويشكلان قارة الأوراسيا الواحدة التي لا تتجزأ. فالتوندرا ـ كمنطقة عرضانية ـ تمتد إلى الغرب وإلى الشرق من الأورال. والغابة تنتشر في هذه الجهة وفي تلك والأمر لا يختلف بالنسبة للسهب وللصحراء (وهذه الأخيرة تزنّر التتمة الجنوبية للأورال ـ الموغوجاري من الشرق إلى الغرب). ولا نلاحظ عند تخوم الأورال تبدلاً ملموساً في الوضع الجغرافي. والأكثر توكيداً على ذلك هو الحد الجغرافي «ما بين البحار» أي المدى المكاني بين البحرين الأسود والبلطيق من جهة، وبين بحر البلطيق وضفاف النرويج الشمالية ـ من جهة أخرى.

وبنية روسيا ـ الأوراسيا الجغرافية الخاصة البالغة الوضوح والبسيطة في الوقت ذاته ترتبط بعدد من الشروط الجيوبولتيكية الأهم.

إن طبيعة العالم الأوراسي ذات حد أدنى من الملاءمة لأي نوع من «الانفصالية» ـ السياسة منها والثقافية أو الاقتصادية. والبنية «الموزاييكية» ذات التكوينات الجزئية لأوروبا وآسيا تساعد على قيام عوالم صغيرة معزولة مغلقة. فهنا تتوفر الأسس المادية لوجود دول صغرى وأنماط ثقافية خاصة لكل مدينة أو ضاحية، ومناطق اقتصادية ذات تنوع اقتصادي كبير فوق مساحة ضيقة. والأمر يختلف كلية في الأرواسيا. فالمنطقة التي فصّلت على نطاق واسع والخاصة

(*) ڤامبوكا: أوبرا ساخرة تعرّض باشتراطية العروض المسرحية وتقاليدها البالية. وضع موسيقاها ف. إيرينبورغ وعرضت في بطرسبرج سنة 1909 ثم صارت الكلمة تطلق على كل ما يمثل الاصطناعي والمفتعل على المسرح (المترجم).

(**) الأوروغرافيا: قسم من الفيزياء الجغرافية يدرس سطح الأرض (من اليونانية أوروس ـ جبل ـ غرافو ـ أكتب) (المترجم).

بتوضع المناطق «الشبيه بالعلم» لا تشجع على أي شيء من هذا القبيل. فالسهول التي لا تنتهي تعوِّد على اتساع الأفق، وعلى جسامة التكوينات الجيوبولتيكية. وفي إطار هذه السهوب ومن خلال التنقل فوق هذه الأصقاع وفي إطار الغابات ـ وعبر مياه الأنهار والبحيرات الكثيرة هنا، كان الإنسان في هجرة دائمة، يبدّل مكان إقامته دون توقف. فدخلت العناصر الإتنية والثقافية في تبادل متسارع، في تلاقح واختلاط. وأحياناً ما كانت الحياة ممكنة في أوروبا وآسيا من خلال مصالح كل مجرس(*) **لوحده**. أما في الأوراسيا فإذا ما حدث ذلك ففي المفهوم التاريخي لآونة بالغة القصر. في شمالي الأوراسيا مئات آلاف الكيلومترات المربعة من الغابات ليس منها كيلومتر واحد محروث، فكيف لسكان هذه الآماد أن يعيشوا بدون التواصل مع المناطق الأبعد نحو الجنوب؟ وفي الجنوب وعلى آماد لا تقل اتساعاً تنبسط السهوب الصالحة للرعي وإلى حد ما للزراعة، وإزاء ذلك فعلى مدى أعداد كبيرة من آلاف الكيلومترات لا توجد شجرة واحدة فكيف لسكان هذه الأصقاع أن يعيشوا بدون التفاعل الاقتصادي مع الشمال؟ إن طبيعة الأوراسيا تملي على الناس ضرورة التوحد السياسي والثقافي والاقتصادي بصورة أكبر بكثير مما نلاحظهم في أوروبا وآسيا. وليس عبثا أن ينشأ في حدود السهوب والصحارى الأوراسية بالذات ذلك النمط «الموحد»، نمط حياة الرحل ـ على مدى وجوده المعيشي بأكمله: من المجر إلى منشوريا وعلى كامل مسيرة التاريخ من الصقالبة وحتى المغول المعاصرين. وليس عبثاً أن تتوالد في صقاع الأوراسيا أمثال تلك التجارب التوحدية السياسية كالصقالبية، والهونية، والمنغولية (القرنان الثالث عشر ـ الرابع عشر) وغيرها. وما كانت هذه المحاولات تشمل السهب والصحراء فحسب بل والمنطقة الغابية الممتدة إلى شماليها والمنطقة الأبعد جنوبيها (الزنّار الجبلي» من الأوراسيا. فليس عبثاً أن ترفرف على الأوراسيا روح «أخوة الشعوب» الخاصة التي تمتد بجذورها في التواصلات العريقة والانصهارات الثقافية بين شعوب الأعراق الأشد تباعداً ـ من الجرماني (غوت القرم) والسلافي وحتى التونغوزي ـ

(*) على الرغم من غرابة التعبير بالعربية فقد آثرنا الإبقاء عليه في الروسية بالدقة المطلوبة. والمجرس: البرج المخصص للجرس فوق مبنى الكنيسة أو بجانبها، ورأى «من مجرسه» تعبير روسي يعني من وجهة نظره الشخصية الضيقة (المترجم).

المنشوري، عبر حلقات الشعوب الفنلندية، التركية والمنغولية. و«أخوة الشعوب» هذه تتجسد هنا من خلال غياب المواجهة بين الأعراق «العليا» و«الدنيا». وإن التجاذبات المتبادلة هنا أقوى من المنفّرات، وإنّ من السهل هنا أن تستيقظ «**إرادة العمل المشترك**». وما تاريخ الأوراسيا من فصوله الأولى وحتى الأخيرة إلا شاهد متواصل على ذلك. وقد تبنت روسيا هذا التقليد في إنجازها التاريخي الأساسي. ففي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ضللوا بعض الأحيان بـ«الغربنة» المتعمدة التي كانت تطالب الروس بأن يحسّوا أنفسهم «أوروبيين» (وهو ما لم يكونوه في واقع الحال) وأن يعاملوا الشعوب الأوراسية الأخرى على أنها «آسيوية» أو «عرق أدنى» وهذا التفسير ما أوصل روسيا إلى أي شيء سوى المآسي كالمغامرة الروسية في الشرق الأقصى(*) عند بداية القرن العشرين)، وينبغي أن نعقد الأمل على أن يكون الوعي الروسي قد تخلص في الوقت الحاضر وإلى النهاية من هذا التصوّر وأن يكون أتباع «الغربنة» الروسية الذين لا يزالون يختبئون في المهجر قد جردوا من أي أهمية تاريخية. فبالتخلص من الغربنة المتعمدة فقط ينفتح الطريق إلى الأخوة الحق للشعوب الأوراسية: السلافية، الفنلندية، التركية، المنغولية وسواها.

وقبل ذلك لعبت الأوراسيا الدور التوحيدي في العالم القديم. وعلى روسيا المعاصرة، وقد تبنت هذا التقليد، أن تكف بحزم، وبلا عودة، عن الأساليب السابقة للتوحّد، والعائدة لعهد مهترىء تم التخلص منه ـ أساليب العنف والحرب. العمل يدور اليوم حول طرق الإبداع الثقافي، حول الإلهام، حول الاستنارة، والتعاون. وعن هذا كله يتحدث الأوراسيون. وعلى الرغم من كافة وسائل الاتصال المعاصرة، فإلى حدود بعيدة لا يزال كل شعب من شعوب أوروبا وآسيا يجلس في قفصه الصغير وتعيش هذه الشعوب وفق مصالح المجرس، «مهد التطور» الأوراسي يدعو بخصائصه المميّزة إلى العمل المشترك. وعلى رسالة الشعوب الأوراسية ـ أن تجتذب بمثالها الشعوب الأخرى إلى هذه الدروب.

(*) الأغلب أنّ ب. سافيتسكي قد أراد بذلك الحرب الروسية ـ اليابانية (1904 ـ 1905) بهدف السيطرة على شمال شرق الصين وكوريا. انتهت الحرب بهزيمة روسيا وبمعاهدة بورتسموث سنة 1905 وقربت اندلاع ثورة 1905 ـ 1907 في البلاد (المترجم).

وآنذاك يمكن أن تكون أيضاً نافعة للعمل الكوني كله صلات القرابة الاتنوغرافية تلك والتي يرتبط بها عدد من الشعوب الأوراسية مع بعض الأمم خارج الأوراسية: روابط الروس الهندأوروبية، علاقات الترك الأوراسيين مع آسيا الصغرى وإيران، نقاط التواصل القائمة بين المنغول الأوراسيين وكلها يمكن أن تحمل الفائدة لصالح بناء ثقافة عضوية جديدة **للعالم** الذي، وإن كان **قديماً**، لكنه لا يزال (نؤمن بذلك) فتياً يعد بمستقبل عظيم.

الشيوعيّة فوق الإنسانيّة
(رسالة إلى قارىء ألماني)[5]

سيستخدم التاريخ المعاصر في المستقبل مفهوم الدولة لا ذات المساحة المعينة بل القارية. ولقد كنت عامي 1962 ـ 1963 قد صورت في كتابي «أوروبا ـ امبراطورية الأربعمئة مليون نسمة» بكثير من التفصيل طرق إنشاء أوروبا «من دوبلين إلى بخارست». ولما كنت شاهداً على ما يسمى بـ«الحملة الصليبية» 1941 ـ 1945 فقد أكدت سنة 1963 أن على أوروبا هذه أن تتجنب، بأي ثمن، النزاع مع الشرق بل والأكثر من ذلك ألاّ تكن له العداوة.

إن تسارع مسيرة التاريخ يضطرني منذ اليوم إلى القول بأن الحديث الآن ينبغي أن يتناول لا التعايش السلمي بين أوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي بل إقامة أوروبا الموحدة من ڤلاديفوستوك إلى دوبلن. وينبغي إدراك أن روسيا تنتمي إلى عداد الدول الأوروبية، وأنها الدولة الأوروبية الوحيدة المستقلة عن الإمبراطورية الأمريكية.

إن تفكيرنا التاريخي يجب أن ينصرف عن نمط الايديولوجية السائدة في الاتحاد السوفياتي الحالي. والشيوعية الماركسية ـ ليست أمراً مرعباً بل أمرٌ غبي. وعلى هذه الايديولوجية أن تزول تحت ضغط الحقائق. وهي ستزول إذ إن القيادة السوفياتية ستدرك في يوم يبدو أنه لم يعد بعيداً إن الضعف المزمن لاقتصاد الاتحاد السوفياتي مشروط بالذات بالعقائد الماركسية الجامدة. وإذا كانت القيادة السوفياتية حريصة على البقاء في السلطة ـ ويرتبط هذا بمسألة هل يبقى الاتحاد السوفياتي على قيد الحياة ـ فعليها أن تقوم بانعطاف باتجاه «النمط التاريخي

للتفكير» وأن تتخلص من العقائدية التي تميل بها إلى الضعف.

إن الحد الذي يمر عبر خط لوبيك ـ صوفيا لا يزال تُرهة تاريخية. فهو بطريقة محتومة، يذكر بتقسيم ألمانيا في منتصف القرن السابع عشر بين الدول البروتستانتية والكاثوليكية، والذي بدايةً من أيام ريشيليو ومازاريني(*) أتاح لفرنسا تأخير تشكيل الرايخ الثاني لمدة 250 عاماً.

ومثلما مكنت اتفاقية وستفال(**) فرنسا من التدخل في أمور ألمانيا فإن مؤتمر يالطا سمح للولايات المتحدة بالتدخل في شؤون أوروبا. وبعض الألمان مستعدون اليوم للخضوع للأمريكيين دون اعتراض. هذا ليس جديراً إلا بالازدراء. وها هي ذي بون تفرغ قصرية مكتب الحكومة منذ 30 عاماً. وبالإضافة إلى ذلك يلاحظ في ألمانيا المعاصرة اتجاهان: الميل إلى الحياد من جهة وإلى القومية من جهة أخرى.

فلنناقش في البداية مسألة القومية الألمانية. لم تدمر ألمانيا سنة 1945. وفي الموقف الدرامي اكتسبت رجولتها طابعاً شكسبيرياً. وكفاءتها العسكرية لا تقبل

(*) ريشيليو، أرمان (1585 ـ 1642) كاردينال منذ 1622، ومنذ 1624 رئيس المجلس الاستشاري الملكي في فرنسا، وهو ما يعني من الناحية العملية، حاكم البلاد. عزّز أسس الملكية المطلقة، وأجرى عدداً من الإصلاحات الإدارية والمالية والعسكرية، وقضى على الحركات المناوئة للإقطاع، والاضطرابات الشعبية وأدخل فرنسا في حرب الثلاثين عاماً (المترجم).

مازاريني، جوليو (1602 ـ 1661) كاردينال منذ 1641، الوزير الأول في فرنسا منذ 1643. إيطالي المولد، خاض حرباً ضد الحركة الغروندية (1648 ـ 1653) التي كانت تناوىء الحكم الاستبدادي وحكومة مازاريتي وتنادي بإلغاء الإقطاع، واستطاع بسط سيطرة فرنسا السياسية على أوروبا.

(**) صلح وستفال. وستفاليا بقعة تاريخية كانت موطن الوستفال، الفرع الغربي من السّاكس، بين نهري الراين وفيزر في ألمانيا. أعدت في مونستير وأوسنابروك بوستفاليا (1648) معاهدتا صلح أنهتا حرب الثلاثين عاماً (1616 ـ 1648) بين الدول الأوروبية [البروتستانتية والكاثوليكية حسبما أشار جان تيريار] وبموجبهما وضعت السويد يدها على منابع جميع الأنهار القابلة للملاحة في شمال ألمانيا تقريباً ووضعت فرنسا يدها على قسم من الألزاس؛ أما الأمراء الألمان فتم الاعتراف لكل منهم عملياً بالاستقلال والسيادة فوق أراضيه وهو ما رسّخ تفتت ألمانيا إلى إمارات ودويلات صغيرة خلال مرحلة طويلة من التاريخ (المترجم).

الجدل. وفي حزيران من 1940 فرّت الطبقة الحاكمة الفرنسية من باريس دون أن تنظر خلفها. وفي نيسان 1945 راحت القيادة الألمانية تتهاوى صريعة في شوارع برلين. ألمانيا لم تدمر سنة 1945 بل سحقت. بصفة نهائية. وعلى مدى 12 سنة فقط وجدت ألمانيا كدولة متكونة واحدة بينما كانت انجلترا وفرنسا وإسبانيا بهذه الصورة على مدار قرون. ولكن إذا سحقت ألمانيا سنة 1945 فإنها هي التي طمحت إلى ذلك. ذلك أن هتلر أراد إقامة أوروبا الجرمانية. وكانت فكرة أوروبا «الأوروبية» فوق مستوى إدراكه. ذلك الإنسان الذي كان خارقاً للعادة في أمور كثيرة أبدى قصر نظر مطلق في هذه المسألة. ولما كان ريفياً، وليد أوروبا الوسطى، فقد بدا عاجزاً عن تقدير الأهمية العظمى للبحر الأبيض المتوسط بالنسبة للجيواستراتيجية، ولم يكن فضلاً عن ذلك، قادراً على السمو حتى فكرة أن بإمكان الشعوب الأخرى أيضاً أن تكون ذات خصال خارقة. واحتقاره للإنسان الروسي، للسلافي، كان السبب في سوء تقييمه لشجاعة الجندي الروسي. وكانت دعاية غوبلز تصور الروس على أنهم مزيج مثير للريبة من التتر والمغول والكالميك. كما أن دائرة التصوير في قسم الدعاية والمصورون السينمائيون في جبهة «PK» كانت تسعى إلى أن ينافس بعضها بعضاً في هذا المضمار.

أكتب اليوم على مجلة «Revue militaire sovietique» (مجلة الجيش السوفياتي) ويظهر الجنود السوفيات فيها، على عكس منشورات الدعاية الغوبلزية «بوجوه جذابة، كوجوه أبنائنا تماماً»: طوالاً، ذوي شعور شقراء مقصوصة و«نظرة مرحة». لم يكن الدكتور غوبلز يقول لنا بأنهم أحفاد الڤارياغ. أولئك الڤارياغ الذين كان يمكن أن يدخلوا، دون أي عائق، في فرقة الـ«SS» وهم يستجيبون تماماً للمواصفات العرقية التي على أساسها كان يتم اختيار المرشحين للدخول في الفرق الخاصة من الرايخ الثالث.

المشاهد الرخيصة تتبدل بتبدل النظام السياسي والمرحلة التاريخية. وإجمالي قسم تل أبيب ـ واشنطن للدعاية يصور الجيش السوفياتي جيشاً لا يقوم بأي شيء في أفغانستان سوى أعمال الاغتصاب والحرائق وتقتيل الأطفال والنساء والشيوخ دون سواهم.

عايشت في صباي بصفة حادة المحاولة الفاشلة للتقارب الفرنسي ـ الألماني في سنتي 1940 ـ 1942. فعند استقبال الأميرال دارلان(*) في بيرتيخفادين في الـ14 من أيار 1941 كان هتلر لا يزال واقعاً تحت انطباع فرار هيس إلى انكلترا (11 أيار 1941). وهتلر لم يكن كبير القلب، لم يكن قادراً على قبول أن ينتهي النزاع الفرنسي ـ الألماني بدون مهزوم وبأن تسلم فرنسا من الدمار، تلك الفرنسا التي كانت لا تزال تملك المستعمرات الأفريقية والمتوسطية بشكل خاص وتملك أسطولاً كاملاً. وبالتحالف مع فرنسا كان بمقدور هتلر، بعد عبوره سوريا أن يحتل العراق، وبذلك ينزل الهزيمة بانكلترا في البحر المتوسط. وكان على الأسطول الإنكليزي آنذاك أن يخرج من البحر المتوسط. «كان كل شيء ممكناً» في اليوم التالي لمجزرة المرسى الكبير في الثالث من حزيران سنة 1940. عندما نكّل الأسطول الإنكليزي ببحارة الأميرال جانسول العزّل. في الأسبوع التالي لتلك الأحداث كان يمكن لهتلر أن يجتذب فرنسا إلى الحرب ضد انكلترا. لكنه كان ينبغي أن يكون ذا قلب كبير وأن يفكر بطريقة أوروبية. لم يكن هتلر أوروبياً عظيماً. لم يكن إلاّ ألمانياً عظيماً.

عشت ذلك كله وكابدته. لقد شاركت في الأحداث ولكن لا إلى جانب ألمانيا بل إلى جانب التيار الوطني ـ الاشتراكي. الكثيرون منا أصيبوا آنذاك بخيبة الأمل وأحس بعضهم بأنهم قد استغفلوا. ومع كل ذلك رحنا جميعاً نحارب إلى جانب الرايخ وقد بذل كثير من زملائي حياتهم في سبيل ذلك: بعضهم سقط في الجبهة الشرقية وأُطلق الرصاص على الآخرين فور انتهاء الحرب في أيار سنة 1945. وبفضل محامين ذوي تأثير قدّرت لي النجاة بثلاث سنين من السجن الاعتيادي وهو ما كاد يعادل الهدية. وقد استنتجت من هذه القصة كلها أن القومية التي تخضع المهزوم وتستغله وتذله إنما تحمل ضرراً كبيراً. لم يكن هتلر قادراً على الارتفاع إلى مستوى القومية الموحِّدة.

(*) دارلان، جان لوي (1881 ـ 1942) أميرال فرنسي (من 1939). كان قائد القوات البحرية الفرنسية في الحرب العالمية الثانية، شارك بين 1941 ـ 1942 في «حكومة فيشي» وترأس قيادة قواتها (1941 ـ 1942) وفي سنة 1942 دخل في اتفاقية مع الحلفاء الذين نزلوا في كانون الأول 1942 في الشمال الأفريقي. قتله أحد القوميين الفرنسيين (المترجم).

لقد تحملت القوميتان الألمانية والفرنسية غير قليل من المآسي والأضرار. ولهذا فإن علينا أن نقمع بدون شفقة وباسم المصالح الأوروبية أيّ تجلّ للقومية الألمانية مهما كان زهيداً.

ليس لألمانيا ما تشكو منه على أنها تعرضت للهزيمة عام 1945.

إنها سارت بنفسها إلى ذلك بإذلالها البولنديين والروس واحتقارها الفرنسيين.

وقد أخطأت ألمانيا الهتلرية عندما اختارت إيطاليا موسوليني حليفاً لها. كلفها هذا التحالف سلسلة كاملة من الحماقات والأخطاء. كان موسوليني يقاوم أي تقارب لفرنسا مع إيطاليا. ولهذا السبب بالذات أخطأت ألمانيا، وبصفة خاصة عدد من النازيين ـ محبي الإنكليز، في اختيار العدو. لقد فهم رودولف هيس(*) خطأً وبصورة حرفية جداً نظرية الجنرال هاوسهوفر وكان هيس ضابطاً عنده إبان الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918. وفي حرب 1940 لم تكن فرنسا القارية عدو ألمانيا الذي لا يرحم بل انجلترا البحرية. انجلترا بالذات وعلى مدى خمسة قرون هي العدو الأساسي والرئيسي لأوروبا.

في سنة 1945 تكبد الرايخ الثالث هزيمة كاملة. ولكن هذه الحرب لم تخسرها ألمانيا لوحدها. بل خسرناها جميعاً. في البداية أخرج الهولنديون من مستعمراتهم. ومن بعد ذلك أخرجت فرنسا وانجلترا ثم بلجيكا. وبعد التضييع المخزي للجزائر سنة 1962 كفت فرنسا بصفة نهائية عن وجودها كدولة عظمى مستقلة. لقد خسرنا جميعاً هذه الحرب. ومنذ نهاية 1941 أخذ الإنكليز بإزاحة الفرنسيين عن بلدان الشرق الأوسط (سوريا) وانتقاماً لذلك ساعد الفرنسيون الصهاينة على إخراج الإنكليز من فلسطين. وحتى قبل سنة 1945 حاول الإنكليز والفرنسيون تجريد إيطاليا من مستعمراتها الأفريقية. وأخيراً في سنة 1960 وبأمر من واشنطن غادر البلجيكيون الكونغو، أغنى دولة في كل أفريقيا. ونزاعاتنا الوطنية أفضت إلى هلاك أوروبا بأسرها أو في أفضل الأحوال، إلى وجود أوروبا المتعددة

(*) هيس رودولف (ولد سنة 1894) أحد كبار قادة الفاشية الألمانية. منذ 1925 كان أمين سر هتلر. وصار نائبه في الحزب منذ 1933 لكنه سنة 1941 طار إلى بريطانيا باقتراح وقف الحرب فاعتقل وحكمت عليه محكمة نورنبرغ بالسجن مدى الحياة (المترجم).

القوميات. وقد آن الأوان الوقت لإنشاء أوروبا الموحدة القارية، المتعددة القوميات، أوروبا العظمى «من ڤلاديڤوستوك إلى دوبلن».

بالجمع بين تصورات هاوسهوفر الجيوبولتيكية الواضحة وقوة الجيش السوفياتي يجب القيام بالتوجه من الشرق إلى الغرب، بمحاولة تحقيق ما لم ينجح هتلر في إنجازه عندما سار من الغرب إلى الشرق. ويجب تخليص الشيوعية من عجزها المشروط بالدوغماتيات الماركسية واللينينية. الشيوعية ذات النمط السوفياتي يجب أن تُطهّر من الماركسية، أن يُسار بها نحو الكمال، يجب إخضاعها لتغيير فجائي.

من الضروري إيجاد تركيب من الشيوعية اللاماركسية مع الوطنية ـ الاشتراكية غير العنصرية. أنا ضد الشيوعية العاجزة، ولكنني مع الفعالة. وفي هذا بالذات تتجسد الوطنية ـ الاشتراكية. وهذا التركيب يجب أن يعكس الفهم العبقري لامبراطورية الاسكندر الكبير وقيصر: فالإمبراطورية هي القومية التكاملية، المرنة. المهزوم يغدو شريكاً، عَوْناً، وفي النهاية من أبناء الوطن. وأتحدث هنا عن «الشيوعية الإمبراطورية»، عن «روما جديدةٍ» أو «بروسيا عظمى»، عن امبراطورية تغدو تعبيراً عن دولة ذات بنية وظيفية كاملة، عن امبراطورية يُمنح حق الانضمام إليها لا لكل دولة.

ولا تستثنى إزاء ذلك خطورة ظهور القومية الروسية الكلاسيكية التي تكون وسيلة ضغط على الشعوب الأخرى واستغلالها. إذا كان الاتحاد السوفياتي سيحاول أن يفرض علينا أوروبا ذات النمط الروسي فستخفق هذه المحاولة بصورة أسرع من إخفاق محاولة ألمانيا الهتلرية. أما إذا كان الاتحاد السوفياتي سيسعى، على العكس من ذلك إلى استخدام مبادىء القومية «السوفياتية» ذات النمط الإمبراطوري، القومية التكاملية، فستكون أمامه حظوظ أكبر من النجاح. ومفهوما «روسيا العظمى» و«الإمبراطورية السوفياتية» يعكسان تصورين معارضين وبالذات مفهومي القومية الضاغطة والقومية المكملة. والقومية الضاغطة تفرّخ وتدعّم وتزيد من حدة الشعور القومي لدى الدول المجاورة. فهي بنفسها تفرّخ أعاديها، أضدادها. وفي حالة فشل التصفية العنصرية التي مارستها فإنّ مثل هذه القومية محكومة بالفشل بقوة التناقض الضمني المتمركز في داخلها.

وبالنسبة للغالبية العظمى من الناس فإن استبدال القومية «الترابية» (الضاغطة) بمفهوم القومية الإمبراطورية «القارية» عملية عقلية صعبة إذا لم تكن مستحيلة.

القومية الضاغطة تذكر بالخيار التطوري، الذي سارت عليه المفصليات فهي تعمل وفق برنامج معطى بطريقة صارمة وقد وضع نهايته بنفسه. وخلافاً لها تذكّر القومية التكاملية، التي تعكس «الفهم الإمبراطوري»، بالفقريات، فمن الناحية النظرية يبدو انتشارها الترابي بلا حدود. وسواء أكان الأمر على المستوى الأعلى من التصور أم على المستوى الأدنى من الايديولوجيا فإن اختيار المفصليات كنقيض لاختيار الفقريات يمكن أن نجد له نظيراً في عدد كبير من الميادين: بدءاً من الدين حتى تشكل القوميات، بما في ذلك صياغة النظريات السياسية. فالديانة اليهودية القائمة على التأول العرقي تشارك المفصليات مصيرها. فلم تحظ، من وجهة النظر الديموغرافية، إلا بانتشار محدود. وفي مقابل ذلك حظيت الديانتان المسيحية والإسلامية اللتان لم تتحددا بمعايير عرقية ولا لغوية بانتشار غير محدود.

كما سار توسع ألمانيا الهتلرية المصفّدة بالحدود العرقية، اللغوية في طريق المفصليات أيضاً، فانتهت بعسر الهضم المميت ـ بالعجز عن هضم 200 مليون من السلافيين. كما ينبغي حشر «ديروليد»ات الأمس و«ديبريه»(*)ات اليوم بالإضافة إلى من يتنفسون على موضة الخوذة ذات الأكواز أو موضة الصليب المعقوف في طبقة المفصليات. وجميعهم مضغوطون بدروع أيديولوجياتهم القاسية. أما بالنسبة للقومية الأوروبية فإنها شبيهة بتطور الفقريات. فهي نوع من النظم المفتوحة، تتسم بالمرونة والقدرة التكاملية. ويتطلب فهمها مستوى من التفكير بعيداً عن مدارك أغلبية «القوميين الاعتياديين».

ونقترب هنا من مسألة المحاولة المعروفة لتحييد، «فنلدة» ألمانيا.

الحياة لا ترحم الضعفاء. وهذا ما يمكن قوله عن التاريخ. فأوروبا المعاصرة التي مزقها إرباً القوميون الضيقو الجبين (الفرنسيون، الألمان، الإنكليز ومن جر

(*) الأقرب أن المؤلف يقصد به «ديبريه» Debré، ميشيل (ولد عام 1912) أحد مؤسسي الأحزاب الفرنسية: وحدة الشعب الفرنسي، اتحاد الديموقراطيين من أجل الجمهورية، ومن 1976 ـ وحدة الدفاع عن الجمهورية. منذ 1958 تولى الوزارة عدة مرات وصار بين 1959 ـ 1962 رئيساً للوزارة في فرنسا (المترجم).

جرّهم) تبدو ميدان معركة محتمل. وهي في هذا تتشابه مع ألمانيا منتصف القرن السابع عشر. ومثلما تحدثوا في الأيام الماضية عن «الألمانيات ـ الدمى» التي يجذبها ريشيليو أو مازاريني بالخيط، فبالإمكان الحديث اليوم عن «الأوروبات» التي تتحكم بها واشنطن.

إن جميع من يقبلون بالسيطرة الأمريكية في أوروبا (وبخاصة في ألمانيا الغربية، حيث تتخذ السيطرة طابعاً علنياً بصفة مطلقة) والمستعدين للتوجه نحو «فنلدة» أوروبا الغربية يمكن أن نسميهم مازوشيين من التاريخ. وفي سنة 1840 عندما كان أفضل ممثلي ألمانيا يناضلون في سبيل وحدة الرايخ الثاني رفع هؤلاء المازوشيون فضائل صلح ويستفال (مخطط الاتفاقية لمئتي سنة) فقد مجّد نكرةٌ اسمها كريستوف غاك التفاهة التاريخية لألمانيا. وهذا النمط من التافهين، الذين يقبلون بشراء السلْم بالخصاء التاريخي، ليس جديداً على الإطلاق.

ينبغي البحث اليوم عن التقارب مع الاتحاد السوفياتي. وفي البداية يجب إجراء المفاوضات حول التقارب، ثم حول الوحدة، ثم حول التذاوب معه. والحديث يتناول المفاوضات العلنية بصورة مطلقة. لسنا في حاجة إلى مصالحة بين القط والفأر.

ويجب أن تحصل ألمانيا على حق المساواة والكرامة في إطار أوروبا الغربية. ومن الضروري التخلص، إزاء ذلك، من المقولات اليهودية ـ الأمريكية حول «الشعب المذنب» والخطيئة الأولى لدى الألمان. فذاك هذيان توراتي. وصورة ألمانيا اللاإنسانية تغذّى بصفة شاملة بمساعدة كافة وسائل الإعلام الجماعية في فرنسا، انجلترا، بلجيكا، هولندة وإيطاليا. وتهدف هذه الدعاية إلى فصل أوروبا الغربية، والحيلولة دون توحدها بالضغط على الجروح القديمة.

لقد أُوصلت القوات المسلحة لألمانيا الغربية، البوندسڤير اليوم إلى مستوى المشاة الاستعماريين (كالسينغاليين في حرب 1914 ـ 1918) للولايات المتحدة.

وعلى ألمانيا الحالية أن تتحلّى بالشجاعة لكي تطرد الأرواح الشريرة من داخلها ولكي تقول لنفسها إن القومية الاشتراكية تنتسب بصفة نهائية إلى مخلفات الماضي. وعلى أية حال فقد اقترف هتلر من الجرائم ما لا يزيد عما اقترفه أولئك الذين لطخوا أياديهم بالدماء، عندما قصفوا هامبورغ بالقنابل أو عندما دمروا

درسدن سنة 1945 دون هدف. هذا إذا لم نتحدث عن 1500 من النساء والأطفال والشيوخ الأبرياء الذين قتلوا منذ فترة قصيرة في لبنان(*). على كل إنسان أن يكون مسؤولاً عن تصرفاته، ولكن في النهاية سيأتي اليوم الذي تصبح فيه هذه التصرفات مادة لا للسياسيين بل للمؤرخين. وقد جاء هذا اليوم بالنسبة لألمانيا. وعلى وجه التقريب توفي جميع من شاركوا في حرب 1939 ـ 1945. ولا ينبغي للجيل الجديد من الألمان أن يتحمل تركة هتلر. ومن جهة ليس على ألمانيا أن تنزع عنها بصفة نهائية مسؤولية جرائم الحرب، ومن جهة أخرى ـ فإن من حقها اليوم أن تطالب بمبدأ توقيت التقادم بالنسبة لها. فليس من واجب ألمانيا أن تقبل أكثر بدورها كربيبة للسوق المشتركة أو الناتو. الربيبة التي أبواها بالتبنّي «مرعبان».

على أوروبا الغربية أن تطمح إلى الحياد المسلح وأن تبتعد عن الحياد غير المسلح. فالمازوشيون والسذّج والخصيان فقط يمكن أن يصفقوا لمثل هذا الحياد. وعلى أوروبا أن تطرد بعيداً الـ 400000 جندي أمريكي الموزعين على أراضيها. وخطر الحرب يستتر في الوجود العسكري الأمريكي في أوروبا. ويمكن للبنتاغون الخاضع للمكتب الحكومي الذي يحمي دولة إسرائيل أن يلعب لعبة «البوكر الذري» في أوروبا رداً على أعمال الاتحاد السوفياتي في البحر المتوسط أو في أي مكان آخر من العالم.

وإذا ما وجد السلاح الذري في أيدي الأوروبيين (بمن فيهم الألمان الغربيين بالطبع)، فإن الاتحاد السوفياتي سيتعرّض، إلى حد من المجازفة، للصراع الذري بنسبة أقل بكثير مما لو كان هذا السلام في أيدي الأمريكيين الموزعين في أوروبا. فأوروبا هي أرض المعركة الأبدية ـ حقل التجارب. ويوجد هنا ما يستحق التأمل. فقد ذقنا فظائع الحرب سواء في روسيا 1941 ـ 1943 أو على أرضنا في 1943 ـ 1945. وهنا يعرفون ما هي الحرب ولا يتخذون قرارها إلا في الحالات القصوى. أما في واشنطن، عاصمة البلاد التي لم تظهر على سواحلها منذ قرنين تقريباً أي سفينة دفاعية صغيرة، فلا يعرفون ما هي الحرب.

(*) المرجّح أن المقصود بذلك هم ضحايا مذبحة صبرا وشاتيلا «الذين قتلوا منذ فترة قصيرة في لبنان» في أيلول من سنة 1982 وهو الأقرب إلى التاريخ المذكور في المرجع رقم 5 بين مراجع الباب السابع من هذا الكتاب. (المترجم)

على أوروبا أن تضع في أساس سياستها إقامة حلف مع الشرق، حلف مشروط بتصورات جيوبولتيكية. فأوروبا الممتدة من الغرب إلى الشرق لا يمكنها أن تتوقف عند خط لوبيك ـ صوفيا. وفي الوقت نفسه لا يمكن للسوڤيات العظام القادمين من الشرق إلى الغرب أن يتوقفوا عند هذا الحد المرسوم بطريقة مفتعلة. ومستقبلنا البعيد يمكن قراءته على الخارطة الجغرافية. والحدود الممتدة على طول خط لوبيك ـ صوفيا هو خط دفاعي، وعلى غاية من قابلية الاختراق في حالة حدوث حرب كر وفرّ. ووجود مثل هذه الحدود على مستوى كبير من الخطر من وجهة النظر الجيوستراتيجية. وحمايتها على غاية من الصعوبة. وبهذا بالذات تفسر الأهمية التي يضفيها الاتحاد السوفياتي على الأسلحة الكلاسيكية و«جناح» لوبيك ـ صوفيا يمثل نقطة الضعف الوحيدة في الدفاعات السوفياتية عند المشارف البعيدة. فالاتحاد السوفياتي محمي حماية جيدة من كافة الجهات بفضل مناخه (من الشمال) وآماده البعيدة من الجنوب. وإذا ما عبرنا بلغة العلم العسكري الكلاسيكي أمكننا مقارنة الجيش الأمريكي المرابط في ألمانيا الغربية بجيش سوفياتي واحد يقف في كندا بين مونترييال وڤينّيبيغ. وفي هذه الحالة الافتراضية تكون القطعة الرئيسية للقوى البرية الأمريكية متوضعة بين مينيابوليس وبوسطن.

والشطآن «الطبيعية» للاتحاد السوفياتي (في مقابل الحدود) هي جزر الكناري، جزر الآزور، إيرلندة، وإيسلندة، ترتبط أيضاً بأوروبا الغربية.

لا يمكن تصور أمة «مثقفة» أو متطورة اقتصادياً بدون التشديد على الأمة «القوية سياسياً». فمنذ 1648 وحتى 1870 كانت ألمانيا أنموذج الأمة «المثقفة»، وكانت تشتهر بخزفها وموسيقييها. وإلى جانب ذلك كانت ميدان معركة لكل من يريد. فلا أمة بلا جيش، ولا جيش اليوم بدون سلاح ذري. وهذه الدول من أمثال انجلترا وفرنسا لن تعد، بعد فقدانها مستعمراتها، إلا **صوراً هزلية** لدول عظمى وليس ثمة اليوم أي وزن دولي لأمة يقل عدد سكانها عن 200 ـ 300 مليون نسمة. والتاريخ يخيّرنا بين أمرين:

1) الاتحاد السوفياتي يحتل أوروبا الغربية أو يكون عليه أن يفعل ذلك ضمن حرب وقائية.

2) يتم النجاح في تجنب الحرب، وتكون أوروبا الغربية، وقد تخلصت من عملاء واشنطن السياسيين، متجهة إلى التحالف السياسي مع الشرق.

التعاون، فالشراكة، فالاتحاد وأخيراً الوحدة. وألمانيا التي تقف اليوم بإحدى رجليها في الغرب، وبالأخرى في الشرق، يمكنها أن تكون أفضل من يقوم بدور الوسيط.

توجد في ألمانيا حركة قومية يسارية التوجه ظهرت في برلين الغربية خلال فترة الاستراحة بين الهابيننغ وأمسية مع تعاطي المخدرات، وقد فرغ الأب براندت من تموين بلاده وعِرْقه. وبوسعنا أن نتسلّى الآن بالخيالات الرومانسية لنجله بيتر. وتحويل البوندسفير إلى «الجيش الوطني الشعبي» على النمط اليوغسلافي ـ مَضْحكة حقيقية. فحتى في حالة التوحّد (وأنا أسمح بمثل هذه الفرضية) لما صارت ألمانيا سوى دويلة قزمية مثلما هي فرنسا ميتران وانجلترا تاتشر المتباهيتين بـ «استقلالهما» عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين. والشبان المساكين المتطلعون إلى بيتر براندت يريدون أن يعيدوا أزمان ألمانيا الرومانسية حتى سنة 1848، ألمانيا ما قبل فخته، وفي سنة 1982 لا يعود الحديث يدور فقط حول ألمانيا «ميدان المعركة» بل حول مجموع أوروبا ـ «ميدان المعركة».

إن الحرب الدينية بين «الشيوعية الماركسية» وبين «المقرطة» تعمي أبصار الغالبية من هؤلاء الناس، وهذا العمى يحول بينهم وبين وعي الواقع الجيوبولتيكي. ولكي لا تغدو أوروبا «أرض المعركة» ينبغي نقل اتجاه الهجوم السوفياتي الممكن نحو جبل طارق، دوبلن والدار البيضاء. ينبغي البحث عن الاتفاق مع الاتحاد السوفياتي ووضع أسس التعاون الفعال منذ الآن. وميدانَ الحرب الممطوطة يجب أن يكون جزء من أفريقيا بين خطي عرض 20 شمالاً و20 جنوباً. وحتى فيما لو أخليت هاتان المنطقتان بصفة جزئية فلن ينعكس كثيراً على مستقبل البشرية.

ولكي نتفادى دمار أوروبا يجب علينا أن نتوجه نحو التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفياتي لا نحو الخديعة التي عرضها هتلر على الفرنسيين في 1940 ـ 1942. على أوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي أن يستحدثا «وحدة مصير» تمليها الجغرافيا، زواجاً محسوباً، زواجاً بالإكراه.

وعلى الاتحاد السوفياتي وأوروبا أن يصوغا، وبالسرعة الممكنة، نوعاً من الثقل المقابل لمبدأ مونرو، ومبدأ مونرو الخاص بنا ينبغي أن يكون شعار «. . .

ولا جندي واحد، لا جنديَّ أمريكي واحد على البحر الأبيض المتوسط». والمشاكل الأوروبية يجب أن تحل من طرف الأوروبيين أنفسهم. والروس ـ أوروبيون مثلهم مثل الألمان ـ الفرنسيين، الإنكليز وغيرهم من الشعوب الأوروبية.

ويجب علينا أن نرغم الأمريكيين على الخروج من أوروبا ليس فقط لأسباب جيوبولتيكية. فوجودهم في أوروبا يمكن مقارنته باحتلال القرطاجيين لصقلية على مقربة من الجمهورية الرومانية. وبالبقاء في أوروبا وتضخيم مخاطر نشوب الحرب لا يستطيع الأمريكيون أن يسيطروا على أزمة مجتمعهم الذي لا يزال في طور البداية ونحن نجازف بخطر العدوى منهم. وأزمة المجتمع هذه مشروطة بانهيار ثلاثة ميادين.

1) البناء التقني الاقتصادي.

2) السياسة المبنية على القناعة والديماغوجية، وبكلمة واحدة «المقرطة».

3) الثقافة المستوطنة.

فالبنية التقنية الاقتصادية تمثل انعكاس العالم المادي، عالم العلم، العقلانية والنبوءة. والميدان الثاني، ميدان السياسة لا يخضع لأي تحليل منطقي، لأي نظرة عقلانية. وهنا تسيطر حجة القناعة (في الميدان الأول تسيطر البرهنة المنطقية ـ التجريبية). أما ما يتعلق بالثقافة فمن الأقرب إلى الواقع ردّها اليوم إلى عالم الطب النفسي. على الأقل في الولايات المتحدة. والنظام الشمولي وحده قادر على فرض التوازن بين هذه الميادين الثلاثة.

منذ زمن بعيد كان يجب إدخال مصطلح العقلانية في السياسة. وفي دراستي القادمة «الإمبراطورية الأورو ـ سوفياتية» سأكرس فصلاً كاملاً لمسألة ما إذا كان ينبغي أن تبنى السياسة، ما وراء السياسة، على القوة أم على المتعة (الإشباع).

لقد قامت أمريكا الشمالية باختيارها النهائي لصالح المتعة، وسياستها موجهة، في مجموعها، نحو «وسائل المتعة»، ومثل هذا الخيار يمكن أن يؤدي بالإنسانية إلى المأزق. ويتبقى أن يتعقل الشيوعيون وأن يفهموهم فيم تتجسد الميتابولتيكا، الموجهة إلى وسائل «الفِعْل» أو بكلمة أخرى، إلى وسائل القوة.

لقد أثبت هوبس(*) أن الحرية تستند على القوة. وفي عصرنا الحاضر، عصر الثوْرة التقنية يمكننا أن نضيف إلى هذا أن القوة تخدم المعرفة (البحوث الكونية، الدراسات الأساسية في حقل الفيزياء)، والمعرفة تَهَبُ القوة.

وإذا ما أردنا صنع الـhomo novus(**) كان علينا أن نطرح خياراً بين القوة والمتعة. كان حلم ماركس إعطاء كلّ وفق حاجته، ومن السهل في أيامنا هذه تحقيق ذلك، فالتوصل إلى الوفرة ـ ليس سوى مشكلة تخطيط وإرادة. ويتطلب حلها ما لا يزيد عن ربع قرن، ويمكن لهذه الوفرة أن تؤدي إما إلى ظهور مجتمع النمط التمتعي والمحكوم عليه بالانهيار (الولايات المتحدة) وإما إلى تحويل الإنسان العادي إلى homo novus.

لم يزد هكسلي وأورويل عن أن أشارا إلى الجانب السلبي الممكن من «العالم الرائع الجديد» أما الناحية الإيجابية فبقيت مجهولة بالنسبة لنا.

تذكروا أيضاً نبوءة كيستلر: «**الأطروحة ـ المنتصرون، النقيض ـ المهزومون؛ التركيب ـ يغدو المنتصرون والمهزومون المواطنين المتآزرين في الوطن الأوراسي العملاق الجديد**».

ولكنت حولتها إلى ما يلي: «**الأطروحة ـ الوطنية ـ الاشتراكية العِرْقية، النقيض ـ الشيوعية الماركسية؛ التركيب ـ الوطنية ـ البولشفية الأوروبية العظمى، وبكلمة أخرى، الشيوعية النخبوية الإمبراطورية التي رفضت ماركس كأيديولوجي وهتلر كقومي محدود قصير النظر. . .**».

(*) هوبس (Hobbs) توماس (1588 ـ 1679) فيلسوف انجليزي. أول من صاغ النظام المتكامل للمادية الآلية. الهندسة والميكانيك بالنسبة له ـ النظامان الأكمل للتفكير العلمي. والطبيعة اجتماع لأجسام متجاذبة تتفاوت فيما بينها بالحجم وبالشكل والتوضع والحركة (التحول). من أهم مؤلفاته: «عن الجسد»، «عن الإنسان»، «عن المواطن» (المترجم).

(*) Homo novus باللاتينية، الإنسان الجديد. استخدمها الرومان لأول مرة بمعنى الإنسان الذي خرج من الأوساط الدنيا وتوصل إلى موقع رفيع يضمن له الشهرة والمال. والمؤلف يفاضل من خلاله بين الإنسان المتطلع إلى القوة أو ذاك المتطلع إلى المتعة. والطريف أن مصطلح «الروس الجدد» قد تردد في هذا الكتاب أكثر من مرة ليشير إلى من توصلوا فجأة إلى وبطرق غير مشروعة إلى الثراء (المترجم).

كانت الوطنية ـ الاشتراكية مدرسة رائعة للتأثير، ذلك التأثير نفسه الذي تفتقر إليه الشيوعية الماركسية.

على الشيوعية الاعتيادية أن تصنع طفلاً يولد منه نجل خارق للعادة، نوع من «الغول المَوهوب». الشيوعية ما فوق الإنسانية.

وكان كستلر منذ عام 1941 قد عرف من يجب أن يصبح أباه.

التوتر الكوني بين الشرق والغرب والمواجهة بين الأرض والبحر[6]

المواجهة بين **الشرق والغرب** والواضحة كل الوضوح في وقتنا الحاضر، تتضمن في ذاتها تناقضات مختلفة الأنواع: المصالح الاقتصادية، الاختلافات النوعية بين النخب الحاكمة واستحالة الجمع بين الأسس الثقافية المؤسسة. وهذه التناقضات تتنامى جميعاً بينما يدعم بعضها بعضاً. إلا أن الارتباط بين التوترات الاقتصادية والسوسيولوجية والروحية تجلى في كافة الحروب العظمى من التاريخ الإنساني. وتتمثل خصوصية التناقض المعاصر في أن ذلك التوتر صار عالمياً ويشمل الكرة الأرضية بكاملها. ولهذا فإن من الضروري بشكل مطلق تدبّر ذلك المكنون التاريخي والجيوبولتيكي الذي تقوم على أساسه هذه المواجهة المتوترة.

كلامنا يتناول تناقضية **الشرق والغرب**. ومن الواضح إزاء ذلك أن الكلام لا يمكن أن يدور حول الاختلافات الجغرافية فقط. وفي مسيرة بحثنا سندرس بصفة شاملة ذلك النوع من التناقض الذي يجري حوله الحديث، وسنبين أن ثمة نمطين مختلفين من المواجهة المتوترة: التاريخية ـ الديالكتيكية والسكونية ـ القطبية.

مواجهة **الشرق والغرب** ليست مواجهة قطبية. فللأرض قطباها **الشمالي والجنوبي** وليس لها قطب **شرقي ولا غربي**. وفي ظروف كرتنا الأرضية لا تبدو المواجهة الجغرافية بين **الغرب والشرق** أمراً راسخاً أو سكونياً، إنها مجرد علاقة ديناميكية ترتبط بـ«تناقص الضوء» اليومي. ففي المعنى الجغرافي تبدو الولايات المتحدة **غرباً** بالنسبة لأوروبا، وبالنسبة لأمريكا تبدو الصين وروسيا **غرباً** أما بالنسبة للصين وروسيا **فالغرب هو أوروبا**، وفي المعنى الجغرافي المحض تغيب الأقطاب

الدقيقة، وبناء على ذلك فانطلاقاً من الجغرافيا لوحدها يستحيل استحالة مطلقة أن يُفهم بصورة واقعية ذلك التوتر العدائي الكوني القائم بين **الشرق والغرب** وإدراك بنيته المؤسسة له.

(1)

يمكن السير في طريق استقصاء الخاصية التاريخية، الثقافية والأخلاقية **للشرق** الحالي **والغرب** الحالي والتوصل، بهذه الطريقة إلى استخلاص عدد كامل من النقائض ذات الأهمية الخارقة دون شك، وبودي هنا أن أستخدم مصطلحاً طرحه الجغرافي جون غوتمان للاستخدام وذلك في دراسته المتألقة «La politique des etats et leur geographie»[7]: ـ وهو مفهوم الأيقونوغرافيا الإقليمية (أيقونوغرافية المدى) ـ iconographie regionale. فلوحات العالم وتصوراته المختلفة، والتي تظهر نتيجة للديانات والتقاليد المتنوعة والماضي التاريخي المختلف والأنماط الاجتماعية المتباينة تشكل مجالات ذات استقلالية ذاتية. وبهذا المعنى تنتسب إلى أيقونوغرافية المجال المعيّن لا اللوحات وإبداعات فن النحت فقط بل وجميع الصيغ المرئية للحياة الاجتماعية والخاصة أيضاً. ومنذ فترة قصيرة أشار لويس دييس ديل كورّال إلى المعنى الجوهري للفن في هذا الخصوص، وذلك في كتابه «اختطاف أوروبا» والذي يمكن تسميته موسوعة الأيقونوغرافيا الأوروبية. وقد درس كارلوس أوليبيرو الفارق بين فهم الشكل في هذه الأقاليم الثقافية أو تلك وبخاصة في مجال تركيبة السلطة وبنية الدولة. وفي مفهوم «**إيقونوغرافية المدى**» يمكن أن ندخل إلى جانب الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية وجميع الصيغ النموذجية يتجلى الوجود الإنساني ونظم التضمينات المميّزة واللغة المرموزة للعواطف والأفكار في الصورة التي تبدو مميزة لأراضي معينة ذات الثقافة الخاصة التي لا تتكرر.

وإلى هنا تنتسب صور الماضي، والأساطير مثلها مثل جميع الرموز والتابو متوضعة طبوغرافياً في مجال محدّد، وبقوة ذلك فقط اكتسبت واقعها التاريخي.

(*) الساغات. (ج ساغا باللغة الإيسلندية القديمة) قصص قديمة لم يحدَّد مؤلفوها. تجمع إلى المادة التاريخية واللوحات النفسية حيوية العرض الواقعي وتجسيد البطولة. وهناك ساغات تاريخية مثل «هايمسكرينغدا» للشاعر السكالْد الإيسلندي سنورّي ستورلوسون (1178 ـ 1241) تتناول ملوك النرويج وتاريخ بلادهم حتى سنة 1778 (المترجم).

ويتحدث غوتمان في هذا الخصوص عن «**تداول الإيقونوغرافيات**» أي عن التأثير الديناميكي للثقافات بعضها على البعض الآخر، مع امتداد الزمن. وعلى هذا فبدلاً من نظرية «تداول النّخب» الشهيرة لباريتو تدخل نظرية «تداول الإيقونوغرافيات» التي لا تقل شهرة.

واستخدام كلمة (ومفهوم) «الإيقونوغرافيا» يبدو لي في هذه الحالة دقيقاً ومثمراً لأن ذلك المصطلح يبيّن، قبل كل شيء، وبالصورة الأدق، جوهر المواجهة بين **الشرق والغرب** فالعلاقة بالصورة والأيقونة تكشف الخصائص الجوهرية **للشرق والغرب** في مقاييسهما الأبعد غوراً:

فالشرق يظهر من الناحية التقليدية عدواً للتصاوير واللوحات والأيقونات البصرية. أما **الغرب** فيظهر على العكس من ذلك، حصناً لاحترام رسم الأيقونات وللفن التصويري بصفة أوسع.

وعندما يتناول الحديث الصراع ضد الأيقونات أو حظر تصوير الرب فإن المثقف الأوروبي يتذكر أحداثاً من تاريخ بيزنطة، الصراع حول الهرطقة المعارضة لرسم الأيقونات في عهد الملك ليف (717 ـ 741) ومن الاعتراف برسم الأيقونات من طرف شارلمان الكبير، ويتوارد إلى ذاكرته أيضاً حظر تصوير الرب **في العهد القديم** وفي الإسلام. وقد أوغل البعض بعيداً في هذا الصدد حتى إنهم يكتشفون هذا التناقض البدئي بين التعبيرين الكلامي والبصري، والذي يفضي بدوره إلى تناقض أكثر عمومية بين السمع والبصر، بين السمعية والبصرية؛ وعلى فكرة فالكلمة والسمع يتماهيان مع **الشرق** والتصوير والبصر ـ مع **الغرب**.

واستخدام مصطلح «الأيقونوغرافيا» في معناه الشامل الذي سلفت الإشارة إليه يجب أن يحمينا من أمثال هذه التبسيطات. ففي الواقع لا يوجد مثل ذلك المكان الجغرافي الذي ينعدم فيه المقياس البصري للواقع، والشخص والصورة، والأيقونة، والأيقونوغرافيا موجودة في كل مكان. ولهذا بالذات يمكن وجود الاتجاه المضاد، القيمة الرافضة للصورة البصرية. أي الصراع ضد الايقونة في أوسع معانيه. ومشكلة الصراع ضد الأيقونة لا تقتصر مطلقاً على بيزنطة أو الإسلام. فالغرب أيضاً يعرف من الروح المعادية للأيقونة صيغاً عديدة وعدائية إلى حد بعيد.

فالويكليفيون(*) والهوسيون، والبابتيون والبوريتانيون(**) والحداثيون الدينيون والعقلانيون الأفظاظ ـ جميع هذه التيارات المعادية للايقونوغرافيا ظهرت وتطورت في الغرب بالذات. وهذا النزاع. هذا الجدال الأساسي في التاريخ العالمي بلغ مداه الكوني في مرحلة الكشوفات الجغرافية العظمى واستعمار العالم الجديد، أما من الناحية المظهرية فقد تجلى في الصراع بين صيغتين مذهبيتين ـ الكاثوليكية الرومانية والبروتستانتية الشمالية، خطي الجزويت والكالفينيين(***). فلنحاول دراسة الأفق

(*) الويكليفيون: أنصار اتجاه ويكليف (Wiclif) جون (1330 ـ 1384) وهو مصلح انجليزي، منظّر مذهب البورغيرية، من أوائل من طالبوا بتحويل أراضي الكنيسة للأغراض الدنيوية، رفض ضرورة وجود البابوية وعدد من الطقوس الكنسية والأسرار (المترجم).

(**) الهوسيون: أنصار المصلح التشيكي هوس (Hus) ،يان (1371 ـ 1415) ولد في هوسنتيس جنوب تشيخيا ودرس في براغ ثم صار فيها عميداً لكلية الفنون فرئيساً للجامعة. وقف ضد صكوك الغفران ثم ضد امتيازات رجال الدين ونادى بالعودة بالمسيحية إلى منابعها البسيطة الأولى، وانتهى الأمر بالحكم عليه بالإعدام حرقاً، وهو ما أثار حركة شعبية واسعة تحولت إلى حرب تحررية شعبية ضد الكنيسة وامتيازات الإقطاع والسلطات الألمانية الحاكمة (1419 ـ 1437) (المترجم).

البابتيون: أتباع البابتية، المعمدانيون اشتق اسمها من لفظ «أعمدك بالماء» باليونانية. ظهرت في بداية القرن السابع عشر ونادت بتبسيط الطقوس الدينية، يعيش معظم البابتيين في الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

البوريتانيون: الطهرانيون (من اللاتينية المتأخرة Puritas وتعني الطهارة)، أتباع الكالفينية في انجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. أرادوا تعميق الإصلاح الكنسي الذي قامت به الكنيسة الانغليكانية ووقفوا ضد الحكم المطلق، وأدى تنوع الاتجاهات لديهم إلى ظهور تيارات منها المعتدل ومنها الجذري المتطرف (المترجم).

(***) الجزويت: اليسوعيون فرقة اسمها باللاتينية Socitas Jesu (جمعية يسوع) أسسها ايغناتي لويلا سنة 1534 في باريس، التزمت بالخط الكنسي الكاثوليكي الصارم وصارت الأداة الأساسية للوقوف في وجه التجديد. لم يقتصر نشاط أعضائها على أوروبا بل انتشروا في الهند واليابان والصين والفيليبين، وبين 1610 ـ 1768 كانت هناك «حكومة الجزويت» في الباراغواي. من مبادىء الفرقة المركزية الصارمة، طاعة الصغار للكبار، هيبة الرئيس المطلقة والحزم المتشدد في التطبيق (المترجم).

الكالفينية: اتجاه ديني وضع أساسه (Calvin، كالفين) جان، (1509 ـ 1564) فرنسي أهم مؤلفاته «دعائم الديانة المسيحية» صار منذ 1541 حاكماً على جنيف، فكانت في عهده أحد المراكز الأولى لما سمي بالإصلاح الديني، تميّز بالتديّن الشديد. ومن جنيف =

الأيقونوغرافي لهذا الصراع الذي سينتهي بنا إلى فهم أعمق لمعناه.

كان مغزى الريكونكويستا(*) ينحصر في استعادة الأراضي فوق شبه الجزيرة الإيبيرية بغية التمجيد الحر لصورة **أم الله الطاهرة**، وقد كتبت ذات مرة أن البحارة الإسبان وكونكويستادور(**) العالم الجديد كانوا يرون في إنجازاتهم التاريخية رمز إعلاء صورة العذراء أم الله في كل مكان. وقد فهمني بعض القراء فهماً معكوساً حتى إن أحد المؤلفين الكاثوليك كتب بهذه المناسبة «شميدت يتحدث عن مختلف إكسسوارات الكونكيستا(***) المسيحية **والتي لا يمكنها إلاّ أن تضلل القارىء**. بالنسبة لي أيقونة مريم العذراء ـ ليست «مختلف الإكسسوارات المسيحية» وبالإضافة إلى ذلك فإن تمجيد أيقونة العذراء يحمل بالنسبة لي معنى عظيماً جداً، وهو ما يغدو أكثر مفهومية إذا ما أخذنا بالحسبان التصورات التي سلفت الإشارة إليها والمرتبطة بعلاقة الصورة البصرية، الأيقونة بجوهر التقليد الغربي. وأتصدى للافتراض بأن جميع الحروب الإقليمية في أوروبا القرنين السادس عشر ـ السابع عشر بما في ذلك حرب الثلاثين عاماً فوق الأراضي الألمانية كانت في حقيقتها حرباً لصالح وضد التمجيد الكاثوليكي في القرون الوسطى **لمريم العذراء**. فهل يجوز في هذا السياق أن نعد صراع البوريتان الإنكليز ضد الأيقونات ظاهرة شرقية، وتوقير الأيقونات من طرف الكاثوليك الباڤاريين والإسبان والبولنديين ـ علامة طبيعتهم الروحية الغربية؟ في المناقشات البيزنطية حول بدعة الصراع ضد الأيقونة طرحت مقولة **التثليث** المسيحية على المستوى اللاهوتي وتمثلت المسألة

= أخذت تعاليم الكاڤينية بالانتشار في فرنسا وهولندا وسكوتلندة ثم في انجلترا فـ «العالم الجديد» من مبادئها عقيدة «المصير المقرر سابقاً» أو مذهب الجبرية القائل بأن الله يصطفي أولياءه (المترجم).

(*) الريكونكيستا: (Reconquista، من riconquistar بالاسبانية، استردّ، استعاد) حرب الاسترداد (المترجم).

(**) كونكويستادور (conquistodor بالاسبانية)، المغامرون الاسبان الذين كانوا يتوجهون إلى أمريكا بعد اكتشافها لاحتلال الأراضي الجديدة. ترافق نشاطهم (كما في حملات ف. بيسارو وإ. كورتيس) بإفناء السكان الأصليين أو استعبادهم (المترجم).

(***) الكونكيستا (conquista بالاسبانية) مصطلح يستخدم في الأدب التاريخي، ويتعلق بمرحلة احتلال المكسيك، وأمريكا الوسطى والجنوبية من قبل الاسبان والبرتغاليين في نهايات القرنين الخامس عشر والسادس عشر (المترجم).

الروحية في صعوبة الجمع التصويري الأيقوني بين الأحادية الإلهية والتثليث ضمن الإلهي. ومع ذلك فمن غير الصحيح المطابقة المجردة بين عقيدة **التثليث والغرب** دون سواه وبين الوحدانية التجريدية - **والشرق**. ومن الطبيعي أن مثل هذا التطابق كان كاملاً تقريباً في لحظات معينة من التاريخ. وقد أكمل الرهبان الفرانك **الرمز** المسيحي **لعقيدة الغرب** بالمعادلة التي ينبثق **الروح القدس** بموجبها لا من الأب فقط بل ومن الابن، واستياء البطاركة اليونان من الـ Filioque أدى إلى الانشقاق بين **الكنيستين الغربية والشرقية**[8]، وانطلاقاً من ذلك كان يمكن القول بأن الـ Filioque كمسلك الغرب ضد **الشرق**، إلا أن هذا يُدحض بالتعاليم الخاصة المتعلقة **بالتثليث وأم الله لآباء الكنيسة السريان** ومن جهة أخرى بنظرات الأريان الغربيين الذين رفضوا على العموم الطبيعة **الإلهية للمسيح**. وبهذه الصورة لا يغدو الاختلاف المؤثر المتعلق بتصوير الأيقونات بين **الشرق والغرب** في مسألة التثليث على تلك الدرجة من اللامشروطية والإطلاق.

والأيقونوغرافيا التقليدية ليست سكونية، وتقتحمها دوماً وقائع جديدة، كاقتحام التقنية الصناعي على سبيل المثال. كما إن التحليل النفسي المعاصر يمكن النظر إليه أيضاً على أنه تجسيد لاتجاه معاد للأيقونة. وقد قام المحلل النفساني الإسباني خوان خوسيه لوبيس ايبور بدراسة على غاية من الطرافة في هذا المضمار منطلقاً من نظرتنا الفن التشكيلي الأيقونية لهذه المسألة. وفضلاً عن ذلك فإن التصوير المعاصر بأجمعه - التجريدي منه وما لا يزال يحتفظ ببقايا المادية - يحمل في ثناياه، من الناحية العملية، دمار الفهم التقليدي للصورة، للتشكيل البصري، للأيقونة. والمظاهر الثلاثة جميعاً - التقنية، التحليل النفسي والفن التشكيلي المعاصر - مرتبطة فيما بينها. فإذا ما قمنا بدراسة مثل هذه العلاقة المتبادلة من خلال مقارنتها مع المواجهة الفعلية بين الشرق والغرب أمكننا التوصل إلى نتائج مثيرة مذهلة. والعقبة الوحيدة في هذا السبيل هي استحالة مماهاة الشرق بصفة حادة مع الصراع ضد الأيقونة، والغرب - مع تمجيد الأيقونة. ولكي نعي حتى النهاية بنية الثنائية العالمية - **الغرب - الشرق** يتعين علينا الانطلاق من معايير أخرى.

(2)

المؤسسة للعناصر: **الأرض والماء، اليابسة والبحر**.

وما نسميه اليوم **بالشرق** يمثل كتلة متراصة من اليابسة القاسية: روسيا ـ الصين، الهند ـ قطعة مهولة من اليابسة، «**أرض متوسطة**»[9] حسبما أسماها الجغرافي الإنكليزي العظيم سير هيلفورد ماكيندر، وما نسميه اليوم **بالغرب** هو واحد من المحيطات العالمية، نصف الكرة الأرضية، يتوضع فيه المحيطان الأطلسي والهادي، والمواجهة بين العالمين البحري والقاري ـ تلك هي الحقيقة الكونية الثاوية في أساس تفسير الثنائية الحضارية التي تولد دوماً التوتر الكوني وتحفز عملية التاريخ بكاملها.

في لحظات الذورة من التاريخ الإنساني تصب الصدامات بين الدول المتحاربة في حروب بين عفوية **البحر** وعفوية **البر**. وهذا ما لاحظه مؤرخو حرب سبارطة وأثينا، روما وقرطاج. إلا أن الأمور اقتصرت، حتى وقت معين، على منطقة البحر الأبيض المتوسط. فلم يكن البشر قد عرفوا بعد الآماد المهولة، المحيطات العظمى، والنزاعات الكونية. ونشير على الفور إلى أن علينا أن نضع فارقا تصورياً بين عفوية **البحر** وعفوية **المحيط**. وبالطبع هناك متوازيات جزئية والكثيرون يستشهدون في هذا الخصوص بقطعة مشهورة من التقريع الأول لديموسفين[*] (38 ـ 41). أما أنا فلا أشارك أفلاطون كلماته التي تقطر سماً عندما قال عن اليونانيين «**هؤلاء يقبعون على شاطىء البحر المتوسط، كالضفادع**».

ومع كل ذلك فبين الحضارة البحرية التي تبدو حضارة ضمن اليابسة والحضارة المحيطية فرق ملموس. فذلك التوتر بين **الشرق والغرب**. وذلك الطرح الكوني لمشكلة النزاع واللذان يميّزان مرحلتنا في التاريخ ليس لها ما يماثلهما في الماضي. ولا تكتسب المواجهة **بين البر والبحر (كمحيط)** حجمها الكوني ـ التاريخي النهائي إلا عندما تصل الإنسانية إلى استثمار الكرة الأرضية بكاملها.

توضَّح الطابع الكوني لأول مرة إبان حرب انجلترا على فرنسا الثورية

(*) ديموسفين (32 ـ 322) خطيب يوناني أثيني. قائد المجموعة الديموقراطية المناوئة للمكدونيين. كان يدعو قومه إلى النضال في وجه السياسة الاحتلالية للملك المكدوني فيليب الثاني، وخطبه في هذا الموضوع تسمى «الفليبيات» «التقريعات» فاستطاع أن يقيم تحالف المدن اليونانية. فلما خضعت اليونان لمكدونيا قتل نفسه بالسم (المترجم).

ونابليون. والحق إن التقسيم إلى **بر وبحر**، إلى **شرق وغرب** لم يتضح بعد على نحو ما هو اليوم. فقد هزم نابليون في نهاية المطاف لا من طرف انجلترا بل من طرف القاريات: روسيا، النمسا، وبروسيا. ونوموس[10] الأرض كان لا يزال يتجسد آنذاك في التوازن بين قوى البر والبحر. فما كان للبحر بمفرده أن يتوصل بقواه الذاتية إلى النصر الحاسم. وفي سنة 1812 وعندما بلغ الصراع أوجه أعلنت الولايات المتحدة الحرب لا على نابليون بل على انجلترا. وحصل تقارب آنذاك بين أمريكا وروسيا، وحاولت الدولتان، وكانتا فتيتين بعد، أن تبقيا مسافة بينهما وبين كل من نابليون وانجلترا. والتناقض بين **الأرض والبحر**، وبين **الشرق والغرب** لم يكن بعد قد تبلور في صور مواجهة العفويتين، وهو ما لم يكن يتحقق إلا لحظة عقد التحالف الشمالي الأطلسي سنة 1949.

ولكن منذ أيام نابليون كانت قد اتضحت بصورة جلية إلى حد ما مشروعية النزاع السياسي الذي حدّده اختلاف العفويتين الحضاريتين، أي ذلك النزاع الذي لم يكن أمامه مناص من الاختيار بين البر والبحر. وفي تموز من سنة 1812 عندما كان نابليون يقترب من موسكو ألّف غوتة مدحيةً موجهة في الظاهر إلى ماريا لويزا وفي الواقع إلى زوجها ـ الأمبراطور الفرنسي «هناك حيث تتبلبل خواطر آلاف الرجال، هناك يحسم الأمور جميعاً رجل واحد (نابليون) ويواصل الشاعر الألماني وقد وضع في حسابه الأفق الكوني للمواجهة بين البر والبحر».

«هناك حيث يتم التفكير بكدر قروناً من الزمان
هو (نابليون) يتجاهلها بصافي ضيائه الفكري.
لقد تلاشى كل ما هو تافه
فلا وزن هنا إلا **للبر والبحر**».

(Worueber trueb Jahrhunderte gesonnen
Er ueberieht's im hellsten Geisteslicht
Das Kleinliche ist alles weggeronnen
Nur Meer und Erde haben hier Gewicht»).

كان غوته نصيراً لنابليون. وبالنسبة له كان ذلك جانب اليابسة. الأرض لكن نابليون يتماهى أيضاً مع **الغرب**. وكان الغرب آنذاك يابسة وليس **بحراً** بأي صفة. وكان الشاعر الألماني يأمل بكل صدق في أن يبقى الغرب تجسيداً للقوة القارية

البرية وأن ينتزع نابليون، مثل الاسكندر الجديد الأراضي الشاطئية من قوى **البحر** وعندَ ذاك **تمارس اليابسة حقوقها**.

وهكذا فإن غوته، الممثل الأنموذجي للغرب، قد قام صيف 1812 باختياره **لصالح اليابسة الأرض ضد البحر**. وبالطبع فإنه تمشياً مع رؤاه الفكرية كان يفهم المواجهة بين **الأرض والبحر** على أنها توتر سكوني قطبي لا كلحظة تاريخية ديالكتيكية لا تتكرر. ومما له أهمية بالغة في هذا الصدد الفرق بين القطبية السكونية والديالكتيكية التاريخية، التي تحدثنا عنها في مستهل مقالنا.

(3)

غوته كان يفكر عبر مصطلحات القطبية السكونية، بيد أن التوتر القطبي يختلف اختلافاً ملموساً عن التوتر التاريخي ـ الديالكتيكي. وسكونية التوتر القطبي تفترض وجود التزامنية، الديمومة التي يشكل التفاعل المتبادل بين الأقطاب المتواجهة إزاءها البنية الثابتة التي تبقى واحدة من حيث الجوهر أمام كافة التبدلات الخارجية التي تنطلق من المواقف التاريخية المحدّدة. وهذا ضرب من العودة الأبدية.

والنظرة التاريخية المحدّدة تدرس، على عكس ذلك، سلسلة التفاعل المنطقي والتاريخي المتبادل بين ملموسية السؤال المحدَّد والإجابة عليه. والسؤال والإجابة عليه يقدمان ديالكتيكية المحدَّد تاريخياً ويؤطران بنية المواقف والمراحل التاريخية. ولا ينبغي لكل هذه الديالكتيكية أن تتماهى بالضرورة مع المنطق الهيغلي للمفاهيم أو مع القانونية الجبرية للمسيرة الطبيعية للأحداث.

بيد أن ما يهمنا هنا هو دراسة بنية الثنائية الكونية القائمة بصفة محدَّدة في عالمنا (لا النظرية العامة للعملية التاريخية). إن التفكير التاريخي تفكير عبر حالات تاريخية منفردة تجري لمرة واحدة وبناء عليه، عبر حقائق أحادية المرة. وجميع المتوازيات التاريخية لا تخدم إلا التعرف الأفضل على هذه الفرادة، وإلا فإنها تتحول إلى ما لا يزيد عن كونها عناصر وظيفية ميتة لنظام تجريدي لا وجود له في الحياة الواقعية. فمن العبث واللاواقعية استنتاج افتراضات من هذا النوع: فماذا كان ليجري لو اتخذت الأحداث مساراً آخر غير الذي اتخذته في التاريخ الواقعي. مثلاً ماذا لو أن السراسين انتصروا في المعركة قرب بواتييه؟ ماذا لو لم يخسر نابليون الحرب في معركة واترلو؟ وماذا لو لم يكن شتاء الـ 41 ـ 42 بمثل تلك البرودة؟، هذه الافتراضات الخرقاء، التي يمكن أن نلتقي بها حتى لدى مشاهير

المؤرخين، عبثية لأنها غيبَّتْ بصفة مطلقة فردانية ولا تكرار أية حادثة تاريخية. إنَ بنية التوتر القطبي فعالة دوماً، خالدة كالعودة الأبدية.

أما الحقيقة التاريخية، فعلى العكس من ذلك، ليست حقيقة إلا مرة واحدة، بل ولا يمكنها أن تكون حقيقية أكثر من مرة واحدة لأن تاريخيتها كامنة في فرادتها بالذات. وفرادة الحقيقة التاريخية تمثل واحداً من قطاعات الأنطولوجيا حسبما عبّر ڤالتر ڤارناخ. وديالكتيكية السؤال والردّ التي يجري حولها الحديث الآن في محاولتنا لتفسير حقيقة التاريخ لا تضعف بأي شكل ولا تُبطل مزايا فرادة الحدث التاريخي. إنها، على العكس من ذلك، لا تزيد عن أن تقوي هذه الفرادة ما دام الحديث يتناول الإجابة المحدَّدة التي لا تتكرر على سؤال محدّد لا يتكرر أيضاً.

لو أن المواجهة بين **اليابسة والبحر** والمجسدة في الثنائية الكونية المعاصرة، كانت قطبية سكونياً بصفة استثنائية، أي مقحمة في سلسلة التوازن الطبيعي والعودة الأبدية، لكانت جزءاً من عملية طبيعية محضة. العفويات في الطبيعة تنقسم وتتوحد، تختلط وتتفرق. ويحل بعضها محلها بعض في دورة التحولات التي لا تتوقف والتي تكشف صوراً وأشكالاً جديدة وجديدة لجوهر التوتر القطبي المتشابه. ولو أفضى الأمر فقط إلى مثل هذه الثنائية السكونية الطبيعية لكان التناقض الفعال بين **الشرق والغرب** مجرد شكل خاص من أشكال تعبير الدورة الأبدية للنخب العليا، مشكلة الأيقونوغرافيات. والعودة الأبدية والتحول الأبدي لا يعرف الحقيقة الخاصة، ولا الوضعية التي لا تتكرر، ولا اللحظة التاريخية. إن المواجهة السكونية ـ القطبية تنفي اللاتكرارية التاريخية. لكن الأمر يختلف عن ذلك في التاريخ المحدّد. ففي مراحل محدّدة تظهر شعوب ومجموعات فعّالة، جبارة، يحتلون الأرض ويتقاسمونها في عملية اتفاقيات ودية أو حروب ويتصرفون فوق أملاكهم، يرعون القطعان وما إلى ذلك ومن هنا ينبثق نوموس الأرض وهو محكوم بـ **هنا والآن** الفريدتين أما التوتر بين العناصر والتي نتحدث عنها بين اليابسة والبحر فلا يزيد على أن يولد السباق الطبيعي الموضوعي الذي يتوضح فيه ذلك **النوموس** .

إذا أخذنا **الأرض والبحر** (والمخلوقات التي تقطنهما) كعنصرين طبيعيين بصفة استثنائية ـ من الواضح أنهما عاجزان من تلقاء ذاتيهما عن أن يولدا المواجهة العدائية التي تحمل مغزى حوادثياً تاريخياً. وسكان **البحر** وسكان **البر** لا يمكن أن

يكونوا بطبيعتهم أعداء على الإطلاق. يحدث أن تلتهم الحيوانات فوق الأرضية الحَيوانات البحرية ولكن من السخف الحديث في هذه الحالة عن عداء ما. فالأسماك نفسها غالباً ما يلتهم بعضها بعضاً والكبيرة، بصفة خاصة، تلتهم الصغيرة. بل إن سكان **اليابسة** يتصرفون نحو بعضهم بعضاً بما لا يَفْضُل كثيراً عن هذا. ولهذا لا يجوز القول بوجود عداء طبيعي بين **اليابسة و البحر** . والأقرب إلى الواقع أن هاتين العفويتين موجودتان في حالة طبيعية محضة بصفة لا تبالي إحداهما بالأخرى ودون أن ترتبط بها على الإطلاق وإلى درجة تجعل من السخف الحديث عن علاقة خاصة أو ناشطة مكثفة كالعداء. كل مخلوق يقيم في عفويته الخاصة والدب لا يعادي بطبيعته الحوت، كما إن الحوت لا يعلن الحرب على الدب. حتى إن الكواسر البحرية والبرية تعلم بدقة صارمة حدود سكناها وأبعادها. فالدب لا يعتدي على ممتلكات الأسد أو النمر، بل إن أشد الوحوش شجاعة تعرف حدودها وتحاول تجنب الصدامات المقيتة. وأولئك الذين يطرحون على سبيل المثال العداء الطبيعي في علاقة القطط مع الكلاب إنما يقدّمون شاهداً إضافياً على أن هذه العدوانية الفطرية تختلف بحدة عن العداء الإنساني. فعندما ينبح الكلب على القط أو يفح القط في وجه الكلب فالنزاع بينهما يتضمن معنى مخالفاً للعداء بين البشر. ويتمثل الفارق الأهم في كون البشر، خلافاً للحيوانات، قادرون على إنكار وجود الخاصة الإنسانية نفسها لدى أعدائهم. أما الحيوانات ـ فلا. إن وجود الكلب من الناحية الروحية والخلقية لا يضع القط تحت التساؤل والعكس.

بيد أن ما يحمل مغزاه هو أن الخرافات المأخوذة من حياة الحيوان تستعرض بالصورة الأشد بروزاً المواقف والعلاقات الإنسانية بصفة مميّزة. وعلى العموم فمن وجهة النظر الفلسفية تكتسب مسألة الخرافات على ألسنة الحيوان طرافة في حد ذاتها. فبنقل المواقف السياسية الإنسانية حصراً إلى عالم الحيوان، إنما نسقط عليها المسحة الأسطورية، ونفسرها. ونجرّدها من الأستار الإيديولوجية والخطابية. وبالذات ولكون العلاقات بين الحيوانات تحمل مغزى منافياً تماماً لما هو بين البشر ـ فإن هذا التناول المجازي ـ والذي يتصرف البشر إزاءه كوحوش، والوحوش كبشر ويسمح باكتشاف ما كان حتى الآن خافياً عبر الإعراض الواعي عن التحليل المباشر والمتوازن. والتقمّص في إهاب وحش يغترب بالإنسان عن الإنساني، لكن عبر مثل هذا الاغتراب فقط يعود الإنساني أكثر وضوحاً وبروزاً. على هذا الأساس

يقوم المغزى السياسي للخرافات حول الحيوانات (وهو ما لن نتوقف أمامه بعد الآن).

قد يتراءى عند نقل ثنائية **اليابسة والبحر** إلى الصعيد الإنساني أن الحديث ينبغي أن يتناول النزاعات بين أهل **البحر** والنزاعات البرية بين أهل البر. لكن الأمر يختلف في واقع الحال عن ذلك بدءاً من اللحظة التي يبلغ التوتر الكوني التاريخي فيها مستوى معيناً من الحرج. فالبشر، خلافاً للحيوانات، والبشر **فقط** ـ قادرون على خوض الحرب بين شعوب البر وشعوب البحر. وعندما يبلغ العداء ذروته العليا تغطي العمليات القتالية جميع المناطق الممكنة وتنبسط الحرب من الجانبين على **البر** كما على **البحر** .ويضطر كل من الجانبين لمطاردة عدوّه في أعماقه العفوية المعادية. وعندما تتم السيطرة على العفوية الثالثة والفضائية ـ ينقل النزاع إليها وتغدو الحرب حرباً فضائية. لكن الموضوعات المؤسسة للنزاع لا تفقد صفتها ولهذا يبدو لي أن من المعقول الحديث عن المواجهة بين عنصر **الأرض** وعنصر **البحر** . فعندما تقترب المواجهة الكونية ـ التاريخية من ذروتها يستنفر كلا الجانبين كافة قواه المادية والروحية والنفسية وحتى حدودها القصوى. وتنتشر المعركة آنذاك على كافة المجالات المجاورة للأطراف المتحاربة. والفرق الطبيعي العفوي بين **البر والبحر** يتحول في هذه الحالة حرباً حقيقية بين هذين العنصرين.

تتسم الحرب بين البشر بتوتر خاص يفوق أضعافاً التوتر المميّز بالنسبة للعداء في مملكة الطبيعة. فجميع آفاق الطبيعة تتعالى، تكتسب بعداً فائقاً (أو متسامياً، كيفما كان). وهذا البعد الإضافي يمكن أن يسمّى روحياً أو لنتذكر كلمة رامبو «Le combat spirituel est aussi brutal que la bataille des hommes»[11] ومهما يكن من أمر فإن العداء بين البشر يمكن أن يبلغ درجة خارقة للعادة. وهذا المستوى الأعلى من العداء يتكشف بصورة واضحة في الحروب الأهلية حيث يجرِّم العدو ـ خلقياً وحقوقياً وإيديولوجياً إلى درجة أن يغدو من الناحية العملية خارج كل القوانين الإنسانية. وفي هذا يعرِّف بنفسه عنصر خاص بالإنسان دون غيره، عنصر فوق الطبيعي، متجاوز للحدود بالنسبة لقياسه الطبيعي، وهذا العنصر يولد توتراً خارقاً للعادة ويحوّل القطبية الطبيعية إلى ديالكتيك تاريخي محدَّد.

وكلمة «**ديالكتيك**» تعبر هنا عن تلك الصفة الخاصة (المميّزة للبشرية فقط) والتي تختلف جذرياً عن كافة الصيغ الطبيعية للقطبية. وكلمة «**ديالكتيك**» تشير إلى

تركيبة «**السؤال ـ الجواب**» والتي تستطيع وحدها أن تصف بالطريقة الملائمة الوَضعية التاريخية أو الواقعة التاريخية. والوضعية التاريخية لا يمكن أن تفهم إلا كتحد مطروح أمام الإنسان وجوابه على هذا التحدي. وكل مسلك تاريخي هو جواب الإنسان على سؤال طرحه التاريخ. إن كل كلمة إنسانية ـ جواب. وكل جواب يكتسب معناه من خلال السؤال الذي يُطلب الرد عليه، وتبقى الكلمة فارغة من المعنى بالنسبة لمن لا يعرف السؤال. أما معنى السؤال فيكمن، بدوره، في تلك الوضعية المحدَّدة التي طرح بها.

ويذكرّ هذا بـ «منطق السؤال ـ الجواب» (Question - Answer Logic) لـ ر. ج. كولنغوود، وإننا، في واقع الحال، نعنيه بالذات. فبالتفكير عن طريق مصطلحي «السؤال ـ الجواب» حاول كالّينغوود تحديد المعنى الجوهري للتاريخ. وقد أنجز ذلك بدقة رائعة، لأن المصطلح المعطى كان يعني ذروة الطريق الفلسفي نحو التخلص من مذهب الإيجابية الوضعية الخاص العلمي بالنسبة للطبيعيات والخارج عن التاريخ. كان تدبير كولنغوود رائعاً، إلا أن العالم الإنكليزي كان أشد تأثراً بالتعريف الإنكليزي للعلم، والمميّز بالنسبة للقرن التاسع عشر، من أن يتجاوز التفسير النفسي ـ الفرداني لمشكلة «السؤال الجواب». وهذا العامل بالذات هو وحده الذي يمكن أن يفسر نوبات الكراهية للألمان، المَرَضية، المشوبة بالتعقيد والتي أفسدت إلى حدود بعيدة مؤلَّفه الأخير «The New Leviathan»[12] إلا أن المأثرة العظمى لـ «منطق السؤال ـ الجواب» تبقى دون شك. ولكن لا بد من الإشارة بصفة خاصة إلى أن السؤال يطرح هنا لا من طرف إنسان منفصل أو مجموعة من البشر كما أنه لا يؤخذ بطريقة عبثية على الإطلاق من طرف مؤرخ يدرس الماضي، بل من طرف التاريخ نفسه الذي يتكون في مداه النوعي من الأسئلة والأجوبة. والسؤال ـ هو في ذاته الحدث التاريخي الذي ينساب منه عبر الإجابة الإنسانية المحدَّدة، الحدثُ التالي. وبالضبط عند المستوى الذي يتقبل البشر فيه تحدي التاريخ وسؤاله، وبالمستوى الذي يحاولون فيه الردّ عليها بعلاقاتهم وتصرّفاتهم، بهذا المستوى يستعرضون قدرتهم على المشاركة الحافلة بالمجازفة في التاريخ وبناء على ذلك يعرضون أنفسهم لحُكْمه. وبكلمة واحدة: فإنهم ينتقلون من الوضعية الطبيعية إلى الوضعية التاريخية.

قام أرنولد توينبي(*) بتطوير منطق «السؤال ـ الجواب» (Question answer logic) إلى صيغته الثقافية ـ التاريخية (تركيب التحدي ـ الاستجابة)[13] (Challenge - response - structure) . لقد طور توينبي نظرية «السؤال» حتى مفهوم التحدي ونظرية «الجواب» ـ حتى «الاستجابة»، وكانت هذه مرحلة على غاية من الأهمية في إيضاح الخاصة الجوهرية للتاريخي إذ يتميّز هنا بوضوح لا التوتر السكوني ـ القطبي ـ الطبيعي ـ الذي تم تحليله من طرف مدارس الفكر اللاتاريخية ـ الفردانية ـ النفسية، الطبيعية العلمية ـ بل التوتر الذي تم فهمه ديالكتيكياً. ويشعّب توينبي، على أساس من منهجه ـ أكثر من عشرين ثقافة من الثقافات أو الحضارات العليا التي أقيمت كل واحدة منها على إجابة تاريخية محدّدة، استجابة البشر على السؤال الذي طرحه التاريخ ـ على التحدي الذي قدمه. ففي حالة مصر على سبيل المثال تلخّص التحدي في الخصيصة الطبيعية لوادي النيل في الارتباط بالنهر وفي التهديد الدائم للحملات المعادية. وكان استصلاح أراضي وادي النيل وتنظيمها. والاحتماء من التأثيرات البربرية الخارجية والحضارة المصرية القائمة على هذا الأساس بعباداتها للآلهة، وأسرها الملكية والأهرامات والفن المقدس ـ كل ذلك كان الإجابة المحدّدة على التحدي المطروح.

من هذه المقاربة اكتسبت منهجية المعرفة الكثير مما هو بالغ الأهمية، إذ غدا ممكناً منذ ذلك الحين دراسة البنية الديالكتيكية لكل وضعية تاريخية، لكن توينبي نفسه لم يكن قادراً على تجنب الخطأ المميّز الذي أساء كثيراً إلى نظريته. فعندما يشرع في عرض آلية التفاعل المتبادل فيما بين الحضارات والثقافات العشرين التي ميّزها، يتقدم في تحليله الجانب الأكثر جوهرية في التاريخي، بنيةُ التاريخ نفسه ـ

(*) توينبي (Toynbee) أرنولد (1889 ـ 1975)، مؤرخ عالم اجتماع انكليزي. قال بنظرية دورة الحضارات المحلية التي تحل إحداها محل الأخرى والتي تعيش كل منها مرحلة الظهور والنمو والنضج ثم التفسخ، أما محرّكها الأساسي فهو «النخبة المبدعة» التي تجتذب خلفها الغالبية الخاملة. أما صورة التقدم الإنساني فتتمثل له في الكمال الروحي الذي سيتم الوصول إليه عبر الانتقال من المعتقدات الأولى الساذجة إلى ديانات كونية تنتهي إلى ديانة الكون الواحدة في المستقبل. كما رأى أن خلاص الغرب من التناقضات والنزاعات يمكن أن يتم بتجدده الروحي ووقف ضد الأوساط الموغلة في تحجرها ورجعيتها. أهم أعماله «دراسات في التاريخ» المجلدات 1 ـ 12 (1934 ـ 1961) (المترجم).

الأحادية الفريدة لكل وضعية تاريخية وحلها. فلا توجد أية قوانين عامة للتاريخ العالمي. هذه المحاولة التجريدية لإخضاع التاريخ الحي للقوانين الجافة أو للاحتمالية الإحصائية في داخل النظام الوظيفي الضيق خاطئة من جذورها.

ونحن نتعامل في الواقع مع حالات أحادية محدّدة. والحالة المحدَّدة لمرحلتنا الحاضرة توصف بأن مواجهة **الشرق والغرب** اتسمت فيها بطابع الثنائية الكونية، العداء الكوني. وعندما نحاول تفسير طبيعة التوتر الديالكتيكي الذي أفرزته هذه الثنائية لا نتطلع إلى استخلاص القانون المشترك ولا الاحتمالية الإحصائية، ناهيك عن إقامة نظام ما. وعندما نستخدم كلمة «الديالكتيك» أو «الديالكتيكي» نتعرض لمخاطرة ألاّ نُفهم بطريقة صحيحة أو أن ننُسب إلى المدرسة الهيغلية الضيقة. والأمر ليس على هذه الشاكلة. فديالكتيك هيغل التاريخي يمكّن في واقع الحال، من تفسير أحادية الحدث التاريخي وفرادته، وهو ما نلمسه على الأقل من عبارة هيغل القائلة بأن أنسنة ابن الله هي الحدث المركزي في التاريخ الإنساني بطوله. ويتضح من هذا أن التاريخ لم يكن بالنسبة لهيغل بكل بساطة سلسلة من القوانين الموضوعية بل وامتلك أيضاً البعد الذاتي للمشاركة الفعالة. إلا أن الفرادة التاريخية كثيراً ما تضيع في التصنيف الهيغلي العام ويذوب الحدث التاريخي المحدّد في العملية العقلية الوحيدة الوتيرة. وهذه الملاحظة كافية لكي نستعرض فهمنا لمصطلح «الديالكتيك»، ولنتدارك التنسيب الآلي إلى المدرسة الهيغلية وهو ما يعدّ أمراً مميّزاً بالنسبة للنمط الآلي «التقني» لفكر معاصرينا.

وإلى جانب الفهم الخاطىء لحقيقة الديالكتيك التاريخي المميّز بالنسبة لمدرسة هيغل ككل، ينبغي الاحتراس أيضاً من الهوس النموذجي للقرن التاسع عشر بصياغة السُّنن واكتشاف القوانين. ومن الناحية العملية تعرّض لهذا المرض جميع علماء الاجتماع والمؤرخين الغربيين، باستثناء أَلِكسيس دي توكويل. لقد غطى مطلب استنباط قانون شامل للتطور من كل حالة تاريخية محدَّدة الكشوفات التاريخية، وحتى لدى الأوفر بصيرة بين مفكري القرن الماضي، بحجاب من التعميمات الضبابية يكاد يصعب اختراقه.

كان حَمْل الحقيقة التاريخية المحدّدة على قانون إنساني عام الثمنَ الذي استعاض القرن التاسع عشر به عن نظريته الوضعية العلمية ـ الطبيعية. فلم يكن

العلماء بقادرين بكل بساطة ـ على أن يتصوروا حقيقة ما خارج القانونية الوظيفية المشتركة المحسوبة والمقيسة بدقة. فأوغست كونت(*) ـ مؤرخ العصر الذي أوتي حدساً عبقرياً ـ حدَّد بصواب ماهية عصره إذ قدّمها نتيجةً لتطور من ثلاث مراحل: من اللاهوت عبر الميتافيزيكا إلى الإيجابية (الوضعية). تلك كانت ملاحظة صحيحة على الإطلاق وكأنما قد حددت الخطوة الأحادية المتكونة في لحظات ثلاث، والتي حققها الفكر الغربي منذ القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر. لكن الوضعي أوغست كونت لم يتمكن بنفسه من الإيمان بصواب المبدأ الذي صاغه بنفسه إلا بعد أن صرّح بأن قانون المراحل الثلاث ينسحب على البشرية بأسرها وعلى تاريخها بطوله. وقد وضع كارل ماركس بدوره تشخيصاً دقيقاً جداً لتوضع الأمور ذاك، والذي كان مميّزاً بالنسبة للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية في منتصف القرن التاسع عشر في أوروبا الوسطى والشرقية؛ إلا أن المصيبة في كونه رفع تصوراته إلى مستوى العقيدة التاريخية الشمولية ونادى بالمبدأ المبسط حول «الصراع الطبقي»، بينما لم يتناول الحديث في واقع الحال، إلا لحظة محدّدة من الثورة التقنية ـ الصناعية، ارتبطت باختراع السكك الحديدية، وبالتلغراف والآلة البخارية. وقد حدّد أوزوالد شبينغلر في القرن العشرين أهمية اكتشافه إلى حدود بعيدة ـ بالنسبة للتوازيات التاريخية العميقة بين المرحلة الحاضرة ومرحلة الحرب الأهلية الرومانية ومرحلة القياصرة ـ بأن أقام على ذلك الأساس نظريته الشاملة حول الأوساط الثقافية وبناء على ذلك قتل العصب التاريخي الصرف في مجموع دراسته.

(4)

التصنيع والتطور التقني يمثلان اليوم مصير كرتنا الأرضية. فلنحاول تحديد السؤال التاريخي الأحادي، التحدي الكبير والجواب والتي أفرزتها جميعاً الثورة

(*) كونت (conte) أوغست (1789 ـ 1857) فيلسوف فرنسي. أول من أرسى قواعد الفلسفة الوضعية في السوسيولوجيا البورجوازية، رأى في الوضعية خطاً متوسطاً بين المذهب التجريبي (الاختباري) والغيبية، والعلم في رأيه، لا يدرس الجواهر بل الظواهر فقط. كما إنه طرح النظرية المثالية المتعلقة بالمراحل الثلاث للتطور العقلي للإنسانية (اللاهوتية، الميتافيزيكية فالوضعية أو العلمية) وهي نفسها المراحل التي تحدّد تطور المجتمع. وضع تصنيفاً للعلوم يعتمد على درجة قلة حضور التجريد في كل منها (المترجم).

الصناعية ـ التقنية في القرن الماضي. ولنبعد إزاء ذلك كافة الاستنتاجات السطحية التيَ تجرنا إلى النظم المجازفة للاشتراطية السببية ـ التاريخية. وقد فرَّعنا من المفهوم العام للتوتر التوترَ الديالكتيكي المجرد المتميّز عن القطبية ـ السكونية، إلا أن هذه التوترية الديالكتيكية لا ينبغي أن تفهم على أنها ثمرة مَرَضية للمدرسة الهيغلية والنظرات الطبيعة العلمية أو النظريات المعيارية. كما إن معادلة توينبي المتعلقة بـ «التحدي ـ الاستجابة» يجب ألاّ تستخدم أيضاً إلا كأداة، ذلك أننا في حاجة بالدرجة الأولى، إلى أن نفهم بشكل صحيح الحقيقة الأحادية العملية للثنائية الكونية الحالية بين الشرق والغرب.

وسيساعدنا هنا نص أرنولد توينبي لعام 1953 والذي يحمل العنوان المعبّر: «The World and the West» (العالم والغرب)[14]. وقد أثار هذا المؤلَّف نقداً عنيفاً وجدلاً نؤثر أن نمرّ به صامتين، فلا يهمنا هنا إلا مواجهة الأرض وتوينبي يتحدث عن عصرنا ويميّز فيه الغرب كخاصية منفصلة تواجه بقية العالم بأسره.

الغرب يبدو له عدوانياً دأب على مدى أربعة قرون ونصف تحقيق توسيع قوته الصناعية ـ التقنية نحو الشرق في توجهات أساسية أربعة ـ روسيا، العالم الإسلامي، الهند وآسيا الشرقية. ويبدو أن ما هو شديد الأهمية بالنسبة لتوينبي أن هذه العدوانية قد تحققت عبر التقنية المتحرّرة من معايير التقليد المسيحي (enfesselte Technik) والحقيقة القائلة بأن الشرق الحالي قد صار يستخدم التقنية على نطاق واسع تعني بالنسبة لتوينبي بداية حمايته الذاتية الفعالة في وجه الغرب. والحق أن الجزويت قاموا في القرن السابع عشر بمحاولة التبشير بالدين المسيحي بين الهندوس والصينيين لا كديانة للغرب بل كديانة عالمية تنتسب بسوية واحدة إلى جميع البشر. ويرى توينبي أن هذه المحاولة قد باءت لسوء الحظ، بالفشل بسبب الاختلافات العقائدية بين البعثات الكاثوليكية المختلفة وشبكة الجزويت التبشيرية القائمة على المركزية. أما مغزى ثورة أكتوبر الشيوعية فيتمثل، وفقاً لتوينبي، يكون الشرق صار يتسلح بالتقنية الأوروبية المحررة من الديانة المسيحية. ويسمي توينبي هذه التقنية بـ «**جزيئة من الثقافة الأوروبية انفرطت منها عند نهاية القرن السادس عشر**». فلنتَنبّه إلى هذه الصيغة البالغة الأهمية والمطلقة الدقة.

ولنوضح الآن في ضوء «منطق السؤال ـ الجواب» ما الذي كانه ذلك التحدي وتلك الاستجابة اللذان تجليا تاريخياً في عصرنا عبر الوثبة الصناعية ـ التقنية.

مم تنحدر الثورة الصناعية؟ رداً على أي سؤال تكون؟ ما منابعها وما موطنها، ما بدايتها، وما دوافعها؟ إنها تنحدر من جزيرة انجلترا وتؤرخ بالقرن الثامن عشر. فلنردد على مسامع الجميع التواريخ الشهيرة: 1735 (أول فرن على الفحم الحجري)، 1740 (أول فولاذ مسبوك)، 1768 (أول آلة بخارية)، 1769 (أول مصنع حديث في نوتينغهام)، 1770 (أول آلة للغزل)، 1786 (أول ماكنة آلية للنسيج)، 1825 (أول قاطرة بخارية). الثورة الصناعية العظمى تنحدر من جزيرة انجلترا التي صارت بداية من القرن التاسع عشر الدولة الصناعية الرئيسة في العالم. هذه الظاهرة التاريخية الفذة التي ينبغي علينا أن نأخذها دوماً في الحسبان كانت قد لفتت نظر عالم الاجتماع الألماني لورينس فون شتاين سنة 1842 فكتب في هذا الصدد:

«بصورة عجيبة وبطريقة مفاجئة تماماً، في الوقت الذي تنتشر فيه في فرنسا أفكار الحرية والمساواة تظهر في انجلترا أول الآلات. وينفتح معها عصر جديد كل الجدة من أجل العالم كله فيما يخص مسائل الرفاهية، الإنتاج، الاستهلاك والتجارة. صارت الآلات القوة الثورية ـ الحقيقية في العالم المادي، ومن هذا العالم المادي الخاضع لها بدأت تبسط جبروتها في الأعماق، في كافة أنحاء العالم الروحي».

«بصورة عجيبة وبطريقة مفاجئة تماماً» وفوق ذلك «ففي انجلترا» بالذات! تسمع في هذه الكلمات الدهشة المتعطشة إلى المعرفة لدى الألماني الشاب، وفي باريس يدرك لوي فيليب أن الثورة السياسية الزاحفة بداية من سنة 1789 على كافة أرجاء القارة الأوروبية ليست إلا الظاهرة الأيديولوجية المصاحبة الشاحبة بالمقارنة مع الثورة الصناعية المنداحة من انجلترا والتي تمثل في ذاتها قوة ثورية حقة. هكذا ولدت تلك العبارة الرائعة التي أوردناها منذ قليل من فصل تحت عنوان رائع «البروليتاريا». في ذلك النص ولأول مرة يرد في الحوار الأوروبي التفسير العملي لمشكلة الاختلاف الأساسي بين قوة العمل والمُلكية.

وهكذا فإن الثورة الصناعية تنحدر من انجلترا القرن الثامن عشر. فما الوضعية التاريخية التي كانت سائدة على تلك الجزيرة في ذلك الوقت؟ بداية من القرن السادس عشر كانت انجلترا جزيرة انفصلت عن القارة الأوروبية وقامت بالخطوات الأولى نحو الوجود البحري المجرد. وهذا، من وجهة النظر التاريخية

ما يبدو الأهم بالنسبة لنا. فكل ما تبقّى ليس إلا بناء فوقياً تركيبياً أعلى. ومهما كانَ الحدث الخارجي الذي يقع عليه اختيارنا بصفته الخطوة النهائية نحو الوجود البحري المجرد ـ استيلاء كرومويل(*) على جامايكا سنة 1655، الإبعاد النهائي لأسرة ستيوارت(**) سنة 1688 أم الصلح الأوروبي في أوتريخت(***) سنة 1713 فإن الأهم ما يلي:

واحد من الشعوب الأوروبية كفَّ بداية من لحظة معينة عن أن تكون الجزيرة التي يعيش فوقها، جزءاً من اليابسة الأوروبية الواقعة على مسافة ما ووعاها كقاعدة للوجود البحري المجرد وللسيطرة البحرية على المحيط العالمي. وبدءاً من القرن السادس عشر دخلت انجلترا عصر الكشوفات الجغرافية العظمى وأخذت تنتزع المستعمرات من البرتغال واسبانيا وفرنسا وهولندة. وقد حققت الانتصار على جميع منافسيها الأوروبيين لا بقوة التفوق الخلقي أو التفوق في ميدان القوة بل فقط وبالذات بفعل أنها قامت بالخطوة الحازمة، التي لا رجعة فيها، للانتقال من **الأرض** الثابتة نحو **البحر** المفتوح، وفي هذه الحالة ضمن انتزاع المستعمرات اليابسية الرقابة على الآماد البحرية.

(*) كرومويل (Cromwell)، أوليفر (1599 ـ 1658) أحد كبار شخصيات الثورة البورجوازية الانجليزية في القرن السابع عشر، انتخب سنة 1640 عضواً في البرلمان. كان أحد المؤسسين الكبار للجيش البرلماني الذي حقق النصر على الجيش الملكي في الحربين الأهليتين 1642 ـ 1646 و1648. وباعتماده على الجيش أخرج مناوئيه من البرلمان وشجع على إعدام الملك وإعلان الجمهورية (1649) التي كانت السلطة مركزة فيها بأيدي أنصاره. صار منذ 1650 القائد الأعلى للجيش. قضى على حركة الليفيلير والديغير وعلى الحركتين التحرريتين في إيرلندا وسكوتلندا، وأقر سنة 1653 نظام الديكتاتورية العسكرية ـ البروتيكتورات (المترجم).

(**) ستيوارت (Sruart) أسرة انجليزية حاكمة في سكوتلندا (بين 1371 ـ 1714) وفي انجلترا (1306 ـ 1349، 1660 ـ 1714) من أشهر شخصياتها ماري ستيوارت، ياكوب الأول (ياكوب السادس في سكوتلندا)، كارل الأول، كارل الثاني، وياكوب الثاني (المترجم).

(***) صلح أوتريخت 1713 ـ التسمية العامة لعدد من اتفاقيات السلام التي عقدت في مدينة أوتريخت (في هولندا) الاتفاقية الفرنسية ـ الانجليزية، الفرنسية ـ الهولندية، الفرنسية ـ البروسية، والتي اختتمت (مضافة إلى اتفاقية راشتات للسلام 1714) حروب الدول الاستعمارية من أجل اقتسام التركة الاسبانية (المترجم).

ذاك كان الرد الأحادي التاريخي الذي لا يتكرر على تحد يماثله في أحاديته وتاريخيته وبكونه لا يتكرر، على التحدي العظيم لعصر الكشوفات الجغرافية الأوروبية. ولأول مرة ظهر في تاريخ الإنسانية المعروف بالنسبة لنا، ظهر التحدي المرتبط لا ببعض الأنهار أو الشواطىء المحدَّدة أو البحار الواقعة ضمن اليابسة، لأول مرة اتخذ التحدي طابعاً أرضياً، كونياً. وغالبية الشعوب الأوروبية وعت ذلك التحدي ضمن المصطلحات البريّة ـ القارية. فقد أقام الإسبان امبراطوريتهم الهائلة وراء البحار، وبقيت مع ذلك برية في جوهرها وقد بنيت على أبعاد قارية واسعة. وابتعد الروس عن موسكو وانتزعوا بلاداً مهولة المساحة ـ سيبيريا. وعلى الرغم من الإنجازات العجيبة للبرتغال في الملاحة البحرية فلم يقيّض لهم أن ينتقلوا إلى الوجود البحري المجرد حتى إن لويزيادا «لكاموينيس»(*) الملحمة البطولية المتعلقة بعرض الكشوفات البرتغالية تتحدث عن المحيط الهندي في حقيقة الأمر مثلما يتحدث اينياس ڤرجيل(**) عن البحر الأبيض المتوسط. وكان الهولنديون أول من اقتحموا مجال المغامرات البحرية الكونية وبقوا فترة طويلة في الطليعة. لكن قاعدتهم كانت في غاية الضعف، وتجذّرهم في سياسة الدول القارية بعيد الأغوار، وبعد عقد الصلح في أوتريخت سنة 1713 كانت هولندة قد قيدت نهائياً إلى اليابسة ودخل الفرنسيون حرب مئتي عام مع انجلترا وخسروها في نهاية المطاف. ولم

(*) كاموينيس Camones، لويس دي (1524 ـ 1580) أفضل ممثل للأدب البرتغالي في عصر النهضة. يجمع بين الشاعرية الحزينة، وصف مشاعر الحب الصادقة وبين فوضى العالم. نظم السونيت والأهاجي والمسرحيات، لكن اشتهر بصفة خاصة بالمطولة الشعرية «لويزيادا» التي نظمها في عشرة أناشيد (سنة 1572)، يتحدث فيها عن رحلة فاسكو داغاما البحرية إلى الهند، واحتلالها من طرف البرتغاليين. وعلى الرغم من الإطار الميثولوجي للمطولة فهي حافلة بحيوية الوصف وشاعرية اللوحات وبطلها الحقيقي هو الشعب البرتغالي الذي مجّد الشاعر شجاعته وحيويته وبطولته، وهو ما حول المطولة الشعرية إلى ملحمة وطنية برتغالية أصيلة.

(**) ڤرجيل Vergilius، مارون (70 ـ 19 ق.م) شاعر روماني. من أعماله «الرعويات» (42 ـ 38ق.م) هيوركيتا (36 ـ 29ق.م) وملحمة «الإلياذة» الشهيرة وتروي مغامرات البطل الطروادي إينياس الذي خرج ـ بنداء من الآلهة من طروادة إلى قرطاج ومنها إلى إيطاليا ليبني روما. وتعد ذروة الأدب الروماني القديم، وتتناغم مع قضايا ومعتقدات العالم القديم، وهي تسقط صورة مثالية على الامبراطورية الرومانية القديمة (المترجم).

تكن القارة الأوروبية تهم انكلترا بصفة خاصة (The least hampered by the continent) فانتقلت بصفة نهائية وناجحة إلى الوجود البحري. وهذا ما كوّن الأسس المباشرة للثورة الصناعية.

فالجزيرة التي كانت أوروبية ذات يوم ألقت بعيداً بلوحة العالم البرية التقليدية، وأخذت بصفة منهجية تنظر إلى العالم من موقف **البحر واليابسة** كأرض طبيعية لحياة الإنسان تحولت إلى شيء آخر، إلى شاطىء ينبسط نحو أعماق المجالات القارية نحو الـ back land. ومنذ القرن الخامس عشر أيام عذراء أورليان(*) كان الفرسان يأخذون الأسلاب في المعارك الشريفة. وحتى القرن السادس عشر كان الإنكليز رعاة أغنام يبيعون الأصواف في فلاندريا حيث يصنعون منها الأقمشة. وهذا الشعب تحول إلى أمة من «مُحْدِثِي الرغوة في البحار» وأقام لا الإمبراطورية البحرية فقط بل والمحيطية العالمية. وكفت الجزيرة عن أن تكون قطعة من **اليابسة** متوضعة لوحدها وتحولت إلى **سفينة** ثابتة على مرساتها بقرب القارة. وبدلاً من **نوموس الأرض** القاري العتيق ظهر نوموس جديد يتضمن في بنيته الآماد التي تمت السيطرة عليها من البحر المفتوح، ويفصل في الوقت نفسه البحر المفتوح عن الكتلة القارية ويواجه آماد البحر بآماد اليابسة ليقيم التوازن بمساعدة السيطرة على **البر** من جهة **البحر**.

وما انفرط من الثقافة الأوروبية في القرن السادس عشر لم يكن، على عكس ما جاء به توينبي «**جزيئة تقنية**» بل شيء مغاير تماماً. لقد انفرطت الجزيرة الأوروبية عن القارة الأوروبية، وعالم البحر الجديد المسمى بالجزيرة وقف ضد عالم **اليابسة**، والسلام (Frieden, peace) على الأرض صار شبيهاً بالميزان في يديه. كان ذلك تعبيراً عن الجواب المحدَّد على تحدي المحيط العالمي الذي انفتح. وعلى جزيرة انجلترا هذه والتي قبلت التحدي وقامت بخطوتها الحاسمة

(*) عذراء أورليان ـ جان دارك (حوالي 1412 ـ 1431) بطلة قومية فرنسية. من أسرة فلاّحية. خلال حرب المئة عام (1337 ـ 1453) مع انجلترا قادت نضال الشعب الفرنسي ضد المحتلين الانجليز، وفي سنة 1429 حررت مدينة أورليان من الحصار. وقعت سنة 1430 في أسر البورغونديين فسلموها للإنجليز الذين أعلنوها ساحرةً وبعد محكمة صورية أحرقوها. وفي سنة 1920 رسمتها الكنيسة الكاثوليكية قديسة (المترجم).

نحو الوجود البحري ظهرت الآلات الأولى بصورة مفاجئة.

(5)

السفينة أساس الوجود البحري للبشر، كما إن **البيت** ـ أساس وجودهم البري. **والسفينة والبيت** ليسا نقيضين في مفهوم التوتر السكوني القطبي، وهما يمثلان ردوداً مختلفة على تحديات التاريخ المختلفة. **والسفينة والبيت** **يصنعان** بمساعدة الوسائل التقنية إلا أن الفرق الوحيد بينهما يتمثل في أن **السفينة** وسيلة الانتقال التقنية المصطنعة بصفة مطلقة، أقيمت على أساس سيطرة الإنسان الشاملة على الطبيعة. **فالبحر** يمثل نمطاً من الوسط الطبيعي يختلف جذرياً عن **اليابسة** فالبحر أكثر اغتراباً وعدوانية. ووفقاً للرواية التوراتية تلقى الإنسان وسطه المعيشي عبر انفصال **الأرض** عن **البحر** وبقي البحر مقترناً بالخطر والشر. وهنا نحيل القارىء إلى هوامش الفصل الأول من «**سفر التكوين**» في المجلد الثالث من «العقيدة الكنسية» لكارل بارت. ونؤكد فقط على أنه للتخلص من الرعب الديني القديم أمام البحر كان على الإنسانية أن تبذل جهوداً كبيرة. والجهد التقني الذي اتخذ من أجل ذلك التخلص يختلف بشكل جوهري عن أي جهد تقني آخر ـ فالإنسان الذي يغامر بالانطلاق في رحلة بحرية ـ كلمة «قرصان» كان تعني في بدايتها من يجرؤ على مثل هذه المجازفة ـ . كان عليه أن يحمل ـ وفقاً لكلمات الشاعر ـ «درعاً ثلاثياً على صدره (aes triplex circa pectus) . .» إنه خلاص الإنسان من المقاومة العفوية للطبيعة، والذي يمثل جوهر النشاط الثقافي أو الحضاري، يختلف بحدة في حالة بناء السفينة أو ترويض **البحر** وفي حالة تربية القطيع وإقامة المساكن على **الأرض** .

إن مركز ونواة الوجود البري مع كافة معاييره المحدّدة ـ هو المسكن، الملكية، الزواج، الميراث وما إلى ذلك ـ وهذا بمجموعه **البيت** وجميع هذه المعايير المحددة تنبثق من خاصية الوجود البري وبخاصة من الزراعة. والمؤسسة الحقوقية الأساسية، الملكية، Dominium ـ تلقت تسميتها من **البيت** ـ الـDomus، وهذا ما يراه ويعلمه جميع المحامين. بيد أن عدداً كبيراً من المحامين لا يعرفون أن كلمة Bauer الألمانية Paganus (فلاح) تنحدر لا بطريقة مباشرة من كلمة Asker bau (الفلاحة) بل من كلمة «Bau»، «Gebaude»، «aedificium» أي «مبنى» «بناء»

«بيت» وكانت في أصلها الأول تعني الإنسان، مالك البيت. وهكذا ففي مركز الوجود البري يقف **البيت** وفي مركز الوجود البحري تعوم **السفينة** . فالبيت ـ هو السَّكَن، والسفينة ـ هي الحركة. ولهذا فإن **للسفينة** وسطها المختلف وأفقها المختلف. والذين يعيشون في السفينة يوجدون ضمن علاقات مغايرة سواء فيما بينهم أو مع الوسط المحيط بهم. وعلاقتهم بالطبيعية وبالحيوانات تختلف اختلافاً كلياً عن علاقات أهل اليابسة فالإنسان الأرضي يدجّن الوحوش ـ الأفيال، الجمال، الخيل، الكلاب، القطط، الحمير، الماعز، وكل «ما في ملك يده» ـ ويجعلها حيوانات أليفة. الأسماك لا يمكن تدجينها ـ يمكن فقط صيدها وتناولها. لا يمكنها أن تكون أليفة لأن فكرة البيت نفسها غريبة على البحر.

ولكي نصوغ تمايزاً لا قرار له بين الوجودين البري والبحري قدمنا مثالاً ثقافياً ـ تاريخياً. ونحاول فيما يلي إيجاد الرد على سؤال ما الذي جعل الثورة الصناعية بما تتسم بهٰ من إطلاق الوثبة التقنية (entfesselte Technik) تولد ضمن شروط الوجود البحري. الوجود البري ومركزه **البيت** ينظر إلى التقنية نظرة تختلف تماماً عن الوجود البحري ومركزه **السفينة** . إن إضفاء صفة الإطلاق على التقدم التقني ومطابقة أي نوع من التقدم مع التقدم التقني بصفة استثنائية، وبكلمة مختصرة فإن ما يتم فهمه تحت تعبير «الوثبة التقنية المنطلقة»، «التقنية المحرّرة» ـ كل ذاك كان يمكن أن يتولد وأن ينمو ويترعرع فقط على أساس الوجود البحري، في مناخ الوجود البحري. وبكون جزيرة انجلترا قبلت تحدي المحيط البحري المفتوح وأوصلت الانتقال إلى الوجود البحري الصرف حتى ذروته المنطقية، فبذلك قدمت الجواب التاريخي على السؤال الذي طرحه عهد الكشوفات الجغرافية العظمى. وكان ذلك في الوقت ذاته مقدمة الثورة الصناعية وبداية العصر الذي نعيش جميعاً إشكاليتَه اليوم.

نحن نتحدث بصفة محدَّدة عن الثورة الصناعية التي تمثل مصيرنا المشترك اليوم. وما كان لهذه الثورة أن تتحقق في أي مكان ولا في أي زمان إلا في انجلترا القرن الثامن عشر. الثورة الصناعية تعني بالذات تحرير التقدم التقني، ويغدو هذا التحرير مفهوماً فقط بالانطلاق من خاصية الوجود البحري الذي كان فيه، إلى حد ما، عقلانياً وضرورياً. لقد تم التوصل إلى الكشوفات التقنية في كافة الأزمنة وفي كافة البلدان. والموهبة التقنية لدى الإنكليز لا تعلو على موهبة

الشعوب الأخرى. والحديث يدور حول الطريقة التي يتم فيها استخدام الكشف التقني وضمن أية أبعاد؟ وبكلمة أخرى ضمن أي نظام من المعايير يوضع هذا الكشف. ضمن شروط الوجود البحري تتحقق الكشوفات التقنية بصورة أسهل وأكثر حرية، لأنها ليست مضطرة بالضرورة إلى أن تنتظم في البنية الثابتة للمعايير المميّزة للوجود البري. لقد اخترع الصينيون البارود، وما كانوا بأي حال أغبى من الأوروبيين الذين اخترعوه أيضاً. ولكن ضمن شروط الوجود البري الصرف المغلق لصين تلك العهود أدى ذلك إلى استخدامه بصفة تامة في التسلية والألعاب النارية. أما في أوروبا فالأمر نفسه أوصل إلى كشوفات الفريد نوبل وتابعيه. والإنكليز الذين حققوا في القرن الثامن عشر جميع كشوفاتهم المشهورة التي جرت من بعدها الثورة الصناعية، أفران الفحم الحجري، صناعة الفولاذ المسبوك، الآلة البخارية ـ آلة الغزل وما إلى ذلك ـ ما كانوا أوفر عبقرية من الشعوب الأخرى والعصور الأخرى، ممن عاشوا وفق الأعراف البريّة وممن حققوا اكتشافات مماثلة مستقلين عن الإنكليز. الكشوفات التقنية ليست كشوفات للروح الأعلى الخفيّ. الزمن هو الذي يمليها إلى حد بعيد. ولكن إذا كانت تترك للنسيان أو يتم تطويرها ـ فهذا يرتبط أمره بذلك السياق الإنساني الذي تحققت فيه. وسأعبر بطريقة أكثر تحديداً: لا يمكن للكشوفات التقنية المكنونة في أساس الثورة الصناعية أن تؤدي إلى الثورة الصناعية إلا حيثُ تُتخذ الخطوة الحاسمة نحو الوجود البحري.

صار الانتقال إلى الوجود البحري الصرف يحمل في ثناياه وفي آثاره المباشرة تحرير التقنية كقوة مستقلة مكتفية بذاتها. وأي تطوير للتقنية في المراحل السابقة من الوجود البري لم يُفْضِ قط إلى مبدأ **التقنية المُطْلقة**. وعلينا أن نؤكد إزاء ذلك على أن الأشكال الشاطئية من الثقافات والمرتبطة من بينها بالبحار الداخلية لا تعني بعد الانتقال إلى الوجود البحري الصرف. فقط بعد تطويع **المحيط** تصبح **السفينة** النقيض الحقيقي **للبيت**. والإيمان غير المشروط بالتقدم والمفهوم كتقدم تقني، يمثل المظهر الصحيح لتحقيق الانتقال إلى الوجود البحري. ففي المدى اللامتناهي تاريخياً، اجتماعياً، وخلقياً للوجود البحري يظهر التفاعل التسلسلي لدورةٍ لا ضفاف لها من الاكتشافات. والحديث لا يدور حول الفروق بين الشعوب المترحلة والمستقرة بل حول التناقض بين **البر والبحر** ـ العفويتين المتواجهتين للوجود الإنساني، ولهذا فإن من الخطأ الحديث عن «المترحّلين البحريين» من خلال

سلكهم في صف واحد مع المترحّلين على الخيل، الجمال وما شاكلها. وليس صحيحاً نقل الشروط البرية إلى عفوية البحر. فالمدى الحياتي للبشرية في مغزاه ما فوق الطبيعي يتباين تبايناً جذرياً وبكل المعايير ـ الخارجية والداخلية ـ تبعاً لما إذا كان الحديث يدور حول الوجود البري أو الوجود البحري. ومهما كانت المواقف التي ننطلق منها في نظرتنا إلى هذا التباين ـ **من البحر إلى البر** أم من **البر إلى البحر** ـ فإنه يتجلى في حقل حضاري وثقافي مغاير تماماً في تركيبته؛ ويجب أن نشير هنا إلى أن الثقافة من تلقاء نفسها تنتسب في حدودها الأكبر إلى **البر**، أما الحضارة فإلى **البحر**[15] والنظرة الحياتية البحرية موجهة توجهاً تقني التشكل ـ بينما النظرة البرية ـ اجتماعية التشكل.

الظاهرتان الأهم في القرن التاسع عشر يمكن إنارتهما بضوء جديد بمساعدة نظرية خاصية الوجود البحري. والحديث يتناول الاقتصاد السياسي الكلاسيكي عند نهاية القرن الثامن عشر ـ بداية التاسع عشر والماركسية. فبمقدار تطور الثورة الصناعية كانت اللاضفافية المكتشفة تحفز خطوات وخطوات جديدة في طريق التطور التقني المنعتق. وما كان يسمى بالاقتصاد السياسي الكلاسيكي كان تركيباً ذهنياً عالياً، تمت صياغته على قاعدة المرحلة الأولى من الثورة الصناعية. وبدورها أقامت الماركسية تعليمها على هذا التركيب الخارق للعادة من الاقتصاد السياسي الكلاسيكي. فطوّره وأعد تركيباً ذهنياً فوق العادة للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية. وفي هذه الخاصية أُخذت الماركسية لتتسلح بها النخبة العليا من الثوريين الروس المحترفين، الذين تأتّى لهم تحقيق الثورة سنة 1917 في الإمبراطورية الروسية ونقل التركيب المزدوج الخارق للعادة إلى شروط بلادهم الزراعية. وفي ذلك كله ما تناول الحديث التحقيق العلمي للتعاليم البحتة والتطبيق المنطقي للقوانين الموضوعية للتطور التاريخي. تطرق الحديث إلى أن البلاد الزراعية المتخلفة صناعياً تعاني من ضرورة التسلح بالتقنية الصناعية المعاصرة، وإلا فقد هُيّء لها دور الفريسة بالنسبة للدول العظمى الأخرى المتطورة صناعياً. وعلى هذا تحولت الماركسية من البناء الأيديولوجي الفوقي للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية إلى أداة تطبيقية من أجل التخلص من اللاحماية الصناعية ـ التقنية لبلاد شاسعة الأبعاد، وأيضاً لإقصاء النخبة القديمة التي لم تحقق النجاح، بصورة واضحة، في إنجاز المهمة التاريخية.

إلا أن الإيصال المنهجي لمبادىء الاقتصاد السياسي الكلاسيكي حتى نهايتها المنطقية ما كان إلا جانباً واحداً من التعاليم الماركسية. وقد بقيت جذور الماركسية هيغلية. ففي «أسس فلسفة الحقوق» وفي المقطع 243 يكمن مغزى القضية برمّتها. وهذا ـ موضوع مشهور. هذا المقطع يصور ديالكتيكية المجتمع البورجوازي الذي ينمو دون معوّقات وفق قوانينه الخاصة. ويؤكد على أن «**هذا المجتمع يحمل في نفسه وبصورة محتومة النمو المطّرد لقهر الشعب وترسيخ التصنيع**». ويفترض هيغل أن «هذا المجتمع» «مع كل ثرائه لن يكون أبداً على درجة كافية من الثراء أي إنه انطلاقاً من إمكاناته الداخلية لن يتمكن أبداً من الحيلولة دون تزايد الفقر وتفاقم عدد السكان المحرومين». وإزاء ذلك يستشهد هيغل علانيةً بانجلترا تلك الأيام مثالاً. ففي المقطع 246 يواصل قوله:

«وفقاً لهذا الديالكتيك يضطر المجتمع البورجوازي المحدَّد إلى الخروج عن حدوده لكي يبحث بين الشعوب الأخرى، المتخلفة إما في مستوى تطور وسائلها الصناعية، أو في مهاراتها التقنية عن مستهلكين لمنتوجه، وبالتالي عن موارد العيش من أجل وجوده الخاص»[16].

تلك هي المقاطع الشهيرة 243 ـ 246 من «أسس فلسفة الحقوق» الهيغلية والتي لقيت تطوّرها النهائي في الماركسية ولكن، وحسبما أعلم، لم يلفت أحد نظره إلى المعنى البالغ العمق للمقطع 247 التالي مباشرة للمقطع الذي استشهدنا به. وفيه تتأكد المواجهة الأساسية بين **البر والبحر**. وعَرْض هذا المقطع الـ 247 يمكن أن يكون ذا قيمة وأهمية لا تقلان عن عرض المقاطع 243 ـ 246 في الماركسية. وهنا يتأكد ارتباط التطور الصناعي بالوجود البحري. وهذا المقطع الـ 247 يتضمن الجملة الحاسمة التالية:

«ومثلما أن الشرط الأول للزواج هو الأرض الثابتة، **اليابسة**، فإن العفوية التي تُحيي الصناعة حتى الحدود القصوى هي **البحر**».

وهنا أقطع عرض أفكاري وأترك للقراء المنتبهين إمكانية أن يروا فيه بداية استعراض المقطع 247 من «أسس فلسفة الحقوق» لهيغل مثلما أن عرض المقطع 243 ـ 246 صنع الماركسية.

تحليلنا يولد سؤالاً أساسياً وخطراً جديداً معه. ومن تلقاء نفسها تتوثب

الرغبة لتطرح المشكلة التالية: ما هو التحدي الفعلي للتاريخ؟ وعلى الفور يظهر الإغراء الخطير للرد على هذا السؤال بالطريقة القديمة التي كانت ملائمة وصحيحة في المرحلة السابقة. من طبائع البشر التمسك بما كان قد أثبت صحته وفعاليته فيما مضى. وهم يرفضون بصفة جذرية أن يفهموا أن الجواب الجديد على السؤال الجديد لا يمكنه من جانب الإنسانية أن يكون إلا مجرد افتراض، وافتراض أعمى في غالب الأحوال، على نحو ما كان الأمر في حالة رحلة كولومبوس. لدى الإنسان متطلب يستحيل كبته وهو الوقوف من التجربة التاريخية الأخيرة، زمنياً وكأنها أمر سرمدي. فعندما قمنا، نحن الألمان، سنة 1914 باقتحام فرنسا، تهيأ لنا أن الأحداث ستتطور منذ هذه اللحظة مثلما تطورت في 1870 ـ 1871 وحتى تحقيق النصر الحاسم. وعندما قام الفرنسيون المحاصرون بالتسلل من باريس سنة 1870 ـ 1871 كانوا على ثقة من أن كل شيء سيسير وفق سيناريو الثورة المظفرة سنة 1792. وعندما أعلن ستيمسون كاتب الدولة في الولايات المتحدة مبدأه الشهير، مبدأ ستيمسون سنة 1932 كان يرى أن الوضع القائم على العموم يذكر بصورة مضخمة بسنة 1861 وبداية حرب الاستقلال.

الإحساس بالتاريخ يجب أن يحمينا من أمثال هذه الأخطاء. ومما يحمل المفارقة أن تلك البلدان بالذات والتي أوغلت أكثر من سواها في طريق التقنية المنعتقة يسود رأي يقول بأن الاختراق يبدأ منذ الآن، وبعون الوسائل التقنية لبلوغ آماد جديدة لا نهاية لها في الفضاء الكوني. وبالمقارنة مع هذا الاختراق في الكون سيبدو الاختراق الذي تواصل خمسمئة عام لعصر الكشوفات الجغرافية والتقنية العظمى مجرد قُصيصة لا قيمة لها من الزمن. ويخطط الناس لشن هجوم على الستراتوسفير ولرحلات جوية إلى القمر. إن كوكبنا نفسه، الأرض، يتحول تدريجياً إلى مركبة فضائية تسبح في المدى الكوني.

مثل هذا الرأي يبدو لي ترديداً لجواب قديم، تطويراً لذلك الجواب الذى قُدّم في يوم ما على تحدي المحيط العالمي الذي انفتح. وينظر الناس إلى تحدي يومنا الحالي على أنه استعادة مضخمة لاكتشاف أمريكا. هذا مفهوم من الناحية النفسية، كما يمكن القول. فعند ذلك أخذت تتكشف قارات الأرض ومحيطاتها الجديدة. أما اليوم فلا فضاء خارجي يُفتح ولا أسمع أي تحد كوني. هذا ولن نتحدث عن الصحون الطائرة. يمكن للتقنية المحرَّرة أن تنشب أسنانها، وقدر ما

يحلو لها، وبكل هياج في الكون ولن يتمخض عن ذلك تحد تاريخي جديد ناهيك عن الرد على مثل ذلك التحدي. ومن الطبيعي أن التقنية المنعتقة تولد دافع قوة خرافياً ورغبة في التغلب عليه. لكن هذا الدافع شيء آخر غير التحدي. صحيح إن التقنية الحالية تولد متطلبات مصطنعة لكن هذا لا يعني سوى أنها قادرة في أفضل الحالات على أن تقدم في الدرجة العليا الإجابة المصطنعة على السؤال الذي قدمته نفسها بالطريقة المصطنعة نفسها.

إن هذا التطوير ما فوق المعاصر للعالم القديم يبدو، من وجهة نظر التاريخ بالذات، غير تاريخي، وزاخراً بالمفارقات. وبالمناسبة فطبيعي تماماً الوضع الذي كان فيه المنتصر في العهد السابق يصرف اهتمامه عن التحدي الجديد للتاريخ. وكيف للمنتصر أن يفهم أن انتصاره حقيقة أحادية؟ من الذي يعلمه ذلك؟ وقد توصلت إلى الاستنتاج التالي: إنه لجيد الآن أن نمتنع عن تقديم رد قديم على السؤال الجديد. وأنه لأمر كبير أن نعي العالم الجديد بغير صورة «العالم الجديد» التي كانت سائدة بالأمس. شخصياً أرى التحدي الجديد لا في ذلك الجانب من الستراتوسفير. ألاحظ أن التقنية المحررة أقرب إلى أنها تحدد آفاق البشر من كونها تفتح أمامهم الآفاق الجديدة. التقنية المعاصرة ضرورية ونافعة. لكنها اليوم بعيدة جداً عن أن تكون رداً على أي تحد مهما كان. إنها لا تزيد عن أن تشبع المتطلبات التي تولّدها بنفسها إلى حد ما. وفيما تبقى فهي نفسها توضع اليوم تحت التساؤل وهذا يعني إنها بسبب ذلك بالذات لا يمكن أن تكون رداً. الجميع يتكلمون عن أن التقنية الحديثة جعلت أرضنا صغيرة إلى درجة مضحكة. والآماد الجديدة التي سينبثق منها التحدي الجديد يجب بسبب ذلك أن تكون **على** أرضنا لا خارجها في الكوسموس المفتوح. وذاك الذي يكون أول من يقدَّر له ترويض التقنية المحرّرة سيكون أقرب إلى أن يقدّم الرد على التحدي المطروح الآن من ذاك الذي يحاول بمساعدتها أن يترجل على **القمر أو المريخ**. إن تطويع التقنية المحرَّرة ـ مأثرة هرقل الجديد. من هذا الميدان ينتهي إلى مسمعي التحدي الجديد، تحدي الحاضر.

(ترجمة المؤلف عن الألمانية)

بديلاً عن الخاتمة

سفر رؤيا العفويات
من الجيوبولتيكا إلى فلسفة التاريخ
خواطر حول نظرية العناصر
لكارل شميدت

1 ـ 1 العفويات الحضارية اثنتان فقط:

ارتباط البنية الحضارية بهيمنة هذه أو تلك من العفويتين ـ البر والبحر ـ يمثل محور نظرية كارل شميدت والجانب الأوفر قوة وإثارة للانطباع فيها. ومن المهم أن نؤكد إزاء ذلك، أن الحديث لا يدور، ببساطة حول التطبيق التجريدي للنظرية المقدسة للعناصر الـ 4 على التحليل الثقافي ـ التاريخي بل حول تشظية ثنائية التاريخي الأساسي (وليس الطبيعي فقط) لعفويتي ـ **البر والبحر**، **الأرض والماء**، وإلى هذا فإن هذه الثنائية لا تغدو في حقيقة الحال عاملاً تاريخياً عندما توعى وتمارس عقلياً من طرف المجتمع البشري. ولكي نوضح ما تعنيه بالذات سنشير إلى غياب الإشارة إلى العفوية النارية وفلسفتها وتحليلها الثقافي والحضاري لدى شميدت (وسيدور الحديث عن هذا لاحقاً)، أما بالنسبة للعفوية الهوائية، المرتبطة بعصر الملاحة الجوية فشميدت يؤكد على أنها لم تولّد «نوموسها» الخاص، أنموذجها الحضاري الخاص، لأنها استمرار تاريخي للمحَرك التاريخي الذي فرضته حضارة البحر. إن الأيروكراتيا، والأثيروكراتيا الأكثر فعالية أي المراحل الهوائية العائمة والفضائية من تطور التقنية لم تثر أمثال تلك التبدلات الشاملة في مسيرة التاريخ الإنساني كالتي جاء بها اكتشاف المحيط العالمي وتحدّيه.

إن الحدس العبقري لدى شميدت قد ألهمه بصحّة بالغة أن الكون لا يحمل في داخله لا التحدي الحقيقي ولا الرد التاريخي. أما الدراسات الكونية ضمن شروط «الأثيروكراتيا» فتستعرض احتضار الحضارة التكنوقراطية التي تستعبد ولكن لا تحرر. ويبدو للوهلة الأولى أن مثل هذه النظرة إلى الديالكتيك التاريخي للعفويات عند شميدت، إذا ما أخذنا بالحسبان مشاعره المعادية ضمناً للتلاسوكراتية، يجب أن تصبح قاعدة لمبدأ محافظ صرف ذي مكنون أيكولوجي مؤكد. ويظهر الإغراء بفهم الكلمات الختامية من مقالته حول «التوتر الكوني بين **الشرق والغرب** على هذه الصورة:

«الآماد الجديدة التي سينبثق منها التحدي الجديد بسبب ذلك أن تكون **على** أرضنا لا خارجها في الكوسموس المفتوح».

على هذه الكيفية يتصرف في أغلب الأحيان أتباع شميدت، آخذين في الحسبان نظراته المحافظة في السياسة. ولكن من شأن ذلك أن يكون، حسب رأينا، على درجة مبالغ فيها من التبسيط. فإذا لم يكن التحدي الجديد سوى العودة إلى التوجه القاري بعد العصر الثوري لهيمنة «التقنية المحرَّرة» والحضارة الأطلسية ـ حتى بسبب الخوف أمام الكارثة التقنية والأيكولوجية، فإن التوتر الروحي للديالكتيك التاريخي يفقد بُعده الدراماتيكي ويغدو على حدّ التقريب دورة طبيعية تتطابق مع ذلك التوتر السكوني ـ القطبي والذي، من أجل التغلب عليه، أسس التاريخ البشري بأسره، حسبما يرى شميدت. يجب أن تحل الثنائية الحضارية البر ـ البحر بطريقة مغايرة.

يميل شميدت إلى اعتبار الانتقال نحو الأيروكراتيا، ومن ثم إلى الأثيروكراتيا مجرد تطور طبيعي لاستراتيجة **البحر** لا إشارات إلى مراحل ثورية جديدة. وعلى هذا يمكن القول إن عفوية **الماء** في توسعها الشمولي الذي يتحقق بالضبط على حساب **اليابسة** والمدى الخاضعين لها تقليدياً إنما تضع في خدمتها العفويتين الأخريين ـ الجو والأثير (الفراغ). وبكلمة أخرى فإن عفوية البحر المائية تظهر نفسها عبر عفويتي الجو والأثير الخاضعتين مواصلة توجهها الحضاري نحو التمييع، ونذكر بهذه المناسبة بأن هذا الاتجاه بالذات هو الذي ولّد ديالكتيكية «الوجود البحري» التاريخية مع ما يرتبط به من تحرير التقنية ومراحل الثورة الصناعية.

كيف تُفسَّر في مثل هذه الحالة الإنجازات في أجواء الملاحة الجوية والكوسموسية والتي حققتها دولة بريّة فوق العظمى كالاتحاد السوفياتي ـ التعبير الكوني الأخير زمانياً عن البهيموت الجيوبولتيكي، عن قوى الكتل القارية والنوموس الأرضي؟ بهذه الطريقة على وجه الدقة حسبما فسر شميدت نفسه بعبقرية، الوظيفة التاريخية للماركسية في روسيا: تلك كانت التسلح الذهني لعقيدة الثورة الصناعية الثانية لدى النخبة البديلة، التي استطاعت، بطريقة إرادية وواعية، أن تحول بلاداً برية عتيقة إلى حصن صناعي تقني عملاق، تمكن، على مدى 70 سنة من أن يواجه الضغط الكثير الخطط للحضارة البحرية. كان استخدام المعسكر **الشرقي**. للأيروكراتيا والأثيروكراتيا استمراراً للاستراتيجية الماركسية بالنسبة للثورة الصناعية من أجل مقاومة حضارة **الغرب** البورجوازية.

وهكذا فإن عضواً واحداً من الثنائية التاريخية ـ **البحر** قد تضمن في داخله العفويات الأخرى في عملية توكيده الكوني. وإذا كانت هذه العملية خلال كتابة شميدت لمقالته «التوتر الكوني» سنة 1959 لا تزال في مرحلتها الجنينية فعند الثمانينيات صارت شفافة ومرئية بالنسبة للجميع. لقد طوّع البحرُ **الجو والكوسموس**.

ونقترب هنا من النقطة الأهم في التاريخ الحديث والتي تعد محك الغالبية الساحقة من الأيديولوجيات والنظريات الاجتماعية ـ السياسية التي عدّت مقبولة حتى اللحظة الأكثر تأخراً.

ونقصد بذلك انهيار المعسكر **الشرقي** والبيريسترويكا.

1 ـ 2 ملموسية الطوفان المسكوني:

يعد هذا الحدث أساسياً لاختبار صحة آراء كارل شميدت. ومن خلال التأمل عبر مصطلحاته يمكن وصف هذا الحدث بالصورة التالية.

إن نهاية المعسكر **الشرقي** الذي جسد خلال عصرنا التوجه الكوني **للبر** المواجه **للبحر** تعني نهاية تلك المرحلة التاريخية التي كان ممكناً فيها الاستخدام الفاعل للتركيبة الذهنية التي لخصت المرحلة الثانية من الثورة الصناعية من أجل المنافسة الكونية مع حضارة **البحر**، مع **الغرب** ومع العالم الذي ربط مصيره

بالتطوير اللامحدود للتقنية المحررة. وبكلمة أخرى كان ذاك خاتمة صلاحية الماركسية. فقوى **البر** فقدت الذهنية الدفاعية التي بقيت فعالة إلى أن تبدلت بصفة نهائية ولا رجعة فيها تلك الشروط الخاصة بالرد الذي قدمه ماركس على التحدي المعاصر له في التاريخ الأوروبي.

وأحد تفسيرات انهيار المعسكر السوفياتي هو تخلفه في ميدان المنافسة التقنية، وإلى جانب هذا فإن اللحظة الأهم في ذلك التخلف كانت استحالة الرد بصورة ملائمة على برنامج التسلّح الاستراتيجي الأمريكي. وبكلمة أخرى فقد فاز البحر في المبارزة التكنولوجية على **البر** في مجال الأثيروكراتيا ـ التقنيات العالية المرتبطة بالاختراعات الاستراتيجية في ميدان الكونيات.

فما الذي يعنيه ذلك من وجهة نظر جدلية التاريخ؟

الأول: **البحر**، الذي أنجب دافع الوثبة التقنية ثم الحضارة التقنية فيما بعد، حقق الانتصار على **البر** مع ذلك. على الرغم من أن هذا قد استعار في الوقت المناسب وبطريقة فاعلة التقنية الذهنية الأحدث (بالنسبة لعصرها) من البحر نفسه. وقد تطابقت هذه العملية زمنياً بصفة صارمة مع نهاية المرحلة الثانية من الثورة الصناعية. وعلى المستوى النظري أخذ ذلك يتوضح من بداية السبعينيات متزامناً مع الانحطاط السريع للشيوعية والاشتراكية في أوروبا. أما من الناحية العملية فقد كانت النقاط قد وضعت على حروف البيريسترويكا. كانت المرحلة الثالثة من الثورة الصناعية تتطلب، على الأقل. ماركساً جديداً وماركسية جديدة. وكان يمكن للفاشية الأوروبية أن تكونهما لكن تلك المحاولة بدت جهيضة، لأن ألمانيا منيت ـ على الصعيد النظري وفي المخطط المادي ـ بهزيمة من طرف دولة برية كبرى أوفر منطقية من الناحية الحضارية (الاتحاد السوفياتي) مدعومة في هذه الحالة من طرف البحر (على نحو ما تكرر مرات عديدة في التاريخ ـ منذ نابليون وحتى الحربين العالميتين الأولى والثانية). ولم يكن ثمة ماركس جديد، ويبدو أنه ما كان له وما ينبغي له أن يكون.

الثاني: انهيار المعسكر **الشرقي** يعني عولمة البحر، الذي ينتقل من دون الحكم والمراقب إلى دور الأوتوقراطي (المستبد). إنه العولمة، التكامل الحضاري للكرة الأرضية برعاية **الغرب**. وفي اللغة الدينية ثمة اسم واحد لهذا الحدث، إنه

الطوفان العالمي، نهاية نوموس **الأرض** والهيمنة العالمية لنوموس **البحر**. فلنتذكر أيضاً في سفر الرؤيا الوحش، الخارج بالذات من **البحر**[1]. وهذا ما يجر وراءه الانتقال النهائي من عصر مواجهة العفويتين إلى عصر اخضاع إحدى العفويتين للأخرى المعادية لها. ويمكن القول إن هذه بداية «العالم الشمولي». لوياثان يقهر بهيموت، **الحوت**، **الدبّ**. انتصار موبي ديك[*] على **الدب الروسي**.

الثالث: العفويات المتبقية خاضعة منذ الآن لعفوية **البحر** اليابسة الخاضعة (العدو المنهزم، الـHostis) **والهواء والأثير** (الحليفان الطبيعيان، المتضامنان مع الديالكتيكية المائية، الـAmicus) ـ تمثل اللوينات الفكرية للبحر، العفويات المساعدة للسفينة الكونية، للجزيرة العالمية، للـWorld Island (في مصطلحات سبيكمان لا ماكندر). إنه عصر الـOne World، المجتمع ما بعد الصناعي، عصر الإعلام الكوني والأتمتة. وهو ما يسمى بلغة أكثر الأحاسيس طليعية لدى ماركس بـ«الهيمنة الواقعية لرأس المال»[2]، زمن اختفاء الايديولوجيات، زمن ما بعد الحداثة، و«نهاية التاريخ».

تحدّي **المحيط** الذي تم اكتشافه، التحدي الذي قبله الأنجلو ساكسون، من أعطوا ردّهم المتمثل في الوثبة التقنو ـ صناعية، انسكب في الحضارة الغربية المعاصرة، أخضع العالم بأسره واكتسب شكلاً نهائياً في الأوتوقراطية الكونية لأمريكا، نفس تلك القارة، والتي باكتشاف كولومبس لها، ابتدأ «العالم المعاصر». وقد ختم هذا التحدي تجليه التاريخي في انهيار المعسكر **الشرقي**، في البيريسترويكا وسقوط الاتحاد السوفياتي. والتقنية المحررة (entfesselte Technik) تغلبت على كافة العقبات الخارجية. فسلطان البحر مطلقٌ منذ الآن. تتجسد في سيطرة **الغرب** التقنوقراطي، في الأولوية الاستراتيجية للولايات المتحدة، هيمنة

(*) موبي ديك: حوت، بطل رواية الكاتب الأمريكي ميلفيل (Melville)، جيرمان، (1819 ـ 1891). وللمؤلف كتابات في السيرة الذاتية وقصص حول البحار، تتحدث عن سمو أخلاق وتقاليد الشعوب المتخلفة بالمقارنة مع مستعمريهم، قصة «أومو» 1848. أما روايته «موبي ديك» (قصة صراع بين الحوت العظيم موبي ديك والصياد القبطان العظيم آهابا في عفوية البحر الفسيحة) فتتضمن معنى المغامرة وتصور النضال الرومانسي الدائم للإدارة والعقل الإنسانيين ضد «الشر الكوني». وللكاتب أيضاً أشعار دينية فلسفية ونقد ساخر كما في مجموعة «تيموليون» 1891 (المترجم).

رأس المال الجاري، في التجريف الشامل للبنى القيمية التقليدية. أما الملكية والإرث والزواج، والمسكن فكل ذلك فقد معناه الذي كان له في عصر الوجود البري في عصر نوموس الأرض.

1 ـ 3 العنصر الذي غُيّب عن الأنظار

على الرغم من أن شميدت قد تحدث عن فردانية الأحداث التاريخية، مؤثراً تجنب أي صيغ من الجبريّة والترتيب فإنه، لكونه مسيحياً، ما استطاع بالكاد إنكار وجود **نهاية** للتاريخ، ووجود شيء من اللاهوت بناء على ذلك. وتخليه عن غائية هيغل أو ماركس لا يعني رفضه الغائية على العموم. وهو كمفكر شريف على الإطلاق (يتفق مع هايدغر في هذا المعنى) لا يرغب في أن يقيّد ـ لا بالنسبة لذاته ولا بالنسبة للآخرين ـ البداهة الحرة للحقيقة إذ كان يؤمن بأن في هذا تتجسد الكرامة الإنسانية العليا والحرية العقلية واللتان تتم ممارستهما، في نهاية المطاف، في السياسة (das Politiche) وفي القرار (die Entscheidung) وفي جميع استدلالات شميدت العقلية يحضر بشكل مُضْمر إيمانٌ بالأخرويات، طبيعي بالنسبة لمسيحي: فهو يؤكد على قراءة **العهد الجديد** المتجسد في شموليته الكونية، كما إن من السهل الإحساس بإشارات تنتمي إلى سفر الرؤيا في علاقة شميدت بـ«التقنية المنعتقة» وفي الوجود البحري.

والواضح أن شميدت قد وعى التوازن بين السرد التوراتي لخلق **الأرض**، نتيجة لانحسار الماء ـ وتلك الوضعية العملية التي تمثل شيئاً عكسياً ـ هجوم الوجود البحري على الأرضي أو الإغراق الرمزي **للأرض بالماء**. ومن المهم في ذلك أن التوجه التالاسّوكراتي الدائم في التاريخ لا يصل إلى الحالة المحيطية إلا في العصر الحاضر حيث يتخذ بعده الأقصى. وإن أشعّة التالاسوكراتيا المحيطية باتجاه الستراتوسفير والكوسموس إنما تستعرض أبعاد انتصارها المهولة.

ولكن ينبثق سؤال مشروع يعود إلى الماضي: لماذا نوموس **الأرض**، **اليابسة** صار أمّ الوجود الإنساني خلال آلاف السنين من **التقليد**؟ ثم لماذا سقطت بنية النوموس التقليدي وهي على هذه الدرجة من الرسوخ ولم تنتكس بارتدادات بوتاميّة (نهرية) ولا تالاسوكراتية محدودة ولا ناجمة عن الرحَّل، سقطت في نهاية المطاف ضحية عفوية **المحيط** الفوضوية.

في معرض التوكيد على وجود **الماء** قبل **اليابسة** يلمح **سفر التكوين** إلى شيء من أولوية **الفوضى** بمقارنتها مع النظام. كما إن الأساطير الهندأوروبية تؤكد ذلك في مجموعة كبيرة من الموضوعات. ويمكن إلى حد ما الافتراض (كما هو الأمر في التقليد المُحْكم)، بأن **الأرض** ـ ماءٌ مكثّف، أما في مصطلحات الجغرافيا **فالأرض** ـ قاع **المحيط** المتحرر من **الماء**، لكن هذه النظرية التي تم اقتناصها من الفوضى، ذلك النوموس، **اليابسة**، **القارة**، Heartland ماكندر، **ميتغارد** الجرمان القدماء، قلعة **النظام**، **البوليس** التاريخية ليست سبب النوموس التقليدي بل نتيجة تأثير تحولي، أثر لما فوق الطبيعة مثبت في الطبيعة، بَصْمة ذاك الذي يمكن تسميته منبع **التاريخ**. والكلمة الروسية التي تعني الأرض الراسخة، das feste Land, die Erde تسمح لنا بالاقتراب من هذه القوة السرية. إنّها كلمة **Суша** (سوشا) ومن الناحية الايتيمولوجية تتضمن إشارة إلى طبيعة اليبوسة غير الموجودة في اللغات الأخرى(*). وهذه الخاصية تثير بدورها تداعياً مع الدفء، الحرّ **والنار**، مع ذلك العنصر الخامس المنسي، العضوية الخامسة، التي كانت مأنوسة بالنسبة للتصانيف الكلاسيكية القديمة، ولكنها لسبب ما مغيبة في تحليل شميدت الحضاري والتاريخي.

وهنا سنتذكر هيراقليط الذي على خلاف فاليس الميليتي وسواه من الفلاسفة ـ التالاسوكراتيين رسخ النظرية الثورية حول انحدار **الكون** من **النار**. **والنار** ـ دون شك، عنصر فائق بالنسبة لعفويات الوسط الأرضي. فإذا كانت **الأرض**، **الماء والهواء** داخليةً بالنسبة لكرتنا الأرضية وسكانها، بل وحتى الخواء الكوني المحيط بالستراتوسفير يمكن أن ينظر إليه على أنه خلاصة داخلية بالنسبة للوسط (الأثير) فإن **النار الدفء والنور** تأتي إلينا من **الخارج** من النجم القرباني المتألق، الشمس العظمى. العناصر الاعتيادية ـ عفويات البشر. **النار** ـ عفوية **الآلهة**، جوهر **السماوات** الروحية. وقطبية **النار** بالنسبة لكافة العناصر الأخرى لا تُدْرج في تلك الصورة السكونية الطبيعية المحضة والتي شعّبها شميدت بعدالة عندما تحدث عن التوتر الطبيعي القائم بين **البر والبحر**، والذي ميّزه بكل دقة عن التوتر المميّز لديالكتيك التاريخ البشري. والحق إن التوتر الذي تثيره **النار** يمثل جوهر

(*) أما في العربية فـ «اليابسة» هي الترجمة الحرفية للكلمة الروسية المذكورة (المترجم).

الديالكتيك. وإذا كان ممكناً التسليم مع فاليس بالنسبة لمصدر **الطبيعة** فإن هرقليط وحده المحق بالنسبة لمصدر **التاريخ**. وهدية التيتان بروميثيوس للبشر، النار الإلهية وقد أُنزلت إلى الأرض، هي الموضوع السرّي الرئيس للديالكتيكية التاريخية، agent invisible للخيميائيين، الوليد الفلسفي لذلك الهرقليط نفسه، وهو ينشر عبر العصور والأحقاب مضمون روحه الشمسية، غنوصيته السماوية.

النار الفائقة تبدد المياه الأولى، لتظهر **اليابسة**. **النار** المتسامية تمجَّد من طرف أهل الأرض على أنها المبدأ الأهم ـ فيُحلّونها صدر البيت (الموقد المقدس)، وسط **معبدهم** (المذبح المقدس) وسط جسدهم (تمجيد القلب) وسط عالمهم (الشمس، واهبة اتجاهات المكان ومقاييس الزمان). والنوموس البري **للأرض** ـ ثمرة التأثير المتسامي **للنار** فبالنظام البري ردّت الإنسانية على تحدي الخارق، وبذلك دخلت باب التاريخ، تسامت على الطبيعة وعاشت ذاتها. **البيت** هو الرد على **الشمس**. واليابسة وحضارتها ـ ثمرة **النار** وقد تم وعيها عقلانياً.

وما دامت العلاقة بين **النار والأرض** فلم يعد ثمة من تحد. وتوازنت التالاسوكراتيا مع التيلوركراتيا وكانت فيستا الرومانية تحطم بكل انتصار قرطاج المولودة من الرغوة في كل مرة تطاولت فيها هذه على عالمية رسالة فيستا الحضارية الثقافية. وعندما انطفأت النار المقدسة في بيوت البشر، في قلوب البشر، في معابدهم تصاعد زئير لوياثان الأسطوري. **واليابسة** وقد ضيعت معناها، مركزها، جبروتها، قضي عليها منذ ذلك الحين بأن تخسر المبارزة الأخروية مع **البحر**.

صارت البيريسترويكا وهلاك **البهيموت** أمراً محتوماً في اللحظة التي صار فيها **التقليد** محافظاً، وعندما حجب الرد المعطى على تحدي **النار** الفائقة بنفسه السؤال بصفة نهائية، وعندما كف نوموس الأرض عن ضبط معاييره مع نوموس **السماء**. وما التاريخ البشري بأسره في نهاية المطاف إلا فصلة موسيقية بين **الومضة الأولى** للنجمة السحرية وبين الطوفان الكوني.

1 ـ 4 الأيقونة واليابسة

طريفة جداً ملاحظات شميدت حول الأيقونوغرافيا وتعميماته حول علاقة **الصورة بالغرب**. ولهذا علاقة مباشرة بعفوية النار، إذ إن المقدرة البصرية ـ عنصر القياس الضوئي للواقع هو بدوره واحدٌ من آفاق النار (إلى جانب الحرارة). فإذا

قبلنا بالعلاقة التوالدية بين **اليابسة والشمس**، والتي كنا قد كشفنا عنها، تبدو مَفهومةً أيضاً الأيقونة، الصورة البصرية المقدسة، بنوموس **الأرض**. ومن الطبيعي أن السكونية المَدَوية، الثبوتية، وتنظيم البيئة تتوق جميعها ومن تلقاء نفسها إلى أن تلقى تعبيرها في الصورة ـ الرمز، الهيروغليف، اللوحة. وكأنما تلتقط من الواقع الجاري قطعة يتم تغيّرها إلى **الصورة**، إلى **الأيقونة** إلى شيء دائم. وكأنما يستعاد في ذلك سر انحدار **اليابسة** الأولى من كتلة الفوضى المائية. فمن خلال **الأيقونة** يذكّر نوموس الأرض دوماً بمنبعه، وبهذا المعنى يكون الركوع أمام الأيقونات واستعمال التصوير على العموم في الواقع المظهر الواضح على الوجود التقليدي، الأرضي، القاري.

هذا التصور يعيننا على تطوير تلك الملاحظات التي قال بها شميدت والمتعلقة برسالة إسبانيا التاريخية. إسبانيا الكاثوليكية التي كانت تغرس فوق جميع الأراضي المحتلة وجه العذراء الطاهرة، كانت تؤدي الرسالة الخارقة للأهميّة لتحييد **المحيط** (وتحديه) عن طريق **النار**. وقد كانت هذه العملية الكونية شبيهة بصورة من الصور بالوظيفة التاريخية للماركسية في روسيا: ففي الحالتين تم قبول التحدي من أجل تحييد آثاره المهلكة بالنسبة لنوموس **الأرض** والعمل على تحويل السم إلى ترياق. وخسارة المعركة البحرية من قبل إسبانيا أمام القراصنة الإنكليز كانت محفوفة بعواقب كونية مخيفة. فعلى الجزيرة ما وراء الأطلسية كان الأنجلو ساكسون يزرعون بذور تلك الحضارة **الرؤيوية** التي قضي عليها بأن تجسد لوياثان في كل جبروته الأُخروي النهائي. ومن الرغوة ظهرت **القارة السفينة** التي تفوقت بكل المعايير على أصلها الأوروبي البدئي. وقد كتب على ذلك الهولة عند مَوْلده إطفاء النار المقدسة، تحطيم **الصورة**، وأن يفرض على الكرة الأرضية «نظامه العالمي الجديد». ومن الطبيعي أن التصور الحياتي المسيطر لدى ذلك المسخ المهول هو أفكار البروتستانتية ـ الطهرانيون، المعمدانيون، المورمون، وما إلى ذلك ـ والذين يتميّزون بدرجة متناهية من مهاجمة التماثيل وتحطيمها، والتحديث الكنسي والبغضاء. إن الغيريليا(*) اللاتينو ـ أمريكية المقضي عليها والتي أسست

(*) الغيريليا (من الاسبانية guerrilla من guerra الحرب) وتطلق على حرب الأنصار في إسبانيا وأمريكا اللاتينية.

على خليط من الماركسية (كذا!) واللاهوت الكاثوليكي للتحرير (كذا!) ـ هو ذا كل ما تبقى اليوم من الخطى السياسية الكونية الطموحة للكونكويستادور ـ الإسبان من أجل دحر الطوفان الكوني.

ولكن هل تنبثق هنا صعوبة نظرية لم يناقشها شميدت حتى النهاية. والقضية أنه سيشير إلى عادة المطابقة بين الصورة البصرية وتمجيد الأيقونة ـ مع **الغرب**، بين رفض الصورة وتحطيم التماثيل ـ مع **الشرق**. ويسوق شميدت نفسه عدة أمثلة تدحض الصحة الافرادية لمثل هذه المطابقة. فلنتحدث عن هذا بشيء من التفصيل. وبخاصة أن هذا يمسّ بصورة حميمية المشكلة الأهم بالنسبة لنا ـ المغزى التاريخي لروسيا ورسالتها.

1 ـ 5 Hostis et Amicus مُطْلقان ـ صور في الزمان والمكان

نتعامل هنا مع قضية كان مغزاها الميتافيزيكي قد نوقش في كتابنا الآخر «مسرحية الأوراسيا الدينية»، فصل «لا وعي الأوراسيا» والحديث يدور حول مطابقة الأوروبيين **لتقليدهم مع الغرب** مطابقة نموذجية. وغالباً ما يدور الحديث ببساطة، لا عن الغرب بل عن الشمال الغربي بل حتى قد يتم التذاوب بين ثلاثة مفاهيم جغرافية ـ **الغرب**، **الشمال** الغربي، الشمال. وهذا ما يواجه **بالجنوب**، **الجنوب** الشرقي **والشرق**، وكلها على الأغلب تتذاوب أيضاً في لوحة حضارية واحدة متمثلة في السطح الثقافي السامي **للشرق الأدنى** وهو الأكثر وضوحاً بالنسبة لأوروبا من الناحية التاريخية. وغالباً ما تستخلص هذه النظرة من التراث الروماني وأحياناً من التراث المسيحي.

إلا أن الحديث يدور في واقع الحال حول وهم بَصَري يدين الأوروبيون به للجغرافيا. وقد استطاع ذوو العقول الأعمق غوراً من غيرهم ـ ورينيه غينون بالدرجة الأولى ـ أن يبتعدوا عن هذا الخلط وأن ينظروا إلى الأشياء من موقع آخر أكثر ملاءمة. فقد أشار رينيه غينون بكل إنصاف إلى أن قارة الأوراسيا تمثل من وجهة نظر الجغرافيا الواقعية (والمقدسة) كتلة مهولة من **البرّ** ليست أوروبا فيه إلا رأساً غربياً، شبه جزيرة ترنو بأبصارها نحو الأطلسي. أما الشعوب الهندأوروبية فتعيش فوق مجموع اليابسة فيه ـ من هندوستان عبر إيران وروسيا وحتى أوروبا.

والهند الآرية تحفظ ذكرى الأساطير الأكثر قدماً للعرق الأبيض وتصوراته العقلية، أما المسيحية الأرثوذوكسية فتنتشر بعيداً وراء الأورال وحتى المحيط الهادي فتشغل مساحة تربو في حجمها على مساحة أوروبا. وبالمناسبة فإن التضييق التاريخي والقوالب الفكرية المقحمة لا يسمحان للأوروبيين على العموم بالنظر إلى الثقافة الأرثوذوكسية لروسيا على أنها تقليد مسيحي جدير بكل الثقة عُهد به إلى شعب هندأوروبي أبيض. ومما له دلالته في سياقنا هذا أن التسمية «اليونانية» «أيقونة» قد بقيت بالذات في روسيا الأرثوذوكسية تطبيقاً على الصورة المقدسة، وفضلاً عن ذلك فإن الأيقونة الروسية بالذات تحتفظ بالتقليد المسيحي الخالص الذي تلاشى عملياً في **الغرب**.

في معرض تقييمه لكتاب البروفيسور الألماني هيرمان فيرت «أصل البشرية»[3] أشار رينيه غينون إلى ضرورة تمييز أمثال هذه المفاهيم كالمناطق شمالي الأطلسية (الشمالية ـ الغربية) والهيبيربورية (الشمالية) والأطلسية (الغربية).

وفي الواقع فإن عبادة النار ونوموس **الأرض** البري الذي درسه شميدت بكل اهتمام يمثلان على العموم الخاصية المميّزة للشعوب الهندأوروبية البيضاء التي انحدرت إلى الأوراسيا من **الشمال** وانتشرت في جميع أصقاعها من **الغرب** إلى **الشرق** ومن الشرق إلى **الغرب**. وحيث يوجد الهندأوروبيون توجد **الأيقونة**، التصوير المقدس، عبادة **النار والنور**، الأساطير المتعلقة بالشمس، التدرّجية التقليدية وذكرى **الهيبيربوريا**. وتكثر الصور المقدسة في الهند. أما في إيران فحتى بعد اعتناق الإسلام ـ والإسلام يحظر بأشد الطرق تصوير البشر والحيوانات ـ ازدهر فن المينياتور والتصوير الحقيقي. وفي روسيا الأرثوذوكسية مجدت لا الأيقونات فقط بل ورسامو الأيقونات، أما الهدوئية الأرثوذوكسية، مقولة **النور غير المخلوق** فكانت خطاً حياتياً مركزياً في **الكنيسة الروسية**. **والأيقونة** هي الخاصية التي لا يمكن انتزاعها بالنسبة للهندأوروبيين ويجب أن تتطابق بالذات مع **الشمال** الهيبيربوري، الوطن الأول السحيق القدم لنوموس **الأرض** الطبيعي التقليدي البري.

النفور من التصوير وتحطيم التماثيل ليسا من خصائص الشرق بقدر ما هو من خصائص **الجنوب**. وهذا تواز جغرافي طبيعي إذا ما أخذنا بعين الحسبان منابع الهندأوروبيين. فإذا كان عرق الشمال يركع للنار والصورة فعرق **الجنوب** المناظر له يركع لنقيض النار (الماء مثلاً) ونقيض الأيقونة (الصوت مثلاً)، ومن الطريف أن

غينون نفسه ينسب هذه الثنائية الثقافية إلى الاستقرار والترحل: فالاستقرار يقترن لديه بشخصية قابيل التوراتية، بالصورة البصرية وبالزمن بينما يرتبط الترحل بهابيل، بالشفوية والمكان[4]. وهذا ما يدوّن بطريقة رائعة في ثنائية العناصر التي ناقشها شميدت. فالوجود البحري (على الرغم من أنه يشترك مع الترحل) يمثل ذلك التطور الخارق السرعة للبداوة والذي يدخل في خاصية جديدة بمجرد أن ينتهي الطريق من الترحل البري عبر الملاحة في البحار القارية وحتى الخروج الحاسم إلى **المحيط** المفتوح.

وهناك جزئية أخرى على مستوى بالغ من الطرافة: فغينون يؤكد على أن التقليد السامي تقليد ليس شرقياً بل أطلسي، غربي وهو في الوقت ذاته بدويّ. وتوافقاً مع هذا التقليد تأتي هذه العلاقة الإيجابية بالرعي ـ هابيل في الرواية التوراتية. وفضلاً عن ذلك يشير غينون إلى تلك الحقيقة وهي أنه لبناء معبد سليمان تم استدعاء المهندس الأكبر من بين الغرباء، ويبرهن على أن الحديث كان يدور حول ممثل للتقاليد الهندأوروبية لأن مميّزاتها كانت ترسيخ العمارة المقدسة، أي بناء ذلك البيت الذي يثوي، وفقاً لشميدت في أساس نوموس **الأرض** ـ بينما كان للساميين، الرحّل تركيب اجتماعي قداسي آخر.

وأخيراً، فبالنسبة للشرق، يؤكد غينون على أن هذه الجهة من العالم مرتبطة أكثر من كل جهاته الأخرى بالتقاليد، بثبوتية الطّرز البدئية القداسية وبالوفاء للأصول. وفي كتابه «**الشرق والغرب**» طور بصورة مفصلة تلك الأطروحة. ويمكن القول بأن غينون في الوقت نفسه يربط **الشرق بالشمال** إذ يعدّه الوريث التاريخي للتقليد النوردي البدئي. وعلى فكرة فبالنسبة لتطابق تصورات عالم الشمال وعالم الشرق يمكن أن نلتقي بمقاطع رائعة لدى هنري كوربان المتخصص المعاصر الأفضل في التقاليد الإيرانية ومترجم السهروردي العظيم.

وهكذا فلنجمل نتائج ملاحظاتنا. يتطابق الشمال مع التقاليد الهندأوروبية، الاستقرار، تمجيد النار والصورة. وفضلاً عن ذلك **فالشمال** مرتبط قداسياً **بالشرق** أيضاً. وينبغي أخذ هذين التوجهين بالذات على أنهما انطلاقيان في مسألة تاريخ تطور نوموس **الأرض** وخطوط قوته المركزية. وعلى هذا فإن الدفاع عن تمجيد الأيقونة في التاريخ ليس تقليداً غربياً بل شمالي أو شرقي. وهذا الخط مميّز بالنسبة لأوروبا بكاملها ـ من الهند وحتى ايرلندة. وهو يتفق مع المسار التاريخي

لنور الشمال Nordlicht ومع الشعوب والثقافات التي تظهر بصفة حاملات لهذا **النور**. إنها سبارطة الدورية، روما الإمبراطورية، إيران الزرادشتية، الهند الڤيدية، بيزنطة، روسيا الأرثوذوكسية، ايرلندة، وإسبانيا الكاثوليكيتان، وهذا معسكر نوموس **الأرض**.

وعلى القطب المقابل من التاريخ يظهر، وطبقاً لذلك الجنوب بمعية الغرب (!) الرُّحل الساميون، محطّمو التماثيل، أجنّة التالاسوكراتيا والحضارة التجارية والوثبة التقنية. ومن شأن غينون أن يسمي هذا المعسكر بـ«المنطلقات الأولى للحضارة المعادية للعقلانية» و«بُناة المحاكاة الساخرة العظمى». كما يجدر أن نذكّر بالفكرة التي عرضها غينون في «مملكة الكمّ» بالنسبة للتذاوب **الأُخروي لبيضة العالم**، «انحلالها» وهو ما يتوافق بدقة من حيث الترتيب الزمني أو من الناحية النمطية مع انتصار **البحر** الذي درسه شميدت. كما إن غينون يربط هذا الانحلال، على نحو ما فعل شميدت، بالتقدم التقني، بالايديولوجية الليبرالية والحضارة الغربية **للعهد الجديد**. لقد أثار العالم الأنجلوساكسوني في العموم النفور العميق والتحفز في نفسه.

وأخيراً فإن دور العامل السامي ـ الغربي والترحّلي وفقاً لغينون والجنوبي، إذا ما قيّمنا انتشار الساميين من مواقع الأوراسيا، والمقترن بالتجارة والتبادل الحر المميّز لكافة التالاّسوكراتيات (قرطاج ضد روما)، القائم عند منابع الرأسمالية (التي انتقدها ماركس مثلما انتقدها زومبارت) المعادي للأيقونة والمعادي لكل ما هو هندأوروبي في المسائل الدينية (اليهودية والإسلام)، المتضامن مع الحركة البروتستانتية في صيغتها الكالڤينية (انتشار الكالڤينية في هولندة، انجلترا، وفيما بعد في أمريكا ـ الدول البحرية في الغالب) والفاعل، أخيراً وبصفة خاصة، في قضية تدمير نوموس الأرض، ذلك النوموس التقليدي بالنسبة لأوروبا (وهو ما كتب عنه شميدت أكثر من مرة) ـ يضع النقطة الأخيرة في سلسلة التطابقات.

الشمال + **الشرق**، الأيقونة، الهندأوروبيون، **النار**، **البيت**. الاستقرار، **التقليد واليابسة**. هذه قوى نوموس **الأرض**، أنصار الثقافة والنظام، المجيبون على تحدي **النار** الفائقة بمجموعات من التقاليد الآرية، حتى المسيحية.

الجنوب + **الغرب**، محاربة التماثيل، الشعوب السامية، **الماء السفينة**

الترحّل، الحداثة والبحر. هذه قوى رفض **لأرض**، حملة الانحلال، الطاقات الأخروية للفوضى العقلانية، نوموس **البحر**. لقد ردّوا على تحدي **المحيط** بوقوفهم إلى جانبه ضد **الأرض**، وضد القضية البروميثيوسية النارية الأقدم، التي تكاد تكون منسية، والتي سبقت نوموس **الأرض** وكامل **التاريخ** الإنساني.

1 ـ 6 نوموس النار

نهاية المعسكر **الشرقي** تعني الانتصار النهائي لنوموس **البحر**. وكل محاولات التصدي لمنطقه وتركيبته بمساعدة وسائله التقنية أثبتت عجزها. إسبانيا خسرت المعركة على السفن، والمقاومة الاقتصادية ـ الصناعية، الاستراتيجية والمذهبية لنوموس **البحر** من طرف الوطنية الاشتراكية الألمانية (1933 ـ 1945) والتي ألهمها إلى حد ما مشروع هاوسهوفر الأوراسي تم سحقها بمقدرة وخبث، الغرب الذي استخدم الاتحاد السوفياتي لتحقيق هذه المآرب؛ المنافسة التقنية مع احتساب دروس الماركسية، المنافسة التي استطالت أكثر من سواها، ثم تضييعها في الستينيات، الثمانينيات، من طرف دول حلف وارسو متوازياً مع نهاية المرحلة الثانية من الثورة الصناعية والانتقال إلى المجتمع ما بعد الصناعي. دورة التاريخ البشري بلغت خاتمتها باختراقها قطبي الطبيعة السكونيين وهذا ما أحاطنا به علماً أمريكي يحمل كنية يابانية.

بمقدورنا إثبات الهزيمة المطلقة **لليابسة، البهيموت**، الأوراسيا، نوموس **الأرض**. ومن الطبيعي أن نوموس **الأرض** نفسها ما كان سوى أثر لحل قامت به الإنسانية لقضية مفتوحة طرحت أمامها قضية الوجود، لكن لا قضية جوهره. بالصيغة الخارجية للإجابة، ولكن ليس بالعفوية النارية التي ولدت **الإجابة** الهيبيربورية: لم تعد **الأرض** قادرة أكثر على الرد على تحدي نوموس البحر الذي صار كونياً ووحيداً. لقد أغرقت بالمياه، وعبر الفجاج ذُوّب **نظامها** في البيضة العالمية. نهاية الثورة الصناعية جرّدت من المجد ما كان يمكنه بالتقنية المحرَّرة (entfesselte Technik) أن يدخل المنافسة على مستواها. والمرحلة الأثيروقراطية من التالاسّوكراتية المطلقة، نظرة تلقى على **الأرض** من الكوسموس، تجعل كافة المخلوقات التي تمور فوقها ـ متماثلة من الناحية المبدئية ـ قيمتها براغماتية بصفة

صارمة تساوي مقدار ما تحمله من منفعة. الحياة محسوبة وفقاً لمكافئها المالي من رأس المال المسيطر واقعياً. الهندسة الجينية تفرّخ الكتاكيت والبشر ـ المهرّجين مثلما استنبطوا بالأمس الآلة البخارية أو آلة النسيج واخترقت التقنيةُ الإنسانيةَ حتى بلغت اللبّ. كان يمكن أن يكون لشميدت بارق من الأمل عام 1959 وأن يتبدل فجأة كل شيء. وعند نهاية القرن لم يتبق ثمة أي أمل.

انتصار **الماء** استوعب في داخله وبطريقة تمت بصلة إلى سفر الرؤيا، جميع العفويات وكافة الصيغ التاريخية التي تمكن لا من تبريرها ببساطة، بل من تحويلها بكيميائه الحضارية الجيوبولتيكية الهازلة. الذهب (المال) المذيب العالمي والإبداعية التقنية لقوى البحر حوّلا الإنسانية إلى كتلة بيولوجية خاضعة للسيطرة لكن بقي الشيء الذي لا يخضع لهذه العملية الكونية.

النار:

هي بالذات وقد تطهرت من الشوائب الطبيعية والاجتماعية السياسية، التي شابتها خلال مسيرتها عبر التاريخ ـ توجد الآن في وضع ممتاز بالمقارنة مع الحالة التساومية التي كانت فيها، عندما لم تكن إلا نوموساً **للأرض** نظاماً **لليابسة** . الآن فقط يتكشف، وبكل حجمه التاريخي، ذاك الذي طرح **عليه** ذلك التحدي. وتحت السؤال يقف الإنسان، لا أكثر ولا أقل. إلى أي مستوى كان تاريخياً؟ في أي مستوى كان طبيعياً؟ وإلى أي درجة استسلم للعفويات، التي تكوّن نسيجه الطبيعي (حتى عقلانيته البصيرة)؟ إلى أي درجة استطاع الحفاظ على وفائه للرائز المتسامي الخفي؟ وكم فيه من **النار** في نهاية المطاف؟ أم إنه بكامله مكوّن من **الماء** فقط؟.

المفاهيم والمصطلحات الأهم في الجيوبولتيكا

الاكتفاء الذاتي: إمكانية استمرار الوجود الثابت للنظم: الاقتصادي، الاجتماعي ـ الطاقي والبيئي من حساب الموارد الداخلية وحدها. ويستعرض تاريخ الحضارات أن المستوى الأدنى المطلوب لتحقيق الاكتفاء الذاتي للنظم الاجتماعية في ارتفاع مستمر. وبالنسبة للجيوبولتيكا يبدو عادلاً القانون الذي صاغه جان تيريار والقائل «من المدن ـ الدول، عبر الدول ـ المساحات إلى الدول ـ القارات» انظر قانون المُتوالية في المدى المكاني. وشرط التفعيل الناشط لنظم الاكتفاء الذاتي في الوضع المعاصر هو العمليات التكاملية الواسعة على الصعيد القاري. وبنوعية الاكتفاء الذاتي الواقعي يرتبط ارتباطاً مباشراً مفهوم «سيادة» الدولة، المجتمع والمعسكر الاستراتيجي.

عملاء التأثير الجيوبولتيكيون: الشخصيات والمجموعات العاملة على تشكيل اللوبيات المتعلقة بالمشاريع الجيوبولتيكية. ونشاطهم مشروع ضمن المناطق البيئية (الـ rimland). أما طرح المشاريع من طرف نظام جيوبولتيكي مضاد، بديلاً لهذه المشاريع فيعدّ شكلاً من أشكال النشاط التخريبي أو التجسسي. وخلافاً للجاسوسية الكلاسيكية تبدو هوية العمالة الجيوبولتيكية أكثر تعقيداً إذ تطبق هنا معايير نغلو على مستوى صلاحيات الخدمات الاعتيادية الخاصة.

استراتيجية الأناكوندا: خط الأطلسية الجيولتيكي، الموجه نحو سلخ أكبر مساحة عن الأوراسيا بغية تعويق توسعها الجيوبولتيكي.

الأطلسية: وتمت بصلة القربى إلى **مصطلحات الماء، والبحر التالاسوكراتيا والـ Sea Power**، مصطلح جيوبولتيكي معقد، يجمع في داخله تاريخياً ـ القطاع الغربي من الحضارة الإنسانية، استراتيجيًا ـ اتحاد البلدان الغربية التي تسيطر فيها الأيديولوجية الليبيرالية ـ الديموقراطية، عسكرياً ـ استراتيجياً ـ الدول المشاركة في الناتو، اجتماعياً ـ التوجه نحو «**النظام التجاري**» «وقيم السوق» (الأنموذج ـ

الولايات المتحدة الأمريكية). مضاد **للأوراسيا**.

الأيروكراتيا: من اليونانية «السلطة عن طريق الجو». مرافق قوة للاستراتيجية المعتمدة على تطويع المدى الجوي واستخدامه في أهداف **التوسع الجيوبولتيكي**. وخلافاً لتطور الملاحة البحرية فإن تطور الملاحة الجوية لم يولّد نوموسه الخاص، فبقي مجرد تطوير للمبدأ التالاسوكراتي.

البهيموت: بالعبرية القديمة «وحش»، «الوحش القاري» (في التوراة) المصطلح لشميدت وهو نفس **القارة**، **القارية**، **الأوراسيا**.

المنطقة الشاطئية الـ rimland: مجال جيوبولتيكي بَيْني، يقع بين قطبين جيوبولتيكيين أساسيين ـ بين الأوراسيا والأطلسية. انظر **rimland**. الأراضي التي تدور فوقها مواجهة معقدة، متعددة المستويات مثلما تدور لعبة كبرى من أجل السيطرة عليها. انظر **اللعبة الكبرى**.

نادي بيلديربيرغ: منظمة دولية سريّة عَوْلمية (انظر العولمة). مهمتها ـ التنسيق بين المجموعات الأوليغارشية في الدول المختلفة (السياسة، الاقتصاد، وسائل الإعلام الجماهيري، وما إلى ذلك) من أجل إقرار «النظام العالمي الجديد» أنشىء عام 1954 في شهر أيار (29 ـ 31) في مدينة أوستربيك الهولندية في فندق بيلديربيرغ. وفي الجلسات السرية لنادي بيلديربيرغ يشارك رؤساء الجمهوريات والحكومات، قادة الأحزاب والحركات، ويوحّد بينهم المشروع العولمي المشترك ـ إقرار «الحكومة العالمية». وغالبية الناشطين في بيلديربيرغ هم نفس شخصيات الفئة النخبوية في C.F.R (انظر **مجلس العلاقات الدولية**) واللجنة الثلاثية (انظر **اللجنة الثلاثية**).

برلين: العاصمة الاستراتيجية الطبيعية لأوروبا الوسطى.

العالم الثنائي القطبين: (الثنائية القطبية أو القطبية المزدوجة)، البناء الجيوبولتيكي الطبيعي الذي يعكس الثنائية الجيوبولتيكية الأساسية ـ على الصعيد الكوني ـ **التالاسوكرايتا** في مواجهة **التيلوروكراتيا**.

الحلف: اتحاد عدة دول، يبدّل قليلاً الصفة الاستراتيجية والجيوبولتيكية لهذه الدول حتى يرتفع بها إلى مستوى أعلى من النشاط العالمي. ووفقاً لقانون «المتوالية في المدى المكاني» فإن قيام التحالفات ـ عملية لا مفرّ منها.

الشمال الغني: نفس الأطلسية، الغرب والعالم الليبيرالي ـ الديموقراطي.

اللعبة الكبرى: المواجهة بين الأوراسيا والأطلسية. نفس مصطلح **الحرب الكبرى بين القارات**.

الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى: نظرية الاقتصادي الألماني فريدريخ ليست التي تربط التطور الاقتصادي بالعامل الترابي والديموغرافي. وترى أن التطور الاقتصادي للدول الداخلة في الوسط السوقي لا يمكن أن يكون فعالاً إلا عندما يتحقق ضمن نظام المراحل البينية والتي على مداها تسيطر الدولة على عملية الإصلاحات مشجعة بطريقة مفتعلة تطوير المؤسسات الصناعية والتجارية. ويمكن أن يتحقق ذلك فقط في إطار الاتحاد الجمركي الواسع. انظر **الاتحاد الجمركي** وقد طور الاقتصادي الأمريكي كينْس نظرية مشابهة. انظر **نظرية الانعزالية الاقتصادية**.

الحرب الكبرى بين القارات: المواجهة التاريخية وما وراء التاريخية بين الأوراسية والأطلسية. عنوان دراسة صدرت في روسيا وعرضت فيها لأول مرة وبطريقة مبسّطة الأسس الأولى للمنهج الجيوبولتيكي. وهي نفس **اللعبة الكبرى**.

المجال الكبير (Grossraum): المصطلح لشميدت. اتحاد عدة دول كبرى في تشكل استراتيجي موحد. وظهور المجالات الكبرى أمر اشترطته نظرية «متوالية المدى المكاني».

الهلال الخارجي (أو الهلال الجزيري): المصطلح لماكيندر، ويعني مجموعة الأراضي الداخلة في منطقة التأثير **التالاسوكراتي**. أجزاء القارات والجزر المنجذبة نحو «**الوجود البحري**». أيضاً المنطقة الخاضعة استراتيجياً **للأطلسية** بصفة كلية.

البحر الداخلي (mare internum ـ باللاتينية) مصطلح يعني المجال المائي الواقع ضمن حجم قاري تيلوروكراتي، ولهذا لا يعد حدوداً استراتيجية أو ثقافية.

المحيط الداخلي: مصطلح يعني أيضاً ما يعنيه «**البحر الداخلي**». ولكن على المستوى العالمي. ومثله «**المحيط المتوسط**».

الهلال الداخلي: [أو الهلال القاري أو الـ rimland] ـ المصطلح لماكيندر، ويعني الأراضي الشاطئية من الأوراسيا، والواقعة بين «**الهلال الخارجي» والمنطقة المركزية**».

المحور الداخلي: سمةُ للرابطة الجيوبولتيكية مع الأطراف في داخل مجال

استراتيجي واحد. انظر أيضاً الشعاع الجيوبولتيكي والجُزَيء **الجيوبولتيكي**.

الماء (أو البحر): مصطلح خاص يعني «التالاسوكراتية» عَمِل شميدت بصفة خاصة على دراسة (das Meer) وهو الـ Sea, Sea power. لدى ماهان.

الشرق: وهو أيضاً **الأوراسيا**، **العالم الثاني**.

العدو (hostis ـ باللاتينية) ـ المصطلح لشميدت. مفهوم سياسي محض، يعني مجموع تشكلات خارجية حكومية، اجتماعية، أخلاقية، أو دينية تقف عند المنطلقات المعارضة لمواقف العاصمة الاستراتيجية. لا يعاني من عبء أخلاقي ـ ويمكنه من الناحية الديناميكية أن ينتقل إلى تشكلات مختلفة سمة متنقلة. انظر الصديق.

المقياس المؤقت: تصور عن الزمن المحوري ـ الأنموذج المتزامن، التاريخوية. المنطلق التأسيسي للنظرة العلمية الفلسفية، المنهجية ضمن شروط **العصر الجديد** . وهيمنة المقياس المؤقت التي لا بديل لها تنتهي بترك مكانها لمقياس المدى المكاني. انظر **مقياس المدى المكاني**.

العالم الثاني: تسمية المعسكر الاشتراكي في مرحلة «الحرب الباردة». صارت بعد نهاية «الحرب الباردة» تعني الأوراسيا.

المحور الجغرافي للتاريخ (أو «المنطقة المركزية، أو الـheart land) ـ المصطلح لماكيندر ويعني الأراضي الأوراسية ضمن القارية، والتي تدور حولها ديناميكية التطور التاريخي في المدى المكاني. تتطابق مع أراضي روسيا.

الجيوبولتيكا: العلم الذي عرضت موضوعاته الأساسية في هذا الكتاب.

الثنائية الجيوبولتيكية: الأساس الأول للجيوبولتيكا والذي يرى أن محرك العملية التاريخية هو المواجهة بين التالاسوكراتية والتيلوروكراتية.

الشعاع الجيوبولتيكي: طيف التأثير بالقوة (التأثير الاقتصادي الاستراتيجي الثقافي، التدابيري، الإداري وما إلى ذلك) من طرف القطب الجيوبولتيكي على مناطق الأطراف. والمشهد السياسي الواقعي في الوضع الإحصائي يتعامل مع الأجزاء الجيوبولتيكية. ومن المعمول به في الجيوبولتيكا الحديث عن الإشعاعات كعملية دينامية مفتوحة لنبض يتواصل باستمرار.

الجزيء الجيوبولتيكي: مجموعة علاقات العاصمة الاستراتيجية (أو القطب الجيوبولتيكي) بالمناطق الجهوية الطرفية والتي يتم النظر إليها في لحظة تاريخية محدّدة دون احتساب الديناميكية العامة للعمليات السياسية. انظر أيضاً **الشعاع الجيوبولتيكي**.

الجيواستراتيجيا: العناصر العسكرية للتحليل الجيوبولتيكي.

الجيوايكونوميكا: تعددية النظم الاقتصادية الكبرى وفق الارتباط بالمدى المكاني والمظهر الحضاري. ويستعرض ثلاث مناطق أساسية، الأمريكية، الأوروبية والباسيفيكية. وإقامة المنطقة الجيوايكونومية الرابعة ـ المنطقة الأوراسية هو المطلب الاستراتيجي الأساسي لروسيا. انظر **المنطقة الرابعة**.

الدولة ـ الأمة: الدولة العلمانية ذات المركزية الشديدة الوضوح. تَشَكُّل سياسي، تؤدي الصيغ الحكومية فيه إلى ولادة الأتنوس وحضارته. تتميّز عن التشكل الإتني (القبيلة، الشعب) وعن الإمبراطورية.

الحدود: تشتمل الجيوبولتيكا على نوعين من الحدود: الخط الحدودي والشريط الحدودي. فالخط الحدودي هو الحدود البحرية، والشريط الحدودي ـ الحدود البرية. ومهمة المعسكر الجيوبولتيكي المتطلع إلى التأثير على المستوى الكوني، أن يصل بالخطوط الحدودية إلى أقصى مداها بالنسبة له وأن يقلصها حتى المستوى الأدنى بالنسبة لمنافسه. والعكس أيضاً.

الديموبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. تأثير المعايير الديموغرافية على بنية الدولة. لم يحقق انتشاراً واسعاً.

الحزام المتقطّع: المصطلح لكوين. المناطق الشاطئية المهشّمة ذات التوجه المتبدل، غير المحدّد. والقادرة على أن تنقلب نحو القارة التيلّوروكراتية أو نحو البحر التالاسوكراتي.

الصديق: (amicus ـ باللاتينية) ـ المصطلح لشميدت. مفهوم سياسي محض، يعني مجموعة التشكلات الخارجية، الحكومية، الاجتماعية، الإتنية، أو الدينية والتي تقف عند المنطلقات المتطابقة مع منطلقات العاصمة الاستراتيجية. لا يعاني من عبء أخلاقي. ويمكنه من الناحية الديناميكية أن يتنقل بين التشكلات المختلفة. سمة متنقلة. انظر **العدو**.

الأوراسية: مفهوم جيوبولتيكي معقد، يتضمن في داخله: تاريخياً ـ القطاع الشرقي من الحضارة الإنسانية، استراتجياً ـ الحلف الفاعل أو الحلف المحتمل للدول والأمم التي ترفض الاعتراف بواقع الأيديولوجية الليبيرالـ ـ ديموقراطية، استراتيجياً ـ التحالف العسكري الفاعل أو المحتمل بين البلدان الشرقية «التيلوروكراتية»، اجتماعياً ـ السير على هدي «الأيديوكراتيا»، الدولة الاجتماعية، البناء الاقتصادي غير الرأسمالي.

الأوراسيا: وهي **القارة الـ** heartland، اليابسة، الأرض، التيلوروكراتيا وبمعنى أكثر تحديداً هي روسيا الجيوبولتيكية.

العالم الواحد (One World ـ بالإنكليزية) ـ انظر **العولمة**.

المدي الحيوي: المصطلح لهاوسهوفر، المساحة الترابية الصغرى التي تسمح للشعب بالتوصل إلى تحقيق مطامحه التاريخية والسياسية.

الغرب: مرادف **التالاسوكراتيا، الأطلسية**.

الأرض: (أو **اليابسة**) مصطلح خاص في الجيوبولتيكا يعني «التيلوروكراتيا» وقد قام كارل شميدت بصفة خاصة بتطوير نظرية الأرض das Land.

الإيديوكراتيا: ـ من اليونانية. «سلطة الأفكار، المُثُل»، المصطلح للأوراسيَّيْن الروسيين (ن. تروبتسكوي، ب. سافيتسكي». يواجه بمصطلحات «سلطة المادة»، «نظام السوق» و«**البناء التجاري**». كما إن التراتبية في المجتمع وتحفيز العمل ينطلقان في الأيديوكراتيا من مبادىء لا اقتصادية.

الإمبراطورية: تَشكُّل فوق الدولي، يوحد بين عدد من الشعوب والبلدان تحت شعار فكرة شمولية ـ دينية، أو أخلاقية أو ذات طابع إيديولوجي.

التكامل: يعني في الجيوبولتيكا صيغاً كثيرة الأعداد من اتحادات عدد من القطاعات ذات المدى المكاني. ويمكن أن يتحقق التكامل على أساس التوسع العسكري أو بطريقة سلمية. وهناك عدة طرق للتكامل الجيوبولتيكي ـ الاقتصادي، الثقافي اللغوي، الاستراتيجي، السياسي الديني وما إلى ذلك. وكلها يمكن أن تؤدي إلى النتيجة النهائية الواحدة زيادة حجم التكتل الاستراتيجي أو في المدى المكاني.

الرأسمالية، الليبيرال ـ رأسمالية: بناء اقتصادي يهيمن على ما وراء الحضارة

الأطلسية. يعتمد على أساس «التجارة الحرة» و«الأنانية الاقتصادية». وهذه المقاربة الليبيرال ـ رأسمالية تطرح ضمن شروط النظام العالمي الجديد بناء وحيداً لا بديل له. وهو التعبير الاقتصادي عن الأطلسية والعولمة. معاكس للاشتراكية. انظر **الاشتراكية**.

المستعمَرة: أراض تخضع لقوة مفصولة عنها بالمدى المائي. ينظر إليها على أنها قاعدة مؤقتة وخارجية، معزولة عن المدى الجيوبولتيكي العام للمتروبول. عكس **الأطراف**.

نهاية التاريخ: المصطلح لفوكوياما. أطروحة معولمة تتعلق بالانتصار الشامل للتالاسوكراتيا والأنموذج الليبيرالي ـ الديموقراطي على الأرض كلها. انظر **العولمة**، **العالم الواحد**.

الثورة المحافظة: انظر **الطريق الثالث**.

القارة: **الأوراسيا**، **اليابسة**، المبدأ **التيلوروكراتي**.

القارية: مرادف الأوراسية في السياق الاستراتيجي الضيق. مفهوم قريب من مفهوم **اليابسة**، **الأرض**. والمدرسة القارية في الجيوبولتيكا هي الوحيدة في روسيا، والمهيمنة في ألمانيا، والموجودة في فرنسا وغير الممكنة في البلدان الأنجلوساكسونية. معاكسة **للأطلسية**.

الكراتوبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. رؤية الدولة من وجهة نظر إمكاناتها في مضمار القوة. لم يحقق انتشاراً واسعاً.

لوياثان: بالعبرية القديمة« «الوحش البحري» (في التوارة) المصطلح لشميدت. ويعني أيضاً **الأطلسية البحر**.

الليبيرالية: نظرة إلى العالم تجمع بين المكوّنات اليسارية في ميدان السياسة (الحدّ الأدنى من الإنسانية، الفردية، المساواة الإتنية والثقافية) واليمينية في ميدان الاقتصاد (السوق، الخصخصة، الملكية الخاصة، الرأسمالية). الإيديولوجيا الحاكمة في المعسكر الأطلسي. والتعبير السياسي عن الليبيرالية هو الليبيرالية ـ الديموقراطية.

الليبيرالية ـ الديموقراطية: الإيديولوجية المسيطرة في القطاع الأطلسي، وتعدّ في الغرب معيار «الصحة السياسية» و«المركزية» وهي في الآماد الأوراسية تظهر في

صورة الجمع المتطرف بين أقصى العناصر اليمينية وأقصى العناصر اليسارية. انظر **الليبيرالية، الطريق الثالث، الثورة المحافظة**.

التوسع وفقاً لخطوط الطول: (التوسع وفق محور شمال ـ جنوب) توسيع ميدان التأثير (العسكري، الاستراتيجي، الثقافي أو الاقتصادي) وفق خط الطول. وهو أيضاً **التوسع الطولاني**، الشرط الأساسي للاستقرار الترابي والاستراتيجي للدولة.

التكامل وفقاً لخطوط الطول: (التكامل وفق محور شمال ـ جنوب) ربط القطاعات المدوية المتفرقة لتصبح كلاً واحداً وفقاً لخطوط الطول (أيضاً **التكامل** الطولاني). وهو إيجابي في حالة السيطرة المؤكدة على المناطق الشمالية والمركزية. وسلبي عندما يشتمل الشمال أو المركز على تشكلات يكون ولاؤها **للعاصمة الاستراتيجية** مثيراً للشك أو ضعيفاً.

بؤرة التطور: المصطلح لسافيتسكي: وهو نفس المدى المكاني النوعي، أو ببساطة المدى المكاني (بمعناه الجيوبولتيكي).

ما وراء الحضارة: التوحيد الذهني بين عدة حضارات في كتلة واحدة على أساس مظاهر محدَّدة مشتركة. والأطلسية والأوراسية تجسدان مثالين لما وراء الحضارات.

الجيوبولتيكا الدنيا: نظام تطبيقي يستعير من الجيوبولتيكا الأصلية بعض المصطلحات والمنهج لكنه يغفل الثنائية الجيوبولتيكية الأساسية.

الجزيرة العالمية: المصطلح لماكيندر. أطلقه على **الأوراسيا** والمحور الجغرافي للتاريخ. وقد غيّر هذا المفهوم معناه بصفة جذرية لدى سبيكمان وصار يعني مجموع المناطق **التالاسوكراتية** (مناطق **الهلال الخارجي**) ونظراً لهذه القراءة المغايرة يُفضّل عدم استخدام المصطلح على نطاق واسع درءاً للالتباس في المعنى.

العالم المتعدد الأقطاب: تصور نظري صرف بالنسبة للمرحلة المعاصرة يفترض تحقيق وجود عدد من المجالات الكبرى. يمكن وجوده فقط بعد التخلص من **العالم وحيد القطب**.

العولمة: من الفرنسية «monde» «العالم». إيديولوجية خاصة تفترض تذاوب جميع الدول والشعوب في تشكل كوني واحد مع إقامة «الحكومة العالمية» وإزالة

الحدود العرقية ـ الدينية ـ الإتنية، القومية والثقافية. انظر **مجلس العلاقات الدولية (CFR)**. اللجنة الثلاثية، ونادي بيلديربيرغ.

البحر: نفس معنى **التالاسوكراتيا**، **الماء**.

موسكو: العاصمة الاستراتيجية الطبيعية **للأوراسيا**. أساس المحاور الخاصة بكل **تكامل قاري**. **انظر الأوراسيا**.

مركزية موسكو: الخط الجيوبولتيكي لتطور نظام الدولة الروسي. مرادف للأوراسية المنهجية.

الناتو: حلف شمالي الأطلسي. الأداة العسكرية ـ الاستراتيجية للأطلسية. في السنوات الأخيرة يتخذ مفهومه المستقل كشخصية تحضيرية على حساب احتضار مؤسسات القانون الدولي، وكانت قد بنيت في المراحل السابقة من التاريخ السياسي (كمنظمة الأمم المتحدة مثلاً).

الأطلسية الجديدة: الصورة المعاصرة من الأطلسية، التي ترفض العولمة (حتى في صورتها اليمينية) كمشروع سابق لأوانه ومستحيل التطبيق في الظروف المعطاة، وترى أنه بدلاً من **العالم الواحد** سيجري **صدام الحضارات**.

النظام الجديد: مشروع إعادة التنظيم الجيوبولتيكية على صعيد واسع.

النظام العالمي الجديد: هو نفس العولمة ومشاريع إقامة **الحكومة العالمية**.

النوموس: المصطلح لشميدت. المبدأ المؤسس لتنظيم أي مدى مكاني (جغرافي ـ اجتماعي، سياسي اقتصادي أو ثقافي وما إلى ذلك). مرادف لمصطلح «نظام» «قانون» «تكوين». **نوموس اليابسة** = **التيلوروكراتيا**، **نوموس الماء (أو البحر)** = **التالاسوكراتيا**.

المجتمع: نتيجة لانهيار التشكلات الجماعية القبلية. يختلف عن الجماعة القبلية بكونه ينقسم مبدئياً إلى أعضاء مفردين منفصلين (الأفراد).

الجماعة القبلية: الصيغة الطبيعية لوجود البشر المرتبطين بروابط عضوية. تقف معارضة **للمجتمع** الذي تسيطر فيه أعراف الاتفاق المنعقد بين الأفراد. المجتمع ينظّمه **الموروث**.

النار: عنصر يرمز إلى الروح الطاهر. مبدأ سام.

العالم الوحيد القطب: أنموذج جيوبولتيكي، تكوَّن بعد سقوط الاتحاد السوفياتي في «الحرب الباردة» والقطب الوحيد المهيمن هو الأطلسية والولايات المتحدة.

المحور: التحالف الجيوبولتيكي بين اثنتين أو أكثر من **العواصم الجيوبولتيكية**.

الفدائي: المصطلح لشميدت. الشخصية الرمزية للمدافع عن «نوموس» اليابسة في حال انتصار القوة الجيوبولتيكية المضادة.

الاندفاعية: المصطلح لغوميليوف. الطاقة الداخلية للإتنوس، القوة الدافعة للنتاج الثقافي، السياسي والجيوبولتيكي.

الأطراف: الآماد المكانية والأراضي التي ليس لها توجه جيوبولتيكي مستقل، مبعدة عن **العاصمة الاستراتيجية** التي تصل منها القرارات الجيوبولتيكية الأساسية إلى الأطراف.

الجغرافية السياسية: المصطلح لراتسيل ـ ويعني ما دُرج على تسميته بعد تشيلّين بـ «الجيوبولتيكا».

البوسيبيليزم: من الفرنسية possible «الممكن». المصطلح لڤيدال دي لا بلانش. يقصد به ضبط تحديد اللوينات في معنى الحتمية الجغرافية العائدة، إلى حد ما، لخصائص الجغرافيا. وتفترض نظرية البوسيبيليزم أن المدى المكاني لا يحدِّد التاريخ لكنه يقرِّبنا إلى هذا أو ذاك من تيّاراته.

ما بعد الحداثة: التسمية العامة للخاصية الجديدة للوجود الاجتماعي، الذي حل عند حدود القرن الحادي والعشرين محل المنطلقات الأساسية **للعصر الجديد**. والمصطلح يستخدم بصورة أكبر في آفاق علمي الثقافة والاجتماع. وبصفة تدريجية أخذ مفهومه يتسع وينسحب على جميع الميادين الأخرى، وبعض ملامح ما بعد الحداثة هي من خصائص الجيوبولتيكا ومنهجها. انظر **المقياس المؤقت، مقياس المدى المكاني**.

الجيوبولتيكا التطبيقية: المصطلح للاكوست. تطبيق الوسائل الجيوبولتيكية على المشاكل الصغرى ذات المستوى الجهوي بدون احتساب المبادىء المؤسسة لذلك. ومثلها **الجيوبولتيكا الدنيا**.

الضاحية: الأراضي الطرفية الداخلة في بناء التشكل الجيوبولتيكي الأساسي

والتي ينظر إليها على أنها جزء لا يتجزأ من الكل العضوي. عكس **المستعمرة**.

مقياس المدى المكاني: تصور حول النظرة المتزامنة لتفسير الواقع. عناصر مقياس المدى المكاني مميّزة للمجتمعات التقليدية وللصيغ المختلفة من النماذج الغنوصية السائدة في هذه المجتمعات مثلما هي مميّزة أيضاً لأحدث مناهج ما بعد الحداثة. الجيوبولتيكا تتعامل في الأغلب مع مقياس المدى المكاني. انظر **المقياس المؤقت**.

قانون متوالية المدى المكاني: صاغه جان تيريار وهو «من المدن ـ الدول عبر الدول ـ المساحات إلى الدول ـ القارات». والديناميكية الجغرافية للتاريخ السياسي تؤدي دون رحمة إلى تضخيم أبعاد التشكلات الاجتماعية الدنيا. انظر أيضاً «**المجال الحيوي**».

مغزى المدى: المصطلح لراتسيل. نظام التقديرات التاريخية المسبقة وقد صيغ في مدى نوعي. انظر **المدى**.

المدى: مفهوم الجيوبولتيكا الأساسي. وهو مقولة نوعية لا كمية. وطبيعة المدى تحدد مسبقاً طبيعة التاريخ (والسياسي بالدرجة الأولى). ذاك هو المنطلق الأساسي للجيوبولتيكا كعلم.

الجهوية: التوجه نحو الاستقلالية الذاتية **للآماد المكانية في الأطراف** له عدة أشكال ـ الاقتصادي، الثقافي، السياسي، والاستراتيجي.

الجغرافيا المقدسة: مجموعة التصورات عن المدى النوعي لدى القدماء. وتهتدي الجيوبولتيكا المعاصرة بمثل هذا الفهم النمطي **للمدى المكاني** إلا أنها تعبر عن ذلك بصيغة عقلانية علمية طبيعية.

النطاق الصحي: التشكلات الجيوبولتيكية المصطنعة العاملة على إشاعة اللااستقرار في الدولتين الكبريين المتجاورتين القادرتين على تكوين حلف جاد قادر بدوره على أن يمثل خطراً بالنسبة لطرف ثالث. وهو خطوة كلاسيكية في استراتيجية الأطلسيين في مواجهتهم للتكامل القاري في الأوراسيا.

الشمال: في الجغرافيا المقدسة (ولدى دويبلير أيضاً) رمز الروح والنظام المثالي. مرادف في الجيوبولتيكا المعاصرة لمفهوم **الشمال الغني** أي الأطلسية والليبيرالية، وهو ما يعدّ أمراً مخالفاً بصورة كلية للتعريف السابق.

مجلس العلاقات الدولية (CFR) منظمة عولمية نافذة، تعين وتراقب الكادرات القيادية ضمن النخبة السياسية للولايات المتحدة. تتصرف على أساس فوق حزبيّ إذ تختار الأعضاء من بين «الديموقراطين» ومن بين «الجمهوريين». تكونت سنة 1921 من طرف مجموعة من مصرفيي أسرة روكفلر. وهدف الـ CFR وفقاً لكلمات أحد أعضائها، كيرول كويغلي، العمل على «إلغاء الحدود القومية وإقامة الدولة العالمية» (المأساة والأمل) وقد كتب كويغلي عن مهمات الـ CFR ـ أمام قوى الرأسمالية المالية هدف بعيد ـ إقامة النظام العالمي للسيطرة المالية في أيد خاصة بحيث يكون قادراً على توجيه كافة العمليات السياسية والاقتصادية في العالم. وهذا النظام يجب أن يقام وفق المبدأ الإقطاعي حول المصارف العالمية المركزية التي تتفق سراً فيما بينها خلال اللقاءات والمؤتمرات السرية». ومنذ 1922 تصدر الـ CFR مجلة «Foreign Affairs». انظر أيضاً اللجنة **الثلاثية ونادي بيلديربيرغ**.

الاشتراكية: البناء الاقتصادي الذي تميل إليه الأوراسيا ميلاً عضوياً. وله صيغتان ـ الماركسية الديماغوجية وطيف عريض من النظريات الاشتراكية **للطريق الثالث** . وبفعل الاستنفاذ التاريخي للماركسية العقائدية يجب أن يبنى تطور الاقتصاد الأوراسي على نظريات متباينة الصيغة من اشتراكية **الطريق الثالث** . وهي تفترض الطابع الجماعي، التعاوني، الاجتماعي للبناء الاقتصادي نقيض الرأسمالية: انظر الرأسمالية.

السوسيوبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. دراسة الآفاق الاجتماعية للدولة.

المحيط المتوسط: (Midland Ocean) المصطلح لسبيكمان. المحيط الأطلسي إذا ما نظرنا إلى أمريكا الشمالية وأوروبا على أنهما مدى جيوبولتيكي واحد.

أوروبا الوسطى: مدى بيني يمتد بين روسيا والشاطىء الأطلسي لأوروبا. ينظر إليه تقليدياً على أنه منطقة خاضعة للتأثير الألماني على الغالب.

صدام الحضارات: المصطلح لهنتينغتون. نظرية ديمومة النزاعات على المستوى الحضاري واستحالة استبعادها.

العاصمة الاستراتيجية: (القطب الجيوبولتيكي أو مصدر الشعاع

الجيوبولتيكي) مركز التكامل الجيوبولتيكي والتفعيل الناشط للعملية الجيوبولتيكية الواسعة الأبعاد. أما العلاقات بين العواصم الاستراتيجية فتنهض بها **المحاور** الجيوبولتيكية.

اليابسة: انظر **الأرض**.

التالاسوكراتيا: من اليونانية «السلطة عن طريق البحر» أو «القوة البحرية». من خصائص الدول والأمم مع هيمنة الملاحة البحرية.

الاتحاد الجمركي: اتحاد تكتل من الدول المتقاربة في مظاهرها الاستراتيجية، الإتنية، الثقافية، الدينية أو غيرها في مدى تجاري، اقتصادي مع غياب الحواجز الاقتصادية الداخلية. انظر **الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى**.

التيلوروكراتيا: من اليونانية «السيطرة عن طريق البر» أو «القوة البرية» من خصائص الدول الكبرى ذات التوجه الجيوبولتيكي على اليابسة انظر **الأوراسيا، الـ** heartland، الإيديوكراتيا.

طوكيو: العاصمة الاستراتيجية الطبيعية للمدى الباسيفيكي.

البناء التجاري: نمط المجتمع الذي تنطلق فيه التراتبية وحوافز العمل من مبادىء اقتصادية. نظام السوق، الليبيرالية ـ الديموقراطية. عكس **الأيديوكراتيا**.

العالم الثالث: التسمية العامة للدول الضعيفة النمو، والتي تنتمي في غالبيتها إلى مناطق **الجنوب** الجيوبولتيكي.

الطريق الثالث: الثورة المحافظة. الإيديولوجيا العضوية للقطاع الأوراسي. (الاقتصاد اليساري+ السياسة اليمينية) وهي مفهوم انطلاقي لتحديد «الصحة السياسية» و«المركزية» في الأوراسيا. مناقض لليبيرالية. انظر **الليبيرالية، الليبيرالية ـ الديموقراطية**.

اللجنة الثلاثية (Trilateral, Trilateral comission) ـ منظمة عالمية معولمة ضخمة (انظر العولمة)؛ هيئة الأركان الاستراتيجية للتخطيط الحضاري للغرب. النواة التنظيمية للأطلسية. الهدف إقامة «النظام العالمي الجديد» و«الحكومة العالمية» تحت راية الولايات المتحدة، إدارة العالم عن طريق مجموعة من بين الأوليغارشية المالية. أسسها ممثلو العلاقات الدولية في الـCFR الأمريكي (انظر **مجلس العلاقات الدولية**) سنة 1973. ويرى ممثلو اللجنة الثلاثية أن «النظام العالمي

الجديد» ينبغي أن يؤسس على حيتان ثلاثة ـ على التوحيد بين الأوليغارشية المالية ـ السياسية في أمريكا ـ أوروبا ومنطقة الباسفيكي. ومنذ منتصف السبعينيات تقوم اللجنة الثلاثية بالتعامل المتبادل مع المنظمات السوفياتية (معهد الدراسات المنهجية للأكاديمي غويشياني) وبالإعداد الذهني لقاعدة «البيريسترويكا» و«الإصلاحات». وفي الوقت الحاضر تتعامل بفعالية مع السياسيين الديموقراطيين في روسيا، مع صندوق ـ غورباتشوف. انظر أيضاً **نادي بيلديربيرغ**.

طوران: المناطق الشمالية ـ الشرقية من القارة الأوراسية ـ الآماد السهبية في الأوراسيا.

الأصولية، التكاملية: الميول السوسيولوجية المعاصرة المتجسدة في التوجه نحو العودة المصطنعة للمجتمعات إلى قيم النظم التقليدية السابقة **للعصر الحديث**. وهي مميّزة للبلدان الإسلامية بصفة خاصة. وللأصولية الإسلامية صيغتان ـ السعودية والإيرانية. تتناقضان من حيث التوجهات الجيوبولتيكية. فالوهابية السعودية ـ أداة للأطلسية، أما الأصولية الإيرانية والموالية لإيران (الشيعة+ الصوفية) فتجسد عاملاً أوراسياً معادياً للأطلسية. وفي إطار الحضارة المسيحية تمثل الأصولية البروتستانتية عنصراً أطلسياً متطرفاً، والأصولية الأرثوذوكسية (وبخاصة ذات الطقوس السلفية وذات التعاليم الدينية الموحدة) عنصر أوراسي. ونجد تعددية مشابهة لدى المتدينين اليهود، فالحسيديّة والدوائر القبّالية تميل إلى المقياس الأوراسي. أما الميتناغيد والحاخاميون اليهود البسطاء ـ فإلى المقياس الأطلسي.

النظرة الحضارية: تطبيق النماذج المكثفة المجمعة التي تأخذ بالحسبان مجموعة العوامل أثناء التخطيط الاستراتيجي والتحليل الشامل. أسست الجيوبولتيكا على النظرة الحضارية.

المنطقة الرابعة: الاتحاد الجمركي الاقتصادي المحتمل الذي يجمع الدول الأوراسية الكبرى القارية مع المحور في روسيا. وبناؤه ـ هو المهمة الرئيسة للجيوبولتيكا الأوراسية مطبقة على الوسط الاقتصادي . انظر **الجيوبولتيكا**.

الثقب الأسود: المجال الأوراسي في نظريات الأطلسيين المعاصرين الجيوبولتيكية. المصطلح لزبيغنيف بجيزينسكي، الاستراتيجي الأكبر في المراكز

العولمية. (الـ CFR واللجنة الثلاثية وما إلى ذلك).

التكامل العرضاني: (التكامل وفق خطوط العرض) النقطة الأضعف والأكثر تعقيداً في ربط المجالات الجيوبولتيكية الخاضعة لسيطرة المركز. ويجب أن تتحقق بالحد الأقصى من الوسائل السلمية والدبلوماسية. أسست على الضم التدريجي للأقاليم المختلفة إلى الجزء المركزي عبر التدرجية في المدى المكاني للقطاعات الأكثر ولاء للمركز.

التوسع العرضاني: (التوسع وفقاً لخطوط العرض) اتجاه جيوبولتيكي عدواني، استراتيجية جيوبولتيكية هجومية الطابع. حافلة على الدوام تقريباً بالنزاعات المسلحة، ولا تطبق إلا بعد انتهاء التوسع وفق خطوط الطول.

نظرية الانعزالية الاقتصادية: مقولة الاقتصادي الأمريكي الكبير ج.م. كينْس. هي الشبيه العصري المحدَّث لنظرية الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى لفريدريخ ليست. انظر **الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى**. كينس كان يرى أن المشهد الاقتصادي للعالم يجب أن يجسد لا سوقاً ليبرالية متواصلة بل نظاماً من جزر اقتصادية تتمتع باستقلالية اقتصادية نسبية. ومن هنا جاءت تسمية النظرية (بـ «الـ insula» وهي باللاتينية «الجزيرة»). وكان الليبيرالي ف. فون هيك أشد خصوم كينْس تطرفاً.

الأيكوبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. النظرة إلى الدولة على أنها قوة اقتصادية. لم يحقق انتشاراً واسعاً.

الأثيروكراتيا: من اليونانية «السلطة عن طريق الطبقات ما فوق الأثير». هيمنة السلاح الكوسموسي. تطور للاتجاهات التالاسوكراتية والأيروكراتية.

الجنوب: هو في الجغرافيا المقدسة مناطق الفوضى، التداخل والانحلال. في الجيوبولتيكا المعاصرة هو العالم الثالث، الدول الضعيفة النمو، التي لم تتجذر فيها المبادىء الليبيرالية ـ الديموقراطية.

السلاح النووي: العامل الاستراتيجي الحربي، الذي تأسست عليه اللوحة الكراتوبولتيكية للعالم الثنائي القطب. كراتوبولتيكياً كان التعادل النووي ضمانة لنظام يالطا. انظر **صلح يالطا**. واحتفاظ روسيا بقدراتها النووية ضمانة لانبعاثها الجيوبولتيكي وواحد من العوامل الأهم لتحقيق المشروع الأوراسي.

صلح يالطا، يالطا: ـ على مستوى الحق الدولي ـ إقرار ذلك التوازن في القوى للقدرات الجيوبولتيكة، والذي تشكل بعد انتصار الحلفاء على دول المحور (ألمانيا الهتلرية، إيطاليا الفاشية وما إلى ذلك). وهو يمثل أنموذج العالم الثنائي القطب مع وضوح التعبير عن الفكرة الأساسية (الاشتراكية، الرأسمالية). وفي العصر الحاضر تميل بنية يالطا الكونية إلى التحلّل بطريقة متسارعة تاركة المجال «للنظام العالمي الجديد» (انظر **النظام العالمي الجديد**)، مع الهمينة الوحيدة القطب للأطلسية (انظر الأطلسية) والعولمة (انظر **العولمة**).

الـ Heartland: من الإنكليزية الأرض ـ القلب؛ انظر **المحور الجغرافي للتاريخ**. المصطلح لماكيندر.

الـ Hinterland من الألمانية: «الأرض الخلفية». الأراضي الممتدة في أعماق القارة عن الخطوط الشاطئية. المصطلح من خصائص التحليل **التالاسوكراتي** للمدى.

Jus Publicun Europeum: باللاتينية: «القانون الأوروبي العام» الجرد التاريخي للترتيبات القانونية التي نظمت العلاقات بين الدول في أوروبا.

Jus Publicum Euroasiaticum: باللاتينية «القانون الأوراسي العام» مشروع قانون دولي يمكن أن ينظم العلاقات بين البلدان والشعوب الأوراسية على أساس الاعتراف بأفضلية القيم **التيلوروكراتية** القارية.

Lenaland: بالإنكليزية ـ «الأراضي المجاورة لحوض نهر اللينا» المصطلح لماكيندر. يعني جميع الأراضي الأوراسية الشمالية الممتدة شرقي نهر الينيسي حتى شطآن المحيط الهادي. وكان ماكيندر في دراساته الأخيرة قد أولى هذه المنطقة اهتماماً خاصاً وعدّها أراضي لا تنتسب لمناطق تأثير **التيلوروكراتية بل التالاسوكراتية**.

Linkage: المصطلح لكيسنجر. استراتيجية أطلسية تهدف إلى ضم الحزام المتقطع من الأوراسيا للأراضي المتواصلة الخاضعة للغرب.

Mitteleuropa: بالألمانية **أوروبا الوسطى**.

One World: التصور العولمي للعالم الواحد. انظر أيضاً **نهاية التاريخ**.

Pax Americana: باللاتينية العالَم على الطريقة الأمريكية، نفس معنى **الأطلسية**.

Pax Euroasiatica: باللاتينية: العالم على الطريقة الأوراسية نفس معنى **الأوراسية**.

Pax Persica: باللاتينية العالم على الطريقة الفارسية. مشروع إعادة التشكيل الجيوبولتيكي لآسيا الوسطى تحت راية إيران مع التحالف مع روسيا.

الـ Rimland: بالإنكليزية «الأراضي الشاطئية» انظر **الهلال الداخلي**. المصطلح لماكيندر.

الهوامش ومراجع الكتاب

المدخل:

1) أشار كارك كورش إلى التشابه الواضح بين الجيوبولتيكا والماركسية سنة 1943، وذلك في كتابه «النظرات التاريخية لعلماء الجيوبولتيكا». (. . . .) تتسم المادية الجديدة لعلماء الجيوبولتيكا بنفس الطابع النقدي الفعال والمثالي (المعنى التقليدي للكلمة) الذي اتسمت به ما تسمى بمادية ماركس التاريخية في مراحلها الأولى. . . . ومثلما تطمح الماركسية اليوم إلى أن تحقق السيطرة الواعية على الحياة الاقتصادية في المجتمع، هكذا يمكن أن تعرّف «الهاوسهوفرية» الحالية بأنها محاولة السيطرة السياسية على المجال المكاني» أخذ المقتطف من : New Essays. 6T. 1943 ص 8 ـ 17.

الباب الأول

(1) См. Friedrich Ratzel, "Politische Geographie", 1887, "Einleitung".
(2) См. Ibidem
(3) См. Friedrich Ratzel "Ueber die Gesetze des raeumlicher Wachstum der Staaten", 1901
(4) См. Friedrich Ratzel "Das Meer als Quelle der Voelkergroesse", 1900
(5) См. Rudolf Kjellen "Die Staat als Lebensform", 1916
(6) См. Ibidem
(7) См. Ibidem
(8) См. Friedrich Naumann "Mitteleuropa", 1915
(9) Halford Mackinder "Geographical Pivot of History" in "Geograghical Journal", 1904. Русский перевод в ж-ле "Элементы. Евразийское обозрение", 1996, №7, стр. 26 —31
(10) H.Mackinder "Democratic ideals and reality", New York, 1919
(11) См. стр. 31 в "Элементы", №7, op. cit.
(12) См. стр. 31 в "Элементы", № 7, op.cit.
(13) См. H.M."Democratic ideals and reality", op. cit.
(14) См. Halford Mackinder "The Round Planet and the winning of the Peace", 1943
(15) См. Ibidem
(16) См. H.M."Democratic ideals and reality", op. cit.
(17) См. Alfred Mahan "The influence of Sea Power in history" (1660 — 1783)", 1890; на русском А.Мэхэн "Влияние морской силы на историю (1660-1783)", М.-Л., 1941
(18) См. Alfred Mahan "The influence of sea power upon the French revolution and empire (1793 — 1812)", Boston,1892; А.Мэхэн "Влияние морской силы на Французскую Революцию и Империю (1793 - 1812)", М.-Л., 1940
(19) См.Alfred Mahan "The Interest of America in Sea Power", 1897
(20) Alfred Mahan "Problem of Asia and its effects upon international politics",1900
(21) См. Alfred Mahan " The Sea Power in its relations to the war", Boston, 1905
(22) См. Alfred Mahan "The influence of Sea Power in history (1660 — 1783)", op. cit.
(23) Ibidem

[24]См. Albert K.Weinberg "Manifest Destiny", Baltimore, 1935
[25] См. Halford Mackinder "Geographical Pivot of History", op. cit.
[26] См.Alfred Mahan "The Interest of America in Sea Power", op. cit.
[27] Vidal de la Blache "Tableau de la Geographie de la France", Paris, 1903
[28] См. Vidal de la Blache "Principes de geographie humaine", Paris, 1921
[29] Nicholas Spykman "Geography of peace", 1942
[30] Ibidem
[31]N. Spykman "America's Strategy in World Politics"(1942)
[32] Op. cit.
[33] Karl Haushofer "Dai Nihon", Munich,1913
[34] Karl Haushofer "Kontinentalblocke:Mitteleuropa — Eurasia —Japon" in "Ausgewaehlte Texte zur Geopolitik", Boppard am Rhein, 1979; по-русски в "Элементы"№7, op. cit, стр.32-36
[35] Carl Schmitt "Der Nomos der Erde" , Koeln, 1950
[36] Carl Schmitt "Land und Meer", Leipzig, 1942
[37] Carl Schmitt "Politische Theologie", Munchen-Leipzig, 1922
[38] Carl Schmitt "Das Begriff des Politischen", Berlin-Grunewald, 1928; по-русски Карл Шмитт "Понятие политического" в "Вопросы Социологии", Москва, 1992, том 1, №1
[39] Carl Schmitt "Theodor Daueblers "Nordlicht". Drei Studien ueber die Elemente, den Geiste und die Aktualitaet des Werkes", Muenchen, 1916
[40] Carl Schmitt "Der Nomos der Erde", op. cit.
[41] Carl Schmitt "Die planetarische Spannung zwischen Ost und West", 1959 in "Schmittiana— III" von prof. Piet Tommissen, Brussel, 1991; по-русски см. Карл Шмитт "Планетарная напряженность между Востоком и Западом" в "Элементы", 1997, № 8
[42] Carl Schmitt "Raum und Grossraum im Volkerrecht", 1940; цит. по Julien Freund "Les lignes de force de la pensee politique de Carl Schmitt" dans "Nouvelle Ecole", № 44,Paris, 1987
[43] Ibidem
[44] Carl Schmitt "Staatliche Souveraenitaet und freies Meer" in "Das Reich und Europa", Leipzig, 1941
[45] Петр Савицкий "Географические и геополитические основы евразийства" в "Элементы" № 3, стр. 51-54
[46] П.Н. Савицкий "Степь и Оседлость" в "На Путях: Утверждение евразийцев", Берлин, 1922, стр. 341-356
[47] Ibidem

(48) Ibidem
(49) П.Н.Савицкий "Географический обзор России-Евразии" в сборнике "Мир России — Евразия", 1926, стр. 219 — 232
(50) Ibidem
(51) Ibidem

الباب الثاني

(1) D.W.Meinig "Heartland and Rimland in Eurasian History" in "West Politics Quarterly", IX, 1956 pp. 553-569
(2) Ibidem
(3) W.Kirk "Geographical Pivot of History", Leicaster Universal Press, 1965
(4) S.B. Cohen "Geography and Politics in a divided world", New York, 1963
(5) Ibidem
(6) Colin S. Gray "The Geopolitics of the Nuclear Era", N.Y., 1977
(7) Samuel Huntington "Clash of civilisations" in "Foreign Affairs", summer 1993, стр. 22-49
(8) Ibidem стр. 25
(9) Ibidem стр. 39
(10) Ibidem стр. 49
(11) Цит. по Paul-Marie de la Gorce "Washington et la Maitrise du Monde", "Monde Diplomatique" 1992, апрель 1992 № 457.
(12) Jack Attali "Lignes d'horizon", Paris. 1990
(13) См. Prof. Carlo Santoro "Progetto di ricarca multifunzionale 1994 - 1995 — I nuovi poli geopolitici", Milano
(14) Yves Lacoste "Dictionnaire Geopolitique", Paris, 1986
(15) Andre Siegfried "Tableau politique de la France de l'Ouest sous la Troisieme Republique", Paris, 1913
(16) Alain de Benoist "Les idess a l'endroit", Paris, 1979
(17) Jean Thiriart "L'Empire Eurosovietique de Vladivistok jusque Dublin", Brussell, 1988
(18) Jordis von Lohausen "Mut zur Macht. Denken in Kontinenten", Berg, 1978
(19) Ibidem
(20) Jean Parvulesco "Galaxie GRU", Paris, 1991
(21) Robert Steukers "La Russie, L'Europe et L'Occident" dans "Orientation" № 4 nov.-dec. 1983
(22) Carlo Terracciano "Nel Fiume della Storia" in "Orion", Milano, №№ 22 — 30, 1986 — 1987

(23) Л.Гумилев "Этногенез и биосфера земли ". Ленинград. 1990
(24) Francoise Thome "Eurasisme et Neo-Eurasisme" dans "Commentaire", ete 1994, № 66.

الباب السادس

1) نذكّر بأن الأرثوذوكس يرون أن الروح القدس ينبثق عن الأب فقط (وإن كان يصدر بالابن) بينما يؤكد الكاثوليك على أنه من الابن أيضاً، وfilioque باللاتينية تعني «ومن الابن».

2) ينبغي النظر بصورة منفصلة إلى الكنيسة الأرثوذوكسية الجورجية التي احتفظت باستقلالها النسبي عن الأتراك.

3) نشير إلى أن هذا نصٌّ كان قد كتب في كانون الأول سنة 1993 أي قبل عام واحد من حرب الشيشان.

الباب السابع

(1) Halford Mackinder "Geographical Pivot of History" in "Geograghical Journal", 1904.

2) تعرض هذا التصريح للنقد خلال النقاش الذي دار عقب قراءة التقرير. وعند إعادة النظر في هذا المقطع أراه مع ذلك مبرَّراً في منطلقه. فحتى اليوناني البيزنطي كان يمكن أن يكون غير ما هو عليه لو أن روما أخضعت مجموع اليونان القديمة. ومما لا شك فيه أن المُثل التي يدور حولها الحديث أقرب إلى البيزنطية منها إلى الهيلينية. لكنها رومانية لم تكن وهذا مؤكَّد (ملاحظة المؤلف).

3) تم دحض أطروحة ماكيندر خلال أقرب السنوات التي تلتها. فخلال الحرب العالمية الثانية أي بعد ما لا يزيد عن عشر سنوات أكدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها دولةً غربية أطلسيةً تتعارض مع قطاع الجيوبولتيكا الشرقي، الأوراسي، القاري والباسيفيكي. والخط الفاصل بين الشرق والغرب يمر بصرامة عبر المحيط الهادي وليس عبر الأطلسي بأية صورة. (المؤلف).

(4) ГАРФ фонд П.Н.Савицкого № 5783 (ред.)

5) كانون الأول 1982. نص هذه الرسالة سلّم إلى أ. دوغين من طرف المؤلف مباشرة سنة 1992. (التحرير).

(6) Carl Schmitt "Die planetarische Spannung zwischen Ost und West", 1959 in "Schmittiana— III" von prof. Piet Tommissen, Brussel, 1991 (ред.)

7) «سياسة الدول وجغرافيتها» (بالفرنسية)، الناشر.

8) يرى الكاثوليكي شميدت أن الـ Filique لا تزيد على أن تؤكد تثليث الإله وتعزز التوجه الأيقونوغرافي للعقيدة المسيحية، بينما يبدو له رفض هذا التجديد في **الكنيسة الأرثوذوكسية** تعبيراً عن محاربة الأيقونات ذات الروح المستمدة من العهد القديم. وهذه أطروحة خاطئة كل الخطأ، تدحضها حتى تلك الملاحظات التاريخية ومنها الانتشار الشامل للأيقونات وتمجيدها بين الشعوب الأرثوذوكسية، وبصفة خاصة في روسيا حيث لا تزال الأيقونة تلعب دورها الكلاسيكي في التطبيق الديني والتي ما لعبت دوراً يماثله في مراحل انتشار الكاثوليكية في أوروبا. وفضلاً عن ذلك كان إدخال الـ Filique بصفة خاصة تعبيراً عن تلك الوحدانية التجريدية واللاهوت العقلاني واللذين لا يشتركان في أي شيء مع فرض اكتمال التثليث وأسبقية الصورة. لمزيد من التفصيل في هذا الخصوص انظر أ.دوغين «ميتافيزيكية البشارة» (المؤلف).

9) استخدم ماكيندر في البداية مصطلح «Pivot area» المنطقة المحورية، وفيما بعد مصطلح Heartland «الأرض القلبية» (المؤلف).

10) النوموس خاصية أساسية بالنسبة لكارل شميدت ومحور نظريته في التاريخ والحق والجيوبولتيكا. يُسمي دراسته الأهم «Der Nomos der Erde». والنوموس في اليونانية verbum occasionalis من فعل nomein الذي يعني أخذ امتلك، اقتسم وزّع، بنى وما إلى ذلك، ومن الناحية الإيتمولوجية يطابقه الفعل الألماني nehmen و Nahme أي «أخذ» و«مأخوذ» وقريب في النسب من كلمة Nahme أي الاسم. وأقرب ما يعكس هذه الفكرة في اللغة الروسية كلمة "иметь" والكلمة السلافية القديمة"имать" «أخذ» ومنها "имя" «الاسم»، "имущество" الملكية "имение" الممتلكات، ومنها "поднимать"- رفع - "перенимать" قَبَس - "отнимать" انتزع، وحتى "понимать" فهم (قارن

saisir الفرنسية أمسك ـ التقط، أخذ، فهم) وهي قريبة بشكل ما من معاني مفردات "делить" ، قسم، "надел" قسمة نصيب، "доля"حصة، نصيب (بمعنى الملكية والمصير). وفكرة النوموس ـ فكرة البنية المضبوطة المميّزة بالنسبة لخاصية التنظيم التاريخي الإنساني للمجتمع، والأسرة، التراب، الحق، وما إلى ذلك، ويمكن ربط مفهوم «النوموس» عند شميدت بمفهوم «البنية» عند البنيويين الفرنسيين، وليس لنا في هذه الحالة استثناء أن يكون الانتحال مباشراً (من طرف الفرنسيين بالطبع) ومعروفة حقيقة التأثير الملموس الذي تركه شميدت على الهيغلي الأوروبي الأعظم الكسندر كوجيف والذي كان بدوره أستاذاً لماركوزي (المؤلف).

11) «الحرب الروحية قاسية كقسوة الحرب البشرية» (بالفرنسية).

12) كان يمكن لشميدت بدوره أن يتهم بكراهية الروس القائمة على خرافات مماثلة (في الحساب الأعظم) في تهافتها وتنحدر من مصدر آخر. من انتمائه الطائفي للكاثوليكية وإضفائه صفة الإطلاق الجيوبولتيكي على أوروبا الوسطى. وكان أرمين ميلير في كتابه المتألق «الثورة المحافظة في ألمانيا 1918 ـ 1932» قد بيّن بطريقة مقنعة أن التوزيع الجيوبولتيكي لأوروبا إلى مناطق ثلاث ـ أوروبا الغربية (انجلترا وفرنسا)، أوروبا الوسطى (ألمانيا والنمسا)، أوروبا الشرقية (روسيا) ـ أن يعتمد على أساس التقييمات الثقافية للجيران القاطنين هذه المناطق الثلاث. فالألمان بالنسبة للأنجليز والفرنسيين برابرة خرجوا لتوهم من الغابات، «هوْن» أحفاد أتيلا المتوحشون. وأمثال هؤلاء البرابرة بالنسبة للألمان هم الروس. أما بالنسبة للروس فالألمان الذين يبدون للفرنسيين والإنكليز برابرة ـ هم أشخاص آليون، حَمَلة للحضارة والثقافة الغربية المصفّاة (أي أوروبيون كلاسيكيون مبالغ في أوروبيتهم) بينما يتهم الألمان الفرنسيين والإنكليز بانعدام الحيوية والإلهام التاريخي. وعلى فكرة فإن هذا التنميط الجيوبولتيكي للأتنوسات الأوروبية قد حدد مسبقاً التصور عن «الشعوب الفتيّة» (الذي استقاه الثوريون الألمان المحافظون عن دستويفسكي) الذي كان يقْصر هذه الصفة على الروس والألمان. وبكلمة أخرى فإن مآخذ البربرية كان يمكن أن تُفهم من زاوية إيجابية أيضاً على نحو ما كان مفهوماً في المعسكر المحب للروس (والبروسي منه على الأغلب، البروتستانتي منه والوثني) ضمن الثورة **المحافظة في ألمانيا**، التي كان يعود إليها آرثور موللر ڤان دين بروك، أوسوالد شبينغلر وبخاصة إيرنست نيكيش والوطنيون البلشفيك. ولكن

بغض النظر عن البغضاء نحو الروس فشميدت جدير بإجلال الروس، وبدراستهم له، وعلى نحو ما فعله نفسه، وهو الألماني الشديد التعصب، إذ يصفح بكل بساطة وفي سبيل الخدمات العقلية عن بغضاء الإنكليزي كولّينغوود للألمان (المؤلف).

13) لا توجد في الروسية كلمتان تعبران عن المصطلحين الإنكليزيين «answer» و «response». ونحن نترجمهما في هذا السياق بـ «الجواب» و«الاستجابة» فالمصطلحان يعنيان «الرد» وعلى فكرة فلا وجود لمثل هذا التفريق في الألمانية أيضاً بحيث إن شميدت يستخدم في نصه المصطلح الإنكليزي «response» في كل مرة يشير فيها إلى توينبي ويستخدم الكلمة الألمانية «Antwort» عندما يعني كالينغوود ضمناً. ووجود المصطلحين في اللغة الإنكليزية نفسها لا يفسر بالانقسام الدلالي بل بالازدواجية الرومانية (response) للكلمة الجرمانية (answer) وفيما بعد آثرنا في الترجمة الروسية نقل الكلمتين بـ «الاستجابة»، لكي لا نثقل النص مصطلحياً (وبخاصة أننا استعرضنا اصطناعية هذا الفرق) فـ response كرد استجابة على تحدي التاريخ في ميدان أكثر تجرداً من التصورات الطبيعية العلمية والتي لم تتحرر منها تصوّرات كالينغوود حتى النهاية. وعلى فكرة فإن شميدت نفسه يشرع باستخدام المصطلحين كمترادفين مختاراً هذا المصطلح أو ذاك وفقاً لتصورات أسلوبية الطابع. والأمر نفسه يمكن قوله حول المصطلحين «السؤال» و«التحدي». question وchallenge. وفي هذه الحالة يفضل شميدت بصورة واحدة تقريباً كلمة «تحدٍ» التي يترجمها مرة بـ Ruf Anruf، الألمانية وتارة يتركها في صيغتها الإنكليزية الأولى challenge وفي الأدبيات الفلسفية الروسية درجت ترجمة هذا المصطلح دوماً بـ «التحدّي» (المؤلف).

14) هذه الصيغة «The World and the West» (والتصور الجيوبولتيكي المتضمن فيها) يتداعى بصورة واضحة مع دراسة صموئيل هنتينغتون «Clash of civilisations» والذي تتخذ إحدى فصلاته عنوان «The West and the Rest». والمحافظ الأمريكي هنتينغتون، يخضع كما هو واضح لتأثير توينبي ومن البين أنه يعد نفسه امتداداً له (المؤلف).

15) إشارة واضحة إلى أوسوالد شبينغلر الذي واجه بين الحضارة والثقافة.

16) من هذه الأطروحة نستنبط بكل بساطة اللحظات الأساسية للنظرية اللينينية «**الامبريالية كأعلى مراحل تطور الرأسمالية**» والمبادىء المؤسسة لنظرية «**أوتوقراطية المجالات الكبرى**» (وبصفة أوسع «القومية الاقتصادية») لفريدريخ ليست. ومما يثير الفضول أن الثوريين المحافظين الألمان من الناحية العملية قد استنبطوا من تطوير أطروحات ليست نفس الاستنتاجات التي استنبطها لينين من هيغل وماركس. وفي الحالتين كان الحديث يتناول النضال الكوني المعادي للامبريالية في سبيل «حقوق الشعوب» ضد الاستعمار الأنجلو ساكسوني التالاسوكراتي. وعلى فكرة فقد كان كارل شميدت المنظر الرئيسي لـ «حقوق الشعوب، أما الاستخدام الجيوبولتيكي لهذا المبدأ وتطويره فمن سمات هاوسهوفر (المؤلف).

بديلاً عن الخاتمة

1) من المستطرف دراسة المغزى الجيوبولتيكي لرمزية «النبي الكذاب» أو «الوحش الآخر». وقد جاء في سفر الرؤيا ما يلي: «ورأيت وحشاً آخر طالعاً من الأرض» (رؤيا 13 ـ 11) أي إن هذا الوحش الآخر ينتمي إلى اليابسة. ولكن يتم التوكيد في الموضع نفسه على أنه «يعمل بكل سلطان الوحش الأول» (رؤيا 13 ـ 12). وبكلمة أخرى فالحديث يدور حول «روح اليابسة»، الذي انتقل إلى جانب عفوية البحر، إلى جهة لوياثان وكما إن «الوحش الطالع من البحر» يمثل الشيطان ـ التنين وهو بديله (أي إن الأطلسية هي التعبير التاريخي عن الشر الكوني) فإن «الوحش الآخر» أو «النبي الكذاب» هو بدوره ممثل «الوحش الخارج من البحر» أي بديله. فاللوبي الأطلسي في الدول الكبرى فوق اليابسة يؤدي هذه المهمة بالذات.

(2) См. Жан-Марк Вивенза "От формальной доминации капитала к его реальной доминации", "Элементы" N 7.
(3) См. ж-л "Милый Ангел" N 1, Москва, 1991
(4) См. Рене Генон "Царство количества и знаки времени", Москва, 1994.

فهرس عام

ـ أ ـ

آبليو (رايمون) 189
آخر البشر 541
آرنرت 84
آريانا ڤايدْجا 532
الآريون القدماء 532
آستراخان 401
آسـيـا 86، 104، 129، 137، 154، 168، 196، 217، 235، 248، 275، 289، 346، 348، 411، 424، 489، 491، 552، 554، 556، 558، 560، 562، 564، 565، 566، 569، 572، 573، 574، 575، 577، 578
آسيا الإسلامية 416
آسيا الأمامية 292، 377
آسيا البراهيكيفالية 559
آسيا الروسية 216
آسيا الشرقية 324، 611
آسيا الصغرى 287، 291، 561، 562، 573، 580
آسيا الفقيرة 544
آسـيـا الـوسـطـى 154، 214، 286، 289، 290، 291، 292، 294، 296، 308، 322، 324، 377، 378، 395، 396، 404، 405، 406، 407، 410، 411، 491، 492، 495، 522، 563
الآسيويون 556
الآسيويون الروس 348
الآثار 556
الآفاق الاستراتيجية لروسيا 224
الآفاق الاقتصادية للامبراطورية الجديدة 327
آفاق الحرب الأهلية 497
الآفاق العسكرية للامبراطورية 310
الآفاق القارية «للثورة الإسلامية» 491
آكلة للحوم البشر 111
آل أوبرينوڤتش 456
الآلان 93
الآلهة 537
الآماد البحرية الأطلسية 265
الآماد الشاطئية 216
الآماد غير المأهولة 78
الآماد الكبرى 179، 190، 310
آماد ياقوتيا القارية 376
آمور (منطقة) 388
آمورسكي 389
آميري (المستر) 569
آيدوهيا 534
أب الأطلسية 110
الأباطرة الروس 417
أبخازيا 249، 291، 403
الأبخازيون 401
الأبدية 533
الإبراهيمية 528
الأبطال (والباعة) 132، 260
ابن الهلاك 449، 450
أبناء روسيا الكبرى 127
أبليو (ريمون) 187
أتاتورك (كمال) 455، 492
أتالي (جاك) 169، 170، 178، 201
الاتحاد البانأفريقي 295
الاتحاد الجمركي 643، 653
الاتحاد الجيوبولتيكي 515
الاتحاد الروسي ـ الألماني 269

الاتحاد السوفياتي 64، 92، 95، 98، 101، 106، 116، 134، 137، 140، 144، 146، 147، 150، 151، 152، 153، 154، 156، 157، 167، 172، 181، 184، 186، 200، 202، 211، 217، 224، 226، 238، 245، 247، 248، 249، 250، 253، 255، 258، 259، 276، 278، 285، 293، 310، 315، 316، 319، 320، 321، 329، 367، 340، 422، 423، 425، 473، 447، 480، 484، 498، 501، 503، 531، 544، 571، 581، 586، 588، 589، 590، 591، 627
الاتحاد السوفياتي والأوراسية 132
الاتحاد الفيدرالي 164
الاتحاد الكاريلو ـ فنلندي 367
الأتراك 292، 446، 453، 455، 458، 564
الاتفاق بين ألمانيا وفرنسا 71
الاتفاقيات الثنائية 72
اتفاقية وستفال فرنسا 582
الأتنو ـ دينية 305
الاتنوثقافية 436
الأتنوس 234، 300، 419
أتنوس أرثوذوكسي 438
الأتنوس الروسي 503
الأتنوس الصربي البلغاري 510
الأتنوس الكاريلي 364
الاتنوكراتية 210
الاتنولوجيا 70
الاتنية الضيقة 211
أتيلا 556
الأثرياء الجدد 506
الأثيروكراتيا (سلطة الأثير) 155، 156، 167، 625، 626، 655
أثينا 60، 259، 398، 399، 601
الإجهاض 303
احتلال الأراضي السلافية 115
احتياطي الاحتياطيات 359
الحرب الأهلية 501، 502، 503، 505، 506، 507، 508
أحزمة متقطعة 149
أحفاد الفارياغ 583
اختطاف أوروبا 596
الاختلاف في الرأي 146، 147، 181
الاختلافات 261
أخروميين 171
إخضاع الولايات المتحدة الأمريكية للعالم 98
الأخلاق التنويرية 246
الإخلال بتوازن القوى 568
أخوة الشعوب 578، 579
الإدارة الاستعمارية 229
الإدارة الشمولية 327
الإدارة غير العقلانية 169
الأدب الفني الجيوبولتيكي 188
أذربيجان 291، 401، 404، 405، 491
أذربيجان الجنوبية 402، 405
إرادة العمل المشترك 579
الأراضي الحرة 413
الأراضي الساحلية 210
الأراضي الشاطئية 657
الأراضي المجاورة لحوض نهر اللينا 656
أرباتوف 171
ارتباط الإنسان بالمكان 59
ارتساخ 291
ارتسامات 92
أرتور 137
الأرثوذوكس (الأرثوذوكسية) (الأرثوذوكسيون) 245، 251، 291، 302، 425، 430، 431، 435، 436، 446، 447، 448، 449، 450، 453
الأرثوذوكسية بعد البيزنطية 448
الأرثوذوكسية الروسية 252، 302، 463
الأرثوذوكسية اليونانية 448، 450، 451
أرخانفلسك (إقليم) 358، 360، 369، 370، 371، 402
أرسوا 535
الأرض: (أو اليابسة) 646، 653
الأرض ـ البحر 524
الأرض البحرية 524
الأرض البيضاء 533
الأرض الجديدة 370
أرض الجنة 528
الأرض الخضراء 528
الأرض الخلفية 656
أرض الروح 528
أرض فرانس يوسف 370
أرض القلب (Heartland) 86

أرض اللاأحد 371
الأرض المتوسطة 135، 601
الأرض المجهولة 546
الأرض المشتركة 524
أرض الموت 528
أرض الميعاد 358
أرض نهر اللينا 368
الأرض والبحر 118، 121، 604
الأرض والماء 625
الأرمن (شعب آري) 290، 291، 292، 402
أرمينيا 229، 291، 401، 404، 405
الأرواح الشريرة 588
الأرواح المقدسة 119
الأريان (الغربيون) 406، 600
الازدهار 331
الأساطير الهند أوروبية 631
أساطين السوق 71
الإسبان 599
إسبانيا (الكاثوليكية) 138، 265، 465، 565، 583، 613، 633، 637، 638
أسبورن (هنري) 164
استحقاقية البديل الجذري 221
الاستراتيجية 310
الاستراتيجية الأمريكية في السياسة العالمية (كتاب) 107
استراتيجية الأناكوندا 641
الاستراتيجية التالاسوكراتية 350
استراخان 402، 403
استصلاح أراضي وادي النيل 608
الاستعمار الإنجليزي 278
الاستعمارية 228
الاستقلال 269، 315، 489
الاستقلال الجيوبولتيكي 423
الاستقلال الحقيقي 488
الاستقلال الذاتي 337، 361، 367، 417، 437، 484، 504، 505
الاستقلال الوطني للدولة 476
الاستقلالية الاستراتيجية 364
الاستنساخ التجريدي 335
الاستهتار 212
أستونيا (الأستونيون) 425، 427، 484
الاستيطان 388، 389
إسرائيل (دولة) 589
أسرة آل رومانوف 251، 252، 253، 255، 257، 453
الأسرة الأطلسية 108
أسرة أوبرينوفتش 456، 457، 459
أسرة تسين 413
أسرة ستيوارت 613
أسرة كاراغيورغيفتش 456، 457
أسرة نيمانيتشي 456
الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا 571
الأسس الجيوبولتيكية المؤسسة 165
أسس فلسفة الحقوق 620
أسطول البحر الأسود 316، 317
الأسطول البحري الحربي 315
أسطول البلطيق 316
الإسكندر المكدوني (الكبير) 399، 564، 586، 603
اسكندنافيا 354
الأسكيمو 357، 527، 536
الإسلام 382، 410، 411، 417، 431/ 489، 491، 528، 542، 562، 597، 635، 637
الإسلام الإيراني 292، 491
الإسلام العربي (غير الاشتراكي) 491
الإسلام القاري 493
الإسلامية 209، 587
الأسلحة 312
الأسلحة العابرة للقارات 315
الأسلحة الفضائية 314
إسماعيل 400
الإسماعيليون الباداخشانيون 411
الاشتراكية 71، 168، 227، 250، 327، 332، 333، 428، 476، 506، 531، 628، 652
اشتراكية الاتحاد السوفياتي 212
الاشتراكية الإسلامية 200، 287
الاشتراكية ذات النمط القومي 332
الاشتراكية الفلاحية 278
الاشتراكيون 261، 466
الإشعاعات المنطلقة 351
الأشعة الجيوبولتيكية 369، 378
الأشعة المفتوحة 393

الأشنيات 354
أصالة الثقافة الروسية 214
أصل البشرية 635
إصلاحات بطرس 236
الإصلاحات الليبرالية 333
الإصلاحيون 221، 222، 327، 507
الأصولية 192، 289
الأصولية الإسلامية (الإيرانية) 200، 287، 290، 293
الأصولية التكاملية 654
الأصوليون الإسلاميون 531
الأصوليون المؤيدون لإيران 292
الأطراف 650
أطروحة هنتينغتون 162
أطلس أوكسفورد 555
الأطلسي (الأطلسية) (الأطلسيون) 110، 153، 156، 157، 159، 248، 257، 278، 279، 292، 316، 325، 329، 375، 399، 425، 515، 519، 530، 540، 568، 634، 641
الأطلسية البحر 647
الأطلسية الجديدة 157، 649
الأطلسية المعاصرة 148
الأطلسيون ينظرون إلى العالم الإسلامي كعدو محتمل 286
الأطياف 196
إعادة التربية 359
الأعداء المحتملون 311، 312، 318، 345
الأعراق الميتافيزيكية 539
الاغتراب في الاشتراكية 327
الأغنياء 329
أفران الفحم الحجري 618
أفريقيا 86، 104، 147، 190، 228، 292، 296، 323، 552، 563، 569، 585، 591
أفريقيا الجنوبية 537، 559، 565، 568
أفريقيا الشمالية 107، 292
أفريقيا العربية 293
أفريقيا الغربية 286، 535
أفريقيا الوسطى 559
أفضلية القدرة النووية والعابرة للقارات 310
الأفغان 410
أفغانستان 147، 148، 154، 217، 248، 290، 294، 313، 395، 405، 406، 407، 410، 416، 492، 502، 583
إفلاس الأطلسية 307
إفلاس الامبراطورية السوفياتية 246
أفلاطون 601
إقامة الحكومة العالمية 144
اقتصاد: الطريق الثالث 244
الاقتصاد الجهوي 336
الاقتصاد السوفياتي 335
الاقتصاد السياسي الكلاسيكي 619
الإقليم 465
إقليميّة اليمينيين واليساريين 466
الإقليميون الجدد 469
الإقليميون اليمينيون 467، 469
اكتشاف أمريكا 445، 621
الاكتفاء الذاتي 153، 322، 324، 328، 361، 363، 367، 404، 413، 476، 500، 504، 641
الاكتفاء الذاتي الاقتصادي للمجالات الكبرى 329
الاكتفاء الذاتي للآماد الكبرى 182
الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى 331، 333، 643، 653، 655
أكتيوبينسك 378، 383
الأكراد 291، 402، 404
الإكسسوارات المسيحية 599
أكفيليا 556
الألاسكا 568
الألبان 430، 448، 451، 453، 457
الألبان البكتاشيون 459
الألبان السنّة 459
الألبان الكاثوليك 459
الألبان المترّكون 459
ألبانيا 460
ألبانيا الأرثوذوكسية 459، 460
ألبانيا السوفياتية 460
ألبير (ميشيل) 334
ألبيرت 112
الألتاي (جمهورية) 378، 378، 383، 387، 396، 418
الإلحاد 246، 250
الألعاب النارية 618
إلغاء الملكية الخاصة 167
ألفاً (سافيتسكي) 194

ألكسندر الأكبر 239
ألكسندر الأول 237، 253
الألمان 83، 104، 115، 116، 136، 139، 257، 265، 267، 273، 278، 296، 582، 587، 592، 621
الألمان الفتيان 83
ألمانيا 64، 69، 71، 81، 82، 84، 91، 100، 101، 103، 104، 111، 114، 116، 128، 133، 134، 137، 140، 181، 186، 190، 208، 240، 259، 265، 267، 268، 269، 273، 273، 274، 277، 284، 290، 295، 320، 321، 331، 333، 338، 354، 423، 425، 427، 431، 437، 439، 440، 456، 465، 483، 484، 487، 489، 499، 510، 511، 512، 513، 515، 519، 521، 540، 557، 568، 569، 582، 583، 584، 585، 588، 589، 591، 628
ألمانيا الجنوبية 554
ألمانيا الجنوبية ـ الغربية 133
ألمانيا الشمالية 554
ألمانيا الغربية 588، 590
ألمانيا القارية 98
ألمانيا ـ قلب أوروبا 483
ألمانيا الكاثوليكية 461
ألمانيا المحايدة 248
ألمانيا الهتلرية 585، 586، 587
ألمانيا الوطنية الاشتراكية 331
الألمانيات ـ الدمى 588
الإله 528
الإله أبولون 533
أم الله الطاهرة 599
الأم الكبرى 536
الامبراطوريات الثانوية 295
الامبراطوريات المقدسة 236، 241
الامبراطورية 123، 226، 228، 230، 233، 238، 241، 258، 262، 298، 299، 301، 305، 312، 316، 334، 336، 586، 646
امبراطورية آسيا الوسطى 290، 291، 295
امبراطورية آسيا الوسطى المشروع العروبي 286
الامبراطورية الآسيوية 286
امبراطورية الآماد الكبرى 296
الامبراطورية الأرثوذوكسية 448
الامبراطورية الإسلامية 287
امبراطورية الأطلسي 189
امبراطورية ألكسندر الأكبر 239
الامبراطورية الألمانية 554
امبراطورية الامبراطوريات الكثيرة 294
الامبراطورية الإنجليزية 453
الامبراطورية الأورو ـ سوفياتية 183، 184، 192، 213، 592
الامبراطورية الأوراسية 261، 264، 274، 294، 301، 306، 307، 314، 472، 486
الامبراطورية الأوراسية الجديدة 262، 266
الامبراطورية الأوروبية 182، 267، 268، 274، 287، 293، 296، 481، 484
الامبراطورية الإيرانية 290
الامبراطورية البريطانية 569
امبراطورية بطرس 231
الامبراطورية البيزنطية 446، 463
الامبراطورية الجديدة 238، 251، 256، 257، 258، 259، 260، 265، 267، 276، 279، 283، 285، 286، 290، 294، 296، 298، 299، 306، 307، 310، 334
امبراطورية جنكيزخان 526
الامبراطورية الجيوبولتيكية (القارية) 298، 305
امبراطورية الختام الأوراسية 187، 189
امبراطورية الخلافة العربية 526
الامبراطورية الروسية 100، 226، 233، 255، 256، 274، 295، 309، 473، 570
الامبراطورية الرومانية المقدسة (العظمى) 483، 511، 554
الامبراطورية السوفياتية 238، 247، 257، 294، 586
الامبراطورية العثمانية 226، 244، 448، 453، 455، 456، 457، 459، 492، 510، 568
الامبراطورية العظمى 300
الامبراطورية الفيدرالية (للأمم) 180، 299
الامبراطورية القادمة... 256
الامبراطورية القارية 260، 587
الامبراطورية الكونية الجديدة 296
الامبراطورية المتوسطة 207، 412
امبراطورية المحيط الهادي 295
امبراطورية موسكو الأوراسية 429
الامبراطورية النمساوية المجرية 64، 266، 436، 453، 471، 512، 513، 518

امبراطورية النهاية 241
امبراطورية النيمانيتشي 399
امبراطورية هابسبورغ 483
امبراطورية واحدة 182
الأمركة 412، 486، 489
أمـريـكـا 76، 94، 98، 100، 101، 150، 153، 154، 202، 216، 267، 284، 285، 425، 479، 483، 560، 565، 572، 595، 602، 637
أمريكا الأطلسية 210
أمريكا الجنوبية 147، 569، 552
أمريكا الشمالية 159، 334، 525، 530، 552، 562، 572، 592
أمريكا اللاتينية 161، 422، 495
الأمريكيون (الأمريكان) 98، 114، 280، 331، 582، 592
الأمم المتحدة 172
الأممية 249، 250
الأمة 235
الأمة - هي الكل... 304
أمورسل 383
أمورسكايا (منطقة) 373
أنادير 373
الأناضول 393
الأناكوندا 101، 147، 149، 154، 202، 289
الأنانية 538، 541
الأنانية الاقتصادية 647
الأنانية الإقليمية 214
الإنتاج 95
الأنتانتا 82، 90
الانتحار الجماعي 316
الانتحار الجيوبولتيكي 253
الأنتروبوجغرافيا 76، 81
الأنتروبولوجيا (الأنتروبولوجيون) 58، 559
الأنتروبيا 533
انتصار التالاسوكراتيا 65
الانتصار الجيوبولتيكي 158
الانتصار العالمي للغرب 167
انتصار الماء 639
أنجيا أتنوس 382
الإنجل 556
إنجلترا 64، 69، 82، 83، 98، 100، 104، 112، 114، 116، 177، 216، 217، 253، 259، 265، 266، 269، 277، 283، 284، 320، 334، 354، 412، 420، 421، 452، 453، 461، 481، 487، 511، 512، 515، 540، 553، 556، 558، 583، 584، 588، 590، 602، 612، 613، 615، 620، 637
إنجلترا الاستعمارية 289
إنجلترا البحرية 585
إنجلترا تاتشر 591
الأنجلوساكسوني (إنجلترا + أمريكا) 124
الأنجلوساكسونية (الأنجلوساكسون) 115، 277، 540، 547، 629، 633
الإنجليز 115، 289، 540، 587، 592، 615، 617، 618
الانحسار الاقتصادي 331
انحلال الغرب 199
الاندفاعية (الأوراسية) 194، 650
أندونيسيا 190، 377، 418
الأنسام الحداثية 455
الأسامبل الجيوبولتيكي 343
الإنسان 102، 103
الإنسان الاقتصادي 58
الإنسان الجديد 593
إنسان الجنوب 536
إنسان الشمال 535
الإنسان الشمسي 535
الإنسان العادي 593
الإنسان مخلوق أرضي 189
الإنسان المدوي 58
الإنسانية 238، 467
أنسنة ابن الله 609
إنشاء 581
الانشقاق بين الكنيستين 600
الانشقاقية 181
أنصار اليونان الكبرى 455
الأنطولوجيا 76، 604
انعدام وجود الدولة 235
الانعزالية (الانعزاليون) 210، 421، 422
الانفتاح 240
الانفتاح على الشرق 115
الانفصالية 351، 577
انفصالية الأقاليم 504

الانفصالية التتارية 381
الانفصالية التركية ـ الإسلامية 382
أنكلافات إثنية 305
الأنموذج اليعقوبي 182
انهيار الاتحاد السوفياتي 158، 169، 213، 242، 246، 334، 395، 474
انهيار الامبراطورية التركية 456
انهيار الامبراطورية السوفياتية 230، 250، 306، 504
انهيار بيزنطة 448
انهيار الفيدرالية الروسية 473
انهيار المعسكر السوفياتي 628
انهيار المعسكر الشرقي 260، 627، 629
انهيار (الولايات المتحدة) 593
الأنواع الجيوبولتيكية الثلاثة 465
اهتمام أمريكا بالقوة البحرية 100
الأهرامات 608
أهريمان 532
أهل البحر 606
أهل تسالونيكي 446
أهل الجنوب 536
أهل الشمال 535، 536، 537
أهورامزدا 532
أوب = نهر أوب
أوتريخت 613
الأوتوختون 357
أودمورتيا 381
أوديسا 436، 437، 566
الأوراسيا ـ الأرض المتوسطة 126
الأوراسيا (الأوراسيون) 61، 69، 87، 101، 106، 115، 126، 127، 128، 129، 131، 134، 147، 187، 190، 192، 231، 233، 267، 279، 301، 360، 396، 420، 423، 425، 439، 565، 574، 575، 579، 635، 646، 657
الأوراسيا (الأوراسيون) الجدد 136، 149، 194، 197، 202، 529
الأوراسيا «بؤرة تطور» 196
الأوراسيا: هي القارة الـ(heartland)، اليابسة 646
الأورال (الموغوجاري) 214، 237، 371، 377، 378، 390، 471، 558، 571، 577
أورجانيكيدزي 403
الأورو ـ آسيا 562، 563، 567، 568
الأورو أفريقيا 292، 324
أوروبا 69، 76، 82، 86، 98، 100، 104، 107، 108، 110، 114، 128، 129، 130، 146، 153، 165، 168، 172، 174، 178، 180، 184، 190، 192، 199، 202، 203، 204، 217، 233، 235، 236، 248، 252، 265، 266، 268، 269، 285، 293، 319، 322، 323، 328، 334، 384، 420، 421، 422، 423، 424، 426، 441، 453، 483، 492، 493، 510، 511، 515، 517، 520، 521، 552، 553، 554، 557، 558، 559، 560، 561، 564، 565، 566، 568، 571، 572، 573، 574، 575، 578، 588، 590، 599، 618، 628، 634
أوروبا الأمامية 573
أوروبا امبراطورية الأربعمئة مليون نسمة 581
أوروبا الأوراسية 324
أوروبا الجرمانية 583
أوروبا الجنوبية 515
أوروبا الرايات ـ المئة ـ آلين دي بنوا 179
أوروبا الروحية 547
أوروبا الشرقية 106، 115، 148، 153، 161، 196، 269، 273، 425، 430، 435، 437، 484، 610
أوروبا العظمى 586
أوروبا الغربية 83، 91، 108، 148، 151، 153، 154، 159، 167، 265، 316، 420، 433، 440، 446، 458، 489، 540، 565، 566، 581، 588، 589، 590
أوروبا الفتية 182، 190
أوروبا القارية 284
أوروبا قبل كل شيء 181
أوروبا المتوسطة 519
أوروبا المحايدة 424
أوروبا المركزية 429
أوروبا من الأطلسي إلى الأورال 144
أوروبا من ڤلاديڤوستوك حتى دوبلن 182
أوروبا من ڤلاديڤوستوك حتى فليسينغ 133
أوروبا الموحدة (ذات المئة راية) 180، 581
أوروبا هي أرض المعركة الأبدية 589
أوروبا الوسطى (ألمانيا) 81، 83، 101، 137، 181، 186، 190، 214، 253، 265، 266، 267، 275، 277، 284، 290، 293، 295، 306، 312، 318، 424، 427، 428، 430، 436، 437، 439، 440،

459، 461، 484، 485، 486، 487، 489، 491، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 559، 583، 610، 652
الأوروبات 588
الأوروبيون 100، 517، 565، 618
الأوروغرافية 577
أورويل (جورج) 187، 593
أوريانتاسيون 189
أورينبورغ (مقاطعة) 382، 383
أوزبكستان 395، 406، 407، 492، 571
الأوزبيك 410
أوست 383
الأوستازيا 187
أوستراليا 190، 418، 552، 560، 565، 568
أوستربيك 642
أوستريالوف (نيكولاي) 134، 199
أوسيتيا الموحدة 403
الأوغر 357، 382
أوفاروف 253
أوكرانيا 150، 214، 275، 300، 395، 397، 400، 425، 430، 431، 432، 433، 436، 438، 484، 502، 521، 572
أوكرانيا الشرقية 435، 436
أوكرانيا الغربية 269، 429، 436، 437، 484
أوكرانيا المستقلة 437
أوكرانيا الوسطى 439
الأوكرانيون (الكاثوليك) 295، 300، 513، 521
أوكس 560
الأوكيانيا 187
الأولوسات 407
أولويات الحرب اليوغوسلافية 518
الأوليغارشية الحزبية 279
أوليبرو (كارلوس) 596
أوفسك 371، 383
الأونيات (الأونياتية) (الأونياتيون) 425، 430، 431، 436، 458، 461، 513، 521
أونياتيو رومانيا 459
الأويغور 411
الأويكومينا 93
أيام الآلهة 359
الإيتاتيون (اليساريون) 467، 469
الأيديوقراطية (السوفياتية) 60، 150
الأيديوكراتيا 131، 132، 199، 259، 646
الأيديولوجيات الاقتصادية 59
الأيديولوجية 57، 59، 100
الإيديولوجية (الإيديولوجيون) (النازيون) النازية 118، 540
أيديولوجية جماهيرية 59
أيديولوجية حقوق الإنسان 530
أيديولوجية الغرب 530
الإيديولوجية القومية 304
أيديولوجية الليبرالية الرأسمالية 65، 108
أيديولوجية الماركسية (الاشتراكية) 64
إيران 148، 150، 154، 162، 200، 204، 213، 242، 248، 287، 289، 290، 292، 293، 294، 295، 316، 396، 401، 402، 404، 405، 406، 407، 410، 416، 489، 491، 492، 516، 517، 520، 522، 563، 572، 573، 580، 634، 635
إيران الأصولية 412
إيران الثورية القارية ـ الإسلامية 491
إيران الجنوبية 396
إيران الخميني 531
إيران الزرادشتية 637
إيران القديمة 536
الإيرانيون 291، 410، 491
إيرفون 134
إيركوتسك 92، 383، 389، 390
إيرلندة 354، 590، 636، 637
الأيروكراتيا (سلطة الجو) 154، 155، 156، 625، 626، 642
الإيروكراتيا والأثيروكراتيا 154
إيسلندة 590
إيطاليا 90، 138، 177، 190، 192، 193، 265، 465، 510، 511، 558، 568، 585، 588
إيطاليا الفاشية 460
إيطاليا موسوليني 585
الإيطاليون 296، 558
أيڤانو ـ فرانكوفسك 348، 436
إيڤولا (يوليوس) 189، 199، 539
إيفينسك 385
الإيفينكي 357

إيفينكيسكي 371
الأيقونات (الأيقونة) 599، 635
الأيقونة واليابسة 632
الإيقونوغرافيا 597، 598، 600، 604، 632
الأيقونوغرافيا الإقليمية 596
أيقونوغرافيا المدى 596
الأيكزارخات البلغاري 458
الإيكوبولتيكا 81، 655
إيلخان 561
إيليفنتي 201
الأين 529
ابن لاي (تشوان) 184
إينغوشيتيا 403

- ب -

البابتيون 598
بابل 563
البابلية 564
البابوات (البابوية) 446، 556
باداخشان 411، 412، 416
بادماييف (الدكتور) 216
باذوا 556
باراباميز 574
بارت (كارل) 616
بارڤوليسكو (جان) 187، 188، 189
البارود 618
باريتو (ويلفريد) 199، 597
باريس 127، 188، 519، 583، 612، 621
الباسك (إقليم) 465
باطومي 403
باڤاريا 429
الباكستان 148، 242، 248، 286، 294، 377، 406، 407، 411، 412، 416، 492، 511
باكو 405
بالاماس (غريغوري) 447
البالو آسيويون 357
الباليوقارّات 536
الباليونتولوجيا 75
البامير 151، 396، 405
باناتا 439
البانأفريقي 293
بانألمانية هتلر 484
البانتو 228
البانتوركية (حملة) 407، 492، 493
البانتوركية العلمانية القومية 494
البانجرمانية 83، 119، 493
البانسلاڤية 493
باوند (عزرا) 189
الباكيال 378، 383، 386، 387، 389
بايكالو 383
بتارا (ماركو) 193
البحار الباردة 216
البحار الدافئة 216، 400، 401
بحّارة ڤاسكودي غاما 552
البحارة الڤايكنغ 558
بحر الآرال 561
بحر آزوف 435
البحر الأبيض المتوسط 107، 289، 292، 369، 456، 525، 553، 555، 560، 562، 563، 564، 583، 584، 589، 592، 601، 614
البحر الأحمر 562
بحر الأدرياتيك 439
البحر الأسود 369، 400، 401، 402، 425، 525، 557، 562، 563، 575، 577
البحر البلطيق 346، 575، 577
بحر الخزر 557
البحر الداخلي 643
بحر الردّة 449
البحر السيبيري الشرقي 375
بحر الشمال 316
بحر قزوين 403، 556، 557، 561، 562، 563
بحر لابتيف 375، 388
البحر واليابسة 615
بحر اليابان 373
البحرية الألمانية 100
البحرية البريطانية العظمى 100
بحيرة أونيجسك، لادوغا 364
بحيرة البايكال 387
بخارست 581
بخارى 407

البدو الرحل 526
البر في مواجهة البحر 64
البر القديم 574
البر والبحر 523، 618، 620، 625
البرابرة 447، 552، 554
براغ 127
البراغماتية 131
براندات (الأب) 591
براندت (بيتر) 591
البراهمانية 562
البراهيكيفال 559
البرتغال 511، 613، 614
برزخ السويس 563
برلمان شعوب الشمال 362
برلين 184، 186، 188، 265، 267، 268، 270، 293، 318، 324، 424، 427، 430، 439، 440، 441، 569، 642
برلين الغربية 591
البروتستانتية 427، 493، 633
البروتستانتية الشمالية 598
البرودة 354
بروديل (فيرنان) 170
بروسيا الشرقية 274، 439
بروسيا الشمالية الشرقية 133
بروسيا (عظمى) 186، 265، 333، 428، 439، 586، 602
بروسيا الغربية 425
بروك (دين) 137
البروليتاريا 612
البروميثيوسية (النارية) 537، 638
البريا موربيه 378، 388
بريانسكايا 435
بريتاني 465
بريجنيف 238
بريدنيستروفييه 249
بريست ـ ليتوفسك رابّالو 69
بريطانيا (العظمى) 266، 525، 565، 567، 568، 569
بريكير (أرنو) 189
بريماكوف 171
البريموردياني الشمالي 533
البريموردياالية 539
بريمورية (إقليم) 373، 378
بسمارك 275
البشتون 410
بشكيريا 381، 382، 383
البطاركة اليونان 600
بطرس 464
بطرس الأكبر 252
بطرس الأول 451
بطرسبرج 346، 462
بطريرك الإسكندرية 449
بطريرك أنطاكية 449
بطريرك القدس 449
بطريرك القسطنطينية 449، 450، 455، 456، 459، 461، 463
بطريرك موسكو 450
البطل (البطولية) 132، 195
البعد القاري 143
بغداد 292، 562
بكين 417، 418
البلاد الإسلامية 202
بلاد الخارج القريب 480
بلاغوفيشينسك 389
بلجيكا 138، 465، 585، 588
البلجيكيون 585
بلدان آسيا الوسطى 491
البلدان الإسلامية 393
بلدان حلف وارسو 245
بلدان الخارج القريب = الخارج القريب 495
بلدان العالم الثالث 229، 320
البلدان العربية 110
البلدان المتخلفة 540
بلدان مجموعة الدول المستقلة 229
البلشفيك (الأوراسيون) 90، 101، 134، 253، 462
البلشفية 462
البلطيق 150، 269، 316، 367، 425، 427، 484، 522، 555، 575
البلغار 399، 448، 451، 453، 517
بلغاريا 126، 395، 398، 399، 431، 459، 461، 510، 515، 517، 518

بلغاريا الكبرى 455، 458
بلغاريا البحار الثلاثة 459
البلغارية 397
بلغراد 398، 399، 461
البلقان 116، 397، 398، 405، 431، 436، 439، 455، 456، 458، 459، 461، 510، 513، 515، 517، 521
البلقنة 515
البلوتوكراتيا 259
البناء الإداري 249
بناء الامبراطورية 280
البناء التجاري 221، 653
بناة المحاكاة الساخرة العظمى 637
البنتاغون 589
البنجاب 411، 563
بنغلاديش 148
البنك الدولي 328
البنية الموزاييكية 577
البهيموت 150، 629، 632، 642
البهيموت الجيوبولتيكي 627
بهيموت (Versus) لوياثان 118
البوابة الحديدية 555
بواتييه 603
البوتاميّة 564، 630
البوذية (البوذيون) 261، 562
البورجوازي الروسي 254
البورجوازية اليونانية 456
بورما 148
بؤرة التطور 120، 130، 131، 196، 648
البوريات 350، 387
بورياتيا (منطقة) 283، 378، 383، 387، 388، 418
البوريتان الإنجليز 599
البوريتانيون 598
بوسطن 590
البوسفور 289، 400
البوسفور والدردنيل 253
البوسنة 429، 457
البوسنة الصربية 398
البوسنية ـ الكرواتية 397
البوسنيون 510
البوسيبيلزم 103، 650
بوش (جورج) 144، 168
البوشتا (المجرية) 556، 560
البوغوميل البوسنويون 429
البوڤولجية (الشمالية) 371، 381
بول 203
بولس (الرسول) 446
البولشفية الروسية 246
البولغار 556
بولندا 186، 275، 424، 425، 427، 428، 429، 433، 436، 439، 485، 521، 556، 561، 568
البولنديون 431، 585، 599
البوليتولوجيا 58
البوندسڤير 588، 591
بوهيميا 429
البوبارية 186
البيت 617، 618
بيتر 591
بيترس (كارل) 76
البيتشينيغ 556
بئر الغربة 528
بيرتوين (جورج) 171
بيرتيخفادين 584
بيريا 248
البيريسترويكا 60، 134، 147، 167، 222، 238، 313، 480، 498، 627، 629، 632
بيريسترويكا بنيوية 508
البيريسترويكا الصينية 278
بيزنطة 447، 450، 597، 637
بيزنطة الجديدة 455
البيزنطية 456
بيسارابيا 436
البيضة العالمية 638
بيغاري (إيرڤي كوتو) 177
البيكال 371
بيكمان (كروت فون) 348
بيلديربيرغ 642
بيلغورودسكايا 435
البيلوبونيز 455
بيلوروسيا 214، 430، 431، 432، 484

بيلوروسيا الغربية 429

- ت -

التابعية 445، 446
التاريخ 88
تاريخ الأديان 70
تاريخ الأوروبي 186
تاريخ بيزنطة 597
التاريخ الجيوبولتيكي 93، 176
تاغانروغ 401
تاكتيك الأناكوندا 110
التالاسوكراتي 116، 149، 202، 203، 392
التالاسّوكراتيا (سلطة البحر) 60، 64، 65، 67، 135، 136، 143، 155، 167، 181، 185، 192، 351، 375، 388، 397، 399، 413، 420، 426، 430، 524، 525، 653
التالاسوكراتيا الأمريكية 184
التالاسوكراتيا الأنجلوساكسونية 137
التالاسوكراتيا الشمولي 125
التالاسوكراتيات 637
التالاسوكراتيون 133، 139
التالاسوكراتيون ـ الأطلسيون 69
التامل 531
تأميم وسائل الإنتاج 167
تاندم 362
التايغا 371
تايلاند 148، 153
تايميرسكي 358، 371
تايوان 171، 283، 320
التبسيطية الاقتصادية 58
التبعية الاستعمارية للدولة الثالثة 488
تبليسي 403
التبيت 283
التتار 300، 305، 382، 401، 436، 566، 583
التتار ـ ترك ومسلمون 381
تتار القرم 435، 436
تتارستان 300، 371، 381، 382، 388
التثليث (المسيحية) 599، 600
التجارة البحرية 566، 567
التجارة الحرة 329، 331، 647
التجانس الاتني 265
تجريدية جيوبولتيكية 440
تجميع الامبراطورية 212، 213، 214، 215، 216
التحالف الأبدي 134
التحالف الاستراتيجي القاري 92
التحالف الروسي ـ الألماني 275
التحالف الشمالي الأطلسي 602
التحالفات الجيوبولتيكية الإسلامية 489
التحجر 327
التحدي ـ الاستجابة 611
تحدي الحاضر 622
تحدي الشرق 377
التحرر الأوروبي 184
التحرير الأقصى 362
تحضير متوحشي البحر 108
تحضير متوحشي البر 108
التحلل 528
التحليل الأوراسي 443
التحول من منطقة طرفية إلى مستعمرة 488
التحولات في الأمن الكوني 158
التخطيط الاستراتيجي 338
التخلف التقني 320، 322
التخمية 58
تداول الإيقونوغرافيات 597
تداول النخب 597
التدرجية الاقتصادية 330
تدمير النطاق الصحي 424
تدنيس الحضارة 199
التذاوب 70
تراتبية المقامات 60
التراث 540
التراث المسيحي 634
تراقيا 455، 459
ترانسلفانيا 458
التربة 102، 105
التربة لا الدم 440
التربة والدم 441
التربوية 469
الترك 201، 216، 357، 382، 406، 461، 563
ترك الألتاي 350
الترك الأوراسيون 580

الترك السلاجقة 562
الترك المسلمون 447
تركستان 575
تركمانستان 395
تركمانستان الغربية 561
تركمانيا 406، 407، 492، 571
تركيا 148، 151، 242، 287، 289، 290، 291، 292، 294، 382، 397، 400، 401، 402، 404، 406، 412، 416، 435، 455، 492، 493، 510، 516، 517، 520، 522، 561، 568
تركيا أتاتورك 455
تركيا (العلمانية)، الأطلسية 406، 491
تركيا المعاصرة 243
التركيب الجيوبولتيكي للغابة والسهب 196
تروبتسكوي (الأمير) 126، 138، 197، 646
تروتسكي 469
التريلاتيرال 165، 167، 285
التريلاتيرال اللجنة الثلاثية 284
التريلاتيرال المضاد 324
تسخينفال 403
التسلح النووي 310
التسلطية اللاديموقراطية 91
التشاذمية 157، 531
تشجون - غو 571
التشكيل الجيوبولتيكي 266
التشكيلات ما بعد الامبراطورية 228
التشوكتشي 357، 536
تشوكوتكا 354، 357، 373
تشيتا 383
تشيخيا 425، 439
التشيرنو - سوتينتسي 254
تشيرنيايف 171
تشيرنيغوف 435، 436
تشيكوسلوفاكيا 126، 269، 425
تشيليابينسك 383، 385، 386
تشيلين (رودولف) 81، 82، 83، 84، 94، 112، 119، 130، 137، 177، 194، 427، 529، 531، 647
التصغير الاقتصادي 64
تصفية الاستعمار 229
التصنيع 274
التصنيع والتطور التقني 610
تصويب ماكيندر 106
التضاريس 120
التضامن القاري... 507
التضريس (التضاريس الجغرافية) الجغرافي 58، 59
التضريس الشرقي 347
التطور التقني 60
تطور الفكر الجيوبولتيكي 143
تطوير الدولة 78
تعريف الجيوبولتيكا 57
تعريف العلم الجديد 81
التعصب القومي 435
التعليم: المدرسة العضوية الألمانية 75
تفاحة الشقاق 398
التفاهة التاريخية لألمانيا 588
التفكير الجديد 480
تفكير عبر القارات يورديس فون لوهاوزين 184
التقاليد الهندوسية 276
التقدم (التقدمية) 277، 465، 469، 473، 529، 530، 544، 546
التقرب من أوروبا 484
تقسيم أوروبا 248
التقليد الشاماني 527
التقليد المسيحي 611
التقليدية التكاملية 532
التقنيات العليا (الجديدة) 319، 320، 321
التقنية المحرّرة 617، 626، 629، 638
التقنية المطلقة 618
التقنية المنعتقة 630
التقنية والموارد الطبيعية 319
التكامل 646
التكامل الجمركي 333
التكامل العرضاني 655
التكامل العروبي 293
التكامل وفقاً لخطوط الطول 648
التكاملية 131، 240
التكتل الإسلامي 308
التكتل الروسي 308
التلاسوكراتيا (السلطة عن طريق البحر) 71، 112، 626

تمجيد القلب 632
التمسك بالتقاليد 531
التمويل الذاتي 337
التمييع 156
التنازع المقدس 534
التنازل الجيوبولتيكي 274
التنافس على أراضي الترحل 354
تناقص الضوء 595
التناقضات الدينية والإدارية الترابية 504
التنوير 167
تنويعات توزيع القوى 500
التهديد السوفياتي 481
تهديد الغرب 420
التواصل 102
التوائم الأرثوذوكسي 449
التوتر الديالكتيكي 611
التوتر السكوني 608
التوتر الكوني 627
التوتر الكوني بين الشرق والغرب... 595
التوجه الآسيوي 209
التوجه نحو بناء الامبراطورية 297
التوجه نحو الشرق 115
توحيد بيلوروسيا وروسيا الكبرى 430
تورخانسكي (إقليم) 371
التوركسيب 571
التوسع الحضاري 239
التوسع الطولاني 648
التوسع العرضاني 655
توسع المساحات الإعلامية 70
توسع الناتو نحو الشرق 71
التوسع وفقاً لخطوط الطول 648
التوسعية 233، 298
توفا 283، 378، 383، 418، 571
توما الأكويني 447
تومسك 383
التوندرا 354، 527، 576، 577
التونغوزي 578
توينبي (أرنولد) 195، 608، 611، 615
الـ تي أتش كي (THK) 325
التيار الوطني ـ الاشتراكي 584
تيان شان 151، 396
التيبت 387، 417، 418، 574
التيتان بروميثيوس 632
التيتون (منظمة) 485
تيرانشانو (كارلو) 190، 192، 193
تيربيتس (الأميرال) 98
تيريار (جان) 182، 184، 187، 190، 192، 226، 268، 269، 471، 641
التيلوروكراتيا الأوراسية 116
التيلوروكراتيا (سلطة البر) 60، 64، 65، 67، 112، 134، 136، 149، 155، 162، 192، 376، 524، 525، 527، 632، 646، 653
التيلوروكراتيا والتالاسّوكراتيا 60
التيلوروكراتيون 133
تيمورلنك 129، 561
التيوقراطية 531
التيوقراطية الوهابية السعودية 494
التيولوجيا السياسية 118

ـ ث ـ

الثالوث المقدس 445
الثائر المحافظ 118
الثبوتية 537
الثقافة الغربية 161
الثقافة الاتنية 348
الثقب الأسود 654
الثنائية الجيوبولتيكية 64، 644
ثنائية قطبية (جديدة) 202، 204
الثنائية الكونية ـ قانون الجيوبولتيكا الأساسي 135
ثورة أرثوذوكسية 257
الثورة الإسلامية 494، 495
الثورة الإسلامية في إيران 396
ثورة أكتوبر (الشيوعية) 252، 460، 611
الثورة البلشفية 462
الثورة التقنية ـ الصناعية 610
الثورة الثقافية 460
الثورة الجهوية 505
الثورة الجيوبولتيكية (العالمية) 256، 547
الثورة السياسية 612
ثورة الشبان الأتراك 226
الثورة الصناعية 610، 612، 615، 617، 618، 619،

626، 628، 638
الثورة الصناعية الثانية 627
الثورة العالمية 547
الثورة الفرنسية 94، 104
الثورة المحافظة 647
الثورة المعادية للرأسمالية 58
الثورة الوطنية 244
الثوريون الروس المحترفون 619

- ج -

جامايكا 613
جامعة أوبسالا 81
جامعة البوليتيكنيك 75
جامعة غيتيبورغ 81
جامعة ميونيخ 111
جامعة هارفارد 158
جامعة ييل 105
جانسول العزل (الأميرال) 584
جبال الأورال 556
جبال البامير 411
جبال البلقان 396
جبال التبت 561
الجبال (حضارات) 526
جبال كوبيتراغ 396
جبل أرارات 404
الجبل الأسود 398، 439
جبل سيناء 449
جبل طارق 289، 525، 591
جبهة (PK) بي كي 583
جبهة التحرير الأوروبي 184
الجرمان 92، 93، 558
الجزائر 293، 585
جزر الأزور 590
الجزر البريطانية 556
جزر الكناري 590
جزر الكوريل 285، 373
جزر المحيط الهادىء 279، 537
جزر الملايو 564
الجزويت 598، 611
الجزيء الجيوبولتيكي 645
الجزيرات الدانوبية 556
جزيرة الأرض الشمالية 373
جزيرة إنجلترا 420، 421، 612، 617
جزيرة ساخالين 373
جزيرة سان دييغو 153
الجزيرة الشمالية 533
الجزيرة العالمية 86، 93، 106، 207، 213، 629، 648
جزيرة العرب 559، 560، 564
الجزيرة الغربية 216
جزيرة كولسكي 368
جزيرة لانكا الجنوبية 534
جزيرة الهند الصينية 413
جزيئة تقنية 615
جسر البوسفور 563
الجغرافيا السياسية 75، 76، 86، 130، 650
الجغرافيا المقدسة 523، 526، 527، 528، 529، 534، 536، 651
جغرافية العالم (كتاب) 105، 107
الجغرافيون السياسيون الألمان 103
الجغرافيون العرب 557
الجلاميد القطبية 561
الجماعة الأوراسية 201
الجماعة القبلية 649
جماعة بيلديربيرغ 165
الجماعية 131
الجمعية الفابيانية 163
جمهوريات آسيا الوسطى 571
الجمهوريات الاتحادية 228
جمهوريات البلطيق 426، 433
الجمهوريات السلافية 502
جمهورية ألمانيا الديموقراطية 186
جمهورية روسيا (الروسية) 468، 473
الجمهوريون 158
جنكيزخان 129، 239، 346، 561
الجنوب 368، 378، 655
جنوب آسيا 564
الجنوب الإسلامي 515
جنوب أفريقيا 567
جنوب الأوراسيا (الأوراسي) 147، 286، 387، 478
جنوب الأورال 383

جنوب أوروبا 514
الجنوب البدائي 541
الجنوب الروسي 349، 393، 395، 397، 504
الجنوب + الغرب 637
جنوب غرب آسيا 161
الجنوب الفقير (العالم الثالث) 263، 323، 541، 542، 545، 546
جنوبي الدانوب 557
الجنوبيون 547
جنة عدن 528
الجنة القديمة 358
الجهوية 651
الجهوية الاقتصادية 334
الجهوية الروسية 475
جورجيا 401، 403
الجورجيون 401
جونغار 575
جيرينوفسكي (ف.) 200
الجيش الثاني 318
الجيش الروسي (السوفياتي) 311، 316، 567
الجيش الوطني الشعبي 591
جيل كولومبوس 565
الجيواستراتيجية 583، 645
الجيوإستوريا 189
الجيوإيكونوميكا 170، 645
جيوإيكونوميكا جاك أتالي 169
الجيوبولتيكا 57، 58، 59، 67، 69، 71، 72، 81، 82، 93، 105، 111، 143، 147، 148، 175، 176، 212، 240، 390، 529، 531، 573، 641، 644، 659
الجيوبولتيكا الأسيوية 262
الجيوبولتيكا أداة للسياسة القومية 135
جيبولتيكا الأرثوذوكسية 445، 451
الجيوبولتيكا الإقليمية 146
الجيوبولتيكا الإلكترونية 175
جيوبولتيكا الانتخابات السياسية 146
الجيوبولتيكا الأنجلوساكسونية 90
الجيوبولتيكا الأوراسية 339، 382
الجيوبولتيكا الأوروبية 144، 176
جيوبولتيكا البحر 154
الجيوبولتيكا التطبيقية 174، 177، 650
الجيوبولتيكا الداخلية 175، 343، 349، 392، 416
الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا... 341، 343، 353
الجيوبولتيكا الداخلية - مدرسة إيف لاكوست 174
الجيوبولتيكا الداخلية والعقيدة العسكرية 344
الجيوبولتيكا الدنيا 648
الجيوبولتيكا الروسية 146، 451، 471، 573
الجيوبولتيكا - رؤية للعالم 57
جيوبولتيكا سلبية 156
جيوبولتيكا العصر الذري 150
الجيوبولتيكا - «علم بَيْني» 523
الجيوبولتيكا - علم الحكم 60
جيوبولتيكا العولمة 144، 479
جيوبولتيكا الفضاء 154
الجيوبولتيكا الفعالة 156
الجيوبولتيكا (مصطلح) 427
الجيوبولتيكا مصيراً 70
جيوبولتيكا النزاع اليوغوسلافي 510
الجيوبولتيكا - وجهة نظر السلطة 59
جيوبولتيكا اليمينيين الجدد الأوروبيين 179
الجيوبولتيكي 91، 213، 322، 362
الجيوبولتيكي أي الأرض المتوسطة 207
جيوبولتيكي (قطاع) 371
الجيوبولتيكية 136، 345، 371، 373، 577
الجيوبولتيكية الأطلسية 480
الجيوبولتيكية الخارجية 422
جوبولتيكية الكوارث 346
الجيوبولتيكيون 253
جيورغ (فريدريك) 137

- ح -

حاملة الجنوب 576
حاملة الشمال 576
حبّ الألمان 440
الحتمية الجغرافية 103، 194
الحجاج 562
الحجة النهائية 72
الحداثيون الدينيون 598
حدود 299، 645
الحدود البحرية 151

الحدود الثابتة 368
الحدود الجديدة 424، 426
الحدود الجيوبولتيكية 69
حدود «الحرية» والامتيازات المضيعة 485
الحدود العادلة 105
حدود العالم 259
الحدود الغربية للأوراسيا 575
حرب (1870) 75
حرب (1939 ـ 1945) 589
حرب الاستقلال 621
الحرب الأفغانية 313
حرب إنجلترا على فرنسا الثورية 601
الحرب الأهلية الرومانية 610
الحرب الأهلية في روسيا 497، 499، 500
الحرب الباردة 64، 65، 95، 101، 110، 154، 156، 162، 167، 168، 181، 186، 200، 201، 259، 310، 319، 329، 360، 367، 369، 423، 541
حرب الثلاثين عاماً 599
الحرب (الحروب) الأهلية 93، 100، 606
حرب (حروب) النجوم 65، 155، 156
حرب الخليج 144
حرب الخنادق 64، 154، 376، 437
حرب الخنادق الجيوبولتيكية 421
حرب خنادق في سبيل الـ Lenaland 386
حرب خنادق محتملة 388
حرب الخنادق مع التالاسوكراتية 405
الحرب الدامية 217، 300
حركة دول عدم الانحياز 276
الحرب الدينية 591
حرب سبارطة وأثينا 601
الحرب الشاملة 123، 124
الحرب الشمولية 123
حرب الصيغ 124
الحرب العالمية الأولى 82، 83، 95، 101، 513، 585
الحرب العالمية الباردة 211
الحرب العالمية الثانية 95، 101، 115، 144، 153، 190، 248، 259، 285، 315، 421، 425، 427، 457، 481
الحرب العروبية التحررية 293
الحرب على اليابسة 124
حرب فضائية 606
الحرب الفيتنامية 150
الحرب القادمة مع اليابان 280
حرب القارات 312، 534
حرب القرم 115
الحرب الكبرى بين القارات 545، 643
حرب من الدرجة الصغرى 502، 503، 507
حرب مئتا عام 614
حرب المئة عام مع إنجلترا 554
الحرب والكر 111
حرب اليابان الاقتصادية... 280
الحرب اليوغوسلافية 405، 521
الحركة البيضاء 90، 92، 101، 462
حركة السراسيين 557
الحروب (البلقان) البلقانية سنة (1913) 398، 455
الحروب الصليبية 554
الحروب اللاإتنية 228
الحروب المحلية 313
الحروب الهوسية 429
الحرية 612
الحرية الإنسانية 103
حرية الانعزالية الإتني 305
حرية التجارة البحرية 98
الحرية تستند على القوة 593
الحرية السياسية 285
الحزام التركي المنغولي 384
حزام التيلوروكراتية 417
الحزام الداخلي الجنوبي 416
حزام الساحل الشرقي 108
الحزام السكاندينافي 426
حزام سيبيريا الروسية (التركيب) 378
الحزام الشمالي (الأوراسي) 374، 376
الحزام المتقطع 645
الحزب الشيوعي الصيني 413
حزب الشيوعيين 333
حزب الليبراليين 333
حصانة الحدود 78
الحضارات الشاطئية 210
حضارة الأبطال 260
حضارة أمريكا اللاتينية 159

حضارة أوروبا العولمية الفجة 491
الحضارة الإيديوقراطية 135
الحضارة البحرية 95، 100، 124، 138
حضارة بلطيقية 427
حضارة البيّاعين 546
الحضارة التجارية 60
الحضارة التقنية 628
الحضارة التقنية للشعوب البيضاء 547
الحضارة ذات الهيبة العسكرية 60
الحضارة الساحلية 420
الحضارة السيبيرية القادمة 374
الحضارة الغربية 161، 197
حضارة القمر 536
الحضارة المعاصرة 359
الحقبة الثالثة 163
حقوق الإنسان 119، 234، 307، 467، 530، 531
حقوق الشعب 119، 234، 257، 441
الحقيقة التاريخية 604
حقيقة الصرب 514
حقيقة الكروات 513
حقيقة المسلمين اليوغوسلاف 516
حقيقة المكدونيين 517
الحكم المطلق 251، 255، 302
حكومة الشمال 362
الحكومة العالمية (الواحدة) 167، 172، 173، 202، 284، 469، 479، 492، 642، 648
الحلف 642
الحلف الأرثوذوكسي 439
الحلف الأطلسي 277، 318، 345، 346، 351، 400
الحلف الأوراسي 116
حلف أوروبا الوسطى 484
الحلف الباناسيوي 283
حلف برلين ـ موسكو ـ طوكيو 324
الحلف البروتستانتي ـ السكانديناڤي 427
الحلف التالاسوكراتي 148
حلف روبينتروب ـ مولوتوف 116
الحلف الروسي ـ الألماني 512، 522
حلف روسيا ـ الأوراسيا الشرقي 486
الحلف الشرقي 151
حلف شمالي الأطلسي = الناتو
الحلف العروبي 292، 293
الحلف الفرانكو ـ جرماني 267
الحلف القاري (الأوراسي) 111، 114، 115، 117، 325
الحلف المقدس 237، 519
حلف وارسو 147، 172، 203، 248، 422، 516
الحلفاء الطبيعيون للروس 311
الحلفاء المحتملون 311
حلقة الأناكوندا 289
الحلم الروسي الكبير 238
الحملات الاستعمارية 88
الحملة (الحملات) الصليبية 164، 562، 581
حملة للروح المغولية 130
حوض ترانسلفانيا الكبير 555
حوض الفولغا (بوفولجية) 371، 377، 378
حيدر جمال 493

- خ -

خاباروفسك (إقليم) 373، 383، 384، 385، 389، 390، 391
خاربين 418
الخارج القريب (بلدان) 213، 488، 489، 491، 492، 493، 494، 495، 496
خاركوف (منطقة) 435
خازاريا القديمة 402
خاكاسيا 383، 418
الخامات 323، 325
الخانت 357
الخروج إلى المياه الدافئة 289
الخزر 556
خصائص روسيا الجغرافية 576
خط بايكال 216
الخط الثالث 329
خط لوبيك ـ صوفيا 582، 590
خطر الفوضى العالمية 173
خطة الأناكوندا 323
خطوط الأفق 169
خطوط طول خينغان 575
الخلافة الجديدة 287

خلفية العولمة 163
خليج بوتنيسكا 367
الخليج الفارسي 562، 563
الخليج الهادي 412
الخميني 248
الخيانة المزدوجة 488
الخيميائيون 632
خينغان 575

- د -

الدار البيضاء 591
دارلان (الأميرال) 584
داغستان 291، 403
الداكيون 438
الدانمرك 354، 427
الدانوب 555
داي نيخون 111
دائرة خانتي - مانسيسك 371
دائرة دولغانو - نينسك 358
دائرة يامالو - نينسك 358، 369، 370
الدّردنيل 289، 400، 563
درسدن 589
الدّرويد 527
دستويفسكي (ف) 83
دعاية غوبلز 583
الدفع العاطفي 195
الدكتاتورية السياسية 279
الدليل الملخص 60
دمار الأسلحة الاستراتيجية 313
دمشق 292، 562
الدمقرطة 168
الدنيبر (نهر) 433، 435، 557
الدنيستر (نهر) 433، 437، 439
دنيليفسكي 126
دوبرينين 171
دوبلن 183، 192، 213، 426، 581، 586، 591
دور العالم الثاني 543
دورة النخب 199
الدول الأرثوذوكسية الجديدة 455
الدول الإسلامية 161، 162، 200
الدول الأكثر فقراً 330
دول الأوراسيا القارية 100
الدول الأوراسية الكبرى 101
دول أوروبا الشرقية 69، 213
دول أوروبا الوسطى 253
الدول الأوروبية 71
الدول البحرية 110
الدول البروتستانتية 452
دول البلطيق 69، 148، 162، 273، 275، 487
الدول التالاسوكراتية 137، 346
الدول الجزيرية 92
دول حلف وارسو 212، 638
دول الخارج القريب 484، 486
دول الدانوب 84
الدول (الدولة - الأمة) الأمم 235، 236، 237، 238، 241، 249، 258، 269، 298، 334، 403، 465، 466، 514، 645
الدول (الدولة) البرية 100، 123
الدول (الدولة) الجهوية 241، 242، 243، 244، 262، 310، 316، 321، 329
الدول (الدولة) القارية الكبرى 64، 82، 83، 104، 382
دول عدم الانحياز 203
الدول العربية 293، 294
دول - عزقات 69، 350
الدول الغنية 330
الدول القزمية 518
الدول القوميات 255
الدول ككائنات حية (في المدى المكاني) 75، 76
الدول المتطورة 530
دول المحور 82، 101
دول الناتو 311، 487
الدول النامية 530
دول فوق العظمى 137
الدولغان 357
الدولة الأثينية 88
الدولة جهاز حي 78
الدولة الحقوقية 118
الدولة ذات السيادة 435
الدولة الروسية 256، 309، 473

دولة السلافيين الجنوبيين 517
الدولة الشمولية 123، 124
الدولة الطبيعية 76
الدولة العالمية (الموحدة) 143، 164
دولة الفكرة المطلقة 241
الدولة فوق العظمى 143، 151، 314
الدولة القارة 123
الدولة القومية (الكازاخية) 179، 300
الدولة كائن حي 76، 78
دولة متوسطة 128
الدولة المستقلة في القارة المستقلة 213
الدوليهوكيفاليون 559
دي بِنْوا (آلين) 146، 179، 180، 182، 184، 192
دي توكويل (ألكسيس) 609
دي فاكتو 246
دي لابلانش (فيدال) 102، 103، 104، 112، 130، 133، 136، 137، 139، 148
دي لاغورس (بول - ماري) 177
دي يوري 246
الديالكتيك 606، 609، 632
ديالكتيكية السؤال 604
الديالكتيكية المائية 629
الديانة المسيحية 611
ديبريه 587
ديروليد 587
الديزني - لاندي 495
ديغول (شارل (الجنرال)) 104، 136، 137، 144، 154، 181، 188، 189، 267، 423، 512
الديغولية الجيوبولتيكية 188
ديفيس (هاري) 164
ديكتاتورية البروليتاريا 167
الديكتاتورية السياسية 325
الديكتاتورية الشمالية 546
ديكتاتورية القانون (النوموكراتيا) 236، 238
ديكتاتورية موسكو 504
ديل كورّال (لويس دييس) 596
الديماغوجية الشيوعية 247
الديموبولتيكا 645
ديموسفين 601
الديموقراطية 60، 92، 104، 108، 428
الديموقراطية الرأسمالية البورجوازية 530
الديموقراطية العضوية 179
الديموقراطية الليبيرالية 91، 132، 204
الدِّين 240، 419، 530
دين بروك (موللر فان) 268
الديناميكية القارية العامة 69
ديومون 333

- ذ -

الذهب 639

- ر -

الرابطة البانجرمانية 76
راتسيل (فريدريك) 75، 76، 78، 81، 82، 83، 84، 94، 102، 112، 119، 120، 128، 137، 194، 529
راتيناو 330
رأس الرجاء الصالح 565، 566، 569
الرأس الغربي 128
رأس المال 332
الرأسمالية 332، 476
الرأسمالية الجزيرية 277
رأسمالية ضد الرأسمالية 334
الرأسمالية الليبيرال - رأسمالية 646
الرأسمالية الوطنية 258
الرأسماليون الروس 254
راما 534
الرامايانا 534
رامبو 606
الرايخ الثالث 112، 116، 143، 268، 540، 583، 585
الرايخ الثاني 582، 588
الراين نيبون 334، 335
الرجعية 473
الرحل الساميون 637
رحل اليابسة 106
رحلات جوية إلى القمر 621
رحلة كولومبوس 621
الرسل النورديون 534
الرعب الديني 616
الرعب النووي 65
رفض أيديولوجية الشيوعية 158

الرقابة الإدارية 240
الركود الثقافي 537
رمزية السطح الأرضي 525
الرمزية الكونية 528
رمزية يوغوسلافيا 510
الرهبان الفرانك 600
الروح 528، 529، 531، 534
الروح الجماعية 60
روح الغرب 181
الروح القدس 445، 446، 600
الروح الهيبيربورية 540
الروح الوطنية 107
روحي ما فوق القومي (مبدأ) 471
رود ـ آيلاند 94
رودس (سيسيل) 164
روريك 239
روزفلت (تيودور) 94
الروس 83، 115، 130، 194، 196، 216، 233، 241، 251، 261، 268، 278، 279، 295، 300، 301، 308، 309، 314، 320، 324، 359، 410، 507، 514، 531، 571، 580، 585، 614
الروس الجدد 506
الروس ـ شعب امبراطورية 239
الروس ـ شعب بري، قاري 240
روستوف على الدون 402
روستوف (منطقة) 395
الرّوسنة 298
روسيا 64، 69، 70، 72، 83، 86، 91، 99، 100، 101، 104، 106، 114، 128، 137، 148، 161، 162، 184، 186، 192، 199، 207، 208، 210، 211، 217، 225، 230، 237، 240، 241، 242، 243، 252، 254، 257، 258، 262، 268، 273، 274، 275، 277، 283، 285، 286، 289، 291، 293، 294، 310، 318، 322، 324، 327، 333، 339، 343، 350، 351، 360، 363، 367، 376، 377، 381، 395، 397، 400، 404، 405، 412، 417، 421، 423، 425، 426، 427، 430، 432، 433، 436، 441، 449، 450، 452، 453، 459، 462، 464، 472، 484، 487، 491، 497، 498، 499، 502، 511، 519، 521، 554، 556، 558، 561، 565، 568، 571، 572، 573، 577، 579، 586، 595، 602، 611، 633، 634
روسيا الأرثوذوكسية 399، 635، 637
روسيا الأرثوذوكسية (الأوراسيا) 510
روسيا + الإسلام = إنقاذ أوروبا 190
روسيا (heartland) + الإسلام ضد الولايات المتحدة 192
روسيا ـ الأوراسيا 128، 130، 131، 137، 263، 511، 577
روسيا الأورال الجنوبي 378
روسيا الأوروبية 347، 572
روسيا الـ Lenaland 92
روسيا البيضاء 425
روسيا الجنوبية 85، 214
روسيا ـ دولة جهوية 317
روسيا الرومانوفية 464
روسيا الصغرى 435، 436
روسيا القيصرية 186، 251، 255
روسيا الكبرى 435، 436
روسيا الكبرى الغربية 214
روسيا الكييفية 432
روسيا ما بعد البطرسية 453
روسيا المقدسة 252، 255
روسيا الموسكوفية 231
روفنو 436
روكفلر (ديفيد) 171
روما 60، 240، 446، 448، 451، 458، 461، 558، 601
روما الامبراطورية 637
روما الثالثة 241، 255، 449، 453، 461
روما الجديدة ـ الاتحاد السوفياتي 64، 586
روما القديمة 88
الرومان 93، 448، 451، 553، 565، 566
الرومانسية السياسية 119
الرومانو ـ توتون 566
رومانيا 138، 269، 425، 431، 439، 458، 485، 522
رومانيا الأرثوذكسية 429
رومانيا الكبرى 455، 457، 458
رومانيا ومولدافيا ـ التكامل... 438
الرومانيون 436، 453، 485
الرؤية التنبؤية لماهان 98
الرؤيوية (الحضارة) 633
الرياض 292

ريان خوي (إقليم) 571
ريريغ (فريتس) 170
ريشيليو 582، 588
ريغان 168
الريكونكويستا 599
ريملاند (rimland) منطقة الحافة 67

- ز -

زاأورالية 571
زابايكالية 383
زاكارباتية 430، 436، 437
الزائد الأنطولوجي 529
الزرادشتية 532
الزنار الجبلي 578
زوغ (أحمد) 460
الزولو 228
زومبارت (فيرنير) 132، 260، 637
الزوولوجيا 75
زيغفريد (أندريه) 175
زيوس 537
زئير لوياثان 632

- س -

ساحل بحر قزوين الشرقي 395
الساحل الشرقي لأفريقيا 190
ساخا (جمهورية) 374
سافيتسكي (بيوتر نيكولايفتش) 120، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 138، 139، 140، 158، 197، 646، 648
الساكس 556
السامية (الساميون) 116، 636، 637
سانت بطرسبرج 255، 451
سانتورو (كارلو) 172، 202
سبارطة 60، 259، 601
سبارطة الدورية 88، 637
سبعة قوانين للتوسع 78
سبنسر 565
سبينغلر (أوزوالد) 610
سبيكمان (نيكولاس) 88، 105، 106، 107، 108، 132، 133، 137، 138، 140، 143، 148، 149، 150، 161، 162، 375
ستافروبول 403
ستالين 134، 238، 248، 462
الستراتوسفير 621، 622، 630، 631
ستروفي (ب.) 126
ستويكيرس (روبير) 189، 190
ستيمسون 621
السراسينيون 564
السراسيون 562، 603
سرابيغو 493
السرمدية الزمن 534
سرمدية المركز 533
السعوديون 493
سفر التكوين 616، 631
سفر رؤيا العفويات... 625
سفيتادفيب 532
سفيتة (رومانيا) 458، 460
السفينة 617، 618
سفينة النجاة 540
سقوط الاتحاد السوفياتي 629
سقوط حلف وارسو 150
سقوط الصين 412
سقوط الغرب 348
السكالد 537
سكان الأناضول اليونان 455
سكان البحر 604
سكان البر 604
سكان الجزر 88
سكان الشمال الجدد 360
سكان اليابسة 605
سكاندينافيا 426، 558، 565، 568
السكاندينافيون 427
سكة الحديد السيبيرية العظمى 572
سكة الحديد القارية 567
سكوت (روبرت) 551
السلاح الذري 317
السلاح النوري 315، 655
سلاسل تيان شان 574
السلاف (السلافيون) 92، 116، 133، 382، 396، 518، 557، 566، 587
السلاف الشرقيون 129، 194، 240، 241، 295، 432

السلافيانوفيل 126، 129، 245، 253، 254، 298
السلافية موجودة ولا وجود للسلافيانوية 127
السلام 509
السلام الإيراني 290
السلام المدني الأصيل 508
سلسلة جبال القرم 574
سلطة الأتراك السياسية 455
السلطة عن طريق الجو 642
سلم تقدير القوة 107
سلوفينيا (السلوفينيون) 429، 457، 461، 510، 513، 514
السم إلى ترياق 520
سمرقند 407
سميث (آدم) 58، 333
السمينوفيخوفتسي 134
السمينوفيخوفيون 199
سنغافورة 171
سهب كيبتشاك 561
السهب والاستقرار 129
السهروردي 636
سهل تركستان 575
السهوب 526
السهوب التركية 241
سهول البيلوموري 574
سهول روسيا ـ الأوراسيا 577
سواحل الأدرياتيك 430
سواحل أوخوتسك 373
سوخومي 403
السودان 287
سور الصين العظيم 574
سوريا 148، 287، 293، 449، 491، 584، 585
السوسيوبولتيكا 81، 652
السوسيولوجيا 58
السوسيولوجيا العضوية 119
سوشا 631
السوفيات 278
السوق الحرة 221، 530
السوق الكونية 222
السويد 328، 426، 427
السويد الثانية 328
سويسرا 328
سويسرا الثانية 328
السيادة (الشمولية) 315، 329
سياسة الإملاء 517
السياسية المحتملة 364
سيبيريا 207، 241، 280، 301، 322، 346، 347، 348، 363، 373، 376، 377، 383، 390، 413، 418، 438، 471، 504، 566، 567، 614
سيبيريا الجنوبية 371، 373، 378، 407، 413
سيبيريا الروسية 384، 385، 386، 391
سيبيريا الشرقية 92، 214، 348، 357، 383، 387، 525
سيبيريا الغربية 406، 417، 561
سيتا (زوجة راما) 534
السيخ (حركة) 411
السيد المخلص 125
سيرغي (بطريرك موسكو) 462
السيرغيانية 462، 463، 464
سيسموندي 332
السيطرة العالمية 98، 105، 106، 108
سيليزيا 561
سيميبالاتينسك 378، 383
سينتزيان 283، 378، 411، 417، 418
السينغاليون 588
السينود 252
السينودس 542

ـ ش ـ

شارلمان الكبير 557، 597
شاطىء المحيط الهادي 375
شالون 554، 556
شاليان (جيرار) 177
الشام 560، 561، 563
شان 574
الشبان الأتراك 243، 244، 245
الشبان الروس 244، 245، 258
شبنغلر 186، 195، 348، 374، 384، 427، 428
شبه الجزيرة الإيبيرية 599
شبه جزيرة البلقان 397، 418، 429
شبه جزيرة ترنو 634
شبه المنحرف القطبي (الشمالي) 361، 362، 368،

371، 373، 374، 378، 385، 391، 402
شحن المعادلة الدينية 257
الشخصية الجغرافية 131، 158
شذوذ مؤقت 346
الشراكة 591
الشرط: التربة لا الدم 440
الشرعية ما بعد الامبراطورية 229
الشرق 216، 257، 512، 529، 597، 601، 635
الشرق الآسيوي 492
الشرق الأدنى 377، 405، 445، 525، 569
الشرق الأقصى 151، 161، 278، 279، 280، 283، 286، 301، 308، 316، 329، 377، 388، 407، 413، 541، 569، 575، 579
الشرق الأقصى الياباني 324
الشرق الأوراسي 207، 516
الشرق الأوسط 107، 292، 323، 563، 564، 569
الشرق الثقافي 377
الشرق الجيوبولتيكي 530
الشرق الداخلي 377، 378، 382
الشرق الروسي 348، 349، 377، 378
الشرق (السهوب) 197
شرق فرنسا العظيم 513
الشرق القاري 213
الشرق المسيحي 447
الشرق والغرب 636
الشرق والغرب في الجغرافيا المقدسة 527
الشرق والغرب في الجيوبولتيكا المعاصرة 529
الشرق: وهو أيضاً الأوراسيا، العالم الثاني 644
الشريط الشمالي المتحضر 545
شطآن البحر الأسود 555
شطآن البحر العربي 405
شطآن البلطيق 558
شطآن المحيط الهندي 392
الشعار الأوفاردفي 251
الشعار المثالي 251
الشعاع الجيوبولتيكي 644، 645
الشعاع الجيوبولتيكي موسكو ـ الشمال 353
شعاعا موسكو 349
الشعب 235، 257
الشعب الألماني 265
الشعب الروسي 230، 231، 232، 233، 234، 240، 262، 298، 301، 303، 305، 339
الشعب الروسي ـ مركز التصور الجيوبولتيكي 230
الشعب المتوشح بالله 450، 453
الشعب المذنب 588
الشعبان الفتيان 83
الشعبان الهرمان 83
الشعبية 251، 252، 253، 257، 302
شعوب آسيا 100
الشعوب الإسلامية 517
شعوب أوروبا الوسطى 83
الشعوب البحرية 565
شعوب البلطيق 425
شعوب البلقان 455، 456
الشعوب البيضاء 547
الشعوب التركية 371
الشعوب السامية 637
شعوب الشمال 363
الشعوب الطورانية 566
الشعوب الهند أوروبية (البيضاء) 634، 635
الشمال 216، 360، 361، 363، 368، 377، 539، 635، 651
شمال أفريقيا 292، 377، 445، 511، 559
الشمال الأوراسي 478
شمال الأورال 371
شمال أوروبا 354
شمال البلقان 399
الشمال ـ الجنوب 544
الشمال الجيوبولتيكي 354
الشمال الروسي 349، 350، 357، 360، 376
الشمال السيبيري 357
شمال شبه جزيرة البلقان 395
شمال الشرق الأقصى 373
الشمال + الشرق، الأيقونة 637
الشمال + الشمال 358، 361
الشمال العولمي الغني 543، 545
الشمال الغني 539، 540، 541، 542، 543، 545، 546، 643
الشمال الفقير 546
الشمال القاصي 556

شمال القوقاز 403
الشمال المتطور 539
الشمال + المركز 361
الشمال المقدس (والجنوب المقدس) 532، 543
الشمال واللاشمال 368
الشماليون 547
الشمس 632
الشمولية 321، 473
الشمولية الأوراسية المعادية للأطلسية 199
الشمولية السياسية 329
شميدت (كارل) 88، 98، 118، 119، 120، 121، 122، 124، 128، 131، 133، 137، 139، 140، 155، 156، 190، 199، 476، 599، 625، 626، 627، 630، 631، 632، 636، 637، 639
الشوفينية 119، 211
شوماديًا 456
شومبيتر 333
الشيشان 249، 291، 300، 313، 403
الشيعية 405، 411
شيڤا 411
شيڤيمان (جان بيير) 466
الشيوعية 581، 586، 628
الشيوعية الاعتيادية 594
الشيوعية الامبراطورية 586
الشيوعية اللاماركسية 586
الشيوعية فوق الإنسانية 581، 594
الشيوعية الماركسية 594
شيوعيو مارشيه 466
الشيوعيون 116، 164، 247، 250، 261، 333، 335، 336، 469، 592
الشيوعيون الجدد 332
الشيوعيون الروس 247

- ص -

الصحارى 526
صحارى (الـ heartland) 128
الصحراء الصغرى 561
صحراء غوبي 575
الصحراء الكبرى 560، 561
الصحون الطائرة 621
صحيفة (أومانيتا) 193
صحيفة «دين» («زافترا») 147، 197، 200
الصخور الكلسية 102
الصدام بين الإسلام والأرثوذوكسية 291
صدام الحضارات 158، 307، 649، 652
صدام الحضارات: أطلسية هنتينغتون الجديدة 158
الصديق/(العدد) 124، 645
الصراع ضد الأيقونات 597
الصراع الطبقي 610
الصرب 399، 429، 448، 451، 453، 456، 510، 513، 514، 516، 517، 521
صرب البوسنة 461
صربيا 269، 395، 398، 399، 431، 436، 439، 457، 459، 461، 515، 561
صربيا - هي روسيا 521
الصربية 397
الصربيون 514، 519
صربيا الكبرى 455، 456، 519
الصقالبة 88، 559، 563، 578
صقلية 592
الصلح الأوروبي في أوستريخت 613
صلح بريست 90
صلح ڤرساي 91
الصلح في أوستريخت 614
صلح يالطا، يالطا 655، 656
الصليب المعقوف 533، 587
الصناعة الدفاعية 344
صندوق كارنيجي للسلام العالمي 165
صندوق النقد الدولي 328
الصواريخ العابرة للقارات 317
صورة أم الله الطاهرة 599
صوفيا 398، 399
الصومال 313
الصين 69، 100، 101، 110، 128، 148، 154، 162، 168، 181، 202، 208، 214، 242، 248، 276، 277، 278، 279، 283، 284، 286، 295، 329، 377، 388، 389، 393، 411، 412، 413، 416، 417، 418، 489، 491، 492، 499، 559، 561، 562، 563، 564، 568، 571، 572، 573، 591، 595، 601، 618
الصين خطر على روسيا 416
الصين الشمالية (الشرقية) 389، 561

الصين الشيوعية 531
الصينية 209، 528، 573
الصينيون 417، 570، 611، 618

- ض -

الضاحية 650
الضريبة التقنية 319
ضفاف النرويج الشمالية 577
الضمان الاجتماعي 337

- ط -

طابع الأركتيكا الروسية الجيوبولتيكي 354
الطابع السياسي للإدارة 98
الطابع القومي 95
الطاجيك 410
طاجيكستان 290، 313، 395، 406، 410، 411، 412، 492، 571
الطاقة 359
الطاقة الروسية الكامنة 232
الطاولة المستديرة 164
طريق تجميع الامبراطورية 214
الطريق الثالث (اقتصاد) 203، 223، 276، 325، 327، 328، 329، 332، 333، 334، 336، 339، 647، 653
طريق الشمال 353
طشقند 407
طهران 270، 290، 291، 318، 405، 411، 494
الطهرانيون 633
طوباوية أممية 264
طوران 129، 130، 396، 406، 410، 654
الطورانيون 564
الطوفان العالمي 629
طوق الاناكوندا 153
طوكيو 171، 184، 270، 318، 324، 653
الطيران المباشر 572

- ظ -

الظلام 169
الظلم المغولي التتري 129

- ع -

عابرو الأرض 129
العاصمة الاستراتيجية 652
عاصمة سيبيريا 390
عاصمة الشمال 362
عاصمة الميثاق القطبي الشمالي 369
العاطفية 195، 199
العالم الآخر 196، 527
العالم أحادي القطب 201
العالم الأرثوذوكسي 445
العالم الإسلامي 192، 286، 287، 293، 377، 381، 407، 424، 491، 510، 511، 516، 517، 520، 541، 611
العالم الألماني 515
العالم الإنجلوساكسوني 92، 136
العالم الأوراسي 576
العالم الإيراني 410
العالم التركي 129
العالم الثالث 172، 190، 200، 204، 235، 274، 320، 540، 541، 542، 543، 544، 547، 653
العالم الثالث وأوروبا: متحدون في الصراع 547
العالم الثاني 543، 544، 545، 547، 644
العالم الثنائي القطبين 172، 202، 480، 642
العالم الجديد 622
عالم الخارج القريب 229
العالم الخارجي 542
العالم الرائع الجديد 593
العالم السلافي 136
العالم الشمولي 629
العالم العربي 190، 292، 293، 296، 489، 491، 492، 494، 495
العالم العروبي 295
عالم الغرب المسيحي 447
العالم الغربي (الأطلسية) 277
العالم غير المسيحي 477
العالم القديم 88، 374، 559، 574، 579
عالم ما بعد الحرب 108
العالم المتعدد الأقطاب 648
العالم المتوسط 573
العالم المسيحي 445، 562
العالم الموحّد 170
العالم الواحد 157، 162، 167، 646

العالِم السياسي 85
العالم والغرب 611
العالم الوحيد القطب 480، 648، 650
العالمية الروسية 232، 233
العالمية الزائفة 479
العالمية الغربية 202
العالميون 503
عبادة الأم الكبرى 536
عبادة الأوثان 536، 537
عبادة القائد 530
عبادة النار والنور 635
عبد الناصر 184
العثمانيون 255
العجل الذهبي 538
العداء للوطن 212
العدو 644
العدو الشامل 123، 124
العدو القادر 314
العدو المحتمل (رقم (1)) 311، 315، 317، 318، 320، 321، 345
العدو المشترك (مبدأ) 261، 262، 275، 280، 286، 306، 308، 419
عذراء أورليان 615
العذراء الطاهرة 633
العراق 71، 148، 162، 287، 293، 294، 416، 449، 491، 493، 584
العرب 448، 449
العربية السعودية (الوهابية) 287، 289، 290، 293، 491، 493، 494
العرق 240، 419، 441
العرق الأبيض 538
العرق الروحي الآري 540
العرق السامي 564
العرق الميتافيزيكي 539
العرق النوردي القديم 538
العرق الهيبيربوري 539
العروبية 287، 289
العزلة الاستعمارية 492
العزل الاقتصادي 331
العصر البريموردياليّ 538
عصر التيودورات 566
عصر الثورة التقنية 593
عصر السكالد 537
عصر الكشوفات الجغرافية 613
عصر كولومبوس 551، 552
العصر المظلم 542
عصر النقود 169
العضوانية 194
العفويات الحضارية 625
العفوية المائية 354
العقائدية الشيوعية 276
عقدة غورديوس 223
عَقْرَبا نيغوريلي 572
العقل المحض 535
العقلانية الصارمة 119
العقلانيون الأفظاظ 598
عقيدة التثليث والغرب 600
العقيدة العسكرية 344، 345، 346
العقيدة الكنسية 616
العكازة اللاتينية 63، 450
علاقة الدولة بالمكان 212،
علم الاجتماع 70
العلم البورجوازي الزائف 146
علم البيئة 75
علم الحياة 75
العلم الدنس 523
علم المستقبل 70
العلمانية 227، 428
العلوم الزائفة 523
العمالقة المتمردون 537
عمالة النفوذ 504
العمامة التركية 448، 450، 463
عملاء الأطلسية 184
عملاء التأثير 247، 290
عملاء التأثير الجيوبولتيكيون 641
عملاء التأثير العولميون 499
عملاء واشنطن السياسيون 590
العملية الإقليمية 226
العناصر التخريبية 246
العنصرية 540

العهد الثالث 170
العهد الجديد 452، 630
العودة العظمى 545
العولمة 157، 158، 163، 168، 169، 181، 192، 200، 476، 481، 484، 486، 489، 491، 492، 495، 497، 504، 646، 648
عولمة البحر 628
العولمة الجديدة 172
عولمة روسيا 498
العولمة، العالم الواحد 647
العولمة ما بعد الكارثية للبروفيسور سانتورو 172
عولمة وسائل الإعلام 71
العولمية 177، 508
العولمية الثانية 165
العولميون 471، 500، 501، 505، 544
العولميون الروس 474
العولميون ضد القوميين 508

- غ -

الغابات الشمالية 566، 575
غابات النباتات الجنوبية 575
الغابة والسهب 195
غارات السهوبيين 568
غارسيا (دييغو) 190
غاك (كريستوف) 588
غاليتسيا 429، 430، 436، 437، 465
الغانج 564
الغائية الجيوبولتيكية 65
غراي (كولين) 150
الـغـرب 159، 161، 165، 180، 201، 203، 213، 232، 243، 248، 257، 265، 420، 422، 425، 481، 511، 513، 519، 597، 598، 601، 635
الغرب الأطلسي 515
الغرب الأقصى 277، 284، 452
غرب أمريكا 421
الغرب الأوراسي 207
غرب أوكرانيا 430
الغرب الجزيري 515
الغرب الجيوبولتيكي 530
الغرب الروسي 349، 424
الغرب الغني 263
الغرب: مرادف التالاسوكراتيا، الأطلسية 646
الغرب المسيحي 447
الغرب والآخرون 159
غربان 420
الغربنة (الجيوبولتيكية) 346، 579
الغربيون 209
غري (كولين س.) 143، 148
الغزاة الدانمركيون 553
غزو (الفضاء) (الفضاءات) 155
الغزوات المنغولية 88
الغطرسة البيضاء 544
الغواصات الذرية (النووية) 310، 313، 351
غوام 153
غوبلز 583
غوت (القرم) 553، 558، 559، 578
غوتمان (جون) 596، 597
غوته 266
غورباتشوف (الكساندر ياكوفليف) 171
غورباتشوف (ميخائيل) 167، 168، 474، 480
الغورباتشوفية 474
غورديوس 223
الغول الموهوب 594
غولوا (بيير - ماري) 177
غوميليوف (ليف) 147، 194، 195، 196، 197، 199
غوميليوف (نيكولاي) 127
الغوميندان 413
غويشياني 167
الغيبية 188
الغيريليا اللاتينو - أمريكية 633
غيكل (إيرنست) 75
غينون (رينيه) 199، 634، 635، 636، 637
غينيا الجديدة 190

- ف -

الفاتيكان 456، 458
ڤارا 532
فارس 560، 561، 562، 568
ڤارناخ (ڤالتر) 604
الڤارياغ (الشماليون) 557، 559، 583
ڤاسيليوس 448

الفاشية (الأوروبية) 143، 146، 628
ڤالاخيا 457
ڤالين 171
القامبوكا الجغرافية 577
فان نولي 430، 460
الفاناريوت 449
الفاوستية 348
الفايكنغ 564
فايمار 139
الفتوحات البرتغالية - الإسبانية 525
الفدائي 123، 125، 650
الفرات 564
الفرانك 553، 556
فرجيل (إينياس) 614
الفردانية 304
الفرس 93
ڤرساي 116
فرقة الـ SS 583
فرنادسكي (ف.) 126
فرنسا 71، 82، 83، 84، 90، 102، 103، 104، 114، 116، 131، 144، 146، 177، 179، 208، 235، 253، 266، 267، 268، 269، 277، 283، 284، 320، 321، 334، 421، 423، 440، 453، 455، 465، 481، 511، 512، 515، 518، 553، 554، 556، 558، 559، 568، 582، 583، 584، 585، 588، 590، 612، 613، 621
فرنسا الأطلسية 137
فرنسا (الدولة - الأمة) 512
فرنسا الشرقية (كتاب) 139، 104
فرنسا ضد ألمانيا 102
فرنسا من أجل قوة بحرية 103
فرنسا ميتران 591
الفرنسيون 83، 136، 296، 471، 513، 558، 585، 587، 591، 592، 614، 621
الفرنسيون الصهاينة 585
فريدريخ = ليست (فريدريخ)
فريدمان (سيرج) 280
فريمان 553
الفعالية 195
الفقراء (الجدد) 329، 506
الفكرة الإلهية 236
الفكرة الروسية 309
الفكرة العظمى 455، 456
الفلاحة 616
ڤلاديڤوستوك 92، 183، 192، 213، 383، 384، 385، 390، 391، 416، 426، 567، 581، 586
ڤلاديمير 346، 433
الفلاندر 465
فلاندريا 615
فلسطين 293، 585
فلسفة 204
الفلسفة العضوانية 195
الفليبين 190
الفن المقدس 608
الفنار (حي) 449
الفناريوت الروحي 451
الفناريوت (الفناريوتية) 461، 462
الفناريون 457
فنلندة 354، 364، 367، 368، 369، 424، 426، 427، 568، 587، 588
الفنلندة الجديدة 369
الفنلنديون 357، 536
الفهم الامبراطوري 587
الفوضى الحضارية 88
ڤوڤسكايا 436
فوكوياما (فرانسيس) 157، 158، 159، 169، 170، 172، 173، 201، 221، 647
الفولاذ المسبوك 618
الفولجا 214
الڤولخڤي 527
الڤولغا 560
فولغاغودسك (منطقة) 369
فولفوغراد 402
ڤولوار 189
ڤولين 429، 436، 437
فون شتاين (لورينس) 612
فون لوهاوزن (يورديس) 268
ڤويڤودينا 457
ڤيتنام 313، 416، 418
ڤيتنام الشمالية 148
ڤيتي 330

الفيتيشية 536، 537
الڤيد القدماء 532
الفيدرالي الأوكرانية الغربية 437
فيدرالية البحر الأسود والبلطيق 273، 274، 433
فيدرالية البلطيق 426
الفيدرالية الروسية (ف.ر) 225، 227، 229، 230، 300، 314، 321، 470، 471، 503، 507
الفيدرالية القوقازية 404
الفيربالية (فيربالين) 345، 567
فيرت (هيرمان) 635
فيركوتا 370
ڤيرنادسكي (غ.) 197
فيشي 512
الفيلبين 153، 286، 377، 418، 511
فيليب (لوي) 612
الفيليوكوي 445
فينيبيغ 590
فينيسيا 556
فيورباخ 246
ڤيينا 429، 557، 563

- ق -

قادة التريلاتيرال 171
القادة الروحيون 131
القارة الأطلسية 108
القارة الأمريكية 248
القارة: الأوراسيا (اليابسة) 86، 241، 647
القارة السفينة 633
القارة السوداء 293
القارية 647
القارية الأوروبية 144
القارية اللاأوراسية 137
قازان 382، 383
القاسم المشترك 233
قاعدة تورّيس فيرداس 569
القانون الأوراسي العام 656
القانون الأوروبي العام 656
قانون التوسع 78
القانون الجيوبولتيكي 122، 259
قانون حقوق الدول 234
قانون القوة 169
قانون متوالية المدى المكاني 651
القانون المدني الأوروبي 307
القبيلة الذهبية 93، 561
قبيلة الغوت = الغوت
القدرة البحرية 98
القدرة القومية 332
القدرية 531
القدس 562
قدماء الفرس 359
قدماء المصريين 528
القراصنة الإنجليز 633
قراصنة البر 88
قرصان 616
قرطاج 60، 88، 259، 201
قرطاج الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية 64
قرطاج ضد روما 637
قرطاج (القديمة) 98
القرطاجيون 592
قرغيزيا 395، 571
قرغيزيا الجنوبية 407
القرم 249، 300، 435، 436، 572، 575
قزوين 401، 402، 557، 558
القسطنطينية (استامبول) 446، 448، 449، 450، 451، 455، 459، 558
قسم تل أبيب ـ واشنطن للدعاية 583
قصور النظر 185
قطب التيلوروكراتيا 525
القطب الراسخ 533
القطب الشمالي 354، 360
القطب القاري 259
القطب الواحد 202
القطبية السكونية 603، 611
قلب العالم 86
قلعة الأوراسيا 214
قناة بناما 568
قناة السويس 566
القوات البرية 316
قوانين الجيوبولتيكا 70
قوانين المدى الكبير 476

القوزاق 552، 556
القوقاز 151، 290، 291، 378، 395، 396، 401، 402، 404، 522، 575
القوقاز الشمالي 401، 402
القوميات البلقانية 518
القومية الأرثوذوكسية 304
القومية الاشتراكية 588
القومية الألمانية 582
القومية الترابية 587
القومية الروسية ـ الديموغرافية الاثنية والامبراطورية 301
القومية (الروسية) الصغرى 244، 257، 298، 302، 305، 321، 486
القومية الضيقة 488، 519
القوميون 325، 501
القوميون الإيجابيون 305
القوميون الصغار 264
القوميون الكلاسيكيون 179
القوة (القوى) البحرية 70، 94، 95، 98، 101، 104، 107، 110، 112، 114، 115، 121، 143، 150، 156، 360، 375، 399، راجع أيضاً التالاسوكراتيا
القوة (القوى) البرية 110، 112، 114، 121، 202، راجع أيضاً التيلوروكراتيا
القوة الثالثة 499
القوة الجيوبولتيكية 107
القوة عن طريق البحر 524
القوة عن طريق البر 524
قوى الأرض (بَهيموت) 121
القوى الأوروبية الثلاث 510
القوى البحرية في التاريخ 94
القوى الداخلية 316
القوى اليعقوبية 517
القياصرة 610
قيرغيزيا 406
قيصر 586
القيصر الأبيض 346
قيم السوق 641
قيمة الفردية 530

ـ ك ـ

كابول 411
الكابيتول 176
كاتالونيا 465
الكاتيخون 451
الكاثوليك (الكاثوليكية) 427، 430، 431، 436، 445، 447، 453، 460، 461
الكاثوليك الباقاريون 599
الكاثوليك ـ السلاف 429
الكاثوليكية الرومانية 598
الكاديت 126
كاراباخ (ناغورني) 229، 249، 291، 405، 411
كاراغيورغيفتش 457
كاراكالباكيا 407
الكاربات 555، 561، 575
كارتشولو (لوتشو) 177
الكارتيزيائية 532
كارساڤين 134، 140
الكاريبي 153
الكاريل 357
كاريليا 148، 354، 358، 364، 368، 370، 427
كازاخستان 214، 249، 291، 292، 299، 300، 378، 385، 395، 406، 407، 413، 417، 418، 491
كازاخستان الشرقية 383
كازاخستان الشمالية 378
الكازاخيون 299
الكازاك 401، 565
الكالسيوم 576
الكالفينية (الكالفينيون) 452، 598، 637
الكالميك 556، 583
كاليغري 469
الكالي يوغي 542
كالينغراد 274، 285، 427
كامتشتكا 357، 373
كامينوغورسك 383
الكانتية 532
الكبح 154
كبش الفداء 266، 283، 292، 293، 296
كتاب شروح المسيحية 446
كتائب التحرير الأوروبي 184
الكتلة القارية للجزيرة العالمية 88
الكراتوبوليتيكا 82، 647

كراسنودار (إقليم) 395، 403
كراسنويارسك 371، 383
الكرسي الروماني 445
كرمان 562
الكروات 399، 510، 513، 514، 515، 516، 520، 521
الكروات الكاثوليك 457
كرواتيا 116، 429، 439، 457، 461، 514، 518، 521، 561
كروموبل 613
كرياكسك 358
كشمير الهندية 411
الكشوفات البرتغالية 614
كلميكيا 283، 402
كليلان (مك) 100
كلية لندن للعلوم الاقتصادية 85
كنائس قبرص 449
كندا 565، 568، 590
الكنيسة 302، 303
الكنيسة الأرثوذوكسية (الروسية) 252، 446، 447، 461، 464
الكنيسة الأونياتية 429
كنيسة روما 452
الكنيسة الروسية 252، 450
الكنيسة الشرقية 291، 445، 448
الكنيسة الواحدة 302
الكنيسة اليونانية 449
الكوارث الحضارية 172
كوبيتداغ 405، 574
كودينوف 469
كوربان (هنري) 636
كورسكايا 435
كورش (كارك) 659
كوريا 393، 416، 568
كوريا الجنوبية 148، 153، 320
الكوريل 285، 286
كورينمان (ميشيل) 177
الكوسموبولتيكية 222، 279
الكوسموبوليتيون ضد القوميين 500
الكوسموس (الكوسموسية) 535، 536، 627، 630، 638
الكوسموس المفتوح 622
كوسوفو 461
الكوكا ـ استعمارية 488
الكوكب المستدير 92
كولا (ألكسندرا) 193
كولتشاك 92
كولنغوود (ر.ج.) 607
كولومبوس 93، 551، 621، 629
كولومينسك 462
الكومان 556
كومسومولسك 389
الكومنترن 116
كومي (جمهورية) 357، 358، 370، 371
كون لون 417
كونت (أوغست) 163، 610
الكونسينسوس 506
الكونغرس البانأفريقي 228
الكونغو 585
الكونفوشيوسية 161، 542
كونفيدرالية الآماد الكبرى 294
الكونفيدرالية العالمية 164
الكونكيستا المسيحية 599
كونكويستادور 599، 634
كويبيشيف 383
الكويت 71
كوين (س.ب.) 148، 149
كيرتش 400
كيرك (أ.) 110، 148، 149، 162، 375
كيستلر (أرتور) 187، 593، 594
كيسلوفودسك 403
كيسنجر (هنري) 148، 149، 171، 656
كيميروفو 383
كينسر 330
كينيغسبيرغ 186
كييف 317، 346، 433، 437، 557

ـ ل ـ

لا إنسانية 540
لا أوروبا ولا آسيا بل الأوراسيا 209
لا الغرب، لا الشرق، بل أوروبا 181

لا الشرق ولا الغرب 209، 211
لا عدو لألمانيا في الشرق 275
لا عولمة الجيوبولتيكا 175
لا معنى لروسيا بدون امبراطورية 235
لا وعي الأوراسيا 634
لابلانديا الفنلندية 369
اللاتركيب الجيوبولتيكي لأوكرانيا 432
اللاتعادل 347
لاتقيا 427
اللاتقيون 425
اللاتكال الترابي 416
لاقال (الأميرال) 104، 136، 137
لاكوست (إيف) 146، 174، 175، 176، 177، 343
اللامركزية 466
اللامرونة 327
اللامرئي 534
اللاموسكوفية 290
اللامية (لاميّون) 387، 388
اللان 88
اللاهوت 610، 630
اللاهوت العقلاني 445، 447
لايبزيغ 76
اللباقة السياسية 143
اللّبرلة 168
لبنان 449، 589
اللجنة الثلاثية 168، 171، 178، 285، 306، 329، 413، 653
لصوص البر 128
لعبة البوكر الذري 589
اللعبة الكبرى 642، 643
لقوڤيتس 203
لكاموينيس (لويزيادا) 614
لندن 188
اللوبي الأونياتي 461
اللوبي البوذي (الداوسي) 283
اللوبي العولمي العالمي 497، 499، 501، 502، 503، 505، 507، 508
اللوبي الموالي لروسيا 461
لوبيس أيبور (خوان خوسيه) 600
لوحة جغرافية فرنسا 102
لوحة ماكيندر (الجيوبولتيكية) 110، 128
لودج (هنري كابوت) 94
اللورين 104
اللوغوس 533، 535
لوهاوزن (يورديس فون) 184، 185، 186، 187
لوياثان 150، 629، 633، 647
لويزا (ماريا) 602
الليبرالية 57، 58، 104، 332، 469، 647
الليبرالية الاقتصادية 530
الليبرالية ـ الديموقراطية 647
الليبرالية السياسية 104
الليبراليون 223، 333، 335
الليبراليون الروس 473
ليبيا 162، 287، 293، 294، 491
ليتوانيا 427، 428، 432، 485
الليتوانيون 425
ليست (فريدريخ) 182، 329، 330، 331، 333، 634
ليسنغ (غيبيات) 163
ليف (البابا) 127، 556، 597
الليفانتية 397
لينا 560
لينين 330، 238
اللينينية 586
ليونتيف (كونستانتين) 126، 127، 231، 514

- م -

ما بعد الحداثة 650
ما بعد كولومبوس 93
ما بين النهرين 561
ما فوق المنطقية 576
ما وراء البحار (العالم الأنجلوساكسوني) 515
ما وراء الحضارة 648
ما وراء القوقاز 572
الماء 526
الماء الأرضي 524
الماء (أو البحر) يعني التالاسوكراتية 644
ماخاتشكالا 403
الماديار 556
مارتا 112
ماركس (كارل) 58، 116، 327، 333، 593، 610،

628، 629، 630، 637
الماركسية 57، 58، 246، 506، 541، 581، 586، 619، 620، 627، 628، 633، 634، 659
ماركسية السوڤيات 167
ماركوبولو 561
ماربيل 381
مازاريني 582، 588
المازوشيون 588، 589
ماستريخت 422، 469
الماسونية الفرنسية 519
الماسونية السكوتلندية 165
الماسونيون 515
ماغدان (منطقة) (إقليم) 358، 373، 391
ماكندر (سبيكمان لا) 629
ماكيندر (هيلفورد) 85، 86، 88، 90، 91، 92، 93، 94، 100، 104، 106، 110، 112، 121، 128، 132، 133، 137، 138، 143، 146، 148، 150، 162، 169، 177، 192، 207، 232، 259، 260، 277، 348، 368، 371، 373، 374، 375، 425، 476، 529، 551، 601، 631، 643، 657
مانسيسك 385
المانسي 357
مانغي (الصين الجنوبية) 561
ماهان (ألفريد) 94، 95، 98، 100، 101، 104، 105، 110، 112، 132، 133، 137، 138، 140، 146، 150، 161، 169، 177، 192، 277، 565
الماوّية 541
مايكوب 403
ماين كامبف 112
ماينغ (د.أ.) 148، 149، 162
مبادىء الثنائية الجيوبولتيكية الكونية 67
مبادىء راتسيل 82
المبدأ الاستراتيجي للفيدرالية الروسية 225
مبدأ الأناكوندا 100، 101
مبدأ التكامل القاري العام 393
مبدأ اللاتدخل 98
مبدأ المركزية 334، 335
مبدأ مونرو (الاستراتيجي) 217، 334، 422، 569
مبدأ الوقف 101
مبشرو الكنيسة اليونانية 557
المبنى المبدّد 573
متروبول 421، 422
المتعددة الأطراف 72
المثل الديمقراطية والواقع 90، 92
المثلث الخزري 403، 404
المجال الديمرقراطي الموحّد 474
المجال الكبير 122، 123، 334، 465، 519، 643
المجال الكبير الجديد (الأوروبي) 481، 483
المجتمع 649
مجتمع الاغتراب 329
المجتمع التقليدي 121
المجتمعات الاستبدادية 538
المجر 277، 425، 429، 433، 439، 459، 461، 485، 511، 516، 558، 561
مجرس 578، 579
مجرمو الحرب 119
مجزرة المرسى الكبير 584
مجلس العلاقات الدولية (CFR) 165، 652
مجلة إيلمنتي 147، 197، 200
مجلة الجغرافية (والجيوبولتيكا) 86، 174
مجلة الجيش السوڤياتي 583
المجلة الجيوبولتيكية الإيطالية الجديدة 177
مجلة (نووڤي أنجلولاتسيوني) 193
مجلة هيرودوت 146، 177
مجمع أورالو - كوزنيتسكي 571
المجمع الحربي الصناعي 320
مجموع حزام سيبيريا 390
مجمع الصناعات الحربية 336
المجمع العسكري الصناعي 360
مجمع فلورنسة 448
محاكم نورمبرج 119
المحاور الداخلية (الإشعاعات الجيوبولتيكية) 349
محدثو الرغوة في البحار 615
محطة سوتشان 572
محفل الأطلسيين 188
محفل الأوراسيين 188
المحور 650
محور الأرض 137
محور باريس - برلين 423، 440
محور برلين - روما - طوكيو 116
محور برلين - موسكو 269، 273

محور برلين موسكو ـ طوكيو 114
محور التاريخ 215
محور تشيليابينسك ـ خاباروفسك 384، 385
المحور الجغرافي للتاريخ 85، 86، 88، 90، 91، 92، 100، 106، 131، 135، 147، 149، 196، 203، 207، 239، 260، 343، 344، 346، 347، 350، 374، 376، 381، 392، 411، 438، 551، 552، 644
المحور الجيوبولتيكي برلين ـ موسكو ـ طوكيو 322
المحور الجيوبولتيكي للتاريخ 232، 384
المحور الداخلي 643
محور الشمال ـ الجنوب 363، 364
المحور الغربي: موسكو ـ برلين... 265
المحور القاري 349
محور مورمانسك ـ موسكو 369
محور موسكو ـ أرخانغلسك 369
محور موسكو ـ برلين 274، 275، 284، 293
محور موسكو ـ بكين 280
محور موسكو ـ طهران 286، 287، 289، 290، 291، 292
محور موسكو ـ طوكيو 279، 280، 283، 284
محور موسكو ـ طوكيو: المشروع البآنسيوي... 275
محور موسكو ـ نوفوسيبيرسك 390
محور موسكو ـ يريفان ـ طهران 404
المحيط الأطلسي 107، 108، 109، 525، 559، 601
المحيط البارد الشمالي 560
المحيط الداخلي 643
المحيط الكوني 121
المحيط المتجمد الشمالي 357
المحيط المتوسط 107، 108، 110، 190، 643، 652
المحيط المفتوح 636
المحيط الهادىء (منطقة) 100، 111، 114، 171، 277، 278، 279، 280، 284، 287، 296، 306، 316، 323، 324، 375، 377، 378، 384، 386، 391، 405، 413، 535، 559، 562، 568، 575، 601، 635
المحيط الهندي 189، 190، 248، 276، 289، 559، 562، 564، 614
المخدرات 591
مخطط تقريبي 456
مخلفات الفاشية 146
مدرسة إيڤ لاكوست 146، 175، 176
المدرسة الجغرافية الفرنسية 102
المدرسة الجيوبولتيكية الألمانية 102
مدرسة هاوسهوفر 103، 143، 146، 180، 188، 348
المدرسة الهيغلية 609، 611
المدى 651
المدى الاحتياطي 347
المدى الجيوبولتيكي الكبير 199
المدى الحيوي 301، 646
المدى العربي الكبير 494
المدى الكاريلو... فنلندي 368، 369
المدى الكبير (مبدأ) 180، 476، 492، 496
المدى الكبير الإسلامي الآسيوي 494
المدى المحتمل 371
المدى والثقافة 240
المذبح المقدس 632
المذبحة الغبية 285
المذبحة اليوغوسلافية 521
مراجعة ماكيندر مركزية الـ (rimland) 105
المرتفع 446
مرحلة بطرسبرج 451
مرحلة يالطا 518
المركز الأمريكي 479
المركز التاريخي 346
المركز الجيوسياسي السري 147
المركز ـ الشرق 377
مركز فيركوتا 370
مركز القرارات 147
المركز والأطرف 346
المركزية 250
المركزية الاستراتيجية... 362
المركزية الروسية 475
المركزية الصارمة 362
مركزية موسكو 649
مريم العذراء 599
المساحة المركزية 90
المسألة الروسية 306
المسألة الفنلندية 364
المساواة 612

المستعرقون 428
المستعمرات (المستعمرة) 95، 613، 647
المستقبل الأوراسي 361
مستقبل روسيا الجيوبولتيكي 219
المستقبل المشترك 180
مستوطنات بومورية 369
مسرحية الأوراسيا الدينية 634
مسلمو البوسنة 457، 461، 516
المسلمون 201، 261، 283، 336، 399، 410، 522
المسلمون الألبان 510
المسلمون ـ الأويغور 411
المسلمون الهنود 412
المسلمون اليوغوسلاف 517، 520، 522
المسيح (عليه السلام) 462
المسيح الدجال 446، 462
المسيحية 232، 446، 493، 562، 566، 587
المسيحية الأرثوذكسية 635
المشاريع القيصرية 222
مشاريع ميتران الفرانكو ـ جرمانية 267
المشاعر القومية المبشرة 255
المشاكل الجيوبولتيكية (في الخارج القريب) 343، 476
مشاكل المركز ـ الأطراف 364
المشروع الآسيوي 264
المشروع الامبراطوري 471
المشروع البانآسيوي 279، 283
مشروع «بعث الشمال» 545
مشروع التكامل الجمركي الأوراسي 334
مشروع ديغول 423
المشروع السوڤياتي ـ القيصري 222
المشروع العالمي 469
المشروع العروبي 292، 293
مشروع العولمة اليسارية 545
المشروعية الامبراطورية 227
مشروعية ما بعد الامبراطورية 227، 228، 230
مشكلة آسيا 94
مشكلة أوكرانيا (ذات السيادة) 400، 438
مشكلة الـ Rimland 209، 211
المصالح الاستراتيجية (للفيدرالية الروسية) 225، 226
مصالح أوروبا (مصالح ألمانيا) 83
مصالح الدولة 224
مصالح الشعوب 76
المصالح القومية الروسية 230، 234
المصالح الوطنية واللوبي العولمي 497
المصالحة 506
مصائر العلماء ـ مصائر الدول 138
مصر 90، 287، 293، 449، 563، 568، 608
مصر القديمة 551
المصلحة الجماعية 331
مصيدة «البانتوركية» 492
مصيدة الدولة الجهوية 241
مصير الأوراسي 126
مصير أوروبا القاري 180
مصير روسيا في الأوراسيا الامبراطورية 297
المصير المعلن 98
المعادلة القطبية 359
المعادلة الواقعية 159
المعادون للسوڤيات 247
المعارضة 223
المعارضة القومية ـ الوطنية 222
المعارضة الموحدة 222
المعارضة الوطنية 222
معايير التفكير السياسي 181
المعبد البوذي الأوراسي 283
معبد سليمان 636
المعجزة الاقتصادية 330
المعرفة 593
معركة الختام 189
معركة الخنادق في سيل الـ Lenaland 391
المعركة العالمية 278
معركة واترلو 603
المعسكر الإسلامي 214
المعسكر الاشتراكي 480، 543
المعسكر البوذي 283
معسكر جيوبولتيكي 294
المعسكر الشرقي 156، 213، 433
معسكر الغرب الرأسمالي 248
المعسكر الغربي 345، 433
المعسكر الفرانكو ـ جرماني 213

المعسكر القاري 140، 318
المعسكر اللوثري 452
المعسكر اليساري 179
معسكرات الاعتقال 139
المعمدانيون 633
المعهد التقني بميونيخ 76
المغامرة الهتلرية 441
مغاني الروح 238
المغرب 286، 293
مغزى المدى 651
المغول 583
المفارقة الروسية 480
مفارقة العالم الثالث 541
مفتاح السيطرة العالمية 106
المقاربة العضوانية 174
مقرّ الشياطين 527
المقرطة 591، 592
مقياس المدى المكاني 644، 651
المقياس المؤقت 644، 651
مكدونيا 398، 399، 400، 405، 411، 455، 459، 461، 518
المكدونيون 457، 510، 517
الملاحة 95
الملامح الجيوبولتيكية والإيديولوجية... 257
الملائكة 533
الملكية (الخاصة) 330، 331، 616
ملموسية الطوفان المسكوني 627
الملهم الفكري للناتو 110
الملوك السعوديون 493، 494
الممكن 103
المملكة الأرثوذوكسية 450
مملكة الألف سنة 463
المملكة القارية للفكرة المطلقة 241
مملكة الكم 637
مملكة المغترب 528
مملكة النور 238
من البلقان إلى منشوريا 418
من الجغرافيا المقدسة إلى الجيوبولتيكا 523
من القارات إلى ما وراء القارات 538
من يسيطر على الـ (rimland) 106
المناطق الحدودية 69
مناطق الحواف 149
المناطق الشاطئية 106، 162
مناطق متغيرة الأحجام 69
المناطق والجبال ـ الحدود 393
المناقشات البيزنطية 599
مناورة تكتيكية 179
منجوريا 560
مندلييف (د.إ.) 571
منشوريا (الصينية) 151، 378، 383، 385، 418، 560، 567
المنطق الآلي للسوق 329
المنطق الانفصالي 371
منطق السؤال ـ الجواب 607، 608، 611
منطقة آمور فاالألتاي 368
منطقة الازدهار الجديد 171
المنطقة الأمريكية 284
المنطقة الأوروبية 284
منطقة البحر الأبيض المتوسط 108
منطقة التجمد الأبدي 354
منطقة الحافة 108
المنطقة الرابعة 645، 654
المنطقة الساحلية 67، 92، 412
المنطقة السهبية 555
المنطقة الشاطئية الـ (rimland) 147، 642
منطقة طرفية في المستقبل 351
منطقة محايدة 69
منطقة المحيط الهادي = المحيط الهادي
المنطقة المعقدة 67
منظمة الأمم المتحدة 165
منع الحمل 303
منغوريا 20، 111، 560
المنغول 382، 383، 535، 556، 562، 563
المنغول الأوراسيون 580
منغوليا 148، 280، 283، 378، 383، 387، 388، 389، 395، 413، 417، 418، 525، 557، 561، 567، 571، 578
المنغولية 578
مهام إبداع ثقافي 573
مهد الحضارة 69

المهمة الرئيسية 495
مهندس النصر الأمريكي 108
مهندس النصر العالمي 110
المواجهة بين الشرق والغرب 595
المواجهة الكونية 606
الموارد الطبيعية (الروسية) 322، 324
موالاة الفاشية 519
موبي ديك 629
مؤتمر ڤرساي 91
مؤتمر يالطا 582
موتي (كلاوديو) 193
موجهة تالاسوكراتيا 149
مودّة السوڤيات 181
موراڤيا 429، 561
الموروث (الموروثات) 523، 535، 543
موردوفيا 381
مورغان 165
مورمانسك (الشمالية) 358
مورمانسك (منطقة) 360، 368، 369، 370
المورمون 633
موريللي (موريتسيو) 193
الموزاييك 574
موسكو 71، 115، 116، 167، 168، 171، 184، 188، 224، 229، 240، 255، 267، 268، 274، 290، 292، 294، 311، 317، 335، 336، 346، 347، 348، 351، 362، 369، 374، 375، 382، 384، 390، 391، 393، 395، 399، 400، 401، 403، 405، 410، 411، 412، 418، 423، 424، 425، 427، 428، 430، 431، 433، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 449، 450، 451، 458، 461، 462، 480، 488، 566، 602، 614، 649
موسكو ـ الجنوب 349، 350
موسكو ـ روما الثالثة 463
موسكو ـ الشرق 349، 350
موسكو ـ الشمال 349، 350، 363
موسكو ـ الغرب 349، 350
موسوعة الأيقونوغرافيا الأوروبية 596
موسوعة بروكسل 190
الموقع الجغرافي للدولة 95
مولداڤيا 275، 387، 395، 431، 439، 457، 484، 485
المولداڤيون 436، 485
موملر 137
مونتريال 590
الموندياليزم 144
مونرو (الرئيس) 98، 147، 591
مونيه 469
الميتابولتيكا 592
الميتافيزيكية 143، 537، 610، 634
ميتران (فرانسوا) 169
ميتغارد 631
الميتولوجي 359
ميثاق رو بينتروب مولوتوف 90
الميثاق القطبي الشمالي 369، 374
ميدان المعركة 591
ميدڤيديف 171
الميدياكراتيا 176
الميسيسيبي 568
ميلانو 172، 192، 556
الميليتي (فاليس) 631
ميناء نوفوروسيسك 395
مينيابوليس 590
ميونيخ 111

- ن -

نا أموري 389
نابليون 266، 564، 602، 603، 628
الناتو (حلف شمالي الأطلسي) 91، 101، 108، 144، 150، 158، 168، 181، 310، 314، 319، 345، 424، 427، 589
نادي بيلديربيرغ 165، 642
النار 632، 639، 649
النازيون 112، 114، 585
الناسيونال 190، 197، 200
الناسيوناليون 467
ناغورني كاراباخ 405
الناقص الأنطولوجي 529
نالتشيك 403
نانسن 551
ناومن (فريدريك) 81، 83، 84، 181
نبضات التوسع القاري 351
نبوءة كيستلر 593
نِتِشڤو (لا بأس) 531

النتوء الغربي 436
نحو امبراطورية أوراسيّة جديدة 256
نحو ثنائية جديدة للقطبين 201
نحو نظرية أوروبا الوسطى 83
النرويج 426، 427
نزاربايف (ن.) 200
النزاع الإيراني ـ العراقي 294
النزاع بين العراق والكويت 71
النزاعات العالمية 277
النزاعات الكونية 601
النزاعات الهندو ـ باكستانية 412
النسّاك 527
نصف استعماري 100
النضال الطبقي 167
النضال الوطني التحرري 488
النطاق الصحي 69، 151، 269، 273، 424، 425، 426، 430، 433، 438، 486، 487، 488، 489، 492، 493، 494، 522، 651
النظام الأطلسي للقيم 202
النظام الاقتصادي 336
النظام الإقطاعي 236
النظام الأوراسي الجديد 112
النظام التجاري 261، 531، 641
النظام الجديد 114، 324، 649
النظام الجيوبولتيكي الجديد 397
النظام الجيوبولتيكي الجديد في آسيا الوسطى 405
النظام الجيوبولتيكي الجديد في القوقاز 403
النظام الجيوبولتيكي الجديد للجنوب 392
النظام الحكومي 304
النظام الشمولي 278
النظام العالمي الجديد 114، 144، 469، 479، 480، 488، 494، 498، 499، 505، 519، 545، 642، 649
النظام العلماني التركي 287
النظام القيصري 236
النظام الكوني الجديد 479
النظام المالي الجهوي 338
النظام المصرفي 336
نظام مفتوح 378
نظام الملّة الأرثوذوكسية 448
النظام الهتلري 332
النظرات التاريخية لعلماء الجيوبولتيكا 659
النظرة الحضارية 654
النظرة من جهة البحر 421
النظريات والمدارس الجيوبولتيكية المعاصرة 141
النظرية الأطلنطيد الجديدة 108
نظرية الانعزالية الاقتصادية 643، 655
النظرية البوتامية للحضارة 86، 374
نظرية التقارب 167
النفثة العاطفية 196، 197
النفط العربي 493، 494
النفوذ التالاسوكراتي 401
نقد الآلية الحكومية السوفياتية 245
نقد الحكومية القيصريّة 251
النقص التقني 319
النمسا 84، 133، 277، 333، 429، 433، 439، 453، 456، 457، 459، 461، 485، 510، 513، 516، 557، 568، 602
النمسا الكاثوليكية 458
النمط التاريخي للتفكير 581
النمط السعودي الوهابي 287
النمور الآسيوية 320
نمور المحيط الهادي 320
نهاية التاريخ (لفرانسيس فوكوياما) 157، 158، 169، 171، 221، 222، 629، 630، 647، 656
نهاية المعسكر الشرقي 638
نهر الآمور 386، 560
نهر أوب 370، 560، 561
نهر أوسوّري 383
نهر تاريم 560
نهر الدنيبر 461
نهر اللينا 92، 348، 368، 375
نهر هيلموند 560
نهر البينيسي 561، 574، راجع أيضاً البينيسي
النواة القارية 149
نوبل (ألفريد) 618
نوتينغهام 612
نور الشمال 119، 537، 637
نور العالم 528
النورديزم 532

النوردي (النوردية) (النورديون) 535، 536، 537، 538
النوردية الروحية 540
النورمان 553
نوريلسك 371، 373، 391
نوفْجوورود 433
نوفوسيبيرسك 383، 390، 391
النوموس 120، 602، 649
نوموس الأرض 118، 120، 121، 122، 125، 133، 615، 627، 636، 637، 638
نوموس البحر 121، 124، 125، 135، 155، 156، 638
النوموس البري 124
نوموس النار 638
نوموس اليابسة التيلوروكراتيا 138
النونسنس الميتافيزيكي 130
النووي 312
نوى 149، 153
نيتر 528
نيتشه 541
نيكيش (أرنست) 133، 137، 182، 186، 199، 268
النيل 564
النينتسي 357
نيوبورت 94
نيوزيلاندة 190
نيويورك 108، 519

- هـ -

هابسبورغ 483
هابيل 636
الهابيننغ 591
هادامان 562
الهارمون الدينيون 196
هامبورغ 588
هاوسهوفر (كارل) 111، 112، 114، 116، 130، 133، 137، 139، 140، 143، 146، 177، 182، 184، 194، 199، 268، 278، 476، 529، 531، 585، 586، 638، 646
الهاوسهوفرية 659
هايدغر 120، 630
هايدلبرج 75
هايتي 153
هبوط القلب heartland هيرتلاند 86، 88
هتلر 111، 112، 115، 119، 139، 268، 269، 484، 519، 583، 584، 588، 589، 591، 593
هجرة العقول 320
الهجرة في الصين 76
الهرطقة اللاتينية 447
هرقل 622
هرقليط 632
هضبة الأورال 347، 561
هكسلي (أولدوس) 187، 593
الهلال الخارجي (أو الجزيري) 61، 87، 88، 91، 100، 106، 114، 122، 135، 137، 643
الهلال الداخلي (أو الحدي) 61، 86، 87، 91، 92، 93، 106، 128، 149، 570، 643، 657
الهمجية 540
هنا والآن 604
هنتينغتون (صموئيل) 157، 158، 159، 161، 162، 173، 201، 307، 652
الهند 69، 110، 148، 154، 204، 208، 213، 242، 275، 276، 286، 295، 296، 316، 377، 393، 406، 407، 411، 412، 416، 418، 491، 492، 536، 559، 561، 562، 563، 564، 565، 568، 569، 572، 573، 601، 611، 635، 636
الهند الآرية 635
الهند الصينية 190، 204، 393، 416، 418، 572، 573
الهند الڤيدية 637
الهند الهندوسية 541
الهند وكوريا 90
الهند أوروبي 296، 354، 357، 396، 399، 406، 407، 410، 580، 635، 636
الهندوس (الهندوسية) 209، 261، 276، 528، 532، 542، 611
هندوستان 634
هندوكوش 396
هنغاريا 269
الهنود 359
الهنود المسلمين 411
هنود أمريكا الشمالية 535
هوبس 593
هوروغ 411

الهوسيون 498
هولندة 138، 540، 588، 613، 637
الهولنديون 585، 614
هومبلدت (أ. فون) 575
هوميرلي 115
هوميروس 559
الهون 88، 93، 115، 553، 556، 559
هوندواند (ا) ي 534، 536
هونغ كونغ 283
الهونية 578
الهوية الإثنية الضيقة 504
الهيبيربوربا (قارة الشمال القديمة) 533، 534، 535، 538، 635
هيراقليط 631
هيرودوت 174، 559
الهيروغليف 633
هيس (رودولف) 111، 112، 584، 585
هيغل 240، 241، 609، 620، 630
الهيغلية 620
الهيلينية 573
الهيمنة الواقعية لرأس المال 629
هيندوكوش 561، 574
هيئة الأمم المتحدة 164

- و -

وادي فرغانة 407
وادي النيل 608
واشنطن 71، 167، 585، 588، 589
الوثبة التقنية المنطلقة 617
الوثبة نحو المحيط 363
الوثنية (الوثنيون) 536، 564
الوثنيون الجدد 428
الوجود البحري 122، 643
الوحدة 591
الوحدة الإثنية المتكسرة 367
الوحدة الاستراتيجية (للقارة) 264
الوحدة الأوروبية 423
وحدة الكل 131
الوسط الاجتماعي 130
الوضع المتوسط (المركزي) 84، 86
الوطن الأم العظيم 358
الوطنية الاشتراكية (الألمانية) 594، 638
الوطنية الرومانية 458
الوطنيون ـ البلشفيك (الألمان) 133، 188
الوطنيون الرأسماليون 261
الوعي الذاتي الإثني 303
الولايات الأمريكية ـ الشمالية 147
الولايات المتحدة الأمريكية 64، 65، 69، 83، 90، 95، 98، 100، 101، 104، 105، 108، 110، 114، 116، 143، 144، 149، 150، 151، 153، 158، 162، 164، 168، 169، 177، 180، 190، 199، 202، 203، 211، 213، 214، 217، 221، 229، 242، 248، 259، 261، 265، 266، 267، 274، 277، 285، 294، 296، 306، 311، 313، 315، 318، 319، 320، 321، 322، 324، 325، 331، 334، 345، 360، 370، 420، 421، 422، 423، 424، 463، 479، 486، 487، 492، 493، 494، 495، 511، 512، 515، 520، 525، 530، 540، 544، 554، 565، 568، 569، 582، 588، 591، 592، 595، 602، 629
الولايات المتحدة الأوروبية 469
ولفوفتس (بول) 162، 242، 487
الوهابي (الوهابية) 289، 493، 494
وهم الشمال الغني 539
ويجل (جورج) 159
الويكليفيون 598
ويلينغتون 569

- ي -

اليابان 101، 111، 114، 153، 161، 165، 190، 213، 253، 276، 277، 278، 279، 280، 283، 284، 285، 286، 295، 312، 318، 319، 320، 322، 323، 324، 329، 334، 384، 416، 418، 493، 499، 525، 531، 565، 568، 569، 570، 572، 573
اليابانيون 115، 255، 257، 278، 280
اليابسة 135، 155، 603، 653
اليابسة الأوراسية 200
اليابسة القارة 631
اليابسة والبحر 64، 259، 524، 604، 605
اليابسة والشمس 633
الياقوت (أحد فروع الترك) 357، 388

ياقوتيا الجنوبية 373
ياقوتيا (ساخا) 357، 358، 368، 373، 375، 386، 492
ياقوتيا الشمالية 373
ياكسارت 560
ياكوبسين (هانس - أدولف) 177
يالطا 518
اليان 529
يان تسزي 564
اليبوسة السماوية 524
التيوقراطية 236
يجب أن تدمر قرطاج 296
يرماك 552
يريڤان 405
اليساريون 471، 473، 474
اليساريون الجدد 465
اليعقوبية 104، 517
يكاتير ينبورغ 390، 391
يلتسين (بوريس) 171، 201
يلكينسون 565
اليمينيون 469، 471، 473، 474
اليمينيون الجدد 146، 179، 180، 181، 182، 184، 188، 189، 192، 199، 466، 471
اليمينيون الفرنسيون 179
اليمينيون القدامى 179
الينابيع 102
اليهود (اليهودية) 116، 528، 587، 637
يوغسلافيا 148، 313، 457، 461، 510، 513، 514، 515، 517، 518، 519، 522
يوغوسلافيا الأرثوذوكسية 510
يوغوسلافيا الصربية 514
يوغوسلافيا الكبرى 520
يونغر 120، 137
اليونان 148، 151، 398، 399، 400، 401، 449، 453، 455، 456، 461، 553، 565، 566، 558
اليونانية 397
اليونانيون (القدماء) 533، 601
اليونيسكو 164
يونيون (ناڤي) (Navy Union) 94
الينيسي 92، 370، 371، 373، 56، 575، راجع أيضاً نهر الينيسي

المحتويات

تقديم 5
مقدمة الطبعة الثالثة 37
مقدمة الطبعة العربية 45
مدخل 57

الباب الأول
آباء الجيوبولتيكا ـ المؤسسون

الفصل الأول : فريدريك راتسيل الدول ككائنات حية في المدى المكاني 75
1 ـ 1 التعليم: «المدرسة العضوية» الألمانية 75
1 ـ 2 الدول ككائنات حية 76
1 ـ 3 Raum ـ التنظيم السياسي للتربة 77
1 ـ 4 قانون التوسع 78
1 ـ 5 الـWeltmacht والبحر 79
الفصل الثاني : رودولف تشيلين وفريدريك ناومن «أوروبا الوسطى» 81
2 ـ 1 تعريف العلم الجديد 81
2 ـ 2 الدولة كصيغة للحياة ومصالحُ ألمانيا 82
2 ـ 3 نحو نظرية أوروبا الوسطى 83
الفصل الثالث : هيلفورد ماكيندر المحور الجغرافي للتاريخ 85
3 ـ 1 العالِم والسياسي 85

3 ـ 2 المحور الجغرافي للتاريخ 86
3 ـ 3 موقف روسيا المفصلي 89
3 ـ 4 ثلاث مراحل جيوبولتيكية 93
الفصل الرابع : ألفريد ماهان القوة البحرية 94
4 ـ 1 Sea Power 94
4 ـ 2 الحضارة البحرية = حضارة تجارية 95
4 ـ 3 إخضاع الولايات المتحدة الأمريكية للعالم manifest destiny 98
الفصل الخامس : فيدال دي لابلانش فرنسا ضد ألمانيا 102
5 ـ 1 لوحة جغرافية فرنسا 102
5 ـ 2 البوسيبيلزم 103
5 ـ 3 فرنسا من أجل «**قوة بحرية**» 103
الفصل السادس : نيكولاس سبيكمان مراجعة ماكيندر مركزية الـ rimland 105
6 ـ 1 في خدمة أمريكا 105
6 ـ 2 تصويب ماكيندر 106
6 ـ 3 سلم تقدير القوة 107
6 ـ 4 المحيط المتوسط 107
6 ـ 5 مهندس النصر الأمريكي 108
الفصل السابع : كارل هاوسهوفر «الحلف القاري» 111
7 ـ 1 الحرب والكر 111
7 ـ 2 النظام الأوراسي الجديد 112
7 ـ 3 حل وسط مع التالاسوكراتيا 115
الفصل الثامن : كارل شميدت بهيموت versus لوياثان 118
8 ـ 1 الثائر المحافظ 118
8 ـ 2 نوموس الأرض 120
8 ـ 3 الأرض والبحر 121
8 ـ 4 Grossraum 122
8 ـ 5 الحرب الشمولية وشخصية «الفدائي» 123

الفصل التاسع : بيوتر نيكولايفتش. . .
سافيتسكي «الأوراسيا ـ الأرض المتوسطة» 126
9 ـ 1 مصير الأوراسي 126
9 ـ 2 روسيا ـ الأوراسيا 128
9 ـ 3 طوران 129
9 ـ 4 بؤرة التطور 130
9 ـ 5 الايديوكراتيا 131
9 ـ 6 الاتحاد السوفياتي والأوراسية 132
الفصل العاشر : الجيوبولتيكا أداة للسياسة القوميّة 135
10 ـ 1 الثنائية الكونية ـ قانون الجيوبولتيكا الأساسي 135
10 ـ 2 لا يمكن لعالم الجيوبولتيكا إلا أن يُجتذب للعمل 136
10 ـ 3 مصائر العلماء ـ مصائر الدول 138

الباب الثاني
النظريات والمدارس الجيوبولتيكية المعاصرة
(النصف الثاني من القرن العشرين)

الفصل الأول : نظرة عامة 143
الفصل الثاني
2 ـ 1 أتباع سبيكمان ـ د.أ. ماينتغ، أ.كيرك س.ب. كوين،
ك. غري، هـ. كيسنجر 148
2 ـ 2 الأطلسيون كسبوا الحرب الباردة 150
2 ـ 3 الإيروكراتيا والأثيروكراتيا 154
2 ـ 4 صيغتا الأطلسية الجديدة 157
2 ـ 5 صدام الحضارات: أطلسية هنتينغتون الجديدة 158
الفصل الثالث : العولمة 163
3 ـ 1 خلفية العَوْلمة 163
3 ـ 2 نظرية التقارب 166
3 ـ 3 الانتصار العالمي للغرب 167
3 ـ 4 «نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما 169

3 ـ 5 «جيوايكونوميكا» جاك أتالي 169
3 ـ 6 العولمة ما بعد الكارثية للبروفيسور سانتورو 172
الفصل الرابع : الجيوبولتيكا التطبيقية 174
4 ـ 1 «الجيوبولتيكا الداخلية» ـ مدرسة إيف لاكوست 174
4 ـ 2 الجيوبولتيكا الإلكترونية 175
4 ـ 3 الميدياكراتيا عاملاً «جيوبولتيكياً» 176
4 ـ 4 تاريخ الجيوبولتيكا 176
4 ـ 5 «الجيوبولتيكا التطبيقية» ليست جيوبولتيكا 177
الفصل الخامس : جيوبولتيكا «اليمينيين الجدد» الأوروبيين 179
5 ـ 1 أوروبا الرايات ـ المئة ـ آلين دي بنوا 179
5 ـ 2 أوروبا من فلاديفو ستوك حتى دوبلن 182
5 ـ 3 تفكير عبر القارات يورديس فون لوهاوزين 184
5 ـ 4 «امبراطورية الختام» الأوراسية. جان بارڤوليسكو 187
5 ـ 5 المحيط الهندي طريقاً إلى السيطرة العالمية روبير ستويكيرس 189
5 ـ 6 روسيا + الإسلام = إنقاذ أوروبا كارلو تيراتشانو 190
الفصل السادس : الأوراسية الجديدة 194
6 ـ 1 الاندفاعيّة الأوراسية 194
6 ـ 2 الأوراسيون الروس الجدد 197
6 ـ 3 نحو ثنائية جديدة للقطبين 201

الباب الثالث
روسيا والمدى

الفصل الأول : Heartland 207
الفصل الثاني : مشكلة الـ Rimland 209
الفصل الثالث : تجميع الإمبراطوريّة 212
الفصل الرابع : البحار الدافئة والباردة 216

الباب الرابع
مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

الفصل الأول : استحقاقية البديل الجذري 221

الفصل الثاني : ما هي «المصالح القومية الروسيّة» 224
2 ـ 1 ليس للروس دولة الآن 224
2 ـ 2 مقولة «مشروعية ما بعد الإمبراطورية» 227
2 ـ 3 الشعب الروسي ـ مركز التصوّر الجيوبولتيكي 230
الفصل الثالث : لا معنى لروسيا بدون إمبراطورية 235
3 ـ 1 انعدام وجود «الدولة ـ الأمة» لدى الروس 235
3 ـ 2 الروس ـ شعب إمبراطورية 239
3 ـ 3 مصيدة «الدولة الجهوية» 241
3 ـ 4 نقد الآلية الحكومية السوفياتيّة 245
3 ـ 5 نقد الحكوميّة القيصريّة 251
3 ـ 6 نحو إمبراطورية أوراسيّة جديدة 256
الفصل الرابع : حدود العالم 259
4 ـ 1 اليابسة والبحر. العدو المشترك 259
4 ـ 2 المحور الغربي: موسكو ـ برلين
الإمبراطورية الأوروبية والأوراسيا 265
4 ـ 3 محور موسكو ـ طوكيو: المشروع البانآسيوي
نحو اللجنة الأوراسية الثلاثية 275
4 ـ 4 محور موسكو ـ طهران:
إمبراطورية آسيا الوسطى المشروع العروبي 286
4 ـ 5 إمبراطورية الإمبراطوريات الكثيرة 294
الفصل الخامس : مصير روسيا في الأوراسيا الإمبراطورية 297
5 ـ 1 السحر الجيوبولتيكي في الأهداف القومية 297
5 ـ 2 القوميّة الروسية ـ الديموغرافية الاتنية والإمبراطورية 301
5 ـ 3 المسألة الروسية بعد النصر القادم 306
الفصل السادس : الآفاق العسكرية للإمبراطورية 310
6 ـ 1 أفضلية القدرة النووية والعابرة للقارات 310
6 ـ 2 ما القوات المسلحة التي تحتاج روسيا العظمى إليها؟ 314

الفصل السابع : التقنية والموارد الطبيعية 319
7 ـ 1 النقص التقني 319
7 ـ 2 الموارد الطبيعية الروسية 322
الفصل الثامن : الآفاق الاقتصادية «للإمبراطورية الجديدة» 326
8 ـ 1 اقتصاد «الطريق الثالث» 326
8 ـ 2 الجهوية الاقتصادية 334
الفصل التاسع : خاتمة 339

الباب الخامس
الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا

الفصل الأول : الموضوع والمنهج 343
1 ـ 1 الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا مرتبطة بمهمتها الكونية 343
1 ـ 2 الجيوبولتيكا الداخلية والعقيدة العسكرية 344
1 ـ 3 المركز والأطراف 346
1 ـ 4 المحاور الداخلية (الأشعة الجيوبولتيكية) 349
الفصل الثاني : طريق الشمال 353
2 ـ 1 أنموذج التحليل 353
2 ـ 2 طابع الأركتيكا الروسية الجيوبولتيكي 354
2 ـ 3 **الشمال + الشمال** 358
2 ـ 4 **الشمال + المركز** 361
2 ـ 5 المسألة الفنلنديّة 364
2 ـ 6 **الشمال واللاشمال** 368
2 ـ 7 خلاصة 376
الفصل الثالث : تحدي الشرق 377
3 ـ 1 «الشرق الداخلي» (حجم المفهوم) 377
3 ـ 2 حزام «سيبيريا الروسية» (التركيب) 378
3 ـ 3 حرب خنادق في سبيل الـLenaland 386
3 ـ 4 عاصمة سيبيريا 390

الفصل الرابع : النظام الجيوبولتيكي الجديد للجنوب 392
4 ـ 1 «النظام الجيوبولتيكي الجديد» للجنوب 392
4 ـ 2 المناطق والجبال ـ الحدود 393
4 ـ 3 البلقان 397
4 ـ 4 مشكلة أوكرانيا ذات السيادة 400
4 ـ 5 بين البحر الأسود وقزوين 401
4 ـ 6 النظام الجيوبولتيكي الجديد في آسيا الوسطى 405
4 ـ 7 The fall of china 412
4 ـ 8 من البلقان إلى منشوريا 418
الفصل الخامس : تهديد الغرب 420
5 ـ 1 غَرْبان 420
5 ـ 2 تدمير «النطاق الصحي» 424
5 ـ 3 فيدرالية البلطيق 426
5 ـ 4 الكاثوليك ـ السلاف يدخلون أوروبا الوسطى 429
5 ـ 5 توحيد بيلوروسيا وروسيا الكبرى 430
5 ـ 6 اللاّتركيب الجيوبولتيكي لأوكرانيا 432
5 ـ 7 رومانيا ومولداڤيا ـ التكامل وفقاً لأي قانون؟ 438
5 ـ 8 الشرط: التربة لا الدم 440

الباب السادس
التحليل الأوراسي

الفصل الأول : جيوبولتيكا الأرثوذكسية 445
1 ـ 1 شرق المسكونية المسيحية وغربها 445
1 ـ 2 الأرثوذكسية بعد البيزنطية 448
1 ـ 3 مرحلة بطرسبرج 451
1 ـ 4 تحرّر الشعوب الأرثوذكسية الوطني 453
1 ـ 5 Megale Idea 455
1 ـ 6 (مخطط تقريبي) 456
1 ـ 7 رومانيا الكبرى 457

1 ـ 8 بلغاريا الكبرى 458
1 ـ 9 ألبانيا الأرثوذوكسية 459
1 ـ 10 اللوبّيات الجيوبولتيكية في البلدان الأرثوذوكسية 460
1 ـ 11 الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية والسوفيتيات 461
1 ـ 12 خلاصة 463
الفصل الثاني : الدولة والأرض 465
2 ـ 1 ـ الأنواع الجيوبولتيكية الثلاثة 465
2 ـ 2 إقليميّة اليمينيين واليساريين 466
2 ـ 3 المدى الكبير الجديد عولمة أم إمبراطورية 469
2 ـ 4 جيوبولتيكا روسيا 471
الفصل الثالث : المشاكل الجيوبولتيكية في الخارج القريب 476
3 ـ 1 قوانين المدى الكبير 476
3 ـ 2 Pax Americana وجيوبولتيكا العولمة 479
3 ـ 3 المفارقة الروسية. 480
3 ـ 4 تبقى روسيا «محور التاريخ» 481
3 ـ 5 Mitteleuropa والإمبراطورية الأوروبية 481
3 ـ 6 ألمانيا ـ قلب أوروبا 483
3 ـ 7 «التقرّب من أوروبا» 484
3 ـ 8 حدود «الحرية» والامتيازات المضيعة 485
3 ـ 9 «النطاق الصحي» 486
3 ـ 10 التحول من منطقة طرفية إلى مستعمرة 488
3 ـ 11 آسيا أمام الاختيار 489
3 ـ 12 الآفاق القارية «للثورة الإسلامية» 491
3 ـ 13 مصيدة «البانتوركية» 492
3 ـ 14 دولارات النفط والعولمة 493
3 ـ 15 قطبان كحدّ أدنى أو. . . «الموت» 494
الفصل الرابع : آفاق الحرب الأهلية 497
4 ـ 1 المصالح الوطنية واللوبي العولمي 497

4 ـ 2 تنويعات توزيع القوى 500
4 ـ 3 نتائج التحليل 506

الفصل الخامس : جيوبولتيكا النزاع اليوغوسلافي 510
5 ـ 1 رمزية يوغوسلافيا 510
5 ـ 2 القوى الأوروبية الثلاث 510
5 ـ 3 حقيقة الكروات 513
5 ـ 4 حقيقة الصرب 514
5 ـ 5 حقيقة المسلمين اليوغوسلاف 516
5 ـ 6 حقيقة المكدونيين 517
5 ـ 7 أولويات الحرب اليوغوسلافية 518
5 ـ 8 صربيا ـ هي روسيا 521

الفصل السادس : من الجغرافيا المقدسة إلى الجيوبولتيكا 523
6 ـ 1 الجيوبولتيكا ـ «عِلْم بَيْني». 523
6 ـ 2 البر والبحر 523
6 ـ 3 رمزية السطح الأرضي 525
6 ـ 4 الشرق والغرب في الجغرافيا المقدسة. 527
6 ـ 5 الشرق والغرب في الجيوبولتيكا المعاصرة. 529
6 ـ 6 الشمال المقدّس والجنوب المقدّس. 532
6 ـ 7 أهل الشمال. 535
6 ـ 8 أهل الجنوب. 536
6 ـ 9 الشمال والجنوب في الشرق والغرب 537
6 ـ 10 من القارات إلى ما وراء القارات 538
6 ـ 11 وهْم «الشمال الغني» 539
6 ـ 12 مفارقة «العالم الثالث» 541
6 ـ 13 دور «العالم الثاني» 543
6 ـ 14 مشروع «بعث الشمال» 545

الباب السابع
نصوص علماء الجيوبولتيكا الكلاسيكيين

هيلفورد جورج ماكيندر : المحور الجغرافي للتاريخ 551
بيوتر سافيتسكي : الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا 571
جان تيريار : الشيوعيّة فوق الإنسانيّة 581
كارل شميدت : التوتر الكوني بين الشرق والغرب والمواجهة
بين الأرض والبحر 595

الباب الثامن
بديلاً عن الخاتمة

الفصل الأول : سفر رؤيا العفويات من الجيوبولتيكا إلى فلسفة التاريخ
خواطر حول نظرية العناصر لكارل شميدت 625
1 ـ 1 العفويات الحضارية اثنتان فقط 625
1 ـ 2 ملموسية الطوفان المسكوني 627
1 ـ 3 العنصر الذي غُيّب عن الأنظار 630
1 ـ 4 الأيقونة واليابسة 632
1 ـ 5 Hostis et Amicus مُطْلقان ـ صور في الزمان والمكان 634
1 ـ 6 نوموس النار 638
المفاهيم والمصطلحات الأهم في الجيوبولتيكا 641
المدخل 659
فهرس عام 669

الكسندر

الجيو

مستقبل

ترجمة وتقديم

الدكتور عماد ح

الكسندر دوغين

أسس الجيوبوليتيكا



لتيكا.
يخها.
عملية.

تادها
يخية
ف من
شعوب،
ير إلى
صوص
ى ذلك
ب وقد
ولتيكا.
ى مبنى
سيبنى
العنف

ISBN 9959-29-217

